297.04

تجليد صالح الدقر
تلفون ٢٢٩٧٧

297.04 ;Sa16kA

سلامة، ابراهيم.

خلق ودين.

297.04
Sa16kA

J. Lib.
6 DEC 1966

J. Lib.
8 SEP 1988

JAFET LIB.
1976

297.04
Sa16kA
C.1

خُلق ودِين

دراسات اجتماعية أخلاقية دينية

تأليف

الدكتور ابراهيم سلامة

الأستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة

الطبعة الأولى

١٣٧٣ هـ — ١٩٥٤ م

حقوق الطبع محفوظة

ملتزم الطبع والنشر

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه موضوعات قصيرة ، بعضها أذيع فى الناس عن طريق المذياع ، وبعضها الآخر كتب ليكون متمما لها . أغرانى بنشرها أنها صادفت قبولا فى نفوس سامعيها ، فارتاحوا لها ، وحدثونى كثيرا فى شأنها ، ورجوا منى أن لو أتيحت لهم الفرصة لقراءتها ، ليستوعبوا ما فيها ، وليقفوا أمام ما يستحق الوقوف ، مما اشتملت عليه من فكرة ، أو أثارة فى العلم والمعرفة .

وقد قسمتها عدة أقسام :

الأول : عقائد وأفكار

وقد جمعت فى هذا القسم شيئا من النظريات الخلقية والاجتماعية ، مما اشتغل به الناس قديما وحديثا ، تحت اسم الأخلاق والاجتماع . وكان الحرص شديدا على أن نوازن بين ما قاله العلماء فى هذه الناحية ، وبين ما عندنا فى كتابنا ، مما يتصل بهذه المبادئ وهذه الأفكار ، وقد وجدنا أن الأفكار الدينية تتلاقى فى روحها وحقيقتها مع المذاهب الاجتماعية ، بل وجدنا أن الأولى هى المرجع والأساس .

الثانى : محمد رسول الله

فى هذا القسم توضيح لشخصية الرسول عليه السلام ، وتوضيح لما جاء به من المبادئ التى عاشت فى حياته ، فكوّنت الأمة العربية ، والتى سارت بعده ، فكانت هديا لمن يريد الاهتداء . كانت شخصيته عليه السلام عظيمة وفوق العظمة ، وكانت عبقريته فذّة وفوق كل العبقريات ، وكانت روحه البشرية تساير روحه القدسية ، فما يوحى إليه فى درجة من السموّ معجزة ، وما ينطق به يتسامى إلى هذا السموّ ، وهو فى حالتيه لاينطق عن الهوى ، ولا يصدر إلا عن هداية . ملأت دعوته كل نواحى نفسه ، حتى ما يفكّر فى غيرها ، ولا يفكّر إلا على هديها ، ولاقى ما لاقى فى هذه الدعوة فما ونى ولا وهن ، ولا ضعف لما أصابه فى سبيل الله وسبيل الدعوة ! نافح عنها أوّلا بنفسه وبقلبه ، وثبت عليها فما قَبِل فيها مساومة ولا انحرافا ، وجاهد ماجاهد بالنفس والقلب ، حتى رأى هوى مطاعا ، وجاهلية متبعة ، ووثنية لاتنفع ولا تشفع ، ودعوة لمن ليست له دعوة ، واستجابة لما لايعى ولا يستجيب ، والتجاء لمن ضرّه أقرب من نفعه ، ورأى أنهم يتجمعون ، ويجمعون كل بواطلهم ، ليزهقوا دعوته الحقة ، ويميتوها فى شخص صاحبها ، فكان طبيعيا أن يقابل العدوان بالعدوان ، ويدفع عن دعوته وعن نفسه ، وعمن معه ممن استبقوا الخيرات ، وإن كان لابد من السيف حكما وفيصلا ، فليكن السيف فاصلا ، ولله الأمر من قبل ومن بعد !

حارب مدافعا ، ودافع عن نفسه مضطرّا ، حتى إذا أثير النقع ، وتوسط السيف الجمع يفصل بين الناس ، رجعوا إليه بعد أن رجعوا إلى بارئهم ، وتحرّروا من أوهام فاسدة ، وخرافات مستحكمة ، فعزّت نفوسهم ، واستشعرت الكرامة ، والعزّة لله ، والذلّة فى الخضوع لغير الله ! .

كان محاربا لا يبحث عن غنيمة ، وكان مدفوعا لا يشفى باندفاعه حزازة من حزازات الجاهلية ، أو ضغينة مما تنطوى عليه النفوس البشرية ، وإنما كان يحارب ليشترى النفوس من أصحابها ، ثم يبيعها إلى الله الذى يشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة !

أخرجه قومه من وطنه مكة ، فكوّن وطنه الروحى فى المدينة ، وكان يشرف من آكامها وأعاليها على قومه يتطلع إليهم ، ويمُضُّه ما هم فيه وما هم عليه ، ثم يتطلع إلى السماء ، ليطلب لهم رشدا يرجع إليهم رشدهم . لو كان الوطن بعيدا عن الدين لهان عليه ، ولكنه ركن إبراهيم ، وكان حنيفا مسلما ! فلابد من أن ترجع إليه قداسته ، ولا بد أن تستجاب دعوة بانيه ، حتى تهوى إليه الأفئدة ، ويأتيه الناس رجالا وعلى كل ضامر من كل فجّ عميق ، ليشهدوا منافع لهم ، وليذكروا اسم الله الذى ردّده إبراهيم فى هذه الأنحاء . علم الله تقلب وجهه فى السماء ، فولاه القبلة التى يرضاها ، فقصد مكة فى عام الحديبية ، حتى إذا كان منها على مدى الصوت ومرمى السهم ، تجمعت جموع الباطل ، وعزّ عليها أن هذا الذى خرج بليل طريدا شريدا ، يدخلها فى وضح النهار فاتحا منصورا ! !

هاهم المسلمون أمام مكة مهوى الأفئدة ومناط التميمة ، وموطن الأهل والولد ، وها هى الأسرة العربية مقسمة ، بعضها فى جيش محمد ، وبعضها فى جموع المشركين ، وبين الطائفتين روضة وحفرة ، يستمتع المسلمون إلى جوار الأولى ، وينغص عليهم هذا النعيم أن من يليهم من ولدهم وذوى قرابتهم ، يتردّون فى الحفرة أو يكادون ، وأصحاب الروضة يحاولون أن يمنعوا بنيهم من التردّى ، فيعجزون . الأسى يحزّ فى نفوسهم ، والأسوة ترجعهم إلى صوابهم ، فقد كان الرسول نفسه فى مثل حالتهم ، فقيل له : (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) .

ويشاء الله أن يكون عام « الحديبية » عام نصر وفتح ، وإن لم يعمل فيه السيف عمله ، ويشاء الله أن يُظهر رسوله وصفيه ، فى مظهر السياسى المحنك والمجرّب المدرّب ، وما حُنك إلا بالشهادة ، وما دُرّب إلا على التقوى ؛ أقرّ القوم شروط الحديبية وهى مجحفة بالمسلمين ، بقدر ماهى فى منفعة المشركين ، إلا أن الآية قد انعكست ، فكان المغلوب غالبا ، وكان الغالب ضعيفا مستخذيا يطلب أن يمحو بريقه الذى جفّ شروطا هو الذى أملاها يظن فيها العزّة والغَلَبة ! !

ولم يطلبوا تعديل معاهدة الحديبية فقط ، ولكنهم أخلوا بشروطها وخرقوها ، فدخل عليه السلام مكة بعد ذلك والقوم من حوله يرددون نشيد الوعد الحقّ : (لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بالحَقّ لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ إنْ شاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ ، فعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلكَ فَتْحا قَرِيبا) .

استمرّ المنافح المجاهد يعمل بكلتا اليدين : يعمل بأحدى يديه فى الخير وفى سبله ، ويمسك السيف بالأخرى متى كان لابد من الاستمساك به . أما حقول الخير التى خددها بيمن يده ، فقد أمرعت جنباتها ، وأترعت مسايلها ، فكان نمير الهداية يسيل فوق الأرض بالنماء ، وسيب الدعوة يتجمع فى مسارب تحت الأرض ، حتى ضرب الماء جدران فارس وأسوار الروم ؛ كل هذا و محمد يزرع ويحصد ، وصحبه يزرعون ويحصدون ، زرعا وصفه « الإنجيل » بأنه استحصد واستغلظ واستوى على سوقه يعجب الزرّاع !

وأخيرا ينصت الرسول إلى الصوت الذى يعرفه يناديه هذه المرّة ، يقول الله : (اليَومَ أكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وأتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسْلامَ دِيناً) فيعلم أن الحقول أثمرت وآتت أكلها ، وما على الزارعين

بعده إلا أن يعملوا عمله، ويستقوا من المعين الذى كان يستقى منه ، وهو معين لاينضُب، ولا يضلّ فى سبيل الوصول إليه سالكه، عندئذ انفرجت أصابعه عن الفأس، فوقع من يد هذا الزارع الذى استنبت الصخر، وسلك الماء ينابيع فى ذلك المهمه القفر . نضح جبينه الشريف بالعرق ، فجففه بيده ، ومسح بها وجهه الشريف ، فشمّ فيها رائحة النعيم ، فبلّل شفتيه بكلمة التوحيد ، وقال « اللَّهُمَّ فاشْهَدْ ، اللَّهُمَّ قَدْ بَلَّغْتُ »

الثالث : نفسيات يحللها القرآن

وفى هذا القسم عرضنا للآيات التى تعرّضت لنفسية الناس أفرادا وجماعات ، تشرح ما انطوت عليه من خبث وفساد طوية ، وتحلل ما أغلقت عليه من شرّ مستأصل ، وظلم دفين . يتعرّض القرآن للنفس الأمّارة ، والنفس اللوّامة ، والنفس المطمئنة، فى الأفراد والجماعات على السواء، ويقرّر أن الأولى لاتَصْدُر إلا عن سوء، ولا تأمر إلا بالسوء ، وأنها ترجع فى تصرّفاتها إلى استشارة أسرتها، أسرة الشيطان الرجيم ، الشيطان الخنّاس . هذه النفس الأمّارة تظهر فى مظهرين : مظهر مستتر ، ومظهر بارز .فى المظهر الأول يسمع صاحب هذه النفس وسوسة كوسوسة الحلىّ ، وقرقرة كقرقرة الدجاجة ، ويعى هذه الوسوسة وهذه القرقرة فى أوامر شريرة، تحاول أن تصرف الإنسان عن الله ، لتنصرف به إلى الجحيم . وتعيش هذه الوساوس مستترة فى نفس صاحبها، استتار الشيطان الذى يوسوس بها، فيكون الإنسان إنسيا فى زيه وشكله ، وشيطانا مريدا فى تصرّفاته وعمله ! وفى المظهر الثانى يكون الإنسان نفسه شيطانا، وأشدّ على نفسه وعلى الناس من الشيطان نفسه ، فالشيطان وَسواس ولكنه خنّاس ، يرجع إذا استعذت بالله من شروره ؛ أما شيطان الإنس الذى لايفكر إلا فى الشرّ، ولا ينزع إلا إلى الشرّ ، فالبلاء به أكبر، والمصيبة به أعظم !

ويصف القرآن النفس « اللوّامة » بأنها نفس طيبة، ترى الخير خيرا والشرّ شرّا وتحاول جهدها أن تميل بصاحبها إلى الخير، بل تحاول أن تبدّل من الشرّ، حتى يتحوّل إلى ناحية الخير فيهُم صاحبها بالسيئة، ولكنه يرى عناصر الشرّ فيها، فيرجع عنها خوفا من الله، وفرقا من وعيده.

لذلك كانت هذه النفس اللوّامة من النفوس التى وصفها القرآن فى موضع القسم، إلى جانب العظيم من خلقه ومخلوقاته.

أما النفس الراضية المطمئنة، فهى منه، وقد ناداها أن ترجع إليه: (يأيَّتُها النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِى إلى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فادْخُلِى فِ عِبادِى وَادْخُلِى جَنَّتِى).

تحلل الآيات النفسيات المختلفة، وتصف الإنسان بأنه ظلوم بطبعه، جهول فى حَيْفه، يحمِّل نفسه ما لايطيق، فيظلم نفسه ويظلم الناس، يجهل عليهم بالتعدّى والأذى، كما يجهل على نفسه بادّعاء العلم والمعرفة، فهو ظالم مبطل، وهو مجادل عنيف، يجادل حتى فى الله، بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، وكلها وسائل للمعرفة، فلا وسيلة لها إلا بالعلم، وإلا بتوفيق من الله، وإلا بتوقيف من كتابات أو مصدر للمعرفة، والإنسان مع هذا كله ظلوم جهول، ومندفع عجول، ذلك طبعه، وتلك شيمته إلا من هَدَى الله.

والإنسان قلق متبرّم: إذا مسه الخير اعتقد أنه له، وأنه أوتيه على علم أحرزه عن جدارة واستحقاق، حتى إذا مسه الشرّ كان جهولا يئوسا، لايعرف كيف يتدبر، حتى يدفع عن نفسه الشرّ، بل تندفع به نفسه القلقة المتبرّمة إلى اليأس والقنوط من رحمة الله، وليس بعد هذا اليأس إلا أن يخرج الإنسان عن نفسه وإيمانه، فيرهق نفسه، ويستعجل أجله!

والجماعات كالإنسان: إذا أصابهم الخير اطمأنوا به، وإذا أصابهم الشرّ

فزعوا منه، وهم إذا حزبهم الأمر رفعوا أيديهم إلى السماء، ورفعوا عقيرتهم بالدعاء: (لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ)، وينجيهم الله من هذه، ومن تلك، ومن هؤلاء، والناس هم الناس! وسبحان العليم الخبير بنفوسهم!

عرضنا فى هذا القسم نماذج من هذه النفوس، وعرضنا كيف تعرّض القرآن الكريم لهدايتها، وكيف بيّن لها «النجْدين» واضحين فى المعالم والغايات، وكيف ألهم كل نفس فُجورَها وتقواها، وطلب من الإنسان أن يطهّر نفسه وينميها فى ناحية الخير، ولكنّ الإنسان يدسّ نفسه، ويخفى عنها معالم الخير وطرائقه، عليا بها وبمنتهاها!

الرابع: عبر الأولين

اقتصرنا فى عرض هذه العِبَر على ما وقف عنده القرآن من القصص، ولم نذهب مع ما ذهب إليه القصاصون الذين سمحوا لأنفسهم أن يحشروا فى ثنايا تفسير الآيات، ما لايتفق مع جلال العظة والعبرة المقصودتين فى القصص!

ولم يفتنا أن نتعرّض للتكرار فى القصص لبيان حكمته. فليس هذا التكرار من النوع المخلّ بالنظم والفصاحة، بل هو عنوان على هذا السموّ البلاغى الذى لايستطيعه البشر: فالقصة الواحدة ترد فى عدّة سور، وفى عدة آيات، قد تطول وقد تقصر، فطولها مما تدعو إليه الحاجة، وقصرها مما يقتضيه الإيجاز، والطول نفسه محسوب فى باب الإيجاز متى كان خاليا من الإقحام والزيادة، فهو إطناب لا تطويل، كما يقول علماء البلاغة. والآيات المكررة فى القصص، متغايرة فى الإيراد والتصوير، فتورَد هنا فى صورة، وتورد هناك فى صورة أخرى، والعبارة هنا غير العبارة هناك، والأسلوب هنا غير الأسلوب هناك، وفى هذا كله يتجلى الإعجاز الذى لايستطيعه الناس ولو تجمعوا عليه، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا. على أن التكرار لايجد سببه

فى الصورة فحسب ، ولا فى الأسلوب فقط ، وإنما يجد علته فى المعانى أيضا ؛ وتتكافأ كل الأفكار فى كل السور ، وتتوافر جميع المعانى فى جميع السور على القصة الواحدة لتخرج آخر الأمر كاملة مستوعبة المعانى والأفكار .

خذ قصة « موسى » مع « فرعون » مثلا ، تجد أن بعض السور تتناول حالة موسى فى ولادته ، وتصف فرعون بين كهنته يحذّرونه العاقبة من ولد ينبت فى هذه البلاد ، فيستولى على موضع قدميه ، وتعلم أمّ موسى الأمر فتضعه ، ثم تضعه فى تابوت ، وتلقى به فى عناية الله وحياطته ، ويلتقطه « فرعون » ولدا ، ليكون له فيما بعد عدوّا وحزَنا ! ! وبعض السور تعنى بقصة الخروج من مصر واجتياز البحر الأحمر ؛ وبعضها الآخر يصف المفاوضة بين موسى وأخيه من ناحية ، وبينهما وبين فرعون من ناحية أخرى ، وبعضها الآخر يصف السحر وأفاعيله ، ويصف السحرة وإيمانهم ، وبعضها الآخر يصف رحلته فى مدين ، وما كان بينه وبين شعيب وبناته . . . فالقصة الواحدة موزّعة المعانى ، موزّعة الأسلوب ، موزعة التصوير ، وكل هذه النواحى تتحد على إخراجها قوية تامّة سليمة معجزة ! .

هذا إلى ما فى التكرار من الموعظة والإلحاح بها ، والضغط عليها ، حتى تقرّ فى النفوس ، ومتى قرّت ، غاصت إلى أعماق القلوب ، لتفتش عن مكان الإيمان ، فتلجأ إليه ! .

ولقد علّم الله رسوله عليه السلام فيما علمه ، ألا يناقش المشركين ولا غيرهم من أهل الكتاب فى هذا القصص (فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا ، وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا) ، وحذره أن يجاريهم فيما كانوا يعقدون له المجالس من لهو الحديث ، يشترون بآيات الله ثمنا قليلا ، فإذا قالوا فى « أهل الكهف » بأنهم ثلاثة رابعهم كلبهم ، أو أربعة خامسهم كلبهم ، أو أكثر من ذلك أو أقلّ ، فقل (اللهُ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ) ، وإذا سألوا : كم لبث « أهل الكهف » فى كهفهم : ثلاثمائة سنين أو ما يقلّ أو ما يزيد ؟ فقل (اللهُ أَعْلَمُ بِمَا

لَبِثُوا ، لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ، أَبْصِرْ بِهِ وأَسْمِعْ ، ما لَهُمْ مِنْ دونِهِ مِنْ وَلِيٍّ ، وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا) .

عرضنا لنماذج من هذه القصص واقفين عند الحدود التى وقف عندها القرآن ، والتى وَقَفنا عندها ، غير مسترسلين ولا ذاهبين مع بعض كتب التفسير ، التى لاتخلو أحيانا مما لانتحرّج من تسميته بالأوهام والخرافات ، تعالى كتاب الله وكلام الله عن ذلك علوّا كبيرا !

الخامس : من هدى الآيات

هذا القسم خُصّص للتفسير ، وطريقتنا فيه تجافى كل الطرق المعروفة ، فما نأخذ الكلمات اللغوية كلمة كلمة ، بل تجد كل كلمة شرحها فى العبارة والسياق ، إلا إذا ترتب على شرح الكلمات فى المعانى اللغوية التى تعطيها تغيير فى المعنى ، فعندئذ نشرح الكلمة ، ولكن فى سياقها أيضا .

وقد تعرّضنا فيه لأسباب النزول أحيانا ، وإن كان القرآن الكريم لايراعى فى عموم الهداية به أسباب النزول الخاصة ، فالأمر كما يقول الأصوليون : « العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب » ، ولكن السبب يبين موضع الآية ، ومكان نزولها هل كان فى مكة ، أو فى المدينة ، أو بين مكة والمدينة . فالقرآن الذى نزل بمكة له خصائصه وسماته ، وكذلك الذى نزل بالمدينة . فالأول فيه استدلال حسىّ ، واستدلال مادىّ ، لأن القوم قريبو عهد با لإسلام ، فلا بد لهم من التصوير الحسى الذى يضرب على أسماعهم وأبصارهم ، ولا بد لهم من التمثيل الحسى الذى يجدونه فى بيئتهم وفى وسطهم ، وبين أيديهم ومدار أعينهم ، ومجال مضطربهم الجغرافى . تأخذهم الآيات قليلا قليلا ، تطوّف بهم على السموات وما فيها من كواكب وأجرام ونظام فى مدارات الأفلاك ، وأحداث مترتبة على تلاقى هذه المدارات . ثم تطلب

إليهم أن ينظروا إلى السحاب العارض ، والسحاب المقيم ، وما يمرّ به الأول ، وما ينتظر من الثانى . وبعد أن ترجع أبصارهم خاسئة حسيرة، من كثرة التطلع الذى تدمع له العيون ، تطلب منهم الآيات أن ينظروا إلى الأرض وإلى ما تحت أقدامهم ، فهى جدب ميتة ، ثم هى بعد المطر معشوشبة مخضرّة ، ثم هى أزواج ، ثم تتلاءم الأزواج وتتمايل ، فيكون منها النماء والمنظر البهيج ؛ ثم تنتقل الآيات بعد ذلك فتسمى هذا الخصب حياة ، وهذا الإنتاج النامى فيه كل متعة الحياة ، وتسمى الجدب مواتا أو موْتا ، فالحياة قد حييت وكانت ميتة ، والأرض أصبحت بهيجة وكانت بالأمس القريب قفرا مجدبا ؛ وبعد أن تتجمع فى العين والسمع كل هذه الحياة البهيجة الضاحكة ، تنتقل إلى النفس وإلى العقل ، ليقرّرا أن الإنسان كالنبات ، وأنه إذا مات ، وأجدب ربعه ، وخلا منزله ، كانت له حياة أخرى أكثر حيوية ، وأمتع بهجة ؛ فالحياة الأخرى كالحياة الأولى فى الخلق ، كلاهما وجود بعد عدم ، وإخصاب بعد إقفار ، ونشر بعد طىّ ، وخروج بعد دخول ، وكذلك النشور ، وكذلك الخروج !

ثم هذه الحياة الأولى حائلة زائلة ، فهى كالزرع إذا اخضرّ اصفرّ ، وإذا أصفر يبس ، وإذا يبس كان هشيما ، وكان حصيدا ، والهشيم عرضة للرياح تذروه هنا وهناك ، فلا ينبغى أن يُركن إليها . بل يأخذ المرء نصيبه منها ؛ والحصاد الحقيق فى الحياة الأخرى حيث النعيم المقيم ، والظلّ الظليل ، والأُكُل الدائم ، هذه الحياة الأخرى الموعودة ليست لكل الناس ، وإنما أعدت للمتقين . وتلك العاقبة المحمودة لا يحمدها كل الناس ، وإنما العاقبة عند ربك للمتقين ، فالآيات المكية تعرض لهذه الحياة ولتلك ، فإن أعرضوا انقلبت الحياة صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود التى يعرفونها ، ونقل إليهم القصاص وأهل الكتاب أخبارها .

فإذا انتقل الناس بعد الهجرة إلى المدينة ، وجدت القرآن المدنى يقرّر مبادئ اجتماعية واقتصادية لا يعرفونها من قبل ، وليس لهم بها عهد من معرفة أو مزاولة .

ووجدت هناك أهل الكتاب ، وأهل الديانتين السابقتين على الإسلام ، ولا بد لهذا التلاقى من احتكاك ، تكون أداته أحيانا المناقشة والجدل والحوار ، وتكون أداته أحيانا أخرى الأدلة والحجج والبراهين ، فمنهم المجادل بعلم ، ومنهم المجادل بغير علم . ومنهم من يقول هذا فى كتابى ، فيردّ عليه الرسول بأن ما جئتُ به مصدِّق لما بين يديه من الكتب ، وما كنت بدْعا من الرسل الذين تقدمونى . ويجد الدين الجديد أهل الكتابين قبله يختلفان إلى حد التقاتل والإحراق ، فيعمل على التسوية بينهما ، ويسمى كل من يؤمن بكتابه الخاص مؤمنا ومسلما ؛ وهكذا يتجمع من هذه الآراء المختلفة فى الوسائل المتحدة فى المقصد الأعلى ، وهو الله ووحدانيته ، نِتاجٌ علمىّ كبير ، ظهر أكثره فى المدنية وشاع فى الإنسانية المعروفة فى هذا الزمن ، وفى الإنسانيات التى نسلت منها .

والتفسير الذى عالجناه ، هو تفسير بعض آيات من سور مختلفة ، وتفسير لبعض آيات تفتتح بها السور . وقد عرضناها هنا وهناك عرضا سهلا ، فيه وحدة الآيات مبيَّنة جلية ، وفيه المناسبات ظاهرة واضحة ؛ فهو إن شئت نموذج للتفسير النافع ، وهو نموذج مبسط ، وإذا تتبعه القارئ فى الآيات التى فسرناها ، أدرك بقيتها مما لانتعرّض له ؛ فالقارئ يعيش فى هذا الجوّ الروحى وقتا أو بعض وقت ، ليدرك فى نعومة هذا الجوّ الذى يستروح النعيم من العقيدة ، النواحى التى تتعرّض لها كل الآيات فى يسر وسهولة .

وليس بتفسيرٍ هذا التفسير الذى يعرض للمعانى الظاهرة ، وللألفاظ الصعبة يسهِّلها حتى تظاهر هذه المعانى ، من غير أن يتعرّض إلى ما تحمله الآيات فى سياقها ونظمها ، من معان أخر تدقّ على الفهم ، وتتفلّت منه ، إن لم يكشف عنها بضوء من الهداية ، وإن لم يرسل وراءها من نور العقل ما يجلّيها . لذلك لم نترك هذه

الإشارات الدالة فى الآيات على نظر علمى ، أو فكرة تناولها العلماء والاجتماعيون فيما بعد ، فوجدوا فيها أساسا لنظرياتهم ، أو مبدأ لنظرهم العلمى . ذلك هو واجبنا نحن أصحاب « الكتاب »، نكشف عما فيه من نظر وعلم ، حتى يمكننا أن نقول : إن « كتابنا » ينطق عليهم بالحقّ ، وإن كتابنا لم يفرّط فى شىء من أصول التفكير ، ومبادئ التعمير .

إنّا لا ندّعى — كما يدّعى الكثيرون — أن كتاب الله مجمع للنظريات العلمية والفلسفية ، فليس « الكتاب » كتاب جغرافيا أو طبيعة أو فلك ، وإلا انتقلنا به من الناحية القلبية الإيمانية ، إلى ناحية العقل المزلزل للعقائد ، بل للتفكير نفسه : إن النظرية من النظريات العلمية أو الفلسفية تعيش اليوم فى قوّة وسلطان ، وتبطل غدا فى قوّة وسلطان ، إذا أتى صاحب نظرية جديدة ، أو صاحب فكرة جديدة ، بما يناهض أو يناقض النظرية الأولى ، أو الفكرة الأولى ؛ وإذن يتعرّض « الكتاب » للتبديل والمسخ اللذين وقعت فيهما وفى آثارهما الأمم السالفة . إن كل ما يمكننا أن نقرّره أن « الكتاب » الكريم لم يفرّط فى أثنائه من شىء ، فهو يتعرّض لكل فكرة ، ولكل نظر ، ولكنه يعرضهما عرضا مبسطا ، ويثير لهما الحواس والقلب ، وكل ما فى الإنسان من عقل وإدراك ؛ وعلى الإنسان بعد ذلك أن يعمل كل هذه القوى العقلية ، حتى يصل إلى الفكرة الصحيحة فى الموضوع ، فإذا أقرّها العلمُ بعد ذلك فبها ونعمت ، وإلا بقى لنا القرآن فى سموّه ، وفى منزلته السماوية ، حتى يكدّ العقل نفسه ، أو حتى يعرف العقل نفسه فيعرف ربه ؛ والعقل لم يؤت — باعترافه وبتقرير الدين عنه — من العلم إلا شيئا قليلا !

وقد عالجنا هذا الموضوع فى توسع فيما كتبناه فى هذا الكتاب تحت اسم « منطق العقل ومنطق الدين » .

ونعود فنقرّر أن كتابنا هذا نافع للخاصة ، لأنه يثير دراسات علمية جديدة كانت إلى الآن موقوفة ، والمجال فسيح لأعمال الأقلام فيها ، وهو نافع لغير الخاصة من طلاب المعرفة ، فسيجدون فيه أن « الكتاب » مصدر للحقائق العلمية ، وهو مصدر للخلق والسلوك ؛ وكل القوانين الوضعية فى التشريع والأخلاق تجد فيه مصدرا للدراسة ، وأصلا للتفكير ، ونقطة ابتداء وانتهاء لكل ما انتهى إليه العقل الإنسانى إلى الآن .

والكتاب على هذا النحو والترتيب يقرؤه المسلم فيؤمن ، ويقرؤه المؤمن فيزداد إيمانا . ويقرؤه غير المسلم فيجد فيه عقيدته ، بل يجد فيه أفكارا صالحة لأن يبحث فيها كل عقل ، وآراء صالحة لأن يسلّم بها كل تفكير ؛ فما جاء به الدين الإسلامى يقرّ ويُقرّر ما جاءت به الأديان قبله ، ويدافع عما فى هذه الأديان من مأثور صحيح لم ينله المسخ ، ولم تعمل فيه يد الإنسان ، فهو ينادى أهل الكتاب أن يتبعوا ما أُنزل إليهم ، وألا يغلوا فيه ؛ إنه يناديهم إلى كلمة سواء بينهم وبين غيرهم أن يكونوا جميعا لله ، وأن يحرّروا أنفسهم وعقولهم مما يغريها بالتوجه لغير الله ، وهو يعترف بأن فى أهل الكتاب أمة مقتصدة ، لايعرفون الغلو فى الدين ، ولا التساهل فى أمر الله .

(قُلْ يا أَهْلَ الكِتابِ تَعالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وبَيْنَكُمْ ألاَّ نَعْبُدَ إلاَّ اللهَ ، وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئا ، وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضًا أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ ، فإنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأنَّا مُسْلِمُونَ) .

العلاقة بين الخلق والدين

الخلق «هو القاعدة أو القواعد من السلوك، يلتزمها الإنسان الذى يعيش فى جماعة». وهو تعريف يعتز به الاجتماعيون، الذين يرون أن الجماعة نفسها هى التى وضعت قواعد لسلوك خاصّ تسير عليه، وتضمن لنفسها البقاء متى حرصت على السير نزولا على هذه القواعد. فعندهم أن الجماعة هى كل شئ، وأن الفرد ليس بشىء فى هذه الناحية السلوكية فى الأقل، والإنسان الذى يعيش فى شاهق جبل، كما يتصوّره الفرديون تصوّرا، ليس له خُلُق، ولا يسمى سلوكه خلقا. إن الخلق التزام بين شخص وآخر، أو هو عقد والتزام بين شخص وآخرين، فلستُ خلقيا إلا فى حدود اتصالاتى الكثيرة المتعددة المتشابكة فيما بينى وبين الآخرين؛ أما السلوك الفردى بمعناه المطلق، فغير موجود، ومن ثمّ لايتصف صاحبه بالخلق، فعند الاجتماعيين ـ وبخاصة ما تدّعيه مدرستهم القديمة ـ أن الإنسان منذ وُجِد وُجِد فى جماعة، وعرف هذه الجماعة التى عاش فيها، وسلك مع أفرادها سبيلا أو سبلا للوصول إلى صون الجماعة التى يتصل بها، والتى عرف نفسه فردا ولكن فى مجموعها و بين أفرادها.

هذا التعريف ـ كما ترى ـ يُرضِى الاجتماعيين، ولكنه لايرضى النفسيين الذين يرون أن الإنسان أصل تدور عليه الإنسانية، وأنه فرد يتكرّر حتى يكوّن الجماعة، فإذا أهمل هذا الأصل ابتداء، أهملت الجماعة التى يخشى على مركباتها وأجزائها، وإذا فسدت هذه الأجزاء، فسد الكل معها. وهو لايرضى جماعة «علم النفس الاجتماعى» الذين يرون أن الجماعة ليست مجموعة أفراد كالمجموعة الرياضية التى تتكوّن من آحاد وعشرات ومئات، ففى التكتل الاجتماعى شىء أجلّ من ذلك وأكبر، فالجماعة مؤلفة من أفراد حقيقة، ولكنّ نهايتها بعد تجمع الأفراد تشبه التركيب

الكيميائى فى حالته النهائية . فكل تركيب كيمياوى مؤلف من أجزاء وعناصر ، ولكل جزء على حدته خصائصه ومميزاته ، فإذا تضامّت هذه الأجزاء فى مجموعة كبيرة ، فقد كل جزء شيئا من خاصته ؛ ووُجد فى التركيب النهائى من الخصائص ما ليس موجودا فى خصائص المفردات والأجزاء .

فالجماعة إذن ، ليست المركب العددى الأخير ، وإنما هى المزيج الأخير المؤلف من عناصر مختلفة . وإذن ، لابد لنا من احترام السلوك الفردى وتحديده وتهذيبه ، حتى نحصل أخيرا على مزيج مركب من عناصر متآلفة ، أو قابلة للتآلف على الأقل ، حتى تصبح مهمة الأخلاق مهمة مزدوجة ، تعنى بالفرد ، وتعنى بالجماعة ؛ أو بعبارة أدقّ ، تعنى بالفرد الذى يعيش فى جماعة .

فأنت ترى أن التعريف الأوّل صحيح ، وإنما ينقصه التفسير العلمى الذى قرّره « علم النفس الاجتماعى » .

لانريد أن ندخل فى جدل طويل عريض بين هذه المدارس الثلاث :

المدرسة الاجتماعية ، والمدرسة النفسية ، ومدرسة علم النفس الاجتماعى .

فلهذه المدارس بحوث خاصة ، هى أحقّ بها وأملك ، وإنما الذى نريد أن نقف أمامه ، مردّدين ما تضطرب به نفوسنا من أسئلة عديدة ، شىء آخر وراء ذلك . إنا لانملك أنفسنا حينما نسمع « قاعدة السلوك » أو « قواعد السلوك » من أن نسأل الأسئلة الآتية :

هذه القاعدة من السلوك ، مَن وضعها ؟ وهذه القواعد من السلوك ، مَن واضعها ؟ هل وضعتها الجماعة نفسها لنفسها ؟ أو هل وضعها عاقل أو حكيم فى الجماعة ليُلزم بها قومه وقبيله ؟ ثم من أين جاءت الحكمة للحكيم ؟ وممّ استمد هذه الحكمة أولا ، ليشيعها فى الناس ثانيا ؟ !

هذه هى الأسئلة التى تتردد فى نفس كل باحث فى الموضوع يريد أن يقف على

حقيقة الأمر فيه . والإجابة عن هذه الأسئلة وحدها يغنى عن كل بحث نظرى يستند إلى فكرة ، وعن كل بحث تصديقى يستند إلى عقيدة .

إن كل بحث من هذا القبيل ، يتعلق بسلوك الإنسان ، وسلوك الإنسانية ، لانستطيع أن نتصوّر له حلاّ ، أو نتعرّض له بحلّ ، إلا إذا رجعنا إلى الإنسانية الأولى نفسها ، لالنعلم كيف كانت تعيش ، ولكن لنعرف كيف كان سلوكها فى مجموعها وفى أفرادها . وإذن لا بد من الرجوع إلى القبيل الأوّل ، وإلى القبائل الأولى ، لنعرف كيف استتبّ الأمر فيها ، وكيف عاشت بعيدة عن المناحرة التى تقضى بها « غريزة المقاتلة » .

إن البحث الممتع الذى كتبه « فريزر » بعنوان « أصل الأسرة والقبيل » [1] من البحوث التى تمكننا من الوقوف على شىء صحيح فيما نحن بصدده .

يقرّر هذا العالم أن الأمم المتوغلة فى البدائية الأولى لم تعش من غير سلوك ، ولا من غير قواعد تسيِّر على مقتضاها هذا السلوك : فعندهم مبادئ أربعة ، هى أصول الأخلاق وأمهاتها :

الأول : منع القتل فى القبيلة الواحدة

فمن قتل فردا من أفراد القبيلة صغيرا أو كبيرا ، ذكرا أو أنثى ، هُدّد بالانتقام من شبيهه الذى لابد أن يعود فى أىّ شكل من الأشكال ، حيوانا أو إنسانا ، لايهدّد القاتل وحده ، ولكن ليهدّد القبيلة كلها ، فهذا الشبيه ، أوهذا « العفريت » ، أو هذه « الهامة » كما كانت تسميها العرب ، هو العقاب الملازم الذى لايجد القاتل منه مفرًّا ولا مهربا ، وهو لابدّ مهدده يوما ما ، أو ليلة ما ، يتعقبه ساعة من ليل أو نهار ، وتنتقم الروح لصاحبها شرّ انتقام ، وتصبّ الجوائح صبًّا على القبيلة التى خرج منها القاتل .

(١) L'origine de la famille ef du Clan.

الثانى : منع السفاح

فعلاقة الرجل بالمرأة ، لابد لها من حفل كبير ، تجتمع فيه أسرة الزوجة وأسرة الزوج ، يتلو فيه ساحر القبيلة عبارات يتمتم بها ، ويتمتمون معه ترديدا وترتيلا . ويترتب على هذه العلاقة نقل شيء من ملكية الزوج إلى زوجته ، وبالعكس ؛ وكل علاقة تتمّ بغير هذه الطقوس ، ومن غير مشاهدة هذا الحفل ، تعتبر سفاحا ، وهى جريمة عقوبتها أن تهدّد القبيلة كلها فى كيانها ، فتنزل بها الجوائح من رعود وبروق ، وصواعق ، ورياح لافحة ، وسموم قاتلة ، تأتى على الزرع والضرع . ويقرّر « فريزر » أن هذه الأفاعيل الطبيعية ربما تجرى على سَنَنِها غير عابئة بأسبابها ، ولكنه يقرّر أيضا أن الغالب أن يكون فى القبيلة جريمة مستترة من هذا النوع ، ومن عجيب الأمر ، أنهم إذا وقفوا على المجرم — سواء أكان مجرما حقيقيا أم متهما فقط — انقطع السيل ، ودرّ الضرع ، وأخصبت الأرض ، وانقطعت الجوائح ؛ فمن هذه العلاقة التى تكاد تكون طبيعية بين العقوبة والجريمة ، تكوّن هذا المبدأ من السلوك فمنع السفاح .

الثالث : منع السرقة

فى هذه القبائل لايتعدّى أحد على ما فى يد غيره ، ولا يختلس ، خوف العقوبة المنتظرة التى تهدّد القبيلة كلها .

وقد وقفنا « فريزر » و « دركيم » وغيرهما — من الذين يعنون بهذه الدراسات فى الإنسانية البدائية — على ما يسمونه « تابو » أو « حرز » ، وهو علامة من العلامات يضعها الرجل البدائى على منزله ، أو على حقله ، متى رآها السارق ، عرف أن هذا البيت أو الحقل ، فيه شيء من « القداسة » وأنه لا يُمَسّ ، ومن يتجرأ فيمسه أو يأخذ منه شيئا يتعرّض للتهلكة ، وتتعرّض معه القبيلة !

الرابع : حرمة الحاكم

وهذه أيضا مكفولة بشيء من القداسة ، يضفيها الوهم البدائى على الحاكم والحكام ، فيعتقد البدائيون أن حكامهم مقدسون لايخطئون ، ولا ينالهم الخطأ ، ولهم اتصال مباشر بالقدسية التى تقدسها القبيلة . فالحاكم صديق السحرة ، أو هو منهم . ولعل من هذا ، بل هو منه قطعا ، أن الفراعنة كانوا يقدمون السحرة والكهنة على كل الطبقات ، وأن حاشية فرعون ملك مصر هم السحرة ، وهو حينما توقع الخوف على ملكه من موسى ، استنجد السحرة ! وهذا التقديس للحاكم جعله فى مكانة لاتنال : لايؤكل فى صحافه ، ولا يمشى فى ظله ، أو فى ظل حاشيته ، فالمساس حتى للظل ، موجب للجائحة والتهلكة .

« وفريزر » وغيره ، يرون أن فى هذه القواعد الأربع ، المبادئ الأولى للسلوك فى الإنسانية . وعن هؤلاء البدائيين أخذت الحضارة الأخلاقية مبادئ سلوكها ، قبل ظهور الأديان الصحيحة .

وقبل أن نناقش هذه المبادئ المناقشة التى توصلنا إلى ما ننتظره من النتائج ، نقرّر هنا أمورا :

الأول : أن الأديان الصحيحة أقرّت هذه المبادئ التى يقدر الاجتماعيون أنها من نزع الفطرة ، ودفع الغريزة . فالإسلام مثلا يحرّم السفاح ، والسرقة ، والقتل ، ويعطى الحاكم الذى يحكم بما أنزل الله حقه من الطاعة والقبول ، ويقرن طاعة هذا الحاكم بطاعة الله ورسوله ؛ ولا عجب أن يقرّ الإسلام ما كانت عليه الإنسانية الأولى ، فهو دين الفطرة ، وقد جاء ليحدّد لهذه الفطرة سبيلها إلى بارئها تحديدا قريبا ، يرتفع بها إلى ربها راضية مطمئنة .

الثانى : أن الرسول عليه السلام جاء ليتمم مكارم الأخلاق ، فما كان فى النفس

الإنسانية من خير أقرّه ، وما كان من شرّ نفّر منه ، وأبعد عنه ، والإنسان مع الإنسانية المشتقة منه مخلوق ومعه كل الاستعداد للخير والشرّ ، بل الاستعداد للخير هو الأصل ؛ « فكل ابن آدم يولد على الفطرة » السليمة الطيبة التى تسلمه إلى الإسلام ، وإلى الاستسلام لغرائزه الخيّرة ، وأبَواه أو المجتمع يؤثر فى هذه الفطرة وهذا الاستعداد ، التأثير الذى يريد .

الثالث : أن الجوائح أو العقاب الجماعى الذى يصيب القبيلة من أجل ذنب اقترفه فاجر أو ماجن ، عقاب أقرّه الإسلام « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاتُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خاصَّةً » . على أن الإسلام رسم خطة التطور للمسئولية الجنائية ، فأرجعها عن جماعيتها إلى الفردية : « وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » ، « وكُلَّ إنْسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ » ، « وأَنْ لَيْسَ لِلإنْسانِ إلاَّ ما سَعَى ، وأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الجَزَاءَ الأَوْفَى » .

ومع ذلك ، فالفاحص المدقق فى آيات الله ، وأحكام الكتاب يستطيع — إذا أعمل فهمه ، وطلب هدى الله لما يفهم — أن يُرجع المسئولية الجماعية إلى مسئولية فردية ، أخذا من قول الله تعالى شأنه ، وعزّت حكمته : « كانُوا لايَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ » فالأمة التى تطلق المجرم وهو فرد ، إنما تطلق مثلا سيئا فى الناس ، لتسير به القدوة ، فيشيع فى الناس جريمة عامة . وإذن ، فالأمة التى تركت المجرم بلا عقاب ، أو تسترت على المجرم حتى أفلت من العقاب ، أمة آثمة ، وكل فرد منها آثم ، ومتى قصرت الأمة الآمرة بالمعروف ، والناهية عن المنكر ، فيما كلفته ، فقد عرّضت الأمة جميعها للعقاب الشامل المبيد .

فالمسئولية الفردية فى القرآن هى المقرّرة ، ومردّ المسئولية الجماعية إلى المسئولية الفردية ، حتى يكون كل فرد فى الأمة سائلا ومسئولا ، هو مسئول عن نفسه ، ومسئول عن غيره ، وسائل عن نفسه ، وسائل عن غيره ، فتقصير الأمة جميعها ،

يستوجب العذاب الشامل ، ويكون العذاب الشامل هنا مساويا للعقاب الفردىّ ، فما دام كل فرد مقصرا ، يكون كل فرد مجرما !

ولنرجع إلى ما نحن فيه ، لنتبين مصدر هذا المنع ، فهو كل ما يهمنا فى الأمر . رأينا أن أساس المنع فى الأمم البدائية أمران : الساحر ، وبعده الكاهن ، وخوف الجوائح .

أما الأول فهو شيخ القبيلة ، وهو عرّافها ، وهو الذى يعرف أفاعيل الطبيعة ، ويعرف مواقيتها ، وهو الذى يتصل بهذه الطبيعة اتصالا مباشرا ؛ فالساحر قبل أن تظهر الديانات الصحيحة ، هو كل شىء فى القبيل ، وهو الواسطة بينها وبين القوة المغيّبة ، وتلك هى سنده الذى يستند إليه ، فهو لم يدّع لنفسه شيئا ، إنما ادعى لها كل شىء لما عرّف قبيله أنه متصل بما لايستطيعون أن يتصلوا ، ولما عرّف له قبيله هذا الاتصال ، فسلموا بعد ذلك له وأذعنوا . ولا شك أن القوّة الغيبية لم تكن من عمل الجماعة ، وكل ما للجماعة فيها أنها تخشاها وترهبها ، فإذا أرعدت السماء أو أبرقت تطلعت إلى السماء ، وإذا اشتعل الحصيد تحت تأثير وهج الشمس ، تطلعت إلى السماء تطلب الجماعة رحمة أو مطرا ، فالظواهر الطبيعية تدفع الإنسان الضعيف قبل الرسل ، إلى أن وراء هذا الكون مُكوِّنا ، ووراء هذه الظواهر قوّة مستترة لاتظهر على حقيقتها ، وإنما تظهر آثارها فى نماء الزرع وإبادته ، وبين النماء والإبادة رضا هذه القوّة ، أو غضبها . هذا هو عمل الجماعة فى معرفة القوّة المسيطرة . أما الذى يعرفها تماما ويتصل بها أحيانا ، فهو الساحر أوّلا ، وهو الكاهن ثانيا . وهذا كل ما ينتظر من البدائى قبل الرسل ، وقبل الهداية المنظمة التى بُعثوا بها .

وليس ببعيد عن هذا أن يرمى الرسول عليه السلام بهذه الفكرة البدائية التى كان يمشى بها «أبوجهل» ، ويقول لقومه : لاتصدقوه ، فهو ساحر أو مجنون ، وليس ببعيد عن هذا أن ينفى القرآن عن الرسول أنه ساحر أوشاعر أو كاهن : « وَمَا هُوَ بِقَوْلِ

شاعرٍ قَلِيلاً ما تُؤْمِنُونَ ، وَلا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ » !

فليس نفى السحر والكهانة عن الرسول إلا نفيا لأفكار بدائية ذليلة ، لاتعرف سوى السحر قوّة ، ولا سوى الساحر قويا عزيزا ، ولا تعرف سوى الكهانة اتصالا بالغيب ، ولا سوى الكاهن رجلا متصلا بالغيب ! إنهم فهموا القرآن كتمتمة السحر وفهموا تأثيره كنفثه ونفخه !

وإذا كان الساحر مصدر الغيبيّات ، وإذا كانت الجماعة لم تعرف من أمرها شيئا ، فالتجأت إلى الساحر ، يفسر لها هذه الظواهر ، ويكتب لها هذه التمائم ، لتتقى شرورها وإهلاكها ، كان مصدر التحريم من غير شك ، من آثار تلك القوى الغيبية التى يتكلم الساحر باسمها ، وليس مصدره الساحر وحده ، ولا الجماعة برمّتها . وإذن ، يكون مصدرها دينيا ! ! ولكن حذار ! إننا نفهم الدين هنا بمعناه الأوّلى قبل أن تعرف به الرسل ، فهم وحدهم حاملوه وعارفوه . إننا نفهمه هنا كفهم البدائيين قوة غيبية تملك العقاب والثواب ، تُخشَى ويُخاف منها ، على غير معرفة بها ، إلا ما يتلقف من أفواه الكذّابين من السحرة والمجانين .

إن انتقال الإنسانية من المنع إلى التحريم ، ومن الجائز الشائع إلى التحليل ، يستدعى مرحلة ثانية نقلت الإنسان من مطلق المنع ، ومن مطلق الجواز ، إلى الحرام والحلال ، ومهمة الرسل فى أن تُحلّ الطيبات ، وتُحرّم الخبائث . ومع الطيب دليل استساغته ، ومع الخبيث دليل النفور منه ، وذلك إما مركوز فى الطبع والخلقة ، وإما نافع أو ضارّ بالجماعة التى تحلّ فيها الطيبات ، وتحرم فيها الخبائث . هنا لم تكن الحواجز بين الحرام والحلال من عمل الساحر والكاهن ، وإنما أقيمت هذه الحواجز لأنها ضارّة بالإنسان والإنسانية ، ورفعت هذه الحواجز ، لأن وجودها ضارّ بالإنسان والإنسانية ، وتلك مهمة لايعرفها إلا الدين بمعناه الحق . لأن الحرام والحلال هنا

ذكرا ومع كلّ منهما عناصره الطيبة والخبيثة ، وتلك معرفة تعزّ على البدائيين ، ولا يعرفها إلا الرسل .

ونرجع فنقول : لِم نجرى مع كل هذا التحليل الذى دفعتنا إليه النظريات وأربابها ، ولمَ لاتكون الأمم البدائية نفسها كانت ممتعة بنبوّة وبرسالة على يد أنبيائهم ، أعلى وأكرم من السحر والسحرة والكهانة والكهان ، والقرآن يدلنا صراحة على هذه الناحية : «مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ» .

وإذن ، تنحلّ المشكلة من نفسها ؛ فالأمم البدائية ماوقفت على أصول الممنوعات والمحرّمات إلا بعد أن عرفتها على لسان نبىّ أو رسول لم نعرفه من التاريخ ، ولا يعرفه التاريخ نفسه ، بل دلنا عليه الدين الذى أخبرنا أنه لم يترك أمة أو قبيلا بلا رسالة ، وأن هؤلاء الرسل لم يقصّ القرآن خبرهم كاملا ، وإنما عرّف بمهمتهم ورسالتهم جملة .

والنتيجة الحتمية فى كل حال هى أن الدين وحده مصدر الأخلاق ، لا الإنسان العادى ، ولا الجماعة التى يعيش فيها هذا الإنسان أو غيره .

أما الدراسات الفلسفية الحديثة ، فقد حاولت أن تفصل بين الدين والأخلاق . وحدث ذلك فى ناحيتين :

إحداهما فلسفية محضة ، تربط الأخلاق بالمنطق أو بالعقل ، وتقرّر أن « من لاعقل له لاخلق له » ، كما تقرّر العكس ، فمن « لاخلق له لاعقل عنده » ؛ وكما قالوا قديما : « العقل السليم فى الجسم السليم » أرادوا أن يقولوا الآن « الخلق القويم فى العقل السليم » .

أما ربط الجسم بالعقل فقد أصبح غير موضع شك ، فالفلسفة قديمها وحديثها من عقلية ودينية ونفسية ، تقرّر العلاقة بين الجسم والعقل ، فالمحموم يهذى ، والحمى فى الجسم والهذيان فى النفس ، والمجنون ومريض الأعصاب مريض بجسمه أيضا . وإذا زاد جسم بعض المجانين من أثر بعض الأعراض ، فليست هذه الزيادة مما يرجح بها وزن العقل ، بل كثيرا ما تكون مرضا ، وأثرا من آثار المرض النفسى أو العقلى .

أما علاقة الخلق بالعقل ، فلها أنصارها كما قدمنا . وهم يقرّرون نظريتهم تقريرا واضحا ، ويقارنون بين سلوك العقل من الناحية الفكرية ، وسلوك صاحبه من الناحية الخلقية ، فالتفكير المهذّب الذى يجتاز مراحله الطبيعية حتى يخلص إلى النتيجة ، يؤثر فى نفس صاحبه ، فلا يرتكب عملا مخلا بالكرامة ، أو يقدم إلى عمل يخدش الكرامة إلا بعد تقدير وتفكير فى المراحل التى يجتازها . ولو قدّر المجرم جريمته من أول الأمر تقديرا عقليا لامتنع عنها . وحتى المجرم الذى يرتكب الجريمة ويتخذ الحيطة لها من جميع نواحيها ، إذا قدر عليه أن يقع فى شر عمله ، كان وقوعه دليلا على أنه لم يدرس كل الظروف والملابسات التى تتصل بجريمته ؛ ولو درسها تماما لوقف بين أمرين : إما أن يمتنع عنها بتاتا ، إذا تغلبت عليه روحه الطيبة ، وإما أن يفلت منها تماما ، لأنه درسها قبل وقوعها ، وقدّر لكل خطوة موقعها ، ولكل افتراض حلّه .

وكيفما كان الأمر ، فالعلاقة موجودة بين الجريمة والعقل ، ويتغالى بعض الباحثين فى هذه العلاقة ، فيقرّر أن المجرم الذكىّ الذى افترض كل فروض العقوبة ، وعمل على التخلص منها ، إنما يؤدى خدمة للقانون عن غير قصد ، فإن حرصه واحتياطه ودرسه لكل دقائق العقوبة فى الجريمة ، وتفلته من كل ذلك ، يدفع العلماء والشارعين إلى زيادة الحيطة ، فيزيدون فى القانون وفى موادّه وفى تفسيره وفى التعليقات عليه فى النواحى النفسية للإجرام ما يمنع هذا المجرم وأمثاله من التفلّت من العقوبة مستقبلا . كل هذا ليدللوا على أن العلاقة ثابتة بين الذكاء وبين الجريمة .

وهم أخيرا يجملون تفكيرهم فى هذه العبارة العلمية الدقيقة المبيِّنة للعلاقة بين الخلق والمنطق ، فإنهم يقولون : إن المنطق هو « خلق التفكير » وإن الخلق هو « منطق السلوك » أو « منطق الحوادث » .

وبعض علماء النفس يسرّ لهذه العلاقة ويقرّرها فى دراسة الطفل . فالطفل إلى سنّ الثامنة من عمره له ذكاء خاص يسمونه الذكاء الذاتى Egocentrisme بمعنى

أن فكره لنفسه، وأنه يكوّن رأيه بنفسه، ولنفسه ، وإذا سألك فى هذا الدور فليس سؤاله لاستفادة علمية ، إنما يسألك ليعلم هل تجيبه بمثل ما أجاب به نفسه حين عرضت عليه المشكلة أوّلا ، بدليل أنه أحيانا يصارحك بمخالفة فكرته لفكرتك ، وأحيانا لايرضى عن فكرة الغير ويرضى عن فكرته الذاتية . فإذا كبر بعد ذلك تبدّل هذا الذكاء الذاتى ، وحلّ محله ذكاء آخر ، هو الذكاء المشترك بينه وبين الناس ، inlelligence réceproque أو ما يسمونه الذكاء المتبادل .

والمهم هنا أن كل نوع من نوعى الذكاء يقابله نوع من السلوك الخلقى ، فمع الذكاء الذاتى الأنانية الخلقية ، فكما أن الطفل فى المرحلة الأولى أنانى فى تفكيره ، لايقبل تفكير الغير ، هو أيضا أنانىّ فى خلقه ، لايتصل بالغير إلا بصعوبة ، وإن اتصل به فللحصول على منفعة ذاتية . ومع الذكاء المتبادل الغيريّة والخلق المتبادل ، فهو يعطف كما يستشير ، وهو يتضامن خلقيا كما يتعاون علميا . فالعلاقة بين الخلق والمنطق مقرّرة .

ونحن لاننكر هذه العلاقة بل نقرّرها ، ونزيد على ما قرّروه أنه كلّما تقدم الإنسان فى التفكير اتسع أمامه المجال فى التقدير ، وفى معاملة الناس ، وفى كيفية هذه المعاملة ، وأصبح مسماحا كريما ، يغتفر الضعف الإنسانى ، ويرثى له ، وربما شارك فى المعاونة على إزالته ، وإحلال القوّة محله . والإنسان المتعلم لايصدّق الخرافات والأوهام ، فيستطيع إذن ، أن يمحو من محيط الأخلاق ، كل ما استند على وهم أوخرافة ، وليس ذلك بالقليل فى تكوين السلوك الصحيح ؛ كل هذا نقرّره ونقدره ، ولكن الذى ننكره هو التلازم بين العلم والخلق ، وبين المعرفة مجموعةً من قواعد ومبادئ وفضائل محفوظة ، ورذائل واضحة ، وبين الخلق سلوكا وتضامنا مع الغير ومساعدة له ، واحتراما للحرية الذاتية أو الغيرية ، فكثيرا ما نرى علماء ممتعين بكل ما تسمح به الكلمة من معرفة وتعمق فيها ، وسلوكهم لايدل على أنهم فقهوا شيئا

فى باب العلم والمعرفة . وكثيرا ما نرى الفضيلة فى غير أصحاب الفضل من العلم ، بل من غريب أمر هذه الأخلاق أنها تختار أهليها فى جماعات من غير المتعلمين ، فترى عندهم النجدة ولم يقرءوا شعرا ، وتراهم كرماء وهم فقراء ، وتراهم مندفعين إلى المروءة ، وليس لديهم ما يعين على هذه المروءة ! ! ذلك لأن الخلق لايمتاح من معين مُعيَّن هو العلم ، بل يمتاح من مسارب ضاربة فى أرض بعيدة عن معين العلم ، ومن يتعرّض للأخلاق لابد له من البحث والحفر ليصل إلى مصدر هذه المسارب ! !

وثانيتهما من الفلسفة الواقعية : ظهرت هذه الفلسفة مع « أوجست كونت » وبدّلت من أفكار أوروبا ، ودفعتها إلى الأمام تحت تأثير تقدم العلوم . وأساس هذه الفلسفة التفكير العلمى وبخاصة التفكير الواقعى المبنى على الواقع والتجربة . شملت هذه الفلسفة مناحى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، واستطالت حتى شملت الأخلاق أيضا . فهى لاترضى عنها بشكلها الذى كان معروفا ، ولا ترضى للأخلاق أن تكون مجموعة وصايا ونصائح مهما كان مصدرها . اهتمت هذه الفلسفة بفصل السلطتين الروحية والزمنية ، أو الخلقية والحُكمية ، وكانتا معا فى أيدى رجال الكنيسة ، يحكمون ، ولكن باسم الدين ، ويقرّرون مبادئ الأخلاق باسم الدين طبعا . فإذا فصلت السلطتان وجب أن ينحاز رجال الدين إلى صوامعهم ومعابدهم ، ليكون الأمر كله لرجال السلطة الزمنية ، وستنتقل الأخلاق حتما من أيدى الذين رَبَّوها من نشأتها وهم رجال الدين ، إلى أيدى غيرهم ممن يزاولون السلطة الزمنية .

إن حجتهم فى هذا الفصل واضحة ، فرجال الدين عندهم قد أساءوا حينما استأثروا بالسلطة ، وحينما مكنوا للملوك فى الاستئثار بها ، وقد نال الأخلاق كثير من هذه الإساءة من عدّة وجوه :

١) أن الأخلاق لم يكن لها سند علمىّ تتكئ عليه ، فسندها فى احتضان رجال الدين لها ، وهم لايجرون فى البرهنة على خطة علمية واضحة ، فهم يأمرون الناس

بالتسامح حتى مع من يتعدّى عليهم ، لأن الدين قد أمر بالتسامح وكفى ! وهم وحدهم الذين يحكمون على هذا الشيء بأنه محظور أو حرام ، وعلى الشيء الآخر بأنه مباح أو حلال ، وليس للتحريم ولا للتحليل من علة مفهومة ، يصحّ أن يقتنع العقل بها . وما دامت الحقيقة مصدرها الدين ، فلا بد من قبولها من غير جدل ! وهو اتجاه لايتفق مع الروح الواقعية للفلسفة الجديدة .

٢) أن ربط الأخلاق فى عنق رجال الدين ضارّ بهؤلاء الرجال ، وضارّ بالأخلاق نفسها ؛ فمن الناحية الأولى ، قد تدخل هؤلاء الرجال حتى فيما بين المرء وزوجه ، فمنعوا وأباحوا من غير علة مفهومة كما قدمنا ؛ ومن الناحية الثانية ، أصاب رجال الدين كثير من الاضطهاد والتحدّى ، وأصيبت الأخلاق نفسها بهذا الاضطهاد وهذا التحدّى ! فما الظنّ إذن بهذه المبادئ التى لاتجد سندها فى نفسها ، بل تستند لتقويتها على رجال هم فى أنفسهم ضعفاء ، وقد أصبحوا من أثر الاضطهاد المتكرّر ضعفاء أيضا ، والأخلاق تذهب معهم صُعُدا ، وتهبط معهم انحدارا وانحطاطا .

٣) النتيجة الحتمية إذن ، هى أن تستأثر السلطة الزمنية بالأخلاق ، وأن يحلّ العلماء أصحاب التجربة والفلسفة الواقعية محل رجال الدين ، وهؤلاء لأنهم علماء سيتخذون كل حيطة ، حتى تكون مبادئ السلوك ثابتة ثبوت العلم والمعرفة ، وحتى تأمن هذا الاضطهاد المتكرّر الذى يعانيه رجال الدين ، وتعانيه الأخلاق معهم .

هذه هى أهمّ الأدلة التى تذرّعت بها الفلسفة الواقعية لفصل السلطتين ، أو بعبارة خاصة ، لفصل الأخلاق عن رجال الدين ، بل عن الدين نفسه ! .

وقبل أن نتعرّض لهذه الآراء بالنقد نقول : إن الفلسفة الواقعية لم تنجح فى هذه الناحية ، وأظهرت إفلاسا فى عدة نواح أخرى ، ليس هنا محلّ ذكرها .

أما سبب إفلاسها فى الناحية الخلقية فإنا نجمله فيما يأتى :

١) لا يهمنا أن تكون الأخلاق فى يد رجال السلطة الزمنية ، أو فى يد رجال

السلطة الروحية ، إنما الذى يهمّ هو احترامها والتزامها ، والذى نعاه رجال العلم على رجال الدين ، هو بعينه الذى كان سببا لنكبة الأخلاق ، فقد تولاها العلماء وكتبوا فى التضامن والعمل، ومحوا كلمة « الإحسان » من سجلّ الأخلاق ، وأحلوا محلها كلمة الضريبة « أو كلمة التضامن » والذين يدفعون الضريبة هم أرباب الأعمال ، والذين يطلبون التضامن هم أرباب رءوس الأعمال الذين لايريدون أن يقف دولاب أعمالهم ، فنشأت الحزازات ، وقابلت الاشتراكية هذا التفكير الجديد مقابلة قوية، وكان من أثر الاحتكاك العداوة والبغضاء ، لابين فرد وفرد كما كان عليه الأمر ، ولكن بين طوائف وطوائف !

٢) إن التماس العلة العلمية فى الأخلاق خطر على الأخلاق نفسها ، فالعلة كما يقولون « تدور مع المعلول وجودا وعدما » بمعنى أنه إذا وجدت العلة وُجد المعلول، وإذا امتنعت العلة امتنع المعلول؛ خذ الخمر مثلا، فإن العلة فى تحريمها كما يقولون هى الإسكار، أو هى الإسكار المؤدى إلى الخلط ، فمتى وجدت هذه العلة وجد التحريم، وإذا غابت هذه العلة بمعنى أن بعض المتعوّدين شرب الخمر يشربون ولايسكرون، أو يسكرون ولا يهذون، امتنع التحريم! وهذا خطر ليس وراءه خطر.

لذلك كانت الآية « لاتَقْرَبُوا الصَّلاةَ وأنْتُمْ سكارَى حتى تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ » ليست شافية فى تحريم الخمر على حدّ تعبير « عمر » ، لأن مفهومها أن من يسكر وهو عالم بما يقول فى صلاته، له أن يصلى وهو سكران ! وهو كلام غريب فى التشريع وفى الأخلاق . لذلك كان تحريم الخمر فى القرآن على درجات ؛ فالآية الأولى تبين أن فى الخمر إثما كبيرا ومنافع للناس ، وعلى الناس أن توازن بين الإثم والمنفعة ، ومثل هذه الموازنة إن وُكل أمرها إلى سكّير، غلب جانب المنفعة على جانب الإثم! والآية الثانية هى الآية المتقدمة « لاتَقْرَبُوا الصَّلاةَ وأنْتُمْ سُكارَى حتى تَعْلَمُوا ماتَقُولُونَ » والآية الثالثة القاطعة فى التحريم هى آية « يأيُّها الَّذِينَ

آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ . . . » فالخمر كالشرك ، لأنها مقرونة بالأنصاب . والرجس نجس ، والإشراك نجس ، والمشركون نجس ، والاجتناب هنا كالاجتناب فى الآية : « فاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ » .

فالأوامر الدينية فيها عقل وحكمة ، وتدرّج ، ومراعاة للمجتمع الذى عاشت وتعيش فيه الجريمة ، ولكن فيها أيضا الأمر من الله ، وهو واجب الطاعة ، وهذا الأمر هو الذى يقف أمام تمحلات العقل وتحليلاته ونقائضه ومداوراته . إنّ العقل متمرّد ، وكلما سددت أمامه بابا فتح لك أبوابا ، فلو أرسلت مسائل الأخلاق على العقل الصرف ، لتصرّف فيها وعبث بها ، وإذن لابد من أن يتكل على الدين أيضا .

إن أحدث النظريات فى الأخلاق ، لاتقبل أن تترك الطفل بلا أخلاق وبلا تربية خلقية حتى يستكمل فيه العقل درجات التفكير ، بل تريد هذه النظريات أن يتعوّد من صغره الفضيلة والعمل الصالح ، وأن تعرض عليه نماذج من القدوة الحسنة ، وتترك له الحرية كبيرا ، لاليتصرف فى أخلاقه ويحلّ محلها أخلاقا أخرى ، ولكن ليتفهم ما ألقى عليه وما أُخذ به صغيرا ، وليلتمس له العلة وقد لايجدها فى العلم ، ولكنه يجدها مقرّرة فيما تواضع عليه الناس وما اصطلحوا عليه مما يتصل بتقاليد الأمة ودينها .

٣) يجب أن نفرق بين إسراف رجال الدين فى استعمال السلطة ، بل وفى إساءتها ، وبين مسائل الأخلاق التى تستند إلى سلطانهم الروحىّ ، ولا ينبغى إذا قابلنا إساءة هؤلاء بالإساءة أن نعممها أيضا ، لنسئ إلى الأخلاق أو إلى الدين مصدرها .

وإنا لنرى فى آخر الأمر ، أن تطبيق الطريقة العلمية أو الفلسفة الواقعية على الأخلاق تطبيق خاطئ من أول الأمر ، ذلك لأن الأخلاق كما رأينا وجدت منذ وجدت الجماعة الإنسانية ، وعاشت فى كنفها ، وحرصت عليها هذه الجماعة حرصها على كيانها ، فهى لاترجع فى تحليلها إلى أجزاء أو مبادئ ، كما ترجع العلوم إلى

الجزئيات أو الفلذات أو المفردات الأولى ، وإنما ترجع إلى إنسانية بعيدة ، تريد أن تعيش ، وقد عاشت فى كنف هذه المبادئ ، وكانت صيانتها للجماعات التى عاشت فيه دليلا كافيا على صحتها ، وكلها مبادئ ترجع إلى الدين والتقاليد والعادات والأوهام والتصوّرات والأخيلة ، ولكنها أوهام وتصوّرات وأخيلة لنماذج فاضلة تغرى بالفضيلة ، وتدفع إلى التزام حدودها . وأهمّ هذه البواعث : الدين أولا ، لأن فيه تحايلا ، وفيه قابلية للتحليل ، والجزء الذى لايقبل التحليل العلمى فى الأخلاق يقبل الأخذ القلبى ، ويستحوذ على الشعور وعلى العواطف ، وللعواطف منطق لايقلّ عن منطق التحليل فى نظر علماء النفس .

واجبنا إذن ، أن نعلم الأخلاق وأن نحللها ، وأن نجرى عليها القواعد والمقاييس العلمية ، ولكن واجبنا الحتمىّ الذى لاينبغى أن نتحلل منه ، ولا ننفك عنه ، وأن نكون منه دائما على ذكر وعلى حفظ ، ألا نجرّد الأخلاق — مع احترامنا للعناصر العلمية فيها — عن عنصرها الخلقى ، وإلا علمنا أقوالا بلا روح ، وعبّدنا طرقا غير مسلوكة ، بل لايمكن سلوكها ، ونشأنا جيلا من غير عقيدة ، وكل ما نقوله لايستمسك به إلا ريثما يمجّ فى الامتحانات .

عقائد ومبادئ

اهدنا الصراط المستقيم

«اهْدِنا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيم» كلمة يقولها المؤمن خمس مرّات فى صلاته ، ويقولها كلما قرأ فاتحة الكتاب ، يطلب من الله الهداية والتوفيق ، والسداد فى كل ما يقوم به ، ويقوم عليه .

دعاء المؤمن « اهدنا الصراط المستقيم » كلما بزغ ضوء الفجر مؤذنا بالنهار ، بعد هذه الظلمة الشاملة التى غشيت المخلوقات بقطع من الليل مظلمة ؛ ويقولها فى الظهر عند ما تتوسط الشمس صفحة السماء تفيض بالحرارة والضوء ، وفيهما كل موادّ الحياة للإنسان والنبات والحيوان ؛ ويقولها فى العصر عند ما تهدأ حرارتها ، وتؤذن بالزوال ، فتأذن لنسيم صاف عليل صالح للتنفُّس ، محبب الحياة للأحياء ؛ ويقولها عند العشاء ، وقد عمَّت الظلمة ، ونشر الليل مطارفه السود على العالم إيذانا بالسُّبات والسكون . وفى كل هذه التحوّلات العظةُ والعبرة للإنسان ، والعظمةُ والقدرة للخالق ، « فَسُبْحانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ ، وَحِينَ تُصْبِحُونَ ، وَلَهُ الحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ، وَعَشِيًّا ، وَحِينَ تُظْهِرُون » [1] .

فى كل هذه الأوقات يطلب الإنسان من الله الهداية إلى الطريق المستقيم ، وإلى السبيل القويم الذى لاعوجَ فيه ولا التواء . وما أحْوَجَ الإنسان الضعيف إلى طلب الهداية من الله ! وما أحوج الإنسان القوىّ إلى طلبها أيضا ، مهما بلغ من العقل والمعرفة والإدراك !

إن الضعيف الجاهل يجد نفسه متوجهة بطبيعتها إلى الله يسأله الهداية إلى الطريق المستقيم : لأنه حُرِم العلمَ الذى يحدّد للإنسان سَيْره ، ويُؤمِّنه من الخطأ فيه ،

---

(١) سورة الروم ، آية ١٧ ، ١٨ .

ولأن الجاهل محروم من التصرّف المعقول ، لأن الجهل أغلق عليه الأمر ، وسدّ أمامه مسالك التفكير ، فلا عصمة له من عقل ، ولا حاجز له من رشد ، فإذا لم يستهد الله فى أموره ، فمن يهديه ؟ وإذا لم يستعصم بهداية من الله ، فمن يعصمه من أمر الله ؟ !

وليس الجاهل وحده هو المحتاجَ إلى طلب الهداية إلى الصراط المستقيم ، بل يحتاج إليها العالم أيضا : فللعلم زلّته ، وللعالم زلّاته ؛ وكثيرا ما يلقى العلم بصاحبه إلى التَّهْلُكَة ، إن لم يقصد به وجه الله ونفع الناس ، وإذا لم يستهدف به غاية من الحق والفضيلة . إن للعلم مسالك كثيرة ومتعددة ، وقد يَضِلّ العقل أمام تعددها ، فلا بدّ إلى جانب العلم من الهداية إلى الصراط المستقيم ، وما الطريق المستقيم إلا التوفيقُ ، والوصول إلى أشرف الغايات من أقرب السبل . إن الإنسان عقل وهوى ، ومعرفة وميل ، ورُشْد وضلال ، ونفع وضرّ ، وخير وشرّ ؛ وقد تصحّ المعرفة ويحدّد العقل سبيلها ، ولكنّ الميلَ والهوى يَلْوِيانِ بها وبصاحبها إلى النزوات والشهوات ، فلا بد للعالم إذن من طلب الهداية إلى الطريق المستقيم ، وإلا أضلّه الله على علم ، وختم على قلبه وسمعه ، وجعل على بصره غِشاوة !

إن الخير إلى جانب الشرّ ، كلاهما يُذكّر بصاحبه ، وكلاهما يجرّ صاحبه إلى ناحيته ، والمرء بينهما مضطرب الإرادة ، مُمزَّق الميول : فالشجاعة خير ، ولكنها قد تتحوّل إلى تهوّر وانتقام ، والكرم خير ، وقد يتحوّل إلى تبذير وإسراف ، والعلم خير ، وقد يتحوّل إلى العمل فى الخراب والدمار ، والرحمة خير ، وقد تتحوّل إلى ضعف وضياع للحقوق ؛ فأمام هذه الميول المتنازعة ، والاضطرابات بين مسالك العقل ، ونزوات الميل ، لابد للإنسان من أن يطلب من الله الهداية إلى الصراط المستقيم ، ومن غير هذه الهداية ينقلب الخير شرّا ، والعدل ظلما ، وتحلّ الرذيلة محلّ الفضيلة ، ويكتسب الإنسان على نفسه ، معتقدا أنه يكسب لها ، وذلك هو الضلال البعيد .

ما هو إذن هذا الطريق المستقيم الذى نسأل الله الهداية إليه كل صباح ومساء ؟ لاحاجة بنا إلى تفسير لغوى أو فلسفى ، لنتعرف على هذا الطريق ، فإن فى القرآن جوابا بل أجوبة شافية عن هذا السؤال الذى يعرض أمامنا ، ونسائل عنه أنفسنا . وخير تفسير للقرآن أن تُرَدَّ بعض آياته إلى بعض ، ولعلّ فى هذا الردّ سرَّ الحكمة فى تكرار المعنى الواحد فى عدة آيات مختلفة حتى يفسِّرَ بعضه بعضا !

فالقرآن قد فسَّر « الصراط المستقيم » بأنه « صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ » لاصراط الذين غضب الله عليهم ، ولا صراط الضالين المضلين . وإذن لابد لنا من معرفة من هم الذين أنعم الله عليهم ، ومن هم الذين غضب الله عليهم ، ومن هم الذين حَرَمهم الله الهداية ، فكانوا من الضالين ، وكانوا من المضلين .

الذين أنعم الله عليهم ، هم الذين يطيعون أوامره ، ويسيرون على النهج الذى خطَّه رسولُه . « وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً » [١] .

والذين أنعم الله عليهم ، هم الذين يتفكَّرون فى خلق الله الذى سخَّر الفُلْك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخَّر الأنهار ، وسخر الشمس والقمر دائبيْن ، وسخَّر لهم الليل والنهار ، ووضع الطبيعة بأسْرِها فى صالح الإنسان ، يستذلّها بعقله ، ويُخضِعها لتصرّفاته ؛ وهم الذين إن عدّوا نعمة الله لايستطيعون حصرها ولا إحصاءها « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا » [٢] وهم الذين يرجعون بعد تعداد هذه النعم إلى أنفسهم بالإنابة ، وإلى الله بالشكر ، وهؤلاء هم الذين يُطلب من الإنسان أن يسير على نَهْجِهم وعلى صراطهم المستقيم .

---

(١) سورة النساء ، آية ٦٩ .

(٢) سورة إبراهيم ، من الآية ٣٤ .

أما المغضوب عليهم ، فهم بنصّ القرآن ، الذين يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير الحقّ ، ويعصون أوامر الله ؛ وإذا كانوا لا يبالون بأوامر الله ، فهم لا يبالون بأوامر المجتمع ، ولا بنُظُمه ، فهم المعتدون الذين باءوا بغضب من الله . والمغضوب عليهم هم الذين يصرخون ويقولون : لو أن لنا قانونا يشرّع لكذا وكذا ، ويردّ عنا عادية كذا وكذا ، ويستجيب إلى حاجتنا من كذا وكذا « فلمّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ على الكافِرِينَ » [1] .

والمغضوب عليهم هم الذين كانوا يقولون قديما : لِمَ جاءت الرسالة على لسان محمد ، ولمْ تأتِ على لسان غيره ؟ ! وهم الذين يقولون الآن : لِمَ كان الحكم والسلطان لفلان ولمْ يكن لفلان ؟ ! « بِئْسَما اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِما أَنْزَلَ اللهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ، فَباءُوا بِغَضَبٍ على غَضَبٍ ، وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ » [2] .

المغضوب عليهم هم الذين يستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ، أى هم البَطِرُون الذين لا يرضَوْن بحال ، والقَلِقون الذين لا يرضَوْن عن حال ، أى هم الذين ضُربت عليهم الذّلة والمسكنة ، وباءوا بغضب من الله .

وأما الضَّالُّون ، فإنهم الذين يتشككون فى أن وراءهم حسابا وعقابا ومسئولية ، وهم إن أفلتوا منها فى هذه الحياة ، فلن يفلتوا منها أمام الله « ألا إنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ » [3] .

والضالون ، هم الذين يَرَوْن أن حياتهم هى الحياة الأولى ، ولا حياة بعدها ،

---

(١) سورة البقرة ، آية ٨٩ .
(٢) سورة البقرة ، آية ٩٠ .
(٣) سورة الشورى ، آية ١٧ .

ومن ثمّ لاثواب ولا عقاب « بَلِ الَّذِينَ لايُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ فِي العَذَابِ وَالضَّلالِ البَعِيد »[١] .

الضالون هم الذين لايحكمون بين الناس بالحقّ ، وهم الذين يقدمون هواهم على دينهم ، وأهواءَهم على عقولهم « يا داودُ إنّا جَعلناكَ خَليفةً فِي الأرْضِ ، فاحْكُمْ بينَ النّاسِ بالْحَقِّ ، وَلا تَتّبِعِ الهوَى فيُضِلّكَ عَنْ سَبِيلِ الله ، إنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الحسابِ »[٢] .

هذا هو الصراط المستقيم ، « صِرَاطَ الَّذِينَ أنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غيرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ » . « قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أدْعُو إلى اللهِ على بَصِيرَةٍ أنا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ، وسُبْحانَ اللهِ وَما أنا مِنَ المُشْرِكِينَ »[٣] .

---

(١) سورة سبأ ، من آية ٨ .
(٢) سورة صٓ ، آية ٢٦ .
(٣) سورة يوسف ، آية ١٠٨ .

الأسس التى بنى عليها الإسلام

فى الحديث الشريف أن الإسلام بنى على أسس خمسة ، هى : الشهادة لله بالوحدانية ولمحمد بالرسالة ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، وحج البيت للمستطيع . وهـذه الأسس متحدة فى الغاية ، التى تنحصر فى المعرفة بالله ، مختلفة فى حكمة التشريع ، وفى الآثار الخلقية والاجتماعيـة : فمنها ما هو فردىّ نفسىّ ، ومنها ما هو اجتماعىّ ، ومنها ما يجمع بين الفردية والاجتماعية . على أنه من الصعب أن نفرّق بين ما هو فردى وبين ما هو اجتماعى ، ضرورة أن العمل الفردى مدّخل فى العمل الاجتماعى بطبيعته ، وأن العمل الفردى قد يترتب عليه من الآثار الاجتماعية ما يلحقه بالعمل الجماعى ؛ فالشهادتان مثلا اعتقاد فردى بين المرء وبين نفسـه ، وبين المؤمن وبين خالقه ، فقد ينطق المرء بالشهادتين ، ولمّا يدخل الإيمان قلبه ، وقد يتظاهر بالإسلام ، ونفسه خاوية من التصديق بمدار الإيمان . لذلك اختلف الخليفة « أبو بكر » مع « عمر بن الخطاب » فى أمر أهل الردّة الذين امتنعوا عن تأدية الزكاة بعد موت الرسول عليه السلام ، فعمر يرى أنّ النطق بالشهادتين كاف فى أن يدخل المرء فى زمرة المسلمين ، وأن من قالها عصم نفسه وماله ، فهو ينظر إليها من الناحية الاجتماعية ؛ وأبو بكر يرى أن الإيمان لايتجزأ ، فمن أسلم وامتنع عن أداء فريضة الزكاة وجب قتاله ، وحمله قسرا على أداء واجباته كاملة ، ويشتدّ الجدل بين الخليفة الأوّل وبين عمر ، الذى يرى التصميم والعزم فى وجه الخليفة ، فيرضى برأيه ويقول : « ماهو إلا أن شرح الله صدرى لما قال أبو بكر حتى عرفت أنه الحقّ » . فأبو بكر يرى أن العقيدة نفسية ، أوهى نفسية جماعية معا ، فمن خرج على الجماعة اتهم فى عقيدته ،

وكان خروجه عليها دليلا على أن الناحية الوجدانية فى نفسه مظلمة قاتمة ، فالمنطوى تحت لواء الجماعة ، لابدّ أن يصدق بكل ما كُلفته الجماعة ، أمّا أن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض ، فذلك دليل الاضطراب فى المعتقد ، والقلق فى الإيمان ، وكلاهما يخرج بالمرء عن نفسه ، وعن الجماعة التى يعيش فيها : فالشهادتان هما أول سطر يخطه المسلم فى صفحة العقيدة ، ولن يكون مسلما حتى يقرّر الوحدانية حقا ، وحتى يقرّر رسالة « محمد بن عبد الله » حقا ، وهما فى الأصل نفسيان من عمل القلب ، بدليل قوله تعالى « إلاّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمانِ » [1] ولكنهما اجتماعيان أيضا ، ولن يتمتع المرء بما تتمتع به جماعة المسلمين من مساواته معهم فى الحقوق والواجبات ، إلا إذا نطق بهاتين الكلمتين ، فمن قالهما عصم دمه ، وماله ، وعرضه ، وحسابه بعد ذلك على الله « وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الحَيَاةِ الدُّنْيا فَعِنْدَ اللهِ مَغانِمُ كَثِيرَةٌ » [2] . وهذا الموقف المتردّد بين الفردية والجماعية من شأنه أن يلفت نظر الناس إلى هؤلاء المترددين بين الأديان طمعا فى جلب منفعة ، أو حرصا على تخلص من صعوبة عارضة ، أوسعيا وراء مغنم ، أوهربا من قانون صارم ، إلى قانون متسامح ، فهم ينطقون بالشهادة لاتتجاوز حناجرهم ابتغاء عرض من أعراض الدنيا ، ومثلُهم يؤخذ بالشدّة والحزم ، واستبطان ما فى النفس ، حتى لا يُعبث بدين الله ، وحتى لاتتخذ آياته هزوا ولعبا .

الشهادة إذن هى أول إيحاء باستشعار العقيدة ، والمسلم مُطالب بها فى صلاته وفى سلوكه حتى يحدّث نفسه بنفسه عن طريق الإيحاء الذاتى أن الله واحد متفرّد بالملك والسلطان

---

(١) سورة النحل ، من الآية ١٠٦ .

(٢) سورة النساء ، من الآية ٩٤ .

يملك منا كل شيء ؛ والذين يدعون من دون الله أصناما « لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ، وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا »[1] لاعقيدة لهم، إنّ الشهادة وتكرارها والإيحاء بها يخلق العقيدة، ولادين من غير عقيدة، ولامبدأ لمن لادين له، فلابد للمتدين من الاعتقاد فيما يدين به ،ولابد أن يكون الاعتقاد مبنيا على فكرة يرتضيها المعتقد، ويستطيع أن ينافح عنها أمام من يجادله فيها،وهذا هوالفرق بين إيمان الاجتهاد وإيمان التقليد . إن العقيدة الدينية تعلم الإصرار على الرأى، والتمسك به فى سائر المبادئ التى يسير عليها الإنسان فى سلوكه، فإذا رأيت رجل الحكم، أو العمل، أو السياسة، يسير فى حياته مترددا لارأى له ، حائرا لايهتدى إلى ناحية معينة يمحّض لها تفكيره ، ويوفّر عليها جهده ، فاعلم أنه لم يتعلم كيف يعتقد ، حتى يعرف كيف يسير ، وكيف يصمم ، فالعقيدة إذا كانت أصلا للأديان ، فهى أيضا أصل من أصول السلوك ، ودافع قوىّ من دوافع التصميم والتنفيذ .

الأسّ الثانى للإسلام: «الصلاة» ، وهو أصل يجمع بين الفردية والجماعية، فالصلاة الخاشعة تربى النفس على الخشوع ، والصلاة المرائية ، تعب ونصب ، وقلة جدوى تجرى على لسان صاحبها من غير أن تبتل لهاته بريّها ، فالقلب جدب ، واللسان خصيب ، والظاهر عامر آهل ، والباطن خراب يباب ، والمَظْهر مغرٍ مطاع ، والمخبَر منفّر مُبعِد . فهى صلاة مرائية باطلة ، والصلاة الصحيحة « تنهى عن الفحشاء والمنكر » ، والويل للمرائين حتى فى الصلاة « فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ، الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ »[2]

---

(١) سورة الفرقان ، آية ٣ .

(٢) سورة الماعون ، الآيات ٤ وما بعدها .

وفى الصلاة ناحية اجتماعية لها قدرها ، فهى إظهار للشعيرة ، ومظهر من مظاهر التفاف الجماعة حول فكرة واحدة ، واتجاهها نحو قبلة واحدة ، ومن هنا شرعت الجماعة فى الجمعة ، ورجحت الجماعة فى غيرها ، الصلاة الفردية بدرجات تحسب فى تقدير ثواب صاحبها .

والأسّ الثالث : الزكاة ، وهى وإن كانت فردية ، تطهّر نفس صاحبها ، وتسمو به إلى درجات من الكرم والسخاء ، إلا أنها اجتماعية أيضا ، بل تكاد تكون اجتماعية أصلا ، لأنّ فى الزكاة الجباية التى تعتمد عليها الدولة فى مواردها ، والإحسان الذى تعتمد عليه الجماعة فى رعاية الفقراء والمحتاجين .

والأسّ الرابع : « الصوم » ، وهو من الفرائض المتردّدة أيضا بين الفردية والجماعية ، ففى الصوم حدّ وتحديد من الرغائب التى إذا أرسلناها على طبيعتها ، انحدرت بصاحبها إلى درجة تخرجه عن طبيعته الإنسانية . وهذا الحدّ من الرغائب والشهوات أسّ من الأسس الاجتماعية التى تقوم عليها دراسة الأخلاق فى العلم الحديث : فالمجرم أو المعتدى أو المرتكب شخص لم يتعوّد منذ صغره الحدّ من مطالبه ، فلم يستطع فى كبره السيطرة على نفسه ، ولا الحدّ من أطماعه . وهو شخص سمح لنفسه صغيرا ، أو سمح له مربوه بحرية طليقة ، فيما يرغب وفيما يريد ، فنشأ حرّ النزوة ، مُرسَل الزمام ، يطلق ميوله ترتع أنى شاءت ، وكيفما أرادت ، فإذا نقصه شىء مما يتطلّع إليه استطال على حريات الناس ليكمل ما نقصه ! فالصوم وسيلة تهذيبية يُلزم بها الدين ، ويُلزم بها المتدين نفسه ، فهو لايحدد من شهواته صائما ، بل يمتنع عنها البتة ، ولا يتساهل فى بعض المطعومات والمشروبات ، بل يحرّم على نفسه تدينا كل طعام وشراب ، فلا يكون عبدا لشهوة ، ولا أسيرا لميل ،

بل تتحكم فيه إرادته وتسيِّره ، والإنسان إنسان لأن له إرادة يسير وراءها .

وفى الصوم معرفة للعلاقة بين الجسم والنفس ، والفرق بينهما هو الفرق بين طبيعتهما ، فالجسم مادىّ ، والنفس كالروح من أمر الله ، ومطاوعة واحد من الاثنين تؤثر فى الآخر ، فالذين يزاولون الرياضة النفسية بالصوم المستمرّ ، والامتناع حتى عن مطالب الجسم الضرورية للحياة ، إنما يضعفون جسومهم ؛ والذين يطاوعون جسومهم يضعفون أنفسهم . والإسلام فى هذه العلاقة التى أتعبت العلماء ، يرى « الحدّ الوسط » فهو لايرضى من المسلم أن يصوم دهره ، ويقيم ليله ، والرسول يقول : « إنّ المنبتّ لاأرضا قطع ولا ظهرا أبقى » ، وهو لايرضى عن المسلم أن يتوغل فى الرياضة النفسية كل التوغل : فقد أقسم جماعة من المسلمين فى أول عهدهم بالإسلام على الرهبنة والانقطاع عن الدنيا جملة ، لما سمعوا ما امتدح به القرآن القسيسين والرهبان ، فسمى القرآن قسمهم لغوا « لايُؤَاخِذُكُمُ اللهُ باللَّغْوِ فِي أيمانِكُمْ » [1] فالإسلام هو الذى حدّد العلاقة بين الجسم والنفس ، فلا يشبع المؤمن جسمه ويهمل نفسه ، ولا يشبع نفسه ، ويهمل جسمه وحيويته ، لذلك طلب شهرا من اثنى عشر شهرا يمتنع فيه المرء عن الاستجابة لكل مطالب الجسم ، ويحدّ منها من صدر النهار إلى آخره حتى تصفو نفسه ؛ وإذا خُيِّر الإنسان بين ضعف الجسم ، وضعف النفس ، اختار ضعف الجسم ، ووجد طوال العام ما يعوّضه ، أما ضعف النفس فلا يجبر بحال !

وفى الصوم ناحيـة اجتماعية ، هى استشعار ألم الجوع ، والإحساس بما يعانيه الجائع الفقير ، ولو استغنى الغنىّ عن ملذّات الطعام لأمن المرض ، ولو استغنى

---

(١) سورة المائدة ، من الآية ٨٩ .

الفقير بقليل الطعام لصحت نفسه وصحت قناعته ، وفى قناعة الفقير ، وعطف الغنىّ شكر الله ، والغنى عن الناس .

أما الأسّ الخامس : فالحج ، وهذه الفريضة اجتماعية أصلا ، فالدين يؤذّن فى الناس بالحجّ ، والحجيج يأتى جماعات جماعات من كل فجّ عميق ، وقطر سحيق ، يجتمعون حول قبلة واحدة ، ويتجهون اتجاها واحدا ، ويلبسون لباسا واحدا ، حاسرى الرءوس، متجهى النفوس نحو إله واحد ينادونه : « لَبَّيْك لَبيك، إن الحمد والنعمة والشكر لك لبيك ؛ « وأذّنْ فِي النَّاسِ بالحَجّ يأتُوكَ رِجالاً وعلى كُلّ ضَامِرٍ يأتِينَ مِنْ كُلّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ، وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِى أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ على ما رَزَقَهُمْ . . » [1] .

وشهادة المنافع : هى مدارسة المسلمين شئونهم وتعاونهم وتعاضدهم ، وتدبير أمورهم، حتى تكون لهم وحدة ، وتكون منهم وحدة ، يجتمعون باسمها، على رغم الشقة البعيدة والمسافة السحيقة .

تلك هى مبادئ الإسلام ، ومنها اشتُقّ كل ماوراءها من الوسائل والغايات ، عرضناها باختصار ، لنلحّ عليها فى موضوعات أخرى .

---

(١) سورة الحج ، آية ٢٧ وما بعدها .

العقيدة أساس الخلق الاجتماعى

العقيدة قوّة دافعة فى النفس وفى القلب ، تدفع صاحبها دفعا إلى غايته ، وتجعله لايبالى بالعقبات فى طريقه ؛ وهى — لقوّة دفعها — تزيح عن طريقها مايعترضها ، حتى تصل إلى الغاية . والعقيدة أساس التفكير الدينى ، وأساس الإصلاح الاجتماعى :

فهى من الناحية الدينية أصل الإيمان ، بل هى الإيمان بعينه ، فمن تكلم بلسانه غير مدفوع بقلبه إلى ما يقول فليس بمؤمن . ومن مالأ الناس وسايرهم مسايرة ظاهرية فيما يقولون ، فهو منافق . وقد نعَتَ الأديان والأخلاق على هؤلاء الذين يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، والذين « إذَا رأيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أجْسامُهُمْ ، وإنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَولِهِمْ » [1] ، والذين « يُخادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا ، وَما يَخْدَعُونَ إلاَّ أنْفُسَهُمْ » [2] .

والعقيدة هى التى دفعت الرسول عليه السلام — يوم اجتمع عليه قومه ، وقالوا لعمه « أبى طالب » : « إن أراد ابن أخيك مالا جمعنا له ما يغنيه ، وإن أراد جاها أو مُلْكا ملكناه علينا» — إلى أن يقول قالته المشهورة : « واللهِ يا عَمِّ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِى يَمِينِى وَالقَمَرَ فِى يَسارِى على أنْ أتْرُكَ هَذَا الأمْرَ أوْ أهْلِكَ دُونَهُ ما تَرَكْتُهُ » . والعقيدة هى التى دفعت الرسول أيضا إلى أن يحارب مدفوعا بإيمانه ، فيمشى إلى المعركة بقلب ثابت جرىء ، يحرّك نفسه على وقع قوله :

أنا النَّبِىُّ لا كَذِبْ أنا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ

وصاحب العقيدة لايقبل بدلا من عقيدته ، فلا يبيعها بمال ، ولا يبيع الفكرة تمتلئ بها نفسه ، بفكرة أخرى لايراها ولا يعتقدها ؛ فقد ساوم المنافقون الرسول على

(١) سورة « المنافقون » ، من الآية ٤ .
(٢) سورة البقرة ، من الآية ٩ .

عقيدته ، وأرادوه على أن يبيع نفسه وفكرته ، فأمره ربه ألا يقبل منهم فى عقيدته مفاوضة أو مساومة ، بل ردّ عليهم ردّا قاطعا « لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ »[1] .

وقد شغل الرسول عليه السلام نفسه بتعليم العقيدة مدة ثلاث عشرة سنة أقامها فى مكة يعرض نفسه على الناس، متكلما بالحقّ ، مجادلا بالتى هى أحسن، مسترعيا العقول والأفكار إلى ملكوت السموات والأرض ، مثيرا الفكرة والعاطفة ، ليتفكر الناس فيما خلق الله ، وفى خلق أنفسهم ؛ أى أنه أنفق من عمر رسالته ثلاث عشرة سنة ، كلها فى جمع الناس على كلمة واحدة ، وعلى إله واحد . أما الناحية العملية للعقيدة ، فجاءت متأخرة ، فقد فرضت الصلاة قبل الهجرة بسنة ، وفرض الصوم، وفرضت الزكاة ، بعد الهجرة بسنتين ، وفرض الحجّ فى السنة السادسة من الهجرة ، وكل هذا يدلنا على أن العقيدة كانت فى المحلّ الأوّل للدعوة الصالحة ، وللداعى الصالح ، ومتى تخللت العقيدة زوايا النفوس ، ومتى وصلت إلى مكمن السرّ فى القلوب ، سهل ما بعدها من الواجبات والتكاليف .

إن العقيدة إذا التحمت بالنفس ، وسَمَتْ عن أن تكون مجرّد فكرة ، أسلست الجوارح لها ، فتحمل الرجل رجلاه إلى الخير ، وكأن عمله صادر على غير شعور منه ، وتقدم يداه الخير فى غير رياء أو تظاهر ، وينطلق لسانه بالقول الطيب والكلمة الطيبة ، فى غير تصنع أو تزويق ، وإذا دعته الظواهر والمظاهر إلى الميل والزيغ ، والخروج عن سبيل الحقّ ، هتف به هاتف من ضميره أن يبتعد عن الشرّ والمهلكة ، بل ربما هتفت به الرغبات الجامحة نفسها ، وكأنها تقول له : « إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ »[2] ، ومن هنا حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : « لَايَزْنِى الزَّانِى حِينَ يَزْنِى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَايَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ » أى أن المؤمن المعتقد فى الفضيلة والخلق ، لاتتصوّر منه الجريمة ، ولا يتصوّر منه

(١) سورة الكافرون ؛ الآية ٦

(٢) سورة البقرة ، من الآية ١٠٢ .

الفسوق والعدوان ، بعد العقيدة والإيمان ، فإذا اقترف جريمة ، لايقترفها وهو مؤمن معتقد ، بل لابد أن يكون قد حلّ محلّ إيمانه فكرة من الأفكار المزيفة التى تقلب الحقائق ، فتجعل الشرّ خيرا ، وتصوّر الرذيلة فى صورة الفضيلة .

لذلك لايرضى علماء الأخلاق — حتى هؤلاء الذين يريدون أن يجرّدوا الخلق من العقيدة ليكون علميا محضا — عن أن يفصلوا بين الخلق والعقيدة ، لأن بناء الخلق على الفكرة وحدها مضرّ بالخلق نفسه : فالفكرة متغيرة ، ويجب أن تكون الأخلاق ثابتة ، وأن تنزل منزلة التقاليد والعقائد ؛ والفكرة قابلة للتحليل ، ومن ثمّ فهى قابلة للنقض ، والخلق القويم هو الذى يلتزمه صاحبه فى جميع الأحوال ، وفى جميع الظروف ، ومع كل الناس ، فلا يوزعه على طبقات الناس حسب الحاجة ، وحسب المنفعة ، وحسب الأقدار والمراتب ، بل الخلق القويم هو الذى يلتزمه الإنسان مع الإنسان ، لأنه شريكه فى الخَلق ، وفى الوطن ، وفى التكاليف الاجتماعية ، وفى العقائد ، وفى الأفكار والإنسانية .

هذه هى مكانة العقيدة من الفرد ، فكل إنسان مطالب بأن يعتقد فيما يقول وفيما يعمل ، فلا ينطق إلا بما يرى ، ولا يعمل إلا ما يراه صالحا .

والعقيدة تفرض الجماعة ، فهى اجتماعية بطبعها ، لأنها تفرض على عدد كبير من الناس إذا فرضها زعيم ، أو تفرض نفسها على جمع كبير من الناس إذا كانت خلقا من الأخلاق العامة ؛ ومن هنا كان الزعيم الذى يريد أن يحمل الناس على عقيدة بعينها ، غيرَ حرّ فى فرض هذه العقيدة فرضا إذا كانت تمسّ كيان الصالح العام ، أو تهدّد من أمنه ومن أمته ، فما يفسد المصلحين ، وما يفسد الجماهير إلا أن يتصدّى لزعامتهم من ليست له فكرة واضحة ، ومن ليست له عقيدة فيما يقول وفيما يفعل ، ومثلُه فى كل حال إما راجع بالخسارة على الناس ، وإما راجع بالإخفاق والخسران على نفسه وعلى الناس ؛ وفى عمل الرسول ، وتربيته الناس على العقيدة ، كلّ ما يطلب المصلحون من القدوة الرشيدة والأسوة الحسنة .

المساومة فى العقيدة

بسم الله الرحمن الرحيم

« قُلْ يا أيُّها الكافِرُون ، لا أعْبُدُ ما تَعْبُدُون ، وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أعْبُدُ ، وَلا أنا عابِدٌ ما عَبَدْتُمْ ، وَلا أنْتُمْ عابِدُونَ ما أعْبُدُ ، لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِين » .

تلقى « محمد بن عبد الله » ، صلوات الله وسلامه عليه ، دعوة ربه ، فعرف أنه حُمِّل مسئولية لابد من أدائها ، وعُهد إليه برسالة لامناص من تبليغها ، إذ رأى شِركا مُطاعا ، وهوًى مُتَّبَعا ، وجاهلية هى الحكَم بين الناس ، وظلما باغيا هو القانون السائد والمتحكِّم .

سار بدعوته أولَ الأمر ، يدبّ بها دبيبا إلى النفوس ، وإلى القلوب ، فاستجاب له من وُفِّق ، وأعرض عنها من جعل الله فى قلوبهم مرضا ، وعلى أبصارهم غشاوة . ولقد احتالوا للأمر يفاوضون الداعىَ فى مال ، فوجدوا أنه لايطلب إلا العيش الشريف يقيم الصُّلب ، ويُعين على الدعوة ، ولقد لوّحوا له بملك واسع ، وسلطان عزيز ، فأجاب بأن العزّة لله جميعا ، وأن السلطان الذى يطلبه هو سلطان الحق ، وسلطان الضمير ، حتى يزهَق الباطل ، وحتى تحلّ الخشية فى القلوب ، والرغبة الصالحة فى النفوس ؛ ورفض فى إباء ماعرض عليه من مُلك وسلطان .

خشى عليه عمه (أبو طالب) وكان به رفيقا ، فنصحه ليرجع إلى قومه يسايرهم فى معتقداتهم ، ويجرى على السَّنَن الذى عليه يسيرون ، فرفض «محمد» عليه السلام فى إباء ، وأقسم هذا القسم الذى أصبح مبدأ لكل مصلح ، وعهدا لكل من

يتصدّى لزعامة الجماعة ، يحملها على مبادئ جديدة من الحقّ والفضيلة :

« واللهِ يا عَمِّي ، لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي والقَمَرَ فِي يَسارِي حَتَّى أَتْرُكَ هذَا الأَمْرَ ما تَرَكْتُهُ ، أَوْ أُهْلِكَ دُونَه » !

هذا هو المثل الأعلى فى الإيمان وفى العقيدة ، يضربه الرسول الكريم لكل من يتصدّى لزعامة رشيدة ، ولكل من يحمل الناس على مبادئ يرى فيها رُشدهم وهدايتهم . هذه النفس القوية المختارة كانت مؤزرة برُوح من الله ، وروح من القُدُس ، يسند ما يمكن أن يضعفها من تجمُّع قوى الباطل ، وما وهَن الرسول وما ضعف فى أمر خاصّ ، أو فى أمر يتعلق برسالته !

أنزل الله عليه فيما أنزل هـذه السورة قليلة العدد ، كثيرة المدد ، فلما سمعوها وقعت منهم موقع الدهَش ، وافترق فيها الجمع إلى فريقين : فريق كان يتتبَّع بلاغة القرآن ، ويتحسَّس ما فيه من النظم والوقْع ، وأسْر البلاغة ، فكان يقول : « ما هذا التكرار فيما يقول « محمد » ! أترونْ لو أن « امرأ القيس » الشاعر الذى تعرفون قال فى قصيدته :

قِفا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ

وأعاد هذا الشَّطر من البيت ثلاث مرّات ، أفلا يكون عَيِيًّا ؟! فما بال « محمد » يكرّر فى آياته : « لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ ، وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ ، وَلا أنا عابِدٌ ما عَبَدْتُمْ ، وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ ! » ثم يتحدّانا بأن نأتى بعشر آيات من قرآنه ، أو بسورة من مثْله ! فالتكرار عىّ لا يناسب هذا الذى يدّعيه أنه « بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ » !

أما الفريق الآخَر الواقف على باطن الأمر ، والذى كان يحاول أن يزعزع « محمدا » عن عقيدته ، ويساوم الرسول على إيمانه ، يشتريه منه يوما ، ويبيعه غيره

يوما آخر ، والثمن بخس فى الحالتين ، فقد وجم ، وأصابه غير قليل من الهم والحزن ، لأنه علم أن « محمدا » قد عزم وصمم ، وأن الله قد قطع عليهم الطريق بعد أن علم رسوله ألا يدخل معهم فى مساومة دينية كهذه المساومة التى يريدون ، وأن يرد عليهم فى عبارة قاطعة فاصلة « لكم دينكم ولى دين » .

والحق أن لاتكرار فى الآيات ، ولا عى ولا حصر فى القرآن ، ولا فى الذى أنزل عليه القرآن ؛ وإنما كان الأمر مساومة فى العقيدة ، بعد أن عزت جميع المساومات ، وبطلت جميع المغريات والمفتريات .

فقد جاء كبار قريش ، ومنهم « أبو لهب » فى جمع ينطوى إما على الغفلة منهم ، وإما على الوقيعة بصاحب العقيدة . قالوا له : « يا بن أخينا ! مالك وآلهتنا ، تستهزئ بهم ، ومالك تسفه أحلامنا إذا نزلنا على حكمهم ؟ ! ومالك تلفتنا عن آلهتنا وتريدها بسوء ؟ ! اجعل للصفة موضعا ، واجعل الأمر بين معبودك ومعبوداتنا مناوبة وتداولا ، فاعبد أربابنا أسبوعا ، نعبد ربك شهرا ، واعبد أربابنا شهرا ، نعبد ربك سنة ، وهكذا تكون العقيدة مرانة وتجربة ، وربما هزمتنا التجربة فنرجع إليك ، أو هزمتك التجربة فترجع إلينا ! ! .

شكوك مساورة تقف أمام الحق الصريح تريد أن تنال منه ! ومفاوضة خاسرة يريدون منها أن ينزل عن عقيدته ولو مرة ! ومتى زل فقد ذل ، ومتى ذل فقد قل ، ومتى قل ابتعدت عنه هذه الجموع التى أسرعت إلى الحق بعد أن عرفته ، ومتى انفضوا من حوله خنقت الدعوة ، وبطلت الرسالة ، وهكذا كانوا يريدون ، ولكن الله من ورائهم محيط ، «وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الماكِرِينَ »[1] أى أنهم بيتوا الوقيعة ، فأفسدها الله عليهم ، وهو عليم بالظالمين . أمر رسوله أن يقول لهم : « يا أيها الكافِرُونَ لا أعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ » (أسبوعا) « وَلا أنْتُمْ عابِدُونَ

(١) سورة آل عمران ، من الآية ٥٤ .

ما أعْبُدُ » (شهرا) « وَلا أنا عابِدٌ ما عَبَدْتُمْ » (شهرا) « وَلا أنتُمْ عابِدُونَ ما أعْبُدُ » (سنة) . اذهبوا بعقائدكم الفاسدة ، واتركونى وعقيدتى ، « لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ » .

ويمكن أن يستنتج من نظم الآيات ومغزاها النتائج الآتية :

أولا : لم تقل الآيات « قل يا أيها المشركون » وهم يفاوضونه على الشِّرك ، لأنهم يفاوضون على عبادة أصنام لهم ، وإنما قالت « قُلْ يا أيُّها الكافِرُونَ » أى الساترون للحقيقة ، الذين يعرفون الحقّ ويُغمضون عنه ، حتى يلتبس على الناس الأمر ؛ فهم منافقون إلى أنهم مشركون ، ومن هنا تتناول الآية كلّ منافق ، فى كل أمة ، وفى كل جيل ، يعرف الحقّ ولا يعترف به .

ثانيا : مِثْل هذا المنافق لا يُجادَل ولا يناقش ، فهو عارف للحقّ متجاهله ، ومِثْله يُعرَض عنه ، ولا يقال له أكثر من « اذهب ! لك عقيدتك ، واتركنى على عقيدتى ، والحقّ كفيل بأن يردّك إلىّ ذليلا صاغرا » !

ثالثا : إذا جازت المساومة فى أىّ شىء ، فلا تجوز فى الحقّ ، وبخاصة إذا نزل الحقّ منزلة اليقين ! فالمساومة الاقتصادية قد تجرّ نفعا ، والمساومة العلمية ، — بمعنى مبادلة الأفكار — قد توصل إلى فكرة ، أما المساومة فى الحقّ الصريح ، وفى الحقّ الطبيعى ، وفى هداية الناس وتبصيرهم بما هم فيه ، وبما كانوا فيه ، فليس لها من نتيجة إلا الاستمرار فى الخصومة والجدل ! أى أن المساومة فى العقيدة ، المساومة فى الحقوق الثابتة ، ليس لها من وسيلة إلا الدفاع عنها ، وبالقوّة التى اضطُرّ الرسول الكريم أن يلجأ إليها بعد أن رأى الحقّ المُضاع ، والهوى المتَّبَع ، والعقائد التى تُطرح فى الأسواق طرح السِّلَع ، تُباع اليوم بثمن بَخْس ، وتقبل المزايدة غدا بثمن بخس ، وصاحب العقيدة المفرّط فيها خاسر اليوم وغدا ، وخاسر أبدا ، وخاسر فى الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين ! .

رابعا : إن فساد الحكم فى الأمة آت من أن الحاكمين تنقصهم العقيدة فى المبادئ التى ينادون بها . الذكاء غير العقيدة ، فقد يكون الحاكم ممتعا بكثير من الذكاء لاتنقصه موارية السياسة ، ولاتستطيع الدخول إلى نفسه من ضعف فى أساليبها ، وأفاعيلها ، وإنما ينقص الزعماء والحكامَ دائما إيمانٌ بما يدعون إليه ، وعقيدة فيما يدّعون ، فهم يتردّدون فيما يطلبون ، ويتوزّع هذا التردد بين الحاكمين فيتمزّقون شيعا وأحزابا ، يسلم فى حقه فريق ، ويستمسك بحقه فريق ، وحتى هذا المستمسك لايستمسك عن عقيدة فى الحق كله ، فيدرك بعضه ، ويفرط فى بعضه الآخر ، ويعتبر ما يجود به المتعصبون للحق منحة يهلّل لها ويكبّر ، ويدعو الناس إليها تهليلا وتكبيرا ، وهو لايدرى أن هذا القليل الذى انتزعه من حقه كان على حساب الكثير الذى فقده من عقيدته ، ودعا الناس إلى فقده من عقائدهم .

إنا نعتقد أن الحاكم أو الزعيم بلا عقيدة ، كالمسافر بلا زاد ، وكالذى يخبط فى الظلام لايتنوّر نجما ، ولا ينتظر فى سُراه هداية القمر . وأعتقد أيضا أن من حُرم العقيدة لاينبغى أن يلى شأنا من الشئون العامة ، فهو لايملك أية أداة من الأدوات التى يحمل بها الزعماء الناس على ما يريدون . وأعتقد أولا وأخيرا أن العقيدة الدينية هى الدافع الأوّل لما بعدها من العقائد فى السياسة والاقتصاد والاجتماع ، فمن حُرم العقيدة الدينية بقى طوال حياته سقيم التفكير ، مزعزع النفس ، لايستطيع أن يعمل خيرا ، ولا يستطيع أن يحمل الناس على خير .

فالإيمان بالله أولا ، هو الذى يعلم الإيمان بحقوق الوطن وحقوق المواطنين . هذه هى رسالة المصلحين ، وفى كتاب الله القدوة ، وفى رسوله الأُسوة . وقد صدق الله رسوله فى الوعد والوعيد المشتملة عليهما هذه الجملة القصيرة « لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ » ، فلم تنفع العقائد الفاسدة أربابها ، ولم يغن عنهم مالهم من الله شيئا ،

فنزلت آيات فى « أبى لهب » رأس المساومين فى الضلال « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وتَبَّ ، ما أغْنَى عَنْهُ مالُهُ وَما كَسَبَ ، سَيَصْلَى نارًا ذَاتَ لَهَبٍ »، وهو من هؤلاء الذين توعدهم الله بقوله « لَكُمْ دِينُكُمْ » . أما المؤمنون الذين أُمر الرسول عليه السلام أن يعبِّر عن عقيدتهم فى قول الله « وِلِيَ دِينِ » فهم الذين دخلوا فى دين الله أفواجا بعد أن جاءهم نصر الله ، فقابلهم الرسول بقول الله :

« فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّابا[1] » .

---

(١) سورة النصر ، من الآية ٣ .

أبو بكر الصديق

رجل العقيدة والسياسة والاجتماع

أمَّا أن « أبا بكر » رجلُ العقيدة ، فأمر تدلّ عليه نشأة الرجل فى الجاهلية ، وتصرّفاته فى الإسلام . كان فى الجاهلية يسمى « عبد الكعبة » ، فلما أسلم سماه الرسول « عبد الله » ولقبه بالعتيق ، وقال فيه : « مَنْ سَرَّهُ أنْ يَنْظُرَ إلى عَتِيقٍ مِنَ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إلى هٰذَا » . ولعل ما ذكره بعض المؤرّخين صحيح ، من أنه كُنِّىَ « أبا بكر » لأنه بكَّر بالإسلام ، وكان أول المعتقدين فى رسالة الرسول ، وأوّل المصدقين لدعوته من الرجال ، ومن هنا جاءه لقب ثان عرف به أكثر مما عرف بالقب الأوّل « أبو بكر الصدّيق » .

كان قبل أن يسلم وبعد أن أسلم موضع سرّ النبىّ ، ومَناط الرأى فى مشورته ، كثير التودّد إليه والتردّد عليه . ولما أسلم تبعه كبار الصحابة إلى الإسلام ، منهم « عثمان ابن عفان » و « عبد الرحمن بن عوف » و « طلحة » و « الزبير » و « سعد بن أبى وقاص » و « أبو عبيدة بن الجرّاح » . ويقول الرسول فى تلكؤ الناس لما دعاهم ، وفى مضاء أبى بكر لما دعاه « ما دَعَوْتُ أحَدًا إلى الإسْلام إلاَّ كانَتْ عِنْدَهُ فِيهِ كَبْوَةٌ وَنَظَرٌ وَتَرَدُّدٌ ، إلاَّ ما كانَ مِنْ « أبى بَكْرٍ » ما نَظَرَ حِينَ ذَكَرْتُهُ لَهُ ، وَما تَرَدَّدَ فِيهِ » .

اندفع إلى الإسلام بعقيدة ، لذلك كان حياتَه جريئا فيما يعتقد ، إذا سمع فكر ، وإذا فكر اعتقد ، وإذا اعتقد آمن واستيقن ، وإذا استيقن عمل ، فليس بين عقيدته وعمله إلا المضىّ فى العزم . كان جرىء القلب ، وكان رقيقه ، يحدب على الضعفاء

ويرقّ لحالهم ، ويخفف آلامهم ، ويجفف دموعهم : رأى « بلالا » مؤذّن رسول الله يعذّب لإسلامه ، ويلقى فى الشمس مشدودا ، مقيدا ، يعجز عن الحركة ، وينطلق لسانه بكلمة العقيدة الجديدة « أحَد . أحَد ! » فاشتراه من سيده وأعتقه .

صدّق الرسولَ فى رسالته برجاحة عقله ، وصدّقه فى معجزة فى الإسراء بقلبه ويقينه ؛ وما كان له أن يصدّقه فى الوحى ، ويكذّبه فى الإسراء ! رأى الأذى ينزل بالرسول وبالمسلمين ، ورآه عاجزا عن صدّ أذاهم ، فاشار على الرسول بالهجرة ، وأُذن له بما أشار به الصِّدِّيق الصِّدِّيق ، فكان الرفيق فى تلك السفرة ، وما أصعبها ! سارا فى أرض مليئة بالأشواك ، وفى صحراء واسعة تبرز الخيال ، وتجسم الظلال ، وتحت سماء واضحة تنير الطريق ؛ وعيون الأعداء مبثوثة بين الأرض والسماء ، والقوم رصَد للرسول وصاحبه ، همهم أن يرجعوا بهما ، أو برأسيهما ، ولكن عناية الله جعلت المعالم مجاهل ، والوضوح غموضا ، والضوء ظلمة ، فعميت الأبصار ، والتوت الظنون ، وسرَى الرسول وصاحبه فى مسرب الرمل ، واختفيا فى جنح الظلام ، وتحت جناح الطائر الميمون .

هاهوذا « أبوبكر » فى المدينة مع الرسول ، الأنصار فرحون بمقدمهما ، والمنافقون واجمون لظهورهما ، انتقلا وانتقل معهم المسلمون من مكر صريح ، إلى مكر مخاتِل مبيَّت ، هو مكر المنافقين يجادلون بالحقّ والباطل ، ويجابون بالحقّ فيقلبونه باطلا ، وهنا يظهر « أبو بكر » الهادئ الرزين ، فيجادل ويدفع بالتى هى أحسن ، ثم لايبالى وقد تحقّق من سخرية المنافقين أن يذهب إلى جمعهم ويصفع رئيسهم على مشهد من سامعيه .

يمرض الرسول مرض الموت فيقول لمن حوله : « مُرُوا « أبا بكْر » فَلْيُصَلِّ

بالنَّاسِ » ، ويجيب من حوله بأن « أبا بكر » ضعيف الصوت و « عمر » أرفع منه صوتا ، فيكرّر الرسول عبارته « مُرُوا أبا بَكْرٍ يُصَلِّ بالنَّاسِ » . وأخيرا يختار الرسولُ جوار ربه ، وينكر الناس وفاته ، ويأبى « عمر » أن يصدّق أن الرسول قد اختار ما عند الله ، ويهرول رفيق الغار إلى بيت الرسول ، فيجده مسجًّى على فراش الموت ! يروعه المنظر ، ويَجِمُ مع الواجمين ، ثم يستردّ نفسه وشعوره ، فيكبّ على وجه الرسول مقبِّلا متمسِّحا ، يتزوّد منه زاد المسافر ، ليستعين على ما بقى له من الطريق ، يستروح رائحة الجنة ، من هذا الذى فتحت له أبواب الجنان ، ويرجع إلى نفسه محوقلا مردّدا : « ما أطيبك حيا وما أطيبك ميتا يا رسول الله » ! ثم يلتفت إلى القوم الذاهلين ، فيقرأ الأحزان على وجوههم ، ويخشى أن تصيبهم الرجفةُ فى قلوبهم فيقول : « من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حىّ لا يموت » « وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أفإنْ ماتَ أوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ على أعْقابِكُمْ ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ على عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئا ، وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ » [1] . وكأن أبا بكر بهذه المقالة ، وهذه الآية ، يستبطن ما استتر فى خفايا النفوس ، فالقوم يتطلّعون إلى الغد ماذا سيكون الأمر فيه ؟ ومن يتولاه بعد الرسول ؟ ومن يختارون بعد هذا الذى اختاره ربه ؟ ! المهاجرون يرون أن الرسول منهم ، فيجب أن يكون الأمر فيهم ، والأنصار يرون أنهم نصروا ، وآوَوْا ، وواسَوْا ، واشتركوا فى نصرة الدين ، وفى سبيله ، فلمَ تخرج ولاية المسلمين من أيديهم ؟ ! والمنافقون من وراء هؤلاء وهؤلاء ، يضعون الحطب فى النار ، وينفخون ثانية ليشعلوها ، كما نفخوا فيها أولا ليطفئوها ، ويأبى الله فى الأولى وفى الأخرى إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون والمشركون .

---

(١) سورة آل عمران ، آية ١٤٤ .

يجتمع المسلمون فى سقيفة « بنى ساعدة » ، ويتولى « سعد بن عُبادة » نظرية الأنصار مدافعا منافحا ، ويعجزه المرض عن الكلام ، ولكنه يلتفت للمهاجرين ويقول : « كنتم أشدّ الناس عداوة على النبى من أعدائه » ، ثم يلتفت للأنصار ويقول « استبدّوا بهذا الأمر دون الناس ، فإنه لكم دون الناس ». ويقول المهاجرون . «نحن المهاجرون ، ونحن الصحابة الأوّلون » ويقول الأنصار « منا أمير ومنكم أمير » .

هؤلاء فى هَرْجهم فى سقيفة « بنى ساعدة » ، وآخرون فى قلقهم فى مسجد الرسول ، وأبو بكر و« علىّ » وأهل البيت مشغولون بالجثمان الطاهر ، يتزوّدون منه آخر النظرات ، ويستروحون من حوله طيِّب الرحمات .

يعلم أبو بكر أن الحادث قد حدث بين صفوف المسلمين ، وأن الأمر يتعلق بالأمة ، وأن «محمدا» قد مات ، والأمة يجب أن تحيا . يذهب ثلاثة المهاجرين «أبوبكر» و « عمر » و « ابن الجرّاح » إلى السقيفة ، وهنا يحتدم النزاع أكثر مما كان ، ويحاول « عمر » الكلام فيمنعه « أبو بكر » مخافة أن يفسد الأمر بشدته ، وهنا نعرف « أبا بكر » السياسىّ ، بعد ما عرفنا « أبا بكر » صاحب العقيدة التى لاتتزعزع ، وصاحب الخلق الهادئ الحكيم . يحمد « أبو بكر » الله ، ويذكر فضل المهاجرين ، أوّل من عبد الله وحده ، وأشجع من عبدَ الله وسط المظالم ، ولم يَفته والأنصار فى غليان الحدّة ، واضطراب النعرة ، أن يصفهم بأنهم أصحاب النصرة ، وأصحاب النسب ؛ ثم يلقى كلمة الحكم الفاصل « نحن الأمراء وأنتم الوزراء » . وهنا يصيح أنصارى : « إنّ المهاجرين يريدون أن يخذلونا » ، ويردّ « أبو بكر » بأن المهاجرين « أوّل الناس إسلاما ، وأكرمهم أحسابا ، وأوسطهم دارا ، وأحسنهم وجوها ، وأكثرهم ولادة فى العرب ، وأمسهم رحما برسول الله ؛ أسلمنا قبلكم ، وقُدّمنا فى القرآن عليكم » « وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ

اتَّبَعُوهُمْ بإحْسانٍ [١] » فنحن المهاجرون ، وأنتم الأنصار ، إخواننا فى الدين ، وشركاؤنا فى الفىء ، وأنصارنا على العدوّ ، أما ما ذكرتم فيكم من خير ، فأنتم له أهل ، وأنتم أجود بالثناء من أهل الأرض جميعا ؛ فأما العرب فلن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحىّ من قريش ، فمنا الأمراء ومنكم الوزراء ! » .

ويقوم واحدٌ من الأنصار ليقول : لا « منا أمير ومنكم أمير » وتشتدّ غضبة « عمر » ويقول : « والله لاترضى العرب أن يؤمِّروكم ونبيُّها من غيركم . . . من ذا ينازعنا سلطانَ «محمد» وإمارتَه ، ونحن أولياؤُه وعشيرته ، إلا مُدْلٍ بباطل ، أو متجانِفٌ لإثم ، أو متورّط فى هلكة » . ويقوم « الحُباب بن المنذر » مهدّدا ويقول : « يا معشر الأنصار لا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه ، فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر ، فإن أبَوْا عليكم ما سألتموه ، فأجاوهم عن هذه البلاد . . . » ويرى « عمر » أن السيف سيتكلم فيقول : « إذن يقتلك الله » ويردّ الحباب : « بل إياك يقتل » وانتضى « الحباب » السيف وضرب « عمر » على يده ، فسقط السيف ؛ وهنا ينهض أمين الأمة « أبو عبيدة » فيقول : « معشر الأنصار ، كنتم أوّل من نصر وآزر ، فلا تكونوا أوّل من بدّل وغيَّر » .

الأزمة مستحكمة ، والنفوس متوثبة ، والفرقة تنتقل بين الصفوف ، وهنا يطلع « أبو بكر » ويمسك بصاحبيه ويقول : « هذا عمر » ، وهذا « أبو عبيدة » ، فأيهما شئتم فبايعوا » . عندئذ ينتهز الفرصة «عمر» ويقول : « ابسط يدك أبا بكر» فيبسُط يده ، فيبايعه وهو يقول : « ألم يأمر النبىّ بأن تصلى أنت يا أبا بكر بالمسلمين ؟ » فأنت خليفة الله ، ونحن نبايعك ، لنبايع خير من أحب رسولُ الله منا جميعا .

أقبل الناس على « أبى بكر » بالمبايعة بالخلافة ، ويقوم الخليفة فى الناس خطيبا ، فيبين خطة الحكم ، ويبين أن العلاقة بينه وبين الناس علاقة تحددها الحقوق والواجبات

---

(١) سورة التوبة ، من الآية ١٠٠ .

« أيها الناس ، وُلِّيت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقوّمونى ، الضعيف منكم قوىّ حتى أردّ عليه حقه ، والقوىّ فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحقّ منه . لايَدَعُ قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذلّ ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء . أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت فلا طاعة لى عليكم » .

سكنت العاصفة الداخلية ، وأمنها المسلمون بفضل حلم وحكمة « أبى بكر » .

ولم يكن موقفه أمام العواصف الخارجية بأقلّ حزما : استفحل أمر مُدَّعى النبوّة ، من أمثال « مسيلمة » و « الأسود العنسى » ، والروم يهددون المملكة الناشئة من الطرف الشمالى ، والقبائل التى لم تتشرّب قلوبها حبّ الإيمان انتقضت على المبادئ الإسلامية ومنعت الزكاة ؛ حرب دينية ، أو حروب تهدّد المسلمين فى العقيدة ، وحرب سياسية ، أوحروب تهدد المسلمين فى الوطن ، وهذا جيش « أُسامة » الذى أعده الرسول ، ومنعه المرض من إنفاذ سيره ينتظر الأوامر ، و « أسامة بن زيد » شابّ لم يبلغ العشرين من عمره ، والمسلمون مضطربون فى أمره ، أيسير أم يقعد ؟ أيحارب المسلمين المارقين أم يحارب الكافرين المتعنتين؟ هنا يأمر «أبو بكر» « أسامة » أن يسير بجيشه واثقا به وثوق رسول الله ، ويسير ماشيا فى ركبه مودعا ، وأسامةُ يقتله الخجل ويقول : « يا خليفة رسول الله ! والله لتركبنّ أو لأنزلنّ » ، وأبو بكر يقول : « والله لاتنزل ، والله لاأركب ، وما علىّ أن أغبّر قدمىّ ساعة فى سبيل الله ! » .

وحانت ساعة وداع الجيش ، فودّعه بهذه الكلمات التى أودع فيها ماتنطوى عليه نفسه من العدل والحكمة والسياسة والكياسة : « أيها الناس قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى : لاتخونوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثّلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ،

ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ، ولا تذبحوا شاة إلا لمأكلة ، وسوف تمرُّون بأقوامٍ قد فرّغوا أنفسهم فى الصوامع ، فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له » .

يلتفت بعد ذلك إلى مانعى الزكاة يريد أن يقاتلهم ، ويمنعه « عمر » ويذكره قول الرسول : « أُمِرْتُ أنْ أُقاتِلَ النَّاسَ حتى يَقُولُوا لاإلَهَ إلاَّ الله ، فَمَنْ قالَها عَصَمَ مِنِّى مالَهُ ودَمَه » فيردّ أبو بكر ويقول : « والله لومنعونى عِقالا كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم متى استمسك السيف بيدى» ، وبرَّ بقسمه وقاتل مانعى الزكاة حتى أدّوْها .

هذا هو « أبو بكر » رجلُ العقيدة ، وهو « أبو بكر » رجل السياسة ، كانت تصرّفاته وراء عقيدته ، وكانت عقيدته تدفع تصرّفاته ، وهو أيضا « أبو بكر » الاجتماعى الذى لم يتساهل فى ضريبة الزكاة ، حق الفقراء على الأغنياء ، ولو تساهل لأسلم الناسَ بعضَهم إلى بعض ، ثم لأسلَمهم بعدُ إلى التطاول والفوضى .

تلك صفحات ناضرة يسجلها التاريخ لأبى بكر ليحفظها الناس ، ويسجلها الأدب لأبى بكر ليتغنى الناس بسيرته . وقد وصف «يزيد بن الحكم بن أبى العاص» موقف « أبى بكر » يوم السقيفة :

هَدَى اللهُ بالصِّدّيقِ ضُلاَّلَ أُمَّةٍ ... إلى الحَقِّ لمَّا ارْفَضَّ عنها نِظامُها

ورثاه حسان شاعر الرسول :

إذا تذَكَّرْتَ شَجْوًا من أخى ثِقَةٍ ... فاذكر أخاكَ أبا بكرٍ بما فَعَلا

التّالِىَ الثّانِىَ المَحمودَ مَشْهَدُهُ ... وأوَّلُ النَّاسِ منهم صَدَّقَ الرُّسُلا

وثانِىَ اثنين فى الغارِ المَنيفِ وقَدْ ... طافَ العدوُّ به إذ صَعَّدَ الجبلا

وكان حِبَّ رسول الله قد علموا ... خيرِ البرية لم يعْدِلْ به رَجُلا

نظام المجتمع فى القرآن الكريم

نظام المجتمع ، أو النظام الاجتماعى العامّ ، مما تكفل به القرآن الكريم فى مبادئه ونظمه واتجاهاته . وهو موضوع ضخم لاتستقلّ به إلا الدراسات الخاصة المستوعبة ، وبحسبنا هنا أن نقتصر على ناحيتين :

الأولى : فى علاقة الفرد بالمجتمع ، وعلاقة المجتمع بالفرد ، ثم ، فى علاقات الناس فيما بينهم ؛ وإذا أردنا أن نحدّد هذه العبارات فى كلمات علمية مما يدخل فى لغة الاجتماعيين والأخلاقيين ، قلنا : إن القرآن الكريم تعرض قبل كل تفكير ، وقبل كل مفكر ، لما يسمونه الآن بالفردية والجماعية والدولية فى لغة السياسيين ، أوالإنسانية فى لغة الأخلاقيين . وإن المتتبع لتصريف الآيات ، والدارس لأسباب النزول ، يرى أن القرآن الكريم خاطب الإنسان وخاطب فيه إنسانيته ، وما خاطب فى الإنسان والإنسانية إلا كوامن النفس ، وخبايا الضمير ، ودوافع القلب يثيرها ، ويستثيرها ، حتى يدرك الإنسان خلقه وتطوّره ، وتركيبه وإبداع هذا التركيب ، وحتى يدرك الناس مجتمعين أنهم أناسىّ وأنهم لآدم ، وأنهم من تراب ، وأنهم سواسية فى الحقوق والواجبات وما يترتب عليها ؛ فإذا كان الناس فى مكة وفى بداية الحضارة خاطبهم بما يفهمون ، وعرض عليهم صورا مما يتصورون ، حتى إذا انتقلوا إلى المدينة ، واقتهم الآيات بالمبادئ والأفكار يقرّرونها فى علانية ، ويناقشون فيها أهل الكتاب فى تدبر وروية ، ويدعونهم إلى كلمة سواء بين المؤمنين وبين المنكرين : ألا تعبدوا إلا الله ولا تشركوا به شيئا .

فخطاب الفرد خطاب عليم خبير بنفسه وبما تنطوى عليه « يأيها الإنسانُ

مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ، الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ، فِى أَىِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ » [١] « وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانُ ضُرٌّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ ، كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ » [٢] « إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلاَّ الْمُصَلِّينَ » [٣] .

والقرآن الكريم لايقتصر على وصف النفس البشرية ، بل يصف النفس الجماعية ؛ والناس منفردين كالناس مجتمعين لايخرجون على علمه ، ولا يدقون عن خبرته ، وسبحان العليم الخبير ؛ « حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِى الْفُلْكِ ، وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ، وَفَرِحُوا بِهَا ، جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ، وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ، دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ، فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ ، إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » [٤] . وما أكرم وألطف كلمة « هذه » فى الآيات ، فكل فرد أو جماعة إذا وقع فى ضائقة ، يسأل النجاة من هذه ، ومن هذه فقط ! حتى إذا وصل إلى برّ النجاة ، رجع إلى هذه ، وهذه ، مما كان فيه ، ومما كان عليه ! .

ويلاحظ أن خطاب القرآن للناس إنما يتوجه فيه إلى الإنسانية العامة ، فهو من هذه الناحية دعوة لكل الناس ، وهو من ناحية أخرى دعوة للأخلاق العامة التى يجب

(١) سورة الانفطار ، الآيات ٦ ، ٧ ، ٨ .
(٢) سورة يونس ، من الآية ١٢ .
(٣) سورة المعارج ، الآيات ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ .
(٤) سورة يونس ، من الآيتين ٢٢ و ٢٣ .

أن يكون عليها الناس ، ممّا يسميه علماء الأخلاق الآن بال Humanite أو الإنسانية ، ويتعبون أنفسهم فى المبادئ التى تفرض على الناس ويتواصل باسمها الناس « يَأيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ، وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِى وَالِدٌ عَنْ عَنْ وَلَدِهِ ، وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً [١] » . « يَأيُّها النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وشِفاءٌ لِمَا فِى الصُّدُورِ » [٢] . « يَأيُّها النَّاسُ إنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِنَ البَعْثِ فَإنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ . . . [٣] » . وأخيرا يخاطب الناس بهذه الآيات الجامعة التى تعود بهم إلى أصلهم ، والتى تأمرهم بأن يتعارفوا ، ليتفاهموا ، فأساس المعرفة الفهم والتعقّل ، وهى التى تساوى بينهم فى الحقوق والواجبات ، كما ساوت بينهم فى المنبت والميلاد « يَأيُّها النَّاسُ إنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى ، وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا ، إنَّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أتْقاكُمْ [٤] » . فإذا انتهت الآيات من الإنسان ومن الناس عامّة ، التفتت إلى المؤمنين ، فخاطبتهم بحقّ ما فى نفوسهم من إيمان ، وبحقّ ما فى قلوبهم من حرمة اليقين « يَأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاتَرْفَعُوا أصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِىِّ [٥] » . « يَأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا » أو « فَتَثَبَّتُوا [٦] » فى قراءة . « يَأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لايَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ [٧] »

---

(١) سورة لقمان ، من الآية ٣٣ .
(٢) سورة يونس ، من الآية ٥٧ .
(٣) سورة الحج ، من الآية ٥ .
(٤) سورة الحجرات من الآية ١٣ .
(٥) سورة الحجرات ، آية ٣ .
(٦) سورة الحجرات ، آية ٦ .
(٧) سورة الحجرات ، آية ١١ .

« يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن » [١] ، « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته » [٢] . « ياأيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول » [٣] . « يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة » [٤] . « يأيها الذين امنوا لاتتولوا قوماً غضب الله عليهم » [٥] . فإذا لم تنفع الإنسانية ولم يُجد الإيمان فى الدعوة والخطاب ، وقفت الآيات موقف المنذر المعذر « يأيها الذين كفروا لاتعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون » [٦] . « وقل للذين لايؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون ، وانتظروا إنا منتظرون » [٧] . « ويقول الذين كفروا لست مرسلا ، قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ، ومن عنده علم الكتاب » [٨] .

هذا هو خطاب القرآن للإنسان وللإنسانية وللمؤمنين ، ومن هنا حقت دعوته على الناس كافة ، وحقت رسالته إلى الناس عامة . ويضطرب الاجتماعيون والأخلاقيون اضطرابهم فى تطوّر الإنسان ، وتطور الأمم ، وتطوّر الإنسانية ، فلا يجدون أجمع ولا أصدق من هذه المبادئ التى جاء بها صاحب الدعوة وصدّقت من أيدها « يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً » [٩] .

---

(١) سورة الحجرات ، آية ١٢ .
(٢) سورة الحديد ، من الآية ٢٨ .
(٣) سورة المجادلة ، من الآية ٩ .
(٤) أول سورة الممتحنة .
(٥) آخر سورة الممتحنة .
(٦) سورة التحريم ، آية ٧ .
(٧) سورة هود ، الآيتان : ١٢٢ ، ١٢٣ .
(٨) آخر سورة الرعد .
(٩) سورة الأحزاب ، الآيتان ٤٥ ، ٤٦ .

الناحية الثانية : فى المجتمع نفسه ، وفى مشكلة الطبقات ، أعنى بها مشكلة الفقر والغنى ، وهذه أيضا حلها الإسلام لا بالدعوة الهادمة ، ولا بالنظرية الظالمة ، ولكن بالحسنى ، وبإثارة العاطفة ، وبشكر الله على إعطائه الغنى ، وما شُكْره إلا فى رعاية الفقير والمسكين واليتيم وابن السبيل ، وإغاثة الناس يوم الشدّة والمسغبة ، واقتحام الغنىّ العَقَبة ، وما العقبة إلا « فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ، أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ »[1] .

طلب الدين من الغنىّ الذى فضله على الفقير فى الرزق ، أن يفيض هذا الغنى عليه من مال الله الذى استخلفه فيه ، لا أن يكنزه ويستأثر به ، وتوعّد الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بالعذاب الأليم ، والوعيد الشديد ، كل هذا ليرضَى الناس بعضهم عن بعض ، وليرضِىَ الناس بعضُهم بعضا . ولم يكتف الدين بهذا الإحسان مخافة الأثرة التى يمكن أن يستبد بصاحبها ، فجعل للسائل والمحروم حقا معلوما ، يشبه أن يكون دَينا ، أو هو الدَّين بعينه ، يجبيه ولىّ الأمر طوعا أو كرها ، ويوزّعه على أهله من الفقراء والمعوزين ، فلم تُعرض مسألة الطبقات فى الدين كما عرضها الفلاسفة والاجتماعيون ، عرضا جدليا قابلا للمناقشة والمحاورة ، بل جعل المسألة من المبادئ الأساسية التى قام عليها نظام الإسلام ونظام الحكم . وأخيرا هدّد الأغنياء إذا قصروا بالمحو والاستبدال .

« هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ ، وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ، ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ »[2] .

---

(٢) سورة البلد ، آية ١٣ ومابعدها

(٣) آخر سورة محمد عليه الصلاة والسلام .

طبقات الناس فى القرآن الكريم

« قُلْ أعُوذُ بِرَبِّ النَّاس ، مَلِكِ النَّاس ، إلَهِ النَّاس ، مِنْ شَرِّ الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاس ».

افتُتح القرآن الكريم بسورة الفاتحة ، وفيها الاستعانة بالله ، وبه وحده « إياك نعبد وإياك نستعين » ، واختتم بسورة الناس ، وفيها الاستعاذة به من شرور الوساوس وشرور الشياطين . فالقرآن افتتح بالاستعانة ، واختتم بالاستعاذة ، والاستعانة بالله ، والاستعاذة بالله ؛ فالأمر منه وإليه بدئا وأخيرا .

وكما أمرنا ألا نستعين إلا به ، أمرنا ألا نستعيذ إلا به « قُلْ أعُوذُ بِرَبِّ النَّاس ، مَلِكِ النَّاس ، إلَهِ النَّاس ، مِنْ شَرِّ الوَسْوَاسِ الخَنَّاس ، الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاس » . فهو ربّ الناس ومربيهم ، وهو الذى أفاض عليهم بعدله وإحسانه ما يصلح به شئونهم ، ويدفع عنهم ما يضرّهم ، وهو ملك الناس ومالكهم ، فما يربيه الناس قد يخرج عن حوزتهم بعد التربية ، أما ما يقع تحت قدرته فلا يخرج عن حوزته « لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى المُلْكِ ، وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا »[1] . وهو بعد ذلك « إله الناس » فليست تربيته لخلقه وتملكه شئونهم مجرّد استيلاء مستبدّ ، وتسلط قاهر ، كما هو قصارى جهد الملوك المسيطرة على الأرض ، وإنما هى عبودية مؤسسة على الألوهية المقتضية للقدرة التامة على التصرّف المطلق ، بما فيه من الإحياء والإماتة ، والنشأة والنشور ، والقبض والبسط ، والإيجاد والعدم . فإذا كان فى الناس ربّ لشىء أو لأشياء يربيها وينميها ومآلها إلى زوال ، وإذا كان

(١) سورة الفرقان ، آية ٢ .

للناس ملك يُعطَى الملكَ ثم يُخلعه ، وإذا كان فى الناس من يتأله ويطلب القداسة ، ومآل قداسته إلى الذلّ والهوان ، فإن الله ربّ العالمين ، هو ربّ الناس أبدا ، وملك الناس أبدا ، وإله الناس أبدا ، لاربّ غيره ، ولا إله غيره « رَبُّ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ وَما بَيْنَهُما إنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُون » [1] .

ولكنّ الناظرين فى نظم القرآن وفى إعجازه ، يقفون وقفة طويلة أو قصيرة أمام هذه الآيات القصار ، ويرون فيها نوعا من الإعادة والتكرار ؛ فكلمة « الناس » كرّرت فى هذه السورة القصيرة خمس مرّات : ربّ الناس ، وملك الناس ، وإله الناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس ، من الجنة والناس . وكما قالوا فى سورة « الكافرون » إنه تكرار مخلّ بالنظم ، ومانع من التحدّى ، سيقولون هنا ، أوهم قد قالوا إن فى السورة تكرارا لكلمة « الناس » خمس مرات ، والتكرار مخلّ بالنظم ، ومخلّ بالفصاحة ، ومانع من التحدّى . والحق أن كتاب الله منزّه عن التكرار المقحم ، والزيادة المستغنى عنها ، وكل كلمة فيه لها معناها ومغزاها ، ولا يستغنى بإحداها عن الأخرى ، فكلمة الناس كرّرت أولا ثلاث مرات لتدلّ على ثلاث مراحل من التطوّر الطبيعى والاجتماعى لسنة الخلق والتكوين ، فهو « ربّ الناس » لما كانوا أجنّة فى بطون أمهاتهم لايعلمون شيئا ، فشقّ لهم السمع والأبصار ، وخلق الأفئدة لعلهم يعلمون ، وهو ربّ الناس بعد وضع الأمهات ، يدرّ اللبن ، ويهدى الغرائز إلى التغذية ، وفى الغرائز تمييز بين النافع والضارّ ، وتهدى الغرائز إلى اندفاعات من التمييز والتفكير حتى ينمو العقل ، وتنمو الإرادة ، وهى السلطة القوية التى تقف أمام الوساوس والأوهام ، • تلك هى المرحلة الأولى للخلق والتكوين . أما المرحلة الثانية فهى مرحلة الشباب والرجولة ؛ وفى هذه المرحلة تحتاج الناس إلى الالتجاء إلى الحكم ، وإلى أساليب السياسة ، يعرضون عليها ما يهمهم فى هذه الحياة التى بلغت أشدها وبلغوا

(١) سورة الشعراء من الآية ٢٨ .

أشدهم معها، فالناس فى حاجة إلى المَلك وإلى السلطان، والله وحده « ملك الناس »، يصرّف شئونهم حسبما تقتضيه الحكمة والعدالة والرحمة التى كتبها على نفسه، فهو الملك القادر المتعالى عن استبداد الملوك، وهو الحكيم العدل، وهو اللطيف الخبير.

أما المرحلة الثالثة، فهى مرحلة الشيخوخة، شيخوخة الحياة، وشيخوخة الحكم؛ فالناس إذا أدركهم الضعف، وتقدمت بهم السن، لجئوا إلى « إله الناس »، وإذا أدركتهم شيخوخة الحكم وفساده، لجئوا إلى « إله الناس » يطلبون منه العدل الذى لايجدونه فى الحاكمين، ليستبدل بالطغاة الظالمين، حاكمين رحماء، يعرفون حقوق الناس، لأنهم يخافون ربّ الناس، وملك الناس، وإله الناس. ويكون الأمر فى نظم الآيات ملائما لسنة التطوّر فى الأفراد والجماعات، فالفرد منا إذا همه أمر، أو غلبه غالب، التجأ إلى مربيه من الوالدين والأقربين، ثم يلتجئ إلى القانون والحكام، فإن لم يجد الإنصاف عندهما التجأ إلى إله الناس. وكذلك أمر الرسول وأمر الناس أن يستعيذوا بالله « ربّ الناس » و « ملك الناس » و « إله الناس ». فكلمة الناس كرّرت ثلاث مرات، تمشيا مع هذا التطوّر فى الخلق وفى المجتمع الذى يعيش فيه الناس، ثم كرّرت مرّتين؛ فالناس مطالبون أن يستعيذوا بالله ربهم ومالكهم وإلههم، من شرّ الوساوس التى يوسوس بها الشيطان الخناس، الذى يخنُس ويرجع ويهرب إذا ذكر اسم الله والتجأ الناس إلى ربهم، والناس الذين يوسوس الشيطان فى صدورهم هم الصالحون الذين يحاول معهم الشيطان بوساوسه أن يبعدهم عن سواء السبيل، أما الشريرون فلا يوسوس لهم الشيطان، لأنه يسكن نفوسهم ويستولى عليها، وهؤلاء هم الذين ذكروا فى آخر السورة « من الجنة والناس » أى من شياطين الجن وشياطين الإنس. هذا هو السرّ فى تكرار الناس خمس مرّات، فالمستعاذ به هو الله ربّ الناس أجنّة وأطفالا، وملك الناس شبانا ورجالا، وإله الناس شيوخا ضعافا؛ والمستعاذ منه الشيطان الذى يوسوس فى صدور الناس الصالحين، والشيطان منه الجنة المستترة، ومنه الناس الذين يعيشون

معنا . وإذن تتحقق بلاغة النظم، وينزّه القرآن عن الزيادة والإعادة، ويتعالى مُنْزِله عن ذلك علوّا كبيرا . والسورة على قصرها تشتمل على حقائق ودقائق :

أولا : أن هذه الوسوسة فى أمور الدين والدنيا ضارّة بصاحبها فى نفسه وبدنه، وأنها تدلّ على ضعف كبير فى العزيمة والإرادة يداويها الآن علماء النفس بما يسمونه الإيحاء الذاتى والغيرى ، ويداويها القرآن قبلهم بهذا الإيحاء الدينى ، فإذا تردّدت الإرادة وتشكّكت ، أو التبس عليها الأمر فى العزم والمنع ، فليستعذ الموسوس له بالله ربّ الناس وملكهم وإلههم ، حتى يكون من عباد الله . والله يقول « إنَّ عِبادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطان » [1] .

ثانيا : فى تسمية الوسواس بأنه خناس : أى يخنُس ويهرب بمجرّد ذكر الله ربّ الناس وملكهم وإلههم ، دليلٌ على إمكان طرد هذه الوساوس بسرعة ، فالشرّ جبان بطبعه ،لايقوى على الوقوف أمام الخير . وفى النفس الإنسانية قوى تعمل العمل كاملا ، حتى إذا وصلت إلى النتيجة خنست وهربت ، فليستعذ الإنسان من شرّ نفسه كما يستعيذ من الشيطان .

ثالثا : يستفاد من آية « مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاس » ما يستفاد من آية أخرى : « شَياطِينِ الإنْسِ وَالجِنّ » [2] فليستعذ المؤمن أيضا من شر الناس، كما يستعيذ من شر الشياطين ، فهناك قرناء السوء الذين لايكتفون بالوسوسة ، ولكنهم يسلكون سبيل الانحدار إلى الرذيلة بمن يستسلم لشرورهم وأهوائهم .

وبعد : فإن سورة « الناس » آخر سورة فى القرآن ، وكما أمرنا الله فى فاتحة الكتاب بأن نستعين بالله ربّ العالمين « إياك نعبد وإياك نستعين » يأمرنا أن نستعيذ بربّ الناس ملك الناس إله الناس ، من شرور الناس وشرور الشياطين وشرور أنفسنا ، لتكون فاتحة الكتاب استعانة بالله ، ولتكون خاتمة الكتاب التجاء إلى الله .

---

(١) سورة الحجر ، من الآية ٤٢ .

(٢) سورة الأنعام من الآية ١١٢ .

الأسرة وعلاقة الآباء والأبناء

أولادنا منا ، وقطعة من أنفسنا ، أو هم كما قال الأول : « أكبادنا تمشى على الأرض » ولا مناص من حبهم والإخلاص لهم ، فتلك عاطفة طبيعية ، يكاد يستوى فيها الناس كافة ، عالمهم وجاهلهم ، غنيهم وفقيرهم ، وأساس العاطفة هنا حيوى صرف مستمدّ من لحمة الدم وطبيعة الحياة ، حتى إذا كبروا بادلناهم الكثير من العواطف الإنسانية ، وشعرنا قبل شعورهم بكثير من الواجبات نحوهم ، ثم نأخذ مع تقدم السنّ بهم قليلا قليلا إلى تقدير الحقوق والواجبات التى تحدّد العلاقات بيننا وبين أولادنا .

وترسم لنا الدراسات العلمية التربَوية والنفسية ، أننا نجتاز بأولادنا مرحلتين فى الشعور بالحقوق والواجبات :

المرحلة الأولى تبدأ من الثانية إلى الثامنة ، والمرحلة الثانية فيما بعد الثامنة ، وتستمرّ طويلا حينما يكون الطفل غلاما فيافعا فشابا فرجلا .

فى المرحلة الأولى نلقنهم مبادئ الأخلاق والفضيلة عن طريق التعوّد الذى ينتهى بهم إلى كسب العادات الفاضلة ، وعن طريق الإلزام أحيانا ، لحملهم على الأوضاع الصحيحة ، واكتساب المُثل الفاضلة فى الآداب والأخلاق . ومهما قرّر المربون من ضرورة الإفهام والتفهيم ، وتقرير العلاقات بين الأشياء ، وارتباط أسبابها بمسبباتها ، فهم يرجعون آخر الأمر إلى ضرورة الأخذ بالنافع ، والإلزام بما يفيد ، لأن منطق الطفل فى هذه المرحلة الأولية لم يستكمل بعد ، وليس لديه من قوّة الإدراك ما يجعله يوازن بين الأشياء ليتخذ منها أفضلها ، وليلتزم منها الصالح والأوفق لسلوكه وأخلاقه ، لذلك يسمى المربون هذه المرحلة بمرحلة الخلق الضاغط المنزم من ناحية

واحدة هى ناحية الآباء وناحية المربين . وبحسبهم مع هذا الضغط أن يبينوا وجه المنفعة فيما يصدرون من أوامر، حتى لايكون الطفل آلة فى أيديهم ، وحتى لايشلّ هذا الضغط ما فى الطفل من استعداد للفهم وتحليل الأشياء . لذلك يستحسن هؤلاء المربون فى تعليم الأخلاق وتهذيبها أن تعرض على الأطفال المشاكل الخلقية والقضايا ذات الناحيتين فى الفضيلة والرذيلة، وحسبه أن يقول هذا حسن، وهذا قبيح، وهذا مما ينبغى وهذا مما لاينبغى . على أنه مع هذه الحرية لايتحرّج المربون من الإلزام والشدّة أحيانا إذا دعت الحال ، فلا تجاب رغائب الطفل دائما ، ولا ينبغى أن ينزل الكبار على إرادته دائما ، فهناك حدود يجب أن يلتزمها ، وهناك شهوات يجب أن تكبت، مخافة أن تستحكم فتتحكم فيه وفى تصرّفاته فيما بعد .

وهذه المرحلة الأولى أساسية فى التربية الأسرية ، وفى التربية فى الحياة بوجه عام، فالطفل الذى تعوّد منذ طفولته العادات الطيبة، والذى تعلم أن الحياة ليست له وحده، بل له ولغيره ممن يعيش معه فى محيط الأسرة ، ينشأ مقدّرا للأمور ، مستعدّا لمقابلة الحياة بما فيها من أخذ وعطاء ، وغضب ورضا ، ولين وقسوة ، ويسهل تعليمه وتسهل قيادته . والمدرسة تعتمد كثيرا فى التربية الخلقية على التربية المنزلية ، فإن الأخلاق لا تلقن كمسائل العلم ، ولكنها كسب فضائل وكسب عادات ، وسلوك للطريق الذى ينحدر بالإنسان إلى فائدته ومنفعته ، ومجانبة للطريق الذى يؤذى الإنسان أو يضرّ بغيره ، ممن يعيش معه فى جماعة واحدة .

أما فى المرحلة الثانية حينما ينتقل الطفل من الطفولة الأولى إلى الطفولة الثانية ، ومن الطفولة الثانية إلى مرحلة الشباب، فتربيته تحتاج إلى كثير من الرعاية . والأخلاق وفى هذا الدور احترام متبادل بينه وبين الآباء أوّلا ، ثم بينه وبين الناس ، فالضغط فى هذه المرحلة يقتل فيه الشخصية ، والإلزام يقتل فيه قوّة الحكم والإرادة . ففى

هذا الدور لاتلقى إليه المسائل الخلقية إلقاء ، بل يبصر بما فيها من خير وشرّ ، ويُعمد إلى تحليل ما فى عناصرها من خير وشرّ ، حتى يقتنع بها ، ومتى اقتنع بها التزمها ، فتكون فيه عادة عقلية أرقى من العادة الآلية التى أقام عليها فى طفولته .

والدين الإسلامى يراعى هاتين المرحلتين فى الطفولة تمام المراعاة ، فهو يكلف الأب أن يأمر طفله بالصلاة ، ويوجهه التوجيه الدينى فى السابعة من عمره ، حتى إذ بلغ العاشرة من عمره ، أجاز لولىّ الأمر أن يازمه بالشدّة والجبر ، حتى يلتزم ما تعوّده فى الصغر . فنى الصلاة يقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « مُرُوهُمْ بِها لسَبْعٍ ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْها لِعَشْر» . فالرسول يعتبر الطفولة الأولى ممتدة إلى السنة العاشرة ، وفيها يقرّ مسألة الجبر والإلزام ، وعلماء النفس يقفون عند السنة الثامنة ، وعندها يرفعون الشدة والإلزام ، ويحاولون تحليل المسائل وتبادل الأفكار بين الطفل وبين الكبير ، إلا أنّ تقسيمهم للطفولة إلى مرحلتين تنتهى الأولى عند السابعة أو الثامنة ، وتنتهى الثانية عند العاشرة ، أما ما بعدها بقليل ، فيقرّر ما قرّره من قبل الرسول الكريم ، من مراعاة العلاقة بين السنّ الزمنية والسنّ العقلية .

مما قدمنا يتبين أن علاقاتنا بأولادنا يجب أن تتغير تبعا لأسنانهم ، وتبعا لمقدار ما أفادوه من ثقافة وتعليم ، وإن ما نعانيه ولا نزال نعانيه من أزمة فى تقدير العلاقات بيننا وبين أولادنا ، مردّه إلى أننا نسير على وتيرة واحدة فى تربيتهم وفى معاملتهم : فإما أننا نعاملهم بشدة مطلقة فى جميع ظروفهم ، وفى جميع سنى حياتهم ، وإما أن نتراخى معهم فى المعاملة ، فنترك لهم حريتهم كاملة ، وتصرّفاتهم من غير تعقيب عليها ، أو حدّ من مغالاتها ، تحت تأثير مافهمناه خطأ من حرية الأولاد ، وتربيتهم على الحرية غير المحدودة .

وترجع الأزمات الخلقية بين الأولاد وآبائهم إلى أمور ثلاثة :

الشدّة المتناهية فى المعاملة ، فالآباء يمثلون جيلا اجتماعيا خاصا ، والأبناء يمثلون جيلا اجتماعيا آخر ، وكل يحاول أن يثبت شخصيته وسلطته ، وطبيعىّ أن يتغلب

جيل الآباء ، لأن السلطة الأُسْرية بأيديهم ، ولأنهم يملكون من الابن معاشه وبسطه وتقديره ، فالآباء الجهلة يسيئون استعمال هذه السلطة ، ولا يغيرون معاملة أبنائهم حسب ثقافتهم وحسب أسنانهم ، فتسوء العلاقات بينهم ، ويتمنى الولد موت أبيه حتى يستمتع بحريته ، خصوصا إذا كان ضغط الأب شديدا فى المسائل المالية ، أى ضغطا يصل بابنه إلى درجة الحرمان ، وإذا مات هذا الأب البخيل سيئ التصرّف لحق به ابنه ، فيموت قبل الأوان موتا أدبيا ، بعد أن يبدّد ثروته أو ثروة أبيه ، وبعد أن يسىء إلى نفسه ، ويسىء إلى ذكرى أسرته .

الأمر الثانى : الجرى مع السهولة المتناهية فى معاملة الأولاد ، وإجابة كل رغائبهم ، وترك أمورهم إلى أنفسهم ، فى غير رقابة ولا محاسبة ، فيظلّ الولد طفلا وهو فى العشرين من عمره ، لايعرف من الحياة إلا وجهها الواضح ، حتى إذا تجهمت أمامه الحياة بعد موت والده أو فى حياته ، ذلّ واستخذى ، من غير أن يجد فى نفسه الشجاعة والجلد لمصابرتها والتغلب على شدتها .

وأمر ثالث نعانيه الآن فى الأسرة بعد انتشار التعليم ، وبعد أن قدّره الآباء الذين ليس لهم حظ من الثقافة والتعليم ، فعلّموا أبناءهم ، وأوردوهم منهل العلم العذب ، وكانوا محرومين منه . هنا نلحظ عدم التكافؤ فى الأسرة ، فالابن متعلم والأب جاهل ، والبنت متعلمة والأم جاهلة ، فسقف البيت يخيم على أخلاط من التفكير ، وأمر الأسرة مختلف جدا ، فالابن يفكر والأب يتسلط ، والبنت المتعلمة تريد ، والأم الجاهلة تمنع ، فإذا اصطدمت هذه الإرادات المتضاربة ، عاشت الأسرة فى جحيم من الخلاف والشقاق ؛ وإذا تراخت بعض هذه الإرادات أمام بعضها الآخر ، كان ذلك فى الغالب على حساب الأخلاق والتفكك الأسرى ، الذى يتبعه التفكك الاجتماعى ! هنا لابد لنا من أن نلجأ إلى العلم وإلى المتعلمين فى الأسرة الجاهلة ، فعند العلم حلّ المشكلات . نريد أن نقول للابن المتعلم : إن هذا الأب الذى لم تسمح له ظروفه بالدراسة أو باستكمالها ، ليس جاهلا مادام قد قدّر قيمة العلم فى ولده ، ومادام لم يرض لولده

ما ارتضاه لنفسه ، أو ما ارتضته له ظروفه . ونريد أن نقول للبنت المتعلمة : إن هذه الأم ليست بجاهلة مادامت تفخر بفضيلة العلم فى ابنتها ، ونريد أن نقول للاثنين : إن أولى الناس برعايتهما وبمعروفهما من قدّم لهما المعروف . لذلك يأمر الدين فى أمر الخلاف بين الولد وأبيه إذا تناول العقيدة — وهى أعزّ ما يملك الإنسان — أن ينحاز الولد بعقيدته بعيدا بدينه ، قريبا بمعروفه إلى أبيه « وَإِنْ جاهَدَاكَ على أنْ تُشْرِكَ بِى ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَصَاحِبْهُما فِى الدُّنْيا مَعْرُوفا » [١]

وأخيرا نختم هذه الكلمة بتلك الآية الكريمة « وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسانا ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُما وَقُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيما . وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِى صَغِيرًا » [٢] .

والآيات فيها ناحيتان نفسيتان خلقيتان : الناحية الأولى أن المسألة مسألة واجبات متبادلة ، وديَن فى عنق الولد لأبيه ، فالتربية الأولى من الوالدين تقابلها الرحمة بهما ، والحدب عليهما ؛ والناحية الثانية هى دين الحياة نفسها ، فالولد الصغير سيدركه الكبر ، وسيلحقه الضعف ، فإذا رحم والديه فى حالة الضعف وهو قوىّ ، وجد من قوّة أولاده من يعينه على ضعف الحياة ، فالحياة دين ، وكما تدين تدان ، وقوّة اليوم تتحوّل إلى ضعف فى الغد ، وضعف اليوم يتحوّل إلى قوة فى الغد . مرّ شيخ أضناه المرض ، وأثقلته السنون على شبان يمرحون ويلهون ، فانبرى واحد منهم يهزأ به ويُضحك رفاقه عليه ، فقال : أراك أيها الشيخ تمشى مِشية المقيّد ! فمن قيّدك ؟! فالتفت إليه الشيخ وقال : « قيّدنى يا بنىّ من يفتِل لك فى الحبل ! » .

---

(١) سورة لقمان ، من الآية ١٥ .

(٢) سورة الإسراء ، الآيتان ٢٣ ، ٢٤ .

الأنانية والغيرية

الأنانية غريزة من الغرائز ، تدفع صاحبها إلى الأثَرة ، وإلى الاستئثار بكل خير يصل إليه ، هذا هو أصلها . وقد تَضْرى هذه الغريزة ، فتجعل صاحبها يعيش لنفسه فقط ، ويهمل أقرب الناس إليه من زوجه وولده ، وذوى قرابته . وهذه الغريزة تنزع فى أصلها إلى غريزة أخرى لاتقلّ عنها شدة وضراوة ، هى غريزة البقاء . وقد يقتتل الإنسان ويحترب ، لادفاعا عن النفس — فذلك دفاع مشروع — ولكن حبا فى الجمع واللمّ ، ينفق فى سبيلهما كل جهد ، ويتوسل لهما بكل الوسائل مشروعة وغير مشروعة ، فتثير غريزة الأنانية فيه غريزة أخرى أشدّ فتكا ، وأبعد فى التطاول والتعدّى ، أعنى بها غريزة المقاتلة . فغريزة البقاء وما إليها من الغرائز التى تتجاذب معها المنفعة الخاصة كالأنانية والمقاتلة هى أصل الشرّ ، والذين يقرّرون من علماء الأخلاق أن الإنسان شرّير بطبعه ، وأن الخير طارئ على نفسه ، يعتمدون على أن هذه الغرائز هى أول ما يبدو فيه ، وهى أولى الدوافع التى تغريه بالتعدّى البالغ حدّ الظلم والتطاول .

وَالظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ النُّفوسِ فإن تَجِدْ ذا عِفَّةٍ فلِعِلَّةٍ لا يَظْلِمُ

والغريزة كما يدل عليها اسمها خلقة وطبيعة ، لذلك كانت تربيتها ، وتغيير مسالكها ، من أهم ما يلتفت إليه المصلحون من رجال التربية والاجتماع ، فهم يريدون أن يشغل المربون والآباء أنفسهم بهذه الغرائز يحدّون من اندفاعها ، ويغيرون من مسيرها ، ويطامنون من جامحها بالتعديل والتحوير والتعلية والتسامى . والدين عامل مهمّ من عوامل هذا التعديل ، فهو يأمر بالإحسان « فأمَّا اليَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ ، وأمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ[1] » . ويأمر بالإيثار « ويُؤْثِرُونَ على أنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ

(١) سورة الضحى ، الآيتان ٩ ، ١٠ .

خَصَاصَة »[1] أى شدة وحاجة . ويأمر الدين أيضا بإيثار الخير على المال المحبوب ، فالمحسن الحقيقى هو الذى ينفق من المال المحبوب ، ومن الأثير على نفسه من أمواله «لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حتى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ »[2] وسمع هذه الآية الخليفة الرابع «عثمان ابن عفان » فخرج للمسلمين عن بئر « بير حاء » وما حولها من الأراضى الجيدة الخصبة ؛ فالذى يعطى من المال المحبوب خير من الذى يعطى من الفاضل من أمواله ، لأن الأول يتردّد بين عاطفتين ، عاطفة من الإيثار دافعة ، وأخرى من الأثرة حاجزة ، فإذا أنصت للعاطفة الأولى كان غيريًّا فى أخلاقه ، محبا للناس ، يشركهم فيما يحبّ إشراكا ينتهى به إلى الإيثار والخروج عما يحب ، وإذا دافع النزعة الثانية اتصف بالإحسان ، ولكن لايتصف بالإيثار . والفرق بينهما أن المحسن قد يعطى للسمعة والشهرة ، وقد يعطى للتفضل والإدلال بأنه صاحب اليد العليا ، وأنه من المحسنين . أما المؤثر على نفسه والمتبرّع بأحبّ ماله إليه ، فهو المحسن حقا ، الداخل فى زمرة المحسنين الذين وصفهم الله بقوله « وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ على حُبِّهِ مِسْكِيناً ويَتِيما وأسِيرًا ، إنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لانُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا »[3] .

هذه التربية مطلوبة لتحوّل غريزة الأنانية ، تلك الغريزة الفردية إلى غريزة اجتماعية يرتفق بآثارها كثير من الناس . وتحت تأثير الغرائز الاجتماعية ، يتمثل الإنسان حال إخوانه من المعدمين الذين لايجدون ما ينفقون ، ومن الضعفاء الخيرين الذين تدفعهم هممهم إلى الخير ، وتقعد بهم فاقتهم فينصرفون عن الخير أشد مايكونون حبا فيه ، « وأعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً ألاَّ يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ »[4]

---

(١) سورة الحشر ، آية ٩ .
(٢) سورة آل عمران ، آية ٩٢ .
(٣) سورة الدهر ، الآيتان ٨ ، ٩ .
(٤) سورة التوبة ، آية ٩٢ .

الغرائز الاجتماعية من حبّ المساعدة ، والميل إلى الناس ومصادقتهم ، وإيلاف العشرة ، وإيثار المحبة ، غرائز تنقلب مع التربية إلى عواطف أساسها الغريزة الغيرية ، التى لا تظهر فى الإنسان إلا متأخرة ، وربما لا تظهر أبدا فى الإنسان الذى تستبدّ به الغريزة الفردية من الأنانية ، وإذا كانت الغرائز الغيرية متأخرة فى الظهور ، فلأنها فى غالب الأمر نتيجة تعديل وتهذيب للغرائز الفردية المتصفة بالأنانية .

لهذا ، ولأن بعض علماء الأخلاق يرى استبداد الغرائز الفردية برغم وسائل التربية والاستعلاء ، ويعتقد أنها لا تؤثر إلا تأثيرا سطحيا متظاهرا ، قرر الكثيرون منهم مبدأ الفردية أو المنفعة الشخصية أساسا للأخلاق ، ويسمى معتنقو هذا المذهب بالنفعيين utilitarisme ، فهم يقرّرون أنه ليس من السهل أن يخرج الإنسان عن طبيعته من الأنانية والفردية ، ويطلبون منه العمل الخلقى باسم الأنانية — إن صحّ هذا التعبير — معتقدين أن هذه الأنانية ستجرّه حتما إلى الغيرية ، فالعمل الفردى لا يلبث بطبيعته أن يتحوّل إلى عمل اجتماعى ، بضرورة الاشتباك غير المنفصل ، أو الذى لا يقبل الانفصال بين الفردية والجماعية . فهم يطلبون الإحسان من الفرد باسم منفعته ، لا باسم منفعة الغير ، فبدل أن يفاجئوه ويفجعوه فى غريزة الأنانية ، ويقولون له « أحبّ غيرك » يقولون له كما تقول الأديان « أحبّ لغيرك ما تحبّ لنفسك » ، فيطلبون منه أن يجعل من معاملة نفسه لنفسه مقياسا لما ينبغى أن يكون عليه من معاملته للناس ؛ وهم يرون فى هذه الحكمة الكفاية الكافية لتحريك عواطف الرحمة والإنسانية نحو الغير .

والحقّ أن مذهب النفعيين فيه كثير من الحق ، وعلى شىء غير قليل من الواقعية ، لأنّ معاملة الإنسان لنفسه تحدّد العلاقة بينه وبين الغير حسب ، ولكن لأن الأنانية والغيرية من ناحيتهما النفسية متصلتان ، لا تنفك أحداهما عن الأخرى ، ويستدعى أحدهما الآخر استدعاء يكاد يكون طبيعيا : فمن الصعب أن نتصوّر عاطفة فردية أو خلقا فرديا ، من غير أن نتصوّر أن عاطفة غيرية أو خلقا غيريا يكمن ويستتر

وراء هذه الفردية : فالذى يعطى يودّ أن يُعرف عنه أنه يعطى ، وحتى البخيل يودّ لو علم الناس عنه أنه كريم ؛ فعالم الأخلاق مقرّرة ، والحدود بين الفضيلة والرذيلة معروفة ، وصاحب الفضيلة معروف ، لأن الفضيلة تشعّ بنفسها على الناس ، وتحاول بطبعها الذيوع والانتشار ، وصاحب الرذيلة يستتر من رذيلته ويرجو أن يعرف الناس عنه أنه فاضل ، أو أنه لايحب الرذيلة ، أو هو لايودها لنفسه فى الأقل .

هذا من الناحية النفسية ، فإذا واجهنا الأمر من الناحية الاجتماعية ، وجدنا أن النزعة الفردية موجودة فى العمل الاجتماعى نفسه ، وأن هذا العمل لايخلو فى القصد أو فى الواقع من النزعة الفردية ، فالذى يبنى مستشفى مثلا فى ناحيته أو فى قريته ، قد يكون مدفوعا بوازع من الدين ، أو بدافع من الرحمة والإنسانية ، وهى نوازع نفسية عالية ، واجتماعية نافعة ، ولكنه مدفوع أيضا بقصد أوبغير قصد بدافع فردىّ أساسه الخوف على نفسه ، وانتشار عَدْوى الأمراض التى تناله فى نفسه أو فى ذويه ، ومن هنا صح أن تكون الأخلاق الغيرية مدفوعة بأخلاق فردية .

ومهما يكن فى هذا المذهب « النفعى » من غرابة أو تعقيد ، فإنا نراه حقيقيا فيما عانيناه من وباء « الكوليرا » الذى اجتاح مصر منذ سنوات . كانت الأنانية بأوسع معانيها تَحْفِزُنا إلى العمل لتجنب هذا المرض : سعينا نطلب « المصل الواقى » مدفوعين بالأنانية ، وكنا غيريين على الرغم منا ، فطلبناه لأنفسنا ولجيراننا ، وطلبه الأغنياء لخدمهم ومزارعيهم ، لاحبا فى الخير للخير ، ولكن تفاديا من الشرّ الذى يمكن أن يصيبهم عن طريق الغير !

تحرّكت فينا غريزة المقاتلة من أجل الحياة ، فكنا نقف الساعات الطويلة ، ونتدافع ونتزاحم للحصول على الأدوية الواقية . فررنا من المريض ، وبلغنا السلطات ذوات الشأن بأمره ، وتحرّك كل غنىّ مبتدئا بأهله وعشيرته وفلاحيه ، أنانية وغيرية

فى آن واحد . فعلنا ذلك مدفوعين بالحرص على الحياة ، ومحصنين أنفسنا مما يصيبنا من أنفسنا ومن غيرنا ، وفى أنفسنا وفى غيرنا ، وكنا قبل الوباء نحصن أنفسنا من الفقر ، ولا نطلب الغنى للغير ، ونحصن أنفسنا من الجهل ، ولا نطلب التعليم للغير ؛ أما المرض ، فمهما حصنت نفسك منه ، أتاك من الغير ، وبخاصة إذا جاء فى جائحة من الجائحات الشاملة التى لاتبقى ولا تذر .

هذا هو سرّ الحكمة فى أن الناس يجب أن يتعاونوا فى الرخاء حتى لايؤخذوا جميعا عند البلاء .

لاتَنْسَ فِي الصِّحَّةِ أيَّامَ السَّقَمْ ... فإنَّ عُقْبَى تارِكِ الحَزْمِ نَدَمْ

« ليس منا من دعا إلى عصبية »

« لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعا إلى عَصَبِيَة » حديث شريف أُثر عن صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم ؛ وقد كانت مهمته أن يهذّب من أخلاق العرب فى جاهليتهم ، ويهدئ من ثائرتهم ، ويلينَ من جانبهم ، ويطامنَ من نفوسهم الصعبة التى كانت تهتاج للتافه من الأمور ، وتثور للأمر القليل تكون عاقبته وخيمةً مهلكة ، أيام أن كانت العصبية هى الدافع الذى يزجّ بهم فى الحروب ، والقانون الذى يسيرون على مقتضاه .

والعصبية هنا معناها التلاحم بالعصب ، والالتصاقُ بالدم ، والتكاثرُ بالنسل ووفرة العدد ، والتفاخرُ بالغلَبة والقوّة والتطاول . وقد كانت القبيلة عند العرب — كما كانت عند الرومان — تتضخم تضخما صناعيا ، وتكثر بالأولاد وبالانتساب ، فتشمل الآباء والأمهات ، وأولاد النسب ، وأولاد الانتساب من الخدم وممن يدخل تحت كنف القبيلة بالحماية أو بالحلف والجوار . هذه الكتل البشرية تنتسب إلى أصل معين ، وتفتخر بهذا الأصل ، وترى أنها الرأس وأن غيرها الذنب كما يقول الأدب القديم ، لذلك كان الاحتكاك القليل بين الأسرة والأسرة ، وبين القبيل والقبيل بمثابة الشرر الذى يسقط على الهشيم ، فتشتعل فيه النار ، وتأتى على ماحولها . وكان الفرد من القبيلة — ولو كان خادما — إذا أهين ، فكأنما أهينت القبيلة كلها ، وما هى إلا صرخة استغاثة « بيا للذلّ ويا للعار » حتى تهبَّ القبيلة كلها لنصرته .

لايسألُونَ أخاهُمْ حينَ يَنْدُبُهُمْ فى النَّائِباتِ على ما قالَ بُرْهانا

والأدب القديم يحفظ لنا كثيرا من الأشعار التى قيلت فى الحروب « بين بكر وتغلب » وبين « عبس وذبيان » فتصف هذه الحروب بأنها طحنتهم طحن الرحى ، وبأنهم سعوا إليها معجَبين بأنفسهم وبقوّتهم بعد ما تراءت لهم الحرب بوجه مليح

جميل ، ثم تنكرت فى زىّ عجوز شمطاء مكروهة العشرة والمنظر .

جاء الإسلام فجبّ هذه العصبيّة ، وباعد بينها وبين العرب ، وقطع ما اتصل بهم منها من آثار الجاهلية الأولى ، وقال صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم فيها « لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعا إلى عَصَبِيَّة » أى ليس من الإسلام فى شىء . ونعى على من يتعزّى بعزاء الجاهلية ، أى على من يفاخر بأسرته وقبيلته ؛ وأفهم العرب بل أفهم الناس جميعا أنهم سواء فى الخلق ، وسواء فى الميلاد ، وسواء أمام الله يوم يسألون عن أعمالهم لاعن أنسابهم ، ويوم يحاسبون على ما قدموا من صالح العمل ، لاعلى كثرتهم وثروتهم : « فَلا أنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُونَ »[1] أى لايُسألون عن الأنساب . وبدأ الرسول بنفسه وبأهل بيته مقرّرا هذه الفكرة حينما قال لابنته : « اعْمَلى يا فاطِمَةُ ، فانّى لاأُغْنى عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئا » ، ثم كان من الرسول أن آخى بين المسلمين المهاجرين والأنصار ، وأن وفق بين المسلمين وغير المسلمين بطريق المعاهدة والحلف وحفظ الذمة ورعاية الجوار .

وبعد أن كان العرب فى الجاهلية بأسهم شديد بينهم ، أصبحوا وهم « أشِدّاءُ على الكُفّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ »[2] . بعد محو هذه العصبية امتنّ الله على المسلمين فى كتابه الكريم : « وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إذْ كُنْتُمْ أعْداءً فألَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فأصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إخْوانا وكُنْتُمْ على شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النّارِ فأنْقَذَكُمْ مِنْها ، كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ »[3] يطلب الدين إلى الناس أن يُقلعوا عن الدعاية للشرّ ، وعن التجمع باسم الشرّ ، ويأمر الدين بترك الدعاية للتناحر والخصومة والحروب . يطالب الناس أن يكونوا دعاة للخير ، نهاة عن الشرّ ، « ولْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الخَيْرِ ،

---

(١) سورة المؤمنون ، من الآية ١٠٢ .
(٢) سورة الفتح ، من آية ٢٩ .
(٣) سورة آل عمران ، آية ١٠٣ .

وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »[١] .

تلك هى العصبية التى تُجمِّع للشرّ ، وتُعاون على الشرّ ، عابها الإسلام وعاب أصحابها ، وأحلّ التفاهم والتراحم محلّ التخاصم والتقاطع ، وأحلّ المبادرة للخير محل المنافرة إلى الشرّ ؛ وهى عصبية أساسها — كما رأينا — كثرة العدد ، وحب القهر والغلبة ، وعدوانُ القوىّ على الضعيف . وقد ظهرت بعد ذلك عصبية أخرى أساسها الجنس العربىّ والأجناس غير العربية ، واللغة العربية واللغات غير العربية ، فإنه لما اتسعت رقعة الإسلام ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، ودخل فى الدين المصرىّ والشامى ، والتركى والكردى ، والعربى والأعجمى ، تحركت العصبية فى النفوس بين العرب وغير العرب ؛ وكان الرسول عليه الصلاة والسلام قد تنبأ بما سيكون فقال : «لافَضْلَ لعَرَبِىّ على عَجَمِىّ إلا بالتَّقْوَى» ، وكان الناس يردّدون آيات الأخوّة الصادقة بين جميع من يعتنق مبادئ الدين التى محت الفوارق بين الناس ، وكسرت الحواجز القائمة بين طبقاتهم ، فقررت أنهم جميعا من نفس واحدة ، ومن طبيعة واحدة ، وأن الاختلاف فى الألسن والألوان من آيات الله ، وأن الكريم على الله ، والكريم عند الله ، هو الأبرّ الأتقى ؛ وبالتقوى والبرّ ، ورعاية حقوق الله ، ورعاية حقوق الإنسان ، تتفاضل الناس وتتفاوت ؛ « يَأَيُّها النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى ، وجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبا وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ، إنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ[٢] » .

وعلى رغم أن أوامر الدين تمنع أن يرجع المسلمون إلى أنساب ممقوتة ، أو إلى عصبية لاتقلّ عنها مقتا عند الله ، فقد آذت هذه العصبية المسلمين شر إيذاء ، فكانوا يتناحرون باسمها فى الشرق الإسلامى فيما بين العرب أنفسهم ، وفيما بينهم وبين غيرهم من الأجناس الفارسية والتركية ، وكانوا يتناحرون فى الغرب الإسلامى باسم العصبية

---

(١) سورة آل عمران ، آية ١٠٤ .

(٢) سورة الحجرات ، آية ١٣ .

القبلية حتى تمزّقت بهم بلاد الأندلس فى طوائف، ثم مالبث أعداؤهم أن انحدروا من ثغرات هذا التمزّق إلى وَحدة العرب ومُلْك العرب من القرن الثالث عشر الميلادى .

هذه جهود الإسلام وتعاليمُه فى جبّ العصبيات ، وفى إحلال الأفكار والمبادئ محل هذه الروابط المادية، من النَّسَب وصلات الدم والتفاخر بنبل الميلاد، وكرم الأنساب والتكاثر بها .

وأحلّ محلّ العصبية المادية عصبية فكرية وروحية من التواصى بالصبر ، والتواصى بالحقّ ، ومن وجوب تساند المؤمنين فيما بينهم كما يتساند البنيان المرصوص .

تتلاقى هذه الأفكار التى قرّرها الإسلام فى القرن السابع الميلادى بأحدث الأفكار التى قرّرها علماء الاجتماع فى القرن التاسع عشر . :

يقول علماء الاجتماع : إن التجمع الإنسانى يجرى أولا فى الأمم البدائية الهمجية على مبدأ العصبية فى الجنس ، والدموية فى القبيلة ، ويسمون هذا التجمع « تضامنا آليا » ، بمعنى أن القبيلة كلّها تخضع لرجل واحد أولأسرة واحدة، هو الذى يحرّكها كما تتحرّك الآلة الميكانيكية » إذا ضغطت على « زرّها الكهربى » فتهيج القبيلة دفعة واحدة، ولا تسكن ثائرتها إلا إذا حرّك الرئيس فيها « صمام الأمان » ؛ هذا هو التضامن الآلى البدائى ، فإذا تقدم الناس وأخذوا بأساليب العلم والتمدين، انتقلوا إلى نوع آخر من التضامن « هو التضامن العضوى » كالتضامن الذى يكون بين الرِّجل واليد ، وبين الجذع والأطراف فى الجسم الإنسانى . ويكاد الحديث الشريف الذى رواه أبو موسى الأشعرى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، من أن «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضا » يقرّر هذه الحقيقة الاجتماعية، التى كشف عنها العلماء فيما يسمونه التضامن العضوى .

وخلاصة ما نقول : إن الإسلام حقر من العصبية التى تستند إلى الجنس ، ومن العصبية التى تلتحم بالدم والقرابة، فتلك عصبية جاهلية قد تجتمع الناس باسمها على الحق والباطل ، وعلى البرّ والفجور ، وعلى العدل والظلم ، وقد أحل الإسلام محلّها عصبية

العقيدة وعصبية الفكر ، والعصبية التى تجعل من المؤمن رجلا يتعصب للحق فى ذاته ولو كان عليه أو على أهله ، ويتعصب للخلق الفاضل وحده ولو تجافى عنه أهله وعشيرته ؛ وقرّر الإسلام أن الأسرة أو القبيلة أو الجماعة يجب أن يكون من بينها أمة يأمرون بالفضيلة ، ولا يتآمرون عليها ، وينْهَوْن عن الرذيلة ولا ينتهون إليها ، وأن يكون صاحب الحق منها ولو لم ينتسب إليها بالدم والعصب ، وأن يكون المبطل المجرم بعيدا عنها ولو كان من أخصّ قرابتها .

وإذن ليس من الدين ولا من الفضيلة فى شىء ما يعمله هؤلاء الذين يُحيون فيما بينهم عصبية الدم والبلدة والميلاد ، يتجمعون باسمها يهددون الأمن ويعبثون بالقانون. كم من جرائم يرتكبها هؤلاء الآثمون باسم العصبية ، لأن طفلا من بلدة تعدى على طفل من بلدة أخرى ، فتهيج البلدتان ، ويَلَغُ الناس فى دم أبناء وطنهم وُلوغ الذئاب فى فريستها . كم سمعنا أن بلدتين بينهما « سعد وحرام » كما يقولون ، لأن خادما من أسرة تعدّى على خادم من أسرة منافسة . وكم من أناس أغناهم الله وأعزّهم ، لا يذكرون نعمة الله عليهم ، فيجمعون حولهم الأحزاب لا للتعاون على البرّ والتقوى ، بل للتعاون على الإثم والعدوان ، يهدّدون بهم أمن الناس ليقال إنهم أقوياء لايجرؤ أحد عليهم ، ولا يستطيل إليهم قانون .

تلك جاهلية قديمة جبّها الإسلام ، وتلك عصبية من الجاهلية الأولى يَمقتها الإسلام ، ومثل هذه النفوس التى لايطامن منها الإيمان ، يُؤدبُها القانون ، ومن لم يَنزَعْه القرآنُ يَنزعْه السلطان ، ومن سلّط سُلّط عليه .. و« إنّ الله ليزَعُ بالسُّلطانِ أكثرَ مما يَزَعُ بالقرآن » .

« الحاكم والمحكوم والصلة بينهما »

وُجدت الحكومة منذ وُجدت الجماعة ، لافرق فى ذلك بين الجماعات البدائية وبين الجماعات المتمدينة إلا فى التطوّر ، وتدلنا الدراسات الاجتماعية التى قام بها العلماء على الجماعات التى لاتزال على الفطرة فى مجاهل أفريقية وأستراليا ، على أن لها فهما خاصا فى الحاكم والحكومة ، كان له أكبرُ الأثر فى حفظ كيان الجماعة واحترام وَحدتها ؛ فالحاكم فى الأمم البدائية مقدس ، وهو رمز الإله المعبود ، يتحدث باسمه ، ويحكم بإرادته ، وهو بهذا مطلقُ التصرّف فى المحكومين . هذه العقيدة ماتزال حيةً فى القبائل المتوحشة ، وكانت إلى عهد قريب حيةً فى الأمم المتمدينة ، ممثلةً فى « الميكادو » إمبراطور اليابان ، هذا البشر الإلهى ! ولم يزلزل هذه العقيدة إلا آثارُ الحرب الحاضرة ، فقد انهزم الإله وانهزم ابنه ، ورجع الناس إلى سلامة فطرتهم ، فرجعوا إلى الله الواحد القهار ، الذى ليس كمثله شىء ، والذى « لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » [1] .

تطوّر الفهم فى الحاكم وفى الحكومة ، فرفض الناس تقديس الحاكم ، ولكنهم لم يرفضوا أن له حقوقا مطلقة ، الناس مكلفون الاعتراف بها وبأدائها ، أما هو فواجبه نحو الشعب ، أو حقّ الشعب لديه ، من الحقوق الاختيارية التى إن شاء فعلها ، وإن شاء أهملها ، وهو مشكور فى الأولى ، وغير مسئول فى الثانية ، ولكنه مطاع فى كل شىء ، أراد بالناس خيرا أم شرّا ، عمل لصالحهم أو عمل لضررهم ، فهو السلطان صاحب الحق وكفى ! هاج رجال الدين على الحكام فى العصور الوسطى يطالبونهم بحقوق الشعب ، ولكنْ لم يلبث الحكام أن مالئوهم واصطلحوا معهم ، ولكن على حقوق الشعب ، وكان من رجال الدين أنفسهم أن فرضوا هم أيضا على

---

(١) سورة الإخلاص ، آية ٣ ، ٤ .

الناس حقوقا ، فتعددت الحقوق على الشعوب : حقوق للحاكم أو السلطان ، وحقوق لرؤساء الأديان ، هذا يتكلم باسم السلطة والسياسة ، وهذا يتكلم باسم الحق المطلق وباسم الدين ؛ وكلا الحقين ضاغط على الشعب ، ملزم له بالطاعة العمياء ؛ أما حقوق الشعب على الحكام فبقيت اختيارية ، للحكام أن يأخذوا ، وليس عليهم أن يعطوا ! ! ثارت الأفكار على حكام العصور الوسطى وعلى رجال الكنيسة . ففُصلت الحقوق السياسية عن الحقوق الدينية ، وأفهم الحكام الناس أنهم ملزمون أمامهم ، وليسوا ملزمين أمام رؤساء الأديان ، ولكن هؤلاء لم يذعنوا للأمر ، ولم يخضعوا لهذه الأفكار ، بل كان منهم أن ألّبوا الشعب على الحكومة فى كثير من الظروف ، وأصبح الشعب المحكوم حائرا ، إن انحاز إلى الحكومة فهو مرهق ، وإن خرج على الكنيسة فهو ملحد ، وبين الإرهاق والإلحاد كان المحكومون عرضة للضغط ، يقيمون على الحيرة ، ويضطربون فيها ، وأحيانا يخرجون عليها ، فيندفعون إما إلى الثورة ، وإما إلى الكفر ، وكلاهما إفلاس وخراب ، فالثورة خراب مادىّ يُقوّض كل بناء ، والكفر خراب روحى يَقْفُر معه القلب والضمير .

جاء الإسلام بعد ذلك بنظرية جديدة فى الحكم ، وفى العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، فجعل المحكومين يختارون حاكمهم بالرضا والمشورة ، بحسب مايرون فيه من عقل ، وما يتوقعون منه من خير ؛ وخُيِّرَ الحاكم بين أن يعمل بحدود الله وبين أن يتنحى عن مركزه . وكان من الخليفة الأول بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول للمحكومين : « إذا أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقوّمونى » ؛ وكان من المحكومين أن قالوا للخليفة الثانى «عمر بن الخطاب» وهو من هو استقامةً وورعا ودينا : « والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقوّمناه بحدّ سيوفنا » . فلم يجعل الإسلام للحاكم حقا مطلقا ، بل جعل له حقوقا ، مقابلة لما عليه واجبات ، فإذا طالب بحقوقه حاكما ولم يؤدّ واجباته للمحكومين ، كان آثما . أمر الإسلام بطاعة الحاكم ، وجعلها قرين طاعة الله وطاعة الرسول ، ولكنه أمر الحاكم بالعدل . كفاءَ هذه الطاعة ، وقرّر الإسلام

للحاكم حقّ جباية الأموال وجباية الصدقات ، ولكنه قرر فيها حقّ المحكوم، يتقاضاه الحاكم من الغنيّ للفقير ، ولايتركهما وجها لوجه فيتصادما ، فيثورا «والَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ [1]» وفي الحديث «صَدَقَةٌ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيائِهِمْ وَتُرَدُّ على فُقَرائِهِمْ» .

الحكومة في الإسلام أمانة الله أودعها الحاكم ، ولا بد له من أدائها ، وهو مسئول عنها ، لاأمام فرد من الأفراد كما يُسأل المدين أمام الدائن ، بل هو مسئول عنها أمام الناس جميعا ، وأمام الديان العادل الذي « لايَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا [2] » . إن الله يأمرنا أن نؤدي الأمانات إلى أهلها ، ويأمر الحاكم بصفة خاصة أن يؤدي الأمانة حكما عادلا ، ووفاء محرّرا ، وعدلا بعيدا عن الميل والهوى ، وميزانا صحيحا ، لايوفي فيه لقريب أو محسوب ، ولا يَنقص منه لعدوّ أو منافس . والعدل المطلوب من الحاكم هو العدل المصحوب بالإحسان ، والإحسان وضع كل شيء في محله . والإحسان مراقبة الله ومراقبة الضمير ، وبلُغة حديثة أن يراقب الحاكم مع خشية الله حكم التاريخ . فلقد يخرج المرء من الدنيا ويُنسى بحسناته وسيئاته ، أما الحاكم الظالم ، وأما الحاكم العادل ، فلا ينساهما الناس ، لأن التاريخ يذكرهما دائما . والحاكم الظالم في التاريخ هو الصفحة السوداء التي يسجل فيها العبرة ، والحاكم العادل هو فاتحة الكتاب لدى التاريخ ، يسجل فيها القدوة ، والمثل ، والحياة المستقيمة المضطردة ، التي تصل بصاحبها إلى حسن الذكر ، وطيب الأحدوثة .

وإنا مجملون بعد ذلك مهمة الحاكم والمحكوم في النواحي الثلاث الآتية : الناحية السياسية ، والناحية الاقتصادية ، والناحية الخلقية .

مهمة الحاكم من الناحية السياسية ألا يفرّط في حقّ الوطن ، ولا في حقوق المواطنين ، ولا في أيّ حقّ من الحقوق التي يقوم عليها كيان الدولة ، وكيان الأمة ، فقد منع الزكاة بعضُ العرب بعد موت الرسول عليه السلام ، والزكاة قوام الدولة

(١) سورة المعارج ، آية ٢٤ .
(٢) سورة النساء ، من الآية ٤٠ .

وحق الجماعة ، فانتضى أبو بكر سيفه وقال قالته المشهورة : « والله لو منعونى عِقالا كانوا يؤدّونه لرسول الله لقاتلتهم متى استمسك السيف بيدى » . وعلى المواطنين جميعا تأييد الحاكم فى حق الوطن ، فما يطلب أمرا لنفسه ، إنما يطلب الأمر للجميع ، وإنما يصل ماضىَ الأمة بحاضرها ، ويجمع منهما مادة لحفظ كيانها فى مستقبلها ، وعلى المحكومين الاستعدادُ للدفاع عن الوطن ، والاندفاع إلى الجندية والرباط « فما ترك قوم الجهاد والرباط إلا كتبت عليهم المسكنة إلى يوم الدين » ، والضرائب والجباية والخراج « أعمدة الملك » ، على حدّ تعبير « عمر بن الخطاب » .

ومهمة الحاكم أيضا من الناحية السياسية الاجتماعية حفظ الأمن ، والسفعُ بنواصى الأشرار ، والضربُ على أيديهم ؛ ولن يستطيع الحاكم مهما أوتى من القوّة والبطش أن يحفظ الأمن بنفسه ، وإنما يحفه بالمحكومين ؛ لاأمْنَ فى أمة تخشى بأسَ الشرير ، ولا قانونَ فى أمة يمتنع أفرادها عن التبرّع بأداء الشهادة ، ولا طمأنينة فى جماعة تنستر على الجانى . إن المحكومين إذا أخْفَوْا الجريمة أو خافوا المجرم ، شلّوا يد الحاكم ، وأسلموا بأيديهم السلاح إلى المجرمين يهددونهم به .

وواجب الحاكم من الناحية الاجتماعية يكاد ينحصر فى المسألة الاقتصادية ، لأنها تتعلق بصميم الحياة ، وقد دلتنا الأزمات التى عانيناها من هذه الحروب ، على أن الجوع الذى يصيب المسالمين فى المدن ، أقسى من القتل الذى يهدّد المحاربين فى الخنادق ، فتوفير الغذاء والكساء من أهم الواجبات التى يفرضها الحكم على الحاكم ، فإن قصّر فى هذا الواجب قاد الأمة إلى الهلاك ، فى حرب سلمية لامدفع فيها ولا نار ، حرب سلاحها سوء التغذية وقلتها وغشها ، وهنا مصدر جميع الآلام والأمراض . ويقابل هذا الواجب من ناحية الحاكم واجبٌ على المحكومين ، أن يساعدوا الحاكم فى تنفيذ التسعير ، بالتبليغ عن المحتكرين الذين يصطنعون الأزمة اصطناعا ، ثم يفرّجونها على القادرين فى السوق السوداء . هؤلاء المحتكرون مجرمون ، ويشاركهم فى الإجرام الأغنياء الذين يزيدون فى الأسعار بأموالهم . ويشجعون المجرمين على إجرامهم .

وليعلم الأغنياء القادرون على إغراء التجار . وعلى دفع كل ما يطلبون ، أنهم إنما يأكلون حراما ، لأنهم يمنعون الفقير من أن يتمتع ببعض ما يتمتعون ، وأخشى أن أسمى هذا أكلا لأموال الضعفاء ظلما ، لأنى أخشى أن تنطبق عليهم آية الله « إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا »[1] .

أما واجب الحاكم من الناحية الخلقية فإنى أحصره أيضا فى العدل : فعدل الحاكم هو أساس حكمه ، فإن ظَلَم فسيصبه ظلمه ، لأن الظلم شرّ ، وكل شرّ فيه عناصر فنائه . فكل ظالم إلى هلاك ، يُهلك نفسه و يُهلك صاحبه ، وإذا كان العدل فى السياسة أساسَ الملك ، فإنه فى باب الأخلاق مِلاكُ الأمر كله ، وإنما يكبّ الحكومات على وجهها المحسوبية فيها . والمحسوبية هادمة للخلق والحكم معا ؛ يعجز الحاكم الضعيف عن أن يشترى الناس بالعدل ، فيشتريهم بالمحسوبية ، والمحسوبية عمياء ، يشترى الحاكم الضعيف ضعفاءَ النفوس ، ليتخذهم بطانة وسندا ، وأقوياء النفوس ، ليتقى شرّهم ، أو ليستعين بهم على شرّه . فإذا قدمت المحسوبية ضعفاء النفوس فقراء العقول ، تخلخل ضمير العدل ، وضاعت المعالم بين الناس ، إذ يشعرون أن لافرق بين محسنهم ومسيئهم ، وعالمهم وجاهلهم ، وقادرهم وضعيفهم ، ومتى تخلخل ضمير العدل ذهبت هيبته من النفوس ؛ وإذا نالت المحسوبية الأغنياء فقط وهم قادرون على الحياة بلا محسوبية . فما يصنع الفقراء ؟! وإذا نالت المحسوبية المتعلمين ، فاشترت ضمائرهم ، فمن للأمة ؟! وإذا نالت المحسوبية الأشرار ، فمن للأمن والطمأنينة ، إذا كان من يتخطى القانون يحتمى بالقانون ! فالمحسوبية شرّ كلها كيفما كان اللون ، وكيفما كان التطبيق ، وإذا كان واجب الحاكم أن يمحق المحسوبية ، فإن واجب المحكوم ألا يضايق الحاكم ، وأن يبطل الزلفى والشفاعة والتوصية ، إلا ماقرّرت حقا ، أو دفعت باطلا ؛ واجب الحاكم الذى يقدر مسئولية الحكم هو ماقرّره علىّ بن أبى طالب « أن يتعهد أموره ، ويتفقد أعوانه ، حتى لا يخفى عليه إحسانُ محسن ، ولا إساءة مسىء ، ثم لا يترك واحدا منهما بغير جزاء ، فانْ تَرَكَ ذلك تهاون

(١) سورة النساء من الآية ١٠ .

المحسن ، واجترأ المسيء ، وفسد الأمر ، وضاع العمل » ، « وإذا كان للمحسن من الثواب ما يقنعه ، وللمسيء من العقاب ما يقمعه ، ازداد المحسن في الإحسان رغبة ، وانقاد المسيء للحقّ رهبة » .

ولنرجع إلى ما ابتدأنا به ، من أن واجب الحاكم الاجتماعيّ والسياسيّ والخلقيّ ، ألا ينظر إلى حقوقه حسب ، وواجب المحكوم من هذه النواحي أيضا ألا يطالب بحقوقه حسب ، فويل للأمة من حاكم يطالب بإتاوة ، وموظف أو عامل يطالب بعلاوة ، كلاهما أنانيّ ، يطلب حقا ولا يؤدي واجبا . ولا يستقيم الأمر بين الحاكم والمحكوم إلا إذا تكوّن منهما شخص واحد ، فيعمل الحاكم ، ويتمثل أمامه المحكومين ، أي يعمل سائلا وهو مسئول ، وطالبا وهو مطلوب . ويعمل المحكوم كما لو كان حاكما ، فيكون أول المنفذين للقانون كما لو كان هو الذي أصدر القانون ، أي يعمل مسئولا وهو سائل ، ومطلوبا وهو طالب ، ولعل هذه الشخصية المزدوجة بين الحاكم والمحكوم ، وهذه المسئولية المشتركة بين من بيده الأمر ، وبين من عليه تنفيذ الأمر هي المقصودة من قول الرسول صلى الله عليه وسلم « كُلُّكُمْ رَاعٍ وكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » .

«الأعياد الدينية والأعياد القومية»

يعاب على المسلمين أن ليست لهم أعياد قومية تذكّر بمجد سلف، أو بعزّ سبق، أو تذكّر ببطولة من هذه التى يحتفظ بها التاريخ لغير المسلمين . وفات هؤلاء العائبين أن أعياد المسلمين يمكن أن يطلق عليها أنها « مواسم الحق والإيمان » ، ووقفات الفضائل الاجتماعية التى تدور حولها الأخلاق والمكرمات ، والتى تعتزّ بها الأمم وتتماجد ، يوم تنتسب كل أمة إلى طبيعة أخلاقها ، وإلى ما رسمته من هذه المعالم الخلقية فى تاريخ الإنسانية .

فعيد الفطر يأتى بعد عبادة من أجلّ العبادات الفردية والاجتماعية معا ، فهو عيد يقف عنده المسلمون وقفة يهنئون بها أنفسهم بهذه التزكية الروحية ، وهذه الزكاة التى طهروا بها نفوسهم وأموالهم .

وعيد الأضحى يأتى متمما لعبادة الحجّ ، هذه العبادة الاجتماعية التى يجتمع عليها الآلاف من المسلمين من سائر بقاع الدنيا ، على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وأشكالهم ، والكلّ يتجهون وجهة واحدة هى الكعبة ، ويتطلعون إلى إله واحد » ، «هو الله الذى لا إله إلا هو» ، ويعيشون فى بلد آمن ، هو مكة أو «بكة» واشتقاق الكلمة « من البك » وهو الزحام الشديد يجتمع فيها الرجال والنساء ، يصلى بعضهم بين يدى بعض ، ولا تصلح هذه الصلاة إلا فى هذه البقاع ؛ وفى اللغة أيضا أنها سميت « بكة » لأنها تبكّ أعناق الجبابرة وتدقها ، لا يقصدها أحد بسوء إلا قصمه الله ، وهدّ كيانه ، قصدها عام مولد الرسول عليه الصلاة والسلام ناس من الحبشة بأفيالهم وأقيالهم ، فجعل الله كيدهم فى تضليل ، « وأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ

مِنْ سِجِّيل ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مأْكُول » [١] ، وحقق الله فيها وفى أهلها كلمة إبراهيم ، الذى دعا لها بأن تهوى أفئدة الناس إليها ، وأن يرزق أهلها من الثمرات لعلهم يشكرون ؛ حرّم الله فيها سفك الدماء فى أربعة أشهر حُرُم ، الطير فيها آمن ، والحيوان آمن ، وشجرها آمن ، وساكنوها آمنون ، والملتجئون إليها آمنون . والأمن هو غاية الناس قديما وحديثا ، وما يزلزل الآراء والأفكار مثل الخوف ، فالناس المقيمون على الخوف أموات وهم أحياء ، يموتون كل يوم ، ويموتون جزءا جزءا ، فلا يطيب لهم عيش ، ولا يهنأ لهم بال . لذلك كان الأمن والعيش من أعظم المنن التى امتنّ الله بها على عباده ، وعلى قريش أسرة الرسول « فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ، الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْف [٢] » .

والحجّ أكبر مجتمع للمسلمين ، يجتمع منهم أكبر عدد يمكن جمعه فى صعيد واحد ، فلو أحسنوا الانتفاع بهذه الفرصة السنوية ، يتذاكرون فيها أمور دينهم ، وأمور دنياهم ، لكان لهم من الشأن ما لغيرهم ، أو لرجع إليهم شأنهم الأول ، أيام أن كانوا سادة الدنيا وعظماءها ، يملون إرادتهم والقوّة من ورائهم تنفذ هذه الإرادة ، ويملون علومهم وأفكارهم والناس من حولهم فى جهالة مظلمة ، وفى تخبط مخيف ، وهم وحدهم الذين ينيرون طريق الهداية والمعرفة فى العصور الوسطى ، التى يصفها أهلها بالقطع المظلمة فى تاريخ البشرية . وفى أيام الحجّ تقرّب القرابين إلى الله ، ولكنها ليست قرابين الوثنية الأولى ، التى كانت تذهب فيها الأرواح البريئة باسم الأديان ، أو باسم الأوهام ؛ والإسلام وحده أوّل من حرّم القرابين البشرية ، والإسلام وحده أول من جعل القرابين خالصة لله ، « لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ [٣] » فهى توسعة على الفقراء ، ورفع لمستوى الناس فى أيام معدودة من السنة ، وما أكثرها فى الإسلام ، فالحنث فى اليمين له فدية من الطعام ، والخطأ فى المناسك أو التحلل من بعضها ، يجبر بالضحية تقدم للفقراء خالصة

---

(١) سورة الفيل ، آية ٣ ، ٤ ، ٥ .
(٢) سورة قريش ، آية ٣ ، ٤ .
(٣) سورة الحج من الآية ٣٧ .

لوجه الله ، والكفارة إطعام مساكين يزيد عددهم وينقص على مقدار الخطأ وتقدير الذنب ، وكلها تنفق فى الصالح العام ، وفى صوالح الفقراء خاصة .

ومكة وطن روحى لكل مسلم ، والرسول نفسه على ما حباه الله من قوة الصبر وعظم الاحتمال ، كان هواه مع وطنه مكة ، هجرها راغما ، وهاجر إلى المدينة ، فوجد فيها مُراغما كثيرا وسعة ، ومع ذلك عزّ عليه أن يكون وطنه فى يد أعداء نفسه ، وأعداء إيمانه ، فكان يحاول الرجوع المرّة بعد المرة ، وكانت مكة تتراءى له فى أحلامه وفى يقظته ، وأحلامه كيقظته لايجرى فيها إلا مايتردد فى فكره الهادى ، وما يريد إلا هداية قومه ، وحملهم على الخير ولو بالقسر والقوّة ؛ ولقد حقق الله وعده ، وأعزّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، « لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بالحَقِّ ، لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ إنْ شاءَ اللهُ آمنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ ومُقَصِّرِينَ لاَ تَخافُونَ ، فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا ، فَجَعَلَ مِنْ دونِ ذلكَ فَتْحًا قَرِيبًا[1] » وجاءه نصر الله والفتح ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، بعد أن حطّم الأصنام ، وهدم الأوثان ، وأرجع الناس إلى التوحيد ، وأرجع إليهم عقولهم التى غشت عليها الجهالة زمنا طويلا .

وفى عرفة وقف الرسول فى حجة الوداع يخطب الناس فى الأمن والسلام ، ويبين لهم أن دماءهم عليهم حرام ، وأموالهم عليهم حرام ، فبلّغ ، وأشهد على أنه بلغ ، ودعا الناس جميعا إلى التوحيد « إنّ ربكم لواحد » ودعا الناس جميعا إلى السلام والإخاء ، لأنهم جميعا لآدم ، وآدم من تراب ، وأبطل المبادئ الفاسدة فى رعاية الجنسية والعصبية ، بعد أن ذكرهم بأنّ أكرمهم عند الله أتقاهم ، وأنه لافضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والفضيلة ، ورعاية الأخلاق .

هذه هى القومية الصحيحة التى تجتمع باسمها وحولها الناس جميعا ، أما غيرها من القوميات الجغرافية والسياسية ، فزائلة حائلة ، وهى تزلزل كل يوم تحت أقدام القوى ، وتزل معها أقدام الضعفاء ، ولن تعيش قومية أزهق أهلها فيها روح الخلق والفضيلة .

---

(١) سورة الفتح ، آية ٢٧ .

«العلم والدين»

حاول العلم – منذ ظهور المنطق الذى وضع للتفكير قواعد وأصولا يسير على هدْيها ، ولا يخرج عما تقضى به – أن يطبق هذه القواعد على الدين أيضا ؛ وقرّر قبل أن يبحث أن هناك مجافاة تكاد تكون طبيعية بين العلم والدين ، أو بين مقتضيات العقل ونوازع القلب . أينزل العلم على حكم المقتضيات الأولى ، أم يخضع لنوازع القلب الثانية ؟ عرض هذا الجدل بين العقل والقلب لبعض المسلمين لما اتصلوا بالثقافات اليونانية وغيرها من الثقافات الدينية ؛ وكل ثقافة من هذه الثقافات التى أفلست بعد ظهور الإسلام ، تحاول أن تتجدّد ، وأن تجد لها مجالا أمام هذا التفكير الجديد ، الذى يخاطب العقل ويناجى القلب معا . هذا التفكير الإسلامى الجديد لم يعاد العقل ، ولم يتنكر له ، وإنما طلب منه أن يتأنى ، وأن يتبصّر ، فإذا أدرك حقيقة الدين أو شيئا منها فبها ونعمت ، وإن قصّرت به وسائله عن الإدراك الدينى ، فليس معنى ذلك أن يتنكّر له ، وإنما معناه أن يترك الحقيقة الدينية فى سموّها ومنزلتها الرفيعة ، وعليه أن يبحث مستأنيا مستجليا ، حتى يصل إلى حقيقتها . ذلك معنى قول الله « وَما أُوتيتُمْ مِنَ العِلْمِ إلاّ قَليلاً »[1] فالآية لم تهمل العقل ، ولم تضيق عليه ، وإنما طالبته – إذا وقف أمام ما لا يعلم – ألاّ ينكر ، وألا يلتوى غضبا أو عسفا ، وطلبت إليه – تحت تأثير هذا الإغراء بالاستزادة من العلم ، وتحت تأثير الاعتراف بأن العقل لم يدرك العلم كله – أن يبحث ، ويعمل ، ويتسامى ، حتى يسمو إلى هذه الحقيقة ، فيكشف عنها ، أو عن جديد فيها ، بدل هذا الإنكار والجحود ، أو الإلحاد والجمود الذى يظهره العقل أو يتظاهر به إذا وقف أمام ما لا يفهم ، أو إذا استغلق عليه الأمر أمام ما لا يدرك .

وكما عرضت هذه الخصومة بين العقل والدين لبعض المسلمين فى العصور

(١) سورة الإسراء من الآية ٨٥ .

الوسطى، عرضت لغيرهم من الأمم بعد عصر النهضة ، وتحكم الفلسفة فى التفكير ، فقد أراد الفيلسوف « كانت » أن يعرض المسائل الدينية على مقتضى العقل، وعلى معقولات المنطق ، فأُبهظ بكثير من الأمور ، وأرتجَ عليه فى كثير من المسائل ، حتى اهتدى بعد البحث إلى التفريق الفلسفى الذى يعرفه كل من اتصل بعلمه ودراسته ، تفريقا يقضى بالاعتراف بأن هناك فهمين أو عقلين ، « العقل النظرى » و « العقل العملى » : وسبيل الأول « المنطق » وهو بوسائله ومقدماته ونتائجه ومقولاته لايدرك ، أو لمّا يدرك كل أساليب التفكير ، وبخاصة التفكير الدينى ؛ وإلى جانب هذا « العقل النظرى» عقل ثان هو « العقل العملى »، الذى تفكر به الجماعات ، والتى اعتمدت عليه فى تطوّرها فى الحياة ، وفى تدرّجها على سلّم المدنية، وأقامت عليه الناس طويلا ؛ وما اعتنقته الأجيال ووجدت فيه حفظها وصيانة كيانها، هو عقل أيضا، لايقل عن العقل النظرى فى تأثيره وفى الاقتناع به . وهو يقرّر بعد ذلك أن مسائل الاعتقاد مما يقع تحت العقل التصديقى ، أو تحت العقل العملى التجريبى ، لاسبيل إلى إنكارها، لأن تأثير هذا العقل العملى لا يقلّ عن تأثير العقل النظرى فى قليل أو كثير . وجاءت الدراسات النفسية التى كثر المتحدّثون باسمها فى القرن التاسع عشر، فتناولت أفكار « كانت »، ونظرت إليها من زاوية أخرى غير الزاوية التى اتجه إليها، ولكن الأفكار جميعها تلاقت على رغم ما بينها من فروق بسيطة فى كيفية البحث .

جاء « ريبو » وقرّر فى كتابه « العواطف » أن هناك منطقا للعواطف وللقلب ، كما أن هناك منطقا للتفكير والعقل ، وأن المنطق الأول لايقل أثرا وتأثيرا عن المنطق الثانى ، ففينا العقل الذى يعتمد على التحليل ، وفينا القلب الذى يندفع إلى التصديق ، يقذف فيه الإذعان والتصدّيق قذفا فيصدقه ، ويعمل به ، ويجرى وراءه ، ويندفع إليه اندفاع العالم إلى ما يقرّر من الظواهر التى تمت البرهنة العملية عليها . فمسائل المعتقد مردّها إلى منطق القلب وإن ناقشها منطق العقل . فاذا كان « كانت » قد وصل عن طريق الفلسفة إلى تقرير عقلين « عقل نظرى » و « عقلى عملى » ، فإن « ريبو » قد وصل عن طريق البحوث النفسية — وبخاصة تلك البحوث التى تشتغل

بالعواطف فى نشأتها واستقلالها عن الفكر أو تبعيتها له — إلى أن هناك منطقين ، « منطق تفكيرى » و « منطق عاطفى » ، وأثر الثانى فى المعتقدات أشدّ أسرا ، وأوسع مدى من أثر الأول .

وإنا نقرّر هنا بعد هذا العرض العلمى الموجز أن مسألة الدين ، وبخاصة الدين الإسلامى تعرض على العقلين معا ، وعلى المنطقين معا ، فمسائله يقرّرها العقل النظرىّ والعقل العملىّ ، وتعاليمهُ يستشعرها ويحللها المنطقان معا : المنطق الفكرى ، والمنطق العاطفى . وكل ما وصلنا إليه إلى الآن ، وكل ما نصادفه فيما يعرض لنا من مسائل تظهر فيها المجافاة المزعومة بين العقل والدين ، يجب أن نعرضه على مقياس واحد لاثانى له ، هو الفرق بين المعرفة العلمية ، وبين السموّ الدينى ؛ فإذا أقرّ العقل الفكرة الدينية ، لأنه حللها فوجدها صحيحة ، وعرضها على وسائل المعرفة التى وقعت فى التطبيق العملى أو فى التصوّر النظرى ، فوجد أن صحة التطبيق تتفق مع صحة التقرير ، التقى العلماء أهل النظر ، والمتدينون أهل التصديق ، فوق أرض واحدة ثابتة لاتميد تحت أرجلهم ؛ ولا تحيد بهم عن غايتهم ، وحمد أهل الدين الله أن صدّق إيمانهم ، وأن تولى الدفاع عنهم ؛ وحمد أهل العلم الله أن هداهم للإيمان إن كانوا صادقين فى بحوثهم وفى مقاصدهم . أما إذا ذهب بأهل العلم طريق ، وذهب بأهل الدين طريق آخر ، والطريقان متوازيان لا يلتقيان ، كان من واجب أهل العلم أن يلتزموا خطة الحياد ، فلا يهجمون ولا يتطاولون ، وهو حياد مؤقت فى كل حال ينتهى متى تقدّم العلم ؛ وكلما تقدم خطوة قلت مسافة الخلف بين أهل العلم وبين أهل الدين ؛ ولا بد للعلم أن يتقدم ، لأن الله الذى نزّل الذكر قد وعد بحفظه « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » [1] وحفظ هذا الذكر ليس له من معنى إلا أن يبقى فى نفوس الناس حتى ينقرض الناس ، وإلا أن يمدّ نفوذه وسلطانه على كلّ الناس « لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ [2] » وإلا أن يردّهم إلى الهداية إن كانوا من المهتدين ، وإلا أن

(١) سورة الحجر ، آية ٩ .

(٢) سورة الكهف ، من الآية ٢١ .

يهيئ عقولهم إلى البحث والنظر ، حتى يصلوا إلى ما قرّره الدين .

إن العلم مدين للدين ، فلا ينبغى له أن يتمرّد عليه ، وإن العلماء مدينون لهؤلاء الذين ارتضوا دينهم ، ورضى الله لهم هذا الدين ، فاطمأنوا إلى عقائدهم ورضوا بها ، ليرضى الله عنهم ؛ ولولا الدين ما تحرّك عقل بتفكير ، ولا عالم بتقرير ، فالدين هو الذى لفت علماء الفلك إلى ما خلق الله من أرض مبسوطة ، وكواكب مكوّرة ، ونجوم منثورة ، تجرى هنا وهناك بحساب ومقدار ، حتى تدرك مستقرّها « ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » [1] ، والدين هو الذى لفت عالم النبات وعالم الحيوان إلى نعمة الحياة ، وتسخير ما خلق الله لنفع هذا الإنسان الظلوم الجهول ، فوجّه بصره ، وحرّك بصيرته إلى الأرض الميتة كيف تحيا ، وإلى السحاب الثقال كيف تفيض ، وإلى الأمواه المغرقة كيف تغيض ، وإلى الماء كيف يتفجر ، وإلى أزواج النبات كيف تتلاقى وكيف تنبت ، وإلى الفلك كيف تسبح وكيف تجرى بها الريح الطيبة ، وكيف تعترضها الريح العاصف ، وكيف يأخذها الموج من كل مكان ، وكيف يحاط بها ويمن عليها إذا جاء أمر الله ولم يغن العقل والمعرفة ، ولم ينفد المنقذ والصريخ .

والدين هو الذى علم الطب كيف يخلق الإنسان من النطفة ، وكيف تتحوّل إلى علقة ، فمضغة مخلقة ، وغير مخلقة ، وهو الذى علم المربين مراحل النموّ ، من الطفولة إلى بلوغ الأشد ، إلى الكهولة فالشيخوخة ، ولكل مرحلة خصائصها من ذكاء خاصّ وميول خاصة ، واندفاعات تهيج ثم تضعف ، وكما دخل فى الحياة لايعلم شيئا ، يردّ إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا . فإذا كان العقل مدينا للدين فى نشأته ، فمن حقه أن يبقى مدينا للدين فى تطلعه ، وكما استفاد فى أوله يوم أن كان ضعيفا يجرى وراء الوهم ، فسيستفيد حتما من الدين إن أراد أن يستمرّ فى جريانه حتى يدرك غاية العلم . وسيبقى الدين أمامه مثلا أعلى يجرى وراءه فلا يدركه ، وكلما ازداد العقل من الدين قربا ، ازداد الدين منه بعدا ، ولكنه لا يتركه ولا يغضبه ، بل سيغريه دائما بالمعرفة ، حتى يعرف نفسه أولا ، ومتى عرف نفسه ، قرب من أن يعرف الله .

---

(١) سورة يس ، آية ٣٨ .

الأساس العلمى والدينى للتضامن

اختلاف المخلوقات فى الخلق أمر مُرادٌ لله ، وملحوظ فى الإنسان والحيوان معا . وهذا الاختلاف فى الخلق أساس لاختلافات كثيرة فى درجة الإنسان أو الحيوان ، وفى الوظيفة التى يؤديها كل منهما فى الحياة . وكلما اختلفت الأعضاء واختلفت وظائفها فى كائن من الكائنات الحية ، كان هذا الاختلاف دليلا على رقىّ هذا الكائن بالنسبة لغيره ، وكلما تشابهت الأعضاء وتشابهت الوظائف التى تؤديها فى كائن حىّ ، كان هذا التشابه دليلا على انحطاط نوع هذا الكائن . والأمثلة كثيرة على هذا التخالف والتشابه ، وأثرهما فى المنفعة ، وفى الوظيفة التى تؤديها هذه المخلوقات الكثيرة .

إن الحيوانات تكثر فيها الأعضاء المتشابهة ، فأعضاؤها الكثيرة مركبة فى صورة واحدة ، وهذه الأعضاء لها وظيفة واحدة ، يؤديها كل عضو كما يوديها العضو الآخر فى غير تعاون ولا تساند ، فالعقرب مثلا لها عدة أرجل وعدة أذناب متشابهة ، فإذا قطع منها عضو لاتتألم العقرب ، ولا تمتنع عن أداء وظيفتها من اللسع والضرب ، بل تضرب وتلسع فى غير تعطيل ولا ألم . كذلك الأمر فى عالم النحل ، فقد يقطع من النحلة جناح مثلا ، وتبقى عاملة مؤدية وظيفتها بما بقى لها من الأجزاء . وهناك نوع من النحل لايعمل إلا إذا قطع بنفسه جناحيه فى غير ألم يحسّ به ، ولا تعطيل يمنعه من أداء وظيفته .

هذه الأمثلة وغيرها من علم الحيوان ، تبين لنا أن الأعضاء الكثيرة إذا كانت متشابهة فى الخلق ومتحدة فى الوظيفة ، فمن السهل قطع عضو منها ، من غير أن تتألم الأعضاء الباقية ، ومن السهل أن تقوم بوظيفتها فى الحياة إذا نقص عضو من أعضائها ، كما لو كانت أعضاءؤه كلها كاملة نامية .

وعلى العكس إذا كان الحيوان راقيا فى باب الحيوانية تعدّدت أجزاؤه واختلفت

فى شكلها وتركيبها وتعدّدت وظيفتها ، واختلفت هذه الوظائف تبعا لاختلاف الخلق ، فإذا قطع عضو من أعضاء هذا الكائن الحىّ تعطلت وظيفته ، وتحاول بقية الأعضاء أن تقوم بعمل العضو المقطوع فلا تستطيع ، فيتعطل الكائن جزئيا أو كليا . والإنسان مثل عال لإبداع الصورة فى الخلق وفى الحياة ، لأن الخالق المبدع الذى خلقه امتنّ عليه بهذا الخلق ، وأمره أن يتفكر خلقه ، وأن يرجع إليه ليرجع إلى ربه ، « يأيُّها الإنْسانُ ما غرَّكَ بِربِّكَ الكَرِيمِ الَّذِى خلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ، فى أىّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ » [١] .

فالإنسان أرقى أنواع المخلوقات فى الخلق والتصوير ، وأداء العمل الذى كُلِّفه فى الحياة ، له فى كل يد مثلا خمسُ أصابع ، وفى كل أصبع ثلاث سُلاميّات ، وهى المعبر عنها « بعُقل الأصابع » ، فإذا قطعت إصبع أو جزء منها بطل عمل العضو ، وتعطلت حيوية الكائن بقدر الحيوية التى كانت فى الأصبع ، كذلك مبتور الذراع أو الرجل لايستطيع أن يؤدى بالذراع الباقية أو الرجل الباقية ما كان يؤدى بالاثنين معا .

فالكائن الراقى أساس تركيبه التخالف لاالتشابه ، وكل جزء فى الكائن الحىّ الراقى كالإنسان ، يؤدى عملا معينا فى حيوية الجسم ، فاذا تعطلت أية وظيفة ولو صغيرة ، شعر بها الجسمُ كله ؛ فالأصبع الصغيرة إذا دميت تألمت الذراع ، والقدم إذا أصيبت تعطلت الفخذ ، والحمى إذا أصابت الجسم لعارض خفيف ، تعطل الجسم كله . ومن هنا يمثل الرسول عليه الصلاة والسلام تضامن الناس وتساندهم الاجتماعىّ بتلك العلاقات المختلفة ، التى تكون بين أعضاء الجسم الواحد ، فيقول : « مَثَلُ المُؤْمِنِينَ فِى تَعاضُدِهِمْ وَتَراحُمِهِمْ كَمَثَلِ الأعْضَاءِ مِنَ الجَسَدِ : إذَا اشْتَكَى عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سائِرُ الأعْضَاءِ بالسَّهَرِ وَالحُمَّى » .

فالتشابه المطلق ، والاتفاق المطلق ، لايكوّنان تضامنا اجتماعيا بالمعنى الصحيح ،

---

(١) سورة الانفطار ، الآيات ٦ ، ٧ ، ٨ .

وإن كوّناه كان تضامنا بدائيا، من نوع قليل القيمة فى المجتمعات المدنية ؛ لذلك نرى أن الجماعات البدائية متساوية فى كل شىء ، حتى فى سمات الخلق، وسمات التركيب والتصوير ، فأفراد القبيلة البدائية كأنهم أفرغوا جميعا فى قالب واحد ، فكلهم فُطس الأنوف ، ناتئو الجبهة ، غائرو العيون . ومن أجل هذا التشابه يكون التضامن بينهم تضامنا آليا يهتاج لأقل مناسبة ، ويكون صمام الأمن ، وصمامُ الهوج ، فى يد زعيم القبيلة ، ومن هنا كانت العصبية ممقوتة أيضا، لأنها نتيجة العيش فى قبيلة واحدة ، ومع أفراد متساوين فى نصيبهم من العيش ، ونصيبهم من الثقافة . لذلك تكثر العصبية فى الريف ، وتقل فى المدينة ، لأن الناس فى المدن متخالفون غير متشابهين ، فبينهم تساند عضوى لا آلى ، وهو أرقى أنواع التساند الاجتماعى . فالناس إذا اختلفت أعمالهُ وتمزّقت فرادهم ، عاشوا فى أمن وطمأنينة ؛ وإذا تساوت وظائفهم ، واتحدت أهدافهم ، وقصدوا جميعا إلى غاية واحدة ، عاشوا متزاحمين متنافسين ، متفرّقين متخاذلين ، كل يسعى سعى الآخر ، وكلّ يسدّ على الآخر الطريق الذى يسلكه ، وما بعدَ التزاحم إلا التناحر ، وما بعد التناحر إلا الهلكة ، ومن هنا صحة الأثر الذى يقول : « النَّاسُ بِخَيْرٍ ما تَبايَنُوا ، فإنْ تَساوَوْا هَلَكُوا » .

هذا من الناحية « البيلوجية » الحيوية ، أما من الناحية النفسية، فإن علماء النفس الذين يعنون بدراسة الغرائز وبحثها ، يرون الفارق بين الإنسان والحيوان ، فى أن الحيوان له غرائز قليلة ، ومهما تعدّدت ترجع إلى غريزة واحدة ، هى غريزة البقاء وحفظ النوع بالتناسل ؛ أما الإنسان فكرامته فى تعدّد غريزته ، وفى اختلاف هذه الغرائز ، واختلاف أهدافها وغاياتها ، وفى هذا الاختلاف والتعدّد سرّ أفضلية الإنسان على غيره من سائر الحيوانات ، وسرّ تكريمه .

إذا كان التساوى بين الناس يكاد يكون مستحيلا ، وهم فى طريقهم إلى المدنية يختلفون دائما ، وتتمزّق بهم الأغراض والغايات ، وتباعد بينهم الثقافات والاتجاهات ، كان من غير الطبيعى أن تكون هناك مذاهب تطلب هذه المساواة التى لا يمكن تحقيقها ،

فمن المستحيل أن يكون الناس جميعا أغنياء، كما أنه من المستحيل أن يعيش الناس كلهم فقراء ، فهم مختلفون فى الغنى والفقر ، كما أنهم مختلفون فى الطول والقصر ، وهم مختلفون فى الثقافة ؛ ولا يمكن أن نتصوّر أمة أو جماعة متحدة الثقافة ، كما أنه لا يمكن أن يتصوّر فى أية جماعة أن يغشيهم جميعا الجهل ، ففى الأمم البدائية السحرة والكهنة والزعماء الذين يسيرون أمور حياتهم .

مما تقدم نستخلص أن التضامن بعد التحليل العلمى يرجع إلى نوعين :

١ — « تضامن آلى » ، أساسه المشابهة والتوافق ، وهو ملحوظ فى الحيوان وفى الإنسان البدائى وفى العصبيات الممقوتة .

٢ — « تضامن عضوى » أساسه الاختلاف والتباين ، وهو أرقى من الأول ، ويصل إليه الناس بعد أن يدركوا غير قليل من المدنية والحضارة .

وقد نبه القرآن الكريم على هذه الأفكار التى يفخر بها العصر الحديث فى الدراسات الاجتماعية : فقد بينت الآيات أن الناس يختلفون فى الغنى والفقر ، وفى بسط الرزق وقبضه وتقديره « وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ على بَعْضٍ فى الرِّزْقِ »[١] واختلاف الثقافة والتفكير من عناصر البقاء فى الجماعة ، وهذه أيضا نبه عليها القرآن فى قوله تعالى « وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ واخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وأَلْوَانِكُمْ »[٢] وما اختلاف الألسنة إلا اختلاف الثقافة ، وكان اختلاف الثقافة من آيات الله ، لأن الأمم المختلفة تحاول الآن أن تجتمع على التفكير الصحيح ، وعلى الرأى المقبول من جميع الناس ، أو من المفكرين منهم فى الأقل ، وهذا التمزّق فى الألسنة يرجع بهم أخيرا إلى تضامن اجتماعى صحيح ، وهذا التمزّق بين الناس فى الفقر والغنى والسعة والضيق ، والبسط والقبض ، يرجع بهم إلى نوع من التضامن الراقى المبنى على المخالفة لا على التشابه ، والآية التى تجمع الأفكار المتقدمة هى « وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ

(١) سورة النحل ، من الآية ٧١ .
(٢) سورة الروم ، من الآية ٢٢ .

لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ، وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ » [١] .

فمشيئة الله عزّ وجلّ لم تتعلق بجعل الناس أمة واحدة ، ولو شاء لجعلهم أمة متساوين فى الدين والرزق ، فمتى لم تتعلق إرادة الله بهذا الخلق المتشابه ، فالناس لايزالون مختلفين ؛ ولقد تعلقت بالاختلاف إرادة الله ، لأن فى هذا الاختلاف عمارة الكون ، واطّراد نظام الحياة ؛ ولما يعلمه الله سبحانه وتعالى من أن الاختلاف قد يزيد ، وقد يُتوغل فيه فيتعدّى مرحلة التضامن العضوى إلى التناحر ، وتتكالب الناس على الاستئثار بالمنافع ، والتزاحم على الأموال وأسباب الجاه ، استثنى الله جماعة ممتازين من خلقه بالفكرة والعقل ، ليسعوا بين المختلفين بشىء من التقريب يحفظ عليهم صوالحهم ، وهؤلاء هم المعنيون بقوله تعالى « إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ » أى وللاختلاف خلقهم ، لأن الاختلاف كما علمنا هو الذى يسير بالناس إلى مصالحهم ، ويسيِّر الناس إلى الغايات السعيدة . وإذا كان فى الاختلاف ما يمكن أن يعوق تقدم الحياة ، فهناك من رحم ربك من المصلحين الساعين إلى الخير وإلى الهداية ، عند ما تصطدم المنافع وتتناحر النفوس . وإذن يكون هؤلاء الذين يطلبون المساواة إنما يطلبون المستحيل ، فالناس لايزالون مختلفين ، منهم الغنىّ والفقير ، والعالم والجاهل ، ومن إذا سعى كان قريب القصد إلى الغاية ، ومن يبعده سعيه عن الغاية .

والأمر لله ربّ مجتهـد ما خابَ إلا لأنّه جاهِدْ

وكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ ، وصدق الذى يقول : « وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » [٢] .

---

(١) سور هود ، آية ١١٨ ، ١١٩ .

(٢) سورة يونس ، آية ١٩ .

التضامن الاجتماعى بين العلم والدين

مشكلة الفقر والغنى مشكلة قديمة ، لأنها مشكلة طبيعية، تعرّض لحلها الفلاسفة والعلماء ، وتعرّضت لها كل الأديان ، تأمر الغنىّ بالإنفاق ، وتأمر الفقير بالعمل والصبر ، وتأمر الناس جميعا بالتعاون والتضامن ، حتى يرضى الغنىّ عن نفسه ، وحتى لايحفظ الفقير فى نفسه موجدة أو حسدا ، أو حقدا أو ضغينة .

تجددت مشكلة الفقر والغنى فى القرن التاسع عشر مع التقدم الاقتصادى ، لماسالت رءوس الأموال فى المشروعات العامة ، وتطلبت هذه الأموال الأيادى العاملة ، فكان الغنىّ يأكل من فضل ماله ، كما يأكل الفقير من عرق جبينه ، وكلّ يعرف فضل صاحبه ويرضى عنه تمام الرضا ؛ فلولا رأس المال ما أكل العامل ، ولولا العامل ما استطاعت الأموال التى كانت معطلة ومخبأة فى كنوز الأرض ، أن تعمل عملا نافعا يعود على صاحبه بالخير ، فضلا عن أن يعود به على كثرة كثيرة من الناس ! ولكن الذى أغرى الطبقة العاملة الفقيرة بالطبقة المفكرة الغنية ، هو ظهور الآلات وما يتبعها فى نظام العمل وتقسيمه ، فإن هذه الآلات عطلت كثيرا من الأيدى العاملة ، والآلة الواحدة جعلت صاحب المال يستغنى بها عن كثير من العمال ، وتلك شرور التقدّم الاقتصادى ، ولكنه شرّ لابد منه ما دام مصحوبا بالتقدم الحضارىّ .

عانى العمال فى أوربا مضارّ التعطل ، وظهرت المشكلة بقسوتها تحت الاسم الذى يعرفه الاقتصاديون لكلمة « ماشينزم Machinisme » ، وظهر الحقد فى نفوس العمال ، فأضربوا عن العمل ، ليعطلوا من قوّة هذا المارد الجبار ، الذى قلّل من طلب أيديهم ومجهودهم ، وانصبّ حقدهم على الآلات فكسروها ؛ واستدعى نظام العمل أن يُقسّم ليكثر الإنتاج : فأصبح « الدبوس » الصغير مثلا من مواد التخصص ، فريق من العمال يتخصص فى قطع أسلاكه المعدنية ، وفريق آخر يعمل فى تدبيب سنّ « الدبوس » ، وفريق ثالث يعمل لاستدارة رأسه ، وهذا التقسيم جعل العامل متصلا

بالمصنع ، مستعبدا له ، فإذا طرد لايجد عملا صغيرا يقوم به ، لأن عمله لايُؤدّى إلا فى مصنع كبير . هالَ المفكرين أمرُ هـذه الحال ، ووجدوا أن التقدّم الاقتصادى سيطوّح بالعلاقات الخلقية بين العمال وأصحاب المال ، أو بين الأغنياء والفقراء ، فأخذوا فى وضع الحلول العلمية ، ولكن المشكلة لم تحلّ بعد وتمزّقت الناس ، وعزّ التضامن ، وتكوّن نظام الطبقات الذى أثر تأثيره السيئ لافى الاقتصاد وحده ، بل فى الأخلاق والعقائد .

نادى الأخلاقيون بضرورة التضامن ، ولجئوا إلى علوم النبات والحيوان ليبرهنوا على أن جسم الإنسان متضامن فى أجزائه ، وكلّ جزء يؤدى وظيفته الخاصة ، فإذا تعطل أومرض ، تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ، كمايقرّره الحديث الشريف ؛ وكما لحظوا التضامن فى التركيب الحيوانى لحظوه أيضا فى أجزاء النبات ، فإذا قطع الجذر ماتت الأوراق ، وإذا تعرّضت الساق لعطب ، هلكت الثمرة معه ، فالإنسان ليس أقل شأنا من الحيوان والنبات ، فواجبه التضامن . والرجل الذكىّ ، بل العبقرىّ محتاج إلى الرجل الجاهل احتياج الجاهل إليه ، فالحياة تبادل وتناول ، وأخذ وعطاء ، والناس منذ وُجدوا فقير وغنىّ ، وعالم وجاهل ، ومحتاج ومحتاج إليه ، وكأنّ التضامنيين فى تحليلهم يترجمون قول الشاعر العربىّ :

ما لقوىّ عن ضعيف غِنًى لابدّ للسهم من الريش

وبعد هذا التحليل الذى يتفق مع روح الدين ، يرجع بعض العلماء على بعض بالاعتراض والتزييف ، فقد قالوا : إن تضامن الغنىّ والفقير تضامن آلىّ ، صناعىّ ، غير ثابت الأثر ، فما تضامن القوىّ مع الضعيف إلا نوع من المعاهـدة غير المشروعة التى يستفيد منها القوىّ كل شىء ، ولا يفيد الضعيف منها شيئا ! إنه تضامن الذئب مع الحمل ، يخاتله ثم يأكله ! !

فهو تضامن أساسه القسر والغلبة ، فإذا طلبه صاحب المال فلفائدته ، وهو القوىّ الغالب دائما ، وإذا طلبه العمال أثر تأثيرا مؤقتا ، ووصلوا بعده إلى شىء مما

يريدون ، ولكنهم المغلوبون دائما : فصاحب المال بيده المفتاح ، فإن شاء أغلق مصنعه وإن شاء فتحه ، والقوانين التى شرعها أصحاب المال ، أو التى كان لهم الأثر الأول فى استصدارها ثم إصدارها ، تحميهم وتقف من ورائهم ، تسند ظهورهم إلى مستند ركين . هذا هو الاعتراض الأول الذى وُجِّه إلى التضامنيين فى نظريتهم الجديدة !

وهناك اعتراض ثان لايقلّ عن الاعتراض المتقدم من حيث النظر والاعتبار والأثر والنتائج : ذلك أن التضامن وحده لايكفى أن يكون رابطا للعلاقات بين الطبقات ، وكثيرا ما يكون التضامن تحزّبا ، أو عصبية صناعية ، لاتقلّ فى أثرها السيئ عن العصبية القبلية والدموية . فالتضامن خلق ، والمنافسة خلق من الأخلاق التى تعتمد عليها الحالة الاقتصادية والاجتماعية ، وأحيانا يقف هذا التضامن حجر عثرة أمام المنافسة الصادقة ، وهى فى الاقتصاد رواج ، وفى السلوك أخلاق ، وفى المدنية تقدّم ، فهى سرّ الحياة ، وسرّ الاضطراد فيها ، فلو أن الاقتصاديين أجمعوا أمرهم وتضامنوا على غلاء الأسعار مثلا ، لأجاعوا الناس وتحكموا فى حياتهم ، ولو تضامن الحكام ضد المحكومين ، لشاع الظلم ، فإلى من يلجأ المظلوم ؟ وإلى من يرفع الشكاة ؟ وممن يطلب النصفة ، وقد تظاهر الحكام على الشدّة والبغى ؟! ولو تضامن المحكومون ضد الحكام لأرهقوهم ولعطلوا جهودهم ، ولشلّوا كل تفكير فى المُصلح ، وكل اندفاع فى مبتغى الإصلاح ! ولو تضامن الأطباء ضدّ المرضى لأماتوهم ، ونشروا الأمراض ، ومكنوا للعدوى والفساد !

فأنت ترى أن التضامن وحده ، بمعنى تجمع طائفة من الناس على أمر ما يصدرونه ، ويزّ-ون بأنفسهم فى دفعه ، وفى ضرورة تقريره ، بقطع النظر عن صلاحيته ومشروعيته ، هو الفوضى والفساد بعينهما ، مهما تزيا بأزياء خلقية ، وتسمى بأسماء خلقية ، من التضامن ، والاتحاد ، والتكتل ، والتجمع ! !

وهكذا تجد التضامنيين من علماء الأخلاق أوجدوا النظرية ونقضوها ، وبعثوها أفكارا بلا روح ، فما لبثت أن ماتت فى مهدها ، لأنها حُرِمت خلايا الإصلاح التى تدفع كل مخلوق جديد إلى الحياة ، ثم إلى البقاء !

لذلك كتب علماء الأخلاق يحددون معنى التضامن بمعناه الصحيح ، ويفرّقون بين مجرّد التجمع الذى يستوى فيه الحيوان والإنسان ، وبين التجمع بمعناه الخلقى ، حتى يستحق أن تطلق عليه كلمة « التضامن » . وهم يفرّقون أيضا بين « التضامن الاقتصادى » و « التضامن الخلقى » ، فقد كتب ماريون Marion كتابه تحت اسم « التضامن الخلقى La Solidarité Morale » ، وفرّق فيه بين المجتمع الإنسانى والمجتمع الحيوانى : فالأفراس تتجمع مع الأفراس ، ومجموعة الغنم تتضامّ إلى مجموعة الغنم حتى تكوّن قطيعا ، والنادّة منها تشعر غريزيا بشىء من القلق لايزايلها إلا بعد أن تجد قطيعها ، فتلحق به . وهذه المخلوقات الصامتة تتألف باسم هذه الغريزة الجماعية التى تدفعها دفعا إلى حفظ نسلها ، وإلى صيانتها حتى تؤدى ما خلقت له ومن أجله . أما التضامن الإنسانى فأجلّ من ذلك وأسمى . وقد قرّر المؤلف فى كتابه كثيرا من الفروق بين التضامن بمعناه الاقتصادىّ ، وبين التضامن بمعناه الخلقىّ ، فالأوّل إذ يضغط على المنافسة ، يسمح بالظهور للاحتكار وللمحتكرين ، الذين ينسون أنفسهم تجارا واقتصاديين ، ويصبحون ظَلَمة لايفكرون إلا فى الثروة والغنى ، ولو تجمعت ثروتهم ؛ ووفر غناهم ، من دماء الناس وحياتهم ، والقبض على أرزاقهم ، والتصرّف فيها بالقبض والبسط ، والسعة والتقدير . على هذا النحو يفهم « ماريون » التضامن الاجتماعىّ ، ويقرّر ما قرّره الدين من أن التضامن وحده لايكفى ، بل لابدّ إلى جانبه من الرحمة والعدل والإحسان ؛ فالتضامن الاقتصادى إن لم تختلط به الرحمة كان قسوة واحتكارا ، وهو فاسد من أساسه ، لأن جانب المستهلك مهمل فيه ، ولا يراعى إلا جانب المنتج . والتبادل التجارى علاقة بين المنتج والمستهلك تحكمها الرأفة والمرحمة ، وبخاصة إذا كانت المعروضات التجارية مما يتصل بمادة الحياة ، أى بالحياة نفسها ؛ وهو يبيح للدولة إذا خشيت هذا الاحتكار ، أن تنزل إلى السوق تاجرة بائعة مشترية ، حتى تمنع تضامن وتعصب المنتجين ؛ وفى هذا أيضا من الأسباب ما يحمل الحكومة والشعب على الإكثار من جمعيات التعاون فى المواد الحيوية الأولى ، مع تحديد

فى الربح يضمن رواج التجارة ، ويضمن فى الوقت نفسه مصالح الناس ، وسهولة الحصول على أرزاقهم .

والتضامن إن لم تحكمه العدالة كان فوضى ، أو أدّى إليها ، فالمطالب التى يتجمع حولها ومن أجلها الناس ، يجب أن تتصف بالعدالة والمشروعية ، والتضامن الذى يعمل لمصلحة جماعة معينة ، ويهمل باقى الجماعات ، نوع من الأثرة والأنانية وإن اتخذ مظهر الحقّ واسم التضامن . إن التضامن العادل يدفع أصحابه دفعا إلى تحقيق مطالبهم ، وإلى الوصول بها إلى غايتها ، وإن الحلول التى تجاب بها المطالب المتجمعة إن لم تكن مبنية على العدالة ، كانت تعدّيا وافتياتا . ولا يكفى العدل وحده ، بل لابد إلى جانبه من الإحسان ، وليس معناه هنا الصدقة أو العطاء ، وإنما معناه وضع الشىء فى محله ، وإعطاء كلّ ذى حقّ حقه ، ومجازا كلّ فرد أو جماعة على ما عملت ، وإجزال المكافأة على أحسن ما عملت . وكلها كما ترى مبادئ دينية أقرّها الإسلام وارتضاها .

منطق الدين ومنطق العقل

إن مبادئ الإسلام عاشت فى كل البيئات والأوساط : هدت العرب إلى نُظُم جديدة لم يعرفوها ، وطامنت من كبرياء نفوسهم ، فذلوا لله ، وبقيت لهم عزّة نفوسهم ، فكانت من مقوّمات حياتهم . وسايرت هذه المبادئ النظم والشرائع فى البلاد التى خضعت لهم ، وبدّلت منها ، حتى أصبحت مبادئ للعدالة والتشريع ، ووقفت مبادئ الإسلام أمام العقل متحدية تارة ، وهادية تارة أخرى . ثم وقفت أمام العلم ، فلم يسعه إلا تصديقها ، ولا يزال فى تلكئه وتلكئ العقل به ، يستلهمها ويستهديها ، وأحيانا يقف أمامها مبهوتا مبهورا .

يُدلّ العلم بأنه نقّب بمعوله فى كهوف العقل الإنسانى ، حتى عرف مافيها ، فوجد أن العقل ثُلاثىّ النواحى ، وأنه يدرك الأشياء ، وفيه قابليّة لإدراكها ، وأنه يقف منها موقفا وجدانيا ، فيرفض ما يرفض ، ويقبل مايقبل ، وأنه بعد هذا الموقف الإدراكى والوجدانى متسلط على الإنسان نفسه ، يحرّك إرادته كما يريد بالقبول والرفض . تلك هى المظاهر الثلاثة العقلية أو الشعورية التى يفخر العلم بكشفها ، وهى : الإدراك ، والوجدان ، والإرادة . أو بعبارة علمية من مصطلحات التفكير الإسلامى : العقل ، والقلب ، والكسب والاختيار . ويطول بنا المقام إن رحنا نعدّد كيف ضرب الإسلام فى هذه النواحى مستنيرا بنور الهداية لا بكهربا العلم الحديث ، ومستهديا ، لا بالمعامل والمختبرات ، ولكن بتلك الأشعة من نور الله تفتش خبايا النفوس ، وخفايا الضلوع ، ومكمن الأسرار فى أنحاء الأفئدة . والرسول عليه الصلاة والسلام حامل مصباح هذه الهداية ، يقذف بتلك الأشعة فى قلوب الناس ، فيستنير بها بعض ، ويحترق بها بعض آخر ، وهى هدى ورحمة للمؤمنين ، وشواظ من نار ، ولهب يلفح المنافقين . علم غزير من فيض الله ، نزل على قلوب طيبة التربة ، فأحيا مواتها ، وأخصب جدبها ، وأدرّ أخلافها ، وأثمر أوراقها ، ونزل على قلوب هى

قيعان ملساء ، لاتنبت نبتا ولا تمسك ماء . فيض من فيض الله انحدر على لسان نبيه ، وكان ريًّا من الرحمة على قلوب المؤمنين ، وكان صيِّبا فيه ظلمات ورعد وبرق على الكافرين والمنافقين .

رقى الإسلام الإدراك والعقل مستلهما الغريزة « ونَفْسٍ وَما سَوّاها فألْهَمَها فُجُورَها وتَقْوَاها » [١] ثم لفت نظر الإنسان — إن لم يلتفت إلى نفسه — لينظر فى غرائز المخلوقات ، وخصّ منها هذه الضعيفة التى لاتملك حولا ولا طولا : « وأوْحَى رَبُّكَ إلى النَّحْلِ أنِ اتَّخِذِى مِنَ الجِبالِ بُيُوتا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ، ثُمَّ كُلِى مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً ، يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ » [٢] ، « حتى إذَا أتَوْا على وَادِ النَّمْلِ قالَتْ نَمْلَةٌ يا أيُّها النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لايَشْعُرُونَ » [٣] .

فهاتان مملكتان من مملكة عالم الحيوان ، الأولى تهديها غريزتها إلى نوع الرحيق الذى تشتفُّه من مختلف أنواع الزهور ، وتحيله الطبيعة التى خلقت من أجلها النحلة ، ليكون من نتاجها شراب مختلف ألوانه ، فيه غذاء ، وفيه شفاء . والثانية تهديها غريزتها إلى التجمع ، والنظام ، وتوزيع العمل فى إبداع دقيق ، جعل سليمان يعجب لأمرها ، ويتبسم ضاحكا ، ويتوجه إلى الله فى صلاة ودعاء ، أن يقدره على شكره ، وعلى العمل الصالح ، كما أقدر هذه المخلوقات الضعيفة على أداء واجبها منظما دقيقا .

كل هذا ليبرهن الدين على أن الغريزة وحدها كافية بما فيها من إدراك ووجدان ونزوع ، لأن يستدلّ الإنسان على خالقه ، ولأن يرجع بعد دراسة نفسه وما حوله

---

(١) سورة الشمس ، الآيتان ٧ ، ٨ .

(٢) سورة النحل ، الآيتان ٦٨ ، ٦٩ .

(٣) سورة النمل ، آية ١٨ .

ومن حوله ، بابتسامة من الرضا والإيمان ، كابتسامة « سليمان » الذى قال بعد أن قدّر خلق الله « رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَى وَالِدَىَّ ، وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ، وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ » [١] .

وهنا نلفت نظر هولاء الذين يكذبون أنفسهم ، ولا يصدقون من العلم إلا ما جاءهم على لسان علماء أوربا ، إلى دراسة قيمة لفيلسوف له تقديره ، هو العلامة « برجسن » الذى أثبت فى كتابه « المصدران الأوّلان للدين والأخلاق » .

Les deux premières sourses de la morale et de la religion.

أن الغريزة مصدر الدين ، ومصدر الأخلاق ، وأنها وحدها هى الفطرة التى يولد ابن آدم عليها ، وأنها إذا هذّبت فى الإنسان كانت كافية لسعادته . أما الغريزة الحيوان فهى مهذّبة وكافية لقيادته وحفظ بقائه ونوعه ، فالعصفور يهتدى بغريزة دقيقة إلى اختيار العشّ الناعم الدافئ ليكون مهدا لصغاره وأنثاه ، وهو يعلّم صغيره الطيران ، وكيف ينتقل من فنن إلى فنن ، ومن شجرة إلى شجرة فى درسين أو ثلاثة ، ثم يتركه بعد ذلك للحياة وقد استعدّت غريزته لمقابلتها . والقطة الصغيرة تثب هنا وهناك ، وتمتدّ وتتقلص فى حركات دقيقة رشيقة ، استعدادا للوثوب على الفريسة ؛ وهى تجرى وراء الكرة من الصوف تشدّ خيطها ، وتكرّ وراءها إذا انحات وتدحرجت ، استعدادا للوثب على الفأر ، وعلى غيره من بعض الحشرات التى أعدّت لغذائها ، ولدفع الضرر عن الإنسان الذى يسخرها ضمن ما يسخر لحفظه وصيانته ودرء الضارّ عنه . وهكذا سائر الحيوانات تخلق فيه الغريزة نامية بعض النموّ أو كله ، استعدادا للقيام بما تكلفه به طبيعته فى الحياة . أما الإنسان فتتعدد الغرائز متنوّعها ، لأنه لم يعدّ فى الحياة للقيام بعمل واحد ، بل كلّ الأعمال مفتوحة أمامه ، وهو مدعوّ لمزاولتها ، لذلك كانت غرائزه فى حاجة إلى التهذيب والتعلية ، والتشذيب والتنمية : يشذّب من غريزة التغذية ليربىَ خلق القناعة ، ويهذّب من

(١) سورة النمل ، من الآية ١٩ .

غريزة الأنانية ليكون كريما عاطفا على المحتاجين من أمثاله ، ويطامن من التكابر والمكابرة ، حتى يكون لين الجانب سهل الخلق ، ومن هنا لايكفيه درسان ولا عدّة دروس فى تهذيب غريزته والاستعلاء بها ، بل يظلّ سائلا ، متعلما ، ملاحظا ، متأمّلا ، يطلب العلم من المهد إلى اللحد ؛ ومن هنا أيضا كانت سيادته على سائر الحيوانات ، وسلطته على تسخيرها لخيره ومتعته . ما كان أولى هذا الإنسان وقد وهبه الله العقل ، وعدّد له الغرائز ونوّعها ، أن يوازن بين قواه من ناحية ، وبينه وبين غيره من سائر المخلوقات من ناحية أخرى ، حتى يرجع إلى خالقه بالطاعة والمعرفة ؛ ولكن الذى خلقه أعلم بطبيعته وتمرّده ! فما يصفه واصف بأبلغ ممّا وصفه به بارئه « قُتِلَ الإنْسانُ ما أكْفَرَهُ ! مِنْ أىّ شَىْءٍ خَلَقَهُ ، مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ، ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ، ثُمَّ أماتَهُ فأقْبَرَهُ ، ثُمَّ إذَا شاءَ أنْشَرَهُ ! كَلاَّ ! لَمَّا يَقْضِ ما أمَرَهُ » [١] !

لجأ القرآن بعد الغرائز إلى الحواسّ ، وهى أبواب المعرفة والإدراك ، فإذا استعملت فيما خلقت له دقت ، ورقيت ، ولاحظت ؛ ومتى لاحظت ، تأملت ، ومتى تأملت ، فكرت ، ومتى فكرت ، استغرقت ، والتفكير معرفة ، والاستغراق نهاية المعرفة . « أفَلا يَنْظُرُونَ إلى الإبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ، وإلى السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ، وَإلى الجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ، وَإلى الأرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ » [٢] . وبعد أن لجأ الدين إلى الحواسّ اعتمد على الحسّ والمحسات فى تقدير الأعمال « فأمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ، وأمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ ، وأما أدْرَاكَ ماهِيَهْ ، نارٌ حامِيَةٌ » [٣] .

ترقى الدين بالناس بعد هذه الفلسفة الحية ، إلى فلسفة أدقّ ، يمكن أن تسمى « بالفلسفة العقلية » : أمرهم أن يستبطنوا أنفسهم ، وأن يستهدوا مشاعرهم ، وأن

---

(١) سورة عبس ، الآيات من ١٧ إلى ٢٣ .
(٢) سورة الغاشية ، الآيات من ١٧ إلى ٢٠ .
(٣) سورة القارعة ، الآيات من ٦ إلى ١٠ .

يستلهموا طبائعهم، وأن يعملوا بعقولهم، فهى كافية فى أن ترجع إليهم بالنظر والدليل، « وفى أنفسكم أفلا تبصرون ؟ ! » [١] « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » [٢] « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » [٣] . ثم حذّر الدين من أناس يلغون عقولهم ، ويكابرون فى الحق الذى طلبوه بعد أن أجيبوا إليه « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة ، رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة ، وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ، وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، وذلك دين القيمة » [٤] .

وفى الناحية الخلقية حذّر الدين من أناس قادرين على التشكل بأشكال مختلفة ، يتلوّنون تلوّن الحرباء ، يتظاهرون بالفضيلة وهى الرذيلة مستترة وراء ستار من لؤم الطبع ، وقبح السريرة ، ويقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، « يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا » [٥] « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » [٦] .

ومن أبدع تصوير الله — ومن أبدعُ من الله تصويرا — وصفُه أناسا تخلُبك مظاهرهم ، وتخونك بواطنهم ، يحدثونك بالفضيلة ولا يتجاوز حديثهم حناجرهم ، أدّبوا ألسنتهم ، ولم يؤدّبوا قلوبهم ، تشعّ وجوههم نورا ، وقلوبهم خابية ، وتفيض حواسهم بالضوء والتألق ، وإحساسهم مظلم قاتم ، شجعان إذا قالوا وإذا همّوا ،

---

(١) سورة الذاريات ، آية ٢١ .
(٢) سورة الفتح ، آية ٢٤ .
(٣) سورة ق ، آية ٦ .
(٤) سورة البينة ، من الآية ١ إلى ٥ .
(٥) سورة النساء ، آية ١٤٢ .
(٦) سورة المنافقون الآية الأولى .

جبناء إذا التُجئ إليهم وإذا استُنصروا ، أصدقاء إذا قابلتهم ، أعداء إذا طلبتهم ، « وَإِذَا رأيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أجْسامُهُمْ ، وَإنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كأنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ، هُمُ العَدُوُّ فاحْذَرْهُمْ قاتَلَهُمُ اللهُ أنَّى يُؤْفَكُونَ » [١] .

ويشتغل بهم صاحب الرسالة مع ما هم عليه ، يحاول هدايتهم ليردّهم إلى حظيرة الله ، وحظيرة الأخلاق ، ويتعب نفسه فى ذلك ما شاءت له الروح الطيبة ، ويحاول هدايتهم ما وسعته أوامر الله ، حتى يسمع قوله « سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ، إنَّ اللهَ لا يَهْدِى القَوْمَ الفاسِقِينَ) [٢] .

هكذا عرض محمد صلى الله عليه وسلم رسالته ، وهكذا عرضها الأنبياء قبله عليهم وعليه سلام الله ؛ فمن لم يستلهم الغريزة فى دينه ، فليستلهم الحواسّ ، فإذا أعوزته ، فليستلهم العقل ، فإن لم يصل بعد ذلك ، فبشره أن الله ختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غِشاوة ، فما يفيده عقل ولا حاسة ، ولا إرشاد ولا هداية !

ويعجبنى فى هذا المقام ما لحظه هيوارت Huart فى كتابه « الأدب العربىّ » La littérature Arabe ذاكرا فضل القرآن الكريم على الأدب ، مبينا الفرق بين أساليبه التى تخاطب الحسّ والوجدان تارة ، ثم تخاطب العقل والتفكير تارة أخرى ، وموضوع الأسلوب واحد ودرجته واحدة فى منزلة السموّ ! فقد كان العرب فى أول أمرهم يعيشون على مشاعرهم ، تدفعهم وِجداناتهم ، قبل أن تحدُوَهم عقولهم ، حتى إذا استحصفت هذه العقول ، وصفت هذه الأذهان ، ورَقِيت هذه المدارك ، رجع القرآن على الموضوع الواحد بالعقل والتدليل والتفكير .

هذه الموءودة ، فهى فى سورة النحل عَرْض لما يصيبهم عند ميلاد الأنثى من الناحيتين النفسية والاجتماعية ؛ فالقابلة تبشر أحدهم بالأنثى فيسودّ وجهه ، وتظلم

---

(١) سورة المنافقون ، آية ٤ .

(٢) سورة لمنافقون ، آية ٦ .

الدنيا أمامه ، ويتطاير الغيظ من عينيه شَرَرًا ولهبا ، ثم هو يكظم غيظه ، ثم هو إذا خرج يتوارى من القوم ، فلا يحضر ناديهم ، ثم يتصوّر النادىَ هازئا ساخرا من هذا الوالد الذى ينجب وليدا كَلاًّ لا يعزّ نسبا ، ولا يثير حربا ، ولا ينفع فى سلم أو حرب ! فيصوّر الوالد وقد غلبه غيظ العار على كظم الحلم ، ممسكا ابنته بكلتا يديه ، حتى يخرج آخر نفس فى صدرها ، وحتى ينطفئ آخر شعاع فى عينها « أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ »[١] ، وساء مايحكم الوالد ! وبئس الفرد ! وبئست الجماعة ! . وفى سورة « التكوير » تستيقظ الموءودة ، ويحيا المقتول ، ويضطرب القاتل ! ثم تسأل القتيلة ولا يُسأل القاتل ! لم قُتِلت ، وفيم قُتِلت وبأىّ ذنب قُتِلت ؟! « وَإِذَا المَوْءُودَةُ سُئِلَتْ » « بِأَىِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ؟ »[٢] . وسؤال المظلوم أبلغ فى النكال من سؤال الظالم ، فدم المظلوم يدلّ على إجابته ، وسيف الظالم يدلّ على جريمته ، والنكال فى أن يُسأل الدم المُهرَاق ، من أساله ، ومن أراقه ؟ هنا تتجمع الآثام على رأس الظالم ، فلا يدرى ما يقول ، ويحار بعد أن يعجز عن أن يجد جوابا !

وفى سورة الإسْراء « وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كانَ خِطْئاً كَبِيرًا »[٣] . تنتقل الآيات من الأسلوب التقريرىّ أولا ، والتمثيلىّ ثانيا ، إلى الأسلوب العقلىّ ثالثا ، وإلى النهى الحاسم ، مبينة أن فكرتهم فى تدبير الاقتصاد المنزلى إن صحّ هذا التعبير ، وموازنتهم بين الفرد من الأسرة ، وما تجنيه الأسرة من ورائه ، فكرة خاطئة ، وموازنة غير دقيقة ، فالوليد معه رزقه وأجله وشقاوته وسعادته ، والرازق بالولد رازق بطعامه وشرابه ، وقتل الوليد تحكم فى إرادة الله ، وتحكم فى مستقبل الوليد ، فقاتله لا يدرى أيكون شقيا أم سعيدا ، ولا يدرى أيكون كَلاًّ على والده أم يكون والده كَلاًّ عليه !

---

(١) سورة النحل ، آية ٥٩ .

(٢) سورة التكوير ، الآيتان ٨ ، ٩ .

(٣) سورة الإسراء ، آية ٣١ .

فمنطق الدين — كما رأيت — منطق علمىّ ، عقلىّ ، وجدانىّ ، إرادىّ ، يخاطب به الإنسان قبل إيمانه ، وبعد إيمانه ، وحين يضعف الإيمان ، وحين يقوى ؛ ويخاطبه كافرا ليؤمن ، وضعيفا ليشتدّ ، وجاهلا ليستعمل حواسه ، وعالما ليُعمِل فكره ، ومؤمنا ليزداد إيمانا ؛ والإنسان لابدّ متقبل هذا المنطق الذى يأخذه من جميع نواحيه ، وهو لايدرى أنزل على قلبه فصدّقه ، أم على عقله فحلّله ، أم نزل بعقله ووجدانه معا فصدّق وحلّل ، واعتقد واستدلّ ، وآمن ثم فكر ، أو فكر ثم آمن ، ولكنه يسلم ويقدّر فى لحظة واحدة ! وتلك هى السِّمات المميزة لمنطق القرآن « كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ ، فَلا يَكُنْ فى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ ، لِتُنْذِرَ بِهِ وذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ » [١] .

---

(١) سورة الأعراف ، آية ٢ .

الدين والتحرير

يكره كل دين أن يخضع الإنسان للإنسان ، وأن يستغلّ الإنسانُ الإنسان ؛ فخضوع الإنسان لجنسه يلتمس منه المعونة والمثل ، معناه ترك الناس للناس ، أو تركهم لغرائزهم يتقاتلون على العيش ، ويتقاتلون على وسائل الحياة .

والغرائز الفردية هى الأولى غلبةً وتسلطا : فغرائز التغذية أول الغرائز ظهورا فى الإنسان ، ولو تركت وشأنها لاستبدّت بها الأثَرة والأنانية ، وهما تؤديان بطبيعتهما إلى التقاتل والتناحر ، وإلى العداوة والبغضاء يملآن النفوس ، ويدفعانها إلى الشرور والآثام . والغرائز الاجتماعية متأخرة فى الظهور ، ولكنها هى الأخرى عُرضة للتغلب والأنانية ، فلم يبق إلا الدين ، والدين وحده الذى يحدّ من هذه الغرائز فرديها وجماعيها ، والدين هو الذى يتسامى بها حتى تتحوّل إلى عادات وأخلاق ، ثم تتحوّل بعد ذلك إلى عواطف دافعة إلى الخير ، وإلى آمال حافزة إلى العمل والكسب من وسائل كريمة ومشروعة .

والدين يكره من الإنسان أن يستغلّ أخاه ، وأن يستعمل فى هذا الاستغلال وسائل شتى من القوّة ، والذكاء ، والمهارة فى المواربة والالتواء ؛ لذلك كان من مهمة الدين التحرير : يحرّر العقيدة أولا ، فلا يرى الإنسانُ أثرا ولا تأثيرا لغير خالقه ، يتوجه إليه عبادة وتوسلا ، ويرفع بصره إلى السماء أملا ورجاء ، ويفعل الخير ابتغاء المَثُوبة ، ويجانب الشرّ خوفا من الجزاء والعقوبة «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ »[1] فالعبادة لله وحده ، لا وسيلة فيها بأحد غيره ، والاستعانة بالله وحده ، لا ربّ إلا هو ، ولا مُعين سواه ؛ والذين اتخذوا من دونه آلهة ضلوا فيها ، وأضلوا بها ، « لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ، وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً »[2] . وكثيرا ما أخذ الدين بيد العقل يطوّف به على المخلوقات ، فيرى الطير فى جوّ السماء مسخّرات ما يمسكهن إلا الله ، ويرى السموات

(١) سورة الفاتحة ، آية ٥ .

(٢) سورة الفرقان ، من الآية ٣ .

بغير ، عمد يحكمها نظام دقيق ، ويجرى بها حساب دقيق ، « ما تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفاوُتٍ » [١] ويرى الأرض ممهّدة مبسوطة ، أنبت فيها من كل زوج بهيج ، ومن كل شيء موزون ، ويرى الرياح تساق إلى البلد الميت فتحييه ، وإلى الجدب فيصبح مخضرّا ، فيرجع العقل بعد التذكر والتدبر مفكرا محرّرا ، ينادى بقول من ألهمه « رَبَّنا ماخَلَقْتَ هَذَا باطِلاً سُبْحانَكَ » [٢] « هَذا خَلْقُ اللهِ فأرُونِي ماذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ [٣] ». والدين هو الذى حرّر العقل ، وعلمه الفكر والنظر ، لينتقل من الاستدلال بالمشاهدة ، إلى الاستدلال بالدليل ، فيتخلص بعد الاستدلالين من أباطيله وأوهامه ، وأساطيره وخرافاته ، « لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إلا اللهُ لَفَسَدَتا » [٤] « إذَنْ لَذَهَبَ كُلُّ إلَهٍ بِمَا خَلَقَ ، وَلَعَلا بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ [٥] » تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . ولقد سمح الدين — فى سبيل تحرير العقيدة — للولد أن يخالف أباه إذا اعتقد غير مايجب أن يعتقد : « وَإنْ جاهَدَاكَ عَلَى أنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما ، وَصَاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أنابَ إلَيَّ ، ثُمَّ إلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » [٦] . وأوجب الدين فى سبيل تحرير العقيدة ألا نعرف فيها ولدا ولا والدا ، ولا أخا ولا صاحبا ، اتقاء عذاب الله « يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أخِيهِ ، وأُمِّهِ وأبِيهِ ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شأنٌ يُغْنِيهِ » [٧] . ولقد ساوم أعداء الإيمان الرسول على عقيدته ، ليعبد آلهتهم يوما أو بعض يوم ، حتى يعبدوا ربه الذى يدعو إليه ، فردّ عليهم قاطعا الشكّ باليقين : « لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ » [٨] .

هذا هو فضل الدين فى تحرير العقل وتحرير العقيدة .

---

(١) سورة الملك ، من الآية ٣ .
(٢) سورة آل عمران ، من الآية ١٩١ .
(٣) سورة لقمان ، آية ١١ .
(٤) سورة الأنبياء ، آية ٢٢ .
(٥) سورة المؤمنون ، آية ٩١ .
(٦) سورة لقمان ، آية ١٥ .
(٧) سورة عبس ، الآيات ٣٤ وما بعدها .
(٨) آخر سورة الكافرون .

أما تحرير الأسرة فقد قدره الدين فى واجبات وحقوق « وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ » [١] . والعمل الصالح يكلفه الرجل والمرأة ، والمسئولية موزّعة بين الرجل والمرأة ، « وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا » [٢] .

وكانت المرأة فى الرومان تابعة للرجل ، يملك منها حتى حقّ الحياة ، كما أنها كانت تعتبر دافعا من دوافع الشرّ والإثم ، فكرّمها الدين ، وحرّرها ، وجعلها تستقلّ بشخصيّتها ، وأمّنها على حقوقها ، فلها إن خافت من بعلها نُشوزا أو إعراضا أن تقاضيه أمام مجلس التحكيم ، ليصلح بينهما ، والصلح خير . ومن تحرير الأسرة أن يأمر الدين برعاية الصغير اليتيم الذى فقد أباه ، وأن يتوعد الظالم الذى يستبدّ بأموال اليتامى « إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا » [٣] . فمال اليتيم وديعة مسئول عنها وصيه ، وهو مكلف أن ينميها ، وألا يزيد فى أمواله بها ، وألا يستبدل الخبيث منها بالطيب ، « وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ، وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا (هلاكا) كَبِيرًا » [٤] « فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ، وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا » [٥] .

أما التحرير من الجهل ، فقد طالب به الدين ، فبين فضل الذين يعلمون على الذين لا يعلمون ، وطلب ممن لا يعرف شيئا أن يسأل عنه فى غير خجل أو استحياء : « فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » [٦] والجهل والعلم مضرب الأمثال فى آيات الكتاب ، فالجاهل أصمّ وأبكم لا يقدر على شىء ، والمتعلم بصير

---

(١) سورة البقرة ، من الآية ٢٢٨ .
(٢) سورة النساء ، آية ١٢٤ .
(٣) سورة النساء ، آية ١٠ .
(٤) سورة النساء ، آية ٢ .
(٥) سورة النساء ، من الآية ٦ .
(٦) سورة النحل ، من الآية ٤٣ .

عارف يأمر بالمعروف ، ويأمر بالعدل : «وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُما أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ، وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَما يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ ، هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »[١] «قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى والبَصِيرُ ، أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَالنُّورُ »[٢]؟ ولا ظلمات أظلم من الجهل ، ولا نور إلا نور الهداية والمعرفة . والعلم والجهل مقترن في كتاب الله بالحقّ والباطل ؛ فالجهل يدفع إلى الجهالة ، والجهالة تدفع إلى الظلم ، والعلم هداية للحق ، وسبيل إلى الاعتراف به ؛ ومثل العلم والجهل كمثل الحقّ والباطل : « أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها »[٣] أي أن الناس أمام العلم والجهل والحق والباطل كالتربة المتعرّضة للماء ، منها خصبة تشرب الماء وتنبت ، ومنها صلبة تستمسك بالماء ولا تنبت ، ومنها رملية قحلة يتسرّب إليها الماء من غير أن يؤثر فيها ، والعلم قد يحمل الضرر كما يحمل الماء الزبَد ، ولكن قضى ربك أن يحقّ الحقّ ويزهق الباطل ؛ « فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً ، وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثالَ . لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ الحُسْنَى ، وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ ، أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الحِسابِ ، وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المِهادُ »[٤] . هذا هو التحرير تحرير العقيدة من الالتجاء لغير الله ، وتحرير العقل حتى لا يفكر في غير ما يقرّبه من الله ، وتحرير الأسرة لأنها خلية المجتمع ، وتحريرها تحرير للمجتمع ، وتحرير العقل من الجهالة ، حتى ينتفع الناس بحقهم في العلم ، وبحقهم في الحياة . ولعلّ الله قد أدرك الناس بلطفه ، فهيأ لهم من يردّهم إليه ، ومن يبصرهم بآياته ، ومن يصل ما أمر الله به أن يوصل ؛ وإذا حرّك وازع السلطان وازع القرآن ، بقي الخير في الناس ، وعلت كلمة الله ، « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ »[٥] .

---

(١) سورة النحل ، آية ٧٦ .
(٢) سورة الرعد ، آية ١٦ .
(٣) سورة الرعد ، من الآية ١٧ .
(٤) سورة الرعد ، آية ١٧ وما بعدها .
(٥) سورة الحجر ، آية ٩ .

العدل والإحسان

« إنَّ اللهَ يَأمُرُ بالعَدْلِ وَالإحْسانِ ، وإيتاءِ ذِي القُرْبَى ، ويَنْهَى عَنِ الفَحْشاءِ وَالمُنْكَرِ وَالبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » . [1]

فى هذه الآية ثلاثة مبادئ إيجابية : هى العدل ، والإحسان ، والعطف على الأقربين . وفيها ثلاثة أمور سلبية ، أى منهىّ عنها ، هى الفحشاء ، والمنكر ، والبغى . والمبادئ الثلاثة الأولى هى أمهات الأخلاق ، فمن قصر فى واحدة منها ، وقع فى واحدة من الأمور المقابلة لها . فما العلاقة إذن بين هذه المأمورات الثلاثة وبين هذه المنهيات الثلاثة ؟

إن العدل فى مفهومه اللغوى وفى أساسه ، هو المساواة المطلقة من غير غُلُوّ ولا رُجحان . فالعدل فى الأسرة مثلا هو رعاية حقوق وواجبات المعاشرة ، وهو رعاية حقوق الأولاد ، فلا يفضل الوالدان أو أحدُهما ولدا على ولد ، ولا يحابيان واحدا على حساب الآخر ، على الرغم من اختلاف الأولاد فى الجنس وطبيعة الذكاء ، ودوافع الميول والغرائز ؛ والعدل فى الحكم هو تطبيق القانون بين أهل الوطن على السواء ، فلا قربى ولا محسوبية ، ولا تمييز لواحد على آخر ، ولا لطبقة على أخرى ، فالجميع مواطنون ، والقانون لرعايتهم جميعا ، ومن حقّ كل فرد أن يتمتع بحقوقه فى حدود القانون ، وأن يؤدى واجباته نحو القانون طاعة واحتراما . والعدل الاجتماعىّ يقتضينا ألا نترك الأمور فوضَى ، تجرى بها الحظوظ إلى غير غاية ، وتسيرها الظروف بحسب ما تريد . بل لابد من تنظيم فرص الحياة ، وتحديد نصيب الضعفاء إلى جانب الأقوياء ، حتى لا يكون طغيان ولا غدر ، ولا تدليس ولا وقيعة .

ولكن العدل المطلق ، بمعنى المساواة المطلقة ، وفى كل شىء ، مخالف لروح

---

(١) سورة النحل ، آية ٩٠ .

الدين ، بل مخالف لطبيعة الأشياء ، ولطبيعة الحياة نفسها . فالدين يفضل بعض الناس على بعض فى الحياة الاقتصادية : « وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِى الرِّزْقِ [١] »، والرزق قد يصل إلى درجة المتعة والرفاهية ، وقد يصل إلى درجة الكفاف وسدّ الحاجة، ولكن الدين أيضا يطلب من هؤلاء الذين فُضّلوا ألا يمسكوا فضل الله عن الضعفاء ، فالجميع سواء أمام فضل الله ، والجميع سواء فى حاجتهم إلى الرزق وإلى الرازق ، الذى « يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ » [٢] . والدين لايحرم العاملَ المجدّ أن يتمتع بعمله ، وبثمرة مجهوده ، ولكنه يطلب منه أن يعطف على الضعيفِ قليلِ الحيلة ، قليل المجهود . فالمساواة المطلقة ليست طبيعية ، ويمكن أن نقول إنها ليست من العدل فى شىء ! لأنها تحرم قيمة المجهود وقيمة الذكاء الذى يدفع إلى العمل ، وقيمة العمل الذى يسيره الذكاء . والمساواة المطلقة ليست عدلا ، لأنها ليست ممكنة ، ولأنها صعبة التطبيق فى حالة إمكانها ، وهذه المساواة المطلقة لاتُتصوّر فى الجماعات التى تحترم المجهود الفردىّ ، ولا تتصوّر فى الاشتراكية التى تتخذ الجماعية نقطة ابتداء ونقطة انتهاء لتفكيرها ، ولايمكن تصوّرها إلا فى اشتراكية متطرفة ، هى إلى الشيوعية أقرب منها إلى الاشتراكية بمعناها العلمىّ والاجتماعىّ .

لذلك كان من الضرورى لاستتباب العدل أن يكون الإحسان إلى جانبه ،وأن يعملا معا، لأنهما يستهدفان غاية واحدة ، هى إعطاء كل ذى حقّ حقه ، على هدْى طبيعته واستعداده ومزاياه .

ولكى نتبين هذا الفرق الدقيق بين هذين المبدأين الخلقيين (العدل والإحسان) نتصوّر أسرة جلس ربها إلى المائدة ، وحوله أطفاله ، وأمامهم طعامهم : أخذ ربّ الأسرة اللحم ووزّعه بالسوية على أولاده ، وبينهم مريض سقيم يؤذيه تناول اللحم بشهادة الطبيب . إن هذا الأب الذى أطاع دافع الرحمة ، واستجاب لشره

---

(١) سورة النحل ، من الآية ٧١ .

(٢) سورة الرعد ، من الآية ٢٦ .

الطفولة، فأعطى الطفل المريض لحما، لأن لعابه يسيل تلهفا على اللحم، رجل يمكن أن يتصف بالعدل ، ولكنه بعيد كل البعد عن الإحسان ! ولنتصوّر أيضا معلما فى فصله يلقى درسه على تلاميذه ، ويوزّع عليهم جميعا منهج المادة ، ويوزّع عليهم الأسئلة بالسوية ، فيجيب من يجيب ، ويعيا بالجواب من يعيا ، أتراه بعد ذلك أدّى واجبه ؟ إنه يعتقد أنه أدّاه ، وأنه وزّع مجهوده توزيعا عادلا ، وأنه ساوى بين تلاميذه مساواة عادلة ، فينفض يده مما علق بها من غُبار ،راضيا عن عمله وعن نفسه ! ولكن عمله يكون بعيدا عن الإحسان إذا لم يبحث عن طبيعة الطفل المتخلف فى الدرس والفهم ، وإذا لم يعمل على علاجه بمختلف الطرق ، حتى يلحق بإخوانه من المتقدمين ؛ إن عمله ليتصف بالعدل بمعنى المساواة ، ولكنه بعيد عن الإحسان ! فإذا كان العدل هو القسمة السوية ، فإن الإحسان هو وضع الشىء فى محله ؛ وإذا كان العدل هو تطبيق القانون ، فأحسن منه الإحسان الذى يراعى ظروف التطبيق . وظروف الخصومة ،وظروف المتخاصمين . وإذن لابد إلى جانب العدل من الإحسان يحدّ من قسوته ، ويطلع على مكمن السرّ فيه . ولايكفى أن تحترم القوانين حتى يكون هناك عدل فى الظاهر إذا كانت هذه القوانين قد وضعت لاستفادة خاصة ، وطبعت لتنطبق على أناس بأعينهم ، وكُتبت مذكراتها التفسيرية لترمى إلى أغراض معينة ، فمثلها بعيد عن الإحسان وروحه ، بُعْد واضعيها عن الذمة والكرامة . هى قوانين ظاهرها الرحمة بالمواطنين جميعا ، وباطنها حماية الطبقة الأثيرة ؛ إنها تقرَّر باسم العدل ، وهى بعيدة عن الإحسان ، بل هى ظلم ملفَّف فى لفائف من التدليس ! !

العدل فى حقيقته يقابل الخير بالخير ، ولكن الإحسان يقابل الخير بأكثر منه ، والشر فى حقيقته يقابل الأساءة ، ولكنّ الاحسان يقابل الشرّ بأقلّ أذى ممكن . العدل هو « فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ ما اعْتَدَى عَلَيْكُمْ » [١] . أما الإحسان فهو « فَمَنْ عَفَا وأَصْلَحَ فأَجْرُهُ على اللهِ » [٢] . العدل أن تطلب حقوقك ، والإحسان فى أن تؤدّى واجبك ،

(١) سورة البقرة ، من الآية ١٩٤ . (٢) سورة الشورى ، من الآية ٤٠ .

وإذا أنصف الناس حلّ الإحسان محلّ العدل ، أو حلّت الواجبات محلّ الحقوق .

ويجب أن نتنبه إلى أن هذا الإحسان الذى يصل إلى درجة العفو لايجد له مجالا فى التطبيق إذا كان الذنب مما يتصل بخير الجماعة ويؤثر فيه تأثيرا يهدّد مصالحها ، فالحقوق الجماعية لارحمة فيها ولا هوادة ، والعدل والإحسان فيها ، يقابلان الشرّ بالشرّ ، والبادئ أظلم !.

هذه هى روح الدين ، التى نزل بها الروح الأمين ، على قلب الرسول ليكون من المنذرين : فقد جاءه جبريل مرّة فى زىّ أعرابىّ عليه هيئة السفر ، وسأل الرسول عليه السلام وهو فى مسجده عن الإحسان ، ثم أجاب جبريل قبل أن يجيب الرسول بأن الإحسان هو « أنْ تَعْبُدَ اللهَ كأنَّكَ تَرَاهُ ، فإنْ لَمْ تكُنْ تَرَاهُ فإنَّهُ يَرَاكَ » .

إذن الإحسان هو الخشية ، وهو يقظة الضمير ؛ فمن مات ضميره وبعدت به نفسه عن خشية الله ، فلا تنتظر منه عَدْلا ولا صَرْفا !

المبدأ الثالث بعد العدل والإحسان هو « إيتاء ذى القربى » ، فلو عطف كل غنىّ على أفراد أسرته من الفقراء ، وكل قادر على من حوله من جيرته وعشيرته الأقربين ، ما رأيت هذه الحاجة الباكية فى أعين الفقراء ، أمام هذه الابتسامة الآثمة على شفاه الأغنياء !

وإذن تكون المنهيات الثلاثة مقابلة للمأمورات الثلاثة مقابلة تحقق بلاغة النظم فى الآية الكريمة التى يبدو فى ظاهرها أن المنهيات بعيدة عن المأمورات !

فالله سبحانه يأمر بالعدل وينهى عن الفحشاء ؛ فإذا كان العدل هو الإحسان فى الأقوال والأفعال ، فالفحشاء هى الإساءة فى الأقوال والأفعال ؛ وإذا كان الظلم ضد العدل ، كانت الفحشاء ضد العدل ، فإن الفحش هو البعد والإيغال فى الظلم ، ومن لم يعدل فقد ظلم وأفحش فى الظلم إلى غايات بعيدة .

والله سبحانه يأمر بالإحسان وينهى عن المنكر ، فإذا كان الإحسان على ما فسرنا هو العفو عمن ظلمك ، والحسنى لمن أساء إليك ، كان المنكر فى أن تنكر إحسان من

أحسن إليك ، وإذا كنت تسيء إلى من أحسن إليك، فما الظنّ بك أمام من أساء؟! فمقابلة الإحسان بالإساءة منكر ، واستطالتك فى معاملة من أساء إليك منكـ ، وتجاوزك الحدّ معه أشدّ نكرا !

والله سبحانه يأمر بإيتاء ذى القربى ، وينهى عن البغى ؛ لأن من يتنكّر لقرابته فلا يصلها ، ومن يقطع قرابته فلا يتودّد إليها ، ومن ينفق الأموال بعيدا عن أهله ومواطنيه يشترى بها شهوات نفسه ، كان باغيا متكبرا ظالما .

هذه هى مبادئ الأخلاق الفاضلة ، يقرّرها القرآن فى صورتين ، صورة صالحة محببة ، وصورة فاسدة منكرة ، « يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » [١] . جمعت هذه المبادئ فى هذه الآية التى قال عنها « ابن مسعود » إنها أجمع آية فى القرآن لخير وشرّ . وهى بعينها الآية التى قرأها الرسول عليه الصلاة والسلام على «الوليد بن المغيرة» فاستعادها ، قال متحدّثا عن القرآن « والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وما هو بقول البشر ! » . وتبارك القائل : « وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ ، وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ » [٢] .

---

(١) سورة النحل ، من الآية ٩٠ .

(٢) سورة النحل ، من الآية ٨٩ .

إشاعة الكذب والافتراء

إنّ أشدّ ما مُنِي به صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام هو الكذب والافتراء. كانوا يحرّفون الكلام بعد ما يسمعونه منه، وكانوا أحيانا يصطنعون الكلام اصطناعا وينسبونه إليه، والأوّل كذب، والثانى افتراء، وكلاهما مَقِيت مذموم، لا تجد أبلغ منه ضررا، ولا أقسى منه على نفوس المصلحين الصادقين.

جاءهم بالحقّ، فلم تتسع نفوسهم له، بل ضاقوا به، ولما رأوه أبلج، لايمكن إنكاره، وصدقا يقرّر ما بين يديه من أحداث، وما بين أيديهم من آثار الماضين، قالوا عن الرسول «ساحِرٌ كَذَّاب»! . اضطربوا فى أمره أيّما اضطراب، لأنه دافَع باطلهم، وسفّه آلهتهم، وأعلى كلمة الله، فسقطت كلماتهم، وأسقط فى أيديهم، فما استطاعوا أن يملكوا لهذه الدعوة الجديدة صدّاً ولا ردّا، ولا صَرْفا ولا عَدْلا؛ بل قال السفهاء منهم «إِنْ هَذَا إِلا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وأعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ، فَقَدْ جاءُو ظُلْماً وَزُورًا»[1]. هذا ورسول الله مشغول برسالة ربه، لايصرفه عما هو فيه افتراء الناس عليه، ولا يصدّه عما هو بصدده ما أشاعوه من أنه كاذب، أو مفتر، لأنه يعلم فى قرارة نفسه أنه صادق، وأنهم كاذبون، قالوا ما قالوا حسدا وبغيا من عند أنفسهم. جاءه الإيذاء والافتراء من أقرب الناس إليه، عمه «أبى لهب» الذى كان يسعى من خلفه، ويقول للناس: لاتسمعوه فإنه كذّاب! «وإنه لساحر»! «وإنه لكاهن»! «وإنه لشاعر»! فيصغى إليه من حُرِم السعادة والتمييز؛ أما المتبصّرون أولو الألباب، فكانوا إذا سمعوا كلامه، وشاهدوا فعله، شهدوا بأنه الحقّ من عند ربه، وأن قومه مفترون كاذبون!.

تتابعت الشائعات على الرسول، وتتبّعته أنّى وُجِد: فى مكة من قومه،

---

(١) سورة الفرقان، آية ٤.

وفى المدينة من أعداء دينه ! أشاعوا أنه قُتل فى غزوة « أُحُد » فوقع الاضطراب بين صفوف المسلمين ، حتى بلغت القلوب الحناجر ، وظنوا بالله الظنون ، وفرّ بعض ضعاف العقول حتى وصلوا المدينة ، فاستقبلهم الناس وبخاصة النساء استقبالا سيئا ، جعل « أم أيمن » تحثو التراب فى وجوه الفارّين ، وبلغ الحنق بها إلى أن دفعت مِغْزَلها إلى واحد منهم وقالت : « هاك المغزل فاغزل به وأعطنى سيفك » ، وقال عمّ « أنس بن مالك » لنفر من دعاة التردّد والهزيمة : « لم جئتم ؟ » قالوا : « قتل محمد » ! قال : « فما تصنعون بالحياة بعده ؟ ! قوموا فموتوا على ما مات عليه ! » وقال أحد الفارّين « لخارجة » إن محمدا قد قُتل ! فقال خارجة : « فإن كان محمد قد قتل ، فإن الله حىّ لايموت ، لقد بلّغ محمد ، فقم وقاتل عن دينك » !

ويستخلص مما تقدم :

أولا : أن الافتراء على الرسول وإشاعة الأكاذيب عنه وعن قومه ، آذته كثيرا ، ولولا هداية القرآن له لضاق بهم وبمفترياتهم ، « وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ، وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ » [1] .

ثانيا : كان لشائعة قتل الرسول عليه الصلاة والسلام فى غزوة « أُحُد » أثر سيئ فى نفوس المسلمين ، خاصّتهم وعامّتهم ، فلقد خانت العامة شجاعتهم ، أما الخاصة فقد فجعوا فى حبهم فجيعة من شأنها أن تؤثر فى قواهم ، وفيما عندهم من صبر وجلد ، ولكنا رأينا كيف قابلت نساء العرب الرجال بشجاعة دفعت « أم أيمن » إلى أن ترمى بمغزلها فى وجوه الفارّين ليغزلوا به ما دامت أيديهم قد خانتهم ، فلم تقو على الاستمساك بالسيوف ، ورأينا المؤمنين يقولون للفارّين : « موتوا على ما مات عليه محمد » ، فمحمد عقيدة ومبدأ ، فإذا ذهب ، بقيت عقيدته ، وبقيت مبادئه .

---

(١) سورة الحجر ، آيات ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ .

أما موقف الرسول عليه الصلاة والسلام من هذه الشائعات ، فإنه بعد أن رجع إلى المدينة وسمعها ، قابلها بالرضا ، وطلب الرحمة لمن أشاعوها ، ولكن « عمر بن الخطاب » لم يصبر عليها ، بل استأذن الرسول في قتل المفترين الكاذبين ، فخفف عنه الرسول وقال : « يا عمر ، إنَّ اللهَ مُظْهِرٌ دِينَهُ ، ومُعِزٌّ نَبِيَّهُ ، وَلِمَنْ أشاعُوا ذِمَّةٌ فَلا تَعْتَلِهُمْ » ، ولكنّ « عمر » يغضب ثانية ويقول : « وهؤلاء المنافقون » ؟! فيقول الرسول : « أَلَيْسُوا يُظْهِرُونَ شَهادَةَ أنْ لاإلَهَ إلا اللهُ وأنِّي رَسُولُ اللهِ » ؟! فيقول « عمر » : « إنما يفعلون ذلك تعوّذا من السيف ! » فيقول الرسول : « نُهِيتُ عَنْ قَتْلِ مَنْ قالَ لاإلَهَ إلاَّ اللهُ وأنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ » .

إن الناس هم الناس منذ خلقهم الله ، والمصلحون يصيبهم من ألسنتهم أذى كثير ، فكل حركة إصلاحية تصادف عقبات ، وأشدّها مفتريات المفترين ، وأمرُ هؤلاء بين قويّ حاسد لا يعرف الخير ، ولم يجر الله على يديه خيرا ، فهو يشيع الأباطيل ، ويفترى المفتريات ، ليعتذر عن تقصيره ، أو ليستر ما انكشف من جهالته ؛ وبين ضعيف خامل يتلقف الكلمة فيسير بها لا يدرى مداها ، ولا ما تفعل في النفوس ، فمثله كالطفل يرى المنظر أمامه صغيرا تافها ، فيضيف إليه إضافات من الخيال والوهم ، معتقدا أنه يصف مارأى وما سمع ! وكثير من الناس لايزال فى هذه الطفولة العقلية التى تجسم الوهم ، وتكبر الخيال ، ولكنها تذهب دائما بالأبصار ، فلا ترى الحقّ ، وتذهب دائما بالعقل ، فلا يتحرّك ولا يفكر ؛ وبين مضلِّل متعمد ، يشيع الإثم ويعلم أنه إثم ، ويذيع الكلمة يعلم أنها ضارة بوطنه ، فلا يبالى بموقع الضرر فيها ، ذلك لأنه مأجور يسعى لنفعه ، أو مغرور يعتقد أن له من الأمر شيئا ؛ والثلاثة آثمون فى حقّ الوطن ، خارجون على كل قانون للمواطنة . وإنه وإن جاز أن يُلتمس العذر للدهماء ، فلا يجوز أن يُعذَر الأقوياء المتعمدون الوقيعة والإثم ، فمصلحة الوطن فوق كل اعتبار وتقدير .

أما المصلحون ، فواجبهم أن يعلموا أن الحسد زكاة كل إصلاح ، وهى زكاة من شأنها أن تطهر نفوسهم ، بقدر ما تأكل من صدور حاسديهم ، ولهم فى رسول الله الذى حُسد فتعوّذ بالله ، وأوذى فرفع بصره إلى السماء ، أسوة حسنة ، فلم يصرفه صارف ، أو يلويه صارخ عن غايته ، بل كان يردّد فى صبر وجلد : « اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِى فإنَّهُمْ لايَعْلَمُونَ » ، وقد قادته عزمته إلى النهاية ، حتى سمع قول الحقّ « اليَوْمَ أكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وأتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسْلامَ دِينا »[1] .

---

(١) سورة المائدة ، من الآية ٣ .

الأمانة بين الفردية والجماعية

« إنَّ اللهَ يأمُرُكُمْ أنْ تُؤَدُّوا الأماناتِ إلى أهْلِها ، وإذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أنْ تَحْكُمُوا بالعَدْلِ ، إنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ، إنَّ اللهَ كانَ سَمِيعا بَصِيرًا » [1].

الأمانة خلق من أمهات الأخلاق ، يجمع إليه النزاهة والشرف ، والكرامة والمروءة : فمن لا أمانة عنده ، لا نزاهة له ، ومن لا أمانة عنده ، لا شرف ولا كرامة له ؛ لأن أساس الأمانة الثقة ، وإعطاء كلّ ذى حقّ حقه ، سواء أكان هذا الحقّ من الحقوق الفردية ، أم كان من الحقوق الاجتماعية .

وسبب نزول هذه الآية ، أن الرسول عليه الصلاة والسلام حينما دخل مكة فاتحا ، كانت وظيفة السدانة (حفظ مفاتيح الكعبة) فى يد « عثمان بن طلحة » ولما طلبها الرسول أعطيت له ودخل الكعبة . ثم طمع «العباس» فى أن يحتفظ بهذه المفاتيح لنفسه ، ويستأثر بها دون « عثمان بن طلحة » ، حتى يجمع بين « سقاية الحاج » و« سدانة الكعبة » ، وهما وظيفتان يشرف بهما من يقوم عليهما فى الجاهلية والإسلام . فنزلت الآية تأمر الرسول أن يردّ المفاتيح إلى « عثمان » ، وبشره الرسول بأنه ممن نزل فى حقه قرآن ، وتلا عليه الآية المتقدمة ، فأسلم « عثمان » لسماعها .

فالأمانة وديعة واجبة الردّ ، والحاكم الأمين هو الحاكم العادل ؛ فالأمانة : ردّ الحقوق ، والعدل ردّ المظالم ، وصاحبهما يصدر فيهما عن روح واحد ، وخلق واحد .

ويمكن تقسيم الأمانة من الناحيتين الفردية والاجتماعية إلى أقسام ثلاثة :

الأول : أمانة المرء فى دينه ، أى فى عقيدته وضميره ، فهو مطالب أن يؤدّى

---

(١) سورة النساء ، آية ٥٨ .

هذه الأمانة إلى من كلّفه إياها ، وإلى من أودع خلقه من المزايا الخلقية ما يستطيع به أن يقدّر نعمة الله ، وأن يردّ هذه النعمة إلى منعمها شكرا وحمدا ، واعتقادا وتعبّدًا .

الثانى : أمانة المرء على نفسه وعلى حواسه ، فأمانة العين ألاتقع على مكروه ، وألا تنظر إلى مُحرّم ، وأن تُستعمل فيما يُبصر بنفع أو فائدة . وأمانة السمع أن يستعمل فى الإنصات إلى الحكيم من القول ، والنافع من المعرفة ، وأن يُصان عن سماع الغيبة وهُجر القول ، وفاحش العبارات . وهكذا بقية الحواس على اعتبارها أبوابا موصلة للمعرفة ، وإلى الإدراك الفكرى الذى ينمّى العقل ويهديه إلى سواء السبيل .

فنحن هنا ، أى أمام حواسنا ومواهبنا وقُدَرنا الفكرية والخلقية ، متحملو أمانات ، ونحن مأمورون دينا وطبيعة أن نؤدّى هذه الأمانات إلى أهلها ، أى إلى أهليتها واستعدادها ، وإلى ما خُلقت لأجله مدفوعة بهذه الأهلية وهذا الاستعداد ؛ فكما أننا أمناء على الحواسّ ، فنحن أمناء على المواهب والقُدَر الفكرية التى حبانا الله بها ؛ فالذكىّ الذى يستعمل ذكاءه فى التفنن فى الأذى وفى الشرور لم يؤدّ أمانة الموهبة ، ولم يردّها إلى أهليتها التى خُلقت لها ، والعالم الذى يستعمل علمه فى الضرّ ، أوالذى يكتم علمه فلا ينفع به الناس خائن للأمانة ، لم يُرجعها إلى أهليتها واستعدادها .

فهذه الأمانات الفردية واجبة الأداء ، سواء أكان نفع هذا الأداء راجعا إلى شخصيتنا ، أم كان راجعا إلى شخصيات الآخرين ؛ فإذا ائتمنك إنسان على ماله فردّه إليه ، وإذا اؤتمنت على مال الصغير فنمّه له ، ثم ردّه إليه عند قدرته على التصرّف ردّا كريما ، فيه أصل المال وزيادة النماء ؛ وإذا ائتمنك إنسان على سرّ فكن مَكْمَن هذا السرّ ، لايشيع ولا يذيع ؛ وإذا ائتمنك على عرضه ، فاحفظ عليه عرضه ، ففى الحديث « كُلُّ المُسْلِمِ على المُسْلِمِ حَرَامٌ : دَمُهُ ، وَمَالُهُ ، وَعِرْضُهُ » .

الثالث : الأمانة من ناحيتها الاجتماعية ، وهى أوسع مجالا ، وأبعد تطبيقا ، فالوظيفة أمانة ، وخاصة إذا ارتفق بها آخرون ، وليس مصدر الأمانة فى الوظيفة مصدرا فرديا ، بمعنى أنك مسئول فقط أمام رئيسك ، أو وزيرك ، ولكنّ أمانة الوظيفة من ولاية الحكم التى يستوى فى مسئوليتها الكبير والصغير . فالوظيفة حكم ، والحكم أساسه العدل ، والعدل أساسه الأمانة ، وردّ الحقوق وردّ المظالم ، ووضع كل شىء موضعه ، وإحسان كلّ فرد لما يقوم عليه . لذلك اقترنت الأمانة بالعدل فى كتاب الله الكريم « إنَّ اللهَ يأمُرُكُمْ أنْ تُؤَدُّوا الأماناتِ إلى أهْلِها ، وإذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أنْ تَحْكُمُوا بالعَدْلِ » .

تلك موعظة الكتاب الكريم ، وتلك موعظة الله لعباده ، بل هى من بين المواعظ نعم الموعظة ، والأمانة والعدل من بين الأخلاق ، نعم ما يعظ الله به عباده !

فالحاكم الأمين الذى يقدّر الأمانة هو الذى يؤديها إلى المحكومين كما أمره الله أن يؤديها عدلا فى الحكم ، ومساواة بين الناس ، وظلما يُدفع ، وإحسانا يُوجه للخير ، وخيرا يتوجه للجماعة . والمعلم فى مدرسته أمين على متعلميه ، وهو مكلف أن يؤدّى إليهم هذه الأمانة ، تعديلا لغرائزهم ، وإثارة لميول الخير فيهم ، ومعرفة صحيحة يقابلون بها الحياة ويستعدّون لها ؛ والأستاذ فى جامعته مأمور دينا بأداء هذه الأمانة ، وهى ذمّة الأجيال كلها فى عنقه : الأجيال الماضية ، والجيل الحاضر ، والجيل المستقبل ؛ فهو ينقل علم الماضين فى أمانة وإخلاص ، بما له ، وبما عليه ؛ ويتحدّث عنه عارضا العبرة ، مذكرا بالمجد ، واقفا أمام بطولة التاريخ يُغرى بها ، ويطلب القدوة منها ، ومن هنا كانت وظيفة العلماء مقترنة بوظيفة الأنبياء .

أما الأمانة من الناحية النفسية ، بمعنى أنها من طبيعة الإنسان ، أو ليست من طبيعته ، وهل يؤديها الإنسان طواعية واختيارا ، أو يغالب فيها نفسه ، ويعالج فيها إرادته ، ويعانى فيها كثيرا من أثر التردّد بين أدائها وبين خيانتها ؟ فلا شكّ فى أن الأمانة خلق ، وهى من الأمهات التى تولد كثيرا من الأخلاق الفاضلة ؛ فهى جماع

العفة والمروءة والعدالة وسخاء النفس ، وصاحبها يغالب فيها كثيرا من الغرائز المندفعة إلى الملكية والاستئثار . وقد تكفل بشرح ذلك كله كتاب الله فى تلك الآية الكريمة : « إنَّا عَرَضْنا الأمانَةَ على السَّمواتِ والأرْضِ والجِبالِ فأبَيْنَ أنْ يَحْمِلْنَها وأشْفَقْنَ مِنْها ، وحَمَلَها الإنْسانُ إنَّهُ كانَ ظَلُوما جَهُولا » [١] . فالأمانة هنا تُفسَّر بمعنى الطاعة المطلقة ، والخضوع لإرادة الله ، وهذه الطاعة قد عُرضت على السموات والأرض والجبال ، فأطاعت « قالَتا أتَيْنا طائِعِينَ » [٢] وخفن من عدم الطاعة ، وأبَيْنَ أن يتحملن الأمانة ، أى أن السموات والأرض والجبال أدّين هذه الأمانة [٣] ، أما الإنسان فحملها ولم يؤدّها ، وبقى حمله ثقيلا ، ولم يرد أن يخفِّف عن نفسه ، فهو جهول متوغل فى الجهالة ، وهو ظلوم لنفسه وللناس ، يتحمَّل أماناتهم ولا يؤدّيها .

ونرى هنا أن الأمانة لا تقتصر على الطاعة وحدها ، بل تشمل كل التكاليف ، وكل المأمورات التشريعية والخلقية ، عُرضت على أعظم مخلوقات الله قدرة وسعة وجرما ؛ عُرضت على السموات فى علوها وسعتها ، وعُرضت على الأرضين فى كثرة مسالكها وفجاجها ، وعرضت على الجبال فى عظمتها ورسوخها ، فخفن جميعا من المسئولية ؛ ولما عُرضت على الإنسان — وهو مظنة التكليف ، والتكليف من طبيعته ، لمكانة العقل الذى آثره الله به على جميع المخلوقات — حملها وحمَّلها نفسه ، وقبلها وقصَّر فى أدائها ، ونازعته عليها نوازع الشرّ فى نفسه ، فكان ظلوما يثقل نفسه بما لا يستطيع أن يعمله ، وكان جهولا يحمِّل نفسه كثيرا من أنواع الخير ، ويجهل أن فيه قوى عنيدة من الشرّ تميل به إلى هذه الناحية ، فكشف الله له

---

(١) سورة الأحزاب ، آية ٧٢ .

(٢) سورة فصلت ، من الآية ١١ .

(٣) التعبير عربى معروف ، تقول : « أبيت أن أحمل الأمانة » : أى أديتها لأنى أشعر بثقلها وثقل حملها ، ولا يخفف هذا الثقل إلا الأداء . أما الذى يحملها فهو الذى لا يريد أن يؤديها ، ولا يريد أن يخفف عن نفسه .

عن نفسه ، وأمره بأن يلتفت إلى هذه الأمانة التى عُرضت على أكبر المخلوقات فأبين أن يحملنها ، وعُرضت عليه وهو ضعيف فقبلها ، والإنسان على ما فيه من الضعف الطبيعى « وَخُلِقَ الإنْسانُ ضَعِيفا »[١] ؛ فيه من القوى ما يستطيع أن ينافس السموات والأرض والجبال ، وما يمكّنه من أن يتغلب عليها ، ويسخرها لحاجاته ومنافعه إذا عرف نعمة الله وإذا قدرا لأمانة فى علاقاته مع الله والناس ، أما إذا حاد عنها فقد ظلم نفسه ، وألحقها بالمنافقين والمشركين وما ينتظرهم من وعيد « لِيُعَذِّبَ اللهُ المُنافِقِينَ وَالمنافِقاتِ والمُشْرِكِينَ والمُشْرِكاتِ ، وَيَتُوبَ اللهُ على المُؤمِنِينَ وَالمُؤْمِنات ، وكانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيما »[٢] .

---

(١) سورة النساء ، من الآية ٢٨ .

(٢) سورة الأحزاب ، آية ٧٣ .

التامين من الجوع والخوف

فى القرآن الكريم سورة صغيرة المبنى ، كبيرة المعنى ، يردّدها المؤمن فى صلاته ، ويحفظها المتعلمون أوّل ما يحفظون ، هى سورة « قريش » : « لِإِيلافِ قُرَيْشٍ ، إيلافِهِمْ ، رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَالصَّيْفِ ، فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا البَيْتِ ، الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وآمَنَهُمْ مِنْ خَوْف » .

والسورة واقعة بعد سورة « الفيل » فى نظم القرآن . وقصة الفيل معروفة لدى المسلمين ، فقد وقعت أحداثها فى الأيام التى سبقت ميلاد الرسول عليه الصلاة والسلام : كان للحبش كعبة تنافس كعبة « قريش » ، بنوْها وزيّنوها ، ليصرفوا الناس إليها بعد أن يصرفوهم عن كعبة « قريش » ، وقصد « أبرهة » قائد الحبش الحجاز بخيله ورَجْله وفِيَلته ، حتى إذا كان على مقربة من الكعبة استاق إبلا كانت لعبد المطلب (جدّ الرسول) ، فذهب « عبد المطلب » فى جمع من أعيان قريش ، وجرت بينه وبين « أبرهة » المحاورة الآتية :

عبد المطلب : ردّ علىّ إبلى .

أبرهة : قد كنتَ أعجبتنى حين رأيتك ، ثم زهدت فيك حين كلمتنى فى مائتى بعير أصبتها ، وتترك أن تكلمنى فى بيت هو دينك ودين آبائك ، وقد جئت لأهدمه !!

عبد المطلب : إنى ربّ الإبل ، وإن للبيت ربا سيمنعه !!

يغضب « أبرهة » ويقول : « ما كان ليُمنَع منى ! » فيتحدّى « عبد المطلب » ويقول : « أنت وذاك !! » ثم يذهب فيتعلق بحلْقة الكعبة ، ويناجى هذه المناجاة :

لَاهُمَّ إنَّ المَرْءَ يَمْـ نَعُ رَحْلَهُ فامْنَعْ رِحالَكْ

جَرُّوا جميعَ بلادِهِمْ وَالفِيلَ كَيْ يَسْبُوا عِيالَكْ (١)

عَمَدُوا حِماكَ بِكَيْدِهِمْ جَهْلا وَما رَقَبُوا جَلالَكْ (٢)

إنْ كُنْتَ تاركَهُمْ وكعْبَتَنا فَأمْرٌ مَا بَدَا لَكْ

إنّ عدوَّ البيْتِ منْ عاداكَا امنعهُمُ أن يُخْربوا فِناكا

ضرب « عبد المطلب » المثل الصالح أمام القوة الغشوم ، والتعدّى الظالم ، فاستسلم حقنا للدّماء ، وتحدّى اعتدادا بالحقّ ، واعتقادا بأن الحقّ غالب دائما ، وأن الباطل يزهق بما فيه من عناصر متخاذلة ، لاتقوى على سلطة الحقّ ، وقضى الله للحقّ على الباطل ، فأنزل على أصحاب الفيل « طيرا أبابيل » . ولم يكن هذا « الطير » إلا جراثيم مرض مُعدٍ فتاك ، دلت بعض الروايات على أنه هو « الجُدَرِيّ » ، يدلّ على ذلك ما روى عن « عكرمة » « أن من أصابته الضربة جدّرته » ، وهو أوّل جدرىّ ظهر بأرض العرب . وعن « يعقوب بن عتبة » : « أن أوّل ما رؤيت الحَصْبة والجدرى بأرض العرب ذلك العام » . وعن « عائشة » أنها قالت : « أدركت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين » وأهمّ ما يخلفه الجدرى من العاهات هو ذهاب البصر .

وكيفما كان الأمر ، فقد انهزم الباطل ، وتخاذل من نفسه ، والباطل يتألف من عناصر الشرّ ، ، ويميت نفسه بالعناصر التى كانت سببا فى وجوده ، ولله جنود منها الطير ، ومنها الجراثيم ، « وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلاّ هُوَ »[1] .

ولا يعكّر على هذا الفهم العلمى ما فى الآية من أن الطير كانت « ترْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ »[2] فليس معنى « السجيل » الطين المتحجر فقط ، وإنما من معانيه اللغوية أيضا « السَّجل » بمعنى « الدلو » ، فكأنّ الرمى من جماعات الطير أو الجراثيم كان متتابعا تتابع « الدلو » فى الساقية ، وكأنّ الرمى سيل فوق رءوسهم كسيل الماء فى الدلاء المتتابعة . ويجوز أن يكون « السجيل » من « السجلّ » بمعنى الكتاب ،

---

(١) سورة المدثر ، من الآية ٣١ .

(٢) سورة الفيل ، آية ٤ .

والمعنى إذن أن العذاب كان يُرمى عليهم من سجل مكتوب ، ومقدّر فيه أن كلمة العذاب تحقّ على المكابرين والمعاندين .

وقد نصر الله قريشا فى كل حال ، ورمى أعداءهم بعذاب أليم ، لإيلاف قريش ، ولتأليف قريش ، فقد ألّف الله بين قلوبهم ، وألف بينهم وبين رحلة الشتاء والصيف ، وجمع معيشتهم على هاتين الرحلتين .

فواجب على « قريش » إذن — بعد أن ردّ الله عنهم الأعداء ، وألّف بين قلوبهم بعد العداوة والبغضاء — ، أن يعبدوا « رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ ، الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ »[1] .

وهنا لابد أن نقف أمام هذه المِنّة ، منة الشبع ، ومنة الأمن ، فلم يمنّ الله على عباده هنا بأنه خلقهم فأحسن خلقهم ، ولم يقل : فليعبدوا ربّ هذا البيت الذى برأهم وسوّاهم ، وإنما قال : « الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ » . فالمنة هنا بالشبع بعد الجوع ، وبالإبقاء بدل الفناء ، وبالطمأنينة بدل المخاوف ، وبالسكون إلى الحياة بدل القلق والاضطراب فيها ؛ وفى هاتين الكلمتين الأمن من الجوع والأمن من الخوف ، كل نظام المجتمع ، بل كل نظام تجرى به الحياة . فالأمم كلها تجرى وراء طمأنينة العيش ، وتستعين على ذلك بكل الوسائل الاقتصادية ، وتجرى وراء التأمين من المخاوف بالاستعداد بالجيوش وبالعدد الحربية ، حتى تأمن الحياة ، أو تحتفظ بهذه الحياة .

هذه هى رسالة الأنبياء والمصلحين : طمأنينة العيش وطمأنينة الحياة ، ليعيش الإنسان سعيدا ، وليموت سعيدا ، فالحياة التى تتطلبها الأديان ، هى الحياة المستديمة التى لاتنقطع بالموت ، بل تستمرّ بصاحبها ، فيذكر اسمه بعد موته مقرونا بالخير والعمل الصالح ، ويذكر بعمله الصالح فى الآخرة ، حيث الحياة الخالدة والنعيم المقيم فى ظلال الكريم الرحمن ، يوم لاظلّ إلا ظله ، ولا طمأنينة إلا فى كنف رحمته وعدالته .

---

(١) سورة قريش ، آية ٤ .

تلك هى الرسالة التى يجب على المصلحين والحكام تأديتها للشعوب التى لاتطلب منهم إلا الإطعام من الجوع ، والأمان من الخوف ؛ أى لاتطلب منهم إلا العمل الشريف الذى يُغنى صاحبه ، ويستغنى به صاحبه عن مسألة الناس وطلب ما فى أيديهم . واجب الحاكم الصالح أن يوجد العمل للعاملين ، وأن يفتح السبل أمام الذين يريدون أن يعملوا ولا يجدون ما يعملون ، والواجب أن يكون العمل مما يطعم من جوع ، فلا يعمل العامل يوما ويتسكع أياما ، ولايطعم يوما ويجوع أياما ، بل يكون العمل الدائب المستديم ، ينتفع به الوطن ، وينتفع به المواطن ؛ فالوطن يأمن بالعمل المستمرّ فى أيام الجدب وأيام المجاعة التى تسلم الناس إلى الشيطان ، فيخرجون على كلّ حدود مرسومة تحت تأثير هذا الدافع المجنون من الجوع الذى لا يعرف قانونا ولا تشريعا . وواجب الحاكم تأمين حياة المواطنين من المخاوف . أمّا أن يكون الوطن مهدّدا ، وأما أن يكون المواطنون مهدّدين بعدوّ مزاحم ، أو عدوّ مهاجم ، فذلك ما لاتستطيبه الحياة ، وما لايتفق وخلق الإنسان . إن الضعف لايصيب الحكومات والشعوب إلا من هاتين الثّغرتين ، ثغرة الجوع ، وثغرة الخوف ، فالثورات تدخل إلى نفوس الشعوب من ثغرة الجوع ، والاستعمار والأطماع وما يتبعهما من ذلة النفوس وذلة الحياة لايدخلان إلا من ثغرة الخوف .

فالأمان من الخوف يكون والاستعداد الدائم واليقظة الدائمة ، لافى حالة الحرب وحدها ولكن فى حالة السلم أيضا ، والاستعداد للحرب أمان من الحرب ، والأمان من الجوع يكون بتخفيف آلام الشعب ، وإثارة المرحمة فى النفوس ، وردّ الصدقات التى تؤخذ من أغنياء الناس إلى فقرائهم ، وفتح أبواب العمل ، لينفتح أمام الشعب باب الأمل فى الحياة ؛ هذه هى المنة التى امتنّ بها الله على عباده ، فأطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف ، والحاكم العادل هو الذى يتخلق بأخلاق الله ، والراحمون يرحمهم الرحمن .

الجوع نعمة ونقمة

الطعام والشراب من المنن العظيمة التى امتنّ الله بها على عباده ، فالغذاء والماء من مقوّمات الحياة ، بل لاحياة بدونهما ، والإنسان والحيوان والنبات فى حاجة إلى الغذاء ، والموت محقق لكلّ من حرم الغذاء من طعام وشراب ، ومهما طالت الرياضة بأعمار من يروّضون أنفسهم على الامتناع عن الغذاء، فمآلهم إلى الموت . لهذا كانت منة الغذاء التى امتنّ الله بها على عباده من المنن العظيمة التى لاتعدلها منة . والله سبحانه إذ يمنّ على عباده بالغذاء ، إنما يمنّ عليهم بنعمة الحياة ، فالحياة شبع وطمأنينة ، وإذا استقام للناس أمرهم فى هذين ، استقامت لهم أمور الدين والدنيا معا ، ولقد أدرك الرسول هذه النعمة ، وأدركها الأنبياء قبله : فإبراهيم عليه السلام لما حطم الأصنام ، ونادى فى قومه بالتوحيد ، دعاهم إلى ربّ العالمين الذى بيده الموت والحياة ، وما الحياة إلا تيسير السبل إلى الطعام والشراب : « أفَرَأيْتُمْ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ، أنْتُمْ وآباؤكُمُ الأقْدَمُونَ ، فإنَّهُمْ عَدُوٌّ لى إلا رَبَّ العالَمِينَ ، الَّذِي خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِين ، والَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى ويَسْقِين ، وإذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِين » [1] .

وقد يصيب الله عباده بالحرمان المطلق من الغذاء والماء ، أى يصيبهم بالحرمان من مادة الحياة نفسها ، فيكون هذا الحرمان بلاء ونقمة تأتى فى شكل جوائح تحرق الزرع ، ويجفّ معها الضرع ، وهذا الحرمان بلاء ينزل بالناس إذا خرجوا على القوانين الإلهية ، ولم يراعوا فى أنفسهم ولا فيما بينهم وبين الناس ، ما يجب على الإنسان لأخيه الإنسان من العطف والمرحمة ، فيصيبهم ما أصاب الأوّلين من الآفات والجوائح ،

---

(١) سورة الشعراء ، من الآيات ٧٥ إلى ٨٠ .

فصبح جناتهم ومزارعهم صعيدا زَلَقا، أو يصبح ماؤها غَوْرا فلن تستطيع له طلبا ، أو يتحوّل زرعهم هشيما تذروه الرياح، وخيراتهم حصيدا كأن لم تغنْ بالأمس . هذا هو العذاب في الأمم البائدة، وسنة الله لم تتبدّل في الأمم الحاضرة ، فإن الحروب تأخذهم أخذا ، وتصيبهم بالجوع والخوف ، ومن لم يمت بالسيف مات بالجوع ، ومات بالمرض ، ومات هلعا من الخوف والترقب .

هذا هو جوع البلاء وهو جوع القحط والجدب وقانا الله شُروره ومصايره .

وهناك جوع الابتلاء يُبتلى به الفرد ، وتُبتلى به الأمة ، لا في شكل وباء جائح ، ولكن في شكل جزئي يحتمله الصابرون من المؤمنين ، وهو ماتشير إليه الآية الكريمة : « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الخَوْفِ والجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ والأَنْفُسِ والثَّمَرَاتِ ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » [1].

فالخوف والجوع ، ونقص الأموال ، ونقص الأنفس بالمرض أو بالموت ، ونقص الثمرات وهي الزروع (وفسرها الشافعي بالأولاد ، لأنها ثمرات الأفئدة ومتع الحياة) وكل شيء يصيب المؤمن ، إصابة ومصيبة ؛ فقد روى « أن سراج رسول الله صلى الله عليه وسلم أُطفئ فقال : « إِنَّا لِلَّهِ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » فقيل : أمصيبة هي ؟ قال نَعَمْ ! كُلُّ شَيْءٍ يُؤْذِي المُؤْمِنَ فَهُوَ لَهُ مُصِيبَةٌ » . هذا الابتلاء يقابله الجزعون الذين لا يعرفون الحياة إلا ناعمة رافهة ، بالجزع والملل، والسخط والتبرّم ؛ ويقابله المؤمنون بالصبر والرضا ، فيعلمون أن الأيام تتداول بين الفقر والغنى ، والصحة والمرض ، والظلّ والحرور ، والنسيم والريح العاصف ، ويقابلون هذا الابتلاء مقابلة الصابرين الذين يشدّون أنفسهم على اليقين بالله مقدّر

(١) سورة البقرة ، آيتا ١٥٥ ، ١٥٦ .

الأمور بما يريد ، وعلى ما يريد ؛ وما يريد بعباده إلا الخير . ولكن لايتقبل هذه الدروس ، ولا يقابلها بالشكر إلا المؤمنون « وَما يُلَقَّاها إلا الَّذِينَ صَبَرُوا ، وَما يُلَقَّاها إلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ »[١] « أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ، وأُولَئِكَ هُمُ المُهْتَدُون »[٢] حيث استرجعوا ورجعوا إلى الله ، وسلموا الأمر كله لله .

وهناك جوع ثالث ، هو جوع الصوم ، وهو بعيد عن أن يكون بلاء ، بل هو تربية ، وهو إلى حدّ كبير ابتلاء « حَتّى نَعْلَمَ المُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ ونَبْلُوَ أخْبارَكُمْ »[٣] ! فالصائم ممنوع عن الطعام ، والخير يَحُفُّه من جميع نواحيه ، ويملأ الطعام الشهىّ خياشيمه ، ولكن التقوى تملأ قلبه وتغذّيه ، ويجفّ لسانه جوعا وعطشا ، ولسانه رطب بذكر الله وبالشكر له . فجوع الصيام لم يكن من قلة ، ولا من جائحة ، وإنما هو امتناع إرادى ، استجابة لأوامر الله ، وفيه تحديد من شهوات النفس ، وتقصير لميولها ، وتخليص للإنسان من أسر العادة . ولا بدّ أن يشعر الصائم أنه قادر على أن يمتنع عن التدخين إذا أراد ، وأنه قادر على أن يعيش بالقليل إذا أراد . ولابدّ أن يفهم أن الجوع فى العبادة ليس بلاء ، وإنما هو تربية ورياضة للنفس وللجسم معا ؛ يتطلع الصائم إلى المطعومات طول النهار ، ويجمع منها ماشاءت له ثروته ، ويجلس إلى مائدة حافلة بالصنوف ، ثم لايذوق منها إلا قليلا يسدّ الرمق ويردّ الجوع ، ثم يدعو بدعوة الرسول : « ذَهَبَ الظَّمأُ ، وابْتَلَّتِ العُرُوقُ ، وَثَبَتَ الأجْرُ إنْ شاءَ اللهُ » . فليس الغذاء لذّة ، وإنما هو واجب المرء نحو نفسه ، حتى يكون قادرا على أداء واجباته نحو الله والناس . فجوع

---

(١) سورة فصلت ، من آية ٣٥ .

(٢) سورة البقرة آية ١٥٧ .

(٣) سورة محمد ، من الآية ٣٠ .

الصيام يردّ الإنسان إلى طبيعته ، كما يردّ نفسه إلى الله ، فيبطل التغالى والتأنق فى المطعوم والمشروب . وجوع الصيام شبع للنفس ، وصدّ لها من الشهوات :

غنى النفس ما يكفيك عن سدّ حاجة فإن زاد شيئا عاد ذاك الغنى فقرا

ومتى غنيت النفس وشبعت من القليل ، فكر صاحبها فى الفقير الذى لا يجد حتى هذا القليل ، وليس من المصادفات التى تجرى على غير سبب ، أن يفرض الدين زكاة الفطر عقب الصيام ؛ فالنفس بعد الصيام سخية تعرف الحرمان ، فتعود بالفضل على المحرومين ، وقد اكتفت بالقليل ، فتعود على المقلين بما فاض وزاد ، وتعلمت القناعة ، فقللت من الجشع والأنانية ، وأحبت الطعام وحرمته ، فتطعم الطعام على حبه ، المسكين واليتيم والأسير ، وهكذا يكون الصوم صحة للأبدان ، وتكون الزكاة طهارة وتزكية للنفوس والأموال .

اللغو وضمير الجماعة

اللغو : هو القول الباطل ، والعمل الباطل ، والذى ينبغي ألا يكون ، بل ينبغى أن يلغى ؛ ونقتصر فى موضوعنا هذا على اللغو فى القول : « وَهَلْ يُكِبُّ النَّاسَ على وُجُوهِهِمْ إلا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ » كما جاء فى الحديث ؟! .

واللغو فى القرآن هو لغة الحمقى الجاهلين ، وما تحوى ألسنتهم إلا البذاء والهذيان والكذب والبهتان ، والتعدّى على الناس بألسنة حداد ، تلغو بالمنكر من القول والزور المزيّف ، والعبارة المزوّقة ، ترى بريقها ولا تفهم معناها ، والعبارة الطنانة تسمع جلبتها ولا تتبين جليّتها . والعبارة المستوية فى مبناها ، الخاوية فى معناها ، يتشدّق بها مدّعى العلم والمعرفة ، تسمعها ولا تعيها ، وإن وعيت شيئا من ألفاظها ثم حللته لاتجده شيئا . فاللاغى ثرثار مكثار مهزار ، ينطلق لسانه ، أو ينطلق به لسانه ، كما ينطلق الفرس الجموح ، إذا صادف الناس صدمهم ، وإذا أخلى الناس له الطريق فقد أفزعهم وكفى .

واللاغى مُتشدق متفيهق كالساقية تمتاح من بئر ناضبة ، لاتسمع إلا قعقعة أخشابها ، أو هو كالرحى التى تدور على ما يتخللها من الهواء ، والتى وصفها العرب الأقدمون بعبارتهم التى ذهبت مثلا « جَعْجَعة ولا طَحين » .

اللغو إذن ، هو ما يسميه الحسّ العام : الكلام الفارغ الأجوف الذى لاطائل تحته ، ولا فائدة فيه ، إلا أنه يقصد به الإيذاء ، أو هو الذى يضرّ الغير بطبيعة أنه لغو ، من غير أن يقصد به صاحبه الشرّ والإيذاء .

وقد وصف الله فى كتابه العزيز المؤمنين الذين نسبهم إلى نفسه ، وسماهم « عباد الرحمن » بأنهم المتواضعون ، الذين إذا مرّوا باللاغين الجاهلين طلبوا لأنفسهم السلامة والنجاة . عباد الرحمن هم الذين يؤمنون بالله ولايشركون به شيئاً ، هم الطامعون

فى ثوابه ، الخائفون من عذابه ، هم المقتصدون فيما يقولون وفيما يفعلون ، ثم هم بعد ذلك الذين لا يشهدون الزور ، ولا يسمعون اللغو ، وإذا وصل أسماعهم عفوا قالوا سلاما ، وإذا مرّوا به عرضا مرّوا كراما ، طالبين السلامة والكرامة ، حتى لاينزلوا منازل الجاهلين فى لغوهم . هؤلاء هم عباد الرحمن الذين عرّفهم القرآن الكريم : « وَعِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنا ، وَإِذَا خاطَبَهُمُ الجاهِلُونَ قالُوا سَلاما ، وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِياما ، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ، إِنَّ عَذَابَها كانَ غَرَاما ، إِنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاما ، وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا ، وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَوَاما . وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَها آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَلا يَزْنُونَ . وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاما ، يُضَاعَفْ لَهُ العَذَابُ يَوْمَ القِيامَةِ وَيَخْلُدْ فِيها مُهانا » [١] . ولما سمع الكفار من قريش هذه الآيات أتوا النبىّ صلى الله عليه وسلم وقالوا : « إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن ، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة ؛ فنزلت الآيات « إِلاَّ مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ وَكانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيما . وَمَنْ تابَ وَعَمِلَ صَالِحا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتابا » [٢] . ثم قرن الله سبحانه وتعالى اللغو بشهادة الزور فقال : « وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراما » [٣] .

وقد وصف الله فريقا آخر من عباد الرحمن فى سورة القصص ، هو فريق المؤمنين الذين يؤمنون بالله وكتبه ورسله ، لايفرّقون بين أحد من رسله ، أولئك الذين اتسعت عقولهم للخير فعرفوه ، وصدّقوه فى كل شرعة تدعو إليه ؛ صدّقوا بما جاء به موسى ، وعيسى ، ومحمد عليهم السلام ، أولئك الذين إذا يتلى عليهم

---

(١) سورة الفرقان ، الآيات ٦٣ إلى ٦٩ .
(٢) سورة الفرقان ، آيتا ٧٠ ، ٧١ .
(٣) سورة الفرقان من الآية ٧٢ .

القرآن « قالُوا آمَنَّا بِهِ ، إنَّهُ الحَقُّ مِنْ ربِّنا ، إنَّا كُنا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمين . أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ، ويَدْرَءُونَ بالحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ، ومِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُون . وَإذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أعْرَضُوا عَنْهُ ، وقالُوا لَنَا أعمالُنا ، ولَكُمْ أعمالُكُمْ ، سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الجاهِلِين » [١] أى هؤلاء الذين إذا سمعوا لغو اللاغين ، قالوا سلام عليكم ، فهجروا مجلسهم ، ونجَوا بأنفسهم سالمين مكرَّمين ، غير راضين عن صحبة الجاهلين .

فالثرثار المِكثار من الكلام بالحقّ وبالباطل لاغ ، ضارّ مضرّ ، لايأمن العثار إذا تكلم ، وربّ كلمة يوردها الثرثار عن غير قصد ، فتورده حتفه ، وربّ كلمة يظنها الثرثار هينة ، تكون سببا فى هزيمة أمة بأسرها . لذلك تخشى الأمم فى أيام الحروب هؤلاء الثرثارين ، فتَكُمّ أفواههم ، وتمنعهم من مسايرة الناس والاختلاط بهم .

والمتفيهِقون لاغون ، يتظاهرون بالمعرفة ، ولا يُغالَبون فى محاورة أو مناقشة ، فإذا تغلبت على الواحد منهم بالحقّ ، غلبك بالباطل ، وإذا قارعته بالحجة ، أجابك بالزيف المزوّر من القول ، وحينما يحسّ عجزه وقصوره ، لا يبالى أن يُسكتك بالكلمة النابية ، التى لايبالى أن تصل به إلى القبح والسِّباب . وليس لك إلا الفرار ، أمام هذا المتفيهق الثرثار . والكذّاب لاغ مبطل ، والمزوّر لاغ مبطل ، والفاشية لاغ مبطل ، لايؤمن على سرّ ، بل يُفشى ما تخصه به ، ويخون ما اؤتمن عليه . والمرائى والمداهن لاغيان مبطلان ، تسمع من الأوّل اللفظ الحلو يعزّزه بالقسم بالله وبشرفه ، والله منه بَراء ، والشرف فى كرامته وعرضه رقيق لايسترهما . وتسمع من الثانى كلمات التملق يوجهها جُزافا فى مجاملة كاذبة ، تسمعها أذنك ، وينكرها قلبه وقلبك .

واللاغى رجل لايحكمه عقله ، بل يتكلم بما يعنّ له غير عابئ بالناس ، فسواء على اللاغى أصدّقه الناس أم كذبوه ، وسواء عليه أكان كلامه مما يجوز وقوعه ، أم هو من نسج الخيال وضعف التذكر ، وإنك لاتدرى ، ولا اللاغى يدرى ، أيحتقر

---

(١) سورة الفرقان ، من آيات ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ .

نفسه أم يحتقر الناس ! أيهزأ بعقولهم ، أم يهزءون بقوله ! وهو فى كلّ حال جاهل بنفسه ، جاهل بما يصدر عنه ، بعيد من رحمة الله ، فالله يرحم امرأ عرف قدر نفسه .

واللاغى طفل على رَغم سنّه المتقدمة ، يجنح إلى الخيال ، ويستمده فى كل ما يقول ؛ تحدثه عن فكرة فيحدثك عن منفعة ، تحدثه عن الجماعة فيحدثك عن نفسه ، تتكلم فى مبدأ عام ، فيغتصب الحديث ليحدثك عن مبدأ خاص بل يحدثك خاصةِ أهله وبيته ، وربما هتك الستر ، وجرّح المروءة على غير شعور منه .

وقد يتعوّد اللاغى الاندفاع فى الكلام ، فيصعب عليه جدا أن يرجع إلى الحقّ فيما يقول ، وإلى الصواب فيما يقرّر ؛ وترى دليلا على هذا هؤلاء المتطرّفين الذين يسمون أنفسهم أو يسميهم من على شاكلتهم بالظرفاء ، فإنهم ينساقون فى الكلام وفى النكتة ، وربما صدرت منهم الكلمة الخبيثة بدافع النكتة ، فيؤذون أنفسهم ويؤذون غيرهم !!

وفى الحقّ إن اللاغىَ لا يقتصر شرّه على خاصة نفسه ، بل يتعدّاه إلى غيره من الأفراد ، وإلى الجماعة التى يعيش فيها : لأن الفرد إذا اعتاد اللغو ألفه ، وصار لايفرّق بين لهوه وعمله ، ولا بين جدّه وعبثه ، ولا بين يومه وغده ، ومصيره أن تنبذه الجماعة ، وتسقطه من حسابها ، أو تجعله — إذا قبلته — موضع سخريتها وتسليتها ؛ شره يستطيل إلى زوجه وولده ، ثم إلى قومه ، وإلى الجماعة التى يعيش فيها .

من المؤلم حقا أن نرى أطفالا ينقلون لغو الكبار ، لايفرّقون بين حق الكلام وباطله ، ولا بين رذيله وفاضله ، ومن الممضّ حقا أن تسمع الرجل فى المُقْهَى ، أو فى « الترام » ، يتحدّث عن زوجه ، وعن سرّ بيته ، بما يندى له الجبين خجلا ، أو بما لادخل للناس فيه ، ولا يهمهم أن يعرفوه ؛ لذلك ينبغى ألا يكون موقفنا أمام اللغو موقفا سلبيا ، بالإنكار عليه حسب ، أو بالمرور به مرّ الكريم فقط . وإذا جاز هذا فيما يتعلق بأشخاصنا إيثارا للسلامة والكرامة ، فيجب ألا يكون هذا موقفنا فيما يتعلق باللغو المؤذى لضمير الجماعة ، كالكلمات التى تسىء إلى كرامة الوطن ،

وكرامة المواطنين ، وتخدش العزّة القومية ، وتخلخل ضمير الجماعة الذى ليس له مايردّ عليه كرامته إلا العقاب ، لا مجرّد الإنكار ! فالواجب إذا سمعت اللغو أن تغضب للفضيلة ، وحاول أن تغضب معك ثانيا وثالثا ورابعا ، لتتألبوا جميعا على اللاغى ، حتى يحس بأنه أمام رأى عامّ خلقى ، وأن ما قاله من اللغو ، قد أهان به ضمير المجتمع ، فيعتذر أو يستخذى أو يسلّم لحكم القانون ، وهو وحده يستطيع أن يردّ للجماعة كرامتها .

لذلك يقول العلماء : إن آيات اللغو فى مثل « وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاما » [١] « وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْه » [٢] من الآيات المنسوخة بآيات الدفاع عن حمى الجماعة وكرامتها ، من مثل « فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ » [٣] وغيرها من الآيات التى تأمر بمحاربة المهدّدين لكيان الجماعة ، المعتدين على كرامتها .

الكلمة الطيبة فضيلة فردية واجتماعية ، فهى تؤثر فى نفس صاحبها تأثير تهذيب وتطهير ، وتؤثر فى غيره تأثير قدوة وتقليد ، والكلمة الخبيثة رذيلة فردية واجتماعية ، فهى تودى بصاحبها ، وربما أودت بكيان أمة بأسرها ؛ لذلك ضرب الله مثلا للكلمتين بالشجرة ، فهى إن كانت طيبة انتفع صاحبها بثمرها ، وانتفع الناس بظلها وطيب رائحتها ؛ وإن كانت خبيثة آذت بشوكها ، وكان وقودا للنار « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَفَرْعُها فِي السَّماءِ تُؤْتِى أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها ... » [٤] . « ومَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرَار » [٥] .

---

(١) سورة الفرقان من الآية ، ٧٢ .
(٢) سورة القصص ، من الآية ٥٥ .
(٣) سورة البقرة ، من الآية ١٩٥ .
(٤) سورة إبراهيم ، من الآيتين ٢٤ ، ٢٥ .
(٥) سورة إبراهيم ، آية ٢٦ .

السرف والترف

السرف أو الإسراف فى كل شىء ، هو مجاوزة الحدّ الأوسط ، والانحدار سريعا إلى الطرف الأخير ، أو الطرف الذى يسمى غلوّا وإفراطا ؛ فالسرف فى الصحة هو مجانبة الاعتدال ، أومجانبة الحدّ الوسط فى المأكل ، فالأكول الشَّرِه عرضة للأمراض ، والممتنع عن الأكل حتى عن طريق الصوم المستمرّ عرضة للأمراض ، والدين ينهى الأول بقوله « ولا تُسْرِفُوا إنَّهُ لا يُحِبُّ المُسْرِفِين »[1] وينهى الرسول الثانى بقوله « إنَّ هَذَا الدّينَ مَتِينٌ فأوْغِلْ فِيهِ بِرِفق ، إنَّ المُنْبَتَّ لا أرْضًا قَطَعَ وَلا ظَهْرًا أبْقَى » وكذلك السرف فى الأموال ، هو مجانبة الاعتدال فى مصارفه : فمن يمنع عن نفسه ضرورياتها فهو بخيل مقتر ، ومن يندفع بماله ، أو يندفع به المال يبدّده هنا وهناك فى غير وجه مشروع ، أو فى غير غرض صحيح ، فهو مسرف مِتلاف . وينهى الدّين الأوّل عن البخل ، وتوعد الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله . وينهى الثانى عن الإسراف ، ويسمى صاحبه مبذّرا يدفعه الشيطان ، ويستولى عليه فى كل تصرّفاته « وكانَ الشَّيْطانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا »[2] .

ولما كان المال هو المسير للحياة ، والقابض على التصرّفات فيها ، كان الإسراف فيه غيرَ الإسراف فى غيره ، فالإسراف فى الصحة ، ضرره يقع على الشخص نفسه ، والإسراف حتى فى العبادة مما يؤاخذ عليه صاحبه دينيا ، ولكن الإسراف فى المال يتعدّى صاحبه ، ليلحق ضرره الجماعة التى يعيش فيها المسرف .

وبعبارة أخرى الإسراف فى المال له وجهان :

إسراف فى الخير ، وإسراف فى الشرّ . فالإسراف فى الخير ، بمعنى الإنفاق على المشروعات الاجتماعية إنفاقا يرتفق به أكبر عدد ممكن من الناس ، لايعدّ إسرافا ،

---

(١) سورة الأنعام ، من الآية ٤١ .

(٢) سورة الإسراء ، آية ٢٧ .

فقد سئل « ابن عباس » بمناسبة « وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً »[١] عن الرجل ينفق أمواله فى الخير ، فأجاب بهذه الجملة الصغيرة المحكمة التى ذهبت مذهب الحكمة والمثل : « لاسَرَف فى الخير » . إذن لمصرف المال ناحية اجتماعية لاينبغى أن نغفل عنها ، وهى الناحية التى يجمل فيها الإسراف ، فالرجل لايعدّ مسرفا إذا خرج عن بعض أمواله لله ، وحدّد مصارفها فى سبيل الله ، يعين بها جيشا يدافع عن الوطن ويحمى حماه ، أو يبنى بها مستشفى يخفف فيه الآلام ، ويجفف فيه دموع الأسى ، والغنىّ لايعدّ مسرفا إذا أعان على حقّ ، أو شارك فى معروف ، أو بنى لقومه مجدا ، يذكرون به ، ويذكر فى مقدمتهم ، والغنىّ لايعدّ مسرفا إذا شارك قومه فيما يدفع عنهم كل ما يمسّ كيانهم ويهدّد جماعتهم .

فالإسراف المنهى عنه ، هو الإسراف الفردىّ لاالاجتماعىّ ؛ والإسراف المنهى عنه مطلقا : هو التبذير لغير غرض صحيح ، أى لمجرّد التبذير ، وتدلّ آية الإسراف فى القرآن « وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً »[٢] على ناحيتين ؛ فى ناحيتها الأولى تدل على مذهب الوسط ، الذى قرّره القرآن مبدأ للأخلاق الفاضلة قبل أن يقرّره علماء الأخلاق ، وهى فى ناحيتها الأخرى « وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً » تفيد أن المنهى عنه هو التبذير لمجرّد التبذير ، أى التبذير لغير غرض صحيح . أما التبذير فى الخير ، وأما الإسراف فى الخير ، فليس من المنهى عنه فى شىء .

وناحية ثالثة فى الآية تدلّ على أن المبذّر لمجرّد التبذير يقصد به المباهاة ، أو التظاهر ، أو الغلبة ، أو الاستعداء على حقّ الناس ، أو التكبر والجبروت ، إنما يُدفع إلى تبذيره بدوافع شيطانية ، فمصارفه للشيطان ، وأغراض مصارفه شيطانية ، « وكانَ الشَّيْطانُ لِرَبِّهِ كَفُورا »[٣] لايقدّر نعمة الله ، ولا يفهم الغرض الصحيح من الثراء والنعمة .

---

(١) سورة الإسراء ، آية ٢٦ .

(٢) سورة الإسراء ، آية ٢٩ .

(٣) سورة الإسراء ، آية ٢٧ .

فالنظام الاجتماعى إذن يقضى بالقبض على أيدى هؤلاء المبذّرين ، والحاكم المصلح الذى يحدّد من غُلَواء هؤلاء المبذرين إنما يعمل لخيرهم أولا ، لأنه ينتزعهم من يد الشيطان ، ويعمل ثانيا لخير المجموع ؛ وعمله فى الأولى والثانية يتمشى مع تعاليم الدين روحا وعملا ، لأنه يرحمهم من ثورة مواطنيهم ضدهم ؛ فكما أنهم مدفوعون فى تصرّفاتهم باسم الشيطان ، فإن هذا الشيطان يعيش دائما فى أوساط الفقراء ، يغريهم بالأغنياء ، ويسلطهم عليهم ؛ فعمل الحاكم الذى ينقل الإسراف إلى الخير ، والذى يحدّد من هذا الإسراف ويوجهه إلى ناحية اجتماعية ، هو عمل من الأعمال التى يتغلب فيها جند الرحمن على جنود الشيطان .

والإسراف يجرّ حتما إلى الترف ، وهو من الأخلاق التى تنهار معها أخلاق الفرد وأخلاق المجتمع ؛ فالفرد المترف حرم صفات الرجولة ، وهو عاجز عن مقابلة الحياة ؛ ولن يُؤذى هذا التطوّر الاجتماعىّ الذى نشقّ طريقه الآن للسير فيه ، إلا الغنىّ المترف . أما الغنىّ العامل فلن يضيره شىء ، فقد نقلت ثروته من ناحية إلى ناحية أخرى ، إذا عمل فيها حَيِىَ وأحيا الناس معه . أما المترف الذى فقد الجهد ، والنخوة ، وكرامة الإنسان ، فسيعذّب من جراء هذا الانقلاب ، اللهمّ إلا إذا استردّ رجولته ، واعتمد على نفسه ، وشارك قومه فيما يعملون ، ونقل نفسه من صفوف العاطلين إلى صفوف العاملين ، وسرّ الحياة لافى احتمال مصاعبها حسب ، ولكن فى التغلب على هذه المصاعب . إن الترف كالسرف خلق يهدم كيان الأمة ، وصدق الله الذى يقول : « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا »[1] .

---

(١) سورة الإسراء ، آية ١٦ .

ضرر الترف على المجتمع

لا ننكر على الناس أن يكونوا أغنياء ، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . ولا ننكر على العامل أن يتمتع بثمرة عمله ، ولا على صاحب المجهود أن ينعم بنتائج مجهوداته ، فذلك قانون طبيعيّ : مَن زَرَع حصد ، ومن حصد أكل واستمتع ، « واللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ على بَعْضٍ فِي الرِّزْق » [1] « نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الحَياةِ الدُّنْيا » [2] . وهؤلاء الذين ينفسون على الأغنياء عيشهم ، هم ما بين رجلين : إما حاسد يتمنى زوال نعمة الناس ، ويتمنى أن يعيش الناس كما يعيش فى ذِلّة وهوان ، وإما متقاعد ضعيف النفس ، يكتفى بالذليل من العيش ، ويودّ أن يشاركه الناس فى هذه الذلة .

الغِنَى نتيجة المجهود حقّ لصاحبه ، ومن حقّ الغنىّ أن يتمتع بمجهوده ، وحتى لو كان الغِنَى نتيجة وراثة أو ظروف سهلة لينة ، فلا يسقط حقّ الغنىّ فى أن يستمتع بحظه ، وأن يستمتع بما خلّف له آباؤه وأجداده ، ولكنه مع ذلك مكلّف أن يحافظ على سمعتهم ، وأن ينمى ما تركوه له ، لا أن يبدّده بالإسراف والتبذير ، والترف والركون إلى الدعة والراحة . فالأغنياء هم الذين يسيئون إلى أنفسهم ، وهم أمراض اجتماعية خاصة بهم سببها الغِنَى نفسه . وأقتل هذه الأمراض الإسراف والترف : فالإسراف رذيلة سببها سوء التقدير ، وعدم رعاية العاقبة ، وعدم احترام فضيلة الاقتصاد . على أنه مهما يكن فى الإسراف من سوء ، فإنه أقلّ خطرا ، وأهون ضررا من الترف ؛ فالمسرف قد ينفق كثيرا ولكن فى الخير ، وقد لا يقبل أن يدّخر شيئا لغده ، وهو يرى أمامه أناسا محتاجين إلى القوت وحفظ الرمَق ، فينفق فى سبيل

---

(١) سورة النحل ، آية ٧١ .

(٢) سورة الزخرف ، آية ٣٢ .

ذلك معظم ما عنده ، فالإسراف قد يكون فى الخير ؛ وإذا كان الإسراف لاخير فيه ، فانه لاإسراف فى الخير . أما الترف فهو شرّ دائما ، وشرّ فى جميع حالاته ، يضرّ بصاحبه ، ويضرّ بالمجتمع الذى يعيش فيه .

المترف مبذّر دائما ، وأنانىّ دائما ، لا يرى فى الحياة إلا اللذّة والمتعة ، فهما غايتاه ، وفى سبيلهما يتلف نفسه ، ويهلك أمواله . والمترف لايحبّ العمل ، فعنده مايكفيه ، ولأن العمل يتعبه ، وهو يحبّ أن يعيش دائما ناعم البال ناعم الحياة . والمترف يجافى طبيعته ، بل يجافى طبيعة الحياة نفسها التى تتداول بين الشدّة والرخاء ، فجَوْرَبُه حرير ، ولباسه حرير ، وفراشه وثير ، ومركبه وطىء ، وعيشه سهل لين ، فهو لايطلب الحياة للحياة ، لكى يعيش عيشا منظما مطّردا ، ولكنه يطلبها للتفاخر والتكاثر . المترف يعيش فى أفواه الناس ، وهو متعرّض لأن تلتفّ حوله بطانة السوء يتملقونه ، ويعيشون فى كنف هذا التملق ، وعلى حسابه ؛ يشاركونه فى نعمته ، ويهزءون به ، حتى إذا نَضَب ماله انصرفوا عنه ، ورموه بالنَّزق والطيش ، وكانوا أوّل من يشهِّر به وبسوء تصرّفاته !

المترف مريض بالنعمة . لايستطيع أن يقابل الحياة بما هى عليه من شدّة ورخاء ، وسعة وقسوة ، ومنافع وشرور ، وظلّ وحرور ؛ والمال وحده لايدفع ضررا ، ولا يجلب سعادة ، والحياة صبر ، ولم يتعوّده المترف ، والحياة تغلُّب على المصاعب ، والمترف لايعرفها ، فأقلّ شىء يصيبه يعتبره صدمة ، ورجل الحياة لابد أن يلابس الحياة كما هى فى جميع أوضاعها ، وبجميع تقلباتها .

همسة فى أذن السيدات المترفات ، لأن مسئوليتهن فى ذلك أكبر من مسئولية الرجل ، هى مسئولية الجيل والمجتمع والأطفال والتربية ، والطفل لايتربى إذا أجيبت كل رغائبه ، ولا يحتمل قسوة الحياة إلا إذا عرف الحياة برخائها وشدتها ، وعطائها وحرمانها ، والحياة تحتاج إلى فلسفة ومبادئ . وأىّ مبدأ خلقىّ أو اقتصادىّ هذا الذى

يخضع للنزوة التى تدفع السيدة لأن تشترى ملابسها بأغلى الأثمان ، ثم تمزّقها « المودة » أو المستحدثات ، فتجعلها خرقا بالية لاقيمة لها ؟ ! إن المبدأ الاقتصادىّ هو « المنفعة » وأتجاوز فأقول « المتعة » ، ولكن المتعة محدّدة أيضا بقانون اقتصادىّ « أكبر متعة ممكنة بأقلّ مجهود ممكن » ، أى أكبر متعة ممكنة بأقلّ ثمن ممكن . إذا كان الذى يدعو السيدة إلى الترف هو الجمال ، فلتعلم أن التجمل خير من الجمال ، وأن البساطة فى حدّ نفسها جمال ، لاتحتاج إلى إضافات خارجية . فهذه المغالاة فى الملابس ، وهذه المغالاة فى التأنق ، وهذه المغالاة فى الحلىّ ، شىء خارج عن الطبيعة .

أنا لاأفهم ولا غيرى من العقلاء يفهم ، أن مِشبك الملابس يشترى بآلاف من الجنيهات ، وأن جورب الحرير يساوى ثمن ملابس بأكملها ، وأن ثمن رباط الرقبة يساوى ثمن القميص ، وثمن القميص يساوى ثمن حلة ! كما لا أفهم أن يكون طالب العلم مشغولا بنفسه ، ومشغولا بأناقته إلى الحدّ الذى يخرج به عن كونه طالبا ، وعن حقيقته طالبا ، وأن يكون مثلا سيئا للفقراء ومتوسطى الحال من إخوانه الطلبة ، يفسد عليهم أمورهم ، وينغص عليهم عيشهم ، ويجعلهم يتطلعون إليه تطلع حقد وحسد وكراهية ، وخاصة إذا لم يكن عند هؤلاء الطلبة المترفين من المزايا النفسية والخلقية والعقلية ، ما يجعلهم يستأهلون هذه النعمة ، ويجعلهم يتفاخرون ويتكاثرون بهذه الأعراض الزائلة الحائلة !

لايسوء الفقيرَ أن يرى الغنىّ متمتعا بنعمة الله عليه ، إنما يسوءه أن يرى الغنىّ يبذّر يمينا وشمالا ، وحوله أهله وذووقرباه ، يحتاجون إلى القليل مما ينفقه فى غير فائدة أو منفعة ! ولا يسوء الفقيرَ أن يرى الغنىّ أمامه أنيقا رشيقا ، إنما يسوءه أن يراه عاريا من المزايا ، أنانيا ينفق على شهواته ونزواته ومظاهره الكاذبة ، ما لو أنفق فى الصحيح من الأغراض لكسب حمد الناس ، وجزاء الخير والعمل الصالح الذى ينتفع به كثير من الناس .

لذلك كان ضرر الترف اجتماعيا أكثر منه فرديا . فالمترف مثل سيىء فى كل حال : إن استطاع الناس تقليده أفسد عليهم أمورهم ، وإن لم يستطيعوا أثار فى نفوسهم العداوة والبغضاء . الناس مولعون بتقليد الطبقة العليا ، يتطلعون دائما إلى من فوقهم ، فإذا ساء المثل ساءت القدوة . كل جماعة فى حاجة إلى الإصلاح ، والإصلاح يحتاج إلى جهود من رزقهم الله بسطة فى المال ، وسعة فى الرزق ، والقانون الدينىّ يلزمهم الزكاة ، والقانون الاجتماعىّ يلزمهم الإصلاح . والترف يذهب بصاحبه إلى الأنانية والفردية ، وكلما ابتعد الفرد عن الجماعة ، وهو قادر على أن يعمل شيئا ، تطلعت إليه الجماعة ترجو أن يعمل ، فإن لم يعمل فكرت فى أن تلزمه وتجبره على العمل ، ومتى فكرت الأمة فى أن يأخذ بعضها من بعض بالجبر والإلزام ، فقد وردت موارد التهلكة .

لذلك تذمّ الأديان الترف ، وتحذّر المترف من إهمال المستقبل ، فإن النعمة لاتدوم ، والحظّ لايدور دائما على سعادة المترف ، ولا يقف دائما بباب داره ، فمن واجبه أن يحترس للأيام ، ولذلك تأمر الغنىّ أن يطلب بغناه ماعند الله ، وأن يستمتع بما وهب الله له من النعمة فى الحدود المقرّرة : « وابْتَغِ فِيما آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا »[1] . والترف مظنة الكِبْر والخيلاء ، لأن المترف أنانىّ بعيد عن الناس ، يخشاهم خوف المشاركة فى ماله ، ويخشاهم خشية أن يفسدوا عليه تَرَفه : « وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الجِبالَ طُولا »[2] .

وما أجمل هذه المحاورة التى ذكرها القرآن بين الغنىّ المترف ، والفقير الصابر ، فإن المترف يدخل جنته وينظر إلى نعيمه الزائل وهو ظالم لنفسه ، ويقول : « ما أَظُنُّ

---

(١) سورة القصص ، من الآية ٧٧ .

(٢) سورة الإسراء ، آية ٣٧ .

أنْ تَبِيدَ هَذِهِ أبَدًا[١] »، ويشغله ترفه عن التفكير فى مصيره فى الدنيا وفى الأخرى فيقول : « وَما أظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً »، وهو مغرور بما حصله فى الدنيا ، ويمتدّ به غروره إلى أنه سيكون مترفا فى الآخرة ، فيقول : « وَلَئِنْ رُدِدْتُ إلى رَبِّى لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْها مُنْقَلَبا » ، ويردّ عليه صاحبه الفقير المؤمن « وَلَوْلا إذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ اللهُ لاقُوَّةَ إلاَّ بالله ، إنْ تَرَنِ أنا أقَلَّ مِنْكَ مالاً وَوَلَدا ، فَعَسَى رَبِّى أنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ ويُرْسِلَ عَلَيْها حُسْباناً مِنَ السَّماءِ ، فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقا » إلى آخر الآيات . ويتحقق وعيد الله ، وتجرى الأمور فى مجراها الطبيعى ، فيدفع المترف ثمن إهماله وثمن غروره عند ما تتقلب الأيام ، وتدور دورتها بالنحس ، بعد أن دارت أمامه بالسعد ، فيندم بعد فوات الوقت ، وبعد أن يقتل فى نفسه كل حاسة شريفة ، وكل مجهود شريف : « وأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فأصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ على ما أنْفَقَ فِيها وَهِيَ خاوِيَةٌ على عُرُوشِها ، ويَقُولُ : يا لَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّى أحَدا » .

---

(١) سورة الكهف ، آيات ٣٥ وما بعدها .

الهدامون

لانقصد بالهدّامين هؤلاء الذين يحملون معاولهم فيأتون على بناء من جداره ، ليقيموه جديدا ، وليشيدوه على أحسن مما كان ، فهؤلاء أشراف يكدون ويأكلون من عرق جبينهم ؛ وإنما نقصد هؤلاء الهدامين للخلق والفضيلة ، الذين يتعرّضون للناس فى أعراضهم يثلِمونها ، وفى كراماتهم يخدشون فيها ، وفى شرفهم ينتقصونه ، لالغرض سوى شنيع ، والاطلاع على عيوب الناس ، بل اختلاق العيوب اختلاقا بقصد الغضّ من كراماتهم !

ونقصد بالهدّامين هؤلاء الذين يتعرّضون للأمة نفسها فى رجالها العاملين المحسنين ، فيتعقبون كل عمل بالنقد ، ولو كان العمل فى حدّ نفسه شريفا كريما ، لايقبل النقيصة ولا يحتملها .

هناك إذن صنفان من هؤلاء الهدامين : فريق يتعرّض للأفراد ، وفريق يتعرّض للأمة والجماعة ، وكلاهما معول ينقُضُ بنيان الأمة ، وينقب فى صرح الفضيلة ، ينقب فيه قليلا قليلا حتى يأتى عليه ، وكلاهما عامل من عوامل السوء والفساد فى الأمة التى يعيشون فيها .

أما الصنف الأوّل فلا همّ له إلا إهدار الكرامات ، والزّراية بالناس ، والغضّ من أقدارهم ، والسخرية منهم . ولهم فى ذلك طرق عجيبة وسخيفة معا ، فهم يخترعون الأكاذيب فى حقّ الناس ، ويشنّعون عليهم ، ويدّعون ادعاءات باطلة ، ليبرّروا كذبهم وافتراءهم ، ويُغَطّون سخفهم بكثير من التمويه ، وبقدرة فائقة على قلب الحقائق ، ولا دين لهم يعصمهم من السخرية بالناس ، ويعصم الناس من شرورهم : « يا أيُّها الّذين آمنُوا لايَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوم عَسَى أنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ، وَلا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسَى أنْ يَكُنَّ خَيْرًا منْهُنَّ ، وَلا تَلْمِزُوا

أَنْفُسَكُمْ ، وَلا تَنابَزُوا بالألْقابِ ، بِئْسَ الاسمُ الفسوقُ بَعْدَ الإيمان ، وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فأُولَئِكَ هُمُ الظّالِمُون »[1] .

فالله سبحانه ينهى المؤمن عن اللمز : وهو الطعن والضرب باللسان ، كما ينهى عن الغمز فهو سخرية ؛ ومن السخرية أيضا التنابز والتداعى بالأسماء والألقاب ، ودعوة الناس بما يكرهون من الألقاب والكنى ، فتلك جاهلية جبّها الإسلام ، وباعد ما بين المسلمين وبينها ، وذلك فسوق بعد إيمان ، وضلال بعد هدى .

والهدامون بعد ذلك لاضمير لهم يعصمهم من التعرّض للناس ، ويعصم الناس من شرورهم ، ولو كان لهم ضمير لاحتكموا إليه ، ولو احتكموا إلى ضمائرهم لعلموا أن ما فى أنفسهم من شرور ، هى التى يعكسونها على الناس ، ويتهمونهم بها ؛ والعاقل من يتخذ من نفسه مقياسا يزن به أعماله وأعمال غيره ، فاذا أراد الطعن فى الناس ، فكر فى عيوب نفسه ، وهنا يستيقظ ضميره ، ويعلم أن ما يرمى به الناس إنما يستخرجه من قرارة نفسه ، وأولى به أن يصلح من نفسه قبل أن يتعرّض لإصلاح الناس ، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « لِيَرُدَّكَ عَنِ النّاسِ ما تَعْلَمُ مِنْ نَفْسِكَ » .

والهادم بعد ذلك لارادع له من كرامة أو شرف ، فإذا تكلم فى حقّ إنسان ، أو سخر منه ، أو ذكره بما يكره ، ووجد فى المجلس من يردّ عليه كذبه وافتراءه — ولا تعدم الفضيلة أنصارا من أهليها — يغير مجرى الحديث ، فيسلّم بأن ضحيته شريف فى نفسه ، ويبيح لنفسه أن يتكلم فى بيته وفى كرامته من طريق ملتو ، وبعبارة ملفوفة ، ظاهرها النقد البرىء ، وباطنها الإثم والفسوق والعصيان ! !

مثل هؤلاء لايبالون أن يلاحقوا الآمنين فى بيوتهم ، فيتجسسوا عليهم ، ويدّعوا عليهم الادّعاءات الكاذبة الباطلة ، عن طريق السعاية والوشاية ، وينتهزون لذلك الفرص التى يؤخذ فيها البرىء بجريرة الجانى ؛ وهم بعد ذلك لا يفلتون من عدالة القانون ،

---

(١) سورة الحجرات ، آية ١١ .

فإن فاتتهم أو أمهلتهم فلن يفلتوا من عدالة الحق التى تمهلهم اليوم لتدركهم فى الغد ، وإذا أخذت عدالة ربك الظالم فلن تفلته ، ولن يستطيع منها تخلصا أو هروبا .

وهناك الهدامون الاجتماعيون الذين يتعرّضون إلى كيان الأمة نفسها ، فإذا قام فيها محسن من المحسنين ، فعمل عملا من الأعمال المذكورة المشكورة عابوه ، وتدخلوا فى نيته فيما بينه وبين ربه ، ويرمونه بأنه دُفع إلى الخير دفعا ، عن طريق حبّ الشهرة وكسب الجاه . وإذا أقام فيهم مصلح رموه بأنه لم يرد بإصلاحه إلا خدمة نفسه وخدمة عشيرته !

استمع إلى واحد من هؤلاء الهدامين فى مجلس من مجالسهم ، تجده يطوف بك فى عدّة نواح من حياتنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتعليمية ، وهو فى جميع ذلك يدعى العلم والمعرفة . يفترى الكذب ويسنده إلى مصادر موثوق بها ، حتى لايداخلك الشك فى أمره ؛ وانتقل معه من مجلس إلى مجلس ، تجده يكرّر ما يقول ويؤكده ؛ وهو لبق فى تخير الجماعة التى يتحدّث إليها ، ليكون فيهم المحدث الذى لايجارى ، والاقتصادى الواقف على دقائق الحياة ، والسياسىّ العليم بالأسرار ، وبما وراء الأستار !!

مثلُ هؤلاء يسممون العقول والنفوس ، ويستطير شرّهم فى نفوس الأغفال والبسطاء كما يستطير الشرر فى الحطب الجافّ ، وهم شرّ الناس ، وأظلمهم للناس . وهم فوق ذلك لا يسيئون إلى المواطنين حسب ، بل يسيئون إلى الوطن نفسه ، فهم يقرّرون فى صراحة أن البلاد لاتستحقّ أكثر مما هى فيه إن كانت متطلعة لآمال جديدة ، ولا تستحقّ إلا ما هى فيه إن كانت تعانى أزمة من الأزمات ، فهم لايكتفون بأن يعيشوا عالة على أمتهم ، بل يتشبثون بأذيالها ، ويمنعون الناهضين فيها . لايدرءون شرّا ، بل يجلبون شرورا . ولا يرجى معهم خير ، فهم مناّعون للخير ، معتدون على قوميتهم ، آثمون فى حقّ وطنهم .

كل هذا منشؤه الجهل ، وموت الضمير ، وضعف الوازع الدينىّ والأدبىّ ، ومنشؤه الفراغ ؛ إن المواطن الكريم هو الذى يحترم مواطنيه ، وهو الذى يسعى فى إثبات كرامتهم ، فهو جزء منهم ، وإذا عابهم عاب نفسه ، لذلك يقول الله « وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ »[1] أى لايَعِب بعضُكم بعضا ، حتى تسود المحبة بين الناس الذين ينضوون تحت لواء واحد ، ويجتمعون باسم وطن واحد ، عزّه عزّ للجميع ، والإساءة إليه إساءة للجميع . والذى يعيب على المواطن ، أو الذى ينابزه بلقبه ليسخر به ويسىء إلى كرامته ، هو فاسق بائس ؛ ومَنْ أبأس ممن كرّمه الله وهداه إلى الحقّ والكرامة ، فرجع إلى الفسوق والمهانة .

والمواطن الكريم هو الذى يرتفع بوطنه دائما إلى المكانة اللائقة به ، فإذا وجد عيبا فكر فى إزالته ، والتخلص منه بالوجه المتقبل المحبوب . والوطن يمنح مواطنه كل الحرية إذا تكلم صادقا فيما يصلح شئونه ، ويعلى من شأنه ؛ والوعى الوطنى يحتم على كل فرد إذا سمع مواطنا أو أجنبيا يمسّ الكرامة الوطنية من قريب أوبعيد ، أن يصُد هذا المتعدّى على هذه القدسية القومية ، التى يجب أن تكون قبلة الجميع .

إن التعرّض لهدم الناس بالباطل إثم وجريمة خلقية ، وإن التعرّض للشئون القومية بالنقد الباطل الجارح ، والغضّ من أعمال المصلحين ، لا لغرض سوى هدمهم وهدم ما شيدوه ، جريمة قومية تستدعى الأنكار ، بل تستدعى العقاب .

إن الإصلاح الخلقى فى نظر العلماء المصلحين لايكون بهدم الناس ، والغضّ من أعمالهم ، بل على العكس يكون بالتنويه بما فى أعمالهم من مصلحة ، بل يكون أحيانا بالتكثير من القليل الذى عملوه ، إثارة للمنافسة والتزاحم والاستباق فى ميادين الخير ، ويكون أيضا بعرض الأعمال الصالحة التى خلفها المصلحون إثارة للقدوة الحسنة ، ونشرا للأمثلة الصالحة .

إن الإصلاح الاجتماعىّ أساسه النقد ، والنقد الصحيح ليس هدما ، بل نقضا وبناء فى وقت واحد ، وكثيرا ما يكون النقض سببا فى البناء ، بل كثيرا ماتلمح

---

(١) سورة الحجرات ، آية ١١ .

تحت غبار الأنقاض فى هدم القديم ، الخطة التى يشيد عليها البناء الجديد . أما النقض فقط ، وأما التزييف فقط ، وأما الهدم فقط ، فهو موقف سلبى ، ضرره أكبر من نفعه — إن كان فى العدم نفع — ولا يورث إلا الأحقاد ، وليس له من نتيجة إلا تثبيط الهمم ، والإحجام عن الدخول فى الميادين العامة التى يقتحمها عظماء الرجال ؛ ومهما كان فى هؤلاء العظماء من قوّة الاحتمال ، فإنهم أناس يحبون أن يذكروا بما يفعلون ، ويكرهون أن يقول الناس عنهم ما لايقولون وما لايفعلون . والمواطن الذى يتصدّى للمسائل العامة يتصل بأمته ، بمقدار ما تتصل أمته به ، وبمقدار ما تعترف له بالجميل الذى أسداه إليها . عند ذلك يزداد رغبة فى العمل ، ويدفعه العمل إلى التضحية ، وتدفعه التضحية إلى أن يكون مثلا فى أمته . هذه هى العلاقة الصحيحة بين المواطنين فيما بينهم فى الشئون الخاصة والعامة ، وهى هذه العلاقة الخلقية بين المواطنين وبين وطنهم ، وإلا فما زدنا فى تطوّرنا على أن نردّد قول الأول :

مَتَى يَبْلُغُ البُنْيانُ يَوْما تَمامَهُ إذَا كُنْتَ تَبْنِيهِ وَغَيْرُكَ يَهدِمُ

الكلمة الطيبة و الكلمة الخبيثة

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَفَرْعُها فِي السَّماءِ . تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها ، وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ . يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثّابِتِ فِي الحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الآخِرَةِ ، وَيُضِلُّ اللهُ الظّالِمِينَ ، وَيَفْعَلُ اللهُ ما يَشاءُ . . . » [1]

أسلوب القرآن فى ضرب الأمثال ، وفى إيراد التمثيل ، من الأساليب التى تعتبر مَضْرِب المثل فى البلاغة والإعجاز ؛ فبعد تقرير المبادئ والأفكار ، تجنح الآيات إلى ناحية التمثيل بالمحسّات التى تضرب الحواسّ ، حتى لايكون هناك سبيل لإنكارها ؛ فالكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة ، والكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة . والمراد بالكلمة الطيبة : كلمة الإيمان ، وكلمة المعروف ، والكلمة تدلى بها إلى الحكام ، فتقرّر حقا وتدحض باطلا ، والكلمة تقولها بين المتخاصمين ، فتكون بردا وسلاما ، وكلمة الخير تكون نصيحة تنير الطريق ، وتكون هداية ترشد الضالّ ؛ هذه هى الكلمة الطيبة ، فهى كالشجرة الطيبة ، أصلها ثابت فى الأرض ، وفرعها باسق فى السماء ، والكلمة الطيبة إذا كانت خيِّرة كانت باقية فى الناس وفى المجتمع ، وكان فرعها فى السماء تصعد إليها كما يَصْعد الكلم الطيب والعمل الصالح . والشجرة المثمرة يجنى الناس ثمارها ، والكلمة الطيبة من المعروف يجنى الناس ثمارها ، والكلمة الطيبة تظلّل الناس فى خيرها ، كماتظلل الشجرة المورقة فى ظلالها ، والشجرة الطيبة تؤتى أكلها كل حين ، والكلمة الطيبة تؤثر فى كل حين « وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ »

---

(١) سورة إبراهيم ، آية ٢٤ وما بعدها .

أما الكلمة الخبيثة فكالشجرة الخبيثة المجرّدة من الثمر والورق ، وإذا أثمرت كان ثمرها مرّا ، والشجرة الخبيثة هى الشجرة التى تجتثّ وتستأصل ويرمى بجثتها فى الأرض ، فليس لها أصل ثابت ، بل تلقى فى الأرض بعد قطعها وتصير حطبا ، كذلك الكلمة الخبيثة ليس لها فى الأرض مستقرّ ، وليس لها مصعد إلى السماء ، بل تبقى ملقاة فى عنق صاحبها ، دالة على خبثه ، وفساد نيته .

وبالكلمة الطيبة الثابتة « يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بالقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الحَياةِ الدُّنْيا وفِى الآخِرَةِ » . وبالكلمة الخبيثة « يُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مايَشاء » فهو الذى يثبت المؤمنين ، ويؤيدهم بالحقّ ، ويعصمهم من الزلل ، وهو الذى يضلّ الظالمين ، ويخذلهم بالباطل ، ويتخلى عنهم عند زللهم .

تعرّف الآيات الظالمين ، وتبين أنهم هم الذين بدّلوا نعمة الله كفرا ؛ رزقهم الله الإيمان ، فاختاروا الإلحاد ، فبدّلوا نعمة الله كفرا . رزقهم الله الذكاء ليستعملوه فى الخير ، وفى هداية الناس ، فاستعملوا ذكاءهم فى الأذى والشرور ، وبدلوا نعمة الله كفرا . رزقهم الله الأموال للإنفاق فى الخير ، فأسرفوا وضيعوا ، وبدّلوا نعمة الله كفرا . وأظلم الظالمين القادة الذين يجرون وراءهم الناس جرّا إلى الهلاك ، أولئك الذين أحلوا قومهم دار البوار ودار الهلاك ، جهنم يصلونها وساءت مستقرّا وساءت قرارا . وأظلم من هؤلاء الذين أشركوا بالله ، وجعلوا له أندادا ليضلوا الناس عن سبيل الله ، وهؤلاء قد أمر الله رسوله أن يقول لهم « تَمَتَّعُوا » فهما طال بكم التمتع « فإنَّ مَصِيرَكُمْ إلى النَّار » [١] .

أمر الله رسوله أن يقول للمؤمنين أقيموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناكم سرا وعلانية ، والسرّ يكون فى الصدقات ، أما العلانية ففى الواجبات ، ليجمع المرء بين الإخلاص والقدوة ؛ فصدقة السرّ إخلاص ، وصدقة العلانية قدوة ومثل ، وكلاهما يطلب من المؤمن أن يقصد فيهما وجه الله « وَما لأحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ

---

(١) سورة إبراهيم ، آية ٣٠ .

تُجْزَى إلاَّ ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأعْلَى »[١] فقد ينفق المال رغبة فى الصداقة ، وانتظارا لأن يعطيك صديقك أكثر مما أعطيت ؛ وقد ينفق المال للمبادلة ، انتظارا لأكثر منه . أما الإنفاق فى سبيل الله ، فلا ينظر المرء فيه إلا إلى ما عند الله من الرضا والمثوبة فى يوم لابيع فيه ولا خلال .

وبعد أن أمر المؤمن بالإنفاق ممارزقه الله سرّا وعلانية بيّن أن الرزق رزق الله ، هو واهبه ومعطيه ، والميسر له ، فهو « الَّذى خلَقَ السَّمواتِ والأرْضَ وأنزَلَ منَ السَّماءِ ماءً فأخرَجَ بهِ منَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لكُم وَسخَّرَ لَكُمُ الفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى البَحْرِ بِأمْرِهِ وسَخَّرَ لَكُمُ الأنْهار »[٢] هذا هو الرزق وهذه أسبابه : الأرض لمنفعة الإنسان ، والسماء لمنفعة الإنسان ، والمطر ينزل من السماء فينبت ، والماء يجرى فى البحار وفى الأنهار وعليها الفلك تجرى مواخر فى البحر بأمره لا بأمر الإنسان ، فقد يتيح الذكاء الإنسانى لنا أكبر الآلات البخارية ، فتصطدم بعادية من عوادى الطبيعة كالعواصف والثلوج ، فلا يملك لها الإنسان ولا ذكاؤه من أمر الله شيئا ، « وَسخّر لكُم الشَّمسَ والقمَرَ دائِبَيْنِ » على المدارات والأفلاك ، يجريان فيها بحسبان ، وإلى أجل ومستقرّ ، وهما دائبان فى الإنارة ، وفى التأثير على الأرض ، والأجسام والأبدان والنبات ، « وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ »[٣] يتعاقبان ، فيكون أحدهما لباسا والآخر معاشا ، ويقصر أحدهما ويطول الآخر ، « وآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَألتموهُ »[٤] وآتاكم بعضا مما سألتموه رعاية لمصالحكم ، ويجوز أن يكون المعنى : وآتاكم من كلٍّ ، أى من كل شىء ، « ما سألتموه » ، أى من غير أن تسألوه ، أو وآتاكم مما احتجتم إليه ، وكان احتياجكم كالسؤال ، وهذا الذى أُعطيتم لايحصى ، فبعضه كثير ؛ أما كل النعم فمحال عليكم أن تحصوها ، ولكن الإنسان أمام هذه النعم « ظلوم » يظلم النعمة بإغفال شكرها ، « وكفَّار » شديد الكفران والنكران لها ، فالإنسان ظلوم يشكو فى الشدة ، وكفَّار ينكر فى النعمة ، وسبحان من خلقه ! فهو وحده الخبير بنفسه ، العليم بأمره ! .

---

(١) سورة الليل ، آية ١٩ ، ٢٠ .
(٢) سورة إبراهيم ، آية ٣٢
(٣) سورة ابراهيم من الآية ٣٣ .
(٤) سورة إبراهيم ، آية ٣٤ .

محاورة بين الحق والباطل

« تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ المُلْكُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » [1] .

يقف المؤمنون وعليهم سيما الإيمان بعد أن أجالوا سمعهم وأبصارهم فى ملكوت الله ، ورجعوا بعد هذه الجولة يدفعهم الإيمان ، ويحفزهم اليقين ، ويملأ صدورهم أمنا واطمئنانا ، وثقة بالمستقبل ينتظرهم بموفور الثواب وموعود النعيم ؛ قلوبهم مطمئنة لوعد الله ، وألسنتهم تردّد فى خشية قول الله « تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ المُلْكُ » له الأمر والنهى ، وله وحده العزة والسلطان ، وبيده تصاريف الشئون ، يرفع من يشاء ؛ ويضع من يشاء ، يُعزّ من يشاء ، ويذلّ من يشاء « وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِير » . اطمأنت قلوب المؤمنين لهذه العقيدة بعد أن نظروا فى السموات فلم يروا فيها عوجا أو التواء « ماتَرَى فى خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفاوُت » [2] ، وبعد أن رجعوا البصر كرّتين ، رجعت أبصارهم خاسئة حسيرة من العظمة التى تحيط بهم ، وتأخذ عليهم حواسهم وقلوبهم .

هذا موقف المؤمنين ؛ أما المعاندون المكابرون ، الضالون المضلّون ، فقد عَمُوا عن آيات الله ، وصَمُّوا عن تفهم أغراضها ومراميها ، فكان مصيرهم أسوأ المصير ، جحيمٌ فى الحياة ، ونكالٌ يوم المسئولية العظمى ، يوم يُهيب بهم صوت العدالة : « أَلَمْ يَأتِكُمْ نَذِيرٌ » [3] فيقولون « بَلى ، قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ ، فَكَذَّبْنا وَقُلْنا ما نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ » فتصرخ فيهم العدالة « إنْ أَنْتُمْ إلاَّ فى ضَلالٍ كَبِيرٍ » [4] ثم يعترفون بذنبهم ويقولون « لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فى أَصْحابِ السَّعِيرِ » [5] .

---

(١) أول سورة الملك .
(٢) سورة الملك ، من الآية ٣ .
(٣) سورة الملك ، من الآية ٨ .
(٤) سورة الملك ، آية ٩ .
(٥) سورة الملك ، آية ١٠ .

هؤلاء الضالون المضلون الذين يصادرون الحقّ ، ويناصرون الباطل ، لايصدّقون إلا ما يقع تحت أقدامهم ، ولا يرهبون عدلا ، ولا يخافون مسئولية إلا ساعة أن يأخذهم العدل ، وتوقعهم المسئولية على شرّ ما كانوا يعملون . وهذا الاعتراف المتأخر ليس من الإيمان فى شىء ، إنما الإيمان أن تراقب الله كأنك تراه ، وأن تخشى القانون احتراما للقانون ، لاخوفا من العذاب ، ذلك هو سرّ كلمة « الغيب » فى الآية « إنّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وأجْرٌ كَبِير [١] » .

ثم يأخذ الحقّ بيد الباطل ليبين له سبيل الحياة . وطريقها السعى الشريف ، وطلب الرزق العفيف ، وخوف الله فى هذا السعى والطلب ، « هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأرْضَ ذَلُولاً فامْشُوا فِى مَنَاكِبِها وكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وإلَيْهِ النُّشُور »[٢] . فالأرض مذللة خاضعة للإنسان ، قد استولى عليها بذكائه ، فدكّ جبالها ودحاها ، واخترق صخورها طرقا وأنفاقا ، وغاص بحارها سابحا وراكبا ، وأمره أن يمشى فى مناكبها وفى جبالها وفجاجها ، وطرقها ومسالكها ، الصعبة منها والسهلة ، فكلها مذللة له .

وفى هذه الآية ما يدفع عن المسلمين تهمة التواكل والكسل ، ويُغريهم بالبحث والعمل فى الإنشاء والتعمير ؛ فهم مكلفون الرحلة فى الأرض ، والسعى فى عمارتها ، والجرى فى مناكبها ؛ والمناكب أصعب من الأطراف ، ليطلبوا العيش العزيز ، ولا يكتفوا بالعيش الذليل ؛ ثم هم بعد ذلك مسئولون عن هذا الكسب ، ممّ جاء ، ومن أين جاء ، وهذه المسئولية أجملتها الآية فى هاتين الكلمتين « وإلَيْهِ النُّشُورُ » .

وبعد هذا البيان الدقيق الذى يقدمه الحق للباطل يقف الحق موقفه من الاعتزاز والتهديد ، فيقول للمبطلين « أأمِنْتُمْ مَنْ فِى السماءِ أنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأرْضَ فإذَا هِىَ تَمُور ؟ » [٣] أى هل أمنتم العدالة السماوية أن تحيط بكم وبأموالكم وقصوركم

(١) سورة الملك ، آية ١٢ .
(٢) سورة الملك ، آية ١٥ .
(٣) سورة الملك ، آية ١٦ .

فإذا بها تمور وتندكّ تحت أقدامكم ؟ أم أمنتم هذه العدالة السماوية أن ترسل عليكم حاصبا من الريح ، لتعلموا إذن كيف يكون العذاب ، وكيف تكون النذر ! ثم تتجمع قوى الحقّ بكل ما فيها من قوّة وجبروت ، لتصرخ فى وجه الظلم ، وهو ضعيف لاجند له ، وإنه وإن جاز للظلم أن يجند جنده ، فإنه جند فائل ، لأنه جند الشيطان ، فما يغنى شيئا أمام جند الرحمن ! ذلك هو معنى الآية « أَمَّنْ هَذَا الَّذِى هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ؟ ! إِنِ الكافِرُونَ إِلاَّ فى غُرُور » [١] .

ثم تقف الآيات وقفة يسيرة تجمل فيها كل ماتقدم من سطوة الحقّ وقلة الباطل ، ويُصوَّر فيها الحقّ قويا أبلج ، والباطل متهالكا أعرج ، يستند الحقّ على نفسه بوصف أنه حقّ ، ويتكئ الباطل على ما يدعيه من مستند ، فإذا هو ضعيف متخاذل يجرّ رجليه إذا مشى ، ويتحرّك فى مكانه ، يعتقد أنه يجرى وهو واقف ! كل هذا يُذْكر مصوّرا فى أبدع صورة فى هذه الآية قليلة الألفاظ ، كبيرة الأثر « أَفَمَنْ يَمْشِى مُكِبًّا على وَجْهِهِ أَهْدَى؟ أَمَّنْ يَمْشِى سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم » [٢] ! فالباطل يمشى متعثرا ، يخرّ على وجهه فى كل خطوة ، لتوعر الطريق ، واختلاف منحنياته وملتوياته ، أما الحقّ فهو أهدى وأرشد إلى المقصد ؛ فهو يمشى قائما مستقيما ، آمنا من الخبط ، سالما من العثار ، على جادة مستوية لااعوجاج فيها ولا انحراف .

ولكن الباطل مع هذا يتمادى ولايصدّق بجزاء أومسئولية ، ويقول متبجحا « مَتَى هَذَا الوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » ! يسكت الحقّ قليلا أو كثيرا ، ممهلا أحيانا ، مُمْليا للظلم أحيانا أخرى ، ثم يأخذه ولا يُفْلته ، ويومئذ يرى الظالمون عذابهم قريبا منهم ، وتحقّ عليهم كلمة الله « فَلَمَّا رأَوْهُ زُلْفَةً » قريبا منهم « سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُون » [٣] .

(١) سورة الملك ، آية ٢٠ .
(٢) سورة الملك ، من الآية ٢٢ .
(٣) سورة الملك ، من آية ١٧ .

وأخيرا تعلّم الآيات الناس الحقّ ، فما هو إلا توجيه الحواسّ إلى أحسن ما خلق الله ، وما هو إلا تقليب الأفئدة والتفكير فيما أوصلت إليه الحواسّ ، وما هو إلا شكر المنعم الذى أنعم على الإنسان بنعمة العقل ؛ وشكره فى ألا يستعمل العقل ضد ما يقضى به العقل « قُلْ هُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ » [١] . والحقّ من الله ، فلا بد من الإيمان بالحقّ إيماننا بالله ، « قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ ، وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ، فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ » [٢] ، وليس لهؤلاء المضلين المبطلين إلا أن نكرّر أمامهم أن جاههم ومالهم وعظمتهم لا تغنى عنهم من الله شيئا ، وأن نردّد أمامهم أبدا ما أُمر به الرسول أن يُرَدِّد فى وجوه الكافرين والمجرمين .

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا ، فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ » [٣] ؟!

---

(١) سورة الملك ، آية ٢٣ .
(٢) سورة الملك ، آية ٢٩ .
(٣) سورة الملك ، آية ٣٠ .

الزكاة تحل أكبر مشكلة اجتماعية

مشكلة المال ، أو مشكلة الفقر والغنى ، أكبر مشكلة اجتماعية دفعت الناس إلى التفكير ، ودفعت الناس إلى الحبّ أحيانا ، وإلى البغض أحيانا أخرى . وكما أن المال يمكن أن يكون مصدر خير وسعادة لصاحبه ، يمكن أن يكون سببا لنكد وشقاء صاحبه ، كذلك المشكلة الاجتماعية المتخلفة من المال فيها خير ، لأن المال مادة أساسية فى الحياة ، بل هو مادتها ، وفيها شر لأن المال هو الذى يولد الحزازات بين النفوس ، ومنه نشأت المشكلة العلمية الاجتماعية « مشكلة الطبقات » ، والمشكلة الخلقية « مشكلة العلاقة بين الغنىّ والفقير » . والمشكلتان قد يمتان مادام الناس مختلفين فى الذكاء ، وهو أداة التصرّف فى الحياة ، ومختلفين فى القُدَر وفى الطرق والأساليب . وقد عرضت هذه المشكلة فى زمن الرسول عليه الصلاة والسلام . فالمسلمون جميعا يصلون ويصومون غنيهم وفقيرهم ، ويمتاز الغنىّ على الفقير بالصدقة ، لأنه يملك المال ، والمال معين على المروءة ، ومعين على الإحسان ؛ والسلف الصالح من أغنياء المسلمين كانوا يخرجون عن أحبّ أموالهم إليهم ، طمعا فى ثواب الله وأجره ، وطمعا فى البرّ الذى لاينالونه إلا إذا أنفقوا مما يحبون ؛ والفقير يصوم ويصلى ، ولكنه لايملك مالاً يتصدّق به ، فهو غير قادر على الصدقة ، وهو لهذا محروم أجرها . فالمشكلة ظهرت فى أروع أشكالها وأجملها ، أعنى شكلها الدينى الخلقى ؛ فالمسلمون جميعا حريصون على الأجر والمثوبة ، والأغنياء فيهم الدين ولديهم الأموال يتصدّقون بها ؛ والفقراء فيهم الدين ويَحزُنهم ألا يجدوا ما يتصدّقون به . ذهب الفقراء إلى الرسول وشكوا إليه قائلين : « ذهب أهل الدثور بالأجور ، يصلون كما نصلى ، ويصومون كما نصوم » أى أن الأغنياء المتدثرين بالثياب الغالية غلبونا بالصدقة ، وزادوا علينا فى الأجور ، وهم يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ، وزادوا

علينا بالصدقة ! فأفهم الرسول عليه الصلاة والسلام الفقراء أنهم مخطئون فى فهم الأجر والمثوبة ، وأن الصدقة قد تكون بغير المال : « فإماطة الأذى عن الطريق صدقة » ، و « أن تحمل الرجل على حاجته صدقة » ، و « الكلمة الطيبة صدقة » ؛ فالصدقة لاتكون بالمال وحده ، بل إن صاحب الخلق الحسن ، إنما يتصدّق بكرم أخلاقه ، وبما يملك من المعونة ولو صغيرة ، وفى الأثر : « إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ، ولكن فليسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق » .

وعرضت المشكلة لرجال الكنيسة فى العصور الوسطى ، فأخذوا من أموال الأغنياء للفقراء ، باسم الإحسان وشراء النعيم فى الآخرة ، وكانوا لايسمون إحسانا إلا ما يجرى على أيديهم ، ولقد أفهموا الأغنياء أن الخطايا مهما عظمت ، إنما تغفر وتغتفر بالأموال ؛ فالغنىّ يستطيع أن يشترى القصور فى الجنة ، وأن يدفع ثمن الخطايا مالا فى الدنيا ، حتى يأمن العذاب فى الآخرة . وجاء القرن التاسع عشر بمادته وجبروته الاقتصادىّ ، فتبدّل الفكر ، وتبدّلت النظرية تبعا لذلك ، فما رضى العلماء عن الإحسان ، وعن كلمة الإحسان ، واستبدلوا بهذه الكلمة كلمات أخرى هى كلمات « الضريبة » والضرائب « الاجتماعية » و « العقود الاجتماعية » التى عقدتها الطبيعة بين الغنىّ والفقير .

وظهرت نظرية « الحقّ التقريبى » فى القرن الماضى وفى أوائل هذا القرن على يد العلامة الفرنسى « ليون برجوا » الذى قرّر للفقر والفقراء ضريبة اجتماعية تأخذها الدولة ، وتعاقب عليها من يقصر فى أدائها ؛ ولكن هذه الحلول المادية أغرت الناس بعضهم ببعض ، وتطاول الناس بعضهم على بعض ، ولا تزال الحزازات حية ، لأن الحلول التى عضت لفضّ مشاكلها حلول مادّية تجبر ولا تثبر ، وتقسر اليد ولا

تحرّك الضمير ، فظهر مذهب النفعيين الذى يقول : ليس لسلطة أيا كان مصدرها من الدين والاجتماع أن تجبر الغنىّ على أن يدفع شيئا للفقير .

لنقف إذن قليلا لنعرف حلّ الإسلام لتلك المشكلة الكبرى ، فقد حلها فى كلمتين الأولى باسم الأخلاق ، والثانية باسم الحقوق ؛ فمن الناحية الخلقية قرن الله التقوى بالبرّ ، فقال : « وَتَعاوَنُوا على الْبِرّ وَالتَّقْوَى »[1] والتقوى : رضا الله ، والبرّ : رضا الناس ، وقرن العطاء بالتقوى . فقال : « فأمَّا مَنْ أعْطَى واتَّقَى وَصَدَّقَ بالحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لليُسْرَى . وأمَّا مَنْ بَخِلَ واسْتَغْنَى . وكَذَّبَ بالحُسْنَى . فَسَنُيَسِّرُهُ للعُسْرَى . وَما يُغْنِى عَنْهُ مالُهُ إذَا تَرَدَّى »[2] ، ثم أجزل الدين العطاء للأتقى والأعطى « الَّذِى يُؤْتِى مالَهُ يَتَزَكَّى . وَما لأحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إلاَّ ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأعْلَى . وَلَسَوْفَ يَرْضَى »[3] ووعد البخيل بالشرّ ، وبأنه سيطوّق بماله ويكوى به يوم القيامة .

والكلمة الثانية فى الحقّ المعلوم « والَّذِينَ فِى أمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُوم . للسَّائِلِ والمَحْرُوم »[4] والحقّ الدين وهو واجب الأداء ؛ وفهم الفكرة أبو بكر رضى الله عنه لما امتنع بعض الناس عن الزكاة بعد موت الرسول ، وأراد أبو بكر قتالهم ، وخالفه عمر ؛ فعمر يرى أنهم مسلمون بالشهادتين ، وأن الشهادتين تعصم دماءهم ، أما حسابهم فعلى الله ، ويُقسِم أبو بكر على قتالهم ! ويرجع عمر ويقول : « فوالله ماهو إلا أن قد شرح الله صدرى لما شرح له صدر أبى بكر فعرفت أنه الحقّ » .

والزكاة متعددة فى الدين الإسلامى ، منها : زكاة المال ، وزكاة الزروع ،

---

(١) سورة المائدة ، من الآية ٢ .

(٢) سورة الليل ، الآيات ٥ وما بعدها .

(٣) سورة الليل ، الآيات ١٨ وما بعدها .

(٤) سورة المعارج ، الآيتان ٢٤ و ٢٥ .

وزكاة التجارة ، وزكاة النفوس ، فالزكاة تخرج بصاحبها عن أنانيته ، وتنقلب بها نفسه إلى ربها ، وزكاة الفطر من زكاة النفس، يدفعها كل فرد قادر عليها ، حتى الوليد الذى استهلّ صارخا متى أدركته الحياة قبل عيد الفطر، يدفع عنه وليه الزكاة ، فإلى جانبه وليد لأبوين فقيرين لا يجدان ما يغذيانه ، وهكذا يتعرّض الدين الإسلامى لحلّ مشكلة من أكبر المشاكل الاجتماعية حار فيها الناس قديما وحديثا ، وكانت العقبة فى تقدّم الإنسانية ، فطلب الدين من المسلم اقتحام العقبة ، وهى فكّ رقبة من رقّ أو دَيْن ، أو إطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة ، أو مسكينا ذا متربة ، فالمؤمنون هم أصحاب الميمنة ، وهم الذين يتواصون بالصبر ، ويتواصون بالمرحمة .

ابن خلدون

١ – رجل الاجتماع فى العصور الوسطى

ابن خلدون، علم من أعلام الإسلام، بل أشهر من أنجبهم القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) فى الغرب الإسلامى، والغرب الأوربى. ففى النصف الأول من القرن الرابع عشر كان الشرق الإسلامى مترنحا من أثر الضربة التى أصيب بها، على أثر هجوم التتار من الشرق، وكان الغرب الإسلامى يعانى الأمرّين من أمره. فالفرنجة تتعقب ملوكه ودويلاته فى الأندلس، والدويلات الإسلامية فى الأندلس وفى أفريقية تعانى كثيرا من التناحر فيما بينها. وابن خلدون، وليد هذه الحقبة، فقد ولد فى سنة ٧٣٢ هـ الموافقة لسنة ١٣٣٢ م، نشأ فى أسرة عريقة فى المجد، عرفها الأندلس منذ القرن الثالث الهجرى، وكان أبوه فاضلا تلقى عليه العلم والمعرفة أول ما شدا، فحفظ القرآن وقرأه بالقراءات، وتفقه فى التفسير والحديث وعلوم اللغة، على أشهر رجال عصره من علماء تونس وعلماء الأندلس الذين دفعتهم السياسة دفعا إلى إفريقية.

كان القرن الثامن الهجرى مليئا بالمفاجآت بالنسبة للدول الإسلامية التى تتنازع على الأمر فيما بينها؛ ففى المغرب الأقصى تقوم الدولة «المرينية»، وفى تونس دولة «الحفصيين»، وبينهما دويلات وإمارات صغيرة استقلّ بها بعض الأمراء؛ وابن خلدون يتطلع إلى الأحداث كما يتطلع الربان الماهر إلى ناحية النجاة بسفينته، أو كما تتطلع الطاحونة إلى الناحية التى يأتى منها الهواء ليدفعها، وكان هواه هو وأسرته مع بنى حفص أمراء تونس، ولكنه لما رأى تغلب المرينيين عليهم، وهجرة العلماء إلى المغرب الأقصى ليعيشوا فى جانبهم، حوّل وجهه نحو هذه الناحية، فأقام فى «فاس»، واستفاد من علماء الأندلس الذين كان يعجّ بهم بلاط السلطان «أبى سعيد» كما ظهر عليهم فى كثير من المسائل التى تدور بها المحاورة والمناظرة، وهو بعد فتى لم يتجاوز العشرين إلا قليلا.

يرى ابن خلدون أن مجال العلم أضيق من أطماعه ، وأن فى السياسة متسعا لذكائه وحسن تصرّفه ، والسياسة والعلم إذا اجتمعا ، كان لصاحبهما ما يريد ؛ ولكنه يسجن ويلبث فى السجن عامين ، وتهيج شاعريته ، فيرفع إلى السلطان قصيدة طويلة فى مائتى بيت ، يشكو فيها دهره ، ويندب حظه ويشيد بوفائه ، ولا ندرى أيندب وفاءه للحفصيين أو للمرينيين ، فهو قريب بعيد ، وبعيد قريب .

كفى حزنا أنى على القرب نازح وأنى على دعوى شهودى غائب
وأنى على حكم الحوادث نازل تسالمنى طورا وطورا تحارب

ثم يقيم ابن خلدون فى هذه الدولة منتهزا الفرص ، يتنهزها ولا يبالى بالدافع إليها ، فغايته تبرّر الواسطة ، وكان هذا مبدؤه فى جميع تصرّفاته ، وأخيرا يتولى وظيفة « كاتب السرّ والإنشاء » ، فتظهر مواهبه ، ويميل إلى الترسل ، ويهجر السجع ، ولا يتزمت عند وقفاته التى تكون غالبا على حساب المعنى وجانب اللفظ ، وفيه يقول صاحب الإحاطة فى أخبار غرناطة : « بعد المغرب الأقصى ذهب إلى الأندلس فى بلاط غرناطة ، ثم هجرها بعد منافسة شديدة بينه وبين وزيرها « ابن الخطيب » الشاعر الكاتب المعروف » .

واستمرّ يتردّد بين السياسة والعلم حتى بلغت سنه الخامسة والأربعين ، ولكنه أكبّ على مكاتب المغرب والأندلس ، وكتب « المقدمة » فى مكان منعزل فى خمسة أشهر ، ثم كتب تاريخه[1] ، وعزم على ترك السياسة جملة ، وسافر بين البكاء والأسى من تلاميذه .

ها هو ابن خلدون ينزل الإسكندرية فى عيد الفطر سنة ٧٨٤ هـ ، رجلا مكتمل القوّة ، ناضج العقل ، موفور النشاط ، فى الثانية والخمسين من عمره ، ثم لا يلبث فيها أكثر من شهر ، ويقصد إلى العاصمة الأولى ، بل إلى عاصمة الدنيا التى يعرفها فيصفها ويقول : « رأيت حاضرة الدنيا ، وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج الذرّ من البشر ، وإيوان الإسلام ، وكرسىّ الملك » ، إلى آخر ما قال . حيّته القاهرة

(١) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر .

كما حياها ، فانثال عليه الطلبة انثيالا ، ودرّس « بالأزهر » ، وسمع الأزهر للمرّة الأولى النظريات العلمية العمرانية ، والنظريات فى أسس الملك ، ونشأة الدول ، ويشهد له « المقريزى » و« الحافظ ابن حجر » والأوّل عالم من علماء تخطيط البلدان ، والثانى من علماء الحديث ، وكلاهما مجمع على أن الضيف الكريم كان لسنا فصيحا ، حسن الترسل ، مع معرفة تامة بالأمور .

وكانت المدارس إلى جانب الأزهر لخاصة العلماء ، فعين « ابن خلدون » أستاذا بالمدرسة « القَمْحِية » يجتمع العلماء والفقهاء والطلاب ، ليستمعوا إلى هذا العلم العجيب ، وإلى هذا العِلم الغريب ، شريعة وتفسير ، وحديث وأصول ، واجتماع وعمران ، وتاريخ وبلدان ، كل ذلك فى عبارة سلسة أنيقة ، وفى تفكير مفيض ، على لسان مطاوع ، ثم ينفضّ الاجتماع على الإعجاب ، وينظر إليهم ابن خلدون نظرة الشاكر المعترف بالجميل ، ويقول عن أهل مصر : « أولونى عناية وتشريفا ، وغمرونى إحسانا ومعروفا ، وأوسعوا همتى إيضاحا ، ونكرتى تعريفا » .

يتولى القضاء إلى جانب التدريس فى مصر ؛ فيحكم بالعدل ، ويقضى على الشفاعات ، يمحص الحقّ على ألسنة المبطلين من شهداء الزور ، ويذلّ من اعتزّ باتصاله بالسلاطين والأمراء . هذا الخلق المتين أحفظ عليه الضعفاء فنا لوامنه ، وعزّ على العلماء أن يتولى فيهم القضاء غريب مالكى والقضاء فى هذا الزمن للشافعية ، ولهم عصبيتهم ولهم نفوذهم ، وفى أيديهم السلطة العليا بعد أن ثبّت « صلاح الدين » قواعد المذهب .

وإلى جانب اشتغاله بالعلم لم ينس اشتغاله بالسياسة ، فكان يعقد الصلات بين المصريين والمغاربة ، ويراسل سلاطين تونس ، ليرسلوا الهدايا إلى سلاطين مصر ، حتى تثوثق الصلات ، وتعقد الأواصر بين البلاد العربية . ويفخر ابن خلدون بهذا المسعى السياسى بين الأمم العربية « من السعى فى الوصلة الثابتة على الأبد » ، ثم تضطرب مصر بأخبار تيمورلنك وانقضاضه على الشام .

فيخرج ابن خلدون مع الجيش المصرى ، ويعمل على الدخول على الطاغية فى خيمته ، ويتحدّث إليه ويتمكن منه ، ويُجنّب البلاد شرورا كانت تؤذى مصالح البلاد لولامسعاه .

ولنرجع الآن إلى الأثر العلمى الذى خلفه ابن خلدون .

٢ — ابن خلدون والفلسفة الاجتماعية

أثره فى النثر العربى : أحدث « ابن خلدون » أثرا جديدا فى النثر ، فقد جافى فيه قبل أن يحضر إلى مصر طريقة السجع الذى يكره المعانى على قبول ألفاظ لاصلة له بها ، بل يكره الألفاظ إكراها على زَجّها فى العبارة لمجرّد الجرس والصوت والتوازن . وكان أثره فى مصر أبلغ ، لما أقامت عليه البلاد منذ دولة « صلاح الدين » من الجرى على طريقة « القاضى الفاضل » و « العماد الكاتب » اللذين أكرها التاريخ إكراها على قبول المحسنات البديعية ، فضاعت حقيقة التاريخ فى حلية الألفاظ .

وكان أثره فى التاريخ ، لايقلّ عن أثره فى الأدب النثرى ، فلم يرض أن يكون التاريخ سرد وقائع من غير معرفة الأسباب والنتائج ، ونقد من سبقه من المؤرّخين الذين يندفعون فى قصَص لايقبله العقل ، لمخالفته للقوانين الطبيعية ، ولا يقبله المنطق ، لما فيه من تهويل ومفاجأة . كما لاحظ أن الغرض والهوى ، والتشيع للفكرة والمذهب ، يفسدان على المؤرّخ الحقيقة والطريقة ؛ وقرّر ما قرّره علماء أوربا بعده بخمسة قرون ، من ضرورة التعميم فى دراسة التاريخ ، ومراعاة القوانين الطبيعية والبيئات المختلفة التى يمكن أن تترك تأثيرها الخاص فى كل أمة .

يقول « سنيوبس ولانجلو » فى مقدمتهما للدراسات التاريخية : « ليس التاريخ دراسة العلاقات بين الحوادث ، إنما هو التعرّض للحقيقة كما هى ، وفى حدّ نفسها ، بالشرح والإيضاح » وهى كلمة تتلاقى مع ماقرّره المؤرّخ الإسلامى فى عبارته الآتية مع شرح وتوسعة « حقيقة التاريخ أنه خبر عن المجتمع الإنسانى ، الذى هو عمران

العالم، ومايعرض لطبيعة هذا العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس، والعصبيات وأصناف التقلبات للبشر بعضهم على بعض ، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع ، وسائر ما يحدث فى ذلك العمران بطبيعته من الأحوال » . فالتاريخ فى نظر « ابن خلدون » « نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق » ، وهو ينعى على المؤرّخين الذين « يذهلون عما أحالته الأيام من الأحوال ، واستبدلت به من عوائد الأمم والأجيال ، فيجلبون الأخبار عن الدول ، وحكايات الوقائع فى العصور الأول ، وصورا قد تجرّدت عن موادّها، وصِفاحا انتضيت من أغمادها ، ومعارف يستنكر للجهل بطارفها وتلادها ؛ إنما هى حوادث لم تعلم أصولها ، وأنواع لم تعتبر أجناسها، ولا تحققت فصولها » . وابن خلدون يريد المؤرّخين على البحث عن البيئة الجغرافية للتاريخ ، فيبحث فى المعاش والاعتمال فى تحصيله ، ويبحث عن الافتقار إلى الغذاء والتماس طلبه ، ويبحث عن التساكن والتنازل فى مصر أو حِلة ، وعن أثر السكنى فى الضواحى والجبال ، والحِلل المنتجعة فى القفار ، وأطراف الرمال . وتلك نظرة تقدّم بها ابن خلدون عصره ؛ فالدراسة التى تعنى بالساكن على الأرض ، ولا تعنى بالبيئة التى يعيش فيها وعليها الإنسان ، دراسة منتقدة من كثير من المؤرّخين ؛ واستمع إلى ما يقوله الفيلسوف الفرنسى « مشليه » تجد كأنه يستملى « ابن خلدون » فيما قصد إليه « من غير دراسة الجغرافيا ، نؤرّخ لشعوب تمشى فى الهواء ، كما يصوّرها لنا الفنّ الصينى الذى يرسم رجالا فى الجوّ ، إن الغذاء والجوّ وغيرهما يؤثر على الإنسان ، فكيفما يكن العيش ، يكن الطائر ؛ وكيفما يكن الوطن ، يكن المواطن » .

وأخيرا ، يجمل ابن خلدون دراسته للتاريخ فى هذه المبادئ الأربعة ، التى تعتبر معالم للنقد التاريخىّ والاجتماعىّ ، فالمؤرخ والباحث الاجتماعىّ فى نظره ؛ يجب أن يحترس من أمرين ، وأن يلتزم أمرين ؛ فيحترس أوّلا من « التشيعات للآراء

والمذاهب، وأن النفس إذا كانت على حال الاعتدال فى قبول الخير، أعطته حقه من التمحيص والنظر، حتى يتبين صدقه من كذبه ». ويحترس ثانيا من أن يذهل المؤرّخ عن القصد، فكثير من الغافلين على حدّ عبارته « لايعرف القصد مما عاين أو سمع، وينقل الخبر على ما فى ظنه وتخمينه، فيقع فى الكذب ». ويلتزم أوّلا معرفة طبائع العمران، فإن كل حادث من الحوادث ذاتا كان أو فعلا لابدّ له من أحواله، فإذا كان السامع عارفا بطبائع الحوادث والأحوال فى الوجود، وفى مقتضياتها، أعانه ذلك فى تمحيص الخبر. ويلتزم ثانيا « تطبيق الأحوال على الوقائع لأجل ما بداخلها من التلبيس والتصنع فينقلها المخبر كما رآها، وهى بالتصنع على غير الحق نفسه.

تلك هى الحيدة العلمية التى يطلبها النقاد الآن فى التفكير الحديث.

أما منهجه فى علم الاجتماع فهو واضح من المقدمة، فلم يرد أن يفهم الاجتماع على أنه فلسفة تاريخية فقط، بل على أنه علم قائم بنفسه، له موضوعه، وله قواعده، وله مناطق نفوذه، فهو يفرّق بينه وبين الخطابة من جهة، وبينه وبين السياسة المدنية من جهة أخرى، لأن « السياسة المدنية هى تدبير المنزل أو المدينة، بما يجب بمقتضى الأخلاق والحكمة، لحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه ». وكأنه فى ذلك يردّ على « الفارابى » الذى ذكر كثيرا من السياسة المدنية تحت اسم الاجتماع والتعاون؛ فعلم الاجتماع فى نظره « هو النظر فى الاجتماع البشرىّ الذى هو العمران، وتمييز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه، وما يكون عارضا لايقيد به، وما لايمكن أن يعرض له ». وتتلافى عبارة « أوجست كونت » بعد خمسة قرون مع ما ردّده الفيلسوف المسلم حينما يقول: « « إن الظواهر الاجتماعية هى ظواهر طبيعية، خاضعة لقوانين طبيعية خاصة بها ». وأخيرا، وفى طريقة علمية طريفة، يحدّد « ابن خلدون » موضوعه فى المقدمة، ويحصره فى ستّ النواحى الآتية، ومن الغريب أن كل ناحية فيها تتصل بباب يدرسه علم الاجتماع الحديث دراسة

إن كان له فضل استيفائها ، فإن الفضل يظلّ ثابتا لابن خلدون لتبويبها ، بل وابتكارها .

الفصل الأوّل : فى العمران البشرى على الجملة وأصنافه وقسطه على الأرض ، وهو ما يسميه علماء الاجتماع الآن Sociologie générale ، أو علم الاجتماع العامّ والفصل الثانى : فى العمران البدوى ، وذكر القبائل ، والأمم الوحشية ، وهو مايسميه علم الاجتماع اليوم Sociologie primitive، أو المجتمعات البدائية . والفصل الثالث : فى الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية ، وهو ما يسميه علم الاجتماع اليوم La Sociologie politique ، أو الاجتماع السياسى . والفصل الرابع : فى العمران الحضرى ، والبلدان والأمصار ، وهو ما يسميه العلماء اليوم L'urbanisme ، أو علم تخطيط المدن والبلدان . والفصل الخامس : فى الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه ، وهو ما يسمى اليوم Sociologie économique ، أو علم الاجتماع الاقتصادىّ . والفصل السادس : فى العلوم واكتسابها وتعلمها ، وهو ما يسمى الآن بالاجتماع الجمالى الذى يبحث فى العلوم والفنون واكتساب ملكاتها . لاحرج علينا إذن إذا أقررنا بالفضل لابن خلدون ، ولا حرج عليه إذن إذا افتخر وقال : إنه واضع علم جديد ، وأنه أول من بوّبه ، على أنه « علم مستقلّ بنفسه ، ذو موضوع خاصّ هو العمران البشرىّ والاجتماع الإنسانىّ ، وذو مسائل خاصة هى بيان ما يلحظه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد أخرى » . ولنا إذا قالت أوربا : إن أوجست كونت الأب الأوّل للاجتماع ، أن نتردّد أمام هذه الكلمة لنذكر دائما « ابن خلدون » .

ونختتم كلمتنا هذه بكلمة قالها عالم أوربى منصف : « لقد أردنا أن ندلل على أنه قبل « أوجست كونت » ، بل قبل « فوكو » الذى أراد الإيطاليون أن يجعلوا منه أوّل اجتماعىّ أوربىّ ، جاء مسلم تقىّ ، فدرس الظواهر الاجتماعية بعقل متزن ، وأتى فى هذا الموضوع بآراء عميقة ومالية ، هو ما نسميه اليوم علم الاجتماع » .

محمد عبده

رجل الاجتماع فى العصر الحديث

هناك فى قرية صغيرة من أعمال مديرية البحيرة تدعى « محلة نصر »، نشأ طفل كما ينشأ كل الأطفال القرويين على الحرية ، وانطلاق الريف ، انطلاقا يوائم الطبيعة بمقدار ما يتجافى مع التكلف والتصنع اللازمين للتربية المدنية ، ولكن هذا الطفل لم يكن ككلّ الأطفال تماما ، فقد كان والده والقريبُ منه يلمح فيه إباءً يصل إلى درجة العناد ، فبعد أن أقرأه أبوه القرآن ، وجهه إلى الجامع الأحمدىّ ليطلب العلم ، فكان أوّل ما طالع منه ، عاملا من عوامل انصرافه عنه ، فالطفل يريدُ أن يُعمل عقله ، ويُغذىَ قلبه ، ولم يجد فيما تلقى ما يحرّك فكره أو يغذى عاطفته . يَصعُب أمرُ الطفل ويظهر عليه العناد ، فيلجأ إلى الشيخ « درويش » أحد أخوال أبيه ، وهذا يستشفّ ما فى نفسه ، ويطلعه على شىء من التصوّف ، فتقبله نفسه الغضة ، وتركنُ إليه ، ويستسلم لله وللحياة ، وتجرى الأمور كما أرادها الله وأرادتها الحياة .

يدخل « محمد عبده » الشابّ « الجامع الأزهر » فيُكِبُّ على العلوم الشرعية والعقلية ، ويرى فى الأخيرة توجيها لعقله ، وتصحيحا لدينه ، فيزداد لها تحصيلا ، وعليها انكبابا ؛ اشتغل بالمنطق ، ودرس « المقولات » وكلها ثقافة يونانية كتبها صاحبها قديما ليصحح بها أفكار السوفسطائيين ، وأكبّ عليها المسلمون فى العصور الوسطى ، متخذين منها أسلحة للحوار والجدل ، وأكبّ عليها الشيخ محمد عبده وهو الرجل الذى يَشعُر من نفسه بقوّة الحجة ونصاعة البيان . وقرأ إلى جانبها كتاب « العقائد النسفية » « للتفتازانى » وهو الكتاب الذى يعتزّ به الأزهر ، ويجعلُ دراستَه وقفا على كبار العلماء ، لذلك لم يقبل الأزهر أن يجلس طالب من صغار طلابه يُحلِّق للكتاب ، ويحلق فى أجواء الكتاب ، فكانت جرأة شيخنا موضعا لحوار بينه وبين الشيخ

« عليش » من كبار رجال الأزهر ، وممن تولى الشأن فى تصريف أموره . ويجرى الحوار بين الشيخ والطالب ، يدفع الأول حِرصُهُ على العلم ، ويدفع الثانى شعوره بالنبوغ الذى يجب ألا تقف به أية اعتبارات من السن والتقاليد !

الشيخ عليش : بلغنى أنك تقرأ « شرح العقائد النسفية » درسا ؟ !

الطالب يستخذى ، وما يزيد على الإجابة بنعم !

الشيخ مشدّدا النكير : «ولكن بلغنى أنك تُرجح مذهب المعتزلة على مذهب السنة !

الطالب رافعا رأسه : « أنا أترك التقليد ، وآخذ بالدليل !

الشيخ متعجبا من جرأة الطالب : « أوَ مثلك يفهم شرح العقائد ؟ !

الطالب يثور ويستنجد الحقّ والواقع ، ليقول للشيخ « الكتاب موجود وأنا موجود فسلنى إن شئت ! » .

يسلّم الشيخ أمره لله فى هذا الطالب ، ويدعو له فى قلبه ويُرضّيه بأنه إنما يخشى عليه من نظرائه !

يصبح الفتى شيخا ، ويتقدّم للامتحان كما يتقدّم الشيوخ ، وتتحفز الهمم لإعجازه ، وتختلف العقول فى تقديره ، ويخرج فى كل حال فائزا بالعالمية ، ولكن من الدرجة الثانية !

لم يقف الشيخ « محمد عبده » عند حدّ ما تعلمه فى الأزهر ، فقد نظر فى العلوم الحديثة ، وخصّ منها بعنايته ما يمسّ الأخلاق ، وعلم النفس ، والتاريخ ، والفلسفة وأصول الاجتماع ، والتربية . وأحسّ فى الوقت نفسه بأن أداة هذه الثقافة تنقصه ، وهو لايريد أن يكتفى بما يتلقفه من أفواه العلماء العارفين باللغات ، وإنما يريد أن يعرف اللغات من أهلِها ، وزادت حاجته إلى هذه اللغات لما جلس مستشارا قضائيا بين المستشارين المصريين والأجانب ، فتعلم الفرنسية ولم يبتدئها ابتداء الصغار ، بل هجم عليها فى كتبها ، وكانت كتبُ « الكسندر دوماس » أوّلَ ما توجهت إليه همته . ومن كلامه فى فائدة تعلم اللغات : « لايمكن لأحد أن يدّعى أنه على شىء

من العلم يتمكن به من خدمة أمته ، ويقتدرُ به على الدفاع عن مصالحها كما ينبغى ، إلا إذا كان يعرف لغة أوربية ، كيف لا ، وقد أصبحت مصالح المسلمين مشتبكة مع مصالح الأوربيين فى جميع أقطار الأرض ؟ وهل يمكن مع ذلك لمن لايعرف لغتهم أن يعمل للاستفادة من خيرهم ، أو للخلاص من شرّ الشرار منهم ؟ !

لابدّ لكل متكلم فى الشيخ « محمد عبده » أن يتكلم فى شيخه « جمال الدين الأفغانى » تقلّبت أحداث سياسية بهذا الشيخ الجليل ، والفيلسوف الإسلامى العظيم فى بلاد ، فهجرها وركب إلى « السويس » وحطّ رحله فى ربوع البلاد المصرية ، وأكرمته مصر كما أكرمته غيرها من البلاد الإسلامية . وسمع به شيخنا فاتصل به ، وعرف الشيخُ من تلميذه ذكاءه النافذ ، وقدرته المعجبة فى التعبير والتحبير ؛ والدعوة الاجتماعية تستند إلى اللّسَن فى الخطابة ، وعلى القلم فى الكتابة ، وهما موفوران معا فى « محمد عبده » وبدرجة يشعر معها الأستاذ تفوّق الطالب ، فقرُب الطالب من الشيخ ، وأحبّ الشيخ طالبه ، وكان من هذه القربى كلُّ ما ينتظره العالم الإسلامى من تغيير الحال ، وانتعاش الآمال . كان « الأفغانى ومحمد عبده » رجلَيْن يتمم أحدهما الآخر ، فكان الشيخ ثائرا ، وكان التلميذ أهدأ ثورة ، كان الشيخ فيلسوفا وحكيما ، وكان التلميذ فيلسوفا اجتماعيا ، كان التلميذ أحسنَ مداورة وأقلّ عنتا من الشيخ ، كان الشيخ عالما مفكرا ، وكان التلميذ خطيبا مقرّرا ، فكان من الرجلين رجلٌ واحد تجمعهما فكرة نهضة العالم الإسلامى فى نهاية القرن التاسع عشر ومستهلّ القرن العشرين .

التفّ حول الرجلين كثير من رجالات مصر من أمثال « سعد زغلول » و « اللقانى » و « حفنى ناصف » — و « حسن عبد الرزّاق » ، وكان هؤلاء وأمثالهم ممن تولّوْا أسباب النهضة ، ووزّعوا العمل لتحقيقها فى مُختلف النواحى الأدبية والسياسية ، والأخلاقية والاجتماعية ، فان أردت مثالا لما توفّرَ عليه الشيخان ، الأستاذ والطالب ، فاقرأ ما بقى فى أيدينا من مجلة « العروة الوثقى » فقد كتبا فيها عن

الإسلام ، والجنسية ، وأبانا أن الإسلام لا يعرف التعصب ، لأنه لا يعرف العصبية التى جبَّها ، وأحلّ محلها فكرة الفضيلة والتّقوى ؛ وكتبا عن المتفرنجين ، والمقلدين ليبينا أن العالم الإسلامى لم يعرفْ بعدُ نقطة الارتكاز التى تتجمع فيها قوميته ، فهو يأخذ من هنا ومن هنا ، على غير هدى ، وعلى غير تفكير ؛ وكتبا فى القضاء والقدر ، أو فيما يسميه علماء الاجتماع المحدثون « المحدودية ، واللامحدودية » ، وأبانا الفرق بين الجَبْر ، والقضاء ، وأن الجبر خنوع واستسلام ؛ أما القضاء فدافع من الدوافع التى يضع بها المؤمن رأسه أمام عقيدته ، لا يبالى على أىّ جنب كان فى الله مصرعُه .

وأخيرا ، يخرج الشيخ « محمد عبده » بعد هذا الكفاح الطويل المرير بفكرة أن تُكِبَّ كل بلد من البلاد الإسلامية على شئونها تصلح دخائل بيتها ، حتى إذا استكمل كل فرد من أفراد الأسرة صلاح حاله ، اجتمع الإخوة على الصلاح الشامل ، وعلى ما ينبغى أن يكون عليه .

كان رحمه الله يرى أن العلم هو كل شىء ، وهو ما أوصل أوربا إلى ما هى عليه ، ولكنه كان يتألم من هذه المادية القاتلة التى وقعت فيها أوربا ، وأوقعت الناس فى شرورها تحت تأثير خضوعها للفلسفة الواقعية « وللمادية التاريخية » ، فأبان الإمام لا لمصر وحدها ، ولا للعالم الإسلامى وحده ، بل لأوربا أيضا أن الإنسان مادّة وروح ، وكذلك يجب أن تكون غايةُ الأعمال التى يتوجه بها الناس إلى هذه الإنسانية ، يجب فى هذه النهضة الجديدة أن تكون مادية وروحية معا ، فيعمل الأخلاقىّ إلى جانب الرجل السياسى حتى يحدّ من أطماعه ، ويُخفف من غُلَوائه ، ويُبعدَه عن هذا التسلط المادى الذى يجرّ وراءه الهلاك والدمار ؛ ويجب أن يستهدى الرجل الاقتصادى المذاهب الخلقية ، حتى يتحرّر علم الاقتصاد من هذه الأثرة الممقوتة التى تُشبع رغائبه على حساب ما يحتاج إليه الناس من مستلزمات حوائجهم الضرورية ، وهكذا كان رده على « هانوتو » فى مقالاته التى نقلتها جريدة المؤيد المصرية عن جريدة « الجورنال » الفرنسية ، وكان ردّه بردا وسلاما على هذه الأفكار الثورية التى دعت إليها المادّية

فى القرن التاسع عشر ، بل كان من الشيخ « محمد عبده » أن اعترف بما فى بعض مقالات خصمه من حقّ ، فاتخذ منها دعاية واسعة لِلَفْت أنظار العالم الإسلامى إلى ما يجب أن يُصلح به شئونه حتى يساير النهوض فى الأمم الناهضة .

لذلك وجه عنايته للتعليم فدرس وحاضر ، وكتب وقرّر ، ودافع ونافح ؛ يلتفت إلى العظماء مرة ليعلمهم معنى عظمة النفس، ومعنى الانتفاع بالجاه، ويلتفت إلى العلماء فى أوربا فيَقْرُب من المنصفين ، ويشتدّ على المعتدين ؛ زار سبنسر فى انجلترا ، وكان رجلها فى التربية والاجتماع ، وكُرّم فى جامعة « كمبردج » ، ورحّب به وكتب عنه المستشرق براون » بما يُشَرّف الشرق ، ويَشْرُف به الشرقيون ؛ وزار فرنسا وقدّم الشكر جزيلا لصاحب « حضارة العرب جوستاف لوبون » وهو بعد ذلك يَلْتفِت إلى الشعب فيعلمه ، ويقدّم برنامج التعليم للأتراك وللسوريين ، وللمصريين ، ويقف خطيبا فى حفلات الجمعية الخيرية ، فيخاطب الشعب ، ويوجه أنظار العظماء إلى الشعب ، ويقول : « إن عناصر الخير لابدّ أن تغلب جراثيم الشرّ الذى أصيب به الناس فى البيئة الفاسدة ، لأن الحقّ يَغْلِب الباطل دائما ، ولأن الخير يصرع الشرّ ، إلا إذا اضمحلّ أنصار الحقّ ودعاة الخير ، وضاعوا فى كثرة الأشرار » .

كان رحمه الله عبقريا ، والعبقرىّ لا يُخلق لزمنه ، بل يخلق للزمن بعده ؛ والعبقرىّ لا يُخلق لقومه ، ولكن للناس ؛ وكذلك كان الإمام ، سيبقى فى الزمن ، وسيذكره الزمن ، وسيبقى ذكره لا فى مصر وحدها ، بل فى جميع البلاد العربية والإسلامية ، وفى الحديث الشريف : « خَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ للنَّاس » .

محمد رسول الله

عظمة الرسول

سئل الفريد دى ڤينيتى عن العظمة فقال : « إنها اتجاهات فى الطفولة والشباب تتحقق أفكارا فى الرجولة » .

ولسنا فى حاجة إذ نتحدّث عن الرسول عليه الصلاة والسلام أن نستدلّ على عظمته بأقوال الحكماء والعظماء ، ولكن العظيم فى الأمر أنه ما من تعريف للعظمة حدّده العلماء والفلاسفة فى القرن العشرين وما قبله ، حينما حدّدت معالم العلوم واستقامت أفكارا وآراء ، إلا وجدنا هذا التعريف ينطبق على صاحب الرسالة ، الذى نعتزّ بالانتساب إليه ، ونحمد الله الذى وفقنا إلى هديه ، والإيمان برسالته .

وسواء أكانت العظمة طبيعية تنشأ فى الخِيم ، وتظهر فى المنبت ، أم مكتسبة يستلها العظيم من الزمن استلالا يُخضع فيه الطبيعة إلى ما يريد ، فان صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام عظيم بطبعه ، عظيم بميوله واتجاهه ، عظيم بتلك الأفكار التى حملها ، وحمل عليها الناس ، والتى جاءت مصدّقة لما جبل عليه طبيعة وأصالة من صفات إنسانية راقية ، هى من رعاية الله ، وفيض فضله الذى أدّبه ، فأحسن تأديبه ، والذى آواه بعد يُتْم ، وهداه إلى الحقّ وهو يعيش فى أتياه الجاهلية ، وأغناه من عَيلة لم يسأل معها إلا ربه ، ولم يركن إلا إليه ، ولم يعتزّ بغير جانبه ، ولم يستند لغير مسنده . نعم المولى ونعم النصير .

كان طفلا لا كالأطفال : كان لعبه جدّا ، وكان تطلعه إلى السماء ، يرى فيها خبرا ، وينتظر منها أمرا ، يجمع الأطفال على رأيه ، وينزلون عند مشورته ، يرون فيه صغيرا الكبير الذى يشير فيطاع ، وحصيف الرأى الذى يرى ، ولا يمارونه على ما يرى ، كان طفلا دقيق الغريزة حساسها ، لم يتكالب كما تتكالب الأطفال ، ولم يشره شرههم ، ولم يحتدّ حدّتهم ، ولم يزوّر غاضبا كما يغضبون ويزوّرون ، قد خلصه الله من علقة الشيطان ، وصفاه من النقيصة ؛ فأعدّه لما سيكلف به من

حدث الأحداث ، وجلل الأمور ، وصعب المسالك : فنشأ كما أراد الله وكما أراد لنفسه ، مهذّب الغريزة ، صادق الحسّ ، لماح الذهن صافيه ؛ رباه فأحسن تربيته ، وأدّبه فأحسن تأديبه ، فيانعم المؤدِّب والمؤدَّب ، ويا نعم المعَلِّم والمعلَّم !

فرع الطفل فكان شابا ولا كالشباب ، مفتول الذراع ، قوىّ البنية ، شديد الساعد ، ثم كان قوىّ العزيمة ، سديد الرأى ، معنيا بعظائم الأمور ، متجافيا عن سفسافها ، يستشيرونه ويصدقهم الرأى ، ويتحدّثون معه فيسمعون أروع الحديث وأحسنه ؛ صدق ، فاشتهر بالصدق ، فأقرّوا له بالأمانة والنزاهة ، ورضوا به حكما وفيصلا ؛ لم يمل ميل الشباب ، ولم ينزق نزقهم ، ولم يرغب رغيبتهم ، ولم يشاركهم سمرهم ، ولم يلفّ لفّهم ؛ وانفرد عنهم وهواه معهم ، وعاش وحده ليعيش لهم ، وساكنهم ولم يسكن إلى ما يرتاحون إليه ، حتى وجدوا فيه الفرد المجتمع ، والمجتمع المتفرّد ، والواحد فى الناس ، والناس فى الواحد .

وهكذا اكتملت له شخصية فردية ، وعظمة فردية ، لم يعرفوها فى مرباهم ، وفى بيئاتهم ، وإلى جانبها شخصية اجتماعية ، تعيش معهم ، وتريد هدايتهم ، وتأخذ من أفكارهم الفائلة لتردّها عليهم نبراسا من الرأى يصدع الشك ؛ ويهدى إلى الحقّ ، وقبسا من النور يضىء ظلمات الجهل ، وظلمات الأتياه ، التى هم فيها سادرون ، وفى طخيائها يتخبطون .

نشأ فقيرا عائلا ، وكان أغناهم نفسا ؛ لم يركن إلى غيره ، بل اعتمد على جهده ؛ فعمل ، وكدّ فى العمل ، وسافر وأوغل فى السفر ، وتاجر وكان الأمين الحريص على مال غيره ، بل الحريص على ماله ! فى غير بخل أو استئثار ، يطلب المزيد منه ، ويسأل ربه أن يسلطه على هلكته فى الخير .

هدته حاسة دينية عالية إلى أن وراء الكائنات ربا ، ووراء هذه الآلهة إلها حقا ، هو خالق كل شىء ، وهو الواحد القهار ؛ فرفع من قيمة العقل ، وسفّهه إذ ركن إلى العادة والتقاليد ، وحبّب إليه النظر والاستنباط ، والتخلص من كل ما علق به من شوائب حتى تتمحّص النفس ؛ فترجع إلى ربها راضية مرضية .

دعوة غريبة ، ما كان أولاها أن تخنق وليدة ؛ لأنها دعوة فردية شذّت عن مجتمعهم ، وخرقت إجماع آبائهم الأوّلين ، وأجدادهم السابقين ، والقوم لايركنون إلا إلى التقاليد يتوارثونها جيلا بعد جيل ، ويتحملها أولوا الأمر منهم كابرا عن كابر . نعم ! ما كان أولاها أن تخنق فتموت ، ولكنها دعوة الحقّ المؤيد من عند الله ، ومن أصدق من الله قيلا ؟ ! ومن أعزّ من الله نصيرا ؟ !

أمره ربه — بعد أن اكتمل أمره ، وصحّت عزيمته — بأن يجأر بها ، وبأن يعرض عن الجاهلين ، فجهر ، وأعلن ، وطلب النصرة لها من عند ربه أوّلا — وهو مؤيده ونصيره — وثانيا من القبائل التى أحسّ منهم العطف على فكرته ، فقالوا ساحر مفتون ، ومأفون مجنون ، ومطبوب ممسوس ، يملى عليه شيطانه ، وتخايله مخايل العظمة الكاذبة ، والمُلكِ المرجّى ؛ فعمدوا إلى إطفائها يبصقون فيها حتى جفّت أفواههم ، وشرقت حلوقهم يجمعون لها الماء ليحيلوها إلى دخان ، فكانت دخانا ، ولكن يتخلله وميض برق : « ويخشى أن يكون له ضرام » ، لذلك امتاحوا له من جميع الأمواه ، حتى نضب معينهم ، وقصر رشاؤهم ، وتحطم دلوهم ، وهم فى ذلك « يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ، واللهُ مُتِمّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ »[1] .

هنا سرّ العظمة : تظهر أوّلا كالنبتة الذاوية التى لايدرى الناس ما مكانها ومن بذر بذرها ؟ ومن تعهد سقيها ؟ وما أريجها ؟ ! ومن أين لها طيبها وقد نبتت إلى جانب الشيخ والقيصوم ، والإذخر والجليل ، والحسك والسعدان ؟ ! فيمرّون بها مرّا غير كريم ، وربما دفنوها تحت أقدامهم من حيث يشعرون أو لايشعرون ، فينبتها الذى يرسل الرياح لواقح ، ويسقيها الذى جعل من الماء كل شىء حىّ ، ويتعهدها الذى يحيي الأرض بعد موتها ، وينشر عبيرها ، ويسوق أريجها الذى يسوق الرياح إلى بلد ميت ، وكذلك الخروج وكذلك النشور ! !

ذلك هو محمد ! وهؤلاء هم أصحابه ! « أَشِدَّاءُ على الكُفَّارِ رُحَمَاءُ

(١) سورة الصف ، آية ٨ .

بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ، يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَانا ، سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ، ذلكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ ، فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ ، يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ . وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيماً » [١] .

عزّ عليهم أن يمنعوا النبتة من زهرها ، وأن يكموا أكمامها ، وأن يحيطوا بعبيرها ، فيمنعوه الذيوع والانتشار ؛ لئلا يألفها من يشمها ، فعمدوا إلى الحيلة والنبيّ كريم ! فلم لانلجأ إلى كرمه ؟ ! وعظيم فلم لانستغلّ عظمته ؟ ! ورفيق بقومه ، فلم لانناشده الأهل والرحم ؟ ! وعزيز عليه غبننا ! فلم لانلوّح له بمكانة قريش وبسمعتها ؟ ! وأخيرا فكروا أنه فقير ! فلم لانعطيه مالا ؟ ! ولكنه عظيم ! فلم لانملكه سلطانا ونفرا ؟! وربما كان مريضا ؟! فلم لانستدعى له عرّاف اليمامة ، وعرّاف نجد ؟ ! وأخيراً فكروا فى المرأة ، أو فكروا فى ميولهم ! فلم لانزوّجه مايشاء من النساء ، ومن يشاء منهن ؟! — وللمرأة من قديم تأثيرها على الرجل — تفلّ من حدّته ، وتخفف من عنائه ، فكروا فى كل أولئك ، واجتمعوا فى ندوتهم ، وأرسلوا إليه « عتبة بن ربيعة » يسفر بينهم وبينه فعرض له ماعرضوا ، وأجابه بأننى لاأريد عرض الحياة الدنيا ، وإنما أعرض عليكم ما أمرت بعرضه ، « كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنا عَرَبِيّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ » [٢] . سمع عتبة الآيات ، فضرب على حواسه بالصمت ، وعلى نفسه بالخشية والخشوع ، فوقف يستمع حتى قرأ الرسول « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ » [٣] . . . فلم يسع عتبة إلا أن يضع يده على فمه ليكفّ عن القراءة ، مخافة أن تحقّ عليهم كلمة العذاب ، وهم يعلمون أن وعده من وعد ربه ،

---

(١) سورة الفتح ، من الآية الأخيرة ٢٦ .
(٢) سورة فصلت ، الآيتان ٣ و ٤ .
(٣) سورة فصلت ، آية ١٣ .

وأن الكلمة من فيه تنفذها السموات والأرض ، وأنه الصادق فى وعده صدقه فى وعيده ، والصادق فى نذيره صدقه فى تبشيره ، والصادق أبدا فى الرضا والغضب والشدة والرخاء !

أخفقوا أن يجتذبوا مشاعره ، وأن يستلينوا جانبه ، فعمدوا إلى أحقر أنواع المساومة ، وهى المساومة فى العقيدة ، عرضوا عليه أن يشاركهم عبادتهم ، وأن يعبد معهم آلهتهم ، وأن يتقارضوا هذه العبادة ، وكرّروا وألحفوا ، فقطع الصلة بينه وبينهم كما قطع الشكّ باليقين ، والشرك بالتوحيد ، فقال لهم : « لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ » [١] !

ألحوا فى ذلك ، وهم أهل لدد وخصومة ، فردّهم بقول ربه : « أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّى أَعْبُدُ أَيُّها الجاهِلُونَ » ! [٢] ليفرخ روعك ، وليطمئنّ بالك يارسول لله ! « بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ » [٣] .

أدركوا أنه رسول حقا ، وكرهوا أن ينصاعوا له ، وتمنوا لو نزل هذا القرآن المعجز على أحد منهم ، ليستأثروا بهذا الشرف ، فقالوا : « لَوْلا نُزِّلَ هَذَا القُرْآنُ على رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٌ » [٤] ، فأجابهم « اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ » [٥] ، ونعى عليهم أن تكون الرسالة من هذه الأعراض التى يقتسمونها « أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ؟ نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ » [٦] .

ثم آلمهم أن يتعرّض القرآن إلى آلهتهم بالتزييف ، وإلى أحلامهم بالتسفيه ، فقالوا له : « بدّل كلامك ، واقتصر على ما تريد الدعوة إليه ، فعلّمه من أدّبه ،

---

(١) آخر سورة الكافرون .
(٢) سورة الزمر ، آية ٦٤ .
(٣) سورة الزمر ، آية ٦٦ .
(٤) سورة الزخرف ، من الآية ٣٢ .
(٥) سورة الأنعام ، من الآية ١٢٤ .
(٦) سورة الزخرف ، آية ٣٣

كيف يردّ عليهم ، فقال له : « قُلْ ما يَكُونُ لى أنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي » ! [١] .

وأخيراً عمدوا إلى إيذائه ، وإيذاء أصحابه ، فأعيتهم صخرة الصبر التى اعتصم وراءها المسلمون تتكسر عليها سهامهم ، وتردّها إلى أفئدتهم كلوما وجراحا ، وأسقط فى أيديهم لما أيقنوا أنها صخرة اليقين تنفجر من جوانبها ينابيع الحكمة والرضا بكل ما يلقاه المتدين من المتعنت ، ينهل من شرابها العذب ما يخفف عنه العذاب ، ويغسل من مائها ما علق بنفسه وبثيابه من الأوضار والأدران .

ولما لم يفلحوا فى هذه الأساليب ، ولما غلب الصبر النزق ، والحلم الجهل ، عمدوا إلى الفلسفة والعلم ، وأتى لمحمد بهما وهو « النبىّ الأمىّ ، الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبا عِنْدَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ والإنْجِيلِ » [٢] ، وهو الذى بعثه الله فى الأميين رسولا ؟! استعدوا عليه بالأعداء العلميين للمناقشة بعد المحاربة ، وللمهادنة بعد اللدد ، وللبحث والجدل ، بعد الإيذاء بالقول والعمل .

سألوا الأحبار والرهبان المشورة والرأى ، فأشاروا عليهم بأن يوجهوا إليه ثلاث مسائل ، فإن أخبرهم باثنتين منها ، وعرض للثالثة فى غير شرح ولا إيضاح فهو نبىّ حقا ، وإن جهلها كلها ، أو علمها كلها علم اليقين فالرجل متعدّ ، متقوّل !

وهنا يمتحن العلم ! ولكن الذى سيجيب « هُوَ عالِمُ الغَيْبِ والشَّهادَةِ » [٣] سألوه عن فتية ذهبوا مع الدهر ، أو ذهب بهم الدهر (عن أهل الكهف) ، وسألوه عن رجل طوّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها (عن ذى القرنين) مانبؤه وماحدثه ؟ ثم سألوه عن الروح : ماهى ؟ وما حقيقتها ؟ . وكان عندهم علم من الكتاب بأن من يجيب على هذا السؤال الأخير فهو مفتر متجرّئ .

أجاب الرسول على السؤالين الأوّلين فى إسهاب وتطويل ، وأجاب عن الثالث بأن الروح من أمر ربى ، « وَما أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً » [٤] .

---

(١) سورة يونس ، من الآية ١٥ .
(٢) سورة الأعراف ، من الآية ١٥٧ .
(٣) سورة الحشر ، من الآية ٢٢ .
(٤) سورة الإسراء ، من الآية ٨٥ .

ويتقدم العلم بعد هذه الكلمة ، ويسير فى طريقه باحثا منقبا مدة أربعة عشر قرنا ، ويزهو العقل والعلم ما شاء الله أن يزهو ، ويقفان يبهرهما البهت والحيرة فى مسألة الروح ؛ يتناوبها العلماء مرّة فى الميتافيزيقا ، ومرّة فى علم النفس ، وثالثة فى مطلق الفلسفة ، ولا يزال موقف القرآن فى البقعة التى دُفنت فيها العقدة !

على أنه لم يرتج الباب فى وجه العقل ، بل سمح له بالكشف ، ووعده الوصول إلى ما يريد متى استزاد من علمه ، واستزاد من رجاله .

وتلك حيوية خاصة بالدين : يظلّ معلما للعقل فى غير حجر عليه .

ومعجزة القرآن لانى أن يظلّ معجزا بآيه ونظامه وأسلوبه فحسب ، بل فى حقائقه ونظرياته ؛ وأخباره صادقة ما دام العلم قليلا . وستظل صادقة إذا أصبح العلم كثيرا ، وكلما اتسعت آفاقه ، اتسع أمام العلم ملكوت الله ، واتسعت آمال العقل فى الوصول إلى الحقّ ، هذه هى العظمة ! ومن جاء بها فهو العظيم ! .

فالعظيم من ينشأ نشأة عظيمة ، ويظلّ على هذه النشأة ، حتى يصل إلى القمة من العظمة ، فتكون حياته معمورة بالجليل من الأمور ، والخطير من الأحداث ، وعظمته تساير هدفه ، وتزجى به إلى الأمام دائما .

العظمة رسالة فى الحياة يكلف الله إياها نبيه ، وقد يكلف العظيم القيام بها نفسه . والأول واصل لامحالة ، والثانى مطلوب منه أن يصل ، ولا يمكن أن يصل إلا إذا نزلت رسالته فى الحياة منزلة العقيدة التى يحترب دونها ، ويرمى بنفسه فى طريقها ، وهو لابدّ واصل .

وما أرسل الأنبياء للدهماء فحسب ، بل أرسلوا للعظماء أيضا ، يعلمونهم كيف يجاهدون ، وكيف يصابرون ، وكيف يرابطون ، بل كيف يكونون .

العظمة سرّ من أسرار الحياة ، بل هى سرّ الحياة ، فلا حياة لهؤلاء الذين يخرجون من الدنيا كما دخلوا فيها ، لم يخطّوا على صفحاتها سطرا واحدا يذكر لهم فى حياتهم ، أو يذكرون به بعد مماتهم .

والحياة كل الحياة ، والخلود كل الخلود لهؤلاء الذين يحملون على عقيدة ،

أو يعينون على مبدأ ، أو يبدلون من فكرة ، بل لهؤلاء الذين يقتلعون من الجذور عقائد فاسدة ؛ لينبتوا بدلها عقائد سليمة صحيحة ، ولهؤلاء الذين ينتزعون حواسّ مريضة خرساء ، ليضعوا مكانها حواسّ أخرى أدقّ شعورا ، وأقوى ملاحظة ، وأكثر انفعالا ، وأجدر أن تعرف رسالة الإنسان على الأرض ، وأنه لم يخلق فيها إلا لها ، ولم ينبت من بطنها إلا ليسيطر على ظهرها ! ثم العظمة فى ألا يقف الإنسان مكتوف الأيدى أمام المصاعب التى تعتوره ، بل فى أن يتصدّى لها ، ويتغلب عليها ، ويتخذ من كل صعوبة مِرقاة يصعد بها إلى غرض معين ، وهدف يعمل له ، ولا يزال يعمل حتى يدركه . وكذلك فعل الرسول ، وأقرّه الله على أداء رسالته ، يوم أن قال له : « اليَوْمَ أكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وأتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسْلامَ دِينا »[1] .

فليعلم هؤلاء الذين يتصدّون للدعوة أو لنشر مبدأ ، أو لقيادة جماعة ، كيف يكونون عظماء ، و « لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ »[2] .

---

(١) سورة المائدة ، من الآية ٣ .

(٢) سورة الأحزاب ، من الآية ٢١ .

عبقرية الرسول

إن العبقرىّ لاينبغ دفعة واحدة ، ولا يظهر أمره فى آخر الأمر ، بل العبقرىّ هو الذى تدلّ مخايله صغيرا على عظم المسئولية التى يتحملها ويستقلّ بها كبيرا . ونحن إذا تتبعنا حياة « محمد » قبل الرسالة وجدناها حافلة بالميول الطيبة ، ووجدناها مظاهر للغرائز المصفاة ، والطبائع المختارة ، ووجدناها مجلّى من مجالى الدوافع الكريمة ، التى لاتطلب إلا الهداية والإصلاح للبيئة التى يعيش فيها المصلح ، حتى إذا اكتملت لمحمد هذه الصفات فى شبابه ، أمره الله فى تمام رجولته أن يصدع بالأمر ، وأن يُعرض عن كلام الجاهلين ، فإذا قبلوا الحجاج والجدل فبالتى هى أحسن ، وإن أصرّوا على الخصومة واللدد فبالإعراض ، والأمر بالعرف ، ورجاء الله لهم أو لذراريهم من بعدهم التوفيق والهداية .

حفظ الله « محمدا » من عبث الطفولة ، وعدم مبالاتها بما يشين أو يهين . وكان أصحاب الفراسة من العرب إذا رأوه طفلا أُعجبوا بهذه المخايل التى تدلّ على فضل النفس ، وفرط الذكاء ، ونبل النظرة ، وصلاح الوجهة ، فلا يسعهم إلا أن يرجعوا عليه وعلى أنفسهم بالاعتراف لهذه العظمة المبكرة ، مردّدين هذه العبارة : « والله ليكوننّ لهذا شأن ! » وقد صدقت فِراستهم ، وصدق ظنهم ، فكان لمحمد الطفل الشأنُ كله ، لما دعاه ربه « محمد رسول الله » ، وحينما تحوّلت سِمات الذكاء فيه إلى أفكار ملأت الدنيا ، وإلى مبادئ كانت الأولى صلاحا ومسايرة لكل نظام اجتماعىّ . ولا تزال مبادئه إلى الآن ، وبعد الآن ، الأفكار التى يجب أن يسير وراءها العالم إذا أراد أن تستقيم له الأمور « وأنْ لَوِ اسْتَقامُوا على الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقا » [1] . صدقت فيه فراسة « بحيرا » الراهب ، وصدقت فيه الكتب السماوية التى قرأها : فقد رجا محمد الصغير من عمه (أبى طالب) أن يخرجه معه فى تجارة

---

(١) سورة الجن ، آية ١٦ .

إلى الشام ، فامتنع حرصا عليه ، ثم أنصت لرجائه حبا فى ألاّ يخالف له رجاء ؛ وهم فى طريق الشام يلتقون فى « بُصْرَى » بالراهب « بحيرا » ويُولم لهم هذه المرة وليمة حافلة على غير عادته معهم ، فقد مرّوا به كثيرا ولم يشعر بهم ، ولكن معهم فى هذه المرّة « ضيف الله » فلم لا يكرمهم « رجل الله » ! اجتمع القوم حول الوليمة ، وغاب « محمد الصغير » استحياء من عمه وكبار قومه ، فتنبه « بحيرا » إلى أن « ضيف الشرف » لم يحضر ، وألحّ عليه القوم حتى حضر ، فسأله الراهب : « ياغلام أسألك بحقّ اللات والعزّى إلا ما أخبرتنى عما أسألك » . غضب محمد الطفل ، وقال : « لاتسألنى باللات والعزّى ، فوالله ما أبغضت شيئا قطّ بغضهما » فردّد الراهب سؤاله وقال : « فبالله إلا ما أخبرتنى » ، وإذن يجيبه « محمد » عما يريد .

بغضت إليه الأوثان منذ طفولته ، وخالف التقاليد فى أمة التقاليد ، وأوّل علائم العبقرية أن يعيش العبقرىّ وحده ، أو فى جماعة من آرائه وأفكاره ومبادئه ، ثم تلتفّ حوله الجماعة التى تدين بهذه الأفكار والمبادئ .

كانوا فى الجاهلية يقسمون زروعهم وأنعامهم بينهم وبين آلهتهم ، فجاءهم بما يسفّه أحلامهم ويَنْعَى عليهم سفههم ، « وجَعَلُوا لِلّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحَرْثِ وَالأَنْعامِ نَصِيباً ، فقالُوا هَذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ ، وهَذَا لِشُرَكائِنا ، فَمَا كانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إلى اللهِ ، وَما كانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إلى شُرَكائِهِمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ » [1] ! كانوا يحرّمون على أنفسهم أكل بعض الحيوانات المخصصة للنذور ، فكره « محمد » أن يجاريهم فى جاهليتهم ، وجاءه القرآن مصدّقا لبغضه وكراهيته . « قُلْ أَرَأَيْتُمْ ما أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وحَلالاً ! قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ ؟ أَمْ على اللهِ تَفْتَرُونَ ! » [2] هذه البغضة للأوثان سرت من نفسه المؤمنة إلى بعض نفوس القوم بغيضة وسخرية ؛ فكانوا يسرقون ما خصصوه للآلهة من المآكل والحلى ، وفى ذلك يقول « كعب بن مالك » :

---

(١) سورة الأنعام ، آية ١٣٦ . (٢) سورة يونس ، آية ٥٩ .

ونَنْسَى اللاَّتَ والعُزَّى وَوَدّاً ونَسْلِبُهَا القَلائِدَ والشُّنُوفا

هكذا كانت نشأته ، وهكذا كان استعداده للأمر الذى يتهيأ له . جاءه ذلك الأمر ، فأكبّ عليه المؤمنون ، ووقف أمامه المعاندون ، ومن تكبر عليه تركه أنفة وتعاظما ، لابغضا ولا كراهية ، يصدّق قلبه ، ويأبى صلَفه ؛ تلين له القلوب ، وتشمخ أمامه الأنوف ؛ تهتزّ له العاطفة ، ويجمد أمامه العقل ؛ سمع به «الأعشى» الشاعر وهو من يقدّر الكلام ويعرف مآخذه ، فجاء الرسول حَبَوْا ، يستحثّ ناقته ويمسح عرقها ، ويخاطبها ، بل يغنيها :

مَتَى ماتُناخِى عِنْدَ بابِ ابنِ هاشِمٍ تُرَاحِى وتَلْقَىْ منْ فواضله نَدَى
نَبِىٌّ يَرَى مالا تَرَوْنَ وذِكْرُهُ أغارَ لعَمْرِى فِى البِلادِ وأَنْجَدَا

وسمع به «الوليد بن المغيرة» ، وكان من أكرم القوم نسبا ومكانة ، لايدانيها إلا حسه الدقيق فى الأدب والبصر بالكلام ؛ سمع هذا الترتيل السماوىّ ، فاجتمع بقومه يسألهم مايقولون فى هذا القرآن وفى مرتله ؟ فقال أحدهم : « كاهن » ! قال : لاوالله « لقد رأينا الكهان وعرفنا كلامهم ، فما هو بزمزمة الكهان ولا بسجعهم » ؛ وقال الآخر : « مجنون » ! قال : « لا ! لقد عرفنا الجنون ، فما هو بخَفْقه ولا تَخالجه ولا وسوسته ! » وقال الثالث : « شاعر » ! قال : « لا ! لقد عرفنا الشعر : رجزه وهزجه ، وقريضه ، ومقبوضه ، ومبسوطه ، فما هو بالشعر ! » وقال الرابع : « ساحر » ! قال « لا ! لقد رأينا السحرة وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عُقَدهم ! » قالوا : فما تقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : « والله إن لقوله لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أصله لمغدِق ، وإن فرعه لمورق ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل . وأقرب القول فيه أن تقولوا ساحر ، جاء بسحر يفرّق بين المرء وأبيه ، والمرء وأخيه ، والمرء وزوجه ، والمرء وعشيرته » . هذا هو « الوليد بن المغيرة » عرف الحقّ وأعرض عنه ، وهو الوليد الذى توعده الله بما توعد به كلّ مكذّب للحقّ معرض عنه : « ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ، وجَعَلْتُ لَهُ مالاً مَمْدُوداً ، وبَنِينَ

شُهُودًا ، ومَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ، ثُمَّ يَطْمَعُ أنْ أزِيدَ ، كَلاَّ إنَّهُ كانَ لآياتِنا عَنِيدًا ، سأُرْهِقُهُ صَعُودًا ، إنَّهُ فَكَّرَ وقَدَّرَ ، فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ، ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ، ثُمَّ نَظَرَ ، ثُمَّ عَبَسَ وبَسَرَ ، ثُمَّ أدْبَرَ واسْتَكْبَرَ ، فَقالَ إنْ هَذَا إلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ » [١] .

هذه هى عبقرية الرسول فى سيرته ، وفى كل ما جاء به ، وعلامة العبقرية أن يأتى بها إنسان واحد، لينفع بما جاء به الإنسانية جميعها . علامة العبقرية أن يظهر صاحبها فى زمن معين ، وفى حقبة معينة ، ولكن ما جاء به يسير مع الزمن ، ويبقى ما بقى الزمن . علامة العبقرية ألا يأتى صاحبها بنفع مؤقت ، بل بنفع دائم يقرّره العقل أوّلا ثم ينكره ثم يقرّره ، ويبقى ما أتى به العبقرىّ فى منزلة تسمو على العقل وتطالبه بأن يسمو إليها ، فيسمو مصدّقا بعد عناده ، صاغرا بعد استكباره . وربما قيل إن العالم مملوء بالعباقرة ! ولكنهم سيرجعون حتما عند ما يعلمون أن العبقرية الفكرية لابدّ لها من عبقرية خلقية تستند إليها ، وعبقرية الرسول الخلقية هى ما وصفه به الله وخصه به وحده « وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فاعْفُ عَنْهُمْ واسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشاوِرْهُمْ فِى الأمْرِ » [٢] . « خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ ، وَأعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ » [٣] .

---

(١) سورة المدثر ، آية ١١ وما بعدها .

(٢) سورة آل عمران ، من الآية ١٥٩ .

(٣) سورة الأعرف ، آية ١٩٩ .

محمد ودين القيمة

كان الناس مختلفين فى أمورهم قبيل رسالة الرسول عليه الصلاة والسلام اختلافا بينا، يتناول شئون الدين والدنيا معا، وهم فى ذلك فريقان: المشركون الذين يتوجهون بالعبادة إلى مالايضرّهم وما لاينفعهم من الأوثان والأصنام، والذين يرون أن لله صاحبة أو ولدا. وأهل الكتاب الذين كانوا يقرءون صحف أنبيائهم، وفيها كثير من الحقّ الذى يبشر بمبعث الرسول الجديد من العرب. كان كثير من أهل الكتاب يستفتحون بهذا الرسول الجديد، فيقولون: « اللهمّ افتح علينا، وانصرنا بالنبىّ المبعوث فى آخر الزمان »، وكان أهل الكتاب يجادلون المشركين ولا يرضون عن عقولهم التى تعبد ما لايضرّ ولا ينفع، وما لايملك لنفسه ولا لغيره موتا ولا حياة ولا نشورا، ويقولون لهؤلاء المشركين: « قد أظلّ زمان نبىّ يخرج بتصديق ماقلنا فنقاتلكم معه قتل عاد وإرم ». وكان بعض العرب يستمع إلى هذا الكلام من أهل الكتاب ويقول به ويصدّقه: فهذا « زيد بن عمرو بنُ نفيل » كان يقول: «أظلّ زمان نبىّ جديد من قريش، بل من بنى هاشم، بل من بنى عبد المطلب ». وكان بعضهم قد سمّى ولده « محمدا » رجاء أن يكون النبىّ المكتوب فى التوراة والإنجيل. كل ذلك قد كان، وكثير غيره قد قيل، ردّده أهل الكتاب والمشركون، يريدون أن يقسموا رحمة الله فيما بينهم، و « اللهُ أعْلَمُ حَيْثُ يجْعَلُ رِسالَتَه »[1].

كان المؤمنون من أهل الكتاب راضين عن صحفهم وكتبهم، أما الذين كفروا بكتبهم والذين أشركوا فى عقائدهم، فقد ظلوا على عنادهم ينتظرون صحفا جديدة، وبينة جديدة، ولمّا جاءتهم هذه البينة على لسان النبىّ الكريم، رجعوا إلى ما كانوا فيه من الجحود والنكران. هذا هو معنى قول الله تعالى فى سورة البينة: « لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أهْلِ الكِتابِ والمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ البَيِّنَة،

(١) سورة الأنعام، من الآية ١٢٤.

رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً فِيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ، وَما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ البَيِّنَةُ »[1] ، فهم لم يكونوا منفكين ، بل كانوا مترابطين على العناد ، مصرّين على الإنكار ، حتى تأتى البينة ، وما هذه البينة إلا الرسول الذى جاءهم بصحف مطهرة منزهةٍ عن الباطل ، بعيدة عن الزور والتأويل ؛ فالرسول نفسه بينة ، وهو حجة عليهم ، وهو نفسه بينة بأخلاقه ، وبما جاء به ، وما جاء إلا بما قرّره الأنبياء قبله من الكتب القيمة المستقيمة التى لاعوج فيها ولا التواء ، بل تهدى إلى الحقّ وإلى صراط مستقيم بمجرّد معرفتها والاتصال بها .

وما كان أَوْلاهم بعد أن جاءتهم الرسالات والرسل ، أن يرجعوا إلى الحقّ ، وأن يعترفوا به ، ولكنهم بعد أن عرفوا الحقّ رجعوا إلى الباطل ، وبعد أن رأوا النور ضلوا ، لأنهم أطفئوا نور الله بأفواههم ، وبعد أن عرفوا الطريق ، تركوا الدليل ، فضلوا عن سواء السبيل « وَما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ البَيِّنَةُ » ، فلما اجتمعوا تفرّقوا ، ولما اتحدوا تمزّقوا ، ولما عرفوا الحقّ أنكروه ، ولما ازدادوا علما ازدادوا جهلا ، ولما رزقوا مالا حرصوا بخلا ؛ فهم جهلاء ، حرموا نعمة الحقّ ، وهم جاحدون ، أنكروا الشكر ، وهم جامدون سُلِبوا نعمة التبصر والتفكير .

والدليل على حرمانهم العقل والمعرفة ، أن ماجاءهم به الرسول فى أُخراهم ، هو ما جاءت به الرسل قبله فى أولاهم ، فالرسول جاء مقرّرا لما جاء فى الصحف المطهرة والكتب القيمة ، صحف إبراهيم وموسى ، والكتب التى نُزّلت على النبيين من قبله ، وكلها تتجه اتجاها واحدا ، وتسعى إلى غاية واحدة ، هى أن يعرف الناس ربهم ، وأن يتركوا أصنامهم ، وما اتخذوا من دون الله من أولياء « وَما أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكاةَ »[2] فالأديان تؤمن بهذه المبادئ الثلاثة : أولها الإخلاص ، وخلوص النفس لإله واحد ؛

---

(١) سورة البينة ، آية ١ — ٤ .

(٢) سورة البينة ، من الآية ٥ .

والمخلص: هو الحنيف الذى يميل عن العقيدة الزائدة . وثانيها الصلاة . وثالثها الزكاة . فالمؤمن هو الذى يتجه إلى الله صلاة وعبادة ، وإلى نفسه تنقية وتطهيرا ، وإلى الناس زكاة ومرحمة « وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ » [١] ، دين الكتب القيمة ، ودين الملة القيمة ، ودين الأمة القيمة المستقيمة ، التى تسعى إلى خيرها وسعادتها .

ويؤخذ من هذه الآيات التى ابتدأت بها السورة النتائج الآتية :

أولا : أن الناس فى أول كل انقلاب دينىّ أو سياسىّ أو اجتماعىّ يقفون أمام الدعوة الجديدة ، وينقسمون فى شأنها إلى فريقين : فريق يؤمن بها ، ويصدّق بما جاء فيها من خير ، وفريق معاند متردّد ، جاءه العناد والتردّد من ضعف حاسة الحقّ وضعف الإيمان ، ولكنه يتظاهر بالعقل ويطلب البينة ، ويتظاهر بالإيمان ليكون على بينة من عقيدته ، حتى لايتهم بالتقليد ، فيطلب الحجة ، ويدعو الناس لها ؛ وحين تأتيه البينة ويصدمه الحقّ يرجع إلى العناد ، ووضع العقبات أمام الدعوة الجديدة ؛ ولو فكر لعلم أن هذا الجديد جاء يحقق غاياته ، ولكنه العناد والمكابرة ، ومعهما لاتنفع حجة ولا تجدى بينة ، فطالب الحقّ إذا اقتنع استراح ، أما طالب الباطل فإذا فتحت له بابا سدّه ، وإذا تنوّر هداية أطفأها « مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا » [٢] .

ثانيا : تقرّر آيات القرآن كتب أهل الكتاب ، ويقرّر الإسلام ما جاء بالصحف الأولى ، « صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ » [٣] . والإسلام ينعى على الجاحدين فى كل ملة ودين جحودهم ، فهو يأمرهم بما أمرت به كتبهم من الميل عن الوثنية الباطلة ، والأمر بالصلاة والزكاة ، وذلك هو دين الملة القيمة .

تعرّف الآيات بعد ذلك من هم « شرّ البرية » ومن هم « خير البرية » ؛ فالذين كفروا بكتبهم من أهل الكتاب والمشركون ، يُخلدون فى نار جهنم ، لأنهم شرّ

---

(١) سورة البينة من آية ٥ .
(٢) سورة الكهف ، من الآية ١٧ .
(٣) آخر سورة الأعلى .

البرية ، وشرّ ما برأ الله وخلق ، ومن أظلم ممن يعلم صحة الدعوى ويمارى فيها ! ثم من أظلم ممن يعلم الحقّ واضحا صريحا ، ويُدخل الشبهات على الناس ، ليوقعهم فى الضلال والحيرة ؟! ومن أظلم ممن يعلّم الكلمَ حقا صريحا فيحرّفه عن مواضعه؟! ثم من أظلم ممن يصدّ عن سبيل الله ويحارب المحقين والمؤمنين ! هؤلاء هم شرّ البرية ، وهم شرّ من برأ الله وخلق .

أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، أى آمنوا بالحقّ وأشاعوه مبادئ صالحة تهتدى بها الناس فى سلوك شريف ، أساسه الحقّ والفضيلة ، فهؤلاء « جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً »[1] أولئك رضى الله عنهم ، فهداهم إلى الحقّ والفضيلة ، ورضُوا عنه ، بعد أن بلغوا الآمال بما كتبه الله لهم من السداد والتوفيق .

وتختتم « سورة البينة » بهذه الآية قليلة المبنى ، غزيرة المعنى « ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّه »[2] . فالخشية مِلاك الأمر كله ، ومدار الفوز والسعادة ، وفيها إشارة إلى أن مجرّد الإيمان ومجرّد العمل ، لا يوصل إلى الرضوان المطلوب ، وأن العمل والإيمان يحتاجان إلى دافع قلبى هو الخشية التى توصل إلى المعرفة ، وإلى الإحسان ، وهو كما جاء فى الحديث « أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كأَنَّكَ تَرَاهُ ، فإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإِنَّهُ يَرَاكَ » .

(٢،١) آخر سورة البينة ،

محمد والمنافقون

« وكأيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أخْرَجَتْكَ ، أهْلَكْنَاهُمْ فَلا ناصِرَ لَهُمْ » [1]

معظم آيات سورة «القتال» فى وصف المنافقين بالمدينة الذين كانوا يقولون «طاعة وقول معروف»، فإذا عزم الأمر، وجدّ الجدّ، لم يجدهم المسلمون فى صفوفهم، بل يكونون عونا عليهم مع أعدائهم . ومما وصفهم به القرآن أنهم كانوا يستمعون إلى الرسول ، فإذا خرجوا من عنده ، لم ينتفعوا بما استمعوا ، إما غباء ، وإما دهاء « ومِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إلَيْكَ حَتَّى إذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ ، قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ ، ماذَا قالَ آنِفا » [2] فهم إما جاهلون ، وإما متجاهلون ، وهم فى كل حال منافقون، « طَبَعَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ ، واتَّبَعُوا أهْوَاءَهُمْ » [3] .

أما المؤمنون الذين اهتدوْا ، فكانوا إذا استمعوا إلى الرسول زادهم ما يستمعون إليه هداية على هدايتهم ، وآتاهم ربهم تقواهم ، أى آتاهم ثواب هذه التقوى ، أو ملأ نفوسهم بالتقوى .

تهدّد الآيات هؤلاء المنافقين بأنهم مسئولون يوم تقوم الساعة ، ويوم تأتيهم بغتة ، فلايستطيعون دَرَكا لما فاتهم ، وأولى بهم أن يتذكروا قبل مجيئها ، وإلا لم تنفعهم الذكرى إذا وافتهم وهم فى غمرتهم ساهون ، « فأنَّى لَهُمْ إذَا جاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ » [4] . وعن أبى هريرة قال : « بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مجلسه يحدّث القوم ، إذ جاءه أعرابىّ فقال : متى الساعة ؟ فمضى الرسول فى حديثه ، وقال

---

(١) سورة القتال ، آية ١٣ .

(٢) سورة القتال ، من الآية ١٦ .

(٣) سورة القتال ، من الآية ١٦ .

(٤) سورة القتال ، من الآية ١٨ .

بعض القوم : سمع ما قال ، فكره ما قال ؛ وقال بعضهم : بل لم يسمع ، حتى إذا ما قضى حديثه ، قال : أينَ السَّائلُ عَنِ السَّاعَةِ ؟ قال : ها أنا ذا يا رسول الله ، قال : « إذَا ضُيِّعَتِ الأمانَةُ فانْتَظِرِ السَّاعَةَ ، قال : وكيف إضاعتها ؟ قال : إذَا وُسِّدَ الأمْرُ إلى غَيْرِ أهْلِهِ فانْتَظِرِ السَّاعَةَ » .

ومعنى هذه المحاورة بين الرسول عليه الصلاة والسلام وبين الأعرابيّ أن نهاية الأمر مرتبطة بناحيتين ، ناحية أخلاقية ، وناحية سياسية . فالأولى الأمانة ، ومتى ضيعت بين الناس انحلت روابطهم ، وتمزّقت صِلاتهم ، وصار أمرهم إلى الفوضى ، كل يسعى لخير نفسه ، وكل يتعدّى على غيره ، وكل يثرى على حساب من يظلمه ، وتلك علامات الاختلال ، وما بعده إلا الانحلال وانتظار النهاية .

أما الناحية السياسية ، فإذا أسند الأمر إلى غير أهله فسد الحاكم والحكم ، وبفسادهما الاختلال فالانحلال !

تلتفت الآيات بعد ذلك إلى الرسول ، فتأمره ألاّ يهتمّ بأمر المنافقين ، وأن يقيم على التوحيد والاستغفار هو ومن معه من المؤمنين ، تاركا أمرهم لله الذى يعلم مُتقلبهم ومثواهم ، « فاعْلَمْ أنَّهُ لا إلَهَ إلاَّ اللهُ ، وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلمُؤْمِنِينَ والمُؤْمِناتِ ، واللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ » [1] .

ومن علامة المنافقين أنه إذا نزلت آيةٌ محكمة لاتحتمل شبهة ولا جدلا فى أمر القتال والجهاد فى سبيل الله ، خُلعت قلوب المنافقين من الخوف والفزع ، بقدر ما تطمئنّ لها قلوب المؤمنين رجاء الشهادة والمغفرة ! « ويَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَة » أى فى الجهاد والقتال ، فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال « رأيْتَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إلَيْكَ نَظَرَ المَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ المَوْتِ ، فأوْلَى لَهُمْ » [2] أى فويل لهم ، أو فالمكروه والعذاب يليهم ويقرب منهم .

ومن علامات المنافقين أنهم يقولون بألسنتهم قولا معروفا ، ويظهرون الطاعة

---

(١) سورة القتال ، من الآية ١٩ . (٢) سورة القتال ، من الآية ٢٠ .

فإذا جدّ الأمر هربوا ، وإذا عزم الأمر فرّوا ، فلو صدقوا الله فى الطاعة والقول المعروف ، لكان الصدق خيرا لهم .

ثم تشرح الآيات دخائل نفوسهم ، من أن الإيمان لم يدرك قلوبهم ، ومن أنهم لايزالون يتردّدون بين الجاهلية والإسلام ، فكأنهم يريدون أن يرجعوا إلى ما كانوا عليه من الفساد ، ووأد البنات ، والتغاور ، والتناهب ، وقطع الصلات والأرحام ، « فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ » [١] ، ولو أنهم تدبروا القرآن ، وفكروا فيه ، وفى مواعظه وزواجره ، لكان خيرا لهم ، ولكن أنى لهم هذا التدبر وقلوبهم مغلقة مستحكمة ، عليها أقفالها .

إن هذا النفاقَ نوع من الردّة ، وهو رجوع إلى الفسوق بعد الإيمان ، وإلى الضلالة بعد الهدى ، وهو دليل على فساد عقلية المنافقين ، الذين يَضَعون عقولهم بين أيدى ساداتهم وكبرائهم « إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ، الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللهُ ، سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ الأَمْرِ ، وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ » [٢] . ثم تهدّدهم الآيات بأن عذابهم شديد ، فكيف يكون حالهم « إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ » [٣] ذلك وعيد الحقّ ، وعذاب الحقّ ، بسبب أنهم « اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ ، وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ، فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ » [٤] . والمنافق أمره مفضوح ، ومهما تَلَوَّى فى فكرته وتلوّن فى مظاهره ، فأمره إلى ظهور « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُمْ » [٥] ، فصاحب الضّغن مهما أخفى حقده على صاحب

---

(١) سورة القتال ، الآيتان ٢٢ و ٢٣ .
(٢) سورة القتال ، آية ٢٥ .
(٣) سورة القتال ، آية ٢٧ .
(٤) سورة القتال ، آية ٢٨ .
(٥) سورة القتال ، آية ٢٩ .

الفضل ، فالله مبديه ، حتى يكشف الناس عن هذه النفوس الصغيرة ، فمن السهل معرفة المنافقين ، فهم يُعرفون بسيماهم : يبكون بدموع كاذبة ، ويضحكون بابتسامات صفراء ، ويُعرفُون أيضا فى لحن القول ، فعباراتهم ملتوية ، يفهم منها غيرُ ما يحتمله ظاهر القول .

ومن علامة المنافقين أنهم لايصبرون على بلاء ، ولايشكرون عند ابتلاء ، فإذا وافتهم النعمة ظنوا أنهم يستحقونها ، وإذا أصابهم الضرّ هلَعوا وجزِعُوا ، أما المؤمنون صادقو الإيمان فهم الذين يَظهرون عند التجربة والمحنة فى مظهر الشاكر والصابر ، « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حتى نَعْلَمَ المُجاهِدِينَ مِنْكُمْ والصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أخبارَكُمْ » [١] .

وإلى جانب المنافقين ، المنكرون والجاحدون ، الذين يصدون عن سبيل الله ، ويخالفون أوامره من بعد ما تبين لهم الهدى ، وهؤلاء أيضا « لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً وسَيُحْبِطُ أعمالَهُمْ » [٢] .

بعد ذلك تلتفت الآيات إلى المؤمنين ، فتأمرهم بطاعة الله ورسوله ، وبالبعد عما يبطل أعمال الخير من النفاق والرياء ومجانبة الإخلاص فى القول والعمل « يأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أطِيعُوا اللهَ وأطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أعمالَكُمْ ، فَلا تَهِنُوا وتَدْعُوا إلى السَّلْمِ وأنْتُمُ الأعْلَوْنَ ، واللهُ مَعَكُمْ ، ولَنْ يَتِرَكُمْ أعمالَكُمْ » [٣] أى لن ينقصكم شيئا من ثواب أعمالكم ، ولن يظلمكم شيئا من صوالح هذه الأعمال إذا طلبتم بها ما عند الله من المتاع الدائم ، وجانبتم فى هذه الأعمال الصالحة متاعَ الدنيا « إنَّمَا الحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ، وَإنْ تُؤْمِنُوا وتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أمْوالَكُمْ » [٤] أى لايسألكم أن تنفقوا كل أموالكم ، بل يسألكم أن تنفقوا بعضها فى الزكاة والخير ، وهو العليم بكم

(١) سورة القتال ، آية ٣١ .
(٢) سورة القتال ، آية ٣٢ .
(٣) سورة القتال ، آية ٣٣ .
(٤) سورة القتال ، من الآية ٣٦ .

« إنْ يَسألْكُمُوها فيُحفِكُمْ [١] » أى أنه إنْ يطالبكم بإنفاق الأموال كلها يجهدكم فتبخلوا ، ويخرج هذا البخل أضغانكم ، وما فى أنفسكم من الشحّ والحرص .

ثم تختتم السورة بهذه الآية الجامعة الدالة على ضرورة إنفاق المال فى الخير وعدم البخل به ، والتى تهدّد الغنىَّ البخيل بسلب أمواله ، بل تهدّد البخلاء جميعا بالاستبدال وتكوين طبقة جديدة من الناس تكون أكثر طواعية للخير ، وأكثر اندفاعا إلى الإنفاق فى سبيل الخير ، « هَأنْتُمْ هؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِى سَبِيلِ اللهِ ، فمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ ، ومَنْ يَبْخَلْ فإنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ ، واللهُ الغَنِىُّ وأنْتُمُ الفُقَرَاءُ ، وإنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْما غَيْرَكُمْ ، ثُمَّ لايَكُونُوا أمْثالَكُمْ » [٢] .

---

(١) سورة القتال ، آية ٣٧ .

(٢) سورة القتال ، من الآية ٣٨ .

الرسول إنسان كامل

« أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ، وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ الَّذِى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ، وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ، فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ، فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ، وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ [1] » .

نشأ الرسول عليه الصلاة والسلام نشأة طيبة مصطفاة ، وكأنما كان يستعدّ لهذا الأمر العظيم الذى سيلقى على ظهره ، وسيتحمل تبعته ، وكان من هذا الأمر فى همّ وتفكير ، كان يشقّ عليه أن يرى قومه تائهين فى ظلمات الجهل ، ويشقّ عليه أن يرى نفسه عاجزا عن هدايتهم قبل النبوّة ، فكان يفكر كيف يهديهم ، وكيف يصدّهم عن الضلال ، وكيف يردّهم إلى سواء السبيل ، وكان يشقّ عليه بعد الرسالة ما ناله من الأذى والعنت فى سبيل التعرّض لهداية الناس ، فمنهم من آمن وصدّق ، ومنهم من صدّ وأنكر ، وبقدر ما كان يستشعر من المسرّة مع المؤمنين ، كان يستشعر الحزن والأسى مع المنكر والجاحدين ، وزاد فى همه أن تُوُفى عمه «أبو طالب» وكان فى كنفه وحمايته ، وأن تُوُفيت زوجته « خديجة » وكانت نعم الزوجة ، ينفضُ إليها سرّه ، وتُسرّى الهمّ عن نفسه ، ولكن الله مع هذه الشدائد كلها آزره ، وعززه ، ونصره وأيده ، وأثنى عليه فى سورة الشرح فقال : « أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ » وشرح الصدر معناه اتساع القلب ، واتساع النفس لقبول ما فى عالم الغيب ، وما فى عالم الشهادة ، واتساع الملكات لقبول الإفادة والقدرة على الاستفادة ، فما صدّته مطالب الجسم عن مطالب الروح ، وما عاقه النظر فى مصالح الخلق عن التفكير والاستغراق فى شئون الحقّ ، فأطلعه الله على حقارة الدنيا ، وأطلعه على منازل السموّ النفسىّ ، فهان عليه احتمال المكاره ، ووصل بمعونة الله وتوفيقه إلى خير ما يسره الله له ، وإلى خير ما سمت به نفسه الصافية العالية « وَوَضَعْنَا عَنْكَ

---

(١) سورة الشرح .

وِزْرَكَ الَّذى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ » ، والوزر : الحمل الثقيل الذى ينتقض له الظهر من شدّة ثقله ، ومعناه : أن الله أكرم نبيه ، فهداه إلى الصراط المستقيم فى الهداية والرشاد ، وكان همّ قومه يثقل على نفسه ، كما يثقل الحمل العظيم على ظهر حامله ، فعلمه ، وأزال به غفلة قومه ، وأزال حيرته وهمه ، لمّا عرفه كيف يهدى قومه ، ويسّره للحسنى ، ويسّر به سبيل الخير للمؤمنين .

« وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ » بالنبوّة ، وبجعل اسمه مقرونا باسم الله عزّ وجل ، وجعل طاعته فى طاعة رسوله ؛ وصلّى عليه ، هو وملائكته وأمر المؤمنين بالصلاة عليه ، وامتدح فيه الصفات التى ينفرد بها « وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ » [1] « عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » [2] .

فصفاته صلى الله عليه وسلم من صفات الله ، وذكر الله فى ذكر نبيه ، وذكر النبىّ بذكر ربه .

« فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » هذه الآية نتيجة لما تقدّم فى سورة الشرح وفى سورة « الضحى » ، فالذى آواك من يتم ، والذى هداك إلى سبيل الحقّ وكنت ضالا تائها ، لاتعرف السبيل لهداية الناس ، والذى أغناك من فقر ، والذى شرح صدرك من ضيق ، والذى خفف عنك من الآلام ما ينقض ظهر الرجل الشديد ، هو الذى يتولاك دائما ، فلا يُضيِّق صدرك بعسر ، فإن اليسر مع العسر . ثم تتكرّر الآية مرة ثانية « إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » وليس هذا مجرّد تكرار ؛ فإن التفاتة بسيطة إلى الفرق بين الاثنتين ، تجعلنا نلاحظ أن الآية الأولى فيها الفاء « فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » ، فهى نتيجة لما كان قبلها من تبدّل حالة الرسول وحالة المؤمنين فى ظروف معينة من العسر إلى اليسر ؛ والآية الثانية مجرّدة من الفاء « إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » ، فهى جملة مستقلة تدلّ على أن طبيعة الحياة أن يكون فيها آلام وضيق ، وهذا الألم أو الضيق ينتهى حتما إلى اليسر إذا وُجد الإيمان ، والأمل ، والصبر ، والمثابرة ؛ وفى الآية

(١) سورة آل عمران ، من الآية ١٥٩ . (٢) سورة التوبة ، آية ١٢٨ .

أيضا أن الشدّة التى يقع الإنسان فيها ، والعسر الذى يضايقه ويعانيه ، فيه يسر خفىّ لاتعرف مأتاه ، ولا تدرى من أين جاء ، وكأن اليسر نتيجة طبيعية للعسر .

وكُلُّ الحادِثاتِ وإنْ تَناهَتْ يَكُونُ وَرَاءَها فَرَجٌ قَرِيب

ثم تختتم السورة بآية صغيرة ، فيها أن المؤمن مطالب بالعمل دائما للحياتين ، الأولى والآخرة ، « فإذَا فَرَغْتَ فانْصَبْ » أى إذا فرغت من تعب ، فاتعب فى عمل آخر ، فإذا فرغت من العمل للدنيا ، فانصب وأتعب لنفسك فى العمل للآخرة ، وإذا فرغت من العمل للآخرة ، فانصب ، وأتعب نفسك للعمل فى الدنيا ، وهكذا كان الرسول ينتهى من الجهاد إلى الدعوة ، ومن الدعوة إلى العمل ، ومن العمل إلى الشكر ؛ فنعم الله كثيرة ، والمؤمن ينتقل بينها بغية الحصول على أكبر أجر ممكن فيها متى أخلص النية ، وقصد بعمله وجه الله وحده « وَإلى رَبِّكَ فارْغَبْ » فيما عنده ، واطمع فى ثوابه .

سورة التين

« وَالتِّينِ وَالزَّيْتُون ، وَطُورِ سِينِينَ ، وَهَذَا البَلَدِ الأمِين ، لَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسانَ فِى أحْسَنِ تَقْوِيم ، ثُمَّ رَدَدْناهُ أسْفَلَ سافِلِين . إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أجْرٌ غَيْرُ مَمْنُون ، فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بالدِّين ، أليْسَ اللهُ بأحْكَمِ الحاكِمِين » .

لما ذكر الله سبحانه فى سورتى « الضحى والشرح » حال النبىّ ، أى حال أكمل مخلوق ، ذكر فى « سورة التين » حالة الإنسان عامّة ، وأنه خلقه فى أحسن تقويم فقال : « وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ، وَطُورِ سِينِينَ ، وَهَذَا البَلَدِ الأمِينِ ، لَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسانَ فِى أحْسَنِ تَقْوِيم » . القسم هنا ببقاع مقدسة شريفة ؛ فالبلد الأمين هو مكة مقام إبراهيم ، أقامه الله هدى للعالمين ، وهو مولد الرسول الأمين ، ومن دخله كان آمنا ؛ وطُور سِينين : هو الجبل الذى ناجى فيه « موسى » ربه ،

وفى اللغة أيضا أن سينين جمع سينيه : وهى الشجر ؛ والتين والزيتون اسمان لجبلين نبتت فيهما هذه الأشجار ، وكانا فى القديم يسميان « طور سينا » و « طور زيتا » . والقسم فى كل حال بالأماكن المقدسة ، أماكن الأنبياء ، ومنابع الهداية ، ومواضع الإسراء والمناجاة ، يقسم بها الله تذكيرا بالهداية ، وتنبيها إلى المنافع فيها ؛ والمقسم عليه أن خلق الإنسان فى أحسن تقويم فى المادّة والصورة ، والتفرّد بالذكاء وحسن التصرّف ، والتغلب على كل ما حوله من الكائنات ، بما فيه من المواهب والغرائز التى لاتوجد فى غيره من بقية المخلوقات ، فهو كما قال الأول :

دَوَاؤُكَ فِيكَ وَمَا تَشْعُرُ ... وَدَاؤُكَ مِنْكَ وَمَا تُبْصِرُ
وَتَزْعُمُ أَنَّكَ جِرْمٌ صَغِيرٌ ... وَفِيكَ انْطَوَى العَالَمُ الأَكْبَرُ

« ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ » من الشباب إلى الهرم ، ومن القوّة إلى الضعف : تقوّس ظهره بعد اعتدال ، وتشقق جلده واسترخى ، وكلّ بصره وكان حديدا ، فقلّ سمعه وكان دقيقا ، وتغيرت مشيته ، وخفتت صوته . والآية نظير أختها « وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ العُمُرِ » ونظير « وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى الخَلْقِ » [1] . « إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » ، أى أن الذين آمنوا لهم أن يطمئنوا فى الكبر وفى الشيخوخة إذا عجزوا عن القيام بصالح الأعمال ، فأجرهم متصل وباق ، وغير ممنون ولا مقطوع ، ففى الحديث : « إذا مرض العبد أو سافر كتب الله له من الأجر مثل ما كان يعمل صحيحا مقيما » ، وفى الآية إشارة إلى اغتنام فرصة الشباب والإنسان فى أحسن تقويم ، بدل أن ينتظر فيردّ إلى أسفل سافلين ، فلا يستطيع حراكا ولاعملا ، يقول : ياليتنى يا ليتنى ! « فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ » بعد أن تبينت أيها الإنسان ما تبينت « أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ وأعدل العادلين ، والحاكم لابد أن يسأل ، والعادل لابد أن يحكم ، فهناك رجعة إلى الله ، وهناك مسئولية وجزاء ، « فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِينِ أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِين » ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأها قال : « بلى ، سبحانك أنت أحكم الحاكمين » .

(١) سورة الحج ، آية ٥ .
(٢) سورة يس ، آية ٦٨ .

سورة القلم

سورة « القلم » سورة مكية، وآياتها من أوائل القرآن نزولا بعد سورة « العلق » التى أولها « « اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ » فإنه لما نزل الوحى على الرسول وهو فى غار حِراء « رجع إلى زوجته خديجة » فى حالة غير عادية ، وهذه أخذته إلى ابن عمها (وَرَقة بن نَوْفل) ، فبشره بأن هذا الناموس الجديد أنزله الله على الأنبياء قبله ، وتمنى له الخير ، كما تمنى لنفسه أن يُبقى الله على حياته حتى ينصُر الرسول ويُؤَزِّره .

شاع أمر الرسول فى أهل مكة ، فرماه القوم بالجنون والفتنة ، فأنزل الله هذه الآيات : « نَ . وَالقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُون . ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُون . وإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غيرَ مَمْنُون . وإنك لَعَلى خُلُقٍ عَظِيم » [1] .

اختلف المفسرون فى هذا الحرف (نَ) ، فمن قائل إنه حرف الهجاء العادىّ ، وهذا ما جرى عليه نظم القرآن فى بعض ابتداءات السور ، من أن ما بعد هذه الحروف لا يخرج عن الكلمات العادية ، وأن هذه الكلمات مؤلفةٌ من الحروف التى تعرفونها ، ومع ذلك وقفوا جميعا أمام تحدّى القرآن ، فلم يستطيعوا أن يأتوا بسورة أو آيات أو آية من مثله ! ! ويفسرها بعضهم بالحوت ، لأن « نون » واحد « النِّينان » مثل حُوت وحِيتان ، ولكن هذا التفسير لا يلائم كلمة « القلم » بعدها ، اللهمّ إلا إذا أردنا ماقرّره المفسر « النيسابورىّ » من أن السحرة (وهم أوائل من كتب ورمز بالخط فى الإنسانية) كانوا يستخرجون الحِبر من الحيتان ، وإذن يكون « نون » بمعنى المداد ، ويكون القسم بالمداد والقلم . وهو تفسير نرتضيه ، لأن القسم بالمداد والقلم قسم بما فى علم الله ، وبما فى صدور العلماء مما يسطرون ، وهو قسم لتقدير العلم ، وللحثّ على طلبه والاعتزاز به ؛ ويؤيد هذا التفسير أن سورة « ن »

---

(١) سورة القلم ، الآيات ١ – ٤ .

نزلت بعد سورة « العلق» التى فيها « اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ، الَّذِى عَلَّمَ بالقَلَمِ ، عَلَّمَ الإنْسان ما لَمْ يَعْلَمْ » .

هذا هو القسَم ، أما المقسَم عليه ، فالآية بعد ذلك « ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُون » ، أى ما أنت بمجنون ، بسبب نعمة ربك عليك ، وأكبر النعم العقل ، ومن أُنعم عليه بالعقل ، بعيد كل البعد عن الجنون . « وإنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُون » أى إنّ أجرك موصول غير مَقْطوع ، والأجر كِفاء القيام بالتكاليف ، ولا تكليف إلا مع العقل . وأجرك غير ممنون لتحملك المُمِضّات المؤلمات من قومك .

« وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيم » هو الخلق الذى أمره الله به : « خُذِ العَفْوَ ، وأْمُرْ بالعُرْف ، وأعْرِضْ عَنِ الجاهِلِين » [١] . وكانت عائشة إذا سُئلت عن خلق الرسول تقول للسائل : خلقه القرآن ، ألست تقرأ فيه « قَدْ أفْلَحَ المُؤْمِنُونَ » [٢] ! « فَسَتُبْصِرُ ويُبْصِرُون ، بأيِّكُمُ المَفْتُون » [٣] أى ستعلم بعد نجاحك فى رسالتك ، وسيعلمون بعد إخفاقهم فى حربهم وعنادهم ، أيهم المفتون والمجنون الذى فتن فى عقله ، وامتحن بالجنون ؛ ومثلها « سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الكَذَّابُ الأَشِر » [٤]

« إنَّ رَبَّكَ هُوَ أعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أعْلَمُ بالمُهْتَدِين » [٥] وأحرى بمن أضله الله على علم بالحقّ ، أن يكون هو المجنون ، لا هؤلاء الذين عرفوا الحقّ ، وطبعوا على مكارم الأخلاق !

وبعد أن رَمَوا الرسول بالجنون ، وهم يعلمون فى قرارة أنفسهم أن عقله من نور الله ، وأن هدايته من هدى ربّ العالمين ، عمدوا إلى مفاوضته فى أمر دينهم ، يريدون أن يصانعهم ويسايرهم ، ويَرضى عن معتقداتهم ولو بعض الرضا ، فحذره الله منهم ومن مراوغتهم « فَلا تُطِعِ المُكَذِّبِين ، وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ

(١) سورة الأعراف ، آية ١٩٩ .
(٢) تريد الآيات التى ابتدأت بها سورة « المؤمنون » وكلها من أمهات الأخلاق وفضائلها .
(٣) سورة القلم ، آية ٥ ، ٦ .
(٤) سورة القمر آية ٢٦ .
(٥) سورة القلم ، آية ٧ .

فَيُدْهِنُونَ »[١] ، أى ودّوا لو تحاسنهم ، وتلين لهم فى الرضا عن معتقداتهم ، حتى يرضَوْا عنك ، وودّوا لو تصطبغ بصبغة أخرى غير صبغة الله الذى فطرك وفطر الناس عليها ، فيتلوّنون باللون الذى يرضيك ، ولكن الله حذّره منهم ، وحفظه من مكرهم ، وأمره أن يردّ عليهم بقوله « لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ[٢] ». ثم وصفهم الله — زيادة على الكذب — بأخس مايتصف به المرء إذا تخلى عن عقله وطاوع هواه : « وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ، هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ، مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ، عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ، أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ، إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ »[٣] .

وصفتهم الآيات بعشر خصال ، هى فى عمومها صفات المنافقين :

الأولى : أن من يتصدّى لك « حلاّف » كثير الحلف . والثانية : أنه « مهين » ضعيف الرأى . والثالثة : أنه « همّاز » يطعن الناس فى كرامتهم . الرابعة : أنه « مشّاء بنميم » يمشى بين الناس بالنميمة ، وينقل أحاديثهم بقصد الوقيعة . الخامسة : أنه « منّاع للخير » لايفعله ولا يرضى به . السادسة : أنه « مُعْتَدٍ » يتعدى حدود الله وحدود العدل فى معاملة الناس . السابعة : أنه « أثيم » كثير الذنب ، لايقوم من إثم إلا ليقع فى آخر ، لايتوب ، ولا يَرعوى ، ولا يستفيد . الثامنة : أنه « عُتُلّ » وهو الأكول الشروب ، الجافى الغليظ القلب ، الغليظ النفس . التاسعة : أنه « زنيم » يندسّ فى الناس ، ونسبه غير معروف فيهم . ينهى الدين عن اتباع من به هذه الصفات مهما كانت مكانته فى المجتمع ، ولو كان ذا مال وبنين . ويجوز أن يكون المعنى أن « الوليد بن المغيرة » الذى نزلت فى حقه الآيات ، كان « إذا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » ، وخرافات من خرافات الأقدمين ، لأنه كان ذا مال وبنين ، فالثروة تطغى وتضلّ . وتكون الخصلة العاشرة ، هى تكذيب الحقّ : وتكذيب الداعى إليه اعتمادا على الجبروت والسلطان .

هذه حالة المكذّبين وهذه صفاتهم ، وفى الآخرة عقابهم « سَنَسِمُهُ عَلَى

---

(١) سورة القلم ، الآيات ٨ ، ٩ .

(٢) سورة الكافرون ، آية ٦ .

(٣) سورة القلم ، الآيات ١٠ — ١٥ .

الخُرْطُومِ » [١] . والوسْم : العلامة ، والخُرطوم : الأنف ، والأنف موضع العزّة والكبرياء ، ومن هنا يقال : «فلان شامخ بأنفه» أى متكبر « وفلان جُدِع أنفه » أى ذلّ . والوعيد هنا أن «الوليد بن المغيرة» الذى كان يتصدّى للرسول بالتكذيب ستكتب عليه الذلة فى الدنيا والآخرة .

ثم تضرب الآيات لهم الأمثال « وتُشبِّه حالتهم بحالة قوم أغنياء كانوا فى جنوبىّ بلاد العرب مما يلى الحبشة ، وكان لهم بستان يكفيهم ، وكان والدهم يتصدّق بالفاضل منه ، فلما مات أبوهم منعوا المساكين رزقهم ؛ لذلك تقول الآيات : « إنَّا بَلَوْناهُمْ كَمَا بَلَوْنا أصْحَابَ الجَنَّة ، إذْ أقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحِين » [١] ؛ أى اختبرنا أهل مكة ، كما اختبرنا أهل اليمن ، الذين أقسموا بعد موت والدهم أن يقطعوا ثمارها فى الصباح الباكر والمساكين نيام ، « ولا يستثنون » فى قسمهم بقولهم إلا أن يشاء الله ! فلما عزموا على حرمان المساكين ، طاف على جنتهم طائف من عذاب ربك وهم نائمون ، فأصبحت الجنة كالصريم ، أى الحقل المقطوع ، فلما استيقظوا « تَنادَوْا مُصْبِحِينَ أنِ اغْدُوا على حَرْثِكُمْ إنْ كُنْتُمْ صَارِمِين » ، فانطلقوا صباحا وهم يتخافتون حتى لايسمعهم الفقراء ، وحتى لا يَدْخُلَها اليوم عليهم مسكين ، « وغَدَوْا على حَرْدٍ قادِرِين » أى ساروا إلى بستانهم وهم عازمون على حَرْد المساكين ، ومنعهم من أن يأخذوا منه شيئا ؛ فلما رأوا بساتينهم بعد أن طاف عليها طائف من عذاب الله ، قالوا « إنَّا لَضَالُّون ، بَلْ نَحْنُ مَحْرُومون » . وكان الولد الأوسط يخشى عذاب الله ، وقد حذّرهم عاقبة بخلهم « قالَ أوْسَطُهُمْ أَلَمْ أقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُون ، قالُوا سُبْحانَ رَبِّنا ، إنَّا كُنَّا ظالِمِين ، فأقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ ، قالُوا يا وَيْلَنا إنَّا كُنَّا طاغِينَ ، عَسَى رَبُّنا أنْ يُبْدِلَنا خَيْراً مِنْها إنَّا إلى رَبِّنا راغِبُون ، كَذَلِكَ العَذَابُ ولَعَذابُ الآخِرَةِ أكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُون » [٢] .

---

(١) سورة القلم ، آية ١٦ .

(٢) سورة القلم ، من آية ١٨ ، ٣٣ .

محمد المهاجر

اختار الله محمدا ليضطلع بهذه المهمة العظمى ، مهمة الرسالة ؛ فنشأ طفلا ولا ككل الأطفال ، بعيدا عن نزق الغريزة ، منزّها عن السرف فيما تطلبه . ثم كان شابا ولا ككل الشباب ، لم يمل ميلهم ، ولم يجنح إلى ما إليه يجنحون ، فكان مصفّى ، وكان مصطفى ، وكان مختارا من أول الأمر للأمر العظيم ، يحمل من مشاقّه ومتاعبه ما ينقض ظهره ، ويُرهقه من أمره عسرا .

تعبّد قبل الرسالة صامتا ، وانفرد بنفسه متعبدا ، وفكر فى أمر قومه : كيف السبيل إلى هدايتهم ، ثم كيف السبيل إلى نفوسهم ، وهى صعبة لاتلين إلا للباطل ! ولا تجرى إلا وراء الهوى ! تلك هى الحيرة التى أخرجه الله منها لما امتنّ عليه بقوله « وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى ، وَوَجَدَكَ عائلا فأغْنَى »[1] ، وأخيرا اختاره «الحقّ» ، داعيا إلى الحقّ ، وأمره أن يبدأ فى دعوته بأهله ، وبالأقربين من عشيرته ، وأن يستعدّ للأمر ، وأن يستعين عليه بالصبر ، فالأمر جَلَل ، والرسل كذبت من قبله ، فليس له إلا أن يصبر كما صبر أولو العزم من الرسل . وأخيرا يأمره الله أن يصدع بما يُؤمر ، وأن يعرض عن المشركين . أعرض عنهم ، ولكنهم تعرّضوا له ، ولمن أسلم معه ودخل فى الإسلام ، بعد أن شرح الله صدره للإسلام .

هاهم أولاء السلمون سبعة ، ثم هاهم أُولاء عشرة يختفون فى دار « الأرقم بن أبى الأرقم » ، ثم هاهو «محمد» الرسول يختفى مرّة فى داره ، ومرّة فى دار صاحبه ، ويظهر الدعوة آونة ، ويخفيها آونة أخرى ، وأخيرا يدفعه الحقّ إلى عيب الآلهة ، وتسفيه الأحلام ، وذمّ الآباء ، فيتعرّض له ولصحبه سفهاء مكة بالأذى والعقوبة ، ويشتدّ الأذى كلما جهر الرسول بالدعوى ، وهو لايلين مع الأذى ، ولا ينى مع التعذيب ، بل كان يدعو إلى الحقّ ليلا ونهارا ، وسرّا وجهارا ، لايصدّه صادّ ، ولاتأخذه فى الله لومة لائم . ولكن هذا المندفع بالله ولله ، رقيق القلب ، مشبوب عاطفة الرحمة ،

(١) سورة الضحى ، الآيتان ٧ ، ٨ .

له مما خصه الله به من صبر وجلد ، ما يجعله يحتمل الأذى ، وأنّى لمن معه من المسلمين مثل جَلَده وصبره ؟! لذلك كان يُمِضّه أن يرى بعض أصحابه يعذّب فى الهَجير ، ويطعن بالحراب ، « وأبو بكر » من خلفه يشترى الأرقاء من المسلمين بماله ، ثم يعتقهم ليجنبهم الأذى ، فكان أوّل من أنزل فيه « وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ، الَّذِى يُؤْتِى مالَهُ يَتَزَكَّى ، وَما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ، إِلاَّ ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ، وَلَسَوْفَ يَرْضَى »[1] .

وأخيرا يشتدّ البلاء ، فيأمر الرسول أصحابه بالهجرة ، أو بالفرار بدينهم إلى الحبشة ، فيخرج أوّل من يخرج « عثمان بن عفان » ومعه زوجته « رقية » بنت الرسول ، ويجتاز البحر الأحمر مع نفر من أصحابه وجماعة من أوائل المسلمات .

يبقى الرسول فى مكة مجاهدا مجالدا ، وقريش تبدى كل يوم صفحة جديدة من العداوة والعدوان ، ولكن الرسول كان مجلّلا بالهيبة ، تهمّ به السفهاء ، ولا ينالون منه شيئا كثيرا ، صانه الله بنفسه ، وصانه بعمه « أبى طالب » ، وكان شريفا فى قومه ، مطاعا فيهم ، نبيلا بينهم ، لايتجاسرون على مفاجأته بشىء فى أمر ابن أخيه ، لما يعلمونه من شدّة محبته له . ويرى كثير من علماء السيرة أن « أبا طالب » عمّ الرسول أضمر الإسلام ، وبقى ظاهرا على مذهب قريش لحكمة أرادها الله ، فلو أظهر إسلامه لَعُدَّ من المستضعفين ، ولناله مانال المسلمين الأولين ، ولفقد الرسول نصرة عمه العظيم فى قومه . ولكن أباطالب يموت ، وزوجة الرسول « خديجة » تموت ، فتعظم المصيبة على الرسول ويقول : « ما نالَتْ قُرَيْشٌ مِنِّى شَيْئاً أَكْرَهُهُ حَتَّى مات عَمِّى أَبُو طالب » !

ينتقل الأمر بعد موت « أبى طالب » إلى مرحلته الجدية ، ويشتدّ الأذى بالرسول

---

(١) سورة الليل ، الآيات ١٧ – ٢١ .

وبأصحابه ، وتشتدّ الحملة ضدّ قريش أسرة الرسول ، ويقاطعها العرب ، وتصاب بالجدب والمجاعة فى شدّة حصار المقاطعة ، فيخرج الرسول إلى الطائف عارضا نصرته على الناس ، ثم يرجع إلى مكة يرصد الوفود فى مواسم الحجّ ، ويعرض نفسه وأمره عليهم ، وعمه « أبولهب » يسعى من خلفه يسفّه قوله ويقول : كاهن ، وشاعر ، ومجنون ، ويتفق أن يجىء رجال من الأوس والخزرج يحُجّون ، فيتقابلون مع الرسول الذى حدثهم بشأنه أهلُ الكتاب فى المدينة ، فيبادرون إلى الإسلام ، ويستبِقون الخيرات ، ويرجعون إلى قومهم داعين مبشرين . ويزيد عددهم فى العام القابل ، ويرسل الرسول معهم اثنين من المعلمين يعلمانهم الدين الجديد ، والقرآن أساسَ هذا الدين ، وينزل المعلّمان « مُصعَب بن عُمير » و« عبد الله بن أم مكتوم » فى « بنى عبد الأشهل » ، فما يمسى فى القبيلة رجل ولا امرأة إلا وقد أسلم !

يكثر إذن عدد الأنصار ، ويجيئون فى العام القابل فى جمع عظيم ، ويتسلل منهم ليلا ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان ، ليقابلوا الرسول ومعه « أبوبكر » و« علىّ » وعمه « العباس » ولمّا يسلم بعد . تقرّر فى هذه الجمعية السرية أمر الدعوة الجديدة ، ووقف « علىّ » على رأس الطريق يحرسه ، وبثّ « أبوبكر » العيون والأرصاد ، حتى لا يفسِد عليهم المشركون ما يدبرون فى جمعيتهم السرية ، ويقف العباس خطيبا يقول للأنصار : « يامعشر الخزرج ! إن محمدا منا حيث علمتم ، وقد منعناه من قومنا ، وأبى إلّا الانحياز لكم ، واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم ، فدعوه من الآن ، فهو فى عزّة ومنعة من قومه وبلده » ، فيقول الأنصار : « قد سمعنا ما قلت ، والقول قولك يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما شئت من عهود ومواثيق » . يشتدّ أمر الدعوة ، ويشتدّ الأذى على أصحاب الرسول ، فيعزم على الهجرة للحاق بالأنصار .

وهنا لا بدّ أن نقف من التاريخ نسأله ، لماذا يهاجر الرسول من الوطن ؟ أخشى على نفسه ؟ أم خشى على دعوته ؟ ولِمَ لم يلْقَ القوم وجها لوجه

فى حرب تكون الفاصلة أو القاضية ، وحسبه أنه استشهد فى سبيل الله ؟ !

أسئلة ترد على نفس المؤمن ، وقد أوردها التاريخ ، ولا بدّ من التعرّض لها هنا . أما خوفه على نفسه فلم يؤثر عنه خوف ، ولم تتملكه رهبة فى سبيل الله ، وقد أمر جلّة أصحابه بالهجرة قبله ، ولم يبق فى مكة إلا هو و« أبوبكر » «وعلىّ» ، ومن يفعل هذا لايتملكه خوف ولا رهبة . ولم يرد الرسول أن يلْقى القوم فى حرب بمكة لأمرين : الأول أنها بلد حرام ، والثانى أن قومه قليل ، فالدخول بهم فى معركة قاضية غير مأمون العاقبة ، ولم يعرف عن الرسول تهوّر أو اندفاع فى نفسه أو فى دعوته . أما خوفه على الدعوة فنعم ، لأنه لو تعرّض لهم تعرّضا مباشرا ، وقضى نحبه فى سبيل الله ، لقضى على الدعوة فى مهدها ! فلم تبق إلا الهجرة ، والتماس الوطن الروحى لنشر الدعوة ؛ والمصلح يطلب الحياة لنفسه لأنها حياة للناس ، فهو يعمل على الحياة لكى لايموت الناس ، إن حياة الرسول حياة لمبادئه ، فليعمل أوّلا على حياة مبادئه ، ثم لايبالى بعد ذلك بحياته متى تمت النعمة ، وكمل أمر الدين ، ورضى الله لرسوله ولقومه الإسلام دينا . لابد إذن من الشخوص إلى المدينة ، فالإقامة فى مكة صعبة ، وثلاث عشرة سنة لم تؤثر فى أهليها التأثير الذى يريد . أما الأنصار فهم وإن كانوا قلة ، إلا أنهم دخلوا الدين باندفاع وعقيدة ، فهم نصراؤه وحواريّوه ، ولا بدّ من العيش معهم ؛ هذا إلى أن المدينة مجمع لحركة دينية أوجدها أهل الكتاب ، فلا بدّ من الاحتكاك بهم ، لتتخذ المبادئ الجديدة مكانتها من النفوس .

كل ذلك دار بخلَد رسول الله ، وأُمر به رسول الله ، فصمم على الهجرة فى الوقت الذى صمم فيه المشركون على قتله . يُبيِّت قومه القتل ، ويبيت هو الهجرة ، وينام «علىّ» مكانه لينجو الرسول من القتل ، ويخرج مع «أبى بكر» يلفهما الظلام ، ويسبل الله عليهما ستره ورعايته ، فلا يراه القوم وهو فى مدار عيونهم ، وفى مجال خطواتهم ! ويبكى « أبو بكر» مشفقا على الرسول ، ثم يلمح النجاة فيبتسم ، والدموع فى عينيه ، ويقول :

يا رسول الله ! « لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لرآنا » . فيقول الرسول : « يا أبا بَكْرٍ ما ظَنُّكَ باثْنَيْنِ اللهُ ثالِثُهُما؟» : « إلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إذْ أخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثانِيَ اثْنَيْنِ إذْ هُما فِي الغارِ ، إذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إنَّ اللهَ مَعَنا ، فأنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وأيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها »[1] .

وهناك فى المدينة ظهر الدّين بتشريع مدنىّ جديد ، وبتشريع عالمىّ جديد . وهناك فى المدينة ظهر «محمد» الاجتماعىّ العظيم ، الذى عرفته الأجيال ، يُجيِّش الجيوش للحقّ والفضيلة ، ويجيِّش الجيوش على الباطل وعلى الرذيلة ، فيُزْهق الباطل ، ويحقّ الله الحقّ بكلماته . وهناك فى المدينة وجد وطنه الروحى ، فليس الوطن جدرانا وحيطانا ، إنما الوطن مبادئ وأفكار يطبعها المواطنون ، فيكون الوطن للمؤمنين ، يوم يكون الدين كله لله .

---

(١) سورة التوبة من الآية ٤٠ .

محمد المجاهد

لم يكن العُنف من طبع الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولم تكن القوّة مما يلجأ إليه ؛ نعم كان قويا ، مفتول الذراع ، عريض المنكب ، سليم الجسم والبِنية ، ولكن لم يؤثر عنه أنه اندفع فى شبابه كما يندفع الشبان ، أو أنه اعتزّ فى كهولته بما يعتزّ به الرجال الأقوياء فى تمام رجولتهم .

والرسالة التى حُمِّلها من ربه ، رسالة أساسها العقل والفهم والتدبُّر ، أُمر أن يعرضها عرضا رفيقا لاتنقصه الشجاعة ، وعرضا كريما أساسه الحكمة والموعظة الحسنة ؛ فإذا نُوقش فى رسالته — وكان لابدّ من اللَّدَد والخصومة — فبالتى هى أحسن ، وبالطريقة التى هى أمثل ، فإذا سمع لغوا أعرض عنه ، وإذا رأى آثارا من آثار الجاهلية والتجاهل ، مرّ بها مرّا كريما ، وتجاوز عما فيها من هَنات وسيئات . كان مؤدَّب الطبع ، مهذّب الغريزة ، صحيح الميل ، لايعرف الهوى والغَواية ، لأن سبيله سبيل الرشاد والهداية ؛ فإذا أنصت لها القوم تحققت أعزّ أمانيه ، وإذا أعرضوا عنها ، تعرّض لهم بالحسنى ، ورجا الله فى أنفسهم ، علّها ترجع إلى ربها ، ثم رجا الله فى ذرارِيهم ، علها تنشأ على غير نشأتهم ، وتسلك غير سبيلهم ، وعلى الله قصد السبيل ، ولو شاء لهداهم أجمعين .

وكان مع طبعه اللين لايلين للباطل ، ولا يتركه يغرّر بالناس ، ولا يترك أربابه ينشرونه كذبا وأوهاما ، ويطلقونه خرافات ما أنزل الله بها من سلطان ؛ فقد جاء ليحارب هذا الباطل ، وكان لابدّ أن يتعقبه حتى لاتقيم عليه النفوس ، ولا بدّ أن يعمل على نجاة هؤلاء الذين أنصتوا للهداية ، وأجابوا داعىَ الله .

تجمع حوله الباطل ، وتجمّع عليه الباطل ، يريد أن يخنق دعوته ، ويميتها وليدة ، حتى لايقوى أمرها ؛ وكان أول ما عمل أن أشار على قومه بالهجرة ، وأن يبقى مع نفر قليل من قومه ينظرون ما تأتى به الأحداث . ثم ما لبث الأمر أن اشتدّ ، بعد أن بيَّت

القوم الوقيعة بالرسول وبصحبه : فلا بدّ من قتله ، ولا بدّ من أن يتفرّق دمه فى القبائل ، حتى تعجز « قريش » إذا أرادت الأخذ بثأره . فلم ير بُدّا من أن يهاجر بنفسه ، فكانت تلك الهجرة الجريئة التى لم يعرفها التاريخ من قبل : رجلان يتوكأ أحدهما على الآخر ، ويتوكأ الآخر على عقيدته ، يسيران فى تيه الصحراء ، وظلام الطريق ، حتى إذا خشيا الدّرَك ، التجأا إلى غار ليختبئا فيه تحت سمع القوم ، وتحت أبصارهم ، والرسول ورفيق الغار ملتفان فى ستر الله ، محفوظان بعين الرعاية ، مستدفئان بحرارة الإيمان ، مرتويان ببرد اليقين .

كانت الهجرة هى الجهاد الأوّل ، فالدعوة جديدة ، ولا بدّ لها من أنصار ، و « الأنصار » فى المدينة ، والأعداء فى مكة ! ولكن مكة هى الوطن فكيف يهجره ؟! وفى مكة الأهل فكيف يتركهم ؟! وليست المسألة مسألة أهل ووطن ، فهى أجلّ من ذلك وأسمى ، إنها مسألة دعوة جديدة ، لابد من العمل على إدخالها فى النفوس والقلوب ، وإنها مسألة دين جديد ، لابدّ له من حواريين وأنصار ، يتجمعون حوله معتقدين ، ثم يتكاثرون ويتزايدون مستيقنين ، ثم ينسابون فى الأرض ينشرون تعاليمه ، منافحين ومجاهدين ؛ الأهل هنا هم المؤمنون ، والوطن هنا هو رقعة الأرض كلها !

ولكن القوم لايزالون يتعقبون هذا المجاهد ، ويعملون على انفضاض الناس من حوله ، والناس يدخلون فى دينه أفواجا ! سماحة المجاهد من سماحة دينه ، وثبات المجاهد من عزمه ويقينه ، يسيئون فيعفو ، وينكرون فيستغفر ، ويستبدّون فيستشير ويتردّدون فيعزم ، وتخور عزيمتهم فيمضى متوكلا على الله « فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فاعْفُ عَنْهُمْ ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ على الله ، إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَوَكِّلِين » [1] .

إن سماحة المجاهد أغرتهم بالدين ، فما الظنّ بالدين نفسه وبسماحته ؟! حرّر

(١) سورة آل عمران ، آية ١٥٩ .

رقابهم من الرقّ ، وحرّر قلوبهم من الشرك ، وحرّر أموال الضعفاء من العدوان ، وحرّر الضعفاء أنفسهم من استبداد السلطان ، عفا عن المسيء ، واستدعى المتكبر الصّلِيف من بعيد ، فنزل عن جبروته وتسلطه ، واتخذ مكانه بين المؤمنين ، وأعزّ المستسلم الضعيف ، فأدناه إلى صفوف الأقوياء ، وأخذ الحقّ من القوىّ حتى أسلس ، وأخذ الحقّ للضعيف حتى اعتزّ ، وساوى بينهم فى المنبت والميلاد ، وفرّق بينهم فى التقوى وصالح العمل ، وأفهمهم أن الحياة السعيدة ، فكرة وعقيدة ، وأن الناس تتمزّق بهم الأهواء ، وتوحّد صفوفهم الآراء ، فألّف بين قلوب الأعداء ، وجعل منهم إخوانا وأصدقاء ، وبعد أن كان بأسُهم بينهم ، أصبحوا وهم أشداءُ على الكفار رحماءُ بينهم .

ولكن المجاهد لم يقف عند هذا الحدّ من الجهاد ، فلم يقف قومه ومعاندوه عند حدّ فى العناد ، تألّبوا عليه يريدون حربه ، وأغرَوْا به جيرانهم من ذوى النفوذ والسلطان ؛ ألّبوا عليه القبائل ، وأخافوا الأمم من بسطة نفوذه ، وعزم نفاذه ، فدولة فارس فى شرق الجزيرة ، ودولة الروم فى شمالها وأطرافها ، ولو تمالأت الدولتان على الدين الجديد ، لنالتا منه ، لأنهما أمتان حربيتان يعرفهما التاريخ القديم ، ويذكر لهما آثارهما فى حروب كثيرة مستديمة من الدفاع والهجوم .

كان لابدّ لهذا المجاهد أن يستند إلى القوّة ، يسند بها ضعف من حوله من المؤمنين ؛ ودفعُ الاعتداء بالاعتداء ، من أبسط القواعد التى عرفها الناس وسمّوها عدلا ، قبل أن يعرّف العدل بأنه القيام بين الناس بالحقّ والميزان والقسطاس . دفعُ الاعتداء عدل يرجع إلى الغريزة ، وتعرفه الغريزة قبل أن يعرفه الخلُق ، وقبل أن تعرفه العاطفة . كان لابدّ إذن لهذا المجاهد أن ينصت إلى دعوة العدالة التى تقول : «فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ»[1] . وكان لابدّ للمجاهد العظيم من أن يقف بين آيتين ألقى بهما الوحى الأمين ، على قلبه الرحيم . هذه الآية التى توجب عدالة الاعتداء

(١) سورة البقرة ، من الآية ١٩٤ .

بمثله ، والبادئ أظلم ، والآيات الأخرى التى تقول : « وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ . وجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ » [١] . فالآية الأولى لاتحبّ البغى ولا الاعتداء ، ولكنها تقابلهما بما يجب لهما من بغى واعتداء ؛ والآيات الثانية تقرّر أن السيئة يجب أن تقابل بمثلها ، وأنّ الذين أصابهم البغى لابدّ أن ينتصروا لأنفسهم ، ثم تستنجد بعد ذلك بما فى نفس الرسول ونفوس صحابته ، من نبل وكرم ، فتطلب العفو والإصلاح ، وترجو من صاحبهما أن يكِلَ أمره إلى الله . ثم تتفق الآيات كلها على أن مقابلة الاعتداء بمثله يجب أن يجرى على سَنَن التقوى ، وسَمْت المؤمنين ، فيتقون الله فى مقابلة العدوان ، ولا يتجاوزون هذه المقابلة ، فالله مع المتقين إذا أحسنوا فى العقاب ، والله لايحبّ الظالمين الذين يتجاوزون حدود العقاب ويتعدّونها .

وقف المجاهد وإلى جانبه المؤمنون ، أمام هذه الآيات ، فحاربوا لينتصروا بعد ظلم ، ودافعوا فى غير بغى ، « وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ ، فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ . إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ ، ويَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَمَنْ صَبَرَ وغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » [٢] .

---

(١) سورة الشورى ، الآيات ١٣٩ ، ١٤٠ .

(٢) سورة الشورى ، الآيتان ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ .

غزوة بدر

إذا كان فى رمضان ما فيه من الفوائد النفسية التى يجنيها الصائمون ، ويفيدون منها فى صحتهم البدنية والخلقية ، وإذا كان فى رمضان ما فيه من المزايا الاجتماعية التى يفيد منها الأغنياء والفقراء على السواء ، ففيه ذكرى من أمجد الذكريات التى كان لها تأثيرها فى الإسلام وفى المسلمين : هى ذكرى غزوة « بدر » التى أعزّ الله بها الإسلام فى نشأته ، ومكّن فيها للمسلمين فى الدين والدنيا معا .

كانت هذه الغزوة فى شهر « رمضان » فقد خرج الرسول عليه الصلاة والسلام ومن معه من المهاجرين والأنصار ، فى الثانى عشر من هذا الشهر ، وفى الشهر التاسع عشر من مهاجَرِه مكة ، يريد أن يرصُد لأبى سفيان فى تجارته راجعا من الشام ، ويريد أن يحارب هؤلاء الذين أخرجوه ومن معه من ديارهم هربا بدينهم ؛ فمهمته أن ينشر هذه الدعوة التى وعده الله النصر فيها ، ولو أدّى الأمر إلى القتال ، فهم المعتدون ، وهم الظلمة البادئون بالعدوان .

ترك الرسول المدينة مجاهدا فى الله ، ولم يمش إلا قليلا حتى التفت إليها ، كما التفت « إبراهيم » من قبل إلى مكة ؛ ودعا للمدينة وأهلها بدعوة «إبراهيم» لمكة وأهلها فقال : « اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَبْدُكَ وَخَلِيلُكَ دَعَاكَ لِأَهْلِ مَكَّةَ بِالْبَرَكَةِ وَأَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ ، أَدْعُوكَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ أَنْ تُبَارِكَ فِي مُدِّهِمْ وَصَاعِهِمْ ، مِثْلَ مَا بَارَكْتَ لِأَهْلِ مَكَّةَ مَعَ الْبَرَكَةِ بَرَكَتَيْنِ » . ثم التفت إلى من معه من أفراد جيشه ، فرآهم قلّة فى العدد ، وقلة فى الظهر الذى يحملهم ، ونظر إلى حالهم فوجد ثيابا بالية لاتكاد تستر ، ورأى أقداما مغبرة فى سبيل الله ، فتطلّع إلى السماء وقال : « اللَّهُمَّ إِنَّهُمْ حُفَاةٌ فَاحْمِلْهُمْ ، وَعُرَاةٌ فَاكْسُهُمْ ، وَجِيَاعٌ فَأَشْبِعْهُمْ ، وَعَالَةٌ فَأَغْنِهِمْ مِنْ فَضْلِكَ » . ثم قارن بين حالة المسلمين فى فقرهم وقلتهم ، وبين حالة الكفار فى كثرتهم وثروتهم ، فالتفت ثانية إلى المسلمين يقول لهم ماقال الله : « وَلَا تَكُونُوا

كالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بَطَرًا وَرِئاءَ النَّاسِ ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، وَاللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيط » [١] .

علم «أبو سفيان» بخبر خروج الرسول من المدينة لقتاله ، فبعث يستنفر قريشا ، فخرجت فى جمع عظيم ، فيه سبعمائة بعير ، ومائة فرس ، وفى جيش المسلمين فرسان ، وسبعون بعيرا ، ثم غير «أبو سفيان» طريقه ونجا ، ولم يغير الرسول خطته فى قتالهم ، فما كان يريد العير ، إنما كان يريد هذا النفير الذى خرج لقتاله ؛ ولكن الرسول يرهب الموقف هو ومن معه ، ويتطلع إلى السماء يطلب القوّة من الله والعون من القدير ، فيسمع نداء الحقّ يأتى بالمدد « إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ » [٢] أى متتابعين فرقة تردف فرقة .

المسلمون صائمون ، وحريصون على أداء هذه الفريضة ، على الرغم من مشاقّ السفر ، وعلى الرغم مما يعانون ، أو سيعانون من قتال عدوّ لدود ، فيأمر الرسول بالإفطار ، ويتلكأ بعض المسلمين فى تنفيذ الأمر ، طلبا لتعظيم الأجر ، فينادى منادى الرسول مرّة ثانية ويقول : « يا مَعْشَرَ الْعُصَاةِ إِنِّى مُفْطِرٌ فَأَفْطِرُوا » .

ينزل المسلمون على بئر « بدر » ليلة الجمعة السابع عشر من رمضان ، وينزل المطر فيكون غيثا ورحمة للمؤمنين ، ويامحه المعاندون فيفرحون ويقولون « عارِضٌ مُمْطِرُنا » [٣] ، فيردّ عليهم صوت الانتقام « بَلْ هُوَ ما اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ . تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها » [٤] .

ينام المسلمون — وهم على نية القتال — ملء جفونهم ، فيكون المطر رحمة ، ويكون النوم أمنا ، « إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ أَمَنَةً مِنْهُ ، وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ، وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطانِ ، وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ، وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ » [٥] .

---

(١) سورة الأنفال ، آية ٤٧ . (٢) سورة الأنفال ، آية ٩ .
(٣، ٤) سورة الأحقاف ، من الآيتين ٢٤ ، ٢٥ .
(٥) سورة الأنفال ، آية ١١ .

يعدهم ربهم النصر، ويعدهم أنه معهم، وأنه على أعدائهم « إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ ، فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ، سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ، فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ ، وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ »[1] .

يبنى المسلمون العريش للقائد الأعلى ، ويقف على باب القائد « سعد بن معاذ » متوشحا السيف ، ويمرّ القائد بين الصفوف يستعرضها ويرتبها ، ويضع الخطة ، ويعقد نفسه على اليقين بالله ، ويقول « قد صففت صفوفى ، ووضعت رايتى ، فلا أغير شيئا » ويخرج « سواد بن غزية » عن الصفّ ، فيدفعه الرسول فى بطنه ، ويقول له : « اسْتَوِ يا سَوَاد » ، وفى هذا الموقف يغلب الحبّ الشجاعة ، فيتدلّل «سواد » ويقول : «يا رسول الله أوجعتنى والذى بعثك بالحقّ ! أقِدْنى ! (أى مكّنى من القَوَد) ومن أن أقتصّ منك كما أوجعتنى »! فيكشف الرسول عن بطنه ويقول : « اسْتَقِدْ يا سَوَاد » فيقبل الجندىّ على قائده يعانقه ويقبله ، ويذهب الرسول ويقول له : « ما حَمَلَكَ على ما صَنَعْتَ ؟ » فيقول « سواد » : « حضر من أمر الله ما قد ترى ، وخشيت القتل ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمسّ جلدك جلدى وأن أعانقك » !

يقف قائد الله ، يخطب فى جند الله ، ويقول : « أما بعد ، فإنى أحثكم على ماحثكم الله عليه ، وأنهاكم عما نهاكم عنه ، فإن الله عظيم شأنه ، يأمر بالحقّ ، ويحبّ الصدق ، . . . وإنكم قد أصبحتم بمنزل الحقّ ، لايقبل الله فيه من أحد إلا ما ابتغى به وجهه ، وإن الصبر فى مواطن اليأس مما يفرّج الله به الهمّ ، وينجى به من الغمّ ، وتدركون به النجاة فى الآخرة ، فيكم نبىّ الله يحذركم ويأمركم ، فاستحيوا اليوم من أن يطلع الله على شىء من أمركم يمقتكم عليه ، فإن الله يقول : « لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم . . . » وابلُوا ربكم فى هذه المواطن أمرا تستوجبوا الذى وعدكم به

(١) سورة الأنفال ، الآيتان ١٢ ، ١٣ .

من رحمته ومغفرته ، فإن وعده حقّ ، وقوله صدق ، وعقابه شديد ، وإنما أنا وأنتم بالله الحيّ القيوم ، إليه ألجأنا ظهورنا ، وبه اعتصمنا ، وعليه توكلنا ، وإليه المصير ، يغفر الله لى وللمسلمين » .

وتغلب الرأفة والرحمة على دفع الظلم والعدوان ، فيرسل إليهم الرسول « عمر بن الخطاب » يحذّرهم عاقبة الله ، وأنه عزيز على نفس الرسول أن يقاتل أهله ، ويقول لهم « حكيم بن حزام» « قد عرض نصفا فاقبلوه ، والله لاتُنصرنّ عليه بعد ماعرض من النصف» ، فيقول «أبوجهل» : «والله لانرجع بعد أن أمكننا منهم» ، ويقبلون فى خيلهم وخيلائهم ، ويصيح القائد الأعلى فيقول : « اللَّهُمَّ إنَّكَ أنْزَلْتَ عَلَىَّ الكِتاب ، وأمَرْتَنِى بالقِتال ، ووَعَدْتَنِى إحْدَى الطَّائِفَتَيْن ، وأنْتَ لاتُخْلِفُ المِيعاد ، اللَّهُمَّ هَذِهِ قُرَيْشٌ قَدْ أقْبَلَتْ بِخُيَلائِها وفَخْرِها ، تُحادُّكَ وتُكَذِّبُ رَسُولَك ، اللَّهُمَّ فَنَصْرُكَ الَّذِى وَعَدْتَنِى ، اللَّهُمَّ أحِنْهُم الغَدَاة » أى أهلكهم الآن .

ينزل « أبو جهل » المعركة مختالا مستفتحا بهذا الشعر :

ما تنقِمُ الحرب العوان منى بازل عامين حديثٌ سنى

لمثل هـذا ولدتنى أمى

واستفتح الرسول فقال : « اللَّهُمَّ هَذَا أقطَعُنا للرَّحِمِ ، فَأَحِنْهُ الغَدَاة » فنزلت الآية : « إنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الفَتْح ، وَإنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وإنْ تَعُودُوا نَعُدْ ، ولَنْ تُغْنِىَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ ، وأنَّ اللهَ مَعَ المُؤْمِنِينَ » [1] .

جيش الله ، تطوف به عناية الله ، وجيش الشيطان ، يغريه ويرديه الشيطان «وَإذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أعْمالَهُمْ وَقالَ لاغالِبَ لَكُمُ اليَوْمَ مِنَ النَّاسِ وإنِّى جارٌ لَكُمْ ، فَلَمَّا تَرَاءَتِ الفِئَتانِ نَكَصَ على عَقِبَيْهِ وَقال إنِّى بَرِىءٌ مِنْكُمْ ، إنِّى أرَى مالاتَرَوْن ، إنِّى أخافُ اللهَ ، وَاللهُ شَدِيدُ العِقاب» [2]

(١) سورة الأنفال ، آية ١٩ . (٢) سورة الأنفال ، آية ٤٨ .

انتصر حزب الله ، وانهزم حزب الشيطان ، وقُتل « أبو جهل » فرعونُ هذه الأمة ، ورأس أئمة الكفر كما سماه الرسول ، وفتح الله على المسلمين بالفيء ، والأنفال ، والغنائم . وحسم النزاع فى أمرها أمرُ الله (قُلِ الأنْفالُ لِلهِ وَالرَّسُول ، فاتَّقُوا اللهَ وأصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ وأطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » [١] .

واستقبلت المدينة قائدها الأعلى من ثَنِيات الوداع بالفرح والنشوة ، وخاف المنافقون فى المدينة ، فأسلموا خشية السيف ، بعد أن عزّت عليهم خشية الله ، ولم يكتف الكفار بالهزيمة ، بل عمدوا إلى الحيلة ، يريدون قتل الرسول حتى ينقضى الأمر ، فأرسل « صفوان بن أمية بن خلف » من كبار المشركين بعمير بن وهب الملقب بالمضرِّب لقتل الرسول ، فلما قدم المدينة دخل عليه فى المسجد متقلدا سيفه ، فقال له الرسول : «ما أقدمك يا عُمَيْر» ؟ قال : «قدمت فى أسير عندكم» . قال : «فَمَا بالُ السَّيْف» ؟ قال : «قبحها الله من سيوف ! وهل أغنت من شى ؟! إنما أنسيته حين نزلت وهو فى رقبتى» قال : «أصدق ما أقدمك» ؟ قال : «ما قدمت إلا فى أسيرى !» قال : «فَمَا شَرَطْتَ لِصَفْوَانَ بنِ أُمَيَّة» ؟ ففزع عمير وقال : «ماذا شرطت له ؟!» قال : « تحملت له بقتلى على أن يقضى دينك ويعول عيالك ، والله حائل بينك وبين ذلك !» قال عمير : «أشهد أنك رسول الله ، وأنك صادق» ، وأسلم ؛ فقال الرسول : « عَلِّمُوا أخاكُمُ القُرآنَ ، وأطْلِقُوا أسِيرَه » .

وهكذا اطمأنت قلوب المسلمين فى هذه الغزوة الفاصلة بين الحقّ والباطل ، ونصر الله نبيه نصرا مؤزّرا « وَما النَّصْرُ إلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ إنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيم » [٢]

---

(١) من أول آية فى سورة الأنفال .

(٢) سورة الأنفال ، من الآية ١٠ .

غزوة بدر وأحكام القتال

فى سورة الأنفال

سورة « الأنفال » سورة مدنية نزلت بالمدينة لما قوّى الله شأن الإسلام والمسلمين ، واختلفوا فى أمر الأنفال أو الغنائم العظيمة التى أصابوها فى غزوة « بدر » أوّل غزوة عزّ بها شأن الدين ، وعظم بعدها أمر المسلمين . والسورة كلها مجموعة قوانين للحروب ، والتعدى والدفاع ، وكيفية الزحف ، وشرّ الفرار أو الإدبار ، والتحرف فى القتال ، وتحيز المقاتلين ، وانتقالهم من فئة إلى فئة .

ولكن القرآن الكريم ، هذا القانون الإلهى ، ليس كالقوانين الوضعية التى تذكر الحكم صارما مخيفا ، فهو يسرد الأحكام ويناجى القلب فى تطبيقها « لِيَمِيزَ اللهُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ » [1] ، وهو إذا طلب الثبات فى الحرب ، طلب معه ذكر الله كثيرا ، وإذا طالب بطاعة القائد أمر بعدم التنازع ، « وَلا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ » [2] ، وإذا أمر بالهجوم على العدوّ ، أمر معه بالصبر ، لأنّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِين ، وإذا جنح العدو للسّلم ، جنح المؤمنون للسلم ، وإذا غَرَّر العدوّ بالسلم ، توكل المؤمنون على الله وحاربوا ، وأيدهم الله بنصره ، وحقق لهم وعده الذى وعدهم به فى قوله « إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » [3] . « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ » [4] .

فالمؤمنون مطالبون بالدفاع عن عقائدهم وحُرَمهم ، وأموالهم وديارهم دائما ، والمؤمنون منافحون محاربون ، ولكنهم أيضا كرام مسالمون ، فإذا طالب المعتدون عليهم سلما أو هدنة ، أجابوهم إلى ما طلبوا حبا فى السلام والهدوء ، وهم مجابون إلى هذا السلام ، حتى لو كانوا مخادعين مرائين : « وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ » [5] فاقبل

(١) سورة الأنفال ، من الآية ٣٧ .
(٢) سورة الأنفال ، من الآية ٤٦ .
(٣) سورة القتال ، من الآية ٧ .
(٤) سورة الأنفال ، من الآية ٦١ .
(٥) سورة الأنفال ، من الآية ٦١ .

السلام أيضا ! وحسبك الله ! ويكفيك نصر الله الذى لايخذلك ولو خذلوك ! ويكفيك نصر من اتبعك من المؤمنين المخلصين : هؤلاء الذين لايفرّقون بين الوطن والعقيدة ، والذين ما كان يتصوّر أحد أن يتفقوا على شىء ، فاتفقوا على كل شىء ، بعد أن هداهم الله للإيمان ، وألف بين قلوبهم فى الوجهة والغاية ، واتحاد الآمال والآلام : « لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » [١] .

ولا بدّ لنا من وقفة أمام هذه الآية التى تأمر بالمسالمة والمهادنة ، انقارنها بالآيات التى لا تعرف سلما ولا هدنة ، مثل « قاتِلُوا الَّذِينَ لايُؤْمِنُونَ بالله » [٢] ، ومثل « فاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ » [٣] ، ومثل « وأَعِدُّوا لَهُمْ ما اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وعَدُوَّكُمْ » [٤] .

والمفسرون أمام هذه الآيات يذكرون عبارة الناسخ والمنسوخ ، ويريدون أن يقرّروا أن آية السلم نسخت آيات الحرب .

ونحن لانرى هذا الرأى ، بل نذهب إلى ما ذهب إليه بعض كبار المفسرين من أن المسألة مسألة دراسة الظروف والملابسات ، فإذا رأى الحاكم ، المؤمن بفكرته ، أن الحرب ضرورية كانت ضرورية ، وإذا رأى أن السلم ضرورىّ كان ضروريا . ولا يضرّ صاحب العقيدة أن يمكر به المجرم المخادع ، فليس هناك ما يمنعه من استئناف الحرب معه متى اعتقد ذلك ، ومتى اعتقد فى إخلاص المؤمنين من أتباعه ؛ والمؤمنون المندفعون بقوة الإيمان هم المنتصرون حقا ، فإيمانهم يُكثّر من عددهم ، ويقلل فى عيونهم من كثرة أعدائهم ؛ فالواحد من المؤمنين بعشرة من المعتدين الظالمين : « إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مائَتَيْنِ ، وَإِنْ

(١) سورة الأنفال ، من الآية ٦٢ .
(٢) سورة التوبة ، من الآية ٢٩ .
(٣) سورة التوبة ، من الآية ٥ .
(٤) سورة الأنفال ، من الآية ٦٠ .

يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ »[١].

أى أن المعتدين قوم لايدينون بدين ، ولا يفهمون نصر الله للمؤمنين . غير أن الإسلام إن رضى هذه النسبة ، نسبة واحد إلى عشرة فى أوّل الأمر ، فإنه لم يَرضها بعد أن كثر المؤمنون وكثر المعتدون ، فقلت النسبة فى الكمية ، وبقيت صحيحة فى الكيفية : « الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً ، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ ، وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ »[٢]. كذلك يُمكن الله للفئة القليلة الصابرة ، ويُؤتىَ الرسولُ عليه السلام بسبعين أسيرا فى غزوة بدر ، منهم « العباس » عمّ الرسول ، ومنهم « عَقيل بن أبى طالب » ابن عمه ، ويجلس الرسول مع جماعته يستشيرهم فى أمر الأسرى ، أيأخذون الفدية عنهم أم يقتلونهم ؟ ويظهر «أبو بكر» برقة قلبه فيقول : « يا رسول الله قومك وأهلك ، فاستبقهم لعلّ الله أن يتوب عليهم »! ويظهر «عمر» بشدّته وصلابته فى الحقّ ويقول : « يا رسول الله كذّبوك وأخرجوك فاضرب أعناقهم ، فإنهم أئمة الكفر ، وإن الله أغناك عن الفداء » ؛ ويقف الرسول بين موقف الحقّ فى « عمر» وموقف الرحمة فى « أبى بكر» ، ويقرّر أن كلا منهما يقول حقا ، ثم يلتفت إلى « أبى بكر» ويقول : « إنَّ مَثَلَكَ مَثَلُ إِبْرَاهِيمَ قَالَ : « فَمَنْ تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى ، وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » ، ومَثَلُكَ « يا عمر » مَثَلُ نُوحٍ « قَالَ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً » ؛ ويترك الرسول الأمر إلى المسلمين ، لأنه لم يتلقّ الوحى بعد بشأن الأسرى ، فيرى المسلمون الفدية ، ثم تنزل الآيات بأن من قال بالفدية يريد عرَض الحياة الدنيا : « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِى الْأَرْضِ »[٣] . أى ليس للمسلمين أن يفكروا فى أمر الأسرى حتى ينتشر الدين فى الأرض ، وحتى يتعقب

(١) سورة الأنفال من الآية ٦٥ .
(٢) سورة الأنفال ، آية ٦٦ .
(٣) سورة الأنفال ، من الآية ٦٧ .

المؤمنون الجاحدين فى كل ناحية « تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » [١] .

هو عزيز غالب للأعداء يقهرهم قتلا وأسرا، ولكنه حكيم يعلم متى يكون الأسر، ومتى يكون الفداء ؛ ثم تعتذر الآيات عن المؤمنين ، لأنهم تصرّفوا هذا التصرّف قبل أن ينتظروا نزول القرآن فى حكم الأسرى، فتقول الآيات : « لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » [٢] ؛ أى لولا ما كتبه الله على نفسه من أن لاعقاب إلا بعد إنذار ودليل ، « لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » . ؛ وبعد غزوة بدر ، يجلس الرسول عليه الصلاة والسلام إلى عمه العباس ، ويعاتبه على تأخر إسلامه ، فيعتذر له ويقول : « كنت سأُسلم ولكنهم ستكرهونى» فيطلب منه الرسول أن يدفع الفدية لابن أخيه ، فقال له : «يا « محمد » تركتنى أتكفف قريشا » فيقول له الرسول : « فأين الذهب الذى دفعته لزوجتك « أم الفضل » وقت خروجك من مكة لما قلت لها لا أدرى ما يصيبنى فى سفرى هذا ، فإن حدث لى حدث فهو لك » . ؟!

يدهَشُ «العباس» لهذه المفاجأة ! وكيف علم «محمد » بمحادثة جرت بينه وبين زوجته ! فيقول له : « وما يدريك » ؟ فيقول الرسول : « أخبرنى ربى » ! فيقول «العباس» : « أشهد أنك صادق، وأشهد أن لاإله إلا الله وأنك عبده ورسوله، والله لم يطّلع علىّ أحد إلا الله ، ولقد دفعته إليها فى سواد الليل ، ولقد كنت مرتابا فى أمرك ، أما الآن فلا ريب فيه » ؛ وأسلم «العباس» ونزلت فيه الآية : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرَى ، إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا ، يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » [٣] .

---

(١) سورة الأنفال ، من الآية ٦٧ .

(٢) سورة الأنفال من الآية ٦٨ .

(٣) سورة الأنفال ، آية ٧٠ .

غزوة أحد

(١)

بعد انتصار المسلمين فى غزوة «بدر» هذا الانتصار المؤزَّر، استعدت قريش لحرب المسلمين، لينتقموا لأنفسهم مما أصابهم فى هذا اليوم. جمعوا جموعهم، وخرج «عمرو بن العاص» على رأس وفد من أشراف مكة يجرى بالإثارة ضدّ الرسول وضدّ أصحابه، ولما استكمل عددهم نحو ثلاثة آلاف جهَّزوا العُدَد، وخرج الرجال، وودّعتهم النساء يضربن بالكُفوف والدفوف، نادبات قتلى بدر، كما خرج نفر من كرائم النساء فى الهوادج يشجعن الجيش ويخدمنه.

علم الرسول بالاستعداد والخروج، فكتم الأمر، وقال لمن يعلمه: «لاتَذْكُرُوا مِنْ شأنِهِمْ حَرْفا، حَسْبُنا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيل، اللَّهُمَّ بِكَ أَجُولُ، وَبِكَ أَصُول»، ونزل فى هذا الاستعداد الباطل لمحاربة الحقّ، قول الله:

«إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ، فَسَيُنْفِقُونَها، ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً، ثُمَّ يُغْلَبُونَ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا إلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ»[١].

القوم يقربون من المدينة، أو هم منها مَرْمَى النظر، والرسول يجلس مع أصحابه للشورى فى هذا الأمر الجلل، ثم هو لايتردّد فى أن يُظهر رأيه، ولكنه لايرضى أن يَظهر عليهم، فهو يرسل الرأى لتمضى به المناقشة فى كل نواحيه: قال عليه الصلاة والسلام: «امْكُثُوا فِى المَدِينَةِ، وَاجْعَلُوا النِّساءَ وَالذَّرارِىَّ فى الآطام[٢]، فإنْ دُخِلَ عَلَيْنا قاتَلْناهُمْ فِى الأزِقَّة، فَنَحْنُ أعْلَمُ بِها مِنْهُمْ، وَرُمُوا مِنْ فَوْقِ الحُصُونِ والآطام».

ما كان أولى المسلمين أن يعملوا بهذه النصيحة الرشيدة لولا دفعة الإيمان،

(١) سورة الأنفال، ٣٦.

(٢) بيوت من حجارة.

ولولا روح الرسول التى تحترم الرأى والمشورة ! فقد قام فتيان من العرب لم يشهدوا « بدرا » ، ولم يكن لهم كسابقيهم شرف الاستشهاد ، يقولون : « اخرج بنا يارسول الله إلى عدوّنا » ؛ وقام غيرهم من كهول العرب وشيوخهم يريدون الخروج ، ولكنهم يريدون أيضا أن يحترموا رأى الرسول ، فيتردّدون بين واجب الطاعة ، وبين مقتضيات الموقف ، ويعرضون رأيهم فى رفق وأناة : « إنا نخشى يا رسول الله أن يظنّ عدوّنا أنا كرهنا الخروج إليهم جُبنًا عن لقائهم ، فيكون هذا جرأة منهم علينا ! وقد كنت يوم « بدر » فى ثلاثمائة رجل فظفّرك الله عليهم ، ونحن اليوم بشر كثير ، قد كنا نتمنى هذا اليوم ، وندعو الله به ، فساقه الله إلينا فى ساحتنا » ! !

يستمع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هؤلاء وهؤلاء ، وهو منصت ، وكأنه لإلحاحهم كاره ، ثم يرفع رأسه على صوت « حمزة » — وهو من هو رأيا وقرابة — يقول : « والذى أنزل عليك الكتاب لا أطْعَم اليوم طعاما حتى أُجالدَهم بسيفى خارجا من المدينة » . ولم يقتصر القوم على إبداء هذه الآراء ، بل أتبعوا القول العمل ، فلبسوا عُدَد الحرب ، واستعدّوا للمسير . ويظهر أن « أبا بكر » و « عمر » كانا من رأى الخروج ، فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته ، دخلا معه ، فألبساه لباس الحرب ، وعمّماه استعدادا لما سيكون .

القوم فى حركة مضطربة ، يرى فريقهم أن ما قاله كان الصواب ، ويرى الآخر أنه استكراه للرسول على الخروج ، وإلزام له برأى ربما يجىء الوحى بما يناقضه ! وبينما هم كذلك ، إذ خرج عليهم القائد الأعلى وقد لبس الدرع ، وتقلد السيف ؛ ويستخذى القوم جميعا ، يخشون أنهم حملوا رسول الله على ما لا يريد ، فيقولون : « ما كان لنا أن نخالفك ! فاصنع ما بدا لك ! » فيقول الرسول : « قَدْ دَعَوْتُكُمْ إلى هَذَا الحَدِيثِ فأبَيْتُمْ ، وَلا يَنْبَغِى لِنَبِىٍّ إذَا لَبِسَ لَأْمَتَه أنْ يَضَعَهَا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أعْدَائِه . انْظُرُوا ما أمَرْتُكُمْ بِهِ فاتَّبِعُوهُ ، امْضُوا على اسْمِ الله ، فَلَكُمُ النَّصْرُ ما صَبَرْتُمْ » .

قُضى الأمر ، ولْيقض الله ما هو قاض ، فقد عزم الرسول ، وتوكل على الله ، وليست المسألة مسألة آراء ، وإنما هى مسألة حرب ونصر ، والنصر مقرون بالصبر ،

وآخر كلمات الرسول هى الفاصل فى الأمر ، « فَلَكُمُ النَّصْرُ ما صَبَرْتُمْ » !

يستعرض القائد الأعلى جيشه ، فإذا رأى صدرا خارجا ، قال تأخر ، وإذا رأى جنديا خارجا ، سوّى به الصفوف ، واندسّ الشباب بين الصفوف يتطاولون ، ويتكابرون ، حتى لايستصغرهم الرسول ! ولما اختار الرسول منهم « رافع بن خُديج » لأنه رام جيِّد ، غضب « سَمُرة بن جُندب » وقال : « يُجيز رسول الله « رافعا » ويردّنى وأنا أصرعه » ؟! عندئذ يأمر الرسول الشبان أن يتصارعوا ، وأخذ أصلبهم عودا ، وأخفهم حركة ، وأشدّهم مقاومة . ورأى فى أثناء العَرْض طائفة من المنافقين هى كتيبة رأس النفاق « عبد الله بن أبىّ بن سَلول » فقال : « لانَسْتَنْصِرُ بأهْلِ الشِّرْكِ على أهْلِ الشِّرْكِ ! » وصدقت قالته وفراسته ، لما رجع شيخ النفاق بجيشه قبل ابتداء المعركة قائلا : « أيعصينى ويطيع الولدان ؟! » وكان عدد هذه الطائفة ثلاثمائة ، فلم يبق من الألف الذى يؤلف جيش المسلمين إلا سبعمائة ، وكان هذا النفاق من أسباب الهزيمة .

وبعد الاستعراض وتسوية الصفوف خطب القائد كعادته ، فقال من خطبة طويلة : « أُوصِيكُمْ بِمَا أوْصَانِى بِهِ اللهُ فِى كِتابِهِ مِنَ العَمَلِ بِطاعَتِهِ ، والتَّناهِى عَنْ مَحارِمِهِ ؛ ثُمَّ إنَّكُمْ بِمَنْزِلِ أجْرٍ وَذُخْرٍ لِمَنْ ذَكَرَ الَّذِى عَلَيْهِ ، ثُمَّ وَطَّنَ نَفْسَهُ لَهُ ، عَلَى الصَّبْرِ وَاليَقِينِ ، والجِدّ وَالنَّشاط ، فَإنَّ جِهادَ العَدُوّ شَدِيدٌ كَرِيه ، قَلِيلٌ مَنْ يَصْبِرُ عَلَيْهِ ، إلاَّ مَنْ عَزَمَ اللهُ لَهُ رُشْدَهُ ، فإنَّ اللهَ مَعَ مَنْ أطاعَهُ ، وَإنَّ الشَّيْطانَ مَعَ مَنْ عَصَاهُ ، فافْتَتِحُوا أعمالَكُمْ بالصَّبْرِ على الجِهاد ، وَالْتَمِسُوا بِذَلِكَ ما وَعَدَكُمُ اللهُ ، وَعَلَيْكُمْ بالَّذِى أمَرَكُمْ بِهِ ، فإنِّى حَرِيصٌ على رُشْدِكُمْ ، وإنَّ الاخْتِلافَ وَالتَّنازُعَ والتَّثْبِيطَ مِنْ أمْرِ العَجْزِ والضَّعْف ، وهُوَ مِمَّا لايُحِبُّ اللهُ ، وَلا يُعْطِى عَلَيْهِ النَّصْرَ وَلا الظَّفَر . . . وإنَّهُ قَدْ نَفَثَ فى رُوعِى الرُّوحُ الأمِينُ أنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَوْفِىَ أقْصَى رِزْقِها ، لايَنْقُصُ مِنْهُ شَىْءٌ وَإنْ أبْطأ عَنْها ، فاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ ، وأجْمِلُوا

فِي طَلَبِ الرِّزْقِ ، وَلا يَحْمِلَنَّكُمُ اسْتِبْطَاؤُهُ أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعْصِيَةِ رَبِّكُمْ ، فَإِنَّهُ لا يُقْدَرُ عَلَى مَا عِنْدَهُ إِلاَّ بِطَاعَتِهِ ؛ قَدْ بُيِّنَ لَكُمُ الحَلالُ وَالحَرَامُ ، غَيْرَ أَنَّ بَيْنَهُمَا شُبَهًا مِنَ الأَمْرِ لَمْ يَعْلَمْهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ إِلاَّ مَنْ عَصَمَ اللهُ ، فَمَنْ تَرَكَهَا حَفِظَ عِرْضَهُ وَدِينَهُ ، وَمَنْ وَقَعَ فِيهَا ، كَانَ كَالرَّاعِي إِلَى جَنْبِ الحِمَى أَوْشَكَ أَنْ يَقَعَ فِيهِ ؛ وَلَيْسَ مَلِكٌ إِلاَّ وَلَهُ حِمًى ، أَلا وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ ؛ وَالمُؤْمِنُ مِنَ المُؤْمِنِ كَالرَّأْسِ مِنَ الجَسَدِ ، إِذَا اشْتَكَى تَدَاعَى إِلَيْهِ سَائِرُ جَسَدِهِ ، وَالسَّلامُ عَلَيْكُمْ » .

فأنت ترى أن الغزوة فى أوّل أمرها فيها كثير مما كان يجب أن يبتعد عنه المسلمون فى أول أمرهم :

أولا : فيها مخالفة صريحة ، أو غامضة ، لاتجاه الرسول عليه الصلاة والسلام الذى رأى من أوّل الأمر أن يحارب فى داره ، وأن يجرّ جيش العدوّ إلى المدينة ، وفيها حصون وبيوت تصلح للمقاومة الداخلية ، وأنه من الممكن أن يحارب العدوّ فى الأزقة ، والدروب ، والمسالك الضيقة ، وهو يجهلها ، وسكانها أعلم بها ! ولكن رُوحه الاستشارية ، وخلقه فى الشورَى ، جعله يرضى بما يرضون ، ولم ينزل الوحى بالخروج أو بالإقامة ؛ فترك الأمر لهم ، ونفسه الحساسة الدقيقة تتوقع خطرا مقبلا ، ولكنه — وهو البعيد عن التطيّر — يترك الأمر لقدر الله ، فإن جاءت الحسنى فبها ، وإن جاءت الأخرى فربّ ضارّة نافعة ، والمسلمون فى أوّلهم يحتاجون إلى الدروس القاسية يتعلمون منها ، وهم من نصرتهم فى « بدر » فى حاجة إلى أن يطامنوا من العزّة التى رفعهم إليها الانتصار ، والنصر الذى يطلبه الإسلام ، نصر للمبادئ الخلقية والدينية ، قبل أن يكون نصرا سياسيا أو اقتصاديا !

ثانيا : رأيت أن الجيش قد ضمّ كثيرا من المنافقين ، وهم إذا رجعوا قبل الدخول فى المعركة ، فقد عملوا من خلفها ضد الجيش وضدّ رجاله ، وأشاعوا

الشائعات التى كان من أهمها أن الرسول قد قتل ، وأن المسلمين قد خرجوا على أنفسهم وعلى مبادئهم .

ثالثا : تقرأ فى خطبة الرسول عليه الصلاة والسلام التحذير مما سيكون ، والتنبؤ بما سيكون ؛ فهو يوصيهم بالطاعة أولا وآخرا ، وهى فى الجيش عماده وعتاده ؛ ثم يوصيهم بالصبر ، وعدم الاتكال على ما أحرزوه من قبل من الظفر ، فالجهاد « شديد كريه ، وقليل من يصبر عليه » . ويحذّرهم من تثبيط الهمة ، ومن العجز والضعف اللذين يكرههما الله ورسوله ، ويبين لهم أن استبطاء الرزق (ويقصد هنا الغنائم أيضا) لايحمل الإنسان على أن يطلبه بمعصية أوامر الله ورسوله ، ثم يأمرهم أخيرا بالتساند الذى يجعل من المسلمين وحدة كوحدة الأعضاء فى الجسد ، وإذا اشتكى عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

وسنرى فيما بعد أن ما أصاب المسلمين فى هذه الغزوة كان أمرا متوقّعا ، وكان فى كل حال درسا قاسيا لابدّ لهم فى أوّل عهدهم بالإسلام أن ينتفعوا به ، حتى يسلم لهم الأمر كله فيما بعد ، « ولله الأمر من قبلُ ومن بعد » .

———

غزوة أحد

(٢)

نراءى الجمعان ، ووقفت جيوش العدوّ أمام جيش المسلمين ، وطلب العدوّ المبارزة ، وخرج « أبو عامر » فى خمسين من قومه وعبيده ، فلم يبارزه أحد استهانة بشأنه ؛ بل رشقوه وقومه بالحجارة حتى ولّوا . ثم خرج « طلحة بن أبى طلحة » يطلب المبارزة ، فخرج له « علىّ بن أبى طالب » فقتله ، ففرح المسلمون وكبّروا ، لأنهم قتلوا « كبش الكتيبة » .

النساء من وراء جيش المشركين يغنين ويحرّضن ، يتقدمن الصفوف ، فلا يرضى المسلمون بالتعرّض لهنّ ، ويتأخرن عن الصفوف ، ليدفعن الرجال ، وهكذا كنّ بين تقديم وتأخير ، يضربن الدُّفوف ، وينشدن الأناشيد :

نَحْنُ بَنَاتِ طَارِقِ نَمْشِي عَلَى النَّمَارِقِ
إِنْ تُقْبِلُوا نُعَانِقِ أَوْ تُدْبِرُوا نُفَارِقِ
فِرَاقَ غَيْرِ وَامِقِ

و « هند » زوجة أبى سفيان تلهب القوم بنشيد آخر :

وَيْهًا ! بَنِى عَبْدِ الدَّارْ وَيْهًا ! حُمَاةَ الأَدْبَارْ
ضَرْبًا بِكُلّ بَتَّارْ !

يسمعهنّ الرسول فيردّد عبارته الأولى : « اللَّهُمَّ إِنِّى بِكَ أَجُولُ وأَصُولُ ، وَفِيكَ أُقَاتِلُ ، حَسْبِىَ اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ » .

استعدّ الرسول للنّزال ، وتقدّم بنفسه إلى طائفة الرُّماة ، وأمرهم بهذه الأوامر القاطعة : « احْمُوا لَنَا ظُهُورَنَا ، فَإِنَّا نَخَافُ أَنْ نُؤْتَى مِنْ وَرَائِنَا ، وَالْزَمُوا مَكَانَكُمْ ، لَا تَبْرَحُوا مِنْهُ ، وَإِذَا رَأَيْتُمُونَا نَهْزِمُهُمْ حَتَّى نَدْخُلَ عَسْكَرَهُمْ ، فَلَا تُفَارِقُوا مَكَانَكُمْ ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا نُقْتَلُ فَلَا تُعِينُونَا ،

وَلا تَدْفَعُوا عَنَّا ، اللَّهُمَّ إِنِّى أُشْهِدُكَ عَلَيْهِمْ ، وَارْشُقُوا خَيْلَهُمْ بالنَّبْل ، فإنَّ الخيلَ لاتُقْدِمُ على النَّبْل » .

تلك هى النصيحة التى قدمها الرسول إلى الرماة ، وهى نصيحة عليم بالحرب ، خبير بفنون القتال ، يعلم أثر الرماة فى الفرسان ، ويعلم أثر النبل فى الخيل ، ومتى هزم الفرسان — وهم الطليعة — ضُمِنَ النصر للجيش .

أقام الرماةُ على الأمر بعضَ الوقت ، فكانوا يرسلون النبال كالسهام ، وكان النَّبل يخترم الفارس والفرس . ولكن الرماة قبل أن تحتدم الموقعة كانوا يتلفتون يَمنة ويسرة ، يتفقدون رئيسهم « قُزْمان » وكان قد تلكأ فى المدينة مع المنافقين ، فلما عيَّره النساء بالقعود سار إلى جيش المسلمين معتذرا إلى رسول الله . قَبِله الرسول ؛ وقويت به الروح المعنوية للرماة ، فأعملوا الرمى حتى ولى فُرْسان قريش ، واختلت صفوف المحاربين ، وكان « قُزمان » يجمع بين النبل والسيف ، فيرمى من بعيد ، ويهجم من قريب ، وإذا نَبَل فارسا أوقعه ، فإن وجد فيه رمَقا أجهز عليه ، وما زال كذلك حتى أصابته جراحة فوقع ، فناداه بعض المسلمين وقال له : « هنيئا لك الشهادة » ! فردّ عليه وهو فى نزع الموت وقال : « والله ما قاتلت على دين ، وما قاتلت إلا على الحفاظ والأنفة ، أن تسير قريش إلينا حتى تطأ سقفنا ونخلنا » ! يريد أنه ما زال على نفاقه لم يدخل الإسلام قلبه . ولم يتحمل « قزمان » آلامه ، فتحامل على سيفه ومات منتحرا . ولما علم بأمره الرسول عليه الصلاة والسلام قال : « إنَّ اللهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بالرَّجُلِ الفاجِرِ » .

لم تهن عزيمة الرماة بعد موت « قزمان » ، بل شدوا على جيش المشركين ، وقصدوا بنبالهم حَمَلة الألوية واحدا واحدا ، وأخيرا حمل لواء المشركين غلام حبشىّ يدعى « صُؤَاب » فلما قتل حمله امرأة تدعى « عَمْرة الحارثية » ، وفى الاثنين يقول « حسان ابن ثابت » شاعر الرسول :

فَخَرْتُمْ باللِّوَاءِ ، وَشَرُّ فَخْرٍ لِوَاءٌ حِينَ رُدَّ إلى « صُؤَابِ »
جَعَلْتُمْ فَخْرَهُ فِيكُمْ لِعَبْدٍ لأَلأَمَ مَنْ مَشَى فَوْقَ التُّرابِ

أقمْنا لَهُمْ ضَرْباً مُبِيداً مُنَكِّلا وحُزْناهُمُ بالطَّعْنِ مِن كلّ جانِبِ
ولَوْلا لِواءُ « الحارِثِيَّةِ » أصْبَحُوا يُباعونَ فِي الأسْواقِ بَيْعَ الجَلائِبِ

ولما قتل الرُّماة أصحاب الألوية همدت روح الجيش، وتبعهم المسلمون وصاحت نساؤهم بالعويل بعد الغناء، وظفّر الله رسوله والمؤمنين بما لم يظفّرهم به يوم « بدر »!

أدرك الرماة أنهم وحدهم الذين أكسبوا المسلمين الموقعة، ورأوا المنتصرين من إخوانهم يجنون ثمرة جهودهم، ويجمعون الزروع التى قطعوها! فمشى بعضهم إلى بعض بالإغراء والطمع: فمن قائل يقول « لِمَ تقيمون هنا فى غير شىء؟! قد هُزم العدوّ، وإخوانكم يستحوذون على الغنيمة، وينتهبون المعسكر! ادخلوا معهم واغنموا كما يغنمون! » ويردّ عليه آخر — لاتزال ذاكرته تحتفظ بما أمر به الرسول، وشدّد فى الاحتفاظ به — فيقول: ألا تذكرون قول الرسول: « احْمُوا ظُهُورَنا، ولا تَبْرَحُوا مَكانَكُمْ، وَإنْ رأيْتُمُونا نُقْتَلُ فَلا تَنْصُرُونا، وإنْ غَنِمْنا فَلا تَشْرَكُونا »! ويقول ثالث متأولا فيما أُلقى عليه من الأوامر: « إن الرسول لم يرد هذا! وإذا أراده فلكى نتغلب عليهم! أما وقد غلبنا، وانحازت راية النصر إلى جانبنا، فمن الضعف أن نبقى فى موقفنا، والآخرون يأخذون الغنائم التى مكناهم منها! » و« إذا كان « من يقتل قتيلا فله سَلَبه » كما نقلنا عن الرسول، فقد أضعنا نصيبنا بأيدينا! »

أطماع تستولى على النفوس الضعيفة! وجشع يتأوّل له صاحبه حتى يقوم فى نفسه مقام الحقّ الثابت! ومنطق معكوس يحدّث به الشَّرِه نفسه حتى ينسى أنه شرِه، ويعتقد أنه يؤدّى واجبا نحو نفسه، ويطلب حقا من الجماعة التى يعمل فيها! ونسى الجميع أنهم جند! وأنهم جند الله! يطلبون بحروبهم نصرة الحقّ والدين!!

أقبل الرماة على الغنائم يملئون منها أيديهم، بعد ما امتلأت بالطمع نفوسهم، فانكشف جيش المسلمين، وضاعت الحامية التى كانت تحمى ظهره. وتنبه لذلك كبش الكتيبة وأسد الإسلام فيما بعد « خالد بن الوليد » كما تنبه صاحبه « عِكرمة بن أبى جهل »

وحملا على ظهر المؤمنين حتى أثخنوهم بالجراح ، واختلط الأمر على المسلمين ، فضرب بعضهم بعضا ، ودار بعضهم حول بعض ، والتقت سيوف المسلمين على « اليمان » والد « حُذيفة » الذى كان يصيح « أبى ! أبى ! » فلما رأى والده قد قتل مُسلما بسيف مُسلم ، لم يملك إلا أن قال : «يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين» ! !

وفى هذا الهيْج تصدق الشائعة ، وتكثر المذابيح ، فقد أشيع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل ! أذاعها الكفار ليوقعوا الرعب ، وأذاعها المنافقون ليضعفوا النفوس ، وأذاعها بعض المحاربين لينهوا القتال ، وأذاعها بعض المسلمين ليتلمسوا المعاذير لأنفسهم ، حينما يحتجون أن المصيبة أذهلتهم ! والهول فى كل حال عظيم ، والموقف شديد رهيب !

كان همّ « أبى سفيان » أن يعرف أين « محمد » ؟ أيصدِّق الشائعة أم يكذبها ؟ ! إنها لو صدقت لانتهى كل شىء ! ولم لاتكون صادقة وقد كانت صراخَ المحاربين ! وقَر فى نفسه أنها صحيحة ، فأراد أن يكافئ هذا الشجاع الذى أراحهم من عدوّهم المبين ! فقال : «يا معشر قريش ! أيكم قتل « محمدا » ؟» فقال « ابن قَمِئَة » : «أنا قتلته ! » قال : «إذن نُسوّرك ، ونجعل لك سوارا فى المعصم كما تفعل الأعاجم بأبطالها» ، ولكن « أبا سفيان » يشك فى الأمر شكه فى ادّعاء « ابن قمئة » ، ويتصفح وجوه القتلى ، فما يرى فيهم وجها وضيئا ! فيلقى بعد ذلك « خالد بن الوليد » ، فيسأله عن « محمد » ، فيقول : « رأيته فى نفر من أصحابه مصعدين إلى الجبل ، فيعرف صدق « خالد » ، ويقول : « هذا حقّ ! وكذب « ابن قمئة » !

الرسول مجهود ، والقوم من حوله يدافعون ، و « عبد الله بن شهاب الزهرى » إلى جانبه يطلبه ويسائل عنه ، ويقول : « لانجوتُ إن نجا » ! و « صفوان بن أمية بن خلف » يرقب « الزهرىّ » من بعيد ، ويفرح أن يراه قريبا من « محمد » ، ثم يَدْهش إذ يراه يجتازه فى غير تعرّض له ! فيقول له : «تَرِحْت وهلكت ! » ألم يمكنك أن تضرب

«محمدا» فتقطع هذه الشأفة» ؟! يدهش الزهرى ويقول : «لم أره»! فيقول «صفوان» : «كان إلى جانبك !» فيقول : «والله ما رأيته ! أحلف أنه منا ممنوع ! خرجنا أربعة تعاهدنا على قتله ، فلم نخلُص إلى ذلك !!»

ثبت القائد الشجاع فى المعركة ، وثبت معه كثيرون من المهاجرين والأنصار ، يتلقون عنه الضربات الآثمة التى تقصده وحده ، ولكنه قد أصيب بما يستوجب الصبر ، وبما يُكافأ بالمثوبة والأجر ! ولم يملك إلا أن يقول : « كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ فَعَلُوا هَذَا بِنَبِيِّهِمْ » ؟! ولا يملك إلا أن يردّد ما نزل عليه « لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ »[1] .

سمعت المدينة بما جرى لجيشها ، فأسرعت الرجال للنجدة ، والنساء لمداواة الجرحى ، يحملن الطعام والشراب على ظهورهن ، وبينهن « فاطمة » تغسل الوجنة الوضيئة الطاهرة ، وتذرّ التراب على الجرح ليرقأ الدم .

وأظهر نساء المدينة فى هذه المعركة صبرا وجلدا يعدّان فى الأمثلة التاريخية : من ذلك أن « عائشة » خرجت فى نسوة من المدينة إلى «أُحد» تستروح الخبر ، فقابلتها امرأة تسوق جملا مثقلا بحمله ، فسألتها الخبر ، فقالت المرأة : « أما رسول الله فصالح ! وكل مصيبة بعده جلَل ! واتخذ الله من المؤمنين شهداء ، » «وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْرًا ، وكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ القِتال ، وكانَ اللهُ قَوِيًّا عزيزا»[3] . قالت «عائشة» : «وما يحمل الجمل؟» قالت المرأة : «أخى ، وابنى « خلاّد» وزوجى «عمرو بن الجَموح » ، فعرفت «عائشة » أنها « هند بنت عمرو بن حرام » ، فقالت لها : «فأين تذهبين بهم؟ » قالت : «إلى المدينة أقبرهم فيها » ثم زجرت بعيرها فبرك ! فقالت «عائشة» : « لثقل ما عليه » فقالت «هند» : « إنه يحمل ما يحمل البعيران » ! ثم وجهته نحو « أُحد » فرجع مسرعا ، ولم تر بُدّا من أن تسأل رسول الله علّه ، يوقفها على سرّ فى الأمر ، فسألها الرسول : « هل قال لك زوجك شيئا قبل أن

(١) سورة آل عمران ، آية ١٢٨ .
(٢) أى هو بخير .
(٣) سورة الأحزاب ، آية ٢٥ .

يخرج » ؟ قالت : كان يردّد هذه الكلمات : « اللهمّ لاتردّنى إلى أهلى خزيان وارزقنى الشهادة » فقال الرسول : « لِهَذَا لَمْ يَمْضِ الجَمَلُ ، إنَّ مِنْكُمْ يا مَعْشَرَ الأنْصَارِ مَنْ لَوْ أقْسَمَ على اللهِ لأبَرَّه » ، وقبرهم الرسول حيث قتلوا ؛ ثم قال : « يا هِنْدُ إنَّ زَوْجَكِ وَابْنَكِ وأخاكِ قَدْ تَرَافَقُوا فِي الجَنَّة » قالت : « يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى معهم » .

فى هذا الغُمار قصد « أبَىّ بن خلف » الرسول ليقتله ، فتعرّض له المسلمون ، ولكنّ الرسول أمرهم أن يستأخروا عنه ، وقام إلى حربته فرماه رمية مميتة ؛ قاتله الله ! « فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ ، وَمَا رَمَيْتَ إذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى ، وَلِيُبْلِيَ المُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنا ، إنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيم »[1] .

وقُتل « حمزة » عمّ الرسول فى هذه الوقعة ، ومُثِّل بجثته تمثيلا وحشيا ، ولم يتمالك الرسول نفسه أن يقول حين رأى جثته : « لَئِنْ ظَفِرْتُ بِقُرَيْشٍ لأُمَثِّلَنَّ بِثَلاثِينَ مِنْهُمْ »! ولم يردّه عن هذا الغضب إلا قول الله «وَإنْ عاقَبْتُمْ فعاقِبُوا بِمِثْلِ ماعُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ للصَّابِرِين ، وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إلاَّ باللهِ ، وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ، وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ، إنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا ، وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُون »[2] .

رجع المشركون فرحين ، وقبل أن يرحلوا أقبل « أبو سفيان » ممتطيا صهوة جواده ، مشرفا من علٍ ، يقول : « يوم بيوم بدر ! ألا إن الأيام دُوَل ! وإن الحرب سجال ! » لم يرض « عمر » عن هذه النَّعرة الجاهلية ، وردّ عليه بقوله : « لاسَواء ! قتلانا فى الجنة ، وقتلاكم فى النار » . فلم يُسِغْها « أبو سفيان » وقال : « إنكم لتقولون ذلك! لقد خبنا إذن وخسرنا! لنا العُزّى ، ولا عُزّى لكم » ، فأجاب عمر « الله مولانا ولا مولى لكم » !

---

(١) سورة الأنفال ، آية ١٧ .

(٢) سورة النحل ، الآيات ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ .

وأراد « أبوسفيان » أن يطمئنّ على نتيجة المعركة فقال : « يا عمر ، أناشدك دينك ، هل قتلنا محمدا ؟ » فقال «عمر» : « اللهمّ لا ! وإنه ليسمع كلامك الآن ! » عندئذ أدرك «أبوسفيان» أنه خسر المعركة ، وأن المسألة لم تنته بعد ، وقال : « أنت عندى أصدق من « ابن قمئة » !

رجع الرسول إلى المدينة ، ففرح المسلمون بمقدمه كأن لم يصبهم شيء ، ورسول الله يردّد قول الله « وَما مُحَمَّدٌ إلاّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أفإنْ ماتَ أوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ على أعْقابِكُمْ ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ على عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئا ، وَسَيَجْزِى اللهُ الشّاكِرِين » [1] .

هذه غزوة « أحد » عرف الرسول من أول الأمر أنها بلاء ! ولكنه عرف أيضا أنها ابتلاء ! فآثر الثانية على الأولى ، ليعلّم من معه كيف تكون الطاعة ، وكيف تكون العزيمة ، ويكون الصبر ، وأن المقصد السامى لاينبغى أن يُشغَل عنه الساعون إليه بعَرَض من أعراض الدنيا ، أو بطمع من الأطماع الزائلة ؛ كانت الغزوة محنة ، امتحن فيها الرجال ، وخرجوا من المحنة أشدّاء أقوياء ، فلم يُمتحنوا بمثلها بعد ذلك ؛ ورجع المنتصرون مترقبين خائفين ، كأن لم يَهزِموا ، ولم يَنْتصروا ؛ كان يكون نصرهم كاملا لو أن « محمدا » قتل والإسلام فى مهده ! أمَا و « محمدٌ » باق بدينه ، وباق فى مبادئه ، فالدائرة عليهم ، ولا بدّ من ترقب عودتها ، وقد عادت ودارت ! ودخل « محمد » مكة بعد ذلك ، ودخل « أبوسفيان » ومن معه فى دين الله أفواجا ، وبقى الإسلام فكرةً وعقيدة ، ومبادئ وقوانين ، عاش فى كنف « محمد » ، وعاش بعد « محمد » ، ولا يزال حيًّا حتى يلقى به المسلمون « محمدا » « يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أناسٍ بإمامِهِمْ ، فَمَنْ أُوتِى كِتابَهُ بِيَمِينِهِ ، فأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً » [2] .

---

(١) سورة آل عمران ، آية ١٤٤ .

(٢) سورة الإسراء ، آية ٧١ .

غزوة الخندق

(١)

أقام الرسول « فى المدينة » بعد مُهاجَره من « مكة » ، واشتغل بنشر الدعوة ، ونافح عنها بالحجة أحيانا ، وبالسيف أحيانا أخرى إذا جد الجد ، وحزب الأمر ؛ ورأينا كيف كان انتصاره فى « بدر » ، وكيف كان أثره فى عزّة الإسلام ، ثم رأينا كيف كان انتصاره فى « أُحد » على الرغم من الهزيمة التى لحقت الجيش ، بعد خروج الجند عن الأوامر التى صدرت إليهم ؛ فإنهم رجعوا ونفوسهم ملأى باليقين فى المبادئ السليمة التى يجب أن يستمسكوا بها دائما ، فعرفوا أنه لم يصبهم ما أصابهم إلا بعد أن آثروا المتاع الزائل ، على المبادئ الثابتة ، التى غلبتهم عليها الأطماع وأعراض الحياة .

المدينة مملوءة بأهل الكتاب ، وهم ليسوا سواء فى قبول ما عندهم فى الكتب ، بل كان منهم فريق يرى أن المستقبل لمحمد فيصدقه ، ثم يخشى منه على قومه وقبيله فيكذّبه « مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ ، وكَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ » [١] ، وإلى جانبهم المنافقون ، وهم مَعْمَعِيُّون ، يمشون مع هذا ، ويسيرون مع ذاك ، « وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا ، وَإِذَا خَلَوْا إلى شَياطِينِهِمْ ، قالُوا إنَّا مَعَكُمْ ، إنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُون ، اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُون » [٢] .

ضاق هؤلاء وهؤلاء بمحمد وصحبه ، ضاقوا بدينه لأنه سيؤثر فى سلطانهم ! وضاقوا بكثرة من يدخل فيه ! فالكثرة قوّة ، وما بعد القوّة إلا الغلبة والتغلب ! وضاقوا بما وجدوا فى هذه الكثرة من طاعة ونظام ، وبيع النفوس لله ، وبيع الأموال فى سبيله ، وكلها علائم اليقين ، لا أعراض الدنيا ، ولا متاع الحياة ؛ دفعهم هذا

(١) سورة المائدة ، من آية ٦٦ .
(٢) سورة البقرة ، الآيات ١٤ ، ١٥ .

الضيق إلى أن يلجئوا إلى الأعداء الأُول ، وإلى الوطن الأول الذى رماهم بهؤلاء المؤمنين ! تذكروا المشركين من قريش ، وذهب إليهم نفر من منافقى المدينة يستنصرونهم على عدوّ الجميع ، وأعداء الجميع ، « محمد وأصحابه » ! استنفروا قريشا فأجاب النفرة « أبو سفيان » ومن معه ، ورجعت به الذكريات إلى « بدر » فعضّ أصابعه حسرة وندما ، على من فقد من أهل وصاحب ، وتذكر يوم « أُحد » فعرف أن من السهل أن يتغلب على «محمد» وصحبه ، ولمّا يمض على خروجه من عندهم خمس سنوات ، فليتدارك الأمر فى أوله قبل أن يشتدّ ! وكل الدلائل تبين أنه مستمرّ فى شدّته ! !

جمعت قريش جموعها ، وجيّشت جيشا أكثرت فيه من الأحابيش الخبيرين بالقتال ، واستنفرت القبائل حولها ، وجمعت من « بنى سُلَيم » و « بنى أسد » ، و « بنى فزارة » ، و « بنى مرّة » ، و من « أشجع » ومن « غطفان » ، حتى أربت الجيوش على العشرة الآلاف .

الرسول بالمدينة ! والأخبار تجرى بها رواتها هنا وهناك ! وكلها تدلّ على تضخم الاستعداد وهوله ، والرسول جالس بين قومه للمشورة ، يذكر أمره فى غزوة « أحد » ، فيريد أن يبتّ فى الأمر وحده ، وأن يُلزم قومه بما يأمر ، ثم يحملهم على مايريد ، ولكن طبعه الجَماعىّ ، وأوامر الدين فى المشورة ، تمنعه من أن ينفرد بالرأى ! وقومه حوله يذكرون ما كان من مشورتهم فى « أُحد » ، وأنها إحدى أسباب الهزيمة التى مُنى بها المسلمون ، فيمسك بعضهم عن الرأى بالصمت ، ويرسله البعض الآخر كلاما خافتا فيه كثير من الحَيطة والتحفظ ؛ ويرى « سلمان الفارسىّ » أن الرسول يميل إلى الإقامة فى المدينة ، فعدد المشركين كثير ، وفى المدينة حصون وآطام ، يلجأ إليها النساء والذرارىّ ، ومن ليست له قدرة على القتال . كان كل مايخشاه « القائد الأعظم » — إذا كانت جيوش الأعداء قريبة من المدينة — أن ينتهزوا نهزة ، أو يهتبلوا فرصة ، فيهاجموا البرآء من نسائها ، والضعفاء من رجالها ، وأن ينتهبوا مافيها طمعا فى خيرها . وهنا يتكلم « سَلمان » فى صوت خافت هو أشبه بالإشارة منه

بالكلام ويقول : « يا رسول الله ! كنا بفارس إذا حوصرنا ، ضربنا خندقا علينا » .

يرتاح الرسول إلى إشارة « سلمان » ، ويرتاح القوم بارتياح الرسول ، ولا يريدون أن يوقعوا أنفسهم فى المخالفة التى عرفوا نتيجتها فى يوم « أحد » ، فيؤمنون على كلام « سلمان » ، وعلى قبول الرسول له ، ويتنازعون الفخر فى هذا المشير الناصح ، فيقول المهاجرون : « سلمانَ منا » ، ويقول الأنصار : « بل إنه منا » ، ويبتسم الرسول ابتسامة الرضا عن المهاجرين والأنصار ويقول : « سَلْمانُ مِنَّا أهْلَ البَيْتِ » !

يخرج الرسول وأصحابه معه إلى العمل ، وفى أيديهم المعاول والفئوس والمكاتل ، ويخطّ الرسول موضع الخندق ، ويعين لكل عشرة رجال أربعين ذراعا يحفرونها ، ويرفعون ترابها . المهاجرون يحفرون ، والأنصار يحفرون ، والغداة باردة ، والجوّ مرعد قاصف ، والريح تسفى هناك ما حفروه هنا ، والجميع فى نصَب من التعب ، وفى شدّة من الجوع ، لايرفّه عنهم إلا صوت خفيف يُقيّد الأسماع ، ويملؤها دفئا ، ويسير دفؤها إلى القلوب فيملؤها حرارة ، هو صوت الرسول الذى يقول : « اللَّهُمَّ إنَّ العَيْشَ عَيْشُ الآخِرَهْ ، فاغْفِرْ للأنْصَارِ والمُهاجِرَهْ » . ولمّا شعروا بعد سماع الصوت بالدفء يجرى فى النفوس والقلوب ، وبالرِّىّ تتحبب منه جباههم عرقا خفيفا ، انطلقت أصواتهم تردّ على هذه التحية الكريمة ، بتحية مثلها ، فأخذ المهاجرون والأنصار ينشدون فى صوت واحد :

نَحْنُ الَّذِينَ بايَعُوا مُحَمَّدَا على الجِهادِ ما حَيِينا أبَدَا

الرسول يعمل مع العاملين ، وجهده يفوق كل جهد ، وقوّته فى العمل والحفر موضع الإعجاب من أتباعه وصحبه ، وصوته الندىّ الرحيم يردّد كلاما موزونا ، كأنه الشعر ، وليس بالشعر ! ولكنه من فيض الشعور الألمى ، الذى جعل من شخصيته الكريمة مثلا أعلى فى كل شىء ؛ فعند ما أخذ المعول ، وضرب به الأرض على توقيع من التسبيح ، تسمع رنينه فى العبارات الآتية :

بِاسْمِ الإلهِ وَبِهِ بَدِينا وَلَوْ عَبَدْنا غَيْرَهُ شَقِينا

وَحَبَّذَا رَبًّا ، وَحُبَّ دِينا

وعند ما طاوعته الأرض فى لين وسهولة ، كنت تسمع على وقع الفئوس والمعاول نشيد « المدينة » يردّد الجميع .

وَاللهِ لَوْلا أنْتَ ما اهْتَدَيْنا وَلا تَصَدَّقْنا وَلا صَلَّيْنا

فَأنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنا وَثَبِّتِ الأقْدَامَ إنْ لاقَيْنا

وَالمُشرِكونَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنا إذَا أرَادُوا فِتْنَـةً أبَيْنا

فى هذه الجلبة من الذكر والتسبيح ، يقف القوم ، ويلقون الفئوس والمعاول ، يمسحون جبابهم ، وينفضون التراب عن جباههم ، ثم لايلبثون إلا ريثما يفركون أيديهم ، ثم يعاودون العمل ، ولكنهم يقفون ، إذ يشعرون أن ضرباتهم لم تعد تؤثر تأثيرها ! وأن جهودهم ضائعة ، كأنها جهاد فى غير عدوّ ! وأخيرا يكشفون عن الأمر ، ويرون أن ضرباتهم تصطدم بصخرة عاتية ، وهم إن جاوزوها ، خالفوا خطة العمل التى اختطها القائد الأعظم ! وإذا ساروا على ما رُسم لهم ، عجزوا عن العمل أمام هذه العقبة التى لاسبيل إلى التغلب عليها !

يدرك القائد الأعلى أن العمل قد توقف ، ويستنجد قومه ، فيقول له « سلمان » : « خرجت لنا صخرة بيضاء من بطن الخندق ، كسرت حديدنا ، وشقّت علينا ، حتى ما يجيئنا منها كثير أو قليل ، فمرنا فيها بأمرك ، فانا لانحبّ أن نجاوز خطك . » أخذ الرسول المعول من «سلمان» ، واستند إلى جدار الخندق ، وضرب ضربة أشرقت لها الصخرة من قدح الشرر ، فابتسم الرسول ابتسامة الرضى ، كأنما رأى على ضوء شررها قصور «الحيرة ومدائن كسرى» . ثم ضرب الثانية فأضاءت كالأولى ، وأضاءت معها ابتسامته الكريمة ، وكأنما رأى على ضوء شررها قصور «قيصر» من أرض الروم ! ثم ضرب الثالثة ، فأضاءت أكثر ما كان عليه الضوء فى المرّة الأولى والثانية ، وأشرقت ابتسامته ، وكأنما رأى على ضوئها قصور «صنعاء» . كبّر العاملون المؤمنون تكبير فتح وانتصار ، وبشرهم الرسول بأن الله ناصرهم هنا على المشركين والمنافقين ، وناصرهم هناك على ذوى الملك والسلطان ؛ وشاع أمر الصخرة فيمن حول المدينة من

المنافقين والمرجفين ، كما شاع أمر الشرر والضوء ، وكما شاعت هذه البشريات التى أنبت وقوعها فيما بعد أنها لم تكن مجرّد أمنيّة لحالم بالملك والسلطان ! ولا مجرّد بشريات يتملق بها القائد جنده ! وإنما كانت نبوءة صادقة ، زلزلت قلوب المرجفين الذين قالوا : « ما أعجب أمر رجلكم ! يمنيكم أمانىّ ، ويعدكم باطلا ، إنكم هنا مختبئون تحت الأرض فرقا وهلعا من عدوّكم ، وتشرفون من مخبئكم على قصور فارس والروم ، وأنتم لاتشرفون عليها فحسب ، بل تُطلّون منها ، لأنه يمنيكم فتحها وامتلاكها » ! ! عندئذ ينصت المؤمنون إلى صوت الحقّ ، يحقق وعد الرسول عند ما نزلت آيات : « قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ المُلْكِ ، تُؤْتِى المُلْكَ مَنْ تَشاءُ ، وَتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَتُذِل مَنْ تَشاءُ ، بِيَدِكَ الخَيْرُ ، إنَّكَ على كُلّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » [١] . ثم ينصتون إلى ما يقول المنافقون فيهم ، يوقفهم الله عليه فى قوله : «وَإذْ يَقُولُ المُنافِقُونَ ، وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ، ما وَعَدَنا اللهُ وَرَسُولُهُ إلاَّ غُرُورا » [٢] ! !

---

(١) سورة آل عمران ، آية ٢٦ .

(٢) سورة الأحزاب ، آية ١٢ .

غزوة الخندق

(٢)

تمّ عمل الخندق ، وتحصن به المسلمون ، فكان بينهم وبين أعدائهم ، كما كان « سَلْع » [١] من خلفهم ؛ ووقف الجيشان أحدهما تجاه الآخر ، ينتظرون الهجوم ، أو المفاجأة ، أما المشركون فقد أدهشهم أن يعرف « محمد » وأصحابه هذه الخطط الحربية التى يجهلونها ! فمن أين له بعمل الخنادق ، ومن علّمه هذا التحصين ؟! لم يبق إذن إلا أن يستعملوا الحيل والمراوغة والخداع ، وكلها يحذقها « أبو سفيان » تمام الحذق .

فكّر أنه لايمكن أن ينال «محمدا» وصحبه ، فهم فى المدينة متحصنون فى البيوت والمعاقل ، ولكنّ فى المدينة أخلاطا من المنافقين وغيرهم ، وهم الذين أثاروا الحرب ، واستثاروا لها الناس ، فلو أنهم يهجمون على قوم «محمد» فى الداخل ، لأمكنت الظروف منهم فى الخارج ، وسهل الهجوم عليهم . وفكر أيضا أن الجماعة التى يمكن أن تعرقل من أعمال جيش المسلمين ، هم جماعة « بنى قريظة » ، ولكن بينهم وبين الرسول معاهدة وذمة ! ويستحيل على «محمد» أن يخفر هذه الذمة أو يخيث بهذا العهد من ناحيته ! لم يبق إذن إلا أن يكون الانتقاض من ناحية « بنى قريظة » ؛ وجد « أبو سفيان » السبيل إليهم فى « حُيَىّ بن أخطب » صديقهم وصديقه ، وقد تحدّث عنهم صاحبهم أمام « أبى سفيان » ، فعلم منه أن عددهم يبلغ الثمانمائة وهى حَلْقة وافرة ، وقوّة لايستهان بها . كان بين «بنى قريظة» وبين الرسول «معاهدة» حياد ، أو «معاهدة سلام» كما يقولون الآن ، فقد عاهدهم الرسول على ألا يكونوا معه ، ولايكونوا عليه ؛ ويقال إن المعاهدة كانت من نوع ما يسمونه الآن « معاهدة دفاعية » ، فعليهم « أن ينصروه ممن دهمه » . تمكن « حُيَىّ » من الدخول إلى ديار « بنى قريظة » وما زال بهم حتى نقضوا العهد ، ومزّقوا المعاهدة التى بينهم وبين المسلمين .

---

(١) جبل صغير بالمدينة .

اشتدّ ذلك على الرسول ، ولم يملك إلا هذه الجملة التى يفرج بها كربة نفسه : « حَسْبُنا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيل » ، وبعث من يستطلع له الخبر ، فلما تأكد من صدقه ، بشّر نفسه ، وبشّر من معه بنصر الله الذى لايخلف وعده رسله ، والذى لاينصر الخائنين المَاكرين ، وقال لقومه : « أبْشِرُوا بِنَصْرِ اللهِ وَعَوْنِه » ؛ ولا بدّ من مقابلة الشرّ بالشرّ ، ويكفيهم أن يأخذوا حذرهم الآن من عدوّهم الداخلى ، حتى لايُفْسِد عليهم الأمر . اشتدّت الحراسة على المدينة ، فكانت الفرقة والفرقتان يتناوبان العسّ ليلا ، وتعارف المسلمون فيما بينهم بكلمات « السرّ » ، فشعار المهاجرين « يا خيل الله » ، وشعار المسلمين جميعا « حم ، لايُنصرون » ، وخرج جماعة من « بنى قريظة » عدّة مرات فلم ينالوا من المؤمنين شيئا .

انتهز كثير من المنافقين خروج « بنى قريظة » على العهد ، وأرادوا أن يقلّلوا من عدد جيش المسلمين بالانسحاب ، أوأن يوقعوا الفشل بين صفوفهم بالخلاف ، فبعث « بنو حارثة » برسولهم ، يقولون للرسول : « إنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ ، وَما هِيَ بِعَوْرَةٍ ، إنْ يُرِيدُونَ إلاَّ فِرَارًا » [1] واحتجوا بأن بيوتهم مكشوفة للإغارة ، وأنهم يخشون قبيلة « غطفان » بالذات ، وهى حليفة « أبى سفيان » والمشركين ! غضب المسلمون لأذن الرسول لهم ، وقابل « سعد بن معاذ » الرسول غاضبا وقال له : « يا رسول الله لاتأذن لهم ! إنا والله ما أصابنا وإيّاهم شدةٌ قطُّ إلا صنعوا هكذا » ولكن الرسول أنفذ ما قال ، وردّهم كما أرادوا .

أراد الرسول من ناحية أخرى أن يأمن جانب « غَطَفان » وأن يؤمن الناس شرّها ، بعد أن رأى ما رأى من «بنى حارثة » ، وبين أن اشتدّ الحصار عليه وعلى أصحابه بضعة أيام ، والعدوّ من أمامه ، ومن خلفه ، والخندق بينهما ؛ فأرسل إلى رئيسى « غطفان » « عُيَيْنَة بن حِصن » و « الحارث بن عَوْف » وفاوضهما على أن ينزل لهما ولقومهما عن ثلث تمر المدينة ، إذا رجعا بقومهم عن الانضمام إلى جيش « أبى سفيان » . سارت المفاوضة فى طريقها الطبيعىّ ، وأحضرت الصحيفة والدواة

(١) سورة الأحزاب ، من الآية ١٣ .

ليكتب « عمان بن عفان » هذه المعاهدة ، أو هذا الصلح ، إلا أن « عَبَّاد بن بشر » حارس رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قائما على رأسه ، مقنعا فى الحديد ، فلحظ أن « عُيَيْنة » مادّ رجليه فى صورة مستنكرة ، فصاح به : « اقبض رجليك ، أتمدّهما بين يدى رسول الله ! والله لولا رسول الله ، لأنفذت صدرك بالرمح ! » ثم قال : « يارسول الله ، صلى الله عليك ، إن كان أمرا من السماء فامض له ، وإن كان غير ذلك ، فوالله لانعطيهم ، ولانطعمهم إلا السيف » .

أنصت الرسول لصوت « عَبَّاد » وعرف أن هذه الصرخة من قرارة نفسه ، ورأى أن هذا الصلح المقترح ربما اعتُرض عليه من بقية أصحابه ، كما اعترض عليه « عَبَّاد » ، وكما أنه صلى الله عليه وسلم لاينطق عن الهوى ، كذلك كان لاينفرد برأيه فيما لم يأت به وحى ، فصمت قليلا ثم دعا « سعد بن معاذ » و « سعد بن عُبادة » واستشارهما خُفية ، ففصّلا له المسألة فى هذه العبارات : « إن كان هذا أمرا من السماء فامض له ، وإن كان أمرا لم تُؤْمر فيه ، ولك فيه هوًى ، فسمع وطاعة ، وإن كان إنما هو الرأى ، فما لهم عندنا إلا السيف » . عندئذ قال الرسول ، وكأنه يبرر ما أراد من هذا الصلح الذى عرضه ، « إِنِّى رأيْتُ العَرَبَ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ ، فَقُلْتُ أَرْضِيهِم وَلا أُقَاتِلُهُم » . فلما علما أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد أخذ برأيهما ، قالا : « والله ما طَعِموا بهذا منا قَطُّ ، وما كانوا ليأخذوا فى الجاهلية ثمرة إلا بشراء أو قِرى ، فحين أتانا الله بك ، وأكرمنا بك ، وهدانا بك ، نعطى الدّنيّة ! لانعطيهم أبدا إلا السيف » ، فأمر الرسول بتمزيق الكتاب ، وقال لعُيَيْنَة وأصحابه : « ارْجِعُوا ، بَيْنَنَا السَّيْفُ ! » .

لم يرض الله لرسوله هذه المعاهدة التى استبان فيها عدم رضى المسلمين عنها ، ولكنّه سبحانه قيّض له نصرا مؤزرا على يد مسلم قريب عهد بالإسلام ، هو « نُعيم ابن مسعود الأشجعىّ » فقد كان صديقا لبنى قريظة ، الذين خانوا عهدهم مع الرسول ، كما كان صديقا لقريش ، فاستغلّ ثقة الطرفين ، وحذّر أحدهما من

الآخر : سعى إلى «بنى قريظة» ألا يقاتلوا مع قريش حتى يأخذوا رهينة من أشرافهم، وسعى إلى « أبى سفيان » بأن بنى قريظة يخشون « محمدا » ويرون ضرورة أخذ رهينة من أشراف قريش وغطفان ليسلموها إليه ، وسعى إلى « غطفان » بمثل هذا ، حتى أوقع الفرقة بين الجميع ، وبهذا السعى اختلف عليهم الأمر واختلط !

هذا ما كان فى المجال السياسى ، أمّا ما كان فى المجال الحربى ، فإن جيش المسلمين قد سار فيه الخوف من كثرة الأعداء ، وقد راج فيه النفاق من الذين لم يتغلغل الإيمان فى أعماق نفوسهم . ولكن المؤمنين الصادقين كانوا يشدّون على قلوب الضعفاء بالتواصى بالصبر والمصابرة ، وكانوا يشدّون على المنافقين ، يطردون منهم من يطردون ، ويراقبون منهم من يراقبون . وكان القائد العظيم يطوف على الخندق بنفسه يحرسه ليلا ، حتى إذا آذاه البرد دخل قبّته ليستدفئ ، فاذا ماجرى الدم فى عروقه خرج ثانية إلى الحراسة . لمح عليه السلام أن فى الخندق ثُغْرة يمكن أن ينفذ منها العدوّ ، لأنها أضعف مكان فى بنائه ، ولأن هجوم الأعداء قد أعجلهم عن تقوية الخندق جميعا ، فقد كان قويا من جميع نواحيه ما عدا هذه الثُّلمة التى يمكن أن تكون بابا ومنحدرا يصل إليهم العدوّ من فتحتها فى غفوة من ليل ، أو فى غفلة من نهار . لم تنم عين المسلمين عن حراسة الخندق ، وكذلك لم تنم عين المشركين عن الطواف حوله يلتمسون ثُغرة ، أو ينتهزون فرصة ، أو يطلبون غِرّة . وبين جيش المشركين رجلان لهما عيون الصقور ، ومراوغة الثعالب ، معروفان بالحرب والجلاد ، الشجاعة والعناد ، هما « عمرو بن العاص » و « خالد بن الوليد » سيفا الإسلام ، بعد أن منّ الله عليهما بالإسلام . حاول « عمرو » أن يعبر الخندق ، وحاول « ابن الوليد » عبوره ، وكل منهما يدور حوله بنفر من رجاله ، والحرّاس كلما اشتدّ عليهم البلاء ، أو خافوه ، نادوا بكلمة السرّ « يا خيل الله » فيتجمعون حول المحاولة ويصدّونها ؛ اشتدّ الخوف من الثغرة ، والمسلمون حولها ، فى غير إغفال للنواحى الأخرى ، ولا نجد لوصف هذا الخوف إلا ما قالته « أمّ سَلَمَة » : « شهدت مع رسول الله عدّة مشاهد ، فلم يكن منها أتعب لرسول الله ، ولا أخوف عندنا من الخندق » . وإلا ما قاله « محمد بن مَسْلَمة » : « كان ليلنا بالخندق نهارا » . وكان المشركون يتناوبون الأمر فيما بينهم ،

فيغدو « أبو سفيان » فى أصحابه يوما ، ويغدو « خالد بن الوليد » يوما ، ويغدو « عمرو ابن العاص » يوما حتى عظم البلاء » . عثر المشركون على الثُّغرة فى الخندق ، فتسلل منها « عكرمة بن أبى جهل » ومن معه ، فأعطى الرسول سيفه وعمامته « علىّ بن أبى طالب » مشجعا على الوقوف فى وجههم ، فردّهم ردّا منكرا . استمرّ الفريقان يتناول بعضهم بعضا بالنِّبال ، وشغل المسلمون عن صلاتهم ، ووقف الرسول يدعو على الأحزاب بهذا الدعاء : « اللَّهُمَّ مُنزِّلَ الكِتابِ ، سريعَ الحساب ، اهْزِمِ الأحزاب » ، وما هو إلا أن تغير الجوّ فجاءة ، واسودّت السماء ، وجاءت الريح من كل ناحية إلى ناحية الأحزاب وحدهم ، حتى أتت على بنيانهم وأكفأت قدورهم ، وذهبت بهم كل مذهب ، فما كان الرجل منهم يهتدى إلى رَحله ؛ أرسل الرسول « حذيفة بن اليمان » يتجسّس أخبار القوم فرآهم يحرقون خيامهم ليستدفئوا بها ، والريح تذهب بقطع من النار ، فتهدّد المعسكر بالحريق ، والرجل يتحامل على الرجل حتى يستطيع السير ، والرجال يأخذ بعضهم بيد بعض حتى يستطيعوا المسير ، وعلم أن كبار قريش يتشاورون فى أمر الرحيل ، وأن بعضهم قد أخذ سمته إلى مكة قانعا من الغنيمة بالإياب . يستمع الرسول وصحبه إلى ما يقول « حُذيفة » وابتسامة الرضا فى وجنتيه ، والطمأنينة تملأ نفسه ، وآثارها فى وجهه الكريم شعاعا ونورا ، وشفتاه ترتجفان بما أُنزل عليه : « يأيُّها الَّذينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ ، فأرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْها ، وكانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا . إذْ جاءُوكم مِنْ فَوْقِكُمْ ، وَمِنْ أسْفَلَ مِنْكُمْ وَإذْ زَاغَتِ الأبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَناجِرَ ، وَتَظُنُّونَ باللهِ الظُّنُونا ، هُنالِكَ ابْتُلِيَ المُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا » [1] .

وانتهت هذه الغزوة بمبادلة هاتين الرسالتين بين المؤمنين وبين المشركين ، فقد كتب « أبو سفيان » للرسول عليه الصلاة والسلام :

« باسمك اللهم ! فإنى أحلف « باللاتِ والعُزّى » . ولقد سرتُ إليك فى جمعنا

---

(١) سورة الأحزاب ، الآيات ٩ ، ١٠ ، ١١ .

وإنا نريد ألا نعود أبدا حتى نستأصلكم ، فرأيتك قد كرهت لقاءنا ، وجعلت مضايق وخنادق ! فليت شعرى من علمك هذا ! فإن نرجع عنكم ، فلكم منا يوم كيوم أحد »

يُقرأ الكتاب للرسول ، فيأمر بالكتابة إليه :

«من محمد رسول الله ، إلى « أبى سفيان بن حرب » أمّا بعد ، فقد رما غرّك بالله الغرور ، أمّا ما ذكرت من أنّك سرت إلينا فى جمعكم ، وأنّك لاتريد أن تعود حتى تستأصلنا ، فذلك أمر يحول الله بينك وبينه ، ويجعل لنا (فيه العاقبة) حتى لاتذكر « اللات والعزّى » . وأمّا قولك من علّمك الذى صنعنا من الخندق ، فإنّ الله ألهمنى ذلك لما أراد من غيظك وغيظ أصحابك . . . . ولياتينّ عليك يوم أكسر فيه « اللاّت » و « العزّى » وإساف و « نائلة » و « هبل » حتى أذكّرك ذلك » .

انتصر الرسول فى هذه المعركة بالرعب أولا ، ثم انتصر بالخطة الحربية السديدة ثانيا ، ثم انتصر بالحكمة والسياسة ثالثا ، ثم انتصر فى مراسلته « أبا سفيان » رابعا . ثم انتصر فيما وعد به وأوعد خامسا ، فدخل المسجد الحرام وكسر الأصنام ، وهدم عبادة الأوثان ، وردّ هذا الرأس القلق رأس « أبى سفيان » إلى الإسلام ، ثم انتصر أوّلا وآخرا بما وعده الله من النصر ، وصدق الله ، وصدق رسوله .

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيرا . ولمّا رأى المؤمنون الأحزاب ، قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلاّ إيمانا وتسليما . من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدّلوا تبديلا . ليجزى الله الصادقين بصدقهم ، ويعذّب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم . إنّ الله كان غفورا رحيما . وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويّا عزيزا » [1] .

---

(١) سورة الأحزاب ، الآيات ٢١ – ٢٥ .

زوجات الرسول

فى سورة الأحزاب

انتهت غزوة « الأحزاب » أو غزوة « الخندق » بانتصار دين الله ، وانتصار الرسول وصحبه ، بعد أن عانى المسلمون ما عانوْا ، وبعد أن زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر . نعم لقد انتصر المؤمنون ، وكُبت المنافقون ، والذين فى قلوبهم مرض ، والذين رجعوا عن عزمهم بعد أن صمموا على الخروج ، والذين رجعوا بعد أن خرجوا ، « يَقُولُونَ إنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَاهِيَ بِعَوْرَةٍ ، إنْ يُرِيدُونَ إلاَّ فِرَارًا » [1]

وصفت سورة « الأحزاب » هؤلاء وهؤلاء وصفا رائعا : فقلوبهم مضطربة ، وأبصارهم زائغة ، ونفوسهم متردّدة ؛ كما وصفت خوفهم وهلعهم وانفعالاتهم وتقلص عضلاتهم « فإذَا جاءَ الخَوْفُ رأيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إلَيْكَ ، تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ المَوْتِ »[2] ، وكما وصفت جبنهم وبذاءتهم وتطاولهم « فإذَا ذَهَبَ الخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِألْسِنَةٍ حِدَادٍ »[3] .

أما الرسول عليه الصلاة والسلام ، فقد كان فى هذه الغزوة — كما كان فى كلّ غزواته ، وكما كان فى كل ما يتناول من شئون ، ويفكر فيه من أمور ، وكما كان فى سائر أحواله — برىء الخُلُق ، طاهر النفس ، رابط القلب ، عفّ اللسان ، ثابت اليقين ، معوّلا على ربه ، واثقا من نصرته ونُصرة دينه . هذا الخلق المثالى يصفه القرآن هنا كما يصفه هناك ليكون مبدأً لكل المؤمنين يطالبهم بالقدوة ، ويحملهم على هذه الأسوة المثالية « لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ »[4] .

---

(١) سورة الأحزاب ، آية ١٣ .
(٢) سورة الأحزاب ، من الآية ١٩ .
(٣) سورة الأحزاب ، من الآية ١٩ .
(٤) سورة الأحزاب ، آية ٢١ .

والآية – كما ترى – تشير إلى مذهب جليل فى الأخلاق ، هو مذهب « القدوة والمثل » . والآية تُهيب بكلّ من يتولى شأنا عاما من شئون الناس، أن يأخذ نفسه أوّلا بما يطالب الناس أن يأخذوا أنفسهم به ، حتى يكونوا قدوة لمن يليهم . فالقدوة تهبط من الأعلى إلى الأدنى ، ولا تعمل عملها حتى يقلد الصغيرُ الكبير ، والولدُ الوالد ، والطالب المعلم ، والمرءوس الرئيس ، والمحكوم الحاكم ؛ هذا هو خط السير فى القدوة : الكبار والأكابر يكوّنون النماذج ، والصغار والأصاغر يحتذونها فى تقليد أو مسايرة ، فيجد الأدنى فى الأعلى الخلال الطيبة ، ويرى الناس فى مرآة النفوس الكبيرة صورا طيبة يعملون على مثالها . وكما يكون الرسول مصدر القدوة ، يكون مصدرَها أيضا المؤمنون الصادقون : « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ، وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً »[1] . فالأمثلة العالية تنتقل بين الناس، ويلتزمها الجيل بعد الجيل مادامت القدوة الحسنة . والفضلاء هم الذين يضعون أمامهم المُثُل العليا، ويتخذونها مبادئ لايحيدون عنها ، ولا يبرحون يلتزمونها حتى الموت وقضاء النحْب ، فهم يُلزمون أنفسهم بها وكأنها دين أو نذر (نَحْب) لابدّ من الوفاء به ، ومن لم يدركه الموت يظلّ دائبا فى طِلابها ، ومنتظر الفُرص التى تدفعه إلى تحقيق غاياته ؛ وهكذا أصحاب المبادئ لايتصرّفون فيها ولا يبدّلون منها .

وبعد غزوة الأحزاب ، وإخلاء الأرض من المنافقين ، وإجلاء المكابرين والمعاندين ، منّ الله على المؤمنين فأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم ، وأصاب المسلمون كثيرا من هذه النعم التى تمتعوا بها هم وأزواجهم وأولادهم .

تطلّعت نساء النبىّ عليه الصلاة والسلام إلى شىء من هذا المتاع ، فعوتبن على هذا التطلع عتابا شديدا ، فسّره الحديث وفسرته الآيات : فى رواية « أحمد » و « مُسلم » و « النّسائى » أن « أبا بكر » و « عمر » دخلا على الرسول وهو ساكن

---

(١) سورة الأحزاب ، آية ٢٣ .

واجم وحوله نساؤه ، كأنّ أمرا قد حدث ! ، فتكلم « عمر » وقال : إن زوجته سألته زيادة النفقة فردّها ! فضحك الرسول عليه الصلاة والسلام وقال : « هُنَّ حَوْلِى سألْنَنِى النَّفَقَةَ أيْضًا » ! فقام « أبو بكر » إلى « عائشة » ، وقام « عمر » إلى « حفصة » غاضبين ، وقالا : « تسألان الرسول ما ليس عنده » ! فنزلت الآيات :

« يَأيُّها النَّبِىُّ قُلْ لِأزْوَاجِكَ إنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الحَيَاةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها ، فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً »[1] . ومعناها : إن تطلعتنّ إلى بقية الناس فى طلب الزينة ، ومظاهر الحياة ، فأمركُن بأيديكن ، أمتعكن بالمنحة التى أستطيعها ، وتنصرفن إلى بيوتكن مشكورات ! الآية تشير بالفرقة ، لأن الرسول بعيد عن الحياة الدنيا ، ومظاهرها وزينتها . ومن حقّ هؤلاء اللاتى نَصَبْن أنفسهن ليكُنّ معه حواريات للدين ، ناقلات عن صاحب الرسالة ما يتلى فى بيوتهن من آيات الله والحكمة ، أن يعرفن ما لهن من المكانة التى لاتتفق مع مظاهر الحياة الخادعة !

هذا هو الرأى بل الأمر ، إن كنتن تردْنَ الحياة والمظاهر الكاذبة « وَإنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ ، فإنَّ اللهَ أعَدَّ لِلمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ أجْرًا عَظِيما »[2] .

نزلت هاتان الآيتان ، وكان لابدّ للرسول أن يبلغ ما أُنزل إليه ، ولكنه ترفّق كثيرا فى إخبار زوجاته بما أُوحى إليه ، فابتدأ بزوجته عائشة وقال : « إنّى ذَاكِرٌ لَكِ أمْرًا ما أُحِبُّ أنْ تَتَعَجَّلِى فِيهِ حَتَّى تَسْتأمِرِى أبَوَيْكِ » ، أى حتى تطلبى أمرهما ومشورتهما ! فقالت عائشة : « وما هو ؟ ! » فما زاد عليه الصلاة والسلام على أن تلا الآيتين ؛ دهشت عائشة وقالت : « أفيك أستأمر أبوىّ ؟! بل أختار الله ورسوله ! » وكان جواب الأخريات مثل جواب « عائشة » أو قريبا منه . تتوالى الآيات بعد ذلك مبيّنات مكانة أمهات المؤمنين ، فالخطأ منهن مضاعف ، والأجر لهن مضاعف ، فهن أمثلة صالحة لمن وراءهنّ من النساء .

(١) سورة الأحزاب ، آية ٢٨ .
(٢) سورة الأحزاب ، آية ٢٩ .

« يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ، يُضاعَفْ لَهَا العَذابُ ضِعْفَيْنِ ، وكانَ ذَلِكَ على اللهِ يَسِيراً » [١] فالآية تدلّ على أن تطلّع نساء النبيّ إلى الحياة الدنيا وزينتها كبيرة ، وكبيرة ظاهرة ، رعاية لمقامهنّ الكبير ، فالهفوة من الكبير كبيرة ، وإلا فنساء الرسول مصونات عن الفاحشة وصيانتهنّ مستمدّة من عصمته .

وكما أن الهفوة منهنّ مضاعفة ، يكون العمل الصالح مضاعفا لهن « وَمَنْ يَقْنُتْ [٢] مِنْكُنَّ لِلهِ وَرَسُولِهِ وتَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِها أجْرَها مَرَّتَيْنِ ، وأعْتَدْنا لَها رِزْقاً كَرِيماً » [٣] .

ثم تبين الآيات ما لنساء النبيّ من المكانة الرفيعة المستمدّة من شخصيته العالية « يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كأحَدٍ مِنَ النِّساءِ ، إنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بالقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ، وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً » [٤] أى أنّ لكنّ من الشأن ما ليس لغيركن من سائر النساء ، فاذا أردتنّ الإبقاء على تقوى الله وطاعته فاحذرن الخضوع بالقول فى عبارات لينة متكسرة أمام الأجانب ، وبخاصة مرضى النفوس والقلوب ، فقوّة المرأة فى الكلام من محاسنها فى الجاهلية والإسلام ، وقوّة المرأة فى الكلام تباعد ما بين الرجل وبين أفكار السوء ؛ والمرأة القوية فى كلامها وفى تفكيرها ، تردّ الرجل المريض فى نفسه وقلبه إلى الصواب ، وكأن المرأة القوية تستلّ من نفسه المريضة كل فكرة سيئة ، وكل خاطر دنىء . وفى الحقّ أن المرأة المتأنقة فى كلامها ، المتألقة فى زينتها ، تجرّ الرجل الضعيف إلى ناحيتها ، بقدر ما تبتعد عن جدّ الفضيلة وحذرها .

---

(١) سورة الأحزاب ، آية ٣٠ .

(٢) القنوت معناه : الخشوع والخضوع ، ويفسر أيضا بالسكوت ، وهو مناسب لما نحن فيه ، فهو أمر من الله لهن بالسكوت عن زيادة النفقة وثياب الزينة .

(٣) سورة الأحزاب ، آية ٣١ .

(٤) سورة الأحزاب ، آية ٣٢ .

« وَقَرْنَ [١] فِي بُيُوتِكُنَّ ، وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجاهِلِيَّةِ الأُولى ، وأَقِمْنَ الصَّلاةَ ، وآتِينَ الزَّكاةَ ، وأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا » [٢] .

فالفعل الذى صدرت به الآية « قَرْنَ » يُقرأ بالكسر أيضا « قِرْنَ » ، فهو فى حالة الفتح من « القرار » بمعنى الاستقرار فى البيت والتوفر على شئونه ؛ وهو فى حالة الكسر من « الوقار » بمعنى الاحتشام والتجمل ، فالأمر بالقرار فى البيوت ليس معناه حبسَ المرأة فى المنزل كما يُفهم خطأ ، وإنما معناه أن المرأة تجد فى عملها فى البيت من رعاية شئونه وشئون أولادها ما يكفى لأن تستقرّ فيه وتتوفّر عليه ؛ وهو عمل لايقلّ عن الجهاد فى سبيل الله ، إن لم ينزّل منزلته ، فهو جهادٌ أيضا فى سبيل الحياة وفى سبيل الأسرة . يدلّ على ذلك الحديث المروىّ عن « أنس » : « جاء النساء إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، فقلن : يارسول الله ، ذهب الرجال بالفضل والجهاد ، فهل لنا عمل ندرك به فضل المجاهدين فى سبيل الله ؟! » فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : « مَنْ قَعَدَتْ مِنْكُنَّ فِي بَيْتِها فإنَّها تُدْرِكُ عَمَلَ المُجاهِدِينَ فى سَبِيلِ اللهِ » . وبديهى أنها لاتجلس فى بيتها عاطلة ويكتب لها أجر المجاهدين ! وإنما المراد هنا من توفرت على شئون بيتها وأولادها عاملة جاهدة ، فلها أجر المجاهدين.

إن الإسلام لايمنع العمل فى البيت للمرأة ، بل ذلك عملها وتلك طبيعتها ، وهو لايمنعه خارج البيت إذا كان عملا يتفق مع الطبيعة والكرامة ، وهى فى حاجة إليه ! وإنما الذى لانفهمه أن تعمل المرأة خارج البيت من غير حاجة إلى الكسب لمجرّد المزاحمة الاقتصادية ! وليتها فى ذلك تعمل لتزيد فى دخل الأسرة ، ولكنها تعمل باليمين لتنفق ما ربحته باليسار على الخادمات والمرضعات والطاهيات ، حبا فى الأناقة ، ورجوعا إلى التبرّج الجاهلى . إن الإنتاج الاقتصادى المنزلى قد ضعف جدا فى الأسر التى تعمل

---

(١) تقول فى اللغة (وقر يقر وقارا فهو وقور ، ومن هذا الفعل قراءة الكسر « وقرن فى بيوتكن ») ؛ وتقول : (قر يقر قرارا ، بمعنى أقام واستقر) .

(٢) سورة الأحزاب ، آية ٣٣ .

ربّاتها خارج البيت ، فهن يشترين كل شيء للأولاد من السوق حتى لبن الأم ! وحتى المرحمة والعاطفة تُشترى ممن لايملكها من المربيات والمرضعات ! ! إن كان لابدّ للمرأة من العمل ، فلتعمل فى محيط الأمومة ، وهى هنا خاصة وعامة : فالأمومة الخاصة فى البيت وفى الأسرة ، وعمل المرأة فيهما اقتصاد وربح يُربى على الربح الذى تجنيه خارج الأسرة ، لتنفقه على ضروريات الأسرة ! والأمومة العامة من عمل المرأة أيضا سواء أكانت محتاجة إلى العمل ، أم كانت غير محتاجة ، تقوم به حسبة لله ، وعملا إنسانيا رحيما ، وهذه الأمومة العامة كالأمومة الخاصة مستمدّة من طبيعة المرأة ، وكل عمل يستند إلى طبيعة صاحبه منتج رابح ؛ فلتعمل المرأة فى التعليم وفى التمريض وفى الطب وفى الجمعيات الخيرية التى تستهدف أغراضا إنسانية ، من شأنها أن تسعد الأسرة ، وتخفف من أثقالها . مثل هذه الأعمال تدخل فى كلمة « بيوتكن » ، فالبيوت هى منازل الأسرة ، وهى بيوت خاصة وبيوت عامة ، والأسرة ليس معناها فقط « الرجل والمرأة وصغارهما » وإنما معناها أيضا « الجماعة » التى يعيش فيها الفرد : ففيها نظم وقوانين منتجة هى بمثابة عملية التوليد بين الرجل والمرأة ، والأفراد الذين يرتفقون بهذه النظم والقوانين ، هم عيال الجماعة وأبناؤها .

فإذا رجعنا إلى « معنى الوقار » الذى توحى به الآية ، علمنا أنه مطلوب للمرأة حتى فى داخل بيتها بين خدمها وحشمها ، فلا تتكلم فى ليونة وتميُّع ، لئلا يطمع الذى فى قلبه مرض من الخدم والأقربين ؛ والمآسى الداخلية فى البيوت أكثر من المآسى الخارجية ، لأن المرأة فى بيتها لاتتحفظ كثيرا كما تتحفظ خارجه . وإذا كان الوقار مطلوبا داخل البيت ، فهو خارج البيت ألزم ، وعدم الوقار يدخل فى معنى التبرّج المنهىّ عنه .

بقى شىء آخر يمكن أن يؤخذ من الآية نصا وفهما ، وهو إضافة البيوت إلى النساء لاإلى الرجال « فى بيوتكن » ولم يقل فى بيوت « أزواجكن » ، ومعنى ذلك أن البيت بيت المرأة ، ولها الحقّ الكامل فى التصرّف فى شئونه ، وتعليمها مطلوب حتى تؤدّى هذا الحقّ كاملا ، وحتى لايكون هناك مجال للرجل فى أن يَدسّ

أنفه فى كل شىء ، مما يؤدّى إلى المنافسة أولا ، وبعدها المشاحنة والافتراق ! فالمرأة هى المتصرّفة فى شئون البيت . وإذن يكون معنى القرار فى البيوت التوفّر على القيام بوظيفة الأسرة ؛ وإذا كان الرجال قوّامين على النساء بالسعى والإنفاق ، فالمرأة هى القوامة على شئون الأسرة وشئون البيت ، حتى يتحقق التكافؤ ، وتتحقق المعاونة بين الرجل والمرأة .

فالدين يريد للمرأة التصوّن ، والبعد عن مواطن الشبهة ، فهى كريمة ، وهى موضع الكرامة ، وهى عزيزة على الرجل ، وهى موضع العزّة للأهل والعشيرة . وإذا كان الدين بهذا التصوّن والبعد عن الشبهة نساء المؤمنين ، فلأن لهنّ — إلى كثير من الخصائص والمميزات — خاصة نشر الدين والموعظة الحسنة التى يتلقّينها عن الرسول الكريم .

« وَاذْكُرْنَ ما يُتْلَى فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللهِ والحِكْمَةِ ، إنَّ اللهَ كانَ لَطِيفاً خَبِيراً » [١] .

---

(١) سورة الأحزاب ، آية ٣٤ .

عمرة الحديبية

كان « محمد » مجاهدا ، وما كان محمد محاربا ، نعنى أنه كان يدافع عن نفسه ، وينافح عن عقيدته ، ولم يكن متعديا ، وما كان يحبّ التعدّى ، وما كان حربا على نفسه أو على قومه ، ولكن إذا اشتدّ الأمر حتى لايفصل فيه إلا الحرب ، خبّ فيها ، وخرج منها فائزا منصورا . وأكبر دليل على ذلك أنه ما من مرّة حارب ، أو أُكره على حرب ، إلا كانت فئته القليلة ، وفئات عدوّه كثيرة عديدة ، ومع هذا كان النصر له أنى سار وأنى ذهب . ولقد اشتبك قومه فيما بعد بأمم نشئوا فى الحرب ، ونُشِّئوا عليها ، كالأمتين الفارسية والرومية ، ولهما من العُدد والآلات مالاقبل للناس به ، ولجندهم من الدُّربة والمرانة ما يذهب بالشجاعة وما يعوِّقها ، ومع هذا انتصر « محمد » وانتصر قومه ، لأنه هو وقومه مندفعون بالحقّ ، وهو قوّة فى ذاته ، ومدفوعون بالعقيدة ، وهى لاتعرف أين تذهب بصاحبها ، ولا يُبالى صاحبها معها على أىّ جنب يكون فى الله مضجعه ؛ الشهادة هى النهاية ، فلم لايصل إليها الشهيد مسرعا متى لاحت له فى أثناء الطريق ؟! والموت فى سبيل الله هو الغاية ، فإذا كانت المعركة هى النقطة القريبة من الغاية ، فلم لاينحدر الإنسان إليها من أسهل السبل وأقربها ؟! ، وإذا كان بين الحياة والموت مسافة قليلة أو قصيرة مقدّرة بالأجل ، وهذا الأجل غير معروف ، فلمَ لايبرز الذين كتب عليهم الموت إلى مضاجعهم طائعين مختارين ، فرحين مستبشرين ؟! وإذا كان الموت فى الشهادة حياة ، فما يضرّ المحارب لو جاءت فترة صغيرة هى فترة الموت تقطع عليه حياة قصيرة ، لتوصله إلى حياة كتب فيها النعيم والخلود للشهداء ؟!

وأخيرا إذا كانت الحياة الأولى بداية ، والحياة الثانية نهاية ، فلِمَ لايقفز المؤمنون من الأولى إلى الثانية فى قفزة واحدة ، وهم السابقون الأوّلون المقرّبون ؟! كان كل هذا هو مايدور برأس المؤمن ، ويطوف بقلبه ، بعد أن علّمه « محمد عليه الصلاة والسلام » ما الشهادة وما الإيمان ، ولكل هذا كان « محمد » وقومه يُنصرون

بالرعب، تهلع القلوب لخبرهم قبل مقدمهم ، وترتعد الفرائص إذا ذكر اسم هؤلاء الذين ما كانت ألسنتهم تفتر عن ذكر الله، ومن هذا كله لم يعرف عنهم أنهم معتدون، أو أنهم مبتدئون باعتداء ، فحمدوا السُّرى وحمدوا معه العاقبة ، والعاقبة عند ربك للمتقين .

كان عزيزا على « محمد » وأصحابه أن يقتلوا أهليهم ، وكان بالرغم منهم أن يروا فى المعركة خصما هو صديق ، ومبارزا هو من بقية الأهل والولد ، ومتحديا متعديا هو رحم ، والرسول أولى الناس برعاية الرحم والقربى . وكان يحزّ فى نفس الرسول ونفوسهم أن يحوبوا البلاد وهواهم فى مكة ! وأن يمنعوا — وهم المؤمنون — أن يرجعوا إلى أول بيت أقيم للناس ، فيه آيات بيِّنات ، وفيه مقام « إبراهيم » ! وأن يظلوا قابضين على السيف ، والبلد الذى يحرم فيه شهر السيف محرّم عليهم !

كانت مكة والكعبة والحجر وزمزم والقواعد تتراءى للرسول فى يقظته وفى نومه ، فى صحوه وفى غفوته ، وفى عقله الباطن وعقله الظاهر معا ، وهو الحسّاس الرفيق الذى لا يُفَرِّق بين سرّه وعلانيته، وظاهره وباطنه، وشعوره الظاهر وشعوره الكامن !

رأى فيما يرى النائم أنه دخل البيت الحرام ، وأنه حلّق رأسه ، وأن مفتاح الكعبة بيده ، وأنّ « عرفةَ » تبدو له تعِجُّ بالحجيج ، وتضطرب بالناسكين ، وأخبر المسلمين بهذه الرؤيا ، فما شكوا فى أنه قد عزم ، وأنه فى ذلك العزم منفِّذ لامختار .

إذن لابد لهم من السفر جميعا فى غزوة روحية ، ليس لها شأن غيرها من الغزوات ، هى غزوة ولا سلاح لها ، لأن الملتقى فى البيت الحرام ؛ وهى غزوة زادها التقوى ، وعتادها الإيمان ؛ والطواف فيها حول البيت ، لاحول المعركة ؛ والشجاع فيها من يتجرّد لامن درعه ولأمته حسبُ ، ولكن مما اعتاد الناس أن يلبسوا وهم مُحلون ؛ التجرّد فى هذه المعركة هو السلاح ، والتجرّد فى غيرها هو النَّزَق والتهلكة ! !

لايرضى « عمر بن الخطاب » عن هذه الرحلة المتجرّدة . هو يعلم ما يعلم الناس

من أمْن البيت وحرمته ، ولكنه يريد هنا أيضا أن يأخذ الحيطة ، فالقوم لاضمير لهم ولا دين ، والذين أخرجوهم من ديارهم وأموالهم، لايسمحون لهم أن يدخلوا الدّيار ولو زائرين عابرين ! يُهرول « عمر » إلى الرسول ويحادثه فيما تضطرب به نفسه : « أتخشى يا رسول الله علينا من « أبى سفيان بن حرب » وأصحابه، ولم لاتأخذ للحرب عُدّتها ؟! » يرى الرسول حجّة « عمر » ، ويعتقد دائما فى صواب رأيه ، ولكنه هنا منفِّذ لا مختار ، فما يجيب عمر إلا بكلمة فيها إقرار مايقول ، وفيها عدم استطاعة أن يفعل شيئا مما يقول : « ماأدرى ! ولست أحبّ أحمل السلاح معتمرا » ! يذهب «عمر» ، ويجىء « سعد بن عبادة » ويفكّر تفكير «عمر» ويقول بمثل ما قال : « لو حملنا يارسول الله السلاح معنا ! فإن رأينا من القوم ريْبا كنا معدّين لهم » ! فيرفع الرسول رأسه إليه ويقول : « لَسْتُ أَحْمِلُ السِّلاحَ ، إِنَّمَا خَرَجْتُ مُعْتَمِرًا » !!

يخرج الرسول فى السنة السادسة من الهجرة ، وعليه ثياب يمنية راكبا راحلته ، ويخرج الناس معه، والجمال التى سيقدمونها فى الهدى تساق أمامهم، وعليها من الشارات والعلامات ما يدلّ على أنها من شعائر الله . الركب فى طريقه بين مكة والمدينة يمرّ بالقبائل، ويدعوهم إلى الخروج معه ، وهم يعجبون من أمرهم، فهو وافد على قريش القوية الممتنعة ، وليس معه مثل أسلحتهم، وليس له مثل عددهم ! هى رحلة روحية، فهى رحلة ممتعة ! إنهم يبتاعون طعامهم من القبائل التى يمرّون بها أحيانا، ويحملون على مايصادفهم من الغزلان والحُمُر الوحشية، فيسلخون ويشوون ويأكلون أحيانا أخرى. القوم محرمون ، عليهم ثياب بيضاء ، يموج بهم آل الصحراء ، تحسبهم — مصعدين ومنحدرين — أمواجا كأمواج البحر ، يضطرب الهواء فى أرديتهم الواسعة الفضفاضة ، كما يضطرب الماء مرّت به النسائم والأرواح ، فإذا سمعتهم يعجُّون بالتلبية « لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ ، لَبَّيْكَ لاشَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ ، إِنَّ الحَمْدَ والنِّعْمَةَ لَكَ

والمُلْكَ، لاشَرِيكَ لَكَ » سمعت جلبة الصحراء من كل جنباتها، وسمعت الصلوات يردّدها سكان السماء فرحا بجيش الله ؛ ويستمرّ الطنين فى أذنيك حتى بعد أن يجاسوا للراحة من العناء . فإذا ابتدءوا الصلاة سمعت أزيزا كأزيز الرياح ، وسمعت جُؤارًا بالصلاة والدعاء ؛ يُسِرُّون فى صلاتهم أحيانا حتى يوجهوها خالصة إلى صاحبها ما يعلم بها أحد ، ويجهرون فى صلاتهم أحيانا أخرى جهرا تهتزّ له أشجار الوادى، وتتجاوب به قمم الجبال العالية ؛ حتى لكأن الصحراء كلها فى صلاة ، وكأن ماحولها . وما فيها ، فى دعاء ونجوى !!

القوم على مقربة من مكة موطن الهوى ، ومَناط التميمة ، وملعب الصبا ، ومَرَاح الشباب ؛ وعلى مقربة من بيت الله ، مَبْنى إبراهيم ، ومُستجاب الدعاء . وقريش تجرى بالخبر هنا وهناك، وتبثّ العيون ، وترصد الأرصاد ، ورجالها يقفون فى خطّ مستطيل ، متفرّقين ولكن متجاوبين ، ينقلون الأخبار عن طريق الأصوات المتتابعة ، فيقول القريب من « محمد » وصحبه ، فعل « محمد » كذا وكذا ، فينقل الثانى مايقول ، ويتلقف الثالث ماقال ينقله إلى الرابع ، وهكذا حتى تصل أخبار الجيش الروحى إلى مكة التى امتلأت بها القبائل حلقات وجماعات ، والكل يتشاورون ، ويرجعون بعد المشاورة إلى رأى واحد : « وربّ الكعبة لايدخلها !! »

يعلم الرسول بما أبرموا من أمر ، ويجلس للمشورة مع أصحابه ، أيمضى أم يرجع ؟ فإذا مضى ، وصُدّ عن سبيله ، أيقاتل وقد عزم السلم ؟ أم يحارب وقد أعذر ؟

يشير « أبو بكر » بضرورة المضىّ فى النية التى خرجوا من أجلها ، ولو كان دونها القتال ، ويتكلم « المِقْداد بنُ عمرو » بأسلوب قرآنىّ فيه الطاعة ، وفيه التحذير من المعصية : « يا رسول الله ، لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل : اذْهبْ أنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتلا ، إنَّا هاهُنا قاعِدُونَ » [1] ، ولكنا نقول : « اذهب أنت وربك فقاتلا إنَّا معكما مُقاتلون » . ويقول ثالث : « يا رسول الله ! نرى أن نَصْمُد لما

(١) سورة المائدة ، من آية ٢٤

خرجنا له ، فمن صدّنا قاتلناه » يسمع كل هذه العبارات ويتذكر ما وعدهم به ، فيقول : « إنَّا لَمْ نَخْرُجْ لِقِتالِ أحَد ، إنَّما خَرَجْنا عُمَّارًا » !

لم يكن القوم ينوون خيرا ، بل بيّتوا الشرّ ، فهذا « خالد بن الوليد » لم تبتلّ شفتاه بعدُ بكلمة التوحيد، يخرج فى نفر من المشركين يرقب الرسول وأصحابه، وينتظر الوقيعة بهم ، ورآهم يصطفون للصلاة ، فصفّ خيله فيما بينهم وبين القبلة ، فأذّن «بلال» بصوته الجهورىّ الندىّ، وقام المسلمون لصلاة الظهر غير خائفين، يقومون قومة رجل واحد ، ويقعدون قعدة رجل واحد ، حتى حدّث « خالد » نفسه بأن يأخذهم على غرّة إن هم عاودوا الصلاة ؛ واستمرّ يرقبهم حتى حانت صلاة العصر فرصد عليهم ؛ ثم راعه أن القوم يصلون «صلاة الخوف» كما سمّاها الفقهاء، وهى فى الوقت نفسه صلاة الاستعداد : تصطف الفرقة منهم خلف الرسول فيركعون جميعا، حتى إذا سجدوا، سجد الصفّ الأوّل، وبقى الثانى قائما يحرسه ، حتى إذا أتمّ الصفّ الأوّل سجوده ، قام حارسا، وسجد الصفّ الثانى فى هدوء وطمأنينة . ثم تأتى طائفة أخرى فتفعل مثل الأولى.

« فإذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ ، فَلْتَقُمْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأخُذُوا أسْلِحَتَهُمْ ، فإذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ ، وَلْتَأْتِ طائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ ، وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وأسْلِحَتَهُمْ ، وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أسْلِحَتِكُمْ وأمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ، وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ إنْ كانَ بِكُمْ أذًى مِنْ مَطَرٍ ، أوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أنْ تَضَعُوا أسْلِحَتَكُمْ ، وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ، إنَّ اللهَ أعَدَّ للكافِرِينَ عَذَابا مُهِينا » [1] .

يرجع « خالد بن الوليد » مع فرسانه بعد أن رأوا جنود الله ، وقد اهتزّت نفسه للمنظر الرهيب ، لم يخبر قومه بشىء . لأن نفسه صغُرت أمام هذه الشجاعة التى لاتخشى فى الله ، ولا تخشى غير الله ، ولا يقدّر الشجاعة إلا شجاع ، وعما قريب

(١) سورة النساء ، آية ١٠٢ .

سيكون فى صفوفهم على الرغم من صَلَفه ! وسينتقل من جند الشيطان إلى جند الرحمن ! !

الرسول يعسكر « بالحُدَيْبِيَة » على بعد تسعة أميال من مكة ، وقد نزل حيث وقفت به ناقته ، يحيلها هنا وهنا فلا تحول عن مكانها ، يزجرها الناس ويثيرونها فلا تقوم ولا تسير ، « قد حبسها حابس الفيل » كما قال الرسول ، فهى قريبة من البلد الحرام الذى حفظه الله إكراما لمولد الرسول ، فليحفظه الرسول شكرا لله !

يجرى القوم بالسفارة بينهم وبين هذا الجيش الروحى ، فيأتى « بُدَيل بن ورقاء » فى وفد من « خُزاعة » ويقول للرسول : « جئناك من عند قومك ! قد استنفروا لك الناس ، يُقْسمون لا يُخَلُّون بينك وبين البيت حتى تَبيد خضْراؤهم . فيردّ الرسول « إنَّا لَمْ نَأْتِ لِقِتال أحَدٍ ، إنَّما جِئْنا لِنَطُوفَ بِهَذَا البَيْتِ ، فَمَنْ صَدَّنا عَنْهُ قاتَلْناه ، وَقُرَيْشٌ قَوْمٌ قَدْ أضَرَّتْ بِهِمُ الحَرْبُ وَنَهَكَتْهُمْ ، فإنْ شاءُوا مادَدْتُهُمْ مُدَّةً يأمَنُونَ فيها ، ويُخَلُّونَ فِيما بَيْنَنا وَبَيْنَ النَّاسِ ، فإنْ ظَهَرَ أمْرِى ، كانُوا بَيْنَ أنْ يَدْخُلُوا فِيما دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ أوْ يُقاتِلُوا » .

يعود « بديل » فلا يسألونه ، وهم الذين أرسلوه ! ويقولون : « لاتخبرنا عنه ، ولكن أخبره عنا ! إنه لايدخلها علينا عامه هذا أبدا حتى لايبقى منا رجل » ! ثم يدفعهم الفضول بعد الصلف والكبر ، فيسألون « بديلا » ماذا سمع منه ؟ وبماذا جاء ؟ ثم يرسلون آخر هو « عُروة بن مسعود » ، فيرجع إليهم مملوء النفس مما رأى ، ومملوء السمع مما سمع ، ويقول : « قد وفدت على « كسرى » و« هرقل » و« النجاشىّ » وإنى والله ما رأيت مَلِكا قطُّ أطوع فيمن هو بين ظهرانيه من « محمد » فى أصحابه ! والله ما يَشُدُّونَ إليه النظر ، وما يرفعون عنده الصوت ، وما يكفيه إلا أن يُشير إلى امرئ فيفعل . . . . واعلموا أنكم إن أردتم السيف بذلوه لكم ، وقد رأيت قوما لايُبالون ما يُصنَع بهم إذا مَنعوا صاحبهم ، . . . اقبلوا ماعرض ، فإنى لكم ناصح ، رجل أتى هذا البيت معظِّما له مع الهَدْى ينحره وينصرف » ! تطامنت نفوسهم لهذه السفارة الثانية ، فقالوا « نردّه فى عامنا هذا ، ويرجع إلى قابل » .

صلح الحديبية

(٢)

ولمّا وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه بالحديبية ، وجاءته رسل المشركين ، ولم تُجدِ الرسالة ولا السفارة ، رأى الرسول عليه الصلاة والسلام أن يبعث إليهم أحدا من قبله ، حتى لاتكون لهم حجة بعد ذلك إذا انتهى به الأمر إلى قتالهم . أرسل إليهم أولا « خِراش بنَ أمية » فعقروا جمله وهموا بقتله ، وأراد إرسال « عمر » فخاف من شدّته ، فأرسل « عثمان بن عفان » وأوصاه أن يقول : « إنا لم نأت لقتال أحد ، وإنما جئنا زُوّارا لهذا البيت ، معظّمين حرمته ، ومعنا الهَدْى ننحره وننصرف » ؛ فهمّوا به هو أيضا لولا مكانته ، وأخيرا تشيع الشائعة أن « عثمان » قد قتل فيهتاج المسلمون لهذه المروءة الضائعة .

أخفقت هذه الرسالة السياسية أو قاربت الإخفاق ، أما صاحب الرسالة الدينية فقد جلس للناس يقبلون عليه ويبايعونه على عدم الفرار ، بل على الموت ؛ ويعلم المشركون أن « محمدا » يشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ، ليبيعها إلى الله بأن لهم الجنة ، فيخافون ويعاودون السفارة .

يجىء « سُهَيل بن عمرو » لرسول الله معتذرا عما فرط من القوم ، طالبا من مكّن الله منهم من الأسرى حتى يُمهد للصلح ويقول : « يامحمد » « إن هذا الذى كان من أسر أصحابك ، وما كان مِن قتال مَنْ قاتلك ، لم يكن من رأى ذوى رأينا ، بل كنا كارهين حين بلغنا ، ولم نعلم به ، وكان من سفهائنا ، فابعث لنا بأصحابنا الذين أسَرت أوّل مرّة ، والذين أسرت آخر مرّة » . فيردّ الرسول عليه الصلاة والسلام بأنى « غيرُ مُرْسِلِيهِمْ حتّى تُرْسِلُوا أصحَابِى » . تبادل الطرفان الأسرى ، وصحا الجوّ بعد إظلام ، ورجع سفير القوم يطلب الصلح من الرسول ، على أن يرجع هذا العام ، ويعود من قابل !

جرى الخبر بين الصفوف فمن راضٍ ومن غاضب ، وعلى رأس الغاضبين « عمر بن الخطاب » يأخذه الغضب، ويقف بين يدى الرسول مخاطبا : « يا رسول الله ! ألسنا بالمسلمين ؟!» فيقول : بلى ، فيردّ غاضبا أيضا : « فعلام نعطى الدنيّة فى ديننا ؟!» فيردّ الرسول ويقول: « أنا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِى» !

لايزال الغضب آخذا برقبة « عمر » ، فيذهب إلى « أبى بكر » ليقول له : « يا أبا بكر ، ألسنا بالمسلمين ؟! فيقول : بلى ، فيقول « عمر » : فعلام نعطى الدنيّة فى ديننا ؟! فيقول « أبو بكر » : « إنى أشهد أنه رسول الله ، وأن الحقّ ما أُمر به ، ولن يخالف أمر الله ، ولن يضيعه الله » !

لايرضى « عمر » بما سمع من هنا ومن هنا ، فيعود إلى الرسول مرّة ثانية ويسائل فى شدّة ودهش : « ألسنا على الحق ؟! أليس عدوّنا على الباطل ؟! »

ضاق « عمر» بنفسه ، وضاق به بعض المسلمين ، فقام إليه « أبو عبيدة بن الجرّاح » غاضبا أشدّ من غضب عمر وقال له : «ألا تسمع يابن الخطاب مايقول رسول الله ؟! تعوّذ بالله من الشيطان الرجيم، واتّهم رأيك!» فأخذ « عمر » يتعوّذ بالله من الشيطان الرجيم، ولكنه تذكر رؤيا الرسول، وأنه أخبر أنه سيدخل المسجد الحرام، وهاهو ذا يرى الرسول أمام المسجد الحرام وهو ممنوع من دخوله! فيصخب غضبه ثانية ، وكان قد سكت عنه قليلا ، وتجرى هذه المحاورة بينه وبين الرسول فى جمع من أصحابه :

« يا رسول الله ! ألم تكن حدثتنا أنك تدخل المسجد الحرام ، وتأخذ مفتاح الكعبة ، وتقف بعرفة ؟! وهذا هدينا لم يصل إلى البيت ولا نحن ؟! »

يرضى الرسول عن غضب « عمر » ويعلم أنه فى الحقّ أبدا ، فيبتسم له ويقول : « قُلْتُ لَكُمْ فِى سَفَرِكُمْ هَذَا ؟ » قال عمر : لا ، فقال الرسول : « إِنَّكُمْ سَتَدْخُلُونَهُ ، وآخُذُ مِفْتَاحَ الكَعْبَةِ إِنْ شاءَ اللهُ » . وحفظها الرسول ليذكّر بها « عمر » يوم حجة الوداع ، فقد وقف بعرفة وقال : « أَيْ عُمَرُ ! هَذَا الَّذِى قُلْتُ لَكُمْ ! » فقال « عمر» : «نعم يا رسول الله ، ما كان فتحٌ فى الإسلام أعظم من صلح الحديبية ! ! »

كان لا بُدّ من الصلح إذن ، وكان لابدّ من رجوع الرسول والمسلمين من غير عمرة ، وتهيأ القوم لكتابة « المعاهدة » بينهم وبين الرسول :

هذا الرسول يدعو الكاتب للكتابة ، فيختار « أوْس بنَ خَوْلى » فيأبى « سهيل » مندوب المشركين إلا أن يكون الكاتب « علىّ بن أبى طالب » أو « عثمان بن عفان » ويملى الرسول على « علىّ » أن يكتب « باسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم » ويأباها « سهيل » ويقول : « لاأعرف الرحمن » ! اكتب « باسمك اللهمّ » ! ويأبى المسلمون ويصممون على كتابة « الرحمن » ، ويأباها سهيل ! فيأمر الرسول «عليا» أن يكتب عبارتهم . ثم يستمرّ فى الإملاء : « هذا ما اصطلح عليه محمد رسول الله » ، فيأباها « سهيل » أيضا ويقول : « لوأعلم أنك رسول الله ماخالفتك ولتبعتك » ! أفترغب عن اسمك واسم أبيك ؟! أنت « محمد بن عبد الله » !

يضجّ المسلمون ضجة أشدّ من الأولى ، وترتفع الأصوات : لانكتب إلا «محمدا رسول الله » بل كان منهم من أمسك بيد « علىّ » يجبر على كتابة « محمد رسول الله » وإلا كُسر القلم وشُهر السيف ! هذا ، والرسول يشير بيديه وبرأسه أن يخففوا عن أنفسهم ويقول : « نَعَمْ ! أنا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ » فاكْتُبْها .

وأخيرا يقرأ الكتاب على الوجه الآتى :

« باسمك اللهمّ ، هذا ما اصطلح عليه « محمد بن عبد الله » و « سهيل بن عمرو » اصطلحا على وضع الحرب عشر سنين ، يأمن فيها الناس ، ويكفّ بعضهم عن بعض . . . وأنّ من أحبّ أن يدخل فى عهد « محمد » وعقده فعل ، وأن من أحبّ أن يدخل فى عهد قريش وعهدها فعل ، وأنه من أتى « محمدا » منهم بغير إذن وليّه ردّه محمد إليه ، وأن من أتى قريشا من أصحاب « محمد » لم يردّوه ، وأن « محمدا » يرجع عنا عامه هذا بأصحابه ، ويدخل علينا من قابل فى أصحابه ، فيقيم بها ثلاثا ، ولا يدخل علينا بسلاح إلا سلاح المسافر ، السيوف فى القُرُب » .

كتب من هذه المعاهدة نسختان ، أخذ الأصلية الرسول ، وأخذ نسختها سهيل . أُرغم المسلمون على كتابة المعاهدة كما يريد المشركون ، وليست المسألة فيها

مسألة ابتدائها « باسم الله » أو « باسمك اللهم » أو كتابة « محمد رسول الله » أو محمد ابن عبد الله » وإنما الشرط المجحف بالمسلمين هو شرط التسليم » فمن أسلم من قريش وذهب إلى « محمد » فهو مُلزَم بردّه ، ومن ارتدّ من المسلمين وذهب إلى قريش لاتُلزم بردّه ! هى إذن معاهدة تنقضها المساواة فى المعاملة ، ولم تغب عن المسلمين بل ردّدوها ، ورضّاهم الرسول عنها بقوله : « من رجع إليهم منا ، علم الله أن لاخير فيه ، ومن جاءنا منهم رددناه ، وسيجعل الله له فرجا ومخرجا ».

وقد تحققت حصافة الرسول السياسية ، بل نبوّته ، لما أسلم «أبو بصير» وذهب إلى الرسول فى المدينة ، وأرسلت قريش فى طلبه رجلين هما « العامرى » و « كوثر » فلم يسع الرسول إلا ردّه إليهما رعاية لنصوص المعاهدة ، وخرج « أبو بصير دامى القلب والعين ، حتى إذا كان ثلاثتهم بالطريق جلسوا إلى شجرة يتفيئون ظلالها ، ويتبلغون بقليل من التمر ، وركن الحارسان إلى أسيرهما . كان الحرّ شديدا ، فخلع « العامرىّ » بعض ثيابه وعلقها فى الشجرة وعلق سيفه أيضا . عندئذ عمد « أبو بصير » إلى الحيلة ، فطلب من حارسه أن يريه سيفه ، فأخذه فقلبه ، ثم نزل به على ناصيته فقتله ، ففرّ « كوثر » إلى المدينة وأخبر الرسول بخبر الأسير وقتل الحارس ، وأبى الحارس الثانى أن يرجع به ، كما أبى الرسول أن يحتفظ «بأبى بصير» حفظا للعهد ، فأرغمه على الرجوع ، فظلّ هائما على وجهه ، حتى نزل بساحل البحر فى ناحية تمكنه من أن يتعقب إبل قريش وهى صاعدة إلى الشام ، وهناك انضمّ إليه نحو سبعين من الفارّين بدينهم من مكة ، وهدّدوا تجارة قريش وأوقعوا بقوافلها .

ولما غاظ قريشا أمره كتبوا إلى الرسول يسألونه بأرحامهم أن يضم «أبا بصير» وصحبه إليه ، فكتب إليه الرسول فجاءه الكتاب وهو يجود بروحه ، ولكن ابتسم عن الشهادتين وأدرك أن رسول الله راض عنه ، وأن الله قد رضى برضاه .

كتبت المعاهدة ، وكان ما كان من أمرها ، وبعدها أخذ الجيش الروحى طريقه فى الصحراء راجعا إلى المدينة . الرسول على راحلته ، و « عمر » إلى جانبه يسأل

الرسول ولا يجيبه ، ويكرّر السؤال ، فيمعن الرسول فى الصمت ، فيفطن « عمر » أن الرسول لايزال غاضبا من موقفه ، وإصراره على دخول « مكة » عنوة ، وأخيرا تنبّه إلى أن الرسول عنه فى شغل شاغل ، فربما يتلقى وحيا ، أوينتظر وحيا ، وهو من هذا الوحى خائف يترقّب ، فقد يكون من أجله ، وقد يعاتب فيه ، أو يؤاخذ على إلحاحه مع الرسول ، وأخيرا يلتفت إليه الرسول عليه الصلاة والسلام والبشر يشيع فى وجنتيه ، والسرور يملأ نفسه ، ويشعّ فى وجهه ، ويقول يا « عمر » « أنزلت علىّ سورة هى أحبّ إلىّ مما طاعت عليه الشمس » ، ينصت عمر ، فيسمع الرسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ .

« إنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحًا مُبِينا . لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وما تَأخَّرَ ، ويُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ، وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيما . ويَنْصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزا »[1] .

---

(١) سورة الفتح ، الآيات ١ - ٣ .

غزوة الفتح

عقدت المعاهدة السلمية بين الرسول عليه الصلاة والسلام وبين المشركين ، وعلى الرغم من أنها معاهدة بين الحقّ والباطل ، وبين الهدى والضلال ، فقد أمضاها الرسول وأنفذها ، وربط نفسه على احترامها حفظا للعهد ووفاء به « وكانَ عَهْدُ اللهِ مَسْئُولاً » [1] . ولكن المشركين قد نقضوا العهد ، وتحللوا من ذمتهم لرسول الله بأن يراعوا جوار من دخل من القبائل العربية فى حياطة الرسول ورعاية قومه ، فقد دخلت قبيلة « خُزَاعة » فى حلف الرسول كما دخلت قبيلة « بكر » فى حلف قريش .

يجلس الأعراب للحديث والسمر ، وتفتخر كل قبيلة بحلفها ، ويفتخر كل فرد بقبيله ، فيدفع التفاخر واحدا من « بكر » لهجاء الرسول ، فيثور غلام من « خزاعة » ويضرب رأسه فيشجها ، وهاجت « بكر » وطلبت النصرة من قريش على « خزاعة » فنصرتها ، وهاجمت عدوّها ليلا ، فقتّلت منهم على غِرّة نساء وشيبا وولدانا .

كان لهذا التعدّى أثره السيئ فى نفوس القوم ، فالعقلاء من قريش رأوا فى ذلك نقضا صريحا للمعاهدة ، ورَأوْا أن « محمدا » فى حلّ من إبطالها ، ولا بدّ من الشخوص أمامه فى المدينة لتقديم المعذرة ، وإطالة « محمد » الهدنة ؛ بل لابدّ من وفادة كريمة للمدينة على رأسها « أبو سفيان » . ورأى الخزاعيون أن لاملجأ لهم إلا الرسول ، فلا بدّ من الشكوى إليه ، وانتظار ما يأمر به بعد أن غدر القوم هذا الغدر اللئيم .

يدخل الخزاعيون وعدّتهم أربعون رجلا على الرسول فى مسجد المدينة ، ويخفون عواطفهم منشدين الأشعار ، ثم يغلبهم الواقع ، فيصرّحون للرسول بما حدث من « بكر » أوّلا ، ومن قريش ثانيا ، وما كان منهم من الإغارة ليلا ، وتقتيل

---

(١) سورة الأحزاب ، من الآية ١٥ .

النساء والولدان والمستضعفين . يستمع الرسول إلى آثار هذا الغدر فيقوم مغضبا ، ويمشى فى المسجد ورداؤه يجرّ على الأرض ، وينطق بهذه العبارة الدالة على العزم والنصرة واحترام العهد وتأديب الخارجين عليه : « لا نُصرتُ إن لم أنصر خزاعة مما أنصر منه نفسى » !

يدخل بعد ذلك « أبو سفيان » متجاهلا الأمر كأن لم يحدث شىء ! ولكنه يعتذر بأنه كان غائبا عن مكة ، ويطلب من الرسول أن يشدّ على عهده ، وأن يزيد فى مدة المهادنة !! يعلم الرسول ما تنطوى عليه نفس « أبى سفيان » وما يلتوى به لسانه ، ويقول « لذلك قدمتَ » ؟ فيقول « نعم » ، ويسأله الرسول مرة أخرى ليظهر كذبه : « هَلْ كانَ قِبَلَكُمْ حَدَثٌ ؟ » فيقول : معاذ الله ، فنحن على صلحنا لانغيّر ولا نبدّل !!

يترك « أبوسفيان » الرسول — وقد عرف أنه بيّت شيئا — ويذهب إلى « أبى بكر ويوجوه أن يخاطب « محمدا » فى هذا الشأن ، أو يُجير بين الناس ، فما يزيد « أبو بكر » على أن يقول له : « جوارى فى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم » . ثم يلقى « عمر بن الخطاب » فيرجوه بما رجا به « أبا بكر » ، فيجيب « عمر » بشدّته المعهودة « والله لو وجدت النمل تحاربكم لأعنتها عليكم » ! فيسكت « أبوسفيان » على مضض ، حتى يلقى « عثمان بن عفان » فيركن إليه ، وإلى صلة الرَّحم بينه وبينه ، ويسأله الوساطة بينه وبين « محمد » ، فلا يلقى منه إلا ما لقى من « أبى بكر » . وبعد أن ييأس من الرجال ، يلجأ إلى النساء ، فيلقى « فاطمة » ابنة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويرجوها الكلام بالخير وفى الخير ، فتجيب بأن شأنها لايسمح لها بالتوسط فيما يراه الرسول ، فيطلب منها أن تتقدّم إليه بأحد ولديها حتى يجير الناس ، فتجيب بأنهما صبيّان ، وليس مثلهما من يجير !! وما دام فى بيت « فاطمة » فلا بدّ من استشارة « علىّ بن أبى طالب » أيضا ، وهنا يشير عليه « علىّ » بأن يتخذ من نفسه مجيرا ومستجيرا معا : فأبو سفيان يقول له : كلم « محمدا » أن يزيد فى مدّة الهدنة ، أو أجِرْ بين الناس ! فيقول « علىّ » : « ويحك ! إن رسول الله قد عزم ، وليس

يستطيع أحد أن يكلمه فيما يكره ! ويقول « أبو سفيان » : فما الرأى؟ يَسِّرتى فى أمرى فقد ضاق علىّ ! ومُرنى بما ترى أنه نافعى ! فيقول « علىّ » : « ما أجد لك أمْثَلَ من أن تقوم فتجيرَ بين الناس ، فإنك سيِّد كنانة ، يَدهش « أبو سفيان » ويقول : «تُرى ذلك مُغْنيا عنى شيئا» ؟! فيجيبه « علىّ » بجواب فيه الصدق وفيه السخرية ، والصدق مقصود ، والسخرية غير مقصودة ، ولكنها تُرضى صلف « أبى سفيان » وكبره : « لاأظنّ ذلك والله ، ولكنى لاأجد لك غيره !! »

اعتقد « أبو سفيان » أن ما أشار به « علىّ » فيه تعظيمه ، وسيرضاه « محمد » إذا سمعه ! ولمَ لايرضاه وهو سيِّد قومه ؟! ألا يتمنى « محمد » أن أكون معه ؟ ألا يرجو أن يكون فى ذلك قربى منه ؟! هذا ما كان يحدث به « أبو سفيان » نفسه . لذلك خرج من عند « علىّ » يصرخ فى الناس بأنه « مجير » ، ولكى يتأكد من رضى « محمد » دخل عليه وقال : « يا محمد ما أظنّ أن تردّ جوارى » ! فلا يردّ عليه الرسول بقبول قاطع ، ولا برفض قاطع ، وإنما يقتصر على هذه العبارة التى هى أقرب إلى المنع منها إلى القبول ، فيقول : « أنْتَ تَقُولُ ذَلِكَ يا « أبا سُفْيان ! »

يعزم « أبو سفيان » على الرجوع إلى « مكة » ليبشر قريشا بأن رجاءه قد قبل ، وان جواره جوار عزيز كريم ، من شأنه أن يؤَمِّن الناس من « محمد » وصحبه ، ولكنه قبل أن يزمع الرّحيل ، يعزم على زيارة ابنته « أمّ حبيبة » زوجة الرسول عليه السلام ؛ ها هو « أبو سفيان » أمام ابنته يفتح لها صدره فلا تستجيب لهذه العاطفة ، ويلقاها باشّا كأحسن ما يلقى الأب ابنته وقد غابت عنه ، وهو بذلك يظنه متفضّلا على هذه الابنة التى خرجت على طاعته وطاوعت دينها ، وعصته ، وأطاعت قلبها ، وجاهدها على أن تشرك بالله فلم تطعه ، وكادت أن تغلّق الباب فى وجهه لولا أن تذكرت قول الله « وَصَاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفا » [١] ، ولكنها تذكرت أيضا « وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أنابَ إلىَّ » [٢] وأبوها لم يتب ، ولم يرجع عن عقيدته الزائفة التى ليس لها بها علم ولا معرفة !

(٢،١) سورة لقمان ، آية ١٥ .

تتلاقى العاطفتان : أما إحداهما فكانت غاضبة فأصبحت راضية ، وهى عاطفة الأبوّة فى « أبى سفيان » ، خرجت ابنته على نفسه وعلى تقاليد قومها ، فغضب وتوعدها ، ثم لقيها ولقى من خرجت فى سبيله على طاعته ، فاطمأنّ ورضى ، فقد أصبحت زوجة لأكبر رجل فى العرب ، إن العصيان مقرون بالفخر ، و « أبوسفيان » لايجرى إلا وراء المفاخرة التى ترضى بها نفسه !

وأما ثانيتهما ، فعاطفة راضية كل الرضى فى أولاها وفى أخراها ، خرجت من بيت أبيها ، وسارت فى طريق الله ، وفقدت الأهل والعشيرة ، فوجدت فى رسول الله الأهل والعشيرة ، ووجدت عند رسول الله السَّكن وطمأنينة النفس ، وعزّة الحياة ، ورجاء العاقبة ؛ إن كانت قد خرجت من بيت سيادة فى الجاهلية ، فبيتها الجديد موئل الإسلام ، ومناط العزّة ومدار السيادة ، وإذا كان أبوها سيد المشركين ، فهى أمّ من أمهات المؤمنين ؛ وإذا كان سقف بيتها الأول عاليا سامقا يفاخر به فى القواعد والبنيان ، فسقف بيتها الثانى تنزل منه الملائكة والروح الأمين تملأ بيتها نورا وعرفانا وهداية ومعرفة ، فعاطفتها راضية مطمئنة .

يقتحم الأب العزيز بالأبوّة ، بيت الابنة العزيزة بالزوج ، ويهمّ بالجلوس على فراشها ، فتطويه دونه ، ولا تكتفى بهذه الحركة المهينة للأب ، بل تتبعها بهذه العبارة المكرّمة للزوج : « هذا فراش رسول الله ، وأنت امرؤ مشرك نَجَس ! ! يَذهَل الوالد لهذا التغيير الذى أصاب ابنته ، فيقول : يا بُنَيَّة ! « لقد أصابك بعدى شرّ » ! فتقول : « هدانى الله للإسلام » !

ثم تذكر فى أبيها ما قال « إبراهيم » لأبيه ، فيسكت عنها الغضب ، وتحاول أن تتوسل بعاطفة البنوّة ، وأن تحرّك العقل فى الأبوة ، فتقول : « يا أبت ، أنت سيد قريش وكبيرها ، فكيف يسقط عنك دخولك فى الإسلام ؟! وكيف تعبد حجرا « لايسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا » ؟!

يضرب « أبوسفيان » كفًّا بكف، ويقول : «يا عجباه ! وهذا منك أيضا ؟! أأترك ما كان يعبد آبائى وأتبع دين زوجك» ؟! هذا حديث « أبى سفيان» مع ابنته .

أما ما كان بينه وبين زوجته « هند » فكان قاسيا شديدا . نظرت إليه فوجدت وجها كوجه السحابة الغائمة فى الصيف ، فيه صفاء يشعّ فى صفحته ، فعرفت أنه الفخر والعظمة ، وقد عرفت زوجها كما عرفه الناس بهما ، وفيه سحابة قاتمة غائمة فتحيرت فى فهمها أهى الخيبة والفشل ؟! أم هى السحابة تغرى بالخير والأمل ؟! ولكنها فهمت أن الأمر لم يخلص كله ، وأن السحابة ربما أمطرت فجاءت بخير عميم ، وربما عرضت وفيها ريح فيه عذاب أليم . ثم ترجمت عما ساورها ، فسألت زوجها : « لقد طال غيابك حتى اتهمك قومك » ! فلم يتكلم ، فأتبعت سؤالها الأوّل بسؤال ثان، فيه الاستفهام عما كان، وفيه الرجاء فيما يكون : « إن كنت مع طول الإقامة قد جئتهم بنجح فأنت الرجل » ! ثم تعلم من أمره أنه أخذ بما قاله « علىّ بن أبى طالب » ، فتعلم أن زوجها قد خاب فى رجائه وفى سفارته معا ، وتقول له : « قبحت من رسول قوم » ! أما هو فأدرك أن قلبه قد تأثر مما قالته « أمّ حبيبة » ابنته ، فقام من فوره وحلق رأسه عند « إساف » و « نائلة » وقدّم لهما قُربانا ، ومسح بالدم رأسيهما ، وقال : « لاأفارق عبادتكما حتى أموت على ما مات عليه أبى » !

فتح مكة

كانت قريش تنتظر مجيء « أبى سفيان » ، وتتشوّق إلى معرفة مبلغ نجاحه فى سفارته . انثالت عليه الأسئلة من كل ناحية : ما وراءك ؟ هل جئتنا بكتاب من محمد ؟ ، وهل زاد فى المدّة حتى نأمن غزوه ؟ وأخيرا يصمتون ليسمعوا « أباسفيان» يقول لهم : « لقد كلّمت أصحابه فما قدرت على شيء منهم ، فكلهم قد رموْنى بكلمة واحدة ، إلا أن « عليّا » قد قال لما ضاقت بى الأمور : « أنت سيِّد كنانة ، فأجِرْ بين الناس ، فناديت بالجوار » . وانفلت سؤال أخير من بين الصفوف يقول له : وماذا قال « محمد » لما سمع جوارك ؟ قلت له : « إنى قد أجرت بين الناس ، وما أظنك تردّ جوارى » ! فلم يزد على أن قال : « أنت تقول ذلك يا أبا سفيان » ! فعرف القوم أنه فشل فى رسالته ، وقال السائل الأخير : « ما زاد على أن تلعَّب بك تلعُّبا » ! !

أما المدينة فقد كانت صامتة ، يعرف كبراؤها أن هناك شيئا ، ولكنهم يجهلون حقيقته ، أما سائر الناس فلا يدرون شيئا ، ولا يتوقعون شيئا . فقد دخل الرسول عليه الصلاة والسلام بعد رحيل « أبى سفيان » إلى بيت «عائشة» وقال : « جهِّزينا ، واخنى أمرك » . ودخل عليها أبوها فوجدها فى شغل شاغل من تجهيز ملابس الرسول ، وشيء من طعامه ، ولما سأل ابنته عما يريده الرسول من هذا التجهيز ، قالت : لاأدرى ، قال : يا ابنتى إن كان قد همّ بأمر فأخبرينا حتى نتهيأ له ! فقالت : لاأدرى يا أبتى إذا كان يريد « ثقيفا » أو « هوازن » ، وكتمت « عائشة » عن والدها سرّ زوجها .

دخل « أبو بكر » على الرسول عليه الصلاة والسلام ، وابتدره برفق ينمّ عنه صوته وسؤاله : « يا رسول الله ! أردت سفرا » ؟ قال نعم قال : « أفتجهز يارسول الله » ؟ قال : نعم ؛ ثم سمح لنفسه أن يسأل سؤالا ثالثا معرّفا ، فقال : « أين تريد

يا رسول الله » ؟ قال : « قُرَيْشاً » ! ثم سمعه يقول : « اللَّهُمَّ خُذْ عَنْ قُرَيْشٍ الأخْبارَ والعُيُونَ حتى نأتيَهُمْ بَغْتَةً ، اللَّهُمَّ خُذْ على أبْصارِهِمْ فَلا يَرَوْنِي إلاَّ بَغْتَةً ، وَلا يَسْمَعُونَ بِي إلاَّ فَجأةً »

أخذ جيش الرسول يمشي في الدروب بين الجبال مبالغة في التستر . ولكنّ رجلا من جيش المدينة سمح لنفسه أن يكتب لبعض أصحابه في مكة يقول : « إن رسول الله قد أذّن في الناس بالغزو ، ولا أُراه يريد غيركم ! وقد أحببت أن يكون لي عندكم يدٌ بكتابي إليكم » ، أمضى « حاطب بن أبي بُلْتعة » الكتاب وأعطاه لخادمة تدعى « سارة » نظير مكافأة ، بعد أن أوصاها أن تخفي الكتاب ، وأن تكون يقظة حريصة ، فالطريق محروس في جميع نواحيه ، والحملة سرّية ! .

يقع في رُوع الرسول أن سرّية الحملة في خطر — وهو الملهَم الموحى إليه — فيرسل برسولين في الطريق ويقول لهما : « أدركا امرأة من « مُزَيْنة » كتب معها « حاطب » كتابا يحذّر قريشا » . يركب الرسولان ، ويجوبان الصحراء ، ويتلمسان الطرق غير المسلوكة ، حتى يعثرا على المرأة ، ويطلبا منها الكتاب ، وهي منكرة ، وهما مصممان ، يعرفان أن الرسول لا يكذب فيما أُلهم به ، وأنهما لا يُكذّبان فيما سمعاه . وأخيرا يهدّدان المرأة بالتفتيش الذي لا يليق بكرامتها ، ولا يليق بدينهما ؛ تعلم المرأة أن الأمر جدّ ، وأن الطالبين مجدّان في تهديدهما ، فتأمرهما بأن يتنحيا قليلا عنها ، ثم تميط ما على رأسها من اللفائف ، وتنقض شعرها ضفيرة ضفيرة حتى يظهر الكتاب فيخليان سبيلها ، ويرجعان إلى المدينة !

لا بدّ إذن من النظر في أمر « حاطب » وكيف سمح له دينه أن يوقف المشركين على ما عزم عليه الجيش ، والحملة سرّية ، يهتاج المسلمون للأمر ، ويهمّ « عمر بن الخطاب » بقتله ، ثم ينتظر فيه أمر الرسول ، الذي يلتفت إليه ويقول : « ما حَمَلَكَ على هَذَا » ؟! فيقول : « يا رسول الله ! والله إني لمؤمن بالله ورسوله ، ما غيرت ولا بدلت . ولكني كنت امرأ ليس لي في القوم أصل ولا عشيرة ، وكان لي بين

أظهرهم أهلٌ وولد فصانعتهم » ! ويهيج « عمر » مرّة ثانية ويقول : « دعنى يا رسول الله أضربْ عنقه » ولا ينجيه من « عمر » إلا أن تنزل فى شأنه الآية تقرّر حسن النية ، وتحذّر سوء العاقبة لمن يعود :

« يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا لاتتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أوْلِياءَ ، تُلْقُونَ إلَيْهِمْ بالمَوَدَّةِ ، وقد كَفَرُوا بِما جاءَكُمْ مِنَ الحَقِّ ، يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وإيَّاكُمْ أنْ تُؤْمِنُوا باللهِ رَبِّكُمْ ، إنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً فى سَبِيلى وَابْتِغاءَ مَرْضَاتى ، تُسِرُّونَ إلَيْهِمْ بالمَوَدَّةِ ، وأنا أعْلَمُ بِما أخْفَيْتُمْ ، وَما أعْلَنْتُمْ ، وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ »[1] .

جيش المسلمين يتسلل فى الطريق ، يمشى ليلا ، وفى بكرة النهار ، ويستريح من حرّ الظهيرة فى ظلّ الجبال ، والسحابات الممطرة تساير الجيش تُخَفِّف من الحرّ ، وتجفّف من العرق ، وتسقى العطاش ، وتسهّل المسير ؛ الجيش يسير ، ولا يعلم إلى أين يسير . إنه طريق مكة حقا ، ولكن من الجائز أن يكون الرسول قاصدا « هوازن » أو معرِّجا على « ثقيف » ، ولم يعلم الجيش أن مكة هى النية والغاية ، إلا بعد أن رأوا ثلاثة من أشراف مكة ، هم « أبو سفيان » أيضا ، ومعه « حكيم بن حزام » و « بُدَيْل بن ورقاء » ، وثلاثتهم من أشراف العرب ، فظنوا أنها السِّفارة أيضا ، ولكن الثلاثة قد خرجوا يستطلعون أمر جيش فى الصحراء ، ولا يعرفون تماما أنه جيش « محمد » . سمعوا صهيل الخيل ففزعوا ، وسمعوا رُغاء الإبل ، فقالوا : نزلت « هوازن » تنتجع بأرضنا . خرج « العباس بن عبد المطلب » يلتمس رسولا يرسله لقريش ليخبرهم بأمر الحملة ، فقد انكشف الأمر أو كاد ، والجيش ليس بينه وبين « مكة » إلا قليل ؛ يسمع العباس صوت « أبى سفيان » فيعرفه ، ويتصايحان من بعيد ، هذا يقول : « أبا حنظلة » وذاك يقول : « نعم أنا هو يا أبا الفضل » ، ويسأل « أبو حنظلة » أو « أبو سفيان » ، فيقول له « العباس » : « هذا رسول الله فى عشرة آلاف من

---

(١) سورة الممتحنة ، آية ١ .

المسلمين ، فأسلم ثكلتك أمك وعشيرتك » ! ثم يأخذ ثلاثتهم إلى رسول الله ويقول له : قد أجرتهم ، وهم يستأذنون فى الدخول عليك . يدخلون على رسول الله فيُسلم « حكيم » و « بُدَيل » ، ويتردّد « أبو سفيان » ، ثم ينطق بنصف الإسلام ، فيشهد « أن لاإله إلا الله » ، فيبتسم الرسول ويقول : « وأنّى رسُولُ اللهِ » ! يتردّد الرجل بين صلفه وقلبه ، يريد أن يقولها فتحتجز فى حلقه ، ثم يقول : « والله يامحمد إن فى النفس منها لشيئا ! أرجئها إلى ما بعد !! » .

أبو سفيان هنا ! وهو قريب من المسلمين ! بل هو فى خيمة العباس ! فيراه « عمر » فيصيح « أبو سفيان عدوّ الله » ! « قد مكّن الله منك بلا عهد ولا عقد ! » وتلاحى « العباس » و « عمر » فى هذا العدوّ الضيف ، فالأوّل يجيره ، والثانى يريد ألا ينجو هذه المرّة ، ويحسم الرسول الأمر ، فيأمر العباس بأن يلزمه حتى يصبح . فلما أصبح غدا به على رسول الله ، فقال له : « أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنْ لاإِلَهَ إِلاَّ اللهُ » ؟ فقال : « بأبى أنت ! ما أحلمك وأكرمك وأعظم عفوك ! قد يقع فى نفسى أنه لو كان مع إلهك إله آخر لا أغنى عنا شيئا » ! عندئذ عرف الرسول أن « أبا سفيان » يستدلّ ويُعمل عقله ، فقال له : « أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنِّى رَسُولُ اللهِ » ؟ ! قال : « بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك ، وأعظم عفوك ! أما هذه فوالله إن فى النفس منها لشيئا بعد » ! عندئذ يأخذه العباس بنظرة قاسية ويقول له : « ويحك ! قلها » ، فيقولها ، وينضمّ « أبو سفيان » إلى صفوف المسلمين ! !

أراد « أبو سفيان » أن يرجع إلى قومه من فوره ، فمنعه « العباس » وقال للرسول «لا آمن أن يرجع «أبوسفيان» عن إسلامه فيكفر ، فأبقه معنا حتى يتفقه ، ويرى جنود الله معك» ! يستحسن الرسول الرأى ، ويبقى بين صفوف المسلمين الداخلين « مكة » .

رأى المسلمين يكبرون للصلاة ففزع ، ثم رآهم يتجمعون فاشتدّ فزعه ، وظنّ أنهم قد أمروا بأمر فيه ، فطمأنه العباس وقال : إنهم يفزعون للصلاة !

لايكفى مثل « أبى سفيان » فى أول أمره أن يرى المسلمين وهم يصلون ، فهذه لاتمسّ قلبه كثيرا ، أما الذى يمسّ صلفه وكبرياءه ويتصل بجبروته فيخذله ، فمنظر آخر غير الصلاة ، هو منظر المحاربين ! لذلك أخذ العباس بيده ، ووقف به فى مضيق يسهل فيه رؤية المحاربين فى استعراض عامّ لاعهد له به ، وما كان يظنّ أن تصل إليه جيوش المسلمين .

كان « أبو عبيدة بن الجرّاح » فى مقدمة الجيش ، وكان « خالد بن الوليد » الذى منّ الله عليه بالإسلام فى الميمنة ، وكان « الزبير بن العوّام » على الميسرة . أما القائد الأعظم ففى القلب فى بروده اليمانية ، وفى عمامته وحمائل سيفه ، ملتفّا فى مهابته التى لاتوازيها عُدّة من عُدد القتال . يسأل « أبو سفيان » متلهفا عن هذا القائد فى الميمنة وعن جنده ، فيخبره « العباس » بأنه « خالد » ، فاذا مرّ « خالد » « بأبى سفيان » كبّر هو وجنوده تكبيرة رجل واحد ، لايقوى « أبو سفيان » على صداها ، فيضع يديه على أذنيه مخافة أن تصل الصيحة إلى قلبه فتصدعه ، ومرّت كتيبة « أبى عبيدة » وغيرها وغيرها ، وفى كل مرّة يسأل « أبو سفيان » ويعقّب على كل كتيبة بكلمة من الإعجاب المختلط بالخوف البالغ والكبرياء المحطّم .

وأخيرا تمرّ الكتيبة العظمى : الرسول بين « أبى بكر » من ناحية ، وبين « أُسَيد بن حضير » من ناحية أخرى ، يحادث هذا فيكون كله سمعا ، ويحادث ذاك فيميل إلى فم الرسول حتى يستوعب كل ما يقول ، المهاجرون والأنصار بين يديه ، والألوية والرايات ترفرف فوق رءوسهم ، كأنها جند الله تسير فى الركاب وتُسيِّره ، والرجال غائصون فى الحديد ، ماترى إلا عيونهم الحادة ، كأنها عيون صقور تهبط من شاهق ، أو حفر حيّات تطلّ من صخورها ، و« عمر بن الخطاب » يجرى حتى يدرك المقدمة ، فإذا تبعه النظر رآه فى المؤخرة ، تختلط صلصلة صوته بصلصلة الحديد ، ويعجب « أبو سفيان » من هؤلاء وهؤلاء ، عجبا مختلطا بالحنق يبديه فى هذه العبارة ، « لقد أمِر أمرُ عدىّ بعد قلّة وذلة »[1] . ويردّ عليه « العباس » ليرجعه إلى دينه

(١) أمر بمعنى كثر وعز ، وعدى قبيلة « عمر بن الخطاب » .

الجديد الذى لايعرف فروقا بين الرجال إلا بالتقوى ، فيقول له : « إن الله يرفع ما يشاء بما يشاء ! وإن عمر ممن رفعه الإسلام » !

كان « سعد بن عبادة » يحمل راية الرسول أمام الكتيبة ، وهو شرف يحرص عليه الكثيرون من الصحابة ، فما هو إلا أن لمح « أبا سفيان » حتى نادى بأعلى صوته : « يا أبا سفيان ! اليوم يوم الملحمة ، اليوم تُستَحلّ الحرمة ، اليوم أذلّ الله قريشا » يغضب « أبو سفيان » وينادى بأعلى صوته : «يا رسول الله ، أناشدك الله فى قومك ، فأنت أبرّ الناس ، وأرحم الناس ، وأفضل الناس ! » .

فردّ عليه الرسول الكريم : « يا أبا سفيان » ! اليوم يوم الرحمة ، اليوم أعزّ الله فيه «قريشا » ، ويأمر بأن ينحى « سعد بن عبادة » عن الراية لتعطى لولده « قيس» . وهمس « أبو سفيان » فى أذن « العباس » بهذه الكلمات : « ما رأيت مثل هذه الكتيبة قط ! ولا خبّرنيه مخبِّر ! ما لأحد به طاقة ولا يدان ! لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما ! » يضحك «العباس» ويقول : « يا أبا سفيان ! ليس هذا بمُلك ، ولكنه نبوّة » . وجرى « أبو سفيان » إلى قومه يستقبل الفاتحين مع المستقبلين ! .

يدخل « الزبير بن العوّام » القرية المطمئنة من أعلاها ، ويدخلها « خالد بن الوليد » من أسفلها ، ويدخلها الرسول من الوسط ، ولحبته الشريفة تمسّ سرجه ، يسجد شكرا لله على ما حباه من العودة إلى الوطن ، وشفتاه تتحركان بهذه العبارة : « اللَّهُمَّ إنَّ العَيْشَ عَيْشُ الآخِرَهْ »

العباس أمامه ينادى : « من ألقى السلاح فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن » ثم يلتفت إلى « أبى سفيان » ويقول : ومن دخل دار « أبى سفيان » فهو آمن ! » .

يدخل القوم آمنين ، ويتفقد الرسول « خالد بن الوليد » فلا يجده ، فقد حاصره القوم بجيش قليل على رأسه « صفوان بن أمية » وعكرمة بن أبى جهل ، وسهيل بن عمرو » وأبوا عليه أن يدخل مع الداخلين ، فكانت موقعة « الخندمة » التى انتصر فيها خالد . وكان من بين صفوف « عكرمة » « الرعاش الهذلى » الذى كان

بُعدَ السلاح ويَعِد امرأته بخدم من سَراة المؤمنين ويقول متوعدا :

إن تُقْدِمُوا اليَوْمَ فما بِى عِلَّهْ هَذَا السِّلاحُ كامِلٌ وألَّهْ [1]

وذو غرارين [2] سريع السَّلَة

ثم انهزم « الرعاش » ودخل بيته ، وأمر امرأته أن تغلق الباب ، فذكرته ما كان يقول ، فزاد عليه يصف معركة « خالد » :

إنَّكِ لَوْ شَهِدْتِ يَوْمَ « الخَمْدَمَهْ » إذْ فَرَّ « صَفْوَانٌ » وَفَرَّ « عِكْرِمَهْ »

واسْتَقْبَلَتْنا بالسيُوفِ المُسْلِمَهْ يَقْطَعْنَ كُلَّ ساعِدٍ وجُمْجُمَهْ

ضَرْباً ، فَلا تَسْمَعُ إلاَّ غَمْغَمَهْ لَهُمْ نَهِيتٌ خَلْفَنا وَهَمْهَمَهْ

لم تَنْطِقِى فى اللَّوْمِ أدنى كَلِمَهْ

ولما سمع الرسول عليه الصلاة والسلام خبر القتال قال : « أَلَمْ أنْهَ عَنِ القِتالِ ؟ » فقيل له : « قوتِل خالد ، ولو لم يُقاتَل ما قاتَل » ، فقال : « قَضَاءُ اللهِ خَيْرٌ » !

تعرّف الرسول على بيته ، فوقف به قليلا يستروح نسيم صباه ، ويتذكر كيف أخرجه قومه ، وكيف قابلهم كريما رحيما ، ومشى حتى انتهى إلى الكعبة يردّد هو ومن معه :

يا حَبَّذا مَكَّةَ مِنْ وَادِى أرْضٌ بِها أهْلِى وعُوَّادِى

أرْضٌ بِهَا أمْشِى بِلا هادِى أرْضٌ بِهَا تَرْسَخُ أوْتادِى

دخل الكعبة وكسّر أصنامها ، وأقبلت قريش للبيعة والإسلام ، وقام فيهم خطيبا فقال : « الحَمْدُ لِلهِ الذِى صَدَقَ وَعْدَهُ ، ونَصَرَ عَبْدَهُ ، وَهَزَمَ الأحْزَابَ وَحْدَهُ ؛ يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ! ماذا تَقُولُونَ وماذَا تَظُنُّونَ ؟ قالوا : نقول خيرا ، ونظنّ خيرا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ! وقد قدَرْتَ !

---

(١) الحربة .

(٢) السيف .

فقال : إنّى أقُولُ كما قالَ أخِى يُوسُفُ : « لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ ، يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » . . . إنَّ اللهَ قَدْ أذْهَبَ نَخْوَةَ الجاهِلِيَّةِ ، وتَكَبُّرَها بآبائِها ، كُلُّكُمْ لِآدَمَ ، وآدَمُ مِنْ تُرَابٍ ، إنَّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أتْقاكُمْ . . . »

هذا هو الفتح المبين ، وفيه نزلت سورة برمتها هى سورة « الفتح » وفيها صدّق الله الرؤيا التى رآها الرسول ووُعد فيها بدخول مكة متى شاء الله وأراد ، وإلى ذلك تشير الآيات :

« لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بالحَقِّ ، لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ إنْ شاءَ اللهُ آمِنِينَ ، مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخافُونَ ، فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا ، فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيبا » [1] .

وفيها وصف الله نبيّه وقومه بأحسن ما يوصفون به :

« مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ، والَّذِينَ مَعَهُ أشِدَّاءُ على الكُفَّارِ ، رُحَماءُ بَيْنَهُمْ ، تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً ، يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَانا ، سِيماهُمْ فِى وُجُوهِهِمْ مِنْ أثَرِ السُّجُودِ ، ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَاةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِى الإنْجِيلِ كَزَرْعٍ أخْرَجَ شَطْأَهُ فآزَرَهُ فاسْتَغْلَظَ فاسْتَوَى على سُوقِهِ ، يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ ، وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وأجْراً عَظِيما » [2] .

---

(١) سورة الفتح ، آية ٢٧ .

(٢) سورة الفتح ، آية ٢٩

غزوة العسرة « تبوك »

سلمت بلاد العرب كلها للمسلمين ، ففتحت وانتشر فيها الدين الجديد ، فى مدى قريب لايحسب فى عمر الزمن ، ولا فى تاريخ الدول ، ولم يهدأ الرسول صاحب الدعوة لحظة فى سبيل نشر دين الله . وكان السوريون يفدون على المدينة بتجارتهم ، وأهمها الدقيق وزيت الزيتون حيث تغزر أشجاره فى نواحيهم ، وكان هؤلاء التجار يسيرون بالأخبار أيضا ، فعلم منهم الرسول أن « الروم » يتحفزون لقتاله ، وأنهم يخشون على ملكهم من هذه الدعوة الجديدة ، وقد راعهم أن الناس يتهافتون عليها ، ويتدافعون وما بعد ذلك إلا ضياع ملكهم عاجلا أو آجلا .

هذا « هرقل » يستعدّ بجموعه ، ويُغرى العرب بالأموال والعطايا ، ويستجمع القبائل التى اتخذ منهم حراسا على ملكه من أمثال « لخم » و « جُذام » و « غسان » و « عاملة » .

الحرّ شديد ، والسفر بعيد ، ولم يكن ذلك بمانع للرسول من الخروج وطلب النفرة ، وطلب معونة الأغنياء لدرء ذلك الخطر الداهم ؛ وجيش الروم يُحسب له الحساب ، وتعدّ له العُدة ، فهو جيش مدرّب على القتال ، وعُدّه لايعرفها العرب الذين يتكلون على شجاعتهم ، أكثر مما يتكلون على شىء آخر .

جاء « أبو بكر » بماله كله ، ولمّا قال له الرسول : « هَلْ أبْقَيْتَ شَيْئا ؟ » قال : « أبقيت اللهَ ورسوله » ! وخرج « عمر بن الخطاب » عن نصف ماله ، ولما بلغه ما فعل « أبو بكر » قال : « ما استبقنا إلى خير إلا سبقنا إليه » !! وجهّز « عثمان بن عفان » ثلث الجيش وحده ، وكان عدده لايقل عن ثلاثين ألفا إن لم يزد !

ولم تكن الرجال وحدهم هم المستبقين إلى هذا الخير ، بل شاركهم النساء أيضا فكنّ يُلقين فى ثوب مبسوط بين يدىّ الرسول عليه الصلاة والسلام ما معهن وما يملكن من أقراط وخواتيم ، وأساور ومعاضد .

وكما كان الشأن فى كل غزوة، ظهر المنافقون والمتخلفون يحتجون بأوهى المعاذير حتى لايخرجوا فى هذا الحرّ، وحتى لايتركوا ثمارهم الناضجة، التى يجنونها تحت الظلال! فهذا يقول لقومه وللرسول: الوقت لايطيب للقتال، والحرّ شديد، والطريق وعر صعب! وتتعقب الآيات هذا النفر بوعيد أشدّ حرارة من فيح جهنم:

« فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللهِ، وَكَرِهُوا أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَقالُوا لاتَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ، قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ، فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً، وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ »[1].

ويأتى آخر فيتظاهر بأنه سيغزو الروم، وسيخرج من الخارجين، ثم يتظرّف فيصرّح أمام الرسول عابثا ضاحكا ويقول: « لقد عرف قومى، ما أحدٌ أشدّ عجبا بالنساء منى، وإنى لأخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألاّ أصبر عنهن »!! وبعد هذا العبث يقعد، ويحرّض الناس على التخلف والقعود، فتعبث به الآية عبثا هو أشدّ نكالا من عبثه: « وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لى، وَلا تَفْتِنِّى، أَلا فِى الْفِتْنَةِ سَقَطُوا، وإنّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بالكافِرِين »[2].

وجاء البكاءون وعددهم سبعة يريدون القتال، ولا يجدون ظهرا يحملون عليه أنفسهم ومتاعهم؛ قلوبهم عامرة بالإيمان، وربعهم قفر لايجدون فيه ما ينفقون؛ نفوسهم مملوءة باليقين، وأيديهم فارغة مما يعين عليه!

وآخرون إلى جانبهم مرضى وضعفاء، هم مرضى الجسوم أصحاء القلوب، وهم ضعفاء الجسم، أقوياء القلب، يطلبون إلى الرسول ألا يحرمهم شرف القتال وشرف الاستشهاد فى سبيل الله. وعن هؤلاء ترضى الآيات وتُثلجُ صدورهم، وتملأ قلوبهم إيمانا وتثبيتا:

« لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ، وَلا عَلَى الْمَرْضَى، وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ

(١) سورة التوبة، الآيتان ٨١، ٨٢.
(٢) سورة التوبة، آية ٤٩.

ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ ، إذَا نَصَحُوا لِلّهِ ورَسُولِه ، ما على المُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيم . ولا عَلَى الَّذِينَ إذَا ما أتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاأجِدُ ما أحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ، تَوَلَّوْا وأعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً ألاَّ يَجِدُوا ما يُنْفِقُون . إنَّمَا السَّبِيلُ على الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أغْنِياءُ ، رَضُوا بِأنْ يَكُونُوا مَعَ الخَوَالِف ، وَطَبَعَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لايَعْلَمُون »[1] .

سار الجيش بمن بقى فيه من المجاهدين والمخلصين ، ومشى فى طريق وعر ، يستريحون فيأكلون ، ويعطشون فيستسقون ؛ هذه منازل « ثمود » ! وهذه بئر « صالح » ، إنها موقف من مواقف الدرس والعبرة لم يفت رسول الله أن ينتفع بها ويشير إلى بقاياها ويقول : « لاتَسألُوا نَبِيَّكُمُ الآياتِ ! كمَا سألَ النَّاسُ قَبْلَكُمْ ، هؤُلاءِ قَوْمُ « صَالِح » سألُوا نَبِيَّهُمْ آيَةً فَكانَتِ النَّاقَة ، « فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاها . وَلا يَخافُ عُقْباها »[2] .

ولما أدرك « تبوك » جمع الناس وخطب فيهم خطبة من جوامع الكلم التى عُرف بها :

« أيُّها النَّاسُ ! أمَّا بَعْدُ ، فإنَّ أصْدَقَ الحَدِيثِ كتابُ اللهِ ، وَإنَّ أوْثَقَ العُرَى كَلِمَةُ التَّقْوَى ، وخَيْرَ المِلَلِ مِلَّةُ « إبْرَاهِيمَ » ، وخَيْرَ السُّنَنِ سُنَنُ « مُحَمَّد » ، وأشْرَفَ الحَدِيثِ ذِكْرُ اللهِ ، وأحْسَنَ القَصَصِ هَذَا القُرآن ، وخَيْرَ الأُمُورِ عَوَاقِبُها ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثاتُها ، وأحْسَنَ الهَدْيِ هَدْيُ الأنْبِياءِ ، وأشْرَفَ القَتْلِ قَتْلُ الشُّهَدَاءِ ، وأعْمَى الضَّلالَةِ الضَّلالَةُ بَعْدَ الهُدَى ، وخَيْرَ الأعْمالِ ما نَفَعَ ، وخَيْرَ الهَدْيِ ما اتُّبِع ، وَشَرَّ العَمَى عَمَى القَلْب ، واليَدُ العُلْيا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى ، وَما قَلَّ

---

(١) سورة التوبة ، الآيات ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ .
(٢) سورة الشمس ، آية ١٤ ، ١٥ .

وكفى خيرٌ مما كثُرَ وألهى ، وشرُّ المعذرةِ حينَ يحضُرُ الموتُ ، وشرُ الندامةِ يومَ القيامةِ . . . ومنْ أعظمِ الخطايا اللسانُ الكذوبُ ، وخيرُ الغِنى غِنى النفسِ ، وخيرُ الزادِ التقوى ، ورأسُ الحكمةِ مخافةُ الله ، . . . وشرُّ المكاسبِ كسبُ الربا ، وشرُّ المالِ أكلُ مالِ اليتيمِ ، والسعيدُ منْ وُعِظَ بغيرِهِ ، . . . والأمرُ إلى آخرِهِ ، وملاكُ الأمرِ خواتمُه . . . كلُّ ما هوَ آتٍ قريبٌ . . . ومنْ يعفُ يعفُ اللهُ عنهُ ، ومنْ يكظمِ الغيظَ يأجرُهُ اللهُ ، ومنْ يصبرْ على الرزيةِ يعوّضْهُ اللهُ ، ومنْ يتتبعْ سُمعةَ الناسِ يُسمِعِ اللهُ بهِ ، ومنْ يصبرْ يُضاعفِ اللهُ لهُ ، ومنْ يعصِ اللهَ يعذّبْهُ . . . أستغفرُ اللهَ لي ولكُمْ » .

والخطبة كما ترى تدلّ — في أحرج المواقف — على أنه رجل دين وخلق ، يرى المغانم في هذه النصائح ، لا في المتاع الذي يتكالب عليه الجند في المعركة ، فالغزوة رياضة روحية ، وسفر مفيد ، رأوا فيه آثار الأقدمين ، وآثار المعذّبين ، وتحقق فيه الرسول أن ملك الروم أحجم عن قتاله ، فلا أقلّ من أن يرجع المسلمون الذين تزوّدوا للغزوة بزاد من التقوى ، وبغنيمة من الحكمة والموعظة الحسنة .

يشير « هرقل » بالتسليم ، فيأبى قوّاده ، ويوعدونه بالخروج على طاعته ، ثم يكتفي جيش الروم بالاستعداد ويمتنع عن الخروج !

شاور الرسول أصحابه في الرجوع أو في التقدّم ، فقال له « عمر » : « إن كنت قد أُمرت بالمسير فسر ! فيردّ الرسول : « لَوْ أُمِرْتُ بِهِ ، ما اسْتَشَرْتُكُمْ فِيهِ » وتسفر الشورى عن العبارات الآتية :

« إن للروم جموعا كثيرة ، وليس بها أحد من أهل الإسلام يكون عونا عند الحاجة ، وقد أفزعهم دنوّ المسلمين ، وبحسبهم هذا الفزع ، وأحمد الآراء أن نرجع هذه السنة حتى يُحدثَ الله في ذلك أمرا » .

رجع الرسول بجيشه بعد أن ارتاد بلاد الروم ، وكانت منه صلى الله عليه وسلم إشارةٌ عملية حرص المسلمون بعدها على غزو هذه البلاد ، ونشروا دينهم في المملكتين اللتين تحددان العالم في مستهلّ العصور الوسطى ، مملكة فارس ، ومملكة الروم .

غزوة العسرة

فى سورة التوبة

« لَقَدْ تابَ اللهُ على النَّبىّ والمُهاجِرِينَ والأنْصارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فى ساعَةِ العُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ ما كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ، ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ ، إنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ . وَعلى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ، حَتَّى إذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، وضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أنْفُسُهُمْ ، وَظَنُّوا أنْ لامَلْجأ مِنَ اللهِ إلاَّ إلَيْه ، ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ، إنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . . . » [1] .

من الغزوات التى غزا فيها الرسول ، وذكرت فى القرآن — كما ذكرت غزوة « بدر » وغزوة « حنين » — غزوة لاتقلّ أهمية عنهما هى غزوة « تبوك » ، غزا فيها الرسول وأصحابه بلاد الروم ، وتسمى غزوة « العُسرة » ، ويسمى الجيش الذى اشترك فى هذه الغزوة « جيش العسرة » ، لأن هذه الحرب كانت عسيرة على المسلمين ، مرهقة لهم ، فالظهر الذى يحملهم قليل ، وزادهم قليل ، وماؤهم قليل ، حتى إن الرجلين كانا يشتركان فى تمرة واحدة ، وكانوا ينحرون الناقة ليشتفّوا ما فى جوفها من الماء !

علم المنافقون شدّة هذه الغزوة ، فاستأذنوا الرسول فى التخلف ، وقدّموا له الأعذار الواهية ، وبعض من خرج مع الرسول من المهاجرين والأنصار كان خائفا متردّدا ، يقدّم رجلا ويؤخر أخرى ، وكادت قلوبهم تزيغ من التردّد ، ولكن الله كتب لرسوله وللمؤمنين النصر ، ورزقه التأييد الذى وعده ، ونزلت الآيات فى هذه الغزوة تكشف عن أعمال المنافقين والمتردّدين : « لَقَدْ تابَ اللهُ على النَّبىّ والمهاجِرِينَ والأنْصارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِى ساعَةِ العُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ ما كادَ

---

(١) سورة التوبة ، الآيتان ١١٧ ، ١١٨ .

يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ » : تاب الله على النبىّ لأنه أذن للمنافقين ، فالآية هنا كالآية الأخرى « عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الكَاذِبِينَ »[1] . وتاب الله على المهاجرين والأنصار الذين تردّدوا ، وكادت عزائمهم تنحلّ ، وقلوبهم تزيغ لما أصابهم من الجهد والمشقة ؛ وكان ممن تخلف من غير المنافقين ثلاثة من الأنصار : هم « كعب بن مالك » و « هلالُ بن أمية » و « مُرارة بن الربيع » . رأوا أن السفر بعيد ، وأن الحرّ شديد ، وأن جيش المسلمين كثير لاحاجة له بهم . وانتهت الغزوة على خير ما يرجو المسلمون ، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، وصلى فى المسجد ركعتين على عادته إذا رجع من الغزو ، فجاءه المتخلفون ، واختلقوا الأعذار ، وقبلها الرسول ظاهرا ، وترك سرائرهم لله ، حتى جاءه « كعب بن مالك » ، فسأله الرسول ما أخّره ؟ فلم ير أن يكذب كما كذب المتخلفون ، بل قال فى صراحة : « والله ما كان لى عذر ، والله ما كنت أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك » ! فقال الرسول : « أمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِيكَ » . وجاء صاحباه فصدقا الرسول أيضا ، ولكن الرسول أمر المسلمين أن يتركوا هؤلاء الثلاثة وشأنهم ، فلا يتعرّضون لهم بخير أو شرّ ؛ أما الرجلان فقد انزويا فى بيتهما لايخرجان ؛ وأما « كعب بن مالك » فكان يدخل المسجد ، ويمشى فى السوق فلا يخاطبه أحد ؛ واشتدت جفوة المسلمين لهم ، حتى ضاقت بهم أنفسهم ، وضاقت عليهم الأرض ، ثم أنزل الله فى حقّ هؤلاء الثلاثة قرآنا : « وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا » أى ولقد تاب الله على الثلاثة الذين تخلفوا فى المدينة ، كما تاب الله على المهاجرين والأنصار الذين تردّدوا « حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ ، وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ، إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » .

---

(١) سورة التوبة ، آية ٤٣ .

وتختتم الآيات بآية فيها الإخلاص لله فى القول والعمل ، وفيها التزام الصدق لأنه سبيل النجاة ، وفيها أن الإنسان إذا ارتكب ذنبا فلا يزيد فى ذنبه بالكذب ، بل يصدق ، والصدق حسنة ، والذنب سيئة ، والحسنات يذهبن السيئات . « يَأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ »[1] ، وعن «ابن مسعود» فى تفسير هذه الآية : « لا يَصلُح الكذب فى جدّ ولا هزل ، ولا يَعد أحدكم صبيه ثم لاينجز وعده ، اقرءوا إن ما شئتم : « اتَّقُوا اللهَ وكُونُوا مَعَ الصَّادِقِين » فهل ترون فيها أيَّةَ رخصة للكذب » ؟!

تنادى الآيات بعد ذلك أهل المدينة ، وأهل البادية ، أى أنها تنادى الناس جميعا فى أن يكونوا لله ولرسوله إذا دعاهم لنصرة الدين : « ما كانَ لِأهْلِ المَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأعْرَابِ أنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ »[2] ، وليس لهم أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ، أى ليس لهم أن يختاروا لأنفسهم الراحة ، ويختاروا له المشقة ، ويعاملوه معاملة أقلّ من معاملتهم أنفسهم ، فهو أكرم على الله منهم !

وعليهم — إذا دعاهم — أن يكونوا إلى جانبه دائما فى نصرة الحقّ ، فإنما يدعوهم إلى الاستباق إلى الخير ، والتسابق إلى المثوبة ، ذلك بأنهم لايصيبهم فى سبيل الله ظمأ إلا له أجره ، ولا تعب إلا له أجره ، ولا مجاعة إلا لها أجرها ، ولا يقفون موقفا من المبطلين ، يشتدّون فيه على باطلهم إلا لهم أجر موقفهم ، لأن الله لايضيع أجر المحسنين ؛ وهم لايُنفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ، ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ، ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون .

بعد هذه الآيات التى تحثّ المؤمنين على الجهاد والنفرة فى سبيل الله ، وتدفعهم إلى تحمل المشقات ، كما تدفعهم إلى بذل النفقات فى سخاء ، ابتغاء عزّة الوطن وما عند الله ، يندفع المسلمون كافة إلى الجهاد ، فكانوا بعد غزوة «تبوك» يخرجون جميعا فى الجيش ،

---

(١) سورة التوبة ، آية ١١٩ .

(٢) سورة التوبة ، من الآية ١٢٠ .

مع البعوث التى يرسلها الرسول للإصلاح ونشر الدعوة ، ويتركون حلقات الدرس ، وتلقى التعليم على الرسول ، فعلمتهم آيات الكتاب أن تقسم قوى الأمة بين الجيش وبين العلم ، وأن يخرج البعض للجدل بالسيف ، وأن يبقى البعض فى حلقات الدرس للجدل بالحجة ، وكلاهما ضرورى فى نشر الدعوة الجديدة « وَما كانَ المُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كافَّة ، فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ، ولِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ »[1] والآيات تسمى طلب العلم « نفرة » وخروجًا للجهاد ؛ ومن هنا لم يؤسس الإسلام على السيف كما يتهمه أعداؤه ، بل أسس على العلم أيضا ، ولكن من يجهل أو يتجاهل الحقّ ، لايبالى الإسلام أن يردّه السيف إلى الصواب !

ويعنى الإسلام عناية خاصة بتأمين الوطن ، وتأمين المواطنين ، فيأمن بالحذر من العدوّ القريب ، والعدوّ المجاور : « يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الكُفَّارِ ، وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً » وشدّة عليهم ، وبذلك تتقون شرّ هذا العدوّ القريب من دياركم ، « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ المُتَّقِينَ[2] » .

ثم يبين القرآن كيف يقابل الجاحد الآياتِ المؤمنة « وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْكُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هَذِهِ إِيمانًا » فهم يكرهون سماع القرآن ، ويقولون إن كثرة آياته لم تزد شيئا فى إيماننا ، ويردّ القرآن عليهم « فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيمانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْسًا إِلى رِجْسِهِمْ ، وَماتُوا وَهُمْ كافِرُونَ »[3] .

وبعد تصوير الآيات لحوارهم ، تصوّر انفعالاتهم وحركات وجوههم حين يسمعون القرآن : « وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ هَلْ

---

(١) سورة التوبة ، من الآية ١٢٢ .

(٢) سورة التوبة ، آية ١٢٣ .

(٣) سورة التوبة ، آية ١٢٥ .

يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ » : يتلفتون يمينا وشمالا ، فإن لم يرهم أحد انصرفوا « صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ » .

ثم تختتم سورة التوبة بهذه الآية التى تبين سهولة أخلاق الرسول ، وحبّه للناس ، وعطفه عليهم ، وأنه ما يريد غير هدايتهم ، « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » من جنسكم فى الإنسانية والبشرية ، ومن نسبكم فى البيت وفى اللغة ، « عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ » يصعب عليه أن تقعوا فى المشقة والعَنَت ، وأن تقعوا فى المكروه « حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ » وعلى هدايتكم ، « بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » يجمع بين صفتين من صفات الله . « فَإِنْ تَوَلَّوْا » وأعرضوا فَفَوّض أمرك إلى الله ، واستعن به ، و« قُلْ حَسْبِيَ اللهُ » فهو معينك عليهم ، وكافيك شرورهم ، « لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ » [١] .

---

(٨) سورة التوبة ، الآيات ١٢٨ ، ١٢٩ .

من سورة التوبة

عمارة المساجد — المسلمون المهاجرون — المسلمون الذين لم يهاجروا —

« يوم حنين وما فيه من عِبَر »

فى غزوة بدر المعروفة التى انتصر فيها المسلمون انتصارا يعتزّ به تاريخهم ، أُسر كثير من أشراف مكة ، وفى بعضهم قرابة للرسول عليه الصلاة والسلام ، فأقبل « علىّ ابنُ أبى طالب » على هؤلاء الأسرى يوبخهم على الشرك ، وينعى عليهم قطعهم الرحم وصلات القربى ، ويُغلظ عليهم فى القول ، لأنهم استحبوا الكفر على الإيمان ؛ فردّ عليه « العباس بن عبد المطلب » وقال : « تذكرون مساوينا ، وتكتمون محاسننا ؟ » فقال « علىّ » : « أوَلكم محاسِن ؟ » فقال « العباس » : « نعم ! ونحن أفضل منكم أجرا : إنا لنَعمُر المسجد الحرام ، ونستر الكعبة ، ونسقى الحجيج ، ونفكُّ العانىَ والأسير ! » فنزلت الآية : « ما كانَ للمُشْرِكِينَ أنْ يَعْمُرُوا مَساجِدَ اللهِ شاهِدِينَ على أنفُسِهِمْ بالكُفْرِ ، أُولَئِكَ حَبِطَتْ أعمالهم ، وفِى النَّارِ هُمْ خالِدُونَ » [1] أى أن عمل المشركين متناقض ، يُعمِّرون المساجد ، ويُخرّبون أنفسهم ، ويفسدون عقائدهم ، لأنهم يطوفون بالكعبة عُراة ، وهم يسجدون للأصنام عند كل شوط من الطواف ؛ فالكفر يُحبط العمل الطيب ، ويُردى صاحبه فى النار.

المساجد بيوت للعبادة ، وبيوت للذكر ، وبيوت للدرس ؛ فعمارتها لا فى تشييدها ، ولا فى القيام عليها حَسب ، ولكن عمارتها تكون بأداء الشعائر مخلصة ، لا يراعى فيها إلا وجه الله ، وابتغاءُ مرضاته ورضاه ، « إنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ، وأقامَ الصَّلاة ، وآتى الزَّكاة ، ولَمْ يَخْشَ إلاَّ الله » [2] .

---

(١) سورة التوبة ، آية ١٧ .

(٢) سورة التوبة ، من الآية ١٨ .

فالإيمان عقيدة وعمل ، والعقيدة فى الإيمان بالله واليوم الآخر ، وفى خشية الله وحده ؛ الإيمان اعتقاد بأن هناك مسئولية وحسابا فى يوم مؤجل ، والإيمان خوف وترقب ، يؤدّى المؤمن حقّ الله فى الصلاة ، وحقّ الجماعة فى الزكاة ، على أن حقّ الله مبنى على المسامحة والعفو ، أما حقّ الناس فلا مسامحة ولا تساهل فيه ! المؤمن الحقّ لايرتكن ، ولا يجب أن يركن إلى مجرّد الإيمان ليكون مهتديا موفقا ، وهذا هو مايفهم فى آخر الآية : « فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ »[1] ، فما الظنّ بهؤلاء الذين يظنون أن إقامة المساجد ، والقيام عليها ، مع بقائهم على كفرهم وعنادهم ، تجعلهم فى مأمن من عذاب الله !

وكان المشركون يستشيرون أهل الكتاب ، ويقولون : « نحن سكان المسجد الحرام ، ونحن سُقاة الحجيج ، فأينا أفضل ؟ نحن أم أصحاب محمد ؟ » فيجيبونهم بأنهم أفضل ، فنزلت الآية : « أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَجَاهَدَ فِى سَبِيلِ اللهِ ؛ لايَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ ، واللهُ لاَيَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ »[2] .

وكان الذين يُسلِمون قبل فتح مكة يتردّدون فى أمر الهجرة بين فريقين : فريق يرى أن إسلامه لايكون صحيحا إلا إذا هاجر ، وفرّ بدينه مخافة أن يُفتَن فيه ، ويتردّد فى إيمانه ، وهؤلاء قد أنزلت فيهم هذه الآيات « الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا ، وجَاهَدُوا فى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ ، وأُولَئِكَ هُمُ الفائِزُونَ . يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ ، وجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ ، خالِدِينَ فِيها أَبَدًا ، إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ »[3] .

---

(١) سورة التوبة ، من الآية ١٨ .

(٢) سورة التوبة ، آية ١٩ .

(٣) سورة التوبة ، الآيات ٢٠ ، ٢١ .

وهناك فريق ثان كانوا يسألون الرسول بعد إسلامهم ويقولون : « إنَّا إذا اعتزلنا من خالفنا فى الدين ، قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشائرنا ، وذهبت تجارتنا ، وهلكت أموالنا ، وخربت ديارنا ، وبقينا ضائعين من غير سند ولا أسرة ! فنزلت الآيات : « قُلْ إنْ كانَ آباؤُكُمْ وأبْناؤكُمْ ، وإخْوانُكُمْ ، وأزْواجُكُمْ ، وعَشِيرَتُكُمْ ، وأمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها (اكتسبتموها) وتِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها ومساكِنُ تَرْضَوْنَها ، أحَبَّ إلَيْكُمْ مِنَ اللهِ ورَسُولِهِ ، وجِهادٍ فى سَبِيلِهِ ، فَتَرَبَّصُوا (انتظروا) حَتَّى يَأتِيَ اللهُ بأمْرِهِ ، واللهُ لا يَهْدِى القَوْمَ الفاسِقِين »[1] .

وقد فسر الآية حديث الرسول عليه الصلاة والسلام : « لا يَطْعَمُ أحدُكُمْ طَعْمَ الإيمانِ ، حَتَّى يُحِبَّ فى اللهِ أبْعَدَ النَّاس ، وحَتَّى يُبْغِضَ فى اللهِ أقْرَبَ النَّاسِ إلَيْه » .

من كل ماتقدّم من الآيات نرى أن الإيمان الذى يمتلىءُ به صدرُ المؤمن ، لايقف عند حدّ الظواهر ، ولا يُعنَى بالظاهر ، والمؤمن الحقّ هو الذى يجاهد فى سبيل عقيدته ، وهو الذى يهاجر لينشر عقيدته ، وهو الذى يهب عقيدته نفسَه وماله ، وهو الذى لايبالى فى سبيل فكرته ، وفى سبيل ما يعتقد ، أن يبغضَه أقربُ الناس إليه ، أو أن يُبغض أقرب الناس إليه ، فالحبّ والبغض من القلب ، والقلب الذى لايعرف العقيدة ، لايعرف حبا ولا كراهية .

تتعرّض بعد ذلك الآيات لما كان من أمر المسلمين فى غزوة « حنين » فقد جاءت بعد انتصار عظيم أصابه المسلمون فى غزوة « بدر » ، فأصاب بعضَ المسلمين شىءٌ من الغرور : كان عدد المسلمين اثنى عشر ألفا ، وكان عدد أعدائهم من « هوازن وثقيف » لايتجاوز أربعة آلاف ؛ عندها قال رجل من المسلمين : « لَن نُغلبَ اليوم من قِلة » ! وكانت هذه أوّل كلمة فى الهزيمة ! فقد علمهم الرسول ،

---

(١) سورة التوبة ، آية ٢٤ .

وعلمهم الدين أن النصر من عند الله « وَما رَمَيْتَ إذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمى »[1] « إنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلا غالِبَ لَكُمْ ، وَإنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ »[2] « كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ »[3] .

ساء هذا الغرور رسولَ الله ، وأعلمه ربه ما سيكون من المِحَن فى هذا اليوم ؛ التحم الجيشان ، فهزم المشركون فى أوّل الأمر ، وطمع كثير من شباب المسلمين وأحداثهم فى الغنائم فأكبّوا عليها ، وكانت « هوازن » و « ثقيف » من أرمى العرب فى الحرب بالسهام ، فأمطروا المسلمين منها ، وكان فى انكباب شباب المسلمين على الغنائم ، أنهم كانوا يسارعون إليها ، وليس فى أيديهم الأسلحة الكافية لوقايتهم ، وتعرض الرسول نفسه لهذه الشدّة ، فقصده من يُدْعَى « شيبة » يريد قتله ، فلما قرب منه التفت إليه الرسول وقال : « أُعِيذُكَ باللهِ يا شَيْبَةُ » فرجع ؛ ويتحدّث عن نفسه فيقول : « أُرْعِدتْ فرائصى ، ونظرت إلى الرسول ، وهو أحبّ إلىّ من سمعى وبصرى ، فقلت : أشهد أنك رسول الله ، قد أطلعك الله على ما فى نفسى » ؛ ولقد اضطرّ الرسول لشدّة الموقف أن ينزل عن بغلته البيضاء وهو يقول :

أنا النَّبِى لا كَذِبْ أنا ابْنُ عَبْدُ المُطَّلِبْ

اللَّهُمَّ أنْزِلْ نَصْرَكَ . استجاب الله له ، وأيد المسلمين ، فخرجوا من هذه المعركة موفورى الكرامة ؛ تلك هى الآيات « لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إذْ أعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا ، وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ، ثُمَّ أنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ على رَسُولِهِ وعَلَى المُؤْمِنِينَ ، وأنْزَلَ جُنُودًا لَمْ

---

(١) سورة الأنفال ، من الآية ١٧ .

(٢) سورة آل عمران ، من الآية ١٦٠ .

(٣) سورة البقرة ، من الآية ٢٤٩ .

تَرَوْها ، وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الكافِرِينَ ، ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ على مَنْ يَشاءُ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيم » [١] .

كانت غزوة « حنين » درسا من الدروس النافعة للمسلمين ، فقد علمتهم أن النصر بالصبر ، وأن الظفر ليس بالعدد ، بل بالعُدّة من اليقين ، يدّرع بها المسلم فى البأساء والضرّاء ، وحينَ البأس ؛ فكما أن الإيمان لايكون بالأقوال ، كذلك الغلبةُ والنصر لايكونان بكثرة الرجال ، بل بالتفاف النفوس على الإيمان ، وبنصرة العقيدة التى تَشُدّ من نفس المؤمن ؛ هذا هو نصر الله ، وقد صدق وعده « إنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُم » [٢] .

---

(١) سورة التوبة ، الآيات ٢٥ – ٢٧ .

(٢) سورة محمد ، من الآية ٧ .

من سورة المنافقين وسورة التغابن

المنافقون ـ صفاتهم ـ أثرهم فى حياة الرسول

ـ افتضاح أمرهم ـ

المنافقون فى كل زمان ، وقد كانوا كثيرين على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ونزل فى حقهم القرآن فى عدّة مواطن ، وفيهم أنزلت سورة برمتها ، هى « سورة المنافقين » التى نحن بصدد ها . كان من أمر هؤلاء المنافقين أن خرجوا مع الرسول فى غزوة من غزواته ، هى غزوة « بنى المصطلق »[1] فلقى العدو على ماء وهزمه ، ثم كان أن اختلف رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار ، وكادت تكون فتنة أثارها « عبد الله بن أُبَىّ » رأس المنافقين ، فأطلق لسانه فى المسلمين وقال : « كاثَرُونا فى بلادنا » ، وأقسم أنه لو رجع إلى المدينة ليخرجنّ الأعزُّ منها الأذلّ ، يريد نفسه وقومه ، ويريد المسلمين ؛ وتمادى به حنقه فقال : «لو أمسكنا عن أصحاب محمد أرزاقهم لأبغضوا من حوله » !

سمع كلامه صغير من المسلمين هو « زيد بن أرقم » ، فردّ عليه قالته بأشدّ منها ، وبعد انتهاء الغزو ، أخبر الرسول بما قاله « عبد الله بن أُبَىّ » ، فهمّ عمر « بقتله » ، فردّه الرسول وقال : « لايَتَحَدَّثُ النَّاسُ أنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أصْحابَه » ! ثم استدعاه الرسول ، وقال له : « أنْتَ صَاحِبُ هَذَا الكَلامِ الَّذِى بَلَغَنِى » ؟ فأقسم « عبد الله بن أُبَىّ » إنه لم يقل شيئا ، وإن زيدا لكاذب ! وقال بعض الصحابة « يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد وهم فى حديثه ، ولم يحفظ ما قاله » ، فعذر النبىّ « ابن أُبَىّ » ، وفشت الملامة « لزيد بن الأرقم » وكذّبوه ، حتى كان يمتنع عن ملاقاة الرسول استحياء .

نزل الوحى ، فقابل الرسول « زيد بن الأرقم » وعرك أذنه ، وضحك

---

(١) بنو المصطلق : حى من خزاعة .

فى وجهه ، ثم قال : « إنَّ اللهَ قَدْ صَدَّقَكَ ، وأنْزَلَ فِى حَقِّ صَاحِبِكَ قُرآنا » « إذَا جاءَكَ المُنافِقُونَ قالُوا : نَشْهَدُ إنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ ، واللهُ يَعْلَمُ إنَّكَ لَرَسُولُهُ ، واللهُ يَشْهَدُ إنَّ المُنافِقِينَ لكاذِبُونَ »[1] . ثم ذكرت الآيات صفات وعلامات المنافقين : هم يقسمون كثيرا ، ويحلفون كثيرا ، حتى يصدّقهم الناس ، لأنهم لايصدقون أنفسهم ! « اتَّخَذُوا أيْمانَهُمْ جُنَّةً » يستترون وراء الحلف والأيمان ، « فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ » ، وأعرضوا عن طاعة الله ، وأغْرَوْا الناس بالفساد والمعصية ، « إنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ » أى ساء عملهم فى حقّ الناس ، وفى حقّ أنفسهم « ذَلِكَ بأنَّهُمْ آمَنُوا » فى الظاهر وأمام الناس ، « ثُمَّ كَفَرُوا » إذا خلوا إلى أنفسهم « فَطُبِعَ على قُلُوبِهِمْ » ، واستحكمت الغفلة على نفوسهم ، والغباوة على أفئدتهم ، « فَهُمْ لايَفْقَهُونَ » . وعلامة المنافقين العناية بالمظاهر ، فهم يُعْنَوْن بجسومهم وكلامهم ، يُزَوّقون الكلام ، ويداورون به ، ويسبكونه سبكا محكما ، حتى لايسعك إلا صدقهم ، « وَإذَا رأيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أجْسامُهُمْ ، وَإنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِم » ولكنها جسوم بلا عقول ، ورسوم بلا حقيقة ، « كأنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ » . والمنافقون جبناء « يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ، هُمُ العَدُوُّ فاحْذَرْهُمْ ، قاتَلَهُمُ اللهُ أنَّى يُؤْفَكُونَ »[2] أى أنّى يمشون بالإفك والزور ، وأنى ينصرفون إلى الباطل ، وأنى يُصرَفون عن الحقّ .

طلب المسلمون من « عبد الله بن أُبَىّ » بعد ظهور كذبه ، وصدق « زيد بن الأرقم » أن يستغفر من كذبه ، فأبى واستكبر ، ولوى رأسه أنفة وكبرا ، « وَإذَا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ ، لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ ، ورأيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ » ؛ وهم لايهتمون بهذا الاستغفار ، « سَواءٌ عَلَيْهِمْ أسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ ، أمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ، إنَّ اللهَ

(١) أول سورة المنافقون .
(٢) سورة المنافقون ، آية ٢ – ٥ .

لا يَهْدِي القَوْمَ الفاسِقِينَ»، و«هُمُ الَّذِينَ» يريدون أن يمسكوا أرزاق المسلمين، ويتصرّفوا فيها، «يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا على مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا»، كأنّ الأرزاق بأيديهم! وكأن القبض والبسط فى الرزق من تصرّفاتهم! «ولِلهِ خَزائِنُ السَّمَواتِ والأرْض، ولَكِنَّ المُنافِقِينَ لا يَفْقَهُون». وهم يقولون «لَئِنْ رَجَعْنا إلى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأعَزُّ مِنْها الأذَلَّ، وَلِلهِ العِزَّةُ ولِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ، ولَكِنَّ المُنافِقِينَ لا يَعْلَمُون».

ثم تلتفت الآيات بعد ذلك إلى المؤمنين، فتطلب منهم ألا يُشغلوا بالدنيا عن الآخرة، فالدنيا مال وولد، وسطوة وجاه، وكله إلى زوال، «يأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أمْوالُكُمْ وَلا أوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الخاسِرُونَ»[1]. «وأنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أنْ يَأتِيَ أحَدَكُمُ المَوْتُ»، فإن «عبد الله بن أُبَيّ لم يلبث بعد نزول هذه الآيات إلا ثلاثة أيام ثم مات؛ فإذا جاء الموت، طلب الجاحد أن يرجع إلى الحياة ليَصَّدَّقَ وليكون من الصالحين!!

وعن ابن عباس أن المؤمن المقصِّر يطلب الرجعة أيضا: «ما من أحد يموت وكان له مال ولم يؤدّ زكاته، أو أطاق الحجّ ولم يحجّ، إلا سأل الرجعة عند الموت، «فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أخَّرْتَنِي إلى أجَلٍ قَرِيبٍ فأصَّدَّقَ وأكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ»، وهو يعلم أنه يطلب محالا، «وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إذا جاءَ أجَلُها، وَاللهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُون»[2].

وبعد سورة المنافقين تأتى فى نظم القرآن سورة «التغابن»، ومعناها الغبن، وأصله فى البيع والشراء، والمراد هنا بيوم التغابن: يوم القيامة «وَتُوَفَّى كُلُّ

---

(١) سورة المنافقون، آية ٥ – ٩.

(٢) سورة المنافقون، الآيات ١٠، ١١.

نَفْسٍ ما عَمِلَتْ » [١] ، فهناك المؤمنون الذين اشتروا أنفسهم ابتغاء مرضاة الله ، « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضَاةِ الله » [٢] وهناك المؤمنون الذين باعوا أنفسهم بربح موفور ، فاشتراها الذى اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . وهناك الحاصدون الذين يبيعون إيمانهم بثمن بخس « الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وأيمانِهِمْ ثَمَنا قَلِيلا » [٣] .

فيوم التغابن يوم فيه غَبَن وفيه ربح ، والجميع مغبون فيه ، فالكافر مغبون حتما ، والمؤمن يرى أنه مغبون ، وقد كان فى إمكانه أن يزداد من عمل الخير ، ليزداد من جزاء الإحسان .

---

(١) سورة النحل ، آية ١١١ .
(٢) سورة البقرة ، آية ١٠٧ .
(٣) سورة آل عمران ، آية ٧٧ .

نفسيات يحللها القرآن

نفسيات يحللها القرآن

(١)

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ على حَرْفٍ ، فإنْ أصَابَهُ خَيْرٌ اطْمأنَّ بِهِ ، وَإنْ أصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ على وَجْهِهِ ، خَسِرَ الدُّنْيا والآخِرَةَ ، ذَلِكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِينُ . يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَضُرُّهُ وَما لا يَنْفَعُهُ ، ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ البَعِيد . يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ ، لَبِئْسَ المَوْلى وَلَبِئْسَ العَشِيرُ » . [١]

يقرّر العلماء فى أسباب النزول ماروى عن «ابن عباس» رضى الله عنهما أنه قال : كان الرجل يقدَم المدينة فيُسلِم ، فإن ولدت امرأته غلاما ، ونُتِجت خيله ، قال : هذا دين صالح ! وإن لم تلد امرأته غلاما ولم تُنْتَج خيله ، قال : هذا دين سَوء !

وروى عن ابن مسعود فى أسباب نزول هذه الآيات أيضا أنه قال : أسلم رجل من الناس فبعد إسلامه ذهب بصره وماله وولده ، فتشاءم بالإسلام ، وقال : « لم أُصِب من دينى هذا خيرا ! ذهب بصرى ومالى ! ومات ولدى ! » فنزلت هذه الآيات المدنية .

ومجمل المعنى فى هذه الآيات : أن هناك أناسا قلقة نفوسهم ، مضطربة عقائدهم ، لأنها ليست خالصة لله ، ولا متجهة إلى سبيله ، يعبدون الله على حرف ، أى فى شكّ وارتياب ، وفى غير ثبات أوطمأنينة ، فكأنّ صاحب هذا القلق واقف على حرف جبل ، أو على شفا حفرة ، لم يُروَ قلبه من الإيمان ، وإنما ابتلّ به شفتاه ، ولم يتوغل الإيمان فى أعماق قلبه ، وإنما لمس حافة نفسه ، مذبذب بين الإيمان والجحود ، متردّد بين التصديق والتكذيب ، إن أصابه خير اطمأنّ به وفرحت نفسه ، لأن ماله زاد ، ونِتاجه أخصب ، وإن أصابته فتنة فى نفسه ، أو ابتُلى فى ماله أو ولده ،

---

(١) سورة الحج ، آية ١١ ، ١٢ ، ١٣ .

انقلب على وجهه ، ورجع إلى سابق عهده من الكفر والضلال ، فلا هو أقام على عقيدته الأولى ، ولا هو أفاد من عقيدته الثانية ، ومآله خسران الأولى وخسران الثانية ، وخسران الدنيا وخسران الآخرة ، ذلك هو الخسران المبين ، واضح المعالم بيّن النتائج .

وليس ببعيد عن هذا ما قيل فى تفسير الآية ، من أن الذى يعبد الله على حرف هو الذى يُصَدّق بلسانه لا بوجدانه ، فدينه لفظ على حرف لسانه ، لا معنى فى قلبه ، يعطيك من طرف لسانه ما تشاء من آيات بينات ، ويدلّل على قوّة الإيمان ، بقوّة العبارة ، ومتانة الحجة ، حتى إذا ابتُلى فى ماله وفى ولده ، ابتلى فى دينه أيضا ، فتجده حائرا مضطربا بين الشكّ واليقين ، إذا زلت به قدمه ، لا يجد متكأ من صبر أو طمأنينة ، وتلك خسارة فى الدين وخسارة فى الدنيا ، لا خسارة وراءها .

وكما يقع هؤلاء فى « الخسران المبين » يقعون أيضا فى « الضلال البعيد » لأنهم لما كانوا لا يلتجئون إلى الله ، وإذا التجئوا إليه كان التجاء متهالكا متخاذلا ، فهم يلجئون إلى غير الله ، ويدعون من دونه ما لا يضرّهم ولا ينفعهم ؛ وذلك دليل آخر على ضعف العقل ، بعد ضعف الإيمان ؛ لأن الملتجئ إلى ما لا يضرّ ولا ينفع أبدا ، أو إلى ما لا يضرّ تركه ، ولا ينفع قربه ، إنسان محروم من نعمة العقل ، لا يفرّق بين الضارّ والنافع ، ولا بين الخير والشرّ ، ولا بين الفضيلة والرذيلة . ذلك ضلال ليس بعده ضلال ، وتلك حيرة ليس وراءها حيرة ؛ ذلك ضلال بعيد يتوغل بصاحبه فى شتى الاضطرابات ، كما تتوغل بالسارى الصحراء المهلكة فى الليلة المظلمة ، لتقوده إلى حتفه وهلاكه .

يحلل القرآن فى هذه الآيات نفسية أخرى ، هى نفسية الذين يلتجئون إلى الناس ، وإلى الذين يحسبون أنفسهم فى عداد العقلاء ، يوازنون بين الخير والشرّ ، وبين النافع والضر فيلتجئ الرجل إلى الرجل ، يظنّ أنه نافعه وأنه ضارّه ، وينسى الالتجاء إلى الله فى سبيل الالتجاء إلى الناس ، حتى إذا تبين له خطأ فهمه وسوء تقديره ، وجد أن ضرّ هؤلاء أقرب من نفعهم ، وأن من اتخذه مولى من دون الله ، كان بئس المولى ، ومن اتخذه نصيرا وعشيرا ، كان بئس النصير وبئس العشير .

تلك نفسيات ثلاث يحللها القرآن :

الأولى : نفسية طائشة متذبذبة ، لاترضى إلا بالخير ، ولا ترى من الحياة إلا وجهها الباسم المقبول ، فإذا تنكرت — وهى لابدّ راجعة إلى طبيعتها من النكر والتقلب — أنكر نفسه ، لايطمئنّ إلى ابتلاء الله واختباره ، ولا يرضى عن دنياه إذا تقلبت به ، ويكرم دنياه فى سبيل إهانة فكرته وعقيدته ، فلا يدرك دينا ، ولا يدرك دنيا :

نُرَقِّعُ دُنْيانا بتَمْزِيقِ دِينِنا فَلا دِينُنا يَبْقَى وَلا ما نُرَقِّعُ

وكم من أناس يتنقلون بمبادئهم وبأفكارهم بين الصفوف ، يساومون فى المبادئ والعقائد ، فإذا أصابوا فى الصفّ الجديد خيرا اطمأنوا ، وإن لم يصيبوا انقلبوا ، فلا يبقون على فكرة ، ولا يحتفظون بكرامة .

الثانية : نفسية جاهلة ، يلجأ أصحابها إلى الخرافات والأوهام ، وتعيش على التفاؤل والتشاؤم ، فيدعون ما لاينفع ، ويخافون مما لايضرّ ، أويدعون مايعتقدون فيه النفع ، وهو أقرب ما يكون إلى الضرّ ، ومثل هذه النفوس الجاهلة تعطل فى صاحبها العقل والإرادة وملكة التقدير الصحيح ، وتذهب بصاحبها إلى أبعد ما يكون فى الهلاك والضلال .

والثالثة : نفسية من يتكلون على غيرهم من الناس ، معتمدين فى كلّ تصرفاتهم على الوساطة والمحسوبية ، وجاه فلان وجاه فلان ، ومثل هؤلاء يتوسلون بمختلف الوسائل ، ويحقرون من إنسانيتهم أمام أنفسهم ، وأمام من يتوجهون إليهم ، ويتجهون فى الحياة اعتمادا على جاههم ، حتى إذا نسُوا الله ، بصَّرهم بأن من يتكلون عليه لايملك لهم ضرّا ولا نفعا ، بل كثيرا ما يكون ضرّه أقرب من نفعه !

وأخيرا يشبه الله أمثال هؤلاء الذين يتصرون بغير الله ، بمن يريد أن يصعد إلى السماء ، فيمدّ إليها الحبل ، ثم يمدّ فيه حتى ينقطع به الحبل ، ولا تنفعه الحيل التى اصطنعها ، فيموت غيظا وكمدا من أن محاولاته مخفقة ، واستعانته بغير الله ضائعة ، وكيده للناس مستعينا بالجاه والزلفى لأرباب الجاه ذاهب أيضا ، وصدق الله الذى يقول « مَنْ كانَ يَظُنُّ أنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فى الدُّنْيا والآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إلى السَّماءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغِيظ » [1] .

(١) سورة الحج ، آية ١٥ .

نفسيات يحللها القرآن

(٢)

«لا يَسأمُ الإنسان من دُعاءِ الخَيْرِ ، وَإنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فيَئُوسٌ قَنُوط . وَلَئِنْ أذَقْناهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لى ، وَما أظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً ، وَلَئِنْ رُجِعْتُ إلى رَبّى إنَّ لى عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى ، فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا ، وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظ . وَإذَا أنْعَمْنا على الإنْسانِ أعْرَضَ ونأى بِجانِبِهِ ، وَإذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيض »[1] .

يصف الله الخبير بخلقه ، العليم بنفوسهم ، ماهم فيه من القلق والاضطراب ، وما تنطوى عليه نفوسهم من الأثَرة وحبّ الذات ، والاستئثار بالمنافع . وهذه الآيات التى قدمناها تتعرّض لشرح نفسيات ثلاث :

النفسية الأولى : نفسية هذا الذى لا يسأم من دعاء الخير ، فهو يطلب الجاه والمال والصحة والعافية والرفاهية لنفسه ، يكرّر هذا باللسان ، ويسعى إليه بالعمل ، يطلب الخير ، ويسأل منه المزيد ؛ ومثل هذه النفس الشرهة الطامعة لاتكتفى بشىء ، ولاتقف عند حدّ ، بل تظلّ تحت تأثير الغرائز الفردية من حب النفس ، وحبّ التسلط ، وحبّ الغلبة ، والاستئثار بالمنافع ، تطلب وتطلب ، ولا تكتفى ! ولو أن صاحب هذه النفس التى لاتسأم من طلب الجاه والثروة ، يعرف فضل الله عليه ، ويشكر له ما حباه ربه من النعمة ، لقلنا إنها نفس طموح ، تحبّ الخير وتسعى له ، ولكنها هنا أثَرةٌ وتفاخر بالسلطة والجاه ، بدليل أن صاحبها لو مسه الشرّ يئس ، ولو تبدّلت نعماؤه بأساء قَنِط ، وتبدلت نفسه جملة من الأمل إلى اليأس ، ومن الرجاء إلى القنوط . وهذا دليل على الأثرة وحبّ الذات ، ودليل على أنه لايرضى إلا بالحياة الناعمة ، أما الحياة الخشنة فلا يعرفها ، ولا يرضى عن الحياة إلا إذا واجهته بوجهها الحسن

(١) سورة فصلت ، الآيات ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ .

المتقبّل ، أما الوجه المتجهّم فانه يبئسه ويشقيه ؛ والحياة أمل ويأس ، ورجاء وشقاء ، وخير وبأس ، وبؤس ونعيم ؛ فمن لم يعرف شرّها لايشكر خيرها ؛ ويريد الله من عباده أن يكونوا كما أراد لهم : إن أصابهم الخير اطمأنوا ، وإن أصابهم الشرّ رضُوا ، وإلا فالنفس التى لاتطلب إلا الخير ، ولا تسأم من هذا الطلب ، والتى إذا أصابها الضرّ ، وقع صاحبها فى اليأس ، نفس خبيثة . إن اليأس فتور فى النفس ، وهمود فى العزم ، واسترخاء فى الإرادة . واليأس يضرب بالصمت على صاحبه ، ويشُلّ فيه قوّة التفكير وعزم الإرادة ، وليس بعد اليأس من الحياة ، إلا القنوط من رحمة الله ؛ وإذا ترددت النفس بين اليأس والقنوط ، خسر صاحبها الدنيا والآخرة !

والنفسية الثانية : نفسية مدّعية ، إذا غنى صاحبها بعد فقر ، وإذا عزّ صاحبها بعد ذلّ ، يقول « هذا لى » ، فأنا أهل للغنى ، وأنا أهل للثروة ، وغيرى إذا كان فقيرا فلأن الله قد علم أنه يستحقّ الفقر ؛ وصاحب هذه النفس لايعطف على فقير ، ولا يطعم مسكينا ، ولا يعين على حاجة ، فهو وحده يستأهل النعمة ، وغيره يستأهل ما هو فيه من الفقر والشقاء ، كأنه قد علم سرّ قسمة الله المعيشة بين الناس ؛ وهذا الغرور يدفع صاحبها إلى أحد أمرين : إما أن ينكر أنه مسئول أمام الله ، فهو يقول كما قال الله عنه : « وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً » ، ويطلب لدنياه كأنه يعيش أبدا ؛ وإذا رجعت نفسه إلى الله ، وصدق بأن هناك مسئولية وحسابا وعقابا يقول : إن الله كما حبانى فى الأولى ، سيحبونى فى الآخرة ، وكما أسعدنى فى الدنيا ، سيسعدنى فى الآخرة « وَلَئِنْ رُجِعْتُ إلى رَبِّى إنَّ لى عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى » .

والله يتوعد أمثال هؤلاء بعذاب غليظ ، يغلظ لهم فى العقوبة ، ويضاعفها المرّة بعد المرّة ، لأنهم أساءوا الفهم المرّة بعد المرّة ، فالخير واجب لهم وهم أهله ! والشرّ لايعرفهم ولا يعرفونه ! واعتقادهم فاسد فى أن سعيد الدنيا سيكون سعيد الآخرة ، وأن نعمة الحياة ، دليل على النعيم فيما بعد الحياة ، ونسوا أن الله يملى لهم ، ويؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ، لينبئهم بما عملوا ، وليذيقهم من عذاب غليظ .

ونفس ثالثة : ترضى بالخير ، وترضى عن الخير ، ولكن الخير لايصلحها ، بل يفسدها ، فيعرض صاحبها عن الله فلا يشكره ، ويعرض عن الناس ، فيتكبر وينأى بجانبه ، ويعيش صاحبها متكبرا مختالا يمشى فى الأرض مرحا ، وكأنه يخرق الأرض من عجبه وخيلائه ، ويتطاول على الناس ، ويطاول الناس ، كأنه يعيش فى السماء لاعلى الأرض التى تعيش عليها الدوابّ ، يُعرض عن ذكر الله ، وعما أمر به الله ، فاذا مسه الشرّ بعد ذلك لاييأس ولا يقنط ، بل يظلّ يدعو ربه بدعاء عريض ، فيه كثير من الذلة وقد كان عزيزا لايذلّ لأوامر الله ، وفيه كثير من التوبة والإنابة ، وقد كان متكبرا لايعترف بخطأ ، ولا يئوب إلى صلاح ، ولا يتوب من إثم أقام عليه .

تلك نفسيات ثلاثة ، إن وضعناها تحت أسمائها قلنا : إن الأولى نفس ذليلة يائسة وصاحبها لايسأم من دعاء الله الخير وإن مسه الشرّ فيئوس قنوط . والثانية : نفس متكبرة جاحدة ، بل كافرة ، يعرّفها الله بقوله : « وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِى ، وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ، وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّى إِنَّ لِى عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى » ، ثم يتوعدها الله بقوله : فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا ، وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ » . والثالثة نفس متكبرة ذليلة معا ، تتكبر إذا ابتليت بالنعمة ، وتذلّ وتصغر إذا ابتليت بالنّقمة ، ويعرفها الله بقوله (وَإِذَا أَنْعَمْنَا على الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ) والله سبحانه وتعالى يؤتى من يشاء ، وينزع ممن يشاء ، ويعزّ من يشاء ، ويذلّ من يشاء ، ويبسط الرزق لمن يشاء ، ويقبضه عمن يشاء ، والمؤمن الحقّ هو الذى يعرف ألوان الحياة ، ويلبس الحياة كما هى ، ويعرف تصاريف الله فى خلقه ، فيرضى بالنعمة ، كما يرضى بالنقمة ، ويشكر عند النعمة ، ولا يكفر عند النقمة . أما أصحاب هذه النفوس فهم فى مرية من لقاء ربهم ، ألا إنه بكل شىء محيط .

نفسيات يحللها القرآن

(٣)

يقول الله سبحانه وتعالى : « وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ ، كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »[1] .

يقرّر القرآن فى هذه الآية الكريمة خُلُقا من الأخلاق التى يقيم عليها الناس ، وغريزة من غرائزهم ، هى غريزة الخوف ، وما يتبعها من القلق والتبرّم بما يصيب الإنسان من أعراض الحياة ، فإذا مسه ضرّ من فقر ، أو مرض ، أو إخفاق فى الحياة ، تذكر ربه ، فدعا الله وهو قائم ، ودعا الله وهو قاعد ، ودعا الله وهو مضطجع أو نائم ، أو أنه يدعو الله فى جميع حالاته أن يكون له ، وأن يكشف عنه هذا الضرّ ، وهذا البلاء ؛ والله الرحمن الرحيم يستجيب لدعائه ، ويكشف ما به من ضرّ ، وحينما يكشف ضرّه يرجع إلى حالته ، كأن لم يمسسه ضرّ ، أو يصبه أذى ، وكأنه لم يدع الله أن يكشف الضرّ الذى مسه فى نفسه أو فى ولده ، أو فى جاهه ، أو فى أية ناحية من نواحى حياته !!

تلك هى النفسية التى يحللها القرآن ، نفسية من القلق والتبرّم يتقلب بها النسيان ونكران الجميل ؛ يمرض المريض فيدعو الله ليلا ونهارا ، وربما كان هو الجالب على نفسه أثقال المرض ، فيسأل الله أن يشفيه ، ويعزم على ألا يعود إلى ما جلب عليه المرض ، فإذا أدرك شفاءه رجع إلى ما كان عليه ، أو إلى أقسى مما كان عليه !

ويصاب الغنىّ فى ماله ، فيدعو الله أن يكشف ما به من ضرّ ، ويقرر فى نفسه : لئن رجع إلى حالته الأولى من الغنى والثروة ، ليكوننّ من المحسنين ، وليمتنعن عن التبذير فيما حرّم الله ، وليكونن على الفقراء أكثر عطفا ، وألين جانبا ، حتى إذا عادت إليه ثروته ، عادت معها سيرته ، وتمرّ به الأيام ، أو يمرّ هو بالأيام ، وكأن

---

(١) سورة يونس ، آية ١٢ .

لم يصبه شيء ، فيرجع إلى ما كان فيه من ظلم وطغيان ، وتطاول بالثروة ، وإسراف فى المال وفى النفس ، ينتهى به إلى الضرّ ، فيظلّ يدعو الله قائما وقاعدا ونائما ، وتدركه رحمة الله التى وسعت كل شيء ، وهو لايرحم نفسه ولا يستفيد من الضرّ الذى عاناه !

تلك أخلاق المسرفين ، والإنسان الذى يخلصه الله من الشدّة ، وينجيه من الضرّ ، ثم يرمى نفسه فيه مرّة ثانية ، مسرف ظالم لنفسه ، متلف لأمواله ، والإسراف تجاوز الحدّ المعقول ، والذى يرمى نفسه فى النار بعد أن نجاه الله منها لاعقل له ، بل هو إلى الحيوان أدنى منه إلى الإنسان ، على أن الحيوان إذا أكل شيئا ثم أصابه منه ضرر يعافه ولا يرجع إليه ! والمسرفون المتلفون تُزَيِّن لهم أعمالهم ، وما يزينها إلا الشيطان ، وإلا نفوسهم الخبيثة ، فيرمون بأنفسهم إلى التهلكة ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ومتى اتبع الإنسان نفسه وهواه ، وزين له شيطانه عمله ، أساء التصرّف ، واختلط عليه الأمر ، فلا يفرّق بين نفع وضرّ ، ولا بين حقّ وباطل !

صروف الحياة ابتلاء واختبار ، فإذا أصاب الإنسانَ ضرّ صبر ، ولا بدّ له من الالتجاء إلى الله بصدق وحسن نية ، حتى إذا صرف عنه ما به من شدّة شكر ، أما هذا الذى يذكر الله عند الشدّة ، وينساه عند الفرج ، ويدعو الله فى الضائقة ، ويعرض عن الله فى السعة ، فهو عبد سوء لايستفيد من أمسه ، ولا يحسب حسابا لغده . ومن لم يعرف نعمة الله عليه ، لايرعى للناس نعمة !

تلك هى معاملته مع الله ، وأما معاملته مع الناس ، فإنه يلجأ إلى الصديق فى الشدة ، ويتوسل إليه أن يخلصه وأن يعينه ، حتى إذا رجع إلى حالته أنكر الصديق ، وتجهم له ، وربما يمرّ به وينكره ؛ يتذلل إليك ويتوسل إذا احتاج ، فإذا استغنى تكبر ونأى بجانبه . بل من الناس من لايعرف الحياء ، فتحسن إليه ويسيء إليك ، وتتكرّر إساءته ويتكرّر إحسانك ، وإذا استغنى عنك أنكرك ، بل زيّفك ، بل كان أوّل من يخلق لك المعايب ، ويختلق عليك الأكاذيب .

تلك نفسيات مسرفة متلفة ، والمسرف على نفسه لايعرف أنه مسرف ، وربما

عرف نفسه وإسرافه فى تصرّفاته ، ولكنه يتجاهل نفسه وتصرّفاته ، ويدافع عن جهالته وإسرافه فى غير حياء . لأن عمله السيئ يصوّر فى نفسه حسنا ، وروحه السيئة تقلب حقائق الأشياء ، وهذا ما تقرّره الآية « كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » . وهذا التزيين للمسرفين يظهر فى ناحيتين : ناحية نفسية ، وناحية عملية :

الناحية النفسية : هى قلب الحقائق فى نفس المسرف ، واختلاط الحدود عليه بين الخير والشرّ ، والنفع والضرّ ، فقد عانى تجربة الضرّ وتألم منها حقا ، وابتهل إلى الله قاعدا وقائما أن يكشفها عنه ، فلما انكشف الضرّ ومسحت الرحمة آثاره ، عاد إليه ، لأنه لم ينتفع بالتجربة ، وكأنه لم يُمْسَس بسوء ، بل كأن هذا السوء قد تَغَيَّرَت طبيعته ، فأصبح نفعا أو خيرا ، بدليل العودة إليه ومزاولته ، فيحسب خيرا ما ليس بخير ، وما ليس الخير منه ، ويحسب شرّا ما ليس بشرّ ، لأن المعالم ضاعت فى نفسه ، بل انقلبت الأمور ، فزُيِّن له الشرّ حتى أصبح وجهه جميلا متقبّلا ، يجد فى عمله مسرة ، ويحسّ عند مزاولته الطمأنينة !

الناحية العملية : ومتى زُين الشرّ للمسرف ، سار فى طريقه ، واندفع إليه فى إسراف ، وهنا يظهر فيه أمر الله فى الإملاء ، يُمْلى له ، ويتركه إلى نفسه وإلى شيطانه ، حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْه !

فواجب الإنسان أن يستفيد من التجربة التى تقع فى الحياة ، ومن التجربة التى تتردّد فى نفسه ، فالضرّ الذى يقع فيه درس من الدروس التى تقع فى الحياة ، ومتى أحسّ آثاره ، عمل على التخلص منه ، مستعينا بقوّة من الله ، وبهدى من توفيقه ، حتى إذا زال الضرّ وانكشفت الغمة ، عمل على الاستفادة من التجربة ، فلا يرجع ثانية إلى ما ضرّ به أوّلا ، فيتذكر المرض فى الصحة ، والفقر فى الغنى ، والضيق فى السعة ، وإلا حرم الاستفادة من دروس الحياة ، ومن حرم الاستفادة ، حرم الاستجابة .

نفسيات يحللها القرآن

(٤)

« هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى البَرِّ وَالبَحْرِ ، حَتَّى إذَا كُنْتُمْ فِى الفُلْكِ ، وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جاءَتْهَا رِيحٌ عاصِفٌ ، وَجاءَهُمُ المَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ ، وَظَنُّوا أنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ، دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ : لَئِنْ أنْجَيْتَنا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِين ؛ فَلَمَّا أنْجاهُمْ إذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الأرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ ؛ يَأيُّها النَّاسُ إنَّمَا بَغْيُكُمْ على أنْفُسِكُمْ ، مَتاعَ الحَياةِ الدُّنْيا ، ثُمَّ إلَيْنا مَرْجِعُكُمْ ، فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُون » [١] .

فى هذه الآيات أوصاف دقيقة لنفسية الجماعات ، ونفسية الناس الذين يعرفون الله وقت الضيق ، ووقت الحرج ، والذين يدعونه مخلصين وقت الضيق ، ليفرج عنهم ما بهم ، حتى إذا سَرَّى عنهم هذا الهمّ الذى يضايقهم ، رجعوا إلى بغى مستأصل فى النفوس ، متصلّب فيها ، كل ذلك حبا فى الحياة ، وإيثارا لمتاع الدنيا ، الذى لايغنى إلا غناء مؤقتا ، ثم يردون إلى عالم الغيب والشهادة ، فينبئهم بما عملوا من خير أو شرّ .

ولأجل أن نفهم هذا التصوير البديع الذى صوّر الله به نفسية الجماعة عند ما يحزبها الأمر ، وتشتدّ بها الأزمة ، نتصوّر جماعة من السَّفْر على ظهر مركب من هذه المراكب العاتية الضخمة : السَّفْر فى شغل من الفرح والمرح ، يلهون ويلعبون ، هذا يقرأ فى كتابه ، وذاك يجرى بالكرة فى يده ، وهذا يتعرّض للشمس يستجلب دفأها وحرارتها ، وذاك ينزوى فى كنّ منفردا بنفسه ، مستسلما فى أمانيه .

---

(١) سورة يونس ، آية ٢٢ ، ٢٣ .

السفينة سائرة تتهادى فى قوّة وصلف ، والريح تدفعها رخاء هادئة ، والموج يداعبها من جميع نواحيها ، ولكنه يساعدها على المضىّ بها إلى ما تريد ، سكّانها فى يد ربّانها ، يحرّكه نحو غايتها فى غير جهد ولا عناء . الحياة طيبة فى جميع نواحيها ، والسفينة سائرة باسم الله مُرساها ، وباسم الله مَجْريها .

وإنهم لكذلك إذا بريح عاتية تدافع الريح الطيبة ، وإذا بالسَّفْر اللاهى ينتبه فُجاءَة على صراع عنيف بين الرياح التى تستبدّ بالسفينة ، وتتجاذبها من كل ناحية ، وتضرب جوانبها فى شدّة وقسوة ، وتنتقل من ناحية إلى ناحية حتى تعثر على ناحية ضعيفة فى السفينة ، فتلحّ عليها ضربا ثقيلا ، حتى تتمكن منها ! الموج يعلو من كل مكان ، كالشواهق من الجبال ، والسفينة فى طريقها الضيق ، كالمحصور فى الوادى العميق بين المرتفعات المخيفة ، والركْب يصرخ ويضطرب ، ويَجرى هنا وهناك ، يتلمس النجاة ، ولا نجاة ، ويبحث عن الملْجأ والمفرّ ، وأين الملجأ ؟! وأين المفرّ ؟! ألسنتهم معقودة ، إلا عن صراخ طائش ضائع فى صخب الأمواج ، زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وترددت النفوس تصعد مع الصرخة ، وتنحدر مع الأنين ، والأمواج تلحّ على السفينة وتضرب فى جوانبها ، ثم لاتلبث أن تعلو سطحها ، وتنساب أمواها تبحث عن مجراها فى جوف السفينة . لقد اقتحم العدوّ الحصن ، فليس للمحصورين إلا التسليم ! عندئذ يذكر السَّفْر القوىَّ الجبار ، يستعينون به على الجائحة ، ويستَعْدُونَهُ على العدوّ الهاجم ، ألسنتهم معقودة عن الذكر ، وعيونهم متطلعة إلى الرحمة ، يبعثون بأضواء باهتة ، من عيون زائغة ، إلى بعض من أشعة الشمس ظهرت فى ظلام الضباب ، علّها تحمل دعواتهم إلى الله ، فيكشف الغمة ، وينفس الكرب ، يرفعون أيديهم إلى علٍ وكأنهم يزجّون بصرخاتهم زجًّا إلى السماء ، ثم تخذلهم أيديهم ، وتطبق أعينهم على ما بقى فيها من دموع ، وتخونهم قواهم عند ما يتذكرون أنهم وقعوا قبلا فيما هم فيه الآن وأنجاهم الله ، فلما عادوا إلى البرّ طغَوا وبغوا . يستيئسون من النجاة مما هم فيه ، لأنهم تذكّروا ما أسلفوا ، ثم يشتدّ البلاء ، فيشتدّ الدعاء ، وهم فى هذه المرّة يظهرون الإنابة ،

ويحسنون المتاب، ويقولون : « لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هَذِهِ » نعم من هذه المرّة ، ومن هذه المرّة وحدها ، وهى المرّة الأولى ، والمرّة الأخرى ، « لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ » وتدركهم رحمة الله هذه المرّة أيضا كما أدركهم قبلها عدّة مرّات ، وينجيهم الله من غمّ ما هم فيه .

تهدأ العاصفة ، وتستقرّ القلوب والنفوس ، وتنحدر الابتسامة إلى الشفاه ، بعد أن منعتها الغصة وقتا طويلا ، وتصمت الصرخات ، لتأخذ الأنفاس مجراها فى الصدور بلا لهث ولا تعب ، وتجتمع الأكف على التّصفيق ، وكانت متفرّقة منفرجة بالابتهال ؛ وأخيرا ترجع السفينة إلى الشاطئ ، ويتحسس الركب الأرض التى نزلوا عليها ، فيجدونها قوية صلبة ، تثبت عليها أقدامهم ، ويمنعهم ترابها من الانزلاق عليها . رجع السّفْر إلى البرّ ، فرجع إليه الظلم والبغى ، والناس الذين كانوا يتساندون خوفا ، ويتضامّون هلَعا وهم فى البحر ، تناكروا ظلما ، وبغى بعضهم على بعض وهم فى الأرض ، والناس الذين كانوا يطلبون المساعدة فى البحر ، أصبحوا يطلبون التفوّق ومتع الحياة على الأرض !!

إنه ركب فاجر لم يبرّ بما عاهد الله ، نسُوا آيات الله ، وبقيت آيات الله تذكرهم بما كانوا فيه ، وتهدّدهم بما سيكونون عليه « يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ على أَنْفُسِكُمْ ، مَتَاعَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

ليس هناك من تصوير أدقّ وأبلغ من تصوير هذه الآيات لحالة الإنسان والناس فى البغى ، وفى الكذب على الله : فكثيرا ما يقع الإنسان فى الضائقة ، وتستحكم حَلَقاتها فوق رقبته حتى يختنق بها ، ويراها ضائقة الضائقات ، وشرّ الأزمات ، ويتطلع إلى السماء طالبا النجاة ، من هذه الضائقة ، ومن هذه وحدها ! حتى إذا أطلق رقبته من غُلِّها ، رجع يُعدّ لها حلقات أخرى أقسى من الأولى ، وأشدّ استحكاما .

والأمر فى الجماعة كالأمر فى الأفراد ، والنفسية الجماعية تقع أيضا فى مثل ما تقع فيه النفسية الفردية : خذ الحروب بين الأمم مثلا ، فهذه حرب سنة ١٩١٤ كانت حرب غوّاصات لم تألفها الناس ، وليس لهم بها عهد ، استمرّت الحرب

زُهاء خمس سنوات ، عانت فيها الناس ما عانت ، بعد أن طحنهم طحنا ، وأتت على الأخضر واليابس ، لا من نبات وشجر حسب ، ولكن من شباب هو ربيع الحياة ، ومن علماء هم عمادها وعتادها . كانوا فى هذه الضائقة يلجئون إلى الله فى المعابد ، والمساجد ، والكنائس ، والبِيَع ، والصوامع ، ينادون الله : أن نَجِّنا من هذه الحرب ، وبعدها لانعود ؛ فلما نجاهم عادوا إلى البغى ، بغى القوىّ على الضعيف ، وإلى الظلم ، ظلم القوىّ للضعيف ، كلّ يبتغى لنفسه التفوّق والظهور فى الحياة الدنيا ، وكلّ يريد أن يكون قومه السادة ، وغيرهم العبيد .

رجع الناس إلى ظلم مستحكم فى النفوس ، مقيمة عليه ، وكانت حرب أخرى سنة ١٩٣٩ قامت فيها الطيارات بالفزع والهدم ، والدمار والتخريب ، فضجّ الناس أيضا ، وضجت الساسة الذين أشعلوها غشوما حمقاء ، ورجعوا إلى معابدهم ومُصَلاّهُم ، يبتهلون وينادون : (لَئِنْ أنْجَيْتَنا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ » [١] ولما أنجاهم بقُوا فى بحارهم جاثمين على غواصاتهم ، وفى مطاراتهم وأيديهم على محرّكات الطائرات ، وفى حصونهم وأصابعهم على صمام مدافعهم ، فهم فى حرب من السلم ، وهم من سلمهم فى حرب ، ولا تزال النفوس قلقة ، والعقول مضطربة يطلبون حربا جديدة كهذه وتلك ! !

ظلم لم تؤثر فيه ثقافة ، لأنها ثقافة بعيدة عن روح الدين والخلق ، وحماقة أقام عليها الأوّلون جهلا ، وأقام عليها الآخرون علْما ، وسبحان الخبير بنفوس عباده : « وَإذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى البَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إلاَّ إيَّاه ، فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إلى البَرِّ أعْرَضْتُمْ ، وكانَ الإنْسانُ كَفُورًا » [٢] .

---

(١) سورة يونس آية ٢٢ .

(٢) سورة الإسراء آية ٨٢ ، ٨٣ .

نفسيات يحللها القرآن

(٥)

« وَمِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ . فَلَمَّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ . فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِما أَخْلَفُوا اللهَ ما وَعَدُوهُ وَبِما كانُوا يَكْذِبُونَ . أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ ، وَأَنَّ اللهَ عَلَّامُ الغُيُوبِ »[1] .

يقولون فى أسباب نزول هذه الآيات : إن « ثعلبة بن حاطبٍ الأنصارىّ » جاء النبى صلى الله عليه وسلم وقال : « يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا » ! فأجاب الرسول : « وَيْحَكَ يا ثَعْلَبَةُ ! قَلِيلٌ تُؤَدِّى شُكْرَهُ ، خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لا تُطِيقُهُ » . ثم جاءه ثانية وقال : « ادع الله أن يرزقنى مالا » ، فقال الرسول : « أَما لَكَ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ » ؟! ثم أتاه ثالثة وقال : « والذى بعثك بالحقّ لئن رزقنى الله مالا ، لأعطينّ كلّ ذى حقّ حقه » . فدعا له بالرزق ، فاتخذ غنما ، فنمت كما ينمى الدود ، حتى ضاقت بها المدينة ، فنزل واديا ، وانقطع عن صلاة الجمعة والجماعة ؛ فسأل عنه الرسول ، فقيل : كَثُر ماله ، حتى لايسعه واد ، فقال : « يا وَيْحَ ثَعْلَبَةَ » !

ثم بعث الرسول إليه رجال الصدقة ، فلم يقبل « ثعلبةُ » أن يدفع الزكاة عن غنمه ، وقال : « إن هذه الزكاة جزية أو أخت الجزية » ! فلما رجع رجال الصدقة ، ابتدرهم الرسول قبل أن يعلم من أمر « ثعلبة » شيئا ، وقال : « يا وَيْحَ ثَعْلَبَةَ ! يا وَيْحَ ثَعْلَبَةَ ! » فنزلت هذه الآيات .

إذن نزلت هذه الآيات فى رجل عاهد الله على شىء ، ثم كذب على الله ، وفى رجل وعد الله الخير والإصلاح ، ثم أخلف الله ما وعد ، فكان من المنافقين . إن لعلماء الأصول قاعدة يجملونها فى هذه العبارة : « العبرة بعموم اللفظ لابخصوص

(١) سورة التوبة ، الآيات ٧٥ – ٧٩ .

السبب»، فلنا أن نفهم إذن أن القرآن يتعرّض لتحليل نفسية بشرية موجودة فى كل زمان، وفى كل مكان، هى نفسية الشحيح البخيل المرائى: فالبخيل يتمنى أن يكون كل المال فى يديه، وله فى ذلك منطق بخله وشحه، فهو يتصوّر أن يده لو كانت مملوءة بالمال لفتحها، ليتسرّب المال منها إلى جهات البرّ والخير، حتى إذا كان المال فى يده تصلبت أصابعه عليه! وعاش فى الظلام حتى لايراه الناس. والمرائى يهاجم الأغنياء دائما، ويَنعَى عليهم بخلَهم، ويتظاهرُ بأنه لو رزقه الله مالا لتصدّق به، ولكان من الرجال المصلحين، ينفقُ المالَ فى إصلاح المجتمع وفى خيره؛ فإذا آتاه الله المالَ فرَّ من وجوه الناس واستأثر به!

كثيرٌ هم البخلاء المراءون الذين يَعدون الناس بالخير، ويَعِدون الله بالنذْر، لئن زاد ربحهم فى هذه السنة ليزيدُنّ فى أرزاق الفقراء، وقد يقدّر الواحد منهم لنفسه ربحا معينا، ويقسم أن ما زاد عليه هبة لله فى بناء مدرسة، أو مصلى، أو مستشفى، ثم يزيدَ رزقه، فيقبض يده عمّا وعد اللهَ أن يحققه!

بل كثير من الناس لا يوفون بما يجب عليهم إذا وسع الله أرزاقهم، فإذا كان مدينا مثلا وانتظر به الدائن إلى ميسرة، يقسم الأيمان المغلظة أنه بمجرّد أن يرزقه الله مالا يسدّد دينه، فحينما ييسر الله عليه يبخل بالمال فلا يسدّ دينه، ويبخل بالمال فلا يعلم أولاده، أى أنه لايؤدّى ما وجب عليه. فما الظنّ به إذن إذا أراد أن يؤدّى شيئا للإصلاح الاجتماعى؟!

المال مُغر، ولا يُغرِى بصرفه إلا الإيمانُ بالله الذى رزقه وأعطاه، إن المؤمن لايتطلب الجزاء الحاضر، بل يعطى بلا مقابل انتظار ما عند الله، وما عندَ الله خير وأبقى. أما هؤلاء الذين يبخلون فلا يستأهلون نعمة الله؛ وهؤلاء الذين يخاتلون الله فيتظاهرون بالإحسان، ولا إحسان لهم، ويتظاهرون بالكرم وهم بخلاء، ويَعِدون بالبرّ لإصلاح المجتمع ولا يُوفون، فليعلموا أن الله يعلم سرّهم ونجواهم، وأن هذا الكذب لايعقب إلا النفاق فى القلب، لأنهم كذبوا على الله، وأخلفوا ما وعدوه. «ألم يعلموا أن الله يعلم سرّهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب».

ويؤخذ من صريح الآية أمور لابدّ من الوقوف بها :

الأول : خلف الوعد ، فثعلبة قد عاهد الرسول أنه إذا أصبح غنيا لايكون كسائر الأغنياء الذين يبخلون بفضل الله على الناس ، فالمال سيمكنه من أنه يَصَّدّق ، وسيمكنه من استصلاح حاله ، ومن القيام على استصلاح حال الناس، والرسول يعلم من أمر « ثعلبة » ما لايعلمه غيره ، ولكنه يريد أن يسير مثلا فى الناس، ودليلا على شرّ ما تنطوى عليه النفس البشرية من الالتواء والمواربة . ولما أصبح « ثعلبة » غنيا بخل ، وتولى ، وأعرض ، ولم يقف عند هذا الحدّ ، بل اعتبر الصدقة جزية أو شبه جزية ، واعتبر نفسه مؤمنا صادقا لايطالب بالجزية ، ولا يؤديها إذا طلبت منه ، لأنه ممتّع بالإسلام الذى يعصم نفوس الناس وأموالهم ! فكانت عاقبة أمره إلى هلاك المال ، وهلاك النفس !

الثانى : أن « ثعلبة » كان وهو يطلب الغنى مصمما على البخل، أسرّ المعصية ، وتظاهر بالتقوى ، فصمم فى نفسه ألا يعطى ولو أُعطى مال « قارون » ! وجهل أن الله علاّم الغيوب، يعلم سرّه ونجواه، ويعلم ما انطوت عليه نفسه من شحّ مستأصل، وفقر نفس لاتصلحه الثروة ، ولا يحوّله الغنى عن طبيعته !

الثالث : أن خلف الوعد وخاصة فى الخير ، يُعقب النفاق ، ويَعقبه النفاق ؛ فالرجل قد وعد وأخلف ، وقد أسرّ شيئا ، وجهر بشىء آخر ، وقد أخفى نفسه وراء قَسَم غليظ يعلم الله ورسوله كذبه فيه، وليس وراء ذلك كله إلا النفاق والرياء، وإلا النفاق الدائم ، الذى يازم صاحبه حتى يلقى الله ، وإلا الكذب المقيت الذى يُودى بالمال وبصاحبه .

و « ثعلبة » هذا الذى عاش فى زمن الرسول فى وسط من الهداية ، وإلى جوار منزل الوحى ، يستمع إلى آيات فى الخير ، ويقف على مُثُل من البذل والسخاء ، لايزال فينا ! فالناس هم الناس، وكلهم « ثعالبة » يمارون ويراءون، ويعدون ويراوغون، ويقولون ما لايفعلون ؛ يعدون بالإصلاح فقراء ، ولا ينجزون ماوعدوا أغنياء ، ويبتهلون إلى الله مرضى ، وينسَون الله أصحاء ، فالحالة إذن نفسية ، وليس لها من ولىّ ولا هاد إلا الخبير العليم بنفوس خلقه .

نفسيات يحللها القرآن

(٦)

يقول الله تعالى فى كتابه الكريم : « وَإِذَا أَنْعَمْنَا على الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ؛ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ على شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً » (١) .

يحلل الله سبحانه وتعالى نفسيات الناس ، وهم خلقه وعباده ، وهو أعلم منهم بدخائل نفوسهم ، وبما انطوت عليه من ميول خيِّرة ، وأخرى شريرة ، ويريد منهم دائما أن يغلِّبوا الخير على الشرّ ، وأن يسلكوا السبيل التى تباعد بينهم وبين الشرّ ما وجدوا إلى ذلك سبيلا .

إن الشرّ مخلوق إلى جانب الخير يعرف به ، فلولا الشرّ ما عرف الخير ، ولولا الشرّ إلى جانب الخير لبطل عمل العقل ، إذ من أهمّ مظاهر العقل الفرز والاختيار بين الضارّ والنافع ، وبقدر ما ينفق الإنسان من إرادة فى الابتعاد عن الشرّ ، والاقتراب من الخير ، يكون عقله وأجره .

فالآية الكريمة تعرض لألوان من النفسيات الإنسانية ، فهناك نفس متمرّدة عنيفة تميل إلى الشرّ ، ولا تجد مقاومة من الخير . إذا أدركت صاحبها النعمة أدركه البطر ، وأعرض عن الله ، ونأى بجانبه عن الناس . هى نفس متكبرة ، لاتعرف حقّ الله ولا حقّ الناس ، إذا أنعم الله عليها بالخير ، أعرضت عن الله وأعرضت عن فعل الخير ؛ والإعراض عن الله يكون بالإعراض عن أوامره ، وعدم تتبع رضاه ، والإعراض عن الناس يكون بالكبر والاختيال ، فلا يخالط المتكبر الناس ، وإذا خالطهم لايسايرهم ، وكأنما يشعر أنه من طينة أنقى من طينتهم ، وفى مستوًى أرفع من مستواهم ؛ تلك نفس فردية أشِرَة لاترى فى النعمة إلا الكبر ، ولا فى السراء إلا الخيلاء ، وكلما قرّب الله صاحبها بالنعمة ، ابتعد صاحبها عن الله بالمعصية !

(١) سورة الإسراء ، آية ٨٢ ، ٨٣ .

وهناك نفس ملول صامتة يائسة ، ميتة ، وصاحبها فى الأحياء ، إذا مسّها الضرّ ، أُغلق عليها الأمر ، وسدّت فى وجوهها المسالك ، وانقطع رجاء صاحبها من كل شىء ، فيقع صاحبها فى اليأس ، وربما امتدّ به يأسه وقنوطه إلى اليأس من رحمة الله ، ولا ييأس من رحمة الله إلا القوم الكافرون . هذه النفس القلقة لا تتحمل المصاعب ، ولا ترضى بالأحداث ، ولا تصبر عليها ، بل لا تفكر فى التغلب على مصاعبها . وهناك نفس ثالثة هى شرّ النفوس ، تجمع بين الأمرين معا ، بين الكبر واليأس ، إذا أصاب صاحبها خيرٌ اطمأنّ به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة .

والآية الكريمة تشمل هذه النفوس جميعها فى عبارة وجيزة : « وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا » .

ومن لايشكر الله عند النعمة ، لايرضى بقضائه عند النقمة ، وليس بعد الكبر إلا اليأس ، لأن المتكبر قد فهم أن الحياة ستكون له دائما ، وأنها ستشرق عليه ، كلما أشرقت الشمس ، برضاها وبابتسامتها ، فيركن إليها ، ويطمئنّ إلى كبره وخيلائه . وكما يعيش بعيدا عن الناس ، يبتعد عنه الناس دائما ، فإذا زالت النعمة ومسه الشرّ ، لايجد من نفسه عاصما ، فلم يُعوّد نفسه الاحتمال ، ولا يجد من أصدقائه معينا ، فقد كان متكبرا ، لايعرف أخا ولا صديقا فى الرخاء ، فكيف يعطف الناس عليه فى الشدّة ! ليس له إذن مع الضرّ الذى أصابه إلا أن ينطوىَ على نفسه ، ويكبت همومه ، ولا يجد لتصريفها مجالا ، فتنفجر به همومه ، كما ينفجر اليأس بحياة صاحبه .

يطلب الدين إذن من الإنسان الاعتدال والقصد ، فإذا أنعم الله عليه بخيره ، شكره فى الرفق بالناس ، وفى الإحسان إليهم ، وفى العمل الصالح الذى يكون له أثره الطيب فى الصالح العامّ ، وإذا مسه الشرّ صبر ، والصبر يؤدّيه إلى العمل على دفع الضرّ ، وإلى التفكير فى محاولة التخلص منه ، فإذا هلع عند الضرّ ، كما بَطِر عند النعمة ، وقع فى القنوط واليأس ، وهما إما مؤدّيان إلى الانتحار ، وإما مؤدّيان إلى الإلحاد ، وكلاهما شرّ مهلك ! !

والحكيم فى تربية عباده ، الخبير بنفوسهم ، يعلم أن الناس لايستطيعون إلا أن يعملوا ما فى وسعهم ، وما يسعه قدرهم ، وما تدفعهم إليه ميولهم وغرائزهم ، فهو لايطالبهم بأكثر مما يستطيعون ، من أن كل فرد يعمل على شاكلته ، والشاكلة : الناحية ، والنية ، والطريقة ، والمذهب ، وليس معنى « كلّ يعمل على شاكلته » أن الإنسان متروك إلى طبيعته ، عبد لغرائزه وهواه ؛ فإذا كان متكبرا ، فهو يعمل على شاكلته فى الكبر الذى طبعه الله عليه ، وإذا كان شرّيرا فهو مدفوع إلى الشرّ بسجيته ، وطبيعته التى خلقه الله عليها . ذلك فهم سيئ خاطئ ! حقيقة أن الأمزجة مختلفة فى الناس ، وحقيقة أن الناس تتمزّق بهم ميول عديدة ، وأن الذكاء نفسه — وهو النور الذى وضعه الله فى القلب والنفس للهداية — يختلف فى الناس قوّة وضعفا ، واستعدادا وكسبا ، وتختلف به الناس حصافة وغباوة ، وتصرّفا وضيقا ، ولكن هذه الميول والاستعدادات خلقها الله بالمرونة التى تجعلها قابلة للتعديل والتبديل ، فمن السهل جدا — إذا استشعر الإنسان الكبر — أن يأخذ نفسه بالملاينة وحسن الخلق ، وأن يَسَع الناس بقليل من الإرادة ، وقليل من المعروف . ومن السهل جدّا — إذا أحسّ الإنسان فى نفسه الملَل والقنوط — أن يروض نفسه على الصبر والاصطبار ، والأمل فى الله ، والرجاء فى أن اليسر بعد العسر ، وفى أن العسر ينقلب يسرا ؛ فإذا كانت الشواكل والطبائع فيها شىء من الثبوت والتحكم ، فإن إرادة الإنسان التى ينفرد بها عن سائر الحيوانات ، فيها من القوّة والتحكم أيضا ما يجعلها مسيطرة على الغرائز والميول .

والوسائل كثيرة للتهذيب والتربية ، والسبل متعدّدة للتغلب على النادّ والشارد من الغرائز . فالمطلوب من الإنسان أن يتوسل بالسبل المختلفة لإصلاح نفسه ، وهناك سبيل أسهل من سبيل وطريق أخطر من طريق ، والإنسان الراغب فى إصلاح نفسه يلتمس من الله الهداية إلى الصراط المستقيم ، والهداية إلى السبيل الأقوم « فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً » .

نفسيات يحللها القرآن

(٧)

يقول الله تعالى فى كتابه الكريم : « فأمَّا الإنْسانُ إذَا ما ابْتَلاهُ رَبهُ فأكْرَمَهُ ونَعَّمَهُ ، فيَقُولُ رَبِّى أكْرَمَن . وأمَّا إذَا ما ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَه فيَقُولُ رَبِّى أهانَن . كَلاَّ ! بَلْ لا تُكْرِمُونَ اليَتِيمَ . وَلا تَحاضُّونَ على طَعامِ المِسْكِين . وَتأكُلُونَ التُّرَاثَ أكْلاً لَمًّا . وتُحِبُّونَ المَالَ حُبًّا جَمًّا . كلا ! إذَا دُكَّتِ الأرْضُ دَكًّا دَكًّا . وَجاءَ رَبُّكَ وَالمَلَكُ صَفًّا صَفًّا . وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ، يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإنْسانُ وأنَّى لَهُ الذِّكْرَى . يَقُولُ يا لَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَياتِى . فَيَوْمَئِذٍ لايُعَذِّبُ عَذابَهُ أحَدٌ . وَلا يُوثِقُ وَثاقَهُ أحَد »[1] .

فى هذه الآيات الكريمة شرح لنفسية قلقة وأخرى مطمئنة ؛ فأما النفس القلقة فهى التى ترضى بالخير ، ولا ترضى عن الشرّ ، ترضى بالغنى ولا ترضى إذا أصابها الفقر ، ترضى بالرخاء والنعماء ، ولا ترضى عند الشدّة والبلاء . هى نفس قلقة لأن صاحبها لايفرّق بين البلاء والابتلاء ، فالبلاء شرّ كله ، أما الابتلاء فهو امتحان من الله ، واختبار لعباده ، وقد يختبرهم بالشرّ ليعرف مقدار مافيهم من الصبر والتحمل ، ويختبرهم بالخير ليعرف مقدار مافيهم من الشكر ، ومقابلة نعمة الله بالعطف على الناس ، والإحسان إليهم ، والسعى وراء الصوالح الاجتماعية التى يرتفق بها عدد كبير من الناس ومصدرها فرد واحد ، هو ذلك الغنىّ الذى يعطى السائل والمحروم ، والذى لايضنّ عليهما بحقّ الله الذى فرضه على الغنىّ زكاة فى أمواله وفى تجارته . هذا هو الأصل الدينى فى توزيع الرزق بين الناس ، فهم ما بين غنىّ شاكر ، وفقير صابر ،

---

(١) سورة الفجر ، الآيات ١٥ – ٢٦ .

وهو توزيع ضرورى لحفظ نظام الحياة؛ فلو كان الناس جميعا أغنياء ، فمن يعمل، والحياة سعى وعمل ؟ ! ولو كانوا جميعا فقراء فمن يمدّ بالمال ؟! وهو قوام كل مشروع ، وعصب لكل عمل يشدّه ويؤزره . ولكن النفس القلقة لاتعرف سرّ هذا التوزيع ، فإذا أنعم الله على الغنىّ وكرّمه ، يقول ربى أكرمنى ، فأنا أستحق كل الخير ! وهذا لى ! ويتباهى كما تباهى « قارون » صاحب «موسى» من قبل ، وقال : « إِنَّمَا أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عِنْدِى »[1] . وإذا ابتلاه بالقلة يقول ربى أهاننى ؛ فمقياس الحياة عند هذه النفوس القلقة هو المال ، فالمال فى زعمهم هو إكرام من الله للغنىّ ، والفقر فى زعمهم إهانة من الله للفقير ، والله يقول « وَنَبْلُوكُمْ بالشَّرِّ والخَيْرِ فِتْنَةً »[2] ، وربّ غنىّ فى المال ، مفلس من المروءة والكرامة ، وربّ فقير معدم ، ثرىّ فى نفسه ، ثرىّ فى ميوله واتجاهاته .

مقياس المال مقياس خاطئ فى تقدير الكرامة والمهانة ، والله سبحانه يردّ على هذه النفس القلقة الجاهلة ، ويبين أن الثراء الحقيقى هو ما جاء عن طريق شريف ، أما الثروة التى تستلب من اليتيم والضعيف ، والثروة التى تتكوّن من حقّ الفقير والمسكين ، والثروة التى تجتمع من الجمع واللم ، فى غير تفرقة بين الحلال والحرام والكريم والدنىء من الكسب ، والشريف والخسيس من الوسائل ، فهى لاتدلّ على غنى ، وكل ما فيه جمع للمال ، وحبّ لذات المال ، وهو الحبّ الجمّ ، أى حبّ الحرص والبخل ، وعدم أداء الحقوق الاجتماعية ، والديون الفردية .

يقول الله للأغنياء أصحاب هذه النفوس : إنكم لاتكرمون اليتيم ، ولا تحاضون على طعام المسكين ، لا يأمر بعضكم بعضا بالخير ، وكان مقتضى النعمة أن تجتمعوا فى جماعة ، يحضّ بعضكم بعضا على الخير ، وإنما أهلك الأمم قبلكم ، أنهم « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » . ويقول لهم : إنكم تأكلون التراث أكلا لمّا ، أى تغتالون حقّ الضعفاء كما كانت تغتال الجاهلية حقّ الصبيان

---

(١) سورة القصص ، من الآية ٧٨ .

(٢) سورة الأنبياء ، من الآية ٣٥ .

والنساء استضعافا لشأنهم ، وإنكم تحبون المال حبا جما ، يملك عليكم العقل ويضعف فيكم المروءة والدين ، بل قد يطغى هذا الحبّ على ما خلق الله فيكم من مروءة ودين ! وكأنه يقول للفقير : لايغرّك المال تسلبه من أيدى الضعفاء ، وتختطفه من أفواه المساكين ، فيغنى الغنىّ من هذه السبيل فقر ! وفقره من هذا السبيل غنى .

ثم يهدّد الله هؤلاء بأن أموالهم لاتنفعهم أمام الله ، ولا تعصمهم من غضبه يوم القيامة ، يوم تدكّ الأرض دكا ، يوم الفصل والحكم بين الناس ، إذ يسأل الله عباده عن أموالهم فيم أنفقوها ؟ وعن نفوسهم لمَ أضاعوها وأذلوها ؛ يوم يُجاء بجهنم ، وتبرز الجحيم للغاوين ، عندئذ يتذكر الإنسان ، ولكن ماذا تنفع الذكرى ؟! وماذا ينفع الندم ، إنه لايملك إلا أن يقول : « يا ليتنى قدمت لحياتى » ! !

أما النفس المطمئنة التى تعرف نعمة الله ، وتعرف أن إكرام الله للمرء فى إكرام خلقه له ، وأن إهانة الله للمرء فى إهانة خلقه له ، فتتقدّم إلى بارئها راضية بما أرضت الله به ، مطمئنة إلى كرم الله وصدق وعده ، فيقال لها : « ادْخُلِى فِى عِبادِى . وَادْخُلِى جَنَّتِى » [1] .

---

(١) سورة الفجر ، الآيات ٢٩ ، ٣٠ .

عِبَرُ الأوّلين

من سورة الأنبياء

قصة إبراهيم — المحاورة بين الحق والباطل — نجاة إبراهيم

إشارة عابرة لبعض الأنبياء

سورة الأنبياء ، كما يدل اسمها عليها ، مجموعة من أخبار الأنبياء وقصصهم ، يقصها القرآن على الرسول الكريم ، ليعلمه أخبار الماضين ، للتأسى والتصبر ، وليتحمل كل ما لاقى من عنت وإرهاق فى سبيل الله ، وفى سبيل الدعوة . فما من أمة خلا فيها نذير إلا كذبت النذير ، وكفرت بدعوته ، وما من أمة ظهر فيها مصلح إلا لاقى كثيرا من الشدّة والآلام فى سبيل الإصلاح ، وفى سبيل دعوته الجديدة . « وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ ، فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ » [1] ، « قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ، وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ » [2] . فموسى وهارون أمدّهما الله بالكتاب ، فيه ضياءٌ وذكرٌ للمتقين « وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ » [3] .

ومن هذا القصص الذى ذكر فى سورة «الأنبياء» قصة « إبراهيم » وقصة « آزر » ، والتماثيل التى كان يعكُفون على عبادتها . فإبراهيم آتاه الله الرشد والحكمة فى سنّ مبكرة ، وقد كان بينه وبين أبيه محاورات فى الشرك والوحدانية ، ذكرت بعضها الآيات فى سورة «مريم» ، وقد أراد «إبراهيم» هذه المرّة أن يبرهن لقومه ببرهان عملىّ على أن الأصنام لاتنفع ولا تشفع . وكان من عادة هؤلاء الوثنيين أن يخرجوا إلى الخلاء فى يوم عيد لهم ، ويتركوا طعامهم عند الأصنام ، فإذا رجعوا من مراسيم العيد أكلوا هذا الطعام المقدس الذى باركته الأصنام . خرج « إبراهيم » مع القوم امتثالا لإشارة أبيه ، ثم خطرت بباله فكرة أن يكيد للأصنام ، فعزم على الرجوع ، وقال :

(١) سورة الأنعام ، آية ١١ .
(٢) سورة الأنبياء ، آية ٤٥ .
(٣) سورة الأنبياء ، آية ٥٠ .

« إنّى سقيم » ، ثم تسلل ورجع إلى الأصنام ، فرأى الأكل أمامهم ، فخاطبهم مستهزئا : « ألا تأكلون ، ! مالكم لا تنطقون »[1] ، ثم راغ عليها ضربا باليمين ، فكسرها بفأس ، وعلق الفأس فى يد أو فى رقبة الصنم الكبير .

وتجرى المحاورة بعد ذلك على النحو الرائع الذى تسرده الآيات . يقول « إبراهيم » لأبيه وقومه : « ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟ » فيقولون « وجدنا آباءنا لها عابدين » فيردّ عليهم : « أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين » . فيردون عليه : أجادّ أنت فيما تقول أم هازل ؟! « أجئتنا بالحقّ أم أنت من اللاّعبين ؟! » فيقول : « ربّكم ربّ السموات والأرض الذى فطرهنّ » ، أى فطر السموات والأرض ، وفطر المادة التى عملت منها التماثيل ، « وأنا على ذلكم من الشّاهدين » ! أى أنا شاهد على أنه فاطر السموات والأرض ، وأنا شاهد على أن الله وحده هو المستحقّ للعبادة والتفرّد بالخلق .

يعلم « إبراهيم » أن المناقشة لا تفيد مع هؤلاء ، فيعمد إلى دليل مادىّ يصدقه حسهم وإدراكهم — إن كان لهم حسّ وإدراك — فيُقْسم فى نفسه ، ويؤكد أمام بعضهم أنه سيدمّر هذه الآلهة « وتالله لأكيدنّ أصنامكم بعد أن تولّوا مدبرين » أى بعد أن تخرجوا إلى عيدكم . ثم يكسرها ويترك الصنم الكبير ، لعلهم يسألونه « فجعلهم جذاذا (حطاما) إلاّ كبيرا لهم لعلّهم إليه يرجعون » ! يرجعون من العيد ، فيرون الأصنام مبعثرة كسيرة ذليلة ، فيقولون : « من فعل هذا بآلهتنا ؟ إنه لمن الظّالمين » ! ويردّ البعض ويقولون : « سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم » .

يجتمع رؤساء القوم ويطلبون « إبراهيم » على أعين الناس ، أو بمرأى من الناس ، لعلهم يشهدون عذابه ، أو يشهدون عليه ، فى أثناء المحاكمة ، ويجتمع المجلس ويسألون : « أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ ! » فيقول : « بل فعله كبيرهم هذا ، فاسألوهم إن كانوا ينطقون »[2] ؟!

وجدوا أن كلامه معقول ، ولزمتهم الحجة ، فرجعوا إلى أنفسهم ، فقال بعضهم

---

(١) سورة الصافات ، الآيات ٩ ، ٩٣ . (٢) سورة الأنبياء ، الآيات ٥٢ — ٦٣ .

لبعض : « إنَّكُمْ أنْتُمُ الظَّالِمُون » ، ثم رجعوا إلى عنادهم ، ونُكِسوا على رؤسهم، ورجعوا إلى الباطل، وقالوا له: « لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُون » . فلما اعترفوا بأنهم عاجزون عن النطق ألزمهم الحجة مرة ثانية ، وقال : « أفتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مالا يَنْفَعُكُمْ شَيْئا وَلا يَضُرُّكُمْ ؟! أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُون مِنْ دُونِ الله ، أفَلا تَعْقِلُون » !

ولما أعيتهم الحيلة فى أمره أمروا بإحراقه و« قَالُوا: حَرِّقُوهُ وانْصُرُوا آلِهَتَكُم إنْ كُنْتُمْ فاعِلِين » ، أى ناصرين للآلهة ، ولكن الله حفظه من نارهم ، ونجاه من كيدهم « قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلاماً على إبْرَاهِيم . وأرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْناهُمُ الأخْسَرِين » [1] .

وهنا لابدّ من وقفة يسيرة أمام بعض المفسرين الذين يتعرّضون لعصمة الأنبياء، فقد لاحظ هذا البعض أن إبراهيم قال : « إنى سقيم » وليس به مرض ولا سقم !! وقال : « بل فعله كبيرهم هذا » وليس بصحيح ، وقالوا : إن هذا الكلام الذى ظاهره الكذب يجوز للمصلحة !

والحقّ أن لا كذب هنا، وعصمة الأنبياء ثابتة، ومعنى « إنى سقيم » أى مريض القلب، مغتمّ لما هم عليه من الضلالة ؛ وأما قوله : « بل فعله كبيرهم هذا » . فهو أسلوب عربىّ كريم ، يقصد به السخرية منهم ، والتسفيه لعقولهم ، بدليل بقية الآية « فاسألوهم إن كانوا ينطقون » . ولما كان النطق مستحيلا عليهم ، كان سؤالهم من السخرية بهم !

أما كون « إبراهيم » يقع فى النار ولا يحترق ، فتلك من خصائص القدرة الخالقة القاهرة ، فللنار عناصر هى الوهج والحرارة والضوء والإحراق ، والله الذى خلقها بهذه العناصر قادر على أن يسلبها خاصة من خواصّها وهى الإحراق ، كما يسلبها الضوء أحيانا ، والوهج أحيانا أخرى . على أن المعجزة ثابتة بقول الله تعالى « بردا وسلاما على إبراهيم » أى على إبراهيم وحده ، لاعلى كل الناس ، وتلك خصائص المعجزة ،

(١) سورة الأنبياء ، آية ٦٤ — ٧٠ .

يجربها الله على يد من اصطفى من عباده ، وبها نجى الله « إبراهيم » « وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين » .

فرّ إبراهيم بدينه ، وترك العراق إلى الشام « إلى الأرْضِ الَّتِى بارَكْنا فِيها للْعالَمِين »[1] ووهبنا لإبراهيم « إسحاق » لما سأل ربه « رَبِّ هَبْ لى مِنَ الصَّالِحِين »[2] ثم وهب له « يعقوب » نافلة ، أى زيادة على ماطلب « وكُلاًّ جَعَلْنا صَالِحِين »[3] أى أن « إبراهيم ، وإسحق ، ويعقوب » كانوا صالحين ، وكانوا أئمة « يَهْدُونَ بِأمْرِنا ، وأوْحَيْنا إلَيْهِمْ فِعْلَ الخَيْرَات ، وإقامَ الصَّلاة ، وإيتاءَ الزَّكاة ، وكانُوا لَنا عابِدِين »[4] .

وبعد قصة « إبراهيم » التى ذكرت فى هذه السورة بشىء من التطويل ، تشير الآيات إلى بقية الأنبياء إشارة خفيفة ، فأما « لوط » فقد نجاه الله من قرية الخبائث ، وظلله برحمته « إنَّهُ مِنَ الصَّالِحِين » . وأما « نوح » فنادى ربه فى وقت الضائقة فنصره على القوم « الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فأغْرَقْناهُمْ أجْمَعِين »[5] .

وأما « داود » و « سليمان » « فقد وهب لهما قوّة الحكم والفصل فى القضاء ، فكانا يحكمان بتوفيق وتوقيف من الله ، ولكنهما كانا يحكمان بالاجتهاد أيضا ، فلقد دخل رجلان على « داود » أحدهما صاحب مزرعة ، والآخر صاحب غنم ، فنَفَشَت الغنم ليلا فى المزرعة فأتلفتها ، فحكم « داود » لصاحب المزرعة بأن يأخذ الغنم تعويضا من خسارته ؛ ولما سمع سليمان بالحكم قال : « غير هذا أرفق بالفريقين : كان اللازم أن يحجز صاحب المزرعة الغنم ينتفع بلبنها وصوفها ونسلها ، ويقوم

---

(١) سورة الأنبياء ، آية ٧١ .
(٢) سورة الصافات ، آية ١٠٠ .
(٣) سورة الأنبياء ، من الآية ٧٢ .
(٤) سورة الأنبياء ، آية ٧٣ .
(٥) سورة الأنبياء ، آية ٧٧ .

صاحب الغنم بشئون المزرعة التالفة، حتى يصل الزرع إلى ما كان عليه، ثم يأخذ كل حقه « فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ ، وكُلاًّ آتَيْنا حُكْماً وعِلْماً » [١] .

وكل هؤلاء الأنبياء جاءوا بالتوحيد ، وحاربوا الشرك والأوهام ، والتماثيل والأصنام، وتوعدوا العابدين والمعبودين بالنار « لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها وكُلٌّ فِيها خالِدُونَ » [٢] . أما المؤمنون الذين سبقت لهم الحسنى والسعادة ، فأولئك عنها مبعدون « لايَسْمَعُونَ حَسِيسَها ، وَهُمْ فِيما اشْتَهَتْ أنْفُسُهُمْ خالِدُون ، لا يَحْزُنُهُمُ الفَزَعُ الأكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ المَلائِكَةُ ، هذا يَوْمُكُمُ الَّذِى كُنْتُمْ تُوعَدُون » [٣] .

---

(١) سورة الأنبياء ، من الآية ٧٩ .

(٢) سورة الأنبياء ، آية ٩٩ .

(٣) سورة الأنبياء ، الآيات ١٠٢ ، ١٠٣ .

من سورة الشعراء

« طسم . تِلْكَ آياتُ الكِتابِ المُبِين . لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ ألاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِين . إنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً فَظَلَّتْ أعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ. وَما يَأتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إلاَّ كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِين . فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأتِيهِمْ أنْباءُ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون »[1].

القوم فى مكة يجتمعون لحرب الرسول ، ويعملون كثيرا لعنته ومعاندته ، والآيات تنزل تباعا فيها وصف لحالهم ، وتهوين من شأنهم ، وتسفيه لعقولهم ، وتسلية للرسول ، بما يعرض عليه من أخبار الماضين ، وماعانى منهم الأنبياء ، وماعلى الرسول إلا الصبر كما صبر من قبله أُولو العزم من الرسل . فسورة الشعراء مكية ما عدا بعض آيات فى آخرها ، فإنها نزلت بالمدينة .

تبتدئ السورة بهذه الحروف الثلاثة « طسم » كما يبتدئ بمثل هذه الحروف كثير من السور ، وبعدها مباشرة « تِلْكَ آياتُ الكِتابِ المُبِين » ، وفى ذلك دليل على أن القرآن الكريم من هذه الحروف المبسوطة المعروفة لديهم ؛ فإذا عجزوا عن الإتيان بآية ، أو بآيات من مثله ، فقد ثبت عليهم العجز حقا . وكان الرسول يألم أشد الألم لعناد القوم ، فتصبره الآيات : « لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ ألاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِين » ، أى أشفق على نفسك فلا تبخعها ، ولا تقتل نفسك حسرات على ما فاتك من إسلام قومك .

وكان موقف المعاندين من الرسول لايخرج عن أمور ثلاثة : فهم إما معرضون عن الآيات ، وإما مكذبون بما فيها ، وإما مستهزئون بما جاء فيها من تهديد ووعيد ، « وَما يَأتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إلا كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِين . فَقَدْ كَذَّبُوا ، فَسَيَأتِيهِمْ أنْباءُ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون » .

وبعد أن تقرّر الآيات حالة القوم ، وماتنطوى عليه نفوسهم من إعراض وتكذيب

(١) سورة الشعراء ، الآيات ١ – ٦ .

واستهزاء ، تأخذ بيدهم لتلفتهم إلى ما تحت أرجلهم مما تنبت الأرض من نبات منوّع الأشكال ، مختلف فى الطعم والأُكُل ، ليرجع بهم الفكر إلى الإيمان بعد الاستدلال : « أَوَلَمْ يَرَوْا إلى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ! إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ » [١] . وهذه الآية « كَمْ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ » على قصرها جامعة للخير والنعمة التى أنعم الله بها على عباده ، فلفظة « كم » تفيد الكثرة ، ولفظة « كل » تفيد التعميم ، ولفظة « كريم » تفيد الخصب والنماء ، والحسن والنضارة ؛ فالنبات فى جميع بقاع العالم مختلف من كل زوج وصنف ونوع ، وهو مزدوج الخلق للكثرة والتوليد ، وكان هذا النظر كافيا لغرس الإيمان فى النفس ، ولكن أكثرهم مطبوع على قلوبهم ، غير مرجوّ إيمانهم . ومثلهم مَثَل فرعون وقومه : فقد كانوا فى جنات وعيون ، وكنوز ومقام كريم ، فلم يلتفتوا إلى هذه النعمة ، وظلوا على وثنيتهم من عبادة غير الله ، واعتبارهم الفراعين آلهة ، أو متلبسين بقدسية الآلهة ، فلم يأبهوا لدعوة الحقّ التى جاءت على لسان «موسى» عليه السلام ؛ وتجىء المناسبة فى الآيات طيعة هينة للتنظير بين قوم الرسول وقوم «موسى» عليهما السلام : فموسى قد أرسله الله إلى فرعون وملئه يؤيده بالمعجزات ، وبأخيه هرون ، فيعرض التوحيد على فرعون ، وتجرى بينهما محاورة ، هى فى الواقع محاورة بين الحقّ والباطل ، وبين التوحيد والوثنية ، وبين المادية وبيدها القوّة ، وبين الروحية يدفعها الحق ، ويؤيدها صاحبها بروح من عنده .

يعرض موسى أمر ربه على فرعون فيغضب ، ويقول « أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً ، وَلَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ . وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِى فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الكافِرِينَ » [٢] أى الكافرين بنعمة التربية ونعمة العفو ، لما قتلت نفسا بغير حقّ . فيردّ موسى : وهل نعمتك علىّ أن تستعبد قومى ! أما الفعلة فقد فعلتها وأنا من الضالين المخطئين ، « فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ، فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْماً

---

(١) سورة الشعراء ، الآيات ٧ ، ٨ .

(٢) سورة الشعراء ، الآيات ١٨ ، ١٩ .

وجعلني من المرسلين »[1] . يدعو « موسى » إلى عبادة ربّ العالمين ، فينكر فرعون ويقول : « وما ربُّ العالمين »؟![2] فيردّ « موسى » ويقول : « ربُّ السمواتِ والأرضِ وما بينهما إنْ كنتم مُوقنين » ، فيعجب فرعون لهذه الدعوى ، ويقول لمن حوله : « ألا تستمعون ؟! » . ولما لم يفهم فرعون « ما ربّ العالمين » ، و « ما ربّ السموات والأرض » ، قال له « موسى » : « ربُّكم ورَبُّ آبائكمُ الأوّلين »، فلا يسع فرعونَ إلا أن يرمي موسى بالجنون، ويقول لقومه : « إنّ رسولكمُ الذي أُرسِلَ إليكمْ لمجنون»، فيردّ «موسى» على فرعون وقومه ويقول : « ربُّ المشرقِ والمغربِ وما بينهما إنْ كنتم تعقلون » ، وكأنه يقول لهم : أنتم المجانين ، فلو كنتم تعقلون لفهمتم أن من يطلع الشمس من مشرقها، لتتخذ طريقها في سمت خاص ونظام خاص إلى مغربها، هو الله وحده ، وليس هناك من قوّة تستطيع أن تتصرّف في هذه الظواهر الفلكية كما يتصرّف خالقها . يبهت الباطل أمام الحقّ ، ويضطرب الباطل، فيعمد إلى التهديد ، ويقول فرعون: « لئن اتخذتَ إلهاً غيري لأجعلنّك من المسجونين » ، ويعلو الحقّ ولا يأبه بهذا التهديد ، فيقول على لسان « موسى » : « أولو جئتُك بشيءٍ مبين ؟![3] » وتظهر معجزة «العصا» ومعجزة « اليد » ، فتزيف كل ما اصطنع الباطل من أفاعيل السحر ، وأباطيل الأوهام ، ويخرّ السحرة على وجوههم ساجدين ، يقولون : « آمنّا بربّ العالمين . ربّ موسى وهرون »، ولكن الباطل عنيد ، فيهدّد فرعون سحرته، ويقول لهم : « إنّه لكبيرُكمُ الذي علّمكمُ السحر » ، ويتوعدهم بالتقتيل والتمثيل فلا يبالون ، بل يقولون : « إنّا إلى ربّنا منقلبون . إنّا نطمعُ أنْ يغفرَ لنا ربُّنا خطايانا أنْ كنّا أوّلَ المؤمنين »[4] .

تنتقل الآيات من قصص «موسى» وفرعون، إلى قصص «إبراهيم» وأبيه ؛ فيرى

---

(١) سورة الشعراء ، آية ٢١ .
(٢) سورة الشعراء ، من الآية ٢٣ .
(٣) سورة الشعراء ، الآيات ٢٤ – ٣٠ .
(٤) سورة الشعراء ، الآيات ٤٧ – ٥١ .

«إبراهيم» أن أباه وقومه يعبدون أصناما لاتنفع ولا تشفع ، فيسائلهم : ما تعبدون ؟ فيقولون : أصناما نظلّ لها عاكفين ، فيعجب لأمرهم ويقول : « هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ؟ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ » ، فيقولون : « وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ » [1] فيسفه آراءهم ، وينعى عليهم جهلهم ، ويسأل الله لنفسه ولأبيه السلامة ، يوم يبعث الناس لربّ العالمين ، فى يوم لاينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وبعد «إبراهيم» تسرد الآيات على الرسول الأمين أخبار « نوح » لما هدده قومه بالرجم ، فلم يملك إلا أن يلجأ إلى الله ويقول : « رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ . فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا ، وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » [2] .

وتستمرّ الآيات فى سرد قصص الأنبياء ، وما لاقوا من عنت ومشقة فى سبيل الدعوة إلى التوحيد ، وتوجيه الناس إلى خالقهم ، مخلصين له الدين ، لتسرّى عن خاتم الأنبياء ما ألمّ بنفسه من آثار الظلم والعنت ، ثم تأمره بأن يستمرّ فى نشر الدعوة ، خافضا جناحه لمن اتبعه من المؤمنين ، بريئا مما يعمل الظالمون ، متوكلا على العزيز الرحيم ، بعيدا عن الظالمين ، وعن نفث الشياطين ، متمسكا بالحقّ منتصرا له ، فالحقّ لابدّ أن ينتصر مادام صاحبه فى نصرته ، والباطل لابدّ مهزوم ، لأن عناصره متداعية ، « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » [3] .

---

(١) سورة الشعراء ، الآيات ٧٢ – ٧٤ .

(٢) سورة الشعراء ، الآيتان ١١٧ ، ١١٨ .

(٣) سورة الشعراء ، آية ٢٢٧ .

من سورة آل عمران

« إنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وآلَ إبْرَاهِيمَ وآلَ عِمْرَانَ على العَالَمِين ، ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ، واللهُ سَمِيعٌ عَلِيم . إذْ قالَتِ امْرأةُ عِمْرَانَ رَبِّ إنِّى نَذَرْتُ لَكَ ما فِي بَطْنِى مُحَرَّرًا ، فَتَقَبَّلْ مِنِّى إنَّكَ أنْتَ السَّمِيعُ العَلِيم . فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قالَتْ رَبِّ إنِّى وَضَعْتُهَا أُنْثَى ، واللهُ أعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ، ولَيْسَ الذَّكَرُ كالأُنْثَى ، وإنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَم ، وإنِّى أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيم . فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وأنْبَتَهَا نَباتاً حَسَنًا ، وكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ، كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ، قالَ يا مَرْيَمُ أنَّى لَكِ هَذَا ، قالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، إنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ . . . »[1] .

ذكرت قصة المسيح وأمّه مريم فى سورة « آل عمران » ، كما ذكرت فى سورة أفردت للقصة كلها ، وكما ذكرت فى بعض آيات أخرى من سور متعدّدة . والغرض من هذا التكرار فى القرآن الكريم من الناحية الخلقية ، الإلحاحُ بالذكرى والموعظة لتثبيتها ، وإقرارها فى موطن العقيدة من النفس . ومن الناحية البلاغية أن الموضوع الواحد يعرض فى معارض مختلفة من البيان وحسن الأداء ، واختلاف العبارة ، وتداولها على المعنى الواحد . ذلك سرّ من أسرار الإعجاز ينفرد به القرآن البالغُ مرتبة السموّ ، ومرتبة ما فوق السموّ التى تعجز البشر ؛ ومتى ثبت العجز ، ثبت الإعجاز ، وحقت كلمة الله ، من أنه الحق لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

ويتحدّث من يتعرّض للقصص من المفسرّين أن امرأة عمران أمّ مريم ، كانت عاقرا . واستمرّت كذلك إلى أن أدركتها الشيخوخة ، وبينا هى فى ظل شجرة ، إذ بَصُرت بطائر يُطعم فرخا له ، فتحركت فى نفسها عاطفة الأمومة ، وتمنت الولد ، ورفعت بصرها إلى السماء وقالت : « اللهمّ إن لك علىّ نذرا ، شكرا ، إن رزقتنى

(١) سورة آل عمران ، الآيات ٣٣ – ٣٧ .

ولدا، أن أتصدّق به على بيت المقدس، ليكون من سدنته وخدمه . فحملت بمريم التى حملت بعدُ بالمسيح « عيسى بن مريم » ، ذلك معنى قوله تعالى : « إذْ قالَتْ امْرأةُ عِمْرانَ ، رَبِّ إنّى نَذَرْتُ لَكَ ما فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا » أى خالصا لعبادتك ولخدمة بيتك الكريم « فَلَمّا وَضَعَتْها ، قالَتْ رَبِّ إنّى وَضَعْتُها أُنْثَى ، وَاللهُ أعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ » . ويظهر أنها كانت تتمنى أن تضع ولدا ذكرا ، كما هى غاية كل أمّ ، أو كما هو الحال فى أن القبائل العبرية كالقبائل العربية، تعتزّ بالولد، وتعدّه فخرا للقبيلة، وحفظا لتسلسل الأنساب ، وفى الآية « وَاللهُ أعْلَمُ بِمَا وضَعَتْ » ، الإشارة إلى ماسيكون عليه شأن «مريم» من إجراء المعجزة على يديها فى ولادتها المسيح ، « وَلَيْسَ الذَّكَرُ كالأُنْثَى » فى زعم الأم ، وفى إرادة الله ، فليس الذكر الذى طلبت ، كهذه الأنثى التى وُهبت ! وسمتها أمها « مريم » ، ومعناها فى لغتهم : العابدة المخلصة . وطلبت من الله أن يُعيذها وذرّيتها من الشيطان الرجيم .

وكانوا يتصوّرون كما يتصوّر أهل الخرافة اليوم، أن المولود يولد صارخا، لأن الشيطان يمسه ، فيطمعُ فى غوايته ، وتُغالى هذه الخرافة ، فتستند إلى قوله تعالى : « وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أجْمَعِين . إلاّ عِبادَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصِين »[1] ، والحقّ أنه معنى خيالى يصلح للشعر لاللحقيقة ، لذلك ورد فى قول ابن الرومىّ :

لِمَا تُؤْذِنُ الدنيا به مِنْ صُرُوفِها يَكُونُ بُكاءُ الطِّفْلِ ساعَةَ يُولَدُ

« فَتَقَبَّلَها رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَن » أى تولاها فى نشأتها الأولى ، « وأنْبَتَها نَباتاً حَسَنا » حتى تستعدّ لهذا الأمر العظيم الذى سيظهر على يديها فى حملها بالمسيح . ويقال : إن أمها حين وضعتها لفتها فى خرقة ، وحملتها إلى المسجد . ووضعتها عند الأحبار من أبناء «هرون» ، وقالت لهم : «دونكم هذا النذر» . فتنافسوا على أخذها وتربيتها ، حتى قال لهم « زكريا » : أنا أحقّ بها منكم ، فأنا زوج خالتها « وكَفَّلَها زَكَرِيّا » ، على أنه لم يكفلها إلا بعد الاقتراع عليها مع سائر الأحبار ، وكان عددهم سبعة وعشرين

---

(١) سورة الحجر ، الآيتان ٣٩ ، ٤٠ .

ألقوْا أقلامهم فى النهر . فرسبت الأقلام جميعا . وطفا قلم «زكريا» على سطح الماء فكانت من نصيبه ، وبنى لها محرابا خاصا فى المسجد . وَ « كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا المِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقا » ، فإذا سألها من أين لك هذا ؟ « قالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، إنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِساب » ، والرزق هنا : البركة التى يكفل الله بها عباده المخلصين ؛ يفسر ذلك ما ورد عن الرسول ، من أنه جاع فى زمن قحط ، فأهدت له «فاطمة» ابنته شيئا من الخبز واللحم آثرته به ، فأخذه الرسول ، ووضعه فى طبق وغطاه ، ولما كشفت عنه «فاطمة» وجدته مملوءا لحما وخبزا ، فهتت ، فسألها الرسول : أنى لك هذا ؟ فقالت : هو من عند الله ، فقال الرسول : « الحَمْدُ لِلهِ الَّذى جَعَلَكِ شَبِيهَةَ بِسَيِّدَةِ نِساءِ بَنِى إسْرائِيل » ، فأكل الرسول ومعه «علىّ» وولداه «الحسنُ والحسين» وسائر أهل بيته ، تلك هى البركة ، وذلك سرّ القناعة ، وبهما عرف الرسول عليه الصلاة والسلام فى كثير من غزواته ، كان يأكل ومعه المئات من المحاربين ، من أطباق لاتكفى العشرات من سائر الناس !

وقبل أن تتحدّث الآيات عن المعجزة الكبرى ، وهى ولادة « المسيح » ، تتحدّث عن معجزة أقلّ منها ، هى ولادة « يحيى » من أبوين ، بلغ بهما الكبر مبلغا لاينتظر منه الخلف والولد ، فزكريا لما رأى من نجابة ابنة أخت زوجته ، ودّ لو أن له ولدا فى كرامة «مريم» ومنزلتها ، فدعا ربه قائلا : « رَبِّ هَبْ لى مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ، إنَّكَ سَمِيعُ الدُّعاء » [1] « فَنادَتْهُ المَلائِكَةُ وَهُوَ قائِمٌ يُصَلِّى فِى المِحْرابِ أن اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ » [2] . أى مصدّقا بعيسى ابن خالته ، الذى جاء بأمر الله ، وبكلمة منه ، وبنفخة من روحه ، وسيكون «يحيى» سيدا وحصورا ، أى بعيدا عن الصغائر والدنايا ، كأنه محصّن عنها ، وهو فوق ذلك نبىّ من الصالحين . يتعجّب «زكريا» لهذا الوحى ، وهذا الإلهام الإلهى ، فيقول : «رَبِّ أنَّى يَكُونُ لى غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ الكِبَرُ ، وامْرَأتِى عاقِرٌ ؟ قالَ كَذلِكَ اللهُ يَفْعَلُ ما يَشاء » [3] يزداد عجب «زكريا» ويزداد تطلعه إلى هذه المنة

(١) سورة آل عمران ، آية ٣٨ .
(٢) سورة آل عمران ، آية ٣٩ .
(٣) سورة آل عمران ، آية ٤٠ .

التى لاينتظرها ، فيقول : « رَبِّ اجْعَلْ لى آيَة » ، أى علامة أعرف بها أن امرأتى حامل ؛ قال : « آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أيَّامٍ إلاَّ رَمْزا » [١] ، أى أنك لاتستطيع القدرة على الكلام ، فى حين أن ملكة الكلام موجودة ! وأنه لم يصب بالصمم ، بل أصيب بالصمت وهو قادر على الكلام ! وهذه العلامة تشبه ما كان من أمره مع امرأته ، فقوّة الإخصاب موجودة فيه ، وقوّة الإنتاج موجودة فى زوجته ، ولكنها معطلة ، حتى أذنت بها إرادة الله ، كما أن قوّة الكلام موجودة ، ولكنها معطلة إلى حين ، ومع تعطيل الكلام أُمِرَ زكريا بأن يذكر ربه كثيرا بالعشىّ والإبكار ، أى من مغيب الشمس إلى الضحى ، فهو صامت ذاكر ! كما أن امرأته ولود عاقر ! وكذلك تمت المعجزة الأولى ، معجزة الإنتاج فى غير الأوان ، أو بعد فوات الأوان . والمعجزة الثانية أجلّ وأعظم ، فالأولى ولادة من عجوز ، ولكن معجزة المسيح ولادة من لاشىء ، إلا من أمر الله الذى يخلق بكلمة : « كن فيكون » ، لذلك ذكرت معجزة المسيح بعد ظاهرة « زكريا » وزوجته ، فالملائكة تنادى مريم « إنَّ اللهَ اصْطَفاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفاكِ على نِساءِ العالَمين » [٢] ، فالاصطفاء الأول بالإنبات الحسن وكفالة زكريا ، والاصطفاء الثانى بهبة المسيح من غير أب ، لذلك أُمِرَتْ بالشكر لله وحده ، وبعدم المبالاة بالناس « يا مَرْيَمُ اقْنُتِى لِرَبِّكِ وَاسْجُدِى وَارْكَعِى مَعَ الرَّاكِعِين » [٣] . أما بقية القصة فقد ذكرت فى سورة مريم مع كثير من التفصيل .

هاتان قصتان قصهما القرآن على نبينا الكريم ، وقصهما هذا النبىّ على قومه ، ولم يجلس إلى مؤرّخ يعلمه تاريخ الأقدمين ! ولم يكن قارئا حتى يقرأ ما دوّن الأقدمون ! فهما من غير شكّ من أنباء الغيب ، أوحاها الله إلى رسوله « وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إذْ يُلْقُونَ أقْلامَهُمْ » للقرعة ولمعرفة « أيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ؟ وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إذْ يَخْتَصِمُونَ »

---

(١) سورة آل عمران من الآية ٤١ .
(٢) سورة آل عمران ، من الآية ٤٢ .
(٣) سورة آل عمران ، من الآية ٤٣ .
(٤) سورة آل عمران ، آية ٤٤ .

ثم تستمرّ الآيات ، فتصف المسيح بكلّ أوصاف النبوّة والاصطفاء ، فهو ابن مريم ، وإن كان من روح الله وكلمته ! وهو الوجيه فى الدنيا والآخرة ، ومن المقرّبين ، وهو الذى يكلم الناس فى المهد وكهلا ، أى صغيرا وكبيرا ، ينطق بالحكمة وفصل الخطاب ، لاتفرّق بين عقله فى طفولته ، وبين حكمته فى رجولته ؛ وهو الذى علّم الناس الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، وهو الذى جاء بالبينات والآيات ، وهو الذى يخبركم بما تأكلون وبما تدّخرون فى بيوتكم . ذلك دفاع مجيد عن المسيحية ، وعن الأديان الصحيحة كلها ، انفرد به الإسلام ، الذى قرّر المسيحية ، والذى شرع للناس فى الأديان ما وصّى به نوحا ، والأنبياءَ بعده ، وبذلك يَبْعُد الإسلام عن التعصب الذميم الذى يُرمىَ به ! فهو الداعى إلى الوحدانية بأظهر معانيها ، وإلى الصراط المستقيم بأوسع ما تحمله الكلمة من فضائل الأخلاق ، لم يقل الإسلام إلا ما قرّرت الأديان الصحيحة من قبل : « فاتَّقُوا اللهَ وأطِيعُون . إنَّ اللهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فاعْبُدُوهُ ، هَذا صِرَاطٌ مُسْتَقِيم »[1] .

---

(١) سورة آل عمران ، آية ٥٠ ، ٥١ .

سورة المائدة

تمجيد القرآن للمسيح وأمه ، محاورة بين المسيح والحواريين

طلب المائدة

سورة المائدة سورة مدنية إلا آية « اليَوْمَ أكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وأتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، ورَضِيتُ لَكُمُ الإسْلامَ دِينا »[1] . فإنها نزلت بعرفة فى حجة الوداع ؛ ولما قرأها الرسول قال : « أيُّها النَّاس ! إنَّ سُورَةَ المَائِدَةِ مِنْ آخِرِ القُرْآنِ نُزُولا ، فأحِلُّوا حَلالَهَا ، وحَرِّمُوا حَرَامَهَا » . وخصّ الرسول هذه السورة بهذا التنبيه ، لأن الله أنزل فيها كثيرا من الأحكام : ففيها أحكام المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة ، وفيها شرح لعادات الجاهلية من الذبح على النصب ، ومن الاستقسام بالأزلام ، وفيها بيان لطعام أهل الكتاب ، وبيان الأحكام فى الطهارة ، والأحكام فى جناية السرقة ، وقتل الصيد فى الحرم ، وفيها بيان لعادات الجاهلية ، وما كانوا عليه من معتقداتهم فى الحيوان ، كالبَحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وفيها الوصية عند الموت ؛ وتختتم السورة بعد هذا التوحيد بالرجوع إلى الله وحده ، ونفى الشرك ، والردّ على من ادّعاه فى الديانات الأخرى .

وسيعلم الناس ذلك فى يوم الجمع « يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ماذَا أُجِبْتُمْ » ؟ وبماذا أجابتكم أممكم ، والله سبحانه عليم بما كان منهم ! ولكن النكال فى العذاب يقتضى هذا السؤال وهذا التنكيل ، فتجيب الرسل : « لاعِلْمَ لَنا ، إنَّكَ أنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوب »[2] ، أى لاعلم لنا كعلمك ، إن علمنا يقف عند حدّ الظواهر ، وأنت تعلم السرّ وأخفى ، وأنت علام الشواهد والغيوب !

وتختتم السورة بحوار بديع على لسان «عيسى» فى مناجاة بينه وبين ربه ، وفى هذا الحوار بيان لطهارة المسيح ، وطهارة أمه وقداستها الى تبعدها عن الشكوك والريب ،

---

(١) سورة المائد ، آية ٣ .

(٢) سورة المائدة ، آية ١٠٩ .

يمتنّ الله على «عيسى» ويعدّد نعمه عليه فى قوله : « إذْ قالَ اللهُ يا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعلى وَالِدَتِك » . والسياق مضطرد فى الآيات ، ففيها ردّ على ما أجاب به قوم المسيح ، فكل نبىّ خولف وكذّب ، أما من كذّب المسيح ، فقد تعرّضوا له ولأمه الصدّيقة القديسة ، فنعمة الله على مريم أمه ، أنه أنبتها نباتا حسنا ، وطهرها ، واصطفاها على نساء العالمين ، ووصفها بأنها صدّقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ، ونعمته على المسيح أنه مؤيد بروح القُدُس ، فهو مؤيد بمعونة الله ، وروحه طاهرة نقية ، مصفاة مصطفاة « تُكَلِّمُ النَّاسَ فى المَهْدِ وكَهْلاً » [1] ، أى لافرق بين طفولته ورجولته ، من حيث اكتمال العقل ، وصدق الحسّ ، وسلامة التفكير ؛ أوتى الحكم صبيا ، وعلمه الله الكتابة والحكمة ، وعلمه ما فى التوراة والإنجيل ، وبعد أن أيده الله بالعلم والحكمة منذ طفولته ، أيده بالمعجزات ، فكان يبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله ، وأيده بالحفظ من أعدائه ، فكفّ عنه بنى إسرائيل لما جاءهم بكل بينة وكل معجزة .

ومع ذلك كذّبوا ما أتى به من البينات المادية والمعنوية ، « فَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إنْ هَذَا إلاَّ سِحْرٌ مُبِين » . ومن تأييد الله له ، أن نصره بالحواريين ، وهم أصحابه وخواصه الذين آزروه ونصروه ، والذين ألهمهم الله أن يؤمنوا به وبرسوله ، فآمنوا بقلوبهم ، ثم أعلنوا إسلامهم ، فقالوا : « وَاشْهَدْ بأنَّنا مُسْلِمُون » [2] .

وكان بعض الحواريين ككل الأمم القديمة — يؤمنون بالمادة ولا يصدّقون إلا ما تقع عليه أعينهم ؛ فأصحاب موسى قد قالوا : « لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً » فأخذتهم الصاعقة . وأصحاب محمد قد قالوا : « لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الأرْضِ يَنْبُوعا ، أوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنْهارَ خِلالَهَا تَفْجِيرا . أوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَمَا

---

(١) سورة المائدة ، من الآية ١١٠ .

(٢) سورة المائدة ، آية ١١١ .

زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفا ، أوْ تَأتِيَ بالله وَالمَلائِكَةِ قَبِيلا . أو يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أوْ تَرْقَى فِي السَّماء ، وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُه » فردّ عليهم الرسول هذا الردّ الذى يسخر من عقليتهم وتعنتهم : « سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إلاّ بَشَرًا رَسُولا »[1] .

كذلك قوم «عيسى» طلبوا مائدة من السماء، وقالوا: « هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماء » ، وفى قراءة: هل تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ ، فعلى القراءة الأولى يكون الشكّ فى الألوهية، وعلى القراءة الثانية يكون الشكّ فى الرسالة! يَعجَب «عيسى» من سؤالهم ويقول : « اتَّقُوا اللهَ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين »[2] ، فمن آمن بقلبه لايحتاج إلى عناد ومطالبة بأشياء ماديّة يظنونها مستحيلة ، وهى على الله هينة « قالُوا نُرِيدُ أنْ نَأْكُلَ مِنْها وتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا ، وَنَعْلَمَ أنْ قَدْ صَدَقْتَنا، ونَكُونَ عَلَيْها مِنَ الشَّاهِدِين[3]» . سأل عيسى ربه ما كلفوه إياه، فقال : « اللَّهُمَّ رَبَّنا أنْزِلْ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ تَكُونُ لَنا عِيداً لأوَّلِنا وآخِرِنا، وآيَةً مِنْكَ، وَارْزُقْنا وأنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِين»[4] وعدهم الله بإنزالها فقال : « إنِّي مُنَزِّلُها عَلَيْكُمْ » ولكنه أوعدهم بأن من يكفر بعد نزول المائدة « فَإنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابا» أى أعدّ له ضعفا من العذاب «لاأُعَذِّبُهُ أحَدًا مِنَ العالَمِين»[5] . ويقول بعض المفسرين : إن الحواريين خافوا وعيد الله ، وخافوا على الناس أن يكفروا بعد هذه الآية ، فأمسكوا عن طلب نزول المائدة .

تختتم السورة بمحاورة بديعة ، فيها تصوير للحقّ والباطل فى أمر المسيح « وَإذْ قالَ اللهُ يا عِيسَى بْنَ مَرْيَم، أأنْتَ قُلْتَ للنَّاسِ اتَّخِذُونِي وأُمِّيَ إلَهَيْنِ مِنْ

---

(١) سورة الإسراء ، الآيات ٩٠ – ٩٤ .
(٢) سورة المائدة ، من الآية ١١٢ .
(٣) سورة المائدة ، آية ١١٣ .
(٤) سورة المائدة، آية ١١٤ .
(٥) سورة المائدة ، من الآية ١١٥ .

دُونِ اللهِ » ؟ سؤال لايقصد به المسيح نفسه ، وإنما يقصد به الإنكار على من أضفى عليه وعلى أمه صفة الألوهية المطلقة، فيردّ المسيح ويقول : «سبحانك» ربى وتنزّهت عن الشرك « ما يَكُونُ لى أنْ أقُولَ ما لَيْسَ لى بِحَقّ » ، أى لاأدّعى ما ليس بحقّ ، ولا أدّعى ما لاأستحق « إنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَه ، تَعْلَمُ ما فِى نَفْسِى » أى ما فى كيانى وحقيقتى « وَلا أعْلَمُ ما فِى نَفْسِك » أى ولا أعلم لك حقيقة أو كيانا « إنَّكَ أنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوب . ما قُلْتُ لَهُمْ إلاَّ ما أمَرْتَنِى بِهِ » من التوحيد : «أنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ، وكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى » ، أى لما وفيت واجبى ورفعتنى إليك « كُنْتَ أنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ، وأنْتَ على كُلِّ شَىْءٍ شَهِيد » [1] . أى شهدت ما قلت ، وشهدت ما عملوا بعدى . إن تعذّبهم بمقالتهم فأنت تملك منهم كل شىء ، وهم عبادك ، وإن تغفر لهم إذا رجعوا إليك ، فإنك أنت العزيز الغالب على أمره ، والحكيم الذى تجرى أعماله وفق الحكمة والعدل ، قال الله : « هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ، لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأنْهارُ خالِدِينَ فِيها أبَداً ، رَضِىَ اللهُ عَنْهُمْ ، وَرَضُوا عَنْه ، ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيم » . [2] « لِلهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأرْضِ وما فِيهِنّ » ومن له ملك السموات والأرض وما فيهن ، هو الذى يعبد ويستحقّ العبادة ، لأن الله خالق كل شىء « وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِير » [3] .

---

(١) سورة المائدة ، الآيات – ١١٦ ، ١١٧ .

(٢) سورة المائدة ، آية – ١١٩ .

(٣) سورة المائدة ، آية ١٢٠ .

من سورة هود

« وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ، إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ ، وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ . وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ، وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ . بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ . . . »[1]

أرسل الله « نوحا » إلى قومه فكذّبوا فأُغرقوا ، وأرسل « هودا » إلى عاد فكذّبوا فبادوا وأصبحوا لاترى إلا مساكنهم ، وأرسل « صالحا » إلى ثمود فكذّبوا ، فأخذتهم الصيحة ، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . وهاهى ذى الآيات تتعرّض لشعيب لما أرسل إلى أهل مدين ؛ ومدين هى المنطقة إلى جانب خليج العقبة من الناحية الشرقية ، كان أهلها تجارا ، وكانوا على جانب من الثراء والغنى موفور ، فدعاهم « شعيب » نبيهم إلى عبادة الله أولا « يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ » . ثم دعاهم إلى احترام حقوق الناس فى التجارة ، وإلى الامتناع عن السرقات التى دأبوا عليها ، « وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ » لأنكم لستم فى حاجة إلى هذه السرقات الحقيرة . « إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ » أى أراكم فى وفرة من الغنى تغنيكم عن التطفيف فى الكيل والميزان ، وأراكم بخير من نعمة الله ، ومن رعاية النعمة زيادتها بالشكر ، لازيادتها بالسرقات ! « إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ » : يحيط بكم ، فيأتى على أموالكم ، فيذهب ماعندكم من المكيل والموزون ، ويذهب بما تغتصبونه من التطفيف فى الكيل والميزان .

ولأهمية موضوع المبادلة والأخذ والعطاء ورعاية العدالة فى أرزاق الناس ، كرّرتها الآيات فى صور ثلاث : أولا فى النهى « لاتَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ » ،

---

(١) سورة هود ، الآيات ٨٤ – ٨٦ .

وثانيا فى الأمر « وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ » . وثالثا فى نهى عامّ يشمل أنواع المبادلات والمعاملات المادّية والأدبية ، فى عبارة « وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ » . والبخس : هضم الحقوق والانتقاص منها : فالأجير إذا لم يأخذ أجرته كاملة فقد بخسته حقه ، والأجير إن لم يقم بعمله كاملا فقد بخس حقّ من يقوم له بالعمل ، والمحسن إذا قابله الناس بالإساءة فقد بخسوه حقه ، ومن قدّم خيرا لوطنه أو لأمته ثم أنكره عليه قومه ، فقد بخسوه حقه ، ومثل هؤلاء المطففين الذين يبخسون حقوق الناس ، كمثل اللصوص وقطاع الطريق ، يشيعون الفساد ، ولا يأمن الناس معهم على منفعة أو على كرامة ، والآية تقرنهم جميعا فى سياق واحد « أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ، وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » . والمؤمن من يبتعد عن الحرام ، ويكتفى بالحلال من الرزق ، والحلال من الكسب الشريف والمجهود الشريف ، فالحلال هو البقيّة الصالحة عند الله ، وهو البقيّة الصالحة من المال الذى يُبارك فيه ، « بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » . هذا ما قاله شعيب لقومه ، دعاهم إلى عبادة الله ، وإلى احترام الحقوق ، وإلى البعد عن المفاسد ، وإلى ادّخار العمل الصالح « وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا » [1] .

« وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ » أى ما بعثت لأحفظ عليكم أعمالكم ولأراقبكم ، إنما بعثت لأنبهكم ناصحا مخلصا فى النصيحة ، مرشدا مخلصا فى الإرشاد . وكان شعيب كثير الصلاة كثير التسبيح ، فردّ عليه قومه ردّا فيه سخرية ، وفيه تعريض بصلاته . قالوا ياشعيبُ : « أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ، أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ؟ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ » ! [2] ، والحليم لايسفه عقائد الآباء ، والرشيد لايأمر بضياع الأموال ! ! يردّ عليهم « شعيب » : « يَا قَوْمِ ! أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ » يقول لهم : خبرونى ما دمت فى زعمكم

---

(١) سورة الكهف ، من آية ٦٤ .

(٢) سورة هود ، آية ٨٧ .

حليما ورشيدا ، أيصحّ لى — وأنا على بينة من ربى ، ورزقنى ربى من لدنه رزقا حسنا من نعمة الإيمان ونعمة المال — أن أترككم إلى عبادة الأوثان وخسران الميزان . « وَما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ » : أى لاأريد أن أنهاكم عن شىء وأسبقكم إليه ، ما أريد بموعظتى ودعوتى إلا الإصلاح ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، « وَما تَوْفِيقِى إلاَّ بالله عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيب » . ثم يدعوهم فى رفق إلى ترك عداوته ، ويحذّرهم فى شدّة أن شقاقه وعداءه يجرّ عليهم الويلات ، « وَيا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِى أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ ما أَصابَ قَوْمَ نُوحٍ » من الغرق « أَوْ قَوْمَ هُودٍ » من الريح المهلكة « أَوْ قَوْمَ صالِحٍ » من الصيحة التى أهلكتهم جميعا « وَما قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ » ؛ إن ديارهم مجاورة لدياركم وقد علمتم ما حلّ بهم . « وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ »[1] . هذا هو الحوار البليغ الذى ذكره القرآن على لسان «شعيب». وكان الرسول عليه الصلاة والسلام إذا ذكر «شعيبًا» يقول : « ذَلِكَ خَطِيبُ الأَنْبِياءِ ، لِحُسْنِ مُراجَعَتِهِ قَوْمَهُ » ، ومع ذلك يردّ عليه قومه ويقولون : « يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُول » أى لانفهم شيئا مما تقول ، لأن الله ختم على قلوبهم « وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوه »[2] ، أو أنهم فهموا ، ولكنهم لا يريدون أن يخلص الفهم إلى قلوبهم ؛ وهذا المعنى يناسب قولهم : « وَإِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفا وَلَوْلا رَهْطُكَ » جماعتك « لَرَجَمْناكَ وَما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ »[3] . قال شعيب : « يا قَوْمِ أَرَهْطِى أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ » ؟ أى أتكرموننى من أجل جماعتى ، تراعون حقهم ولا تراعون فىّ حقّ الله ! وتتركون ذكره وراء ظهوركم ! إن أمركم إلى الله « إِنَّ رَبِّى بِما تَعْمَلُونَ مُحِيط »[4] .

---

(١) سورة هود ، من الآية ٨٨ — ٩٠ .

(٢) سورة الكهف ، من الآية ٥٧ .

(٣) سورة هود ، آية ٩١ .

(٤) سورة هود ، آية ٩٢ .

وتنتهى المحاورة بين « شعيب » وقومه بهذا التهديد الذى يأتى من بعده العذاب ، فيقول لهم : « اعْمَلُوا على مَكانَتِكُمْ » أى اعملوا قادرين على الشرّ ، واعملوا متمكنين من عداوتى ، « إنّى عامِلٌ » على حسب ما يؤتينى الله من القوّة والمكانة والتأييد « سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كاذِبٌ » أى ستعلمون أينا يأتيه عذاب الخزى ، وأينا الكاذب ؟ « وَارْتَقِبُوا إنّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ » [1] .

بعد هذا الجدل العنيف ، وبعد هذه المكابرة بين الحقّ والباطل ، وبين الضلالة والهداية ، وبين الخير والشرّ ، لم يبق إلا أمر الله ، ونجاة « شعيب » ومن معه وترك الجاحدين : « وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ، وأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فأَصْبَحُوا فِى دِيارِهِمْ جاثِمِينَ » [2] صرْعَى من الهلاك « كأَنْ لَمْ يَغْنَوا فِيها » : كأنهم لم يكونوا فى هذه الأرض ينعمون بخيراتها ويغنون من الإقامة فيها ، وبَعِدَت مدين من الوجود ، كما بَعِدَت ثمود .

ثم تضطرد الآيات فتذكر قصة « موسى » مع فرعون ، وتبين أنه كما قادهم فى الدنيا إلى الغرق ، سيقودهم فى الآخرة إلى الحريق ، ذلك من أنباء القرى ، يقصها الله على رسوله ، ليثبت فؤاده ، ويقصها على عباده لتمثل العبرة ، ولبيان مكان العدالة فى تطبيق الأمر الإلهى « وَما ظَلَمْناهُمْ ، وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِى يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَىْءٍ لَمَّا جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ » . «وكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إذا أَخَذَ القُرَى وَهِىَ ظالِمَةٌ إنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ» [3] .

---

(١) سورة هود ، آية ٩٣ .

(٢) سورة هود ، آية ٩٤ .

(٣) سورة هود ، من الآية ١٠١ ، ١٠٢ .

من سورة هود

« وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الكِتابَ فاخْتُلِفَ فِيهِ ، وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ . وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمالَهُمْ إِنَّهُ بِما يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . فاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَمَنْ تابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا ، إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ، وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِياءَ ، ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ . . . » [1] .

سورة « هود » ككل السور المكية مملوءة بالقصص ، يسرده القرآن الكريم على الرسول الكريم للتأسى ، وضرب الأمثال ، وعرض الشواهد على العرب فى آيات بينات ، أحكمت ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير . فنوحٌ أرسل إلى قومه فسخروا منه وهو يصنع الفلك استعدادا لنقمة الطوفان ، فلما جاءهم أمر الله لم ينج منه إلا من آمن « وما آمن معه إلا قليل » . « وهود » أُرسل إلى عاد يطلب منهم الاستغفار والتوبة ، فردّوه ردّا عنيفا ، ولم يملك إلا أن يقول لهم : « إِنِّى أُشْهِدُ اللهَ ، واشْهَدُوا أَنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ » [2] . و« صالحٌ » أرسل إلى « ثمود » فكذّبوه « وأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فأَصْبَحُوا فِى دِيارِهِمْ جاثِمِينَ » [3] . وأرسل الرسل إلى قوم « لوط » فكذّبوا ، فجاءهم أمر الله الذى جعل عالىَ مدنهم سافلَها « وَما هِىَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ » [4] . وأُرسل « شعيب » إلى « مدين » ، فأمرهم باحترام حقوق الناس فى الكيل والميزان ، وحذّرهم أن يصيبهم مثلُ ما أصاب قومَ « نوح » أو قوم « هود » أو قوم « صالح » ، فتجاهلوا أمر الله وقالوا : « يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِيرا مِمَّا تَقُولُ ، وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينا ضَعِيفًا ، وَلَوْلا رَهْطُكَ

---

(١) سورة هود ، الآيات ١١٠ – ١١٣ .
(٢) سورة هود ، من الآية ٥٤ .
(٣) سورة هود ، من الآية ٨٧ .
(٤) سورة هود ، من الآية ٨٣ .

لَرَجَمْناك ، وَما أنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيز »[١] ، ولما يئس منهم قال : « إنِّى عامِلٌ ، سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأتِيه عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كاذِب ، وَارْتَقِبُوا إنِّى مَعَكُمْ رَقِيب »[٢] . و« موسى » أرسل إلى « فرعون » وملئه ، فأهملوا أوامر الله فيه « وَاتَّبَعُوا أمْرَ فِرْعَوْن ، وَما أمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيد »[٣] . كل « ذَلِكَ مِنْ أنْباءِ القُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ، مِنْها قائِمٌ وَحَصِيد »[٤] ، « وكَذَلِكَ أخْذُ رَبِّكَ إذا أخَذَ القُرَى وَهِيَ ظالِمَة ، إنَّ أخْذَهُ أليمٌ شَدِيد »[٥] .

وبعد أن قصت الآيات قصَص هؤلاء المخالفين المعاندين ، تتجه إلى محمد صلى الله عليه وسلم لتقول له : « فَلا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاء » ، أى فلا تشكّ بعد ما علمت سوء عاقبة الماضين : أن هؤلاء المكذّبين سيصيبهم مثل ما أصاب الأوّلين ، فالعناد واحد ، والجحود واحد ، وما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل ، ولَيَنْزِلَنّ بهم أيضا ما نزل بآبائهم من قبل « وَإنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوص »[٦] ، فإن كذّبوا القرآن فقد اختلف أصحاب « موسى » فى الكتاب ، وإنهم لفى شكّ منه مريب « وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ » أى لولا أن سبقت إرادة الله أن لاعذاب إلا بعد إنذار ، لقُضِى بينك وبين قومك ، وحقت عليهم كلمةُ العذاب ، ولكن سبقت إرادة الله بإمهالهم ، وسَبقت إرادته بأنك رحمة للعالمين ، فلا يُعجِّلُ لقومك بالعقوبة كما عُجِّل بها للأمم قبلهم ، وهؤلاء المختلفون فى قرآنهم كالمختلفين فى كتبهم « لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أعْمالَهُمْ إنَّهُ بِما يَعْمَلُونَ خَبِير »[٧] .

هذا ما كان من أمرهم ، أما ما ينبغى أن يكون من أمرك وأمر من معك ،

---

(١) سورة هود ، آية ٩١ .
(٢) سورة هود ، آية ٩٣ .
(٣) سورة هود ، من الآية ٩٧ .
(٤) سورة هود ، آية ١٠٠ .
(٥) سورة هود ، آية ١٠٢ .
(٦) سورة هود ، آية ١٠٩ .
(٧) سورة هود ، من الآية ١١١ .

« فاستَقِمْ كما أُمِرْتَ وَمَنْ تابَ مَعَكَ » أى فسِرْ على جادّة الحق لاتعدل عنها أنت ومن تاب معك ورجع عن جحوده وإنكاره ، « وَلا تَطْغَوْا » أى لاتتجاوزوا الحدود التى رسمها الله لكم « إنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِير . وَلا تَرْكَنُوا إلى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِياءَ ثُمَّ لاتُنْصَرُون »[1] ، فمن يركن إلى الظالم ويعتمد عليه اعتمادا ولو يسيرا ، كان جزاؤه أن يُمسّ بالنار ، أما جزاء الظالم نفسه فأشدُّ وأقسى . إن هؤلاء الذين يركنون إلى الحكام ويعتمدون عليهم إنما يعتمدون على غير معتمَد ، وما لهم من دون الله من ولىّ ولا نصير . وكان المسلمون قبلا يقولون : إن الدين بين لا مَيْنِ : « لاتطغوا » ، « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا » ، وفى هاتين العبارتين كلُّ العلاقات بين الحاكم والمحكوم ، فإذا كان الحاكم طاغيا ، وإذا ركن بعض المحكومين إلى الذين ظلموا ، ضاعت كل معالم الحقّ ، وفسد المجتمع . ولا يُطغِى الطاغية مثل قبول الناس لطغيانه ، ورضاهم عن عمله .

وكان «الزهرىّ» المحدثُ العظيم يختلط ببعض الحكام المشهورين بالظلم ، فكتب له واحد من إخوانه يقول : « إن أيسر ما ارتكبت ، وأخفّ ما احتملت ، أنك آنست وحشة الظالم ، وسهّلت سبيل البغى ، بدنوّك ممن لم يؤدّ حقا ، ولم يترك باطلا . إنه حين أدناك اتخذك قطبا تدور عليه رحَى باطله ، وجَسْرا يعبر عليك إلى بلائه ، وسلما يصعد به إلى ضلاله ، فما أيسر ماعمروا لك ، فى جنب ماخربوا عليك ، فداوِ نفسك ، فقد دخلها سقم ، وهيِّئ زادك ، فقد حضر السفر البعيد ، وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء » .

وبعد أن بينت الآيات ثلاثة أشياء : الاستقامة ، وعدم الطغيان ، وعدم الركون إلى الظالمين ، تأمر بثلاثة أشياء : الصلاة ، والحسنة ، والصبر . فالثلاثة الأولى مادّية ، تعتبر أساسا لبناء الجماعة ، والثلاثة الأخرى نفسية ، تطهر النفس وترقيها ، « وأقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَىِ النَّهارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ »[2] ، وفى هذه العبارة الصغيرة

(١) سورة هود ، آية ١١٢ ، ١١٣ . (٢) سورة هود ، من الآية ١١٤ .

كلّ الأوقات المقرّرة ، فطرفا النهار : البكرة والعشية ؛ فالبكرة : صلاة الصبح ؛ والعشىّ : ما بعد الزوال ، فيشمل الظهر والعصر ؛ وزلفا من الليل : أى أوائل الليل القريب ، من قولهم أزلفت إليه : إذا قرّبته ؛ لتشمل المغرب والعشاء ، وزُلَف الليل ممتدّة ، فمن صلى بعد ذلك فقد أحسن ، والحسنات يذهبن السيئات ، أى « أتبع السيئة الحسنة تمحها » كما فى الحديث ، أو أن الحسنات — وكلها عناصر للخير — تُذهب السيئات — وكلها عناصر للشرّ — فلا يعيش الخير مع الشرّ ؛ ويكون معنى الآية هنا كمعنى آية « إنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ » [١] . ومِلاكُ الأمر كله الصبرُ على الطاعات ، والصبر على الأذى فى سبيلها « وَاصْبِرْ فإنَّ اللهَ لايُضِيعُ أجْرَ المُحْسِنِين » [٢] .

إلى جانب هذه المبادئ المادية والنفسية ، لابدّ أن يكون فى الأمة جماعة تسيطر على القانون والأخلاق ، ترعاهما وتدعو إليهما ، هذه الجماعة هى التى سماها القرآن « أولو بقية » أى الخيرون فى الأمة ، أو البقية الباقية فيها « فَلَوْلا كانَ مِنَ القُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الفَسادِ فِى الأرْضِ » [٣] . هؤلاء فى كل أمة قليلون ، وهم الذين كتب لهم النجاة ، أما الباقون فقد « ظَلَمُوا ، واتَّبَعُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ ، وكانُوا مُجْرِمِين » .

هذه البقية هى التى تقرّر الصلاح فى الجماعة ، فإن لم توجد فسدت الجماعة وهلكت ، « وَما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القُرَى بِظُلْمٍ وأهْلُها مُصْلِحُون » ، أى أن الأمة إذا كانت صالحة فى الأرض ، كان هلاكها من الظلم ، وتعالى الله عن الظلم علوّا كبيرا . وللإمام الزمخشرى فهم دقيق فى الآية ، وهو أن الظلم هنا هو الشرك ، كما فى آية « إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيم » [٤] . ويكون معنى الآية : إن الله لايهلك

---

(١) سورة العنكبوت ، من الآية ٤٥ .
(٢) سورة هود ، آية ١١٥ .
(٣) سورة هود ، من الآية ١١٧ .
(٤) سورة لقمان ، من الآية ١٣ .

القرى بسبب الشرك وحده ، بل يُهلكها بالشرك والفساد ، أما الشرك مع الإصلاح وإقامة الحقّ فليس بموجب للإهلاك ؛ ومعنى ذلك بعبارة أخرى أن الوحدانية لله وحده ، أما الإصلاح ، وإقامة العدل فى الأرض ، فللنّاس جميعا ، وحقّ الناس لاتفريط فيه ، وضياعُه موجب للهلاك .

تختتم السورة بآية اجتماعية جامعة « وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ »[1] أى لو شاء ربك لجعل الأمة ملة واحدة ، وقد اقتضت إرادته ألاَّ يجبرهم على دين واحد ، ولو شاء لجمعهم على الهدى ، ولكنه مكنهم من الاختيار ، والاختيار أساس التكليف والمسئولية ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك من الأقلية التى تفهم الحقّ فى الأديان ، وتعمل على استخلاص الصحيح منها ، و « لذلك خلقهم » : ولهذا الاختلاف خلقهم ، أما الأكثرية فلا تفهم الحقّ فى الأديان ، لذلك تمت كلمة ربك « لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أجمَعِين » . وهذه الآية على قلة كلماتها مدارٌ لدراسة واسعة فى علم الاجتماع ؛ فالاجتماعيون يقرّرون أن هناك تضامنا أساسه الاتفاق ، وهو التضامن البدائى فى الجماعات غير المتحضرة ، فأفراد هذه الجماعات متفقون فى الخلقة والتفكير والاتجاه ؛ وكلما تفرقّت الجماعة فى المدنيّه اختلفت ، ولا يزالون مختلفين فى العلوم والمعارف ، والعقائد والأفكار ، والخلقة والأشباه . والتضامن المبنى على الاختلاف أرقى من التضامن المبنى على الاتفاق ، وذلك مصداق للأثر « النَّاسُ بِخَيْرٍ ما تَبايَنُوا ، فإنْ تَساوَوْا هَلَكُوا » ، غير أن هذا الاختلاف يُخشى منه التمزيق ، لذلك وُجِدَ أولو البقية الذين ينهوْن عن الخلاف ، ولولاهم لملئت جهنمُ من الجنة والناس أجمعين .

تلك أنباء الرسل يقصها القرآن على خاتم الرسل « وكُلا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ »[2] ، « وجاءك فى هذه (السورة) الحقّ ، وموعظة وذكرى للمؤمنين » .

(١) سورة هود ، الآيات ١١٨ ، ١١٩ .

(٢) سورة هود ، آية ١٢٠ .

محمد رحمة للعالمين

« واكْتُبْ لَنا فِي هَذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً وفِي الآخِرَةِ ، إنَّا هُدْنا إلَيْكَ ، قالَ عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أشاء ، وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، فَسأكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ويُؤْتُونَ الزَّكاةَ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُون . الَّذِين يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالإنْجِيل ، يَأمُرُهُمْ بِالمَعْرُوف ، ويَنْهاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ ، ويُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ ، ويُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبائِث ، ويَضَعُ عَنْهُمْ إصْرَهُمْ والأغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ ، فالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوه ، وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُون . . . »[1] .

أرسل الله « موسى » إلى قومه ، وتقرّرت رسالته فى الألواح التى أنزلها الله عليه ، فأمر قومه أن يأخذوا بأحسنها ، وبين لهم أن المسألة مسألة إيمان ويقين ؛ فالذين يتكبرون فى الأرض بغير الحقّ مصروفون عن آيات الله ، لأنهم يعرفون الحقّ وينكرونه « وإنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ، وَإنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذلِكَ بِأنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وكانُوا عَنْها غافِلِين »[2]

ولكن قوما من قوم «موسى»، انتهزوا فرصة خروجه للمناجاة ، وجمعوا الحلىّ التى استعاروها من المصريين قبل خروجهم من مصر ، واصطنع لهم بها السامرىّ عجلا جسدا له خوار ، لأنه اصطنع فى جوفه أنابيب مفرّغة ، تصفر إذا تردّدت فيها الرياح ؛ فلما رجع «موسى» غضب وأخذ برأس أخيه « هارون » يلومه ، واعتذر « هارون » بأن القوم استضعفوه وكادوا يقتلونه . ثم تمادى هؤلاء وأرادوا أن يعرفوا الله معرفة ماديّة أيضا ، فقالوا لموسى « لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً »[3]

(١) سورة الأعراف ، الآيات ١٥٦ ، ١٥٧ .
(٢) سورة الأعراف ، آية ١٤٦ .
(٣) سورة البقرة ، من الآية ٥٥ .

فلما طلب موسى الرؤية أحسّ بالرجفة ، بل أحسّ بالهلاك هو ومن معه ، ثم تطلع إلى السماء وقال : « أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ، إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الغَافِرِينَ »[1] . أتمّ « موسى » دعاءه وصلاته فقال : « وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ » أى تبنا ورجعنا إليك .

يسمع « موسى » صوت الحقّ يردّد : « عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ » . وفى قراءة — أصيب به من أساء — وفى كلتا القراءتين لايعذّب الله إلا بمقتضى العدل ، إذا لم يكن فى العفو مساغ ، وكانت الحكمة فى العذاب . « وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ » ، فالعاصى والطائع والمسلم والكافر ، كل يتقلب فى رحمة الله وفى كرمه ، والقليل منهم من يقدّر هذه الرحمة وهذا الكرم . . . وهذه الرحمة سأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ، ممن أسلم من بقية بنى إسرائيل على يد الرسول خاتم الأنبياء ، وتكتب هذه الرحمة أيضا للذين يتبعون « الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ والإنجيل ، يَأْمُرُهُمْ بِالمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ » فهو رسول أرسل بدعوة يؤيدها القرآن ، وهو نبىّ له آياته ومعجزاته ، وهو أمىّ لايقرأ ولا يكتب ، ويأتى بما لم يأت به القارئون الكاتبون ! والذين يقرءون ويكتبون يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ، ورسالته إنسانية ، لأن قوامها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ورسالته خلقية : يحلّ الطيبات ويحرّم الخبائث ؛ والطيبات المادية فى المطعوم والملبوس ومظاهر الحياة ، والطيبات المعنوية فى الفضيلة والخير ؛ والخبائث المادية فى الميتة والدم ولحم الخنزير ، والخبائث المعنوية فى الربا والرشوة وسائر المكاسب الدنيئة . ورسالته مملوءة بالرحمة ، رحمة الله التى وسعت كل شىء ، فهو الذى يضع الإصر والأغلال عن الإنسانية ، وكان الناس قبله لا يقبلون التوبة إلا بقتل المذنب ، وما كانوا يفرّقون بين

(١) سورة الأعراف ، من الآية ١٥٥ .

الجريمة القاصدة ، والجريمة الخاطئة : كلاهما موجب للقصاص الشديد ، لايعترفون بالدية ، أو الغرامة كما نسميها اليوم ، وكان الناس قبل الإسلام تقطع الأعضاء الخاطئة ، كما كان المتدينون إذا أرادوا الصلاة لبسوا المسوح ، وربطوا الأيدى إلى الأعناق ، بل كان منهم من يثقب تر قوته ، ويشدّها إلى سلسلة حتى يكون متعبدا ! هذه هى الآصار والأغلال التى كانت عليهم ، فجاء « محمد » بشريعة أشاعت الرحمة فى كل شىء : « فالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وعَزَّرُوهُ » أى أيدوه ومنعوه « ونَصَرُوهُ واتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُون » .

الإسلام : ديانة استخلاص الإنسان من الأسر ، لذلك كانت رسالة الرسول عامة لالإنسان البادى أو المتحضر ، بل للإنسانية كلها « قُلْ يا أيُّها النَّاسُ إنِّى رَسُولُ اللهِ إلَيْكُمْ جَمِيعا » [1] فمحمد عليه الصلاة والسلام رسول الإنسانية ، ورسول من الله الذى له وحده ملك السموات والأرض ، لاإله إلا هو يحى ويميت .

وبعد أن قرّرت الآيات رسالة « محمد » عليه الصلاة والسلام ، رجعت إلى قوم « موسى » تقرّر فى عدالة وإنصاف أنهم لم يكونوا جميعا معاندين ولا مكابرين ، بل منهم أمة يهدون إلى الحق ، ويحكمون بالحق .

يجلس اليهود إلى الرسول ليسرد عليهم ، وهو النبىّ الأمىّ ، كل ما جاء فى كتبهم : يسرد عليهم الاستسقاء حينما أظهره الله على يد « موسى » فى معجزة العيون المائية ، فقد ضرب الحجر بعصاه ، فانبجست منه اثنتا عشرة عينا ، ويسرد عليهم نعمة الله لما ظللهم بالغمام فى هجير التيه وحرارته ، ولما أنزل عليهم المنّ والسلوى ، أى العسل وطير السمانى . ولما أمرهم أن يعيشوا آمنين يأكلون من طيبات الرزق ، ولكنهم عثوا فى الأرض فسادا ، فاستحقوا عذاب الذلة والتشريد : « وَما ظَلَمُونا ولَكِنْ كانُوا أنْفُسَهُم يَظْلِمون » « فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِى قِيلَ

---

(١) سورة الأعراف ، آية ١٥٨ .

لَهُمْ ، فأرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِجْزًا (عذابا) مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَظْلِمُون » [١] وكذلك أخبرهم الرسول وهو النبىّ الأمىّ بحوادثهم مع فراعين مصر ، كما ذكّرهم بطائفة من المؤمنين فيهم كانوا يرون أن إخوانهم من بنى إسرائيل لاتنفع فيهم الموعظة ولا الهداية « وَإِذْ قالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْما اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابا شَدِيدًا ، قالُوا مَعْذِرَةً إلى رَبِّكُم » أى إنما نؤدى واجبنا لنعذر أمام الله ولعلهم يتقون . «فَلَمَّا نَسُوا ماذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وأخَذْنا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ » أى شديد « بِمَا كانُوا يَفْسُقُون » [٢] .

يقرّر القرآن بعد ذلك أمورا فى الذين خرجوا على دينهم .

الأمر الأوّل : أن الله أخبرنا إخبارا أكيدا بأنه ليبعثنّ عليهم إلى يوم القيامة ، أى إن عاجلا وإن آجلا ، من يسومهم سوء العذاب « وَإِذْ تَأذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إلى يَوْمِ القِيامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ العَذَابِ ، إنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ العِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » [٣] أى فعلى الذين ارتكنوا إلى عفوه ألا يغترّوا بحلمه !

الأمر الثانى : إخبار القرآن بأن بنى إسرائيل قديما وحديثا « مِنْهُمُ الصَّالِحونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ ، وَبَلَوْناهُمْ بالحَسَناتِ وَالسَّيِّئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُون» [٤] فهم طائفتان : طائفة آمنوا حقّ الإيمان بكتبهم ، امتدحهم القرآن قبل أن يدركوا « محمدا » عليه الصلاة والسلام ، كما امتدح منهم من عرف الحقّ فيه فعززه ونصره .

والأمر الثالث : هو إخبار القرآن بأنه سيخلف المؤمنين من بنى إسرائيل « خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتابَ ، يَأخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأدْنى » ، والأدنى : هو القريب

---

(١) سورة الأعراف ، آية ١٦٢ .
(٢) سورة الأعراف ، آية ١٦٥ .
(٣) سورة الأعراف ، من الآية ١٦٧ .
(٤) سورة الأعراف ، من الآية ١٦٨ .

العاجل ، أو الدنىء الساقط ، وهم مع ذلك يعتقدون أن الله سيسمح لهم بهذا التعدّى الساقط ، لأنهم يرتكبون السيئة ، « وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا » ، ويطلبون المغفرة من غير توبة ، بدليل أنهم « إنْ يَأتِيهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأخُذُوه » ولا يبالون ، وأشنع الباطل ما تفعله عالما بأنه باطل ، ومصرّا على أنه باطل ، ومظهرا التوبة والبراءة من الباطل « أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثاقُ الكِتابِ أَلاَّ يَقُولُوا على اللهِ إلاَّ الحَقَّ وَدَرَسُوا ما فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُون » الرشوة والظلم والمحارم « أفَلا تَعْقِلُون »[1] ؟! المستقبل إذن للذين يؤمنون بالله وبالخلُق وبالفضيلة وبما جاءت به الشرائع الفاضلة ، وصدق الله الذى يقول : « وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بالكِتابِ وأقامُوا الصَّلاةَ إنَّا لانُضِيعُ أجْرَ المُصْلِحِين »[2]

---

(١) سورة الأعراف ، آية ١٦٩ .

(٢) سورة الأعراف ، آية ١٧٠ .

الصراع بين الحق والباطل

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسَى بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ ، إِلى فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَقارُونَ ، فَقالُوا ساحِرٌ كَذَّاب ، فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالحَقِّ مِنْ عِنْدِنا ، قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَه ، وَاسْتَحْيُوا نِساءَهُم ، وَما كَيْدُ الكافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلال . وَقالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّه ، إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الفَسادَ . وَقالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحِسابِ . . . » [1] .

كرّرت قصة «موسى» مع فرعون فى سورة غافر أيضا، مع أنها ذكرت فى عدّة مناسبات من سور أخرى ، وهذا التكرار يؤثر فى النفس ، ويلحّ عليها بالموعظة من آونة لأخرى ، وفيه أنه دليل الإعجاز ، ودليل الإصابة فى البيان ، لأن القصة الواحدة تُعرض فى عدة معارض ، وفى كل وضع من أوضاعها تتّسق مع سياق الآيات ، وتنسجم مع النظم انسجاما بالغ الحدّ فى الإعجاز ، فهنا يخبر القرآن الكريم أن الله أرسل « موسى » بالآيات ، إلى « فرعون » و « هامان » و « قارون » ؛ ففرعون يمثل القوّة والجبروت ، «وهامان» يمثل الوزير القادر الذى ينفذ ما يؤمر به . « وقارون» يمثل الفتى الثرىّ بالغ العظمة فى الغنى والثروة ، وهو فرح بأمواله ، لا يحسن إلى نفسه ، ولا إلى الناس ؛ فلما رأوا الآيات على يد « موسى » قالوا : ساحر كذّاب ؛ « فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالحَقِّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَه ، وَاسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ » أى اقتلوا البنين واتركوا البنات ، فقد أخبره الكهنة أن ملكه يظلّ مهدّدا بالأطفال الذكور ، فأعمل القتل فى الأطفال عدّة مرات قبل ميلاد

---

(١) سورة غافر ، الآيات ٢٣ – ٢٧ .

« موسى » وبعده ، فما أغنى عنه شيئا ، وظهر الحقّ ، وظهر الدين ، على رغم كيد الكافرين « وَمَا كَيْدُ الكَافِرِينَ إلاّ فِى ضَلَالٍ » . أما « فرعون » نفسه فقد تولى قتل « موسى » ، وهنا يقف الباطل بجبروته أمام الحقّ فى قوّته ، هذه القوة التى تعتمد على الحقّ نفسه ، ففرعون يقول « ذَرُونِى أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ، إنّى أخافُ أنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ، أوْ أنْ يُظْهِرَ فِى الأرْضِ الفَسَاد » ، وموسى يتوجه إلى الله داعيا قائلا : « إنّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلّ مُتَكَبِّرٍ لايُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحِسَاب » ، وهنا يجد الحقّ نصيرا ، ويكون هذا النصير رجلا مصريا من آل « فرعون » يكتم إيمانه ، فيقول لفرعون وقومه : « أتَقْتُلُونَ رَجُلاً أنْ يَقُولَ رَبِّىَ اللهُ وَقَدْ جاءَكُمْ بالبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ » ويفصل لهم فى أمره ، فإن « يَكُ كاذِبا فَعَلَيْهِ كَذِبُه » لأن الكذب يحمل عقابه معه « وَإنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ » ويحقّ عليكم العذاب الذى تهدّدكم به ؛ « إنَّ اللهَ لايَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّاب » [1] ، فالمسرف الكذّاب يخذله الله من أوّل الأمر ، والمسرف الكذّاب لايهديه الله ، ولا يُرسله لهداية الناس .

وهذا الموقف الذى وقفه مومن آل فرعون ، وقف مثله وأكثر منه مؤمن الإسلام « أبو بكر الصدّيق » لما طاف الرسول عليه الصلاة والسلام بالبيت ولقيه المشركون ، فأخذوا بمجامع ردائه ، وقالوا له : « أأنت الذى تنهانا عما كان يعبد آباؤنا » ؟ فقال لهم الرسول بشجاعته المعروفة : « أنَا ذَاك » ! فقام « أبو بكر الصديق » والتزمه من ورائه ، وحجزما بين الرسول وبين المشركين ، وقال لهم : « أتَقْتُلُونَ رَجُلاً أنْ يَقُولَ رَبِّىَ اللهُ وَقَدْ جاءَكُمْ بالبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ » رافعا صوته بذلك ، وعيناه تسحان بالدموع ؛ والفرق بين مؤمن الإسلام ومؤمن آل فرعون ، أن « أبا بكر » قالها جهرة رافعا بها صوته ، وأما الآخر فقالها سرّا ، لأنه يكتم إيمانه ، ويخشى المسرفين الكاذبين ! ويستمرّ مؤمن آل فرعون فى نصيحته ، ويقول لقومه

---

(١) سورة غافر ، آية ٢٨

« يا قَوْمِ ، لَكُمُ الْمُلْكُ اليَوْمَ ظاهِرِينَ فى الأرْض » أى فاكتفوا بذلك فقد نصركم الله على بنى إسرائيل ، ولكن « فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللهِ إنْ جاءَنا » ؟ فيردّ فرعون متعاليا منكابرا ويقول : « ما أُرِيكُمْ إلاّ ما أرَى وَما أهْدِيكُمْ إلاّ سَبِيلَ الرَّشاد » [١] ، يستمرّ المصرى المؤمن فى كلامه ويقول : « يا قَوْمِ إنّى أخافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الأحْزَاب » [٢] ، ثم تفسر الآية الأحزاب بأنهم قوم « نوح وعاد وثمود » والذين من بعدهم « وَما اللهُ يُرِيدُ ظُلْما لِلْعِباد » [٣]. فالله لايريد الظلم لعباده ، ومن كان عن إرادة الظلم بعيدا ، فهو عن الظلم أبعد ، فالله سبحانه لا يريد لعباده الكفر ولا الظلم ، وإنما هم الذين يظلمون أنفسهم ، ومن هنا حقت عليهم المسئولية ، وحقت عليهم العقوبة ، فقول الناس إذا وقعوا فى الإثم إن الله كتبه علينا ، مردود بقول الله « وَما اللهُ يُرِيدُ ظُلْما لِلْعِباد » . يستمرّ المصرى المؤمن من آل فرعون ناصحا لقومه هاديا ويقول : « يا قَوْمِ إنّى أخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّناد » [٤] أى يوم ينادى أصحابُ الجنة أصحاب النار ، وينادى أصحابُ النار أصحاب الجنة ، فيوم التناد : هو يوم التصايح بالويل والهلاك ، يومَ يَنْدبُ بعض الناس من بعض « يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أخِيهِ » ، « يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مالَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عاصِمٍ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هاد » .

وبعد أن تعرض الآيات لقصة « موسى » على هذا النحو من الجدل بين الحقّ والباطل ، تشير الآيات إشارة عابرة إلى قصة يوسف «وَلَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بالبَيِّنات ، فَما زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ ، حَتَّى إذا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً » أى يئستم من الرسالة ، أواستبطأتم الرسل ، ذلك هو الإسراف والشكّ و « كَذلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتاب » والمسرفون المرتابون هم «الَّذِينَ يُجادِلُونَ فى آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أتاهُمْ » ، أى يجادلون فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير « كَبُرَ مَقْتا عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ امَنُوا ، كَذلِكَ يَطْبَعُ اللهُ على كُلّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّار » [٥]

---

(١) سورة غافر ، آية ٢٩ .
(٢) سورة غافر ، آية ٣٠ .
(٣) سورة غافر ، من الآية ٣١ .
(٤) سورة غافر ، من الآية ٣٢ .
(٥) سورة غافر ، الآيات ٣٣ – ٣٥ .

ترجع الآيات إلى فرعون الذى يطلب إلى وزيره « هامان » أن يبنى له صرحا، أى بناء شامخا ظاهرا ، لعله يبلغُ أسباب السموات ليطلعَ إلى إله موسى « وَإِنِّى لأظنُّه كاذِبًا ، وكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِه ، وَصُدَّ عَنِ السَّبِيل، وَما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إلاَّ فِى تَبَاب » أى خسار وهلاك ؛ يردّ عليه المصرى المؤمن ويقول : « يا قَوْم اتَّبِعُونِ أهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشاد . يا قَوْمِ إنَّما هَذِهِ الحَياةُ الدُّنْيا مَتاع ، وَإنَّ الآخِرَةَ هِىَ دَارُ القَرَار » . ثم تبين الآيات عقاب السيئة وثواب الحسنة ؛ فالسيئة تعاقب بمثلها ، أما الحسنة فالجزاء عليها كبير وبغير حساب : « مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إلاَّ مِثْلَها، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحا مِنْ ذَكَرٍ أوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِساب » ، والآية تدلّ صراحة على مساواة الرجل للمرأة فى التكاليف والواجبات والمسئولية ، والنصيب فى الخير والشرّ . ثم تجمل المناجاة بين الخير والشرّ ، وبين الحقّ والباطل ، وبين الحسن والقبيح ، وبين الإيمان والكفر ، حينما يضطرب كل أولئك فى الغضب ، فيخرج المؤمن من هذا الاضطراب بإيمانه ويقول : ياقوم « مالى أدْعُوكُمْ إلى النَّجاةِ ، وَتَدعُونَنِى إلى النَّار ، تَدْعُونَنِى لأكْفُرَ باللهِ وأُشْرِكُ بِهِ مالَيْسَ لى بِهِ عِلْم ، وأنا أدْعُوكُمْ إلى العَزِيزِ الغَفَّار ! لاجَرَمَ » أى لاشك « أنَّما تَدْعُونَنِى إلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فى الدُّنْيا وَلا فى الآخِرَةِ وأنَّ مَرَدَّنا إلى اللهِ وأنَّ المُسْرِفِينَ هُم أصْحَابُ النَّار » فالذين يدعون إلها من دون الله يدعون شيئا ليس له دعوة ، والذين يعتمدون على غير الله يعتمدون على باطل ليس له دعوة ، والذين يعتمدون على مخلوق ناسين الله والحقّ ، إنما يعتمدون على معتمَد ليس له دعوة . وأخيرا يقف الحقّ متحدّيا، حتى لو انتصر الباطل مؤقتا ، فانتصاره إلى حين ، وعندئذ يقول المؤمن المحق لمن كان يعتمد على الباطل إذا أخفق — وهولابد مُخْفق — « فَسَتَذْكُرُونَ ما أقُولُ لَكُمْ ، وأُفَوِّضُ أمْرِى إلى الله ، إنَّ اللهَ بَصِيرٌ بالعِباد » [١] .

(١) سورة غافر ، الآيات ٣٧ — ٤٤ .

سورة القصص

« طسم تِلْكَ آياتُ الكتابِ المُبِين . نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بالحقّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُون . إنّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَها شِيَعًا ، يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ ، يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ ، وَيَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ إنَّهُ كانَ مِنَ المُفْسِدِين . وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ على الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ ، وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوَارِثِين ، وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْض ، وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُون . . . » [1] .

سورة القصص مكية ، نزلت بمكة إلا بعضا من آياتها ، فقد نزل بالمدينة ، وهى كما يدلّ اسمها عليها فى قصص الأنبياء ، وفيها تفصيل لما أجمل فى السور قبلها من حكاية « موسى » وما كان من أمره وأمر فرعون فى مصر ، وما كان من أمره فى مدين ، وما كان من أمر رسالته ومناجاته ، ثم ما كان من أمر « قارون » وثرائه ، ثم ما كان من أمر المؤمنين الذين لايريدون علوّا فى الأرض ولا فسادا ، ويرون دائما أن العاقبة للمتقين .

فأول السورة إخبار الرسول عليه الصلاة والسلام بما كان من أمر « موسى » «وفرعون» « تِلْكَ آياتُ الكتابِ المُبِين . نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بالحَقّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُون » ، فالقصص فى القرآن حقّ ، وقد أيده التاريخ ، أو أيد كثيرا منه ، وما بقى لايزال فى ضمير الغيب يدعو الناس إلى البحث والتقصى . والقصص ذِكر وتذكر ، والذكرى تنفع المؤمنين « إنّ فِرْعَوْنَ عَلا فى الأَرْض » ، تكبر وادّعى الألوهية ، وطلب أن ترفع العبادة إليه « وَجَعَلَ أَهْلَها شِيَعا » ، أى فرّق أهل مصر فرقا ، واستخدم كل فرقة فى سخرة ، من بناء

(١) سورة القصص ، الآيات ٣ – ٦ .

وحفر وحرث ، وهؤلاء هم طوائف الفقراء ؛ أما طوائف الأغنياء فقد ضرب عليهم الجزية ، أى أن فرعون استبدّ بأهل مصر جميعا ، وجعلهم شيعا يشايع بعضهم بعضا فى طاعته ، ويشايعونه فى فساده وإفساده ؛ وكان فرعون قد عرف مما تحدثت به الكهنة أن موسى سيظهر ، وسيُظهر اللهُ أمره فى مصر ، فخشى العاقبة ، فأمر أن تذبح الأطفال الذكور حديثو الولادة « يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ » ، أى يترك النساء أحياء « إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ » فلا فساد أشنع من القتل ، وبخاصة قتل الأطفاء البرآء فهو يستضعفهم ، والله الغالب يمنّ على المستضعفين ، ويجعلهم أئمة فى الأرض ، ويجعلهم الوارثين لملك فرعون ، ويُرِى فرعون ووزيره « هامان » وجنودهما ما كانوا يحذرون من هؤلاء المستضعفين .

ولد « موسى » وتردّدت أمه فى أمره ، وخافت عليه بطش «فرعون» ، فألهمها الله أن ترضعه ، فإذا خافت فلتلقه فى اليم ، أى فى النيل « وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ ، فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخافِي وَلا تَحْزَنِي ، إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ، وَجاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ »[1] ، ففى الآية الواحدة ستة أشياء : أمران بأن ترضعه إذا أمنت ، وأن تلقيه فى اليمّ إذا خافت ؛ ونهيان : نهى عن الخوف ، ونهى عن الحزن ؛ وبشريان : إحداهما بأنه سيرجع إليها ، وثانيتهما أنه سيكون نبيا مرسلا.

ويذكر من يتعرّض للقصة : أن فرعون وامرأته « آسية » كانا على شاطئ النيل ومعهما ابنتهما الوحيدة ، وظهر الصندوق يضطرب فى الماء وفى داخله الوليد الجديد ، حتى وقف به التيار بين فروع شجرة ، فأرسل فرعون بالسفن لالتقاطه ، وفتح الصندوق فإذا بالوليد الناجى ، واضطرمت عاطفة الانتقام فى نفس فرعون ، كما اضطرمت عاطفة الحرمان من الولد فى نفس امرأته ، وكما اضطرمت عاطفة الحرمان من الأخ فى نفس ابنتهما ، وأخيرا تنفّذ إرادة الله فى نجاته ، « فَالْتَقَطَهُ

(١) سورة القصص ، آية ٧

آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ، إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ »[1] ، أى أخطئوا أوّلا لأنهم أرادوا أن يتخذوه ولدا ، فكان عدوّا وحزنا ؛ وأخطئوا ثانية لأنهم قتلوا أطفالا كثيرين وتركوا هذا الطفل ، وهلاكهم على يديه ! هذا خطأ فى التقدير ، وذاك خطأ كبير فى قتل نفوس بريئة . « وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ » لزوجها : « قُرَّةُ عَيْنٍ لِى وَلَكَ ، لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ »[2] أن ضررهم محقق على يده !

« وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا » ، أى فارغا من الصبر ، أو فارغا من القلق ، وهما معنيان صحيحان ؛ فعاطفة الأمومة قد تجزع ، فتصيح الأمّ وتدلّ على ولدها ، « لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » . وعاطفة الأم قد تدفع إلى الفرح بأن «فرعون» نجاه من الغرق وتبناه ، وكادت الأم من فرحها تتحدث عن ولدها ، وتعرّفه أنه ابنها ، لولا أن ثبتناها وربطنا على قلبها ، لتكون من المؤمنين المستسلمين لحكم الله ، فلا تفرح ، ولا تجزع ، وهى فى اضطرابها العاطفى بين الجزع والفرح تقول لأخته : « قُصِّيه » أى تتبعى أثره وخبره ، لتعرفى : أيقتلونه أم يستبقونه ؟ « فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ » ، فرأته وهى تمشى على الشط عن قرب « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ »[3] بها ، ثم تمكنت أخته من أن تدخل بيت فرعون ، وتقول لهم : « هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ » : يتكفلون به ويرضعونه « وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ »[4] مخلصون ، لا يقصرون فى خدمته ؛ ولما سمعها «هامان» الوزيرُ تقول وهم له ناصحون ، أى لموسى ، قال : إنها تعرفه وتعرف أهله ، فاقبضوا عليها ، فقالت أختُه : أنا لا أعرفه ، إنما أردت وهم له ناصحون ، أى للملك ، لا لموسى ! وذلك الأسلوب الدقيق ينفرد به القرآن فى التوجيه . أمَرَها فرعون أن تَدُلَّهم على مُرضِعة فأحضرت

---

(١) سورة القصص ، آية ٨ .
(٢) سورة القصص ، آية ٩ .
(٣) سورة القصص ، آية ١١ .
(٤) سورة القصص ، آية ١٢ .

أمها ، فلما شمّ ريحها ، التقم ثديها ، وقد كانت المراضع محرّمةً عليه قبلها ، حتى شكّ «فرعون» فى أمرها ؛ وهكذا رجع «موسى» إلى أمه ، كى تقرَّ عينُها ولا تحزن ، ولتعلمَ أن وعد الله حقّ ، فقد وعدها بأنه سيرجع إليها ، وسيحقق وعده بأن يجعله من المرسلين .

بلغ «موسى» أشدَّه ، وكمل واستوى ، وآتاه الله الحكم «أى النبوّة» والعلم بالشريعة ، وكذلك نجزى المحسنين . كان «موسى» بعد أن كبر يخرج فى ركاب «فرعون» ، وعُرف بأنه ولده ، ثم خرج وحده مرّة والقوم فى عيد لهم لاهون « وَدَخَلَ المَدِينَةَ على حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أهْلِها ، فَوَجَدَ فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ » : أحدهما على دين «موسى» ، والآخر مصرىّ على دين قومه ، واستغاث الأوّل «بموسى» لأن الثانى أراد أن يُحمِّله حطبا بالقوة ؛ غضب «موسى» لهذا الضعيف ، ووكز القوىّ بيده ، أى دفعه فقضَى عليه ، ثم قال : « هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ إنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ »[1] . وكان القتل خطأ ، فلم يرد «موسى» قتله ، وإنما أراد الدفاع عن الضعيف ، وأراد نصرة الحقّ ، لذلك « قالَ : ربِّ إنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فاغْفِرْ لى ، فَغَفَرَ لَهُ ، إنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ » ، ثم « قالَ ربِّ بِمَا أنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أكُونَ ظَهِيراً للمُجْرِمِينَ »[2] .

فالقوة نعمة ، والسلطة نعمة ، ومن حقّ النعمة أن تستعمل فى نصرة الحقّ ، ونصرة المظلومين ، ومن واجب الذين أنعم الله عليهم بجاه أومال أو سلطة ، أن يقولوا دائما بمقالة موسى : « رَبِّ بِمَا أنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أكُونَ ظَهِيراً لِلمُجْرِمِينَ »

---

(١) سورة القصص ، آية ١٥ .

(٢) سورة القصص ، الآيات ١٥ ، ١٦ .

من سورة القصص

قصة موسى — وقصة قارون — الأنبياء والأغنياء الأغبياء .

سورة القصص سورة مكية إلا فى بعض آياتها ، فإنها نزلت بالمدينة ، وإلا فى البعض الآخر ، فإنه نزل « بالجُحْفة » بين مكة والمدينة ، فى أثناء هجرة الرسول إلى المدينة . وسورة القصص تقصّ ما جرى لموسى مع فرعون بشىء من التفصيل ، وتقصّ ما كان من أمره فى « مَدْين » بعد خروجه من مصر ، وما كان منه لمّا ورد ماء مدين ، ووجد القوم يستسقون ، ووجد فتاتين لم تستطيعا أن تزاحما ، فأعانهما على وِرْد الماء بإبلهما ، « ثُمَّ تَوَلَّى إلى الظلّ » جائعا يصلى ويقول : « رَبِّ إنى لِمَا أنْزَلْتَ إلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِير » [1] ، ثم ما جاء من زواجه بإحدى الفتاتين التى أقام بها فى مدين نحو عشر سنين ، ثم سار بأهله إلى جانب الطور ، فجاءته الرسالة ، ونودى هذا النداء الكريم : « يا مُوسَى إنِّى أنا اللهُ رَبُّ العالَمِين » [2] . وأرسل الله « موسى » إلى فرعون وملئه ، يشدّ عضده بأخيه « هرون » « وَسْتَكْبَرَ هُوَ وجُنُودُهُ فى الأرْضِ بِغَيْرِ الحَقّ ، وَظَنُّوا أنَّهُمْ إلَيْنا لايُرْجَعُون » [3] .

يقصّ الله على رسوله الكريم قَصَص « موسى » ، فيقصه الرسول على المشركين والمعاندين صحيحا مؤثرا ، بعد أن تطاول عليهم العُمُر ، وتطاولت عليهم الأجيال ، وما كان الرسول بجانب موسى لما قضى إليه الأمر ، وما كان بجانب الطور لما ناداه ، ولكن علمه الله قصص الأنبياء « لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُون » [4] « فلَمَّا جاءَهُمُ الحَقُّ مِنْ عِنْدِنا ، قالُوا لَوْلا

(١) سورة القصص ، من الآية ٢٤ .
(٢) سورة القصص ، من الآية ٣٠ .
(٣) سورة القصص ، آية ٣٩ .
(٤) سورة القصص ، من الآية ٤٦ .

أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسَى ! أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ؟ قالُوا سِحْرَانِ تَظاهَرَا ، وَقالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُون . قُلْ فأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُما أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِين . فإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ، ومَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ ، إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِين »[1] .

وبعد عرض هذا القصص الذى يثير العبرة والذكرى ، تقف الآيات وقفة قليلة ، لتقرّر أن الناس يسيئون إلى أنفسهم ، ويظلمون أنفسهم ، وأن العذاب الذى يحيط بالناس ، نتيجة طبيعية لما عليه نفوس الناس من العناد والمكابرة ، ومن البطر بالنعمة ومن السرف والترف . ثلاثة أشياء إذا وجدت حقّ العذاب بها على الناس :

الأول : الكفر بالنعمة ، وعدم تقديرها وعدم رعايتها « وكَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها ، فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِم إِلاَّ قَلِيلاً ، وكُنَّا نَحْنُ الوَارِثِين »[2] .

الثانى : أن الله لايعذّب عباده إلا بعد إرسال الرسل الذين يقرّرون الحقّ ، ويوقظون العقل ، ويحركون نوازع الخير والرحمة فى النفوس : « وَما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ القُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِى أُمِّها رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتِنا » .

والثالث : أن الله لايريد بعباده الشرّ ، وإنما يريد لهم الخير ، وما يظلمهم ولكن يظلمون أنفسهم ، « وَما كُنَّا مُهْلِكِى القُرَى إِلاَّ وأَهْلُها ظالِمُونَ)[3] .

ويؤخذ من مفهوم الآيات جواز العقوبة الإجماعية ، وتقرير المسئولية الاجتماعية ؛ فالمسرفون والمشرفون هم الذين يزجون بأممهم إلى الهاوية ، ولا يلحقهم العذاب وحدهم ، بل يحقّ عليهم القول جميعا ، ويدمرون جميعا ، لأنهم جميعا صالحهم وطالحهم قد انساقوا فى سبيل واحدة : « كانُوا لايَتَناهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ »[4] .

وتختتم سورة القصص بالتحدّث عن شخصية من هذه الشخصيات المسرفة

---

(١) سورة القصص ، الآيات ٤٨ — ٥٠ .
(٢) سورة القصص ، آية ٥٨ .
(٣) سورة القصص ، آية ٥٩ .
(٤) سورة المائدة ، من الآية ٧٩ .

المترفة ، هى شخصية « قارون » الذى يضرب به وبماله المثل إلى الآن ؛ فإذا كان «فرعون» مضرب المثل فى الظلم والبغى عن طريق القوّة والسلطان ، فإن « قارون » مضرب المثل فى الظلم والبغى عن طريق المال والبذخ : فقارون من قوم «موسى» ، ويقال إنه قريبه ، نَفَسَ على « موسى » النبوّة ، وعلى « هرون » أن يشدّ أزره ، وأن يشركه فى الأمر ، وكان أعلم وأقرأ بنى إسرائيل للتوراة ، فبغى على « موسى » وعلى أخيه وعلى الناس ، لثروته وغناه ، وكانت خزائنه أو مفاتحها تنوء بها العصبة ذات القوّة ، فنصحه المؤمنون من قومه ألا يركن إلى الدهر ، وألا يفرح إذا صادف مايسرّ ، ففيه ما يسوء أيضا ، « إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الفَرِحِين » ، الذين يؤثرون العاجلة على الآجلة ، وطلبوا منه أن يعمل لدينه كما يعمل لدنياه « وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ، وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا ، وأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ ، وَلا تَبْغِ الفَسادَ فِى الأَرْض ، إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُفْسِدِين » [١] . لم يهتمّ « قارون » لهذه النصيحة التى وجهها إليه المؤمنون ، بل قال متكبرا : « إِنَّمَا أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عِنْدِى » : أى أن ثروتى بجدّى وعقلى ، وثروتى جديرة بى ، « أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ القُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وأَكْثَرُ جَمْعا؟ وَلا يُسأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ المُجْرِمُون » [٢] حتى يعترفوا بها ، فالله مطلع عليها ، وليس فى حاجة إلى إبداء رأيهم فيها ؛ ولكن المغرور يخرج فى زينته ، متعثرا فى ثروته ، فيختلف الناس فى أمره ويقول : « الَّذِينَ يُرِيدُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا : يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِىَ قارُون ، إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيم » [٣] . ويقول الذين أوتوا العلم من الحكماء والعقلاء : « وَيْلَكُمْ ! ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحا ، وَلا يُلَقَّاها إلاَّ الصَّابِرُون » [٤] .

طلب « موسى » من « قارون » الزكاة عن أمواله بمقدار واحد فى الألف ، فلما رأى مبلغها جليلا امتنع منها ، وقال لقومه : « إن « موسى » يريد أن يستأثر بأموالكم

---

(١) سورة القصص ، الآيات ٧٦ ، ٧٧ .
(٢) سورة القصص ، آية ٧٨ .
(٣) سورة القصص ، من الآية ٧٩ .
(٤) سورة القصص ، من الآية ٨٠ .

كما استأثر بعقولكم وقلوبكم، وأراد به الشرّ « فخسفنا بهِ وبدارهِ الأرض ، فما كانَ لهُ مِنْ فئةٍ ينصرونهُ مِنْ دونِ اللهِ ، وما كانَ مِنَ المُنتصرين »[1] ولما حقّ عليه العذاب «أصبحَ الّذينَ تمنّوْا مكانهُ بالأمسِ يقولونَ : ويكأنّ اللهَ يبسطُ الرّزقَ لمَنْ يشاءُ مِنْ عبادهِ ويقدِر »[2] ، وكلمة « ويكأنّ » مركبة من كلمتين : « وى » بمعنى الندم ، وكأن الله لايُفلح الكافرين، أى ما أشبه حالة « قارون » ومن تمنى أن يكون مثله بحالة الكافرين ، وهى حال مآلها الخيبة والخسران. «تلكَ الدّارُ الآخرةُ نجعلُها للّذينَ لايريدونَ عُلُوًّا فى الأرضِ ولا فسادًا والعاقبةُ للمُتّقينَ »[3] .

ثم تبين الآيات أن الغنى لايكون بالأموال، والتكاثر لايكون بالثراء، بل بالأعمال الصالحة ، وهذه الأعمال مضاعفة لمن يقوم بها .

« مَنْ جاءَ بالحسنةِ فلهُ خيرٌ منها ، ومَنْ جاءَ بالسّيّئةِ فلا يُجزَى الّذينَ عملُوا السّيّئاتِ إلاّ ما كانُوا يعملُون »[4] .

وبعد هذا القصص ، وبعد بيان ما يلاقيه الأنبياء من الأغبياء والأغنياء ، تشير الآيات على الرسول بالهجرة، فيخرج من مكة مهاجرا إلى الله ورسوله ، يمشى لنيته ، وقلبه معلق بأستار الكعبة ، يتجه إلى المدينة موضع نصرته ، ويتلفت إلى مكة وطنه ، وموضع نشأته ، ومهبط رسالته ، فيستمع إلى حادى السماء يناجيه ، ويردّد « إنّ الّذى فرضَ عليكَ القرآنَ لرادُّكَ إلى معاد » ، فلا تخش الهجرة ، فسترجع إلى مكة فاتحا ، وحينئذ « قُلْ ربّى أعلمُ مَنْ جاءَ بالهُدَى ومَنْ هوَ فى ضلالٍ مُبين »[5] . ثم تختتم السورة بهذه الآية الجامعة للوحدانية والدعوة والجهاد فى سبيلها « ولا تدعُ معَ اللهِ إلهًا آخرَ ، لا إلهَ إلاّ هوَ ، كلُّ شىءٍ هالكٌ إلاّ وجهَهُ ، لهُ الحُكمُ ، وإليهِ تُرجعُون »[6] .

---

(١) سورة القصص ، من الآية ٨١ .
(٢) سورة القصص ، من الآية ٨٢ .
(٣) سورة القصص ، آية ٨٣ .
(٤) سورة القصص ، آية ٨٤ .
(٥) سورة القصص ، آية ٨٥ .
(٦) سورة القصص ، آية ٨٨ .

سورة يونس

التحدى بالقرآن — مجمل قصص نوح وموسى والأنبياء

« وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ، إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِى وَتَذْكِيرِى بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ ، فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ، ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ، ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ . فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ . . . » [1] .

سورة يونس سورة مكية ، ذكرت فيها أحوال المشركين من قريش ، وما كانوا عليه من الشك فى القرآن ، والعناد مع الرسول ، فمرّة يقولون عن القرآن إنه سحر ، ومرّة يقولون إنه افتراه ، ومرّة يستنبئون الرسول ويقولون أحقّ هو ؟ وهو يقسم لهم إنه الحقّ من عند الله ، ولهم أن يأتوا بسورة مثله ، وأن يستعينوا فى ذلك بما يستطيعون ، وبمن يستطيعون ، إن كانوا صادقين . وبعد ما تعرض السورة لهذا العناد فى مختلف نواحيه وشتى صوره ، يأمر الله رسوله الكريم أن يتلو عليهم أخبار الماضين من الأمم والرسل ، وما كان من عناد الأمم لرسلهم . وفى هذه الأخبار الماضية تسلية الرسول ، وإقرار للأنبياء ورسالتهم من قبله ، فقد شرح الله له ماوصى به نوحا ، وما جاءت به الهدايات قبله ، فهو مقرّر لهذه الهداية ، وهو خاتمها « قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ » [2] . وفى أخبار الماضين معنى دقيق ، أساسه أنه وهو النبىّ الأمىّ الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ، يسرد عليهم من أخبار الأمم ما يقرّره التاريخ ، وما لا يعرفه التاريخ ، وما جاء إلا ليأمرهم أن يأمروا بالمعروف ويتناهوا عن المنكر ، ويحلّ لهم الطيبات ، ويحرّم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم

(١) سورة يونس ، الآيات ٧١ ، ٧٢ .
(٢) سورة الأحقاف من الآية ٩ .

إصرهم والأغلال التى كانت عليهم حتى لايكونوا عبيدا إلا لله، ولا يتوجهوا إلا إلى الله وحده، فإن كذّبوه بعد ذلك فليس عليه إلا أن يقول ما أمره الله به: « لى عَمَلى ولَكُمْ عَمَلُكُمْ ، أنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أعْمَلُ وأنا بَرِىءٌ مِمَّا تَعْمَلُون »[1].

أمر الله نبيه أن يقصّ عليهم ما كان من نوح وقومه « وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوح ، إذْ قالَ لِقَوْمِهِ ياقَوْمِ إنْ كان كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقامى وَتَذْكِيرِى بآياتِ الله » : أى إن كنتم قد تضايقتم من طول مقامى فيكم ونصيحتى لكم « فأجْمِعُوا أمْرَكُمْ وشُرَكاءَكُمْ » أى احتشدوا وابذلوا ما فى وسعكم أنتم وشركاؤكم فى كيدى ، « ثُمَّ لايَكُنْ أمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً » : أى تعالوا جميعا بعداوتكم سافرة ظاهرة ، « ثُمَّ اقْضُوا إلىَّ » : أى اقضوا إلىّ بما عندكم « وَلا تُنْظِرُون » : أى ولا تمهلونى . قال لهم «نوح» هذا واثقا بوعد الله أنه سينصره عليهم ، وهو يعلم أن الله لايخلف وعده رسله ، فإن توليتم وأعرضتم عن نصحى فلكم شأنكم ، وما سألتكم عن النصح أجرا ، « إنْ أجْرِىَ إلا على اللهِ ، وأُمِرْتُ أنْ أكُونَ مِنَ المُسْلِمِينَ » ، والمسلمون المستسلمون لله لايأخذون أجر النصيحة، ولا يطلبون بدينهم الدنيا . كان نصيب قوم نوح بعد أن كذبوا أن أغرقهم الله على النحوّ الذى وضحه القرآن فى سورة هود ، أما نوح « فَنَجَّيْناهُ وَمَنْ مَعَهُ فِى الفُلْكِ وَجَعَلْناهُمْ خَلائِفَ » فى الأرض بدل الهالكين « فانْظُرْ » يا محمد « كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ المُنْذَرِين »[2] . « ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إلى قَوْمِهِمْ » هم « هود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب » « فَجاءُوهُمْ بالبَيِّنات » المؤيدة لدعاويهم . فما كان شأن هؤلاء أكثر من شأن قوم نوح : « فَمَا كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ » فالعناد واحد ، والجمود واحد ، وهكذا يطبع الله على قلوب المعتدين . « ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَرُونَ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بآياتِنا

---

(١) سورة يونس ، آية ٤١ .
(٢) سورة يونس ، آية ٧٣ .
(٣) سورة يونس ، من الآية ٧٤ .

فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين » [١] إلا يكن إجرامهم فى حق الناس ففى حق أنفسهم . «فلما جاءهم الحق من عندنا» لامن عند «موسى» ولا «هرون» ، « قالوا إن هذا لسحر مبين » [٢] ، أى إن هذا إلا التمويه والباطل . « قال موسى : أتقولون للحق لما جاءكم » سحر ؟ ! « أسحر هذا ولا يفلح الساحرون » . ولما أيقنوا أنه الحق لاالسحر ، عمدوا إلى حجة ضعيفة هى حجة العاجز قليل الحيلة ، قليل التفكير ، الذى لايريد أن يخرج عن تقليد الآباء الأولين ، ولو كانوا لا يعقلون شيئا ولا يفقهون ، فقالوا لموسى وأخيه « أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا ، وتكون لكما الكبرياء فى الأرض ، وما نحن لكما بمؤمنين » [٣] . وإذن يأتى فرعون بكل ساحر عليم ، « فلما ألقوا » ما عندهم « قال موسى ما جئتم به » هو « السحر » و « إن الله سيبطله ، إن الله لا يصلح عمل المفسدين . ويحق الله الحق بكلماته » وأوامره وآياته « ولو كره المجرمون » . آمن بموسى بعد ذلك قوم قليلون ، والذين آمنوا خافوا من فرعون وملئه وأشراف قومه أن يفتنوهم عن دينهم ، « وإن فرعون لعال فى الأرض وإنه لمن المسرفين » أخذ موسى هذه القلة من المؤمنين برسالته ، وقال لهم : « إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين » [٤] ، أى إن كنتم آمنتم بالله حقا ، فاجعلوا نفوسكم سالمة خالصة لله ، وتوكلوا على الله حقا ، لاعلى فرعون ، ولا خوفا من ملئه ؛ فالإيمان بالله وحده ، يوجه صاحبه إلى الله وحده ، لايفكر فى مخلوق ، ولا يخاف من مخلوق مهما علا وأسرف . « فقالوا على الله توكلنا ، ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين . ونجنا برحمتك من القوم الكافرين » [٥] .

---

(١) سورة يونس ، آية ٧٥ .
(٢) سورة يونس ، آية ٧٦ .
(٣) سورة يونس ، الآيات ٧٧ ، ٧٨ .
(٤) سورة يونس ، من الآية ٨٤ .
(٥) سورة يونس ، الآيات ٨٥ ، ٨٦ .

تلك هى أمثلة الماضين ، يسردها القرآن على الرسول من عهد «نوح» ، لئلا يداخله اليأس ، ويريد بها الإيمان الصحيح ، الذى يندفع إليه صاحبه ، لا الإيمان الذى تدفعه القوّة والجبروت : « أفأنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنين » [١] ويريد القرآن الإيمان المفكر بعد النظر فى السموات والأرض « وَما تُغْنِى الآياتُ والنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُون » [٢] . جاء محمد بالوحدانية ، والربوبية لله خالق كل شىء ، الله الذى يتوفاكم ، الله الذى إن مسك بضرّ فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير ، فلا راد لفضله ، يصيب به من يشاء من عباده ، وهو الغفور الرحيم . رسالة محمد ليست مادّية ، وليست قسرية ولا قاهرة : « قُلْ يأيُّها النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فإنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فإنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَما أنا عَلَيْكُمْ بِوَكِيل . وَاتَّبِعْ ما يُوحَى إلَيْكَ ، وَاصْبِر حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ ، وَهُوَ خَيْرُ الحاكِمِين » [٣] .

---

(١) سورة يونس ، من الآية ٩٩ .
(٢) سورة يونس ، من الآية ١٠١ .
(٣) سورة يونس ، الآيات ١٠٨ ، ١٠٩ .

سورة يوسف

القصص فى القرآن الكريم جاء لغايات ثلاث :

الأولى ، إيقاف الرسول عليه الصلاة والسلام على أخبار الماضين ، وتثقيفه هذه الثقافة الإلهية ، التى لايعرفها إلا المتعلمون ، وإلا الراسخون فى العلم من أهل الكتب السماوية القديمة ، فإذا عرفها الرسول وهو أمىّ لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يجلس إلى فقيه أو مثقف ، كانت معرفته من الله الذى « أدبه فأحسن تأديبه » ، « ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ » [1] « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا القُرآنَ ، وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الغَافِلِينَ » [2] .

والثانية : ما فى القصص من ذكرى وعبرة ، فما وقع فيه الماضون من الأخطاء يمكن أن يتحاشاه المتأخرون ، فإن لم يتدبروه ، ويعتبروا بما وقع منهم ، ولا بما وقع عليهم من عقوبة ، كانوا عرضة للعذاب ، لأنهم لم يعتبروا بالنذُر ، ولم يقفوا مواقف العبرة : « لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولى الأَلْبَاب ، ما كَانَ حَدِيثا يُفْتَرَى » [3] .

والثالثة : أن أهل الكتاب أنفسهم كانوا يسألون الرسول ليعلموا مبلغ صلته بالعلم ، ومبلغ صلته بربه ، وقد عرفوا أنه لم يدّع العلم ، ولا اعتمد عليه ، فلم يبق إلا أنّ ما يقول « تَنْزِيلٌ مِنْ ربّ العَالَمِين » [4] .

وسورة « يوسف » نزلت بعد سؤال أهل الكتاب الرسولَ عن أخبار « يعقوب » وولده ، وتفرّقهم فى الأرض ، ثم عن لمّ شملهم بعد هذه الفرقة « لَقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وإِخْوَتِهِ آياتٌ للسَّائِلِين » [5] . وقد قصّ عليهم الرسول أخبار « يوسف »

---

(١) سورة يوسف من الآية ١٠٢ .
(٢) سورة يوسف ، آية ٣ .
(٣) سورة يوسف ، من الآية ١١١ .
(٤) سورة الواقعة ، آية ٨٠
(٥) سورة يوسف ، آية ٧ .

وإخوته، وما كان من أمره وأمرهم فى آيات بينات، تناولت دخائل النفس الإنسانية وأسرارها، وما تنطوى عليه من خير وشرّ، وحسد، وغبطة، وحبّ، وكراهية. وقد قصّ القرآن على الرسول هذه السورة ليتسلى بما عمله معه قومه وعشيرته، فهاهوذا «يوسف» وهاهم أُولاء إخوته يلاقى منهم العذاب الأليم، والسجن الضيق، ثم يمنّ الله عليه بالعلم والملك، ويجمع شمله بأبيه، ويمكن ليوسف من إخوته، فيعفو عنهم ويصفح، ليكون فى هذا كله إثارة العواطف الكريمة الكامنة فى نفس الرسول، ليصفح عن قومه، وليستغفر لهم ما قدّموه من العِداء والإيذاء.

كان من أمر «يوسف» ما كان من إلقاء إخوته له فى الجبّ، ومن عثور بعض القوافل عليه، ومن بيعه فى مصر إلى العزيز فى أيام العمالقة؛ وكان من أمره ما كان مع امرأة العزيز من اختباره فى إيمانه وعفته، وفى صدق هذا الإيمان، ونزاهة هذه العفة، هذه النزاهة التى لاتكون إلا للأنبياء. وكان من أمره ما كان فى السجن لما جلس مفسرا لأحلام السجينين: «صاحب الخبز» و«صاحب الخمر»، وماتفسير الأحلام بالأمر الهين فى باب العلم والمعرفة، فهو تحديث الناس بوقائع ثابتة حسب ما يجرى به اللاشعور: أو العقل الباطن، لذلك كان هذا التأويل دلالة على ما حبا الله به «يوسف» من الحكمة، التى هى أخصّ مايملك الأنبياء من علم، هو من الفيض الإلهى. يُستدعى «يوسف» لمقابلة العزيز، فيفسر له رؤياه أيضا، ويصدق فى التفسير، ثم تظهر طهارته وبراءته لما حصحص الحقّ ووضحت السبيل، فيكون «يوسف» على خزائن الأرض أو «وزيرا للمالية والتموين» فى دولة الفراعنة. ويأتى إخوة «يوسف» الذين كانوا سببا فى بلائه، فيعرفهم وهم له منكرون، ثم يسألهم عن أخ لهم من أبيهم هو شقيقه «بنيامين»، ويشير عليهم بأن يحضروه، ليزداد نصيبهم فى التموين، فيرجعون إلى أبيهم يقولون: «يا أبانا مُنِعَ مِنَّا الكَيْل، فأرْسِلْ مَعَنا أخانا نَكْتَلْ، وَإنَّا لَهُ لَحافِظُون»[1]. ويتردّد الأب ويذكر «يوسف» ويذكر مافعلوه معه، ثم يستسلم بقوله «اللهُ على مانَقُولُ وَكيل»[2] كما استسلم لفقد «يوسف» بالصبر الجميل. ويأتى «بنيامين» فيعرفه

(١) سورة يوسف، من الآية ٦٣. (٢) سورة يوسف، من الآية ٦٦.

« يوسف » ويقرّبه إليه ، ويحتال لبقائه بجانبه بسرقة المكيال ، وجزاء السارق أخذه والاستئثار به ، وما يريد « يوسف » غير هذا ! ويعلم الأب بمصير ابنه الثانى ، فيرفع يديه إلى السماء قائلا : « إنَّمَا أشْكُو بَثِّى وَحُزْنِى إلى الله » [١] ، ثم تهديه غريزة الأبوّة إلى أن ولديه فى الأحياء ، فيقول لبنيه : « اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وأخِيهِ ، وَلا تَيْأسُوا مِنْ رَوْحِ الله ، إنَّهُ لايَيْأسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إلاَّ القَوْمُ الكافِرُونَ » [٢] . ثم يعرف الأخ أخاه ، ويعرف الإخوة أن المقتول لم يزل حيا حينما يقول لهم : « أنا يُوسُفُ وَهَذَا أخِى قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنا ، إنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فإنَّ اللهَ لايُضِيعُ أجْرَ المُحْسِنِين » [٣] ، فيردّون تائبين نائبين « تالله لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنا ، وَإنْ كُنَّا لَخاطِئِين » [٤] ، ثم يأمرهم بإحضار أبويه ؛ وجاء أبوه فرفعه إلى جانبه على كرسىّ الملك ، وترضاه بقول الله : « يا أبَتِ هَذَا تَأويلُ رُؤْيَاىَ مِنْ قَبْلُ ، قَدْ جَعَلَها رَبِّى حَقًّا ، وقَدْ أحْسَنَ بِى إذْ أخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ ، وَجاءَ بِكُمْ مِنَ البَدْوِ مِنْ بَعْدِ أنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِى وَبَيْنَ إخْوَتِى ، إنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِما يَشاءُ ، إنَّهُ هُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ » [٥] .

هذا هو ملخص السورة بحسب ماوردت فى القرآن الكريم ، أراد الله بسردها على رسوله وعلى المؤمنين أن يعلمهم الصبر ، وأن يفهمهم أن الحقّ له من نفسه نصير ، فهو لا بدّ واضح يوما ما ، ولا بد أن يجريه الله على ألسنة الذين حاولوا أن يدحضوه ويبطلوه ، وأن يعلمهم أن الكيد من الأقارب أو الأباعد كيد باطل وإذا قوبل بالصبر والتفويض ؛ رجع الكائدون أذلاء خاشعين ، لذلك رفع « يوسف » يديه إلى السماء وقال : « رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ المُلْكِ ، وَعَلَّمْتَنِى مِنْ تأويلِ الأحادِيث ، فاطِرَ السَّمَوَاتِ والأرْض » أنت منشؤها ، وأنت القيوم على ما يقع فيها ،

---

(١) سورة يوسف ، من الآية ٨٦ .
(٢) سورة يوسف ، آية ٨٧ .
(٣) سورة يوسف ، من الآية ٩٠ .
(٤) سورة يوسف ، من الآية ٩١ .
(٥) سورة يوسف ، آية ١٠٠ .

« أنْتَ وَلِيِّي فى الدُّنْيا والآخِرَةِ » أى كما توليتنى بالنعمة والملك فى الدنيا، تولنى بالنعمة فى الآخرة ، وصل نعمتك الفانية بنعمتك الباقية « تَوَفَّنِى مُسْلِما وأَلْحِقْنِى بالصَّالِحِين » ؛ طلب « يوسف » أن يلهمه الله الإسلام ، فيهديه إلى تعليمه ، أو أن يجعله فى عقبه ؛ ودعوته كدعوة أبيه يعقوب لما قال لبنيه : « فلا تَمُوتُنَّ إلاَّ وأنْتُمْ مُسْلِمُون » [1] . ثم تمتنّ الآيات على الرسول لمَّا علمه الله ما لم يكن يعلم « ذَلِكَ مِنْ أنْباءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إلَيْكَ » . وتلتفت الآيات إلى قريش متهكمة بهم : « وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إذْ أجْمَعُوا أمْرَهُمْ » على قتل أخيهم « وَهُمْ يَمْكُرُونَ » به وبأبيهم . وتلتفت إلى الرسول وإلى قريش معا ، فيتبين حرصه على هدايتهم وحرصهم على شقائهم « وَما أكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ . وَما تَسْألُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أجْرٍ » فما تريد إلا إرجاعهم عن الباطل « إنْ هُوَ إلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِين » ولكنهم غافلون : « وكأيِّنْ مِنْ آيَةٍ فى السَّمَواتِ والأرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها ، وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ » [2] .

ثم تغمز الآيات أهل الكتاب والمشركين غمزة قوية ، بأنهم يصدقون خلق الله ويعبدون الأوثان ! أو أنهم يصدقون الكتب السماوية ويكفرون بكتاب لا شك فيه ولا شك فى صاحبه « وَما يُؤْمِنُ أكْثَرُهُمْ باللهِ إلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُون » فهم يَخْلطون بين الشرك والتوحيد ، والكفر والإيمان ، فهل أمنوا غضب الله ؟ وهل أمنوا « أنْ تَأْتِيَهُمْ غاشِيَةٌ مِنْ عَذابِ اللهِ ، أوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لايَشْعُرُون » . لاتتعب نفسك معهم ، بل « قُلْ هَذِهِ سَبِيلِى ، أدْعُوا إلى اللهِ على بَصِيرَةٍ أنا وَمَنِ اتَّبَعَنِى ، وَسُبْحانَ اللهِ ، وَما أنا مِنَ المُشْرِكين » [3] .

ثم تختتم السورة ببيان فائدة القصص والغرض منه : « لَقَدْ كانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولى الألْبابِ ، ما كانَ حَدِيثا يُفْتَرَى ، وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لقَوْمٍ يُؤْمِنُون » [4] .

---

(١) سورة البقرة آية ١٣٢ .
(٢) سورة يوسف ، الآيات ١٠٢ – ١٠٥ .
(٣) سورة يوسف ، الآيات ١٠٦ – ١٠٨ .
(٤) سورة يوسف ، آية ١١١ .

من سورة الكهف

أول المسيحية — تعذيب المؤمنين بها

نجاتهم من ظلم الأباطرة — تمثيل للبعث

سورة الكهف سورة مكية ، إلا بعض آياتها التى نزلت بالمدينة ، وهى تبتدئ بحمد الله وشكره الذى « أنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ الكِتاب ، وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجا » [1] ، فليس فيه تناقض ولا اختلاف ، ولا خروج عن الحكمة والصواب ، بل جعله « قَيِّما » على سائر الكتب ، شاهدا بصحتها ، وجعله « قيّما » يقوم على مصالح العباد ويهديهم ويُرشدهم ، ويُنذرُ الخارجين والمارقين ببأس شديد وعذاب أليم ، « من لدنه » صادر من عنده ، وموجه إلى من يستحقّ ؛ وما أشدّ عذاب من وُكل عذابه إلى الله ! « فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذابَهُ أحَدٌ ، وَلا يُوثِقُ وَثاقَهُ أحَد » [2] .

هذا الكتاب الذى ينذر المارقين ، « يُبَشِّرُ المُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أنَّ لَهُمْ أجْرًا حَسَنا ، ماكِثِينَ فِيهِ أبَدًا » . وهذا الكتاب الذى ينذر بالبأس الشديد ، ينذر أكثر ما ينذر هولاء « الذِينَ قالوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدا » يقولون هذا القول المنكر « ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لآبائِهِمْ » أى يردّدون هذه المقالة من الشرك ، لاعن علم ، ولكن عن جهل ، وعن تقليد لما كان يردّده آباؤهم ؛ أى يردّدونها وما لهم بها من علم ، لأن الشرك بالله لايدركه العلم ولا الفهم ، كما لايدرك المستحيل ؛ فالجهل يأتى إما عن عدم العلم ، وإما من اشتغال العقل بالمستحيل ، الذى لايوصل فيه البحث إلى نتيجة : « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أفْواهِهِمْ إنْ يَقُولُونَ إلاَّ كَذِبا » [3] فقد يفكر الإنسان فى الشرّ ، وفى المستحيل ويحذر أن ينطق به ، أما من يفكر فيه ويُجريه على فمه ، فقد جمع إلى الجهل وفساد الاعتقاد ، الحماقة والجرأة .

---

(١) سورة الكهف ، آية ١ . (٢) سورة الفجر ، آية ٢٥ ، ٢٦ .
(٣) سورة الكهف ، الآيات ٣ — ٥ .

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يتألم إذا تركه قومه، ولم يصدّقوه، كما يتألم الرجل يتركه أحبته فيأسف لفراقهم، ويبخع نفسه، أى يُهلكها حزنا عليهم، « فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ على آثارِهِمْ إنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الحَدِيثِ أسَفا ». ثم تلتفت الآيات إلى الرسول تسليه، وتقصّ عليه العجائب من أخبار الماضين، وقبل أن تتعرّض لقصة «أهل الكهف» تقرّر أن الأرض وماعليها من زينة، إنما خلقت للابتلاء والاختبار: « لِنَبْلُوَهُمْ أيُّهُمْ أحْسَنُ عَمَلا »، والذى خلقها قادر على أن يجعلها « صَعِيدًا جُرُزًا »[1] أى أرضا بيضاء، لانبات فيها ولا ماء.

وكان من تحديهم للرسول بعد أن أعيتهم الحيل فى أمره، أن يختبروا علمه وثقافته، فوضعوا له ثلاثة أسئلة: الأول فى أخبار أهل الكهف، والثانى فى أخبار « الإسكندر ذى القرنين » والثالث فى أمر الروح، وقالوا إن أجاب عنها جميعها كان مدّعيا مُتعالما، وإن أجاب عن الاثنين: الأول والثانى، وعجز عن الثالث فهو نبىّ رسول؛ وكذلك كان الرسول على غير ما كانوا يرجون! أجاب عن سؤالين، وقال عن الثالث: « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أمْرِ رَبِّى؛ وَما أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إلاَّ قَلِيلا »[2].

ويدور العلم ما يدور بنظرياته وعقوله، فلا يجد تفسيرا علميا دقيقا فى معنى الروح! وقد أخبرهم الرسول بقصة أهل الكهف كما وردت فى القرآن، لا كما يتخيّل فيها القصاصون، بعد أن أفهمهم أنها آية من آيات الله، وليست أعجب الآيات فى خلقه وصنعته: « أمْ حَسِبْتَ أنَّ أصْحابَ الكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَبا!! »[3].

قصة « أهل الكهف » هى قصة المؤمنين فى المسيحية، الذين اضطهدهم الإمبراطور « دقيانوس » كان يتعقبهم عذابا وتنكيلا، فإما أن يرجعوا إلى عبادة الأصنام، وإما أن يقطع رءوسهم وأشلاءهم، ويُعلّقها على أسوار المدينة، فهرب فتية من هؤلاء المؤمنين إلى كهف فى الجبل، بعد أن ربط الله على قلوبهم برباط اليقين، فكانوا يرون العذاب ويقولون: « رَبُّنا رَبُّ السَّمَواتِ والأرْضِ، لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ

(١) سورة الكهف، آية ٦، ٧، ٨.
(٢) سورة الإسراء، من الآية ٨٥.
(٣) سورة الكهف، آية ٩.

إلها! »[1] ولو قلنا غير ذلك لقلنا قولا شططا ، بعيدا عن الحق والصواب . دخلوا الكهف معتمدين على الله قائلين : « ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وهيئ لنا من أمرنا رشدا »[2] . « نحن نقص عليك نبأهم بالحق ، إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » وكانوا ينظرون إلى قومهم ويقولون « هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة ، لولا يأتون عليهم بسلطان بين ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا »[3] . فاعتزلوهم ، واعتزلوا أوثانهم ، وسمعوا من يصيح بهم : « فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ، ويهيئ لكم من أمره مرفقا »[4] أى يهيئ لكم بعد ذلك نفعا وأملا ورجاء .

أخذوا شيئا من الزاد يكفيهم ، وأخذوا شيئا من الورق : أى الفضة ، يستعينون به على شراء ما يلزمهم ، وتبعهم كلبهم ، فأبى إلا أن يكون معهم ، ودخلوا الكهف ، والكلب رابض أمامه كالحارس الأمين . وكانوا يرسلون أخاهم « تمليخا » إلى السوق سرا يشترى لهم ما يريدون ، ويتحسس لهم أخبار « الإمبراطور » وما يريد أن يفعل بهم ؛ بقوا على هذه الحال ساجدين قائمين لاتدركهم الشمس ، ولا تنالهم بحرها ، وإنما تنالهم بشعاعها وضوئها « إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ، وإذا غربت تقرضهم » أى تقطعهم « ذات الشمال ، وهم في فجوة منه » من الكهف « ذلك من آيات الله ، من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا »[5] .

عرف الإمبراطور أمرهم ومخبأهم . فأمر أن يسد باب الكهف عليهم ، فسد ، ثم أماتهم الله الموتة الصغرى ، فوقعوا فى نوم عميق « ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا (أى تسع سنين) « قل الله أعلم بما لبثوا ، له غيب السموات والأرض ، أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من ولى ، ولا يشرك في حكمه أحدا »[6] .

جاء حكم « بيدوس أوبطرس » وكان مؤمنا بالمسيحية ، فألهم الله واحدا من رعيته

---

(١) سورة الكهف ، آية ١٤ .
(٢) سورة الكهف ، آية ١٠ .
(٣) سورة الكهف ، آية ١٣ .
(٤) سورة الكهف ، آية ١٦ .
(٥) سورة الكهف ، آية ١٧
(٦) سورة الكهف ، آية ٢٦ .

أن يهدم باب الكهف ، ليتخذ من أحجاره ما يبنى به حظيرة لغنمه ، ففتح الكهف عليهم ، واستيقظ النائمون : «وكَذَلِكَ بَعَثْناهُمْ لِيَتَساءَلُوا بَيْنَهُمْ ، قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ، قالُوا لَبِثْنا يَوْما أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ ، فابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلى المَدِينَةِ ، فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكَى طَعاما فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ ، وَلْيَتَلَطَّفْ ، وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدا » .

نزل «تمليخا» إلى السوق ومعه قطعة النقود المضروبة باسم الإمبراطور «دقيانوس» ، وكان قد مضى على موته أكثر من ثلثمائة عام ، فاعتبروه قد عثر على كنز قديم ، وشدّدوا عليه النكير ، حتى وصل أمره إلى الحاكم ، فأخبرهم بخبر الفتية لما علم أن المسيحية قد انتشرت أكثر مما كانت : « وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، وأَنَّ السّاعَةَ لا رَيْبَ فِيها » .

وهكذا قصّ القرآن القصة صحيحة ، وكان المشركون والمكابرون الذين امتحنوا الرسول فى أمرها مختلفين فيها ، فمنهم من يقول إن الفتية ثلاثة ورابعهم كلبهم ، ومنهم من يقول إنهم خمسة وسادسهم كلبهم ، رجما بالغيب ، ومنهم من يقول إنهم سبعة وثامنهم كلبهم ، فأمر الله نبيه أن يقول « قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ، ما يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ . فَلا تُمارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِراءً ظاهِرًا » أى لا تجادل فى أمر أهل الكهف إلا المجادلة الظاهرة ، التى أظهرها الله لك « وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدا » [١]

تلك هى قصة أهل الكهف ، قصها الله على رسوله لأمور ثلاثة :

الأول : قد أظهره الله عليهم لما امتحنوه واختبروه .

الثانى : أن القصة تدلّ على شعور الناس بالبعث ، وعلى أن وقت الساعة قريب « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها » [٢] .

الثالث : أنّ علم الرسول من علم الله ، فالله يأمره إذا سئل عما لا يعرف أن يذكر ربه ، فيعلّمه ما لم يكن يعلم : « وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ ، وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّى لأَقْرَبَ مِنْ هَذا رَشَدا » [٣] .

---

(١) سورة الكهف ، الآيات ١٩ — ٢٢ .
(٢) سورة النازعات ، آية ٤٦ .
(٣) سورة الكهف ، آية ٩ .

مِن هَدْى الآيات

من سورة البقرة

القتال فى سبيل الله — عدم الاعتداء ابتداء — العدل فى الحرب

« يَسألُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ ، قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ للنَّاسِ والحَجِّ ، ولَيْسَ البِرُّ بِأنْ تَأتُوا البُيُوتَ مِنْ ظُهُورِها ، ولَكِنَّ البِرَّ مَنِ اتَّقَى ، وأْتُوا البُيُوتَ مِنْ أبْوَابِها ، واتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ . . . » [1] .

سورة البقرة مدنية ، مملوءة بالأحكام ومبادئ التشريع ، فأهل الكتاب من ناحية يسألون الرسول ، إما عنتا وإما استفهاما ، والأنصار والمهاجرون من ناحية أخرى يسألون عما لا يعلمون ، ويختلفون فيما بينهم فى أمر ما سمعوه من الرسول ، وما حفظوه من الآيات فى مكة والمدينة ، والحروب متكرّرة ومستعرة ، فالمسلمون لابدّ أن ينشروا دينهم ، ولا بد أن يصدّوا عنهم ، عاديات الأعداء عليهم ، وفى كل ذلك تنزل الآيات لتبين ما هم فيه مختلفون .

سأل « معاذ بن جبل » و « ثعلبة الأنصارىّ » الرسول عليه الصلاة والسلام هذا السؤال فى الفلك أو فى الجغرافيا : « ما بال الهلال يبدو دقيقا مثل الخيط ثم يزيد ، ثم يمتلئ ويستوى ، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ » ؟ فنزلت الآية : « يَسألُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ ، قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ للنَّاسِ والحَجِّ » ، أى هى مواقيت للناس يعرفون بها أوان زراعاتهم ، ومواقيت ديونهم ؛ وهى أيضا مواقيت للحجّ ، يكون فى أشهر معلومات ، لا تؤخر ولا تبدل ، كما كانوا يؤخرونها ويبدلونها فى الجاهلية . وكان العرب فى الجاهلية ، وفى أول الإسلام إذا أحرموا للحجّ ، حرّموا على أنفسهم الدخول من الأبواب ، أى الدخول فى البيوت ، ومكثوا فى العراء ليس بينهم وبين السماء حجاب ، اعتقادا

---

(١) سورة البقرة ، الآيات ١٨٩ وما بعدها .

منهم أن ذلك من البرّ والخير ، فعلمهم القرآن أنهم مخطئون « وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا ، وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى ، وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ، وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » . وفى الآية إشارة إلى أن السؤال عن الهلال ، وعن أوجه القمر ، أمر ظاهر ومفهوم ، ومن يسأل عن الشئ المعروف كان كمن يدخل البيت من السطح لا من الباب ، فأتوا البيوت من أبوابها ، أى اسألوا عما يفيد ، وفيما هو أهمّ من الهلال وأوجهه وتقلباته ، مما يمسكم ويمسّ كيانكم ؛ لذلك تنتقل الآيات إلى المهمّ ، وهو الكلام فى الجهاد ، وفى نشر الدعوة ، والعمل فى سبيل الله : « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ، إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » .

هذه الآية تحدّد خطة الإسلام والمسلمين فى الجهاد وفى الحروب . فحرب المسلمين مبنىّ على خُلُقين عظيمين لازالت المدنيات الحديثة فى حاجة إليهما فيما يكون بينها من حرب وشجار .

الأول : العدل « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ » أى أن القتال مقصور على المقاتلين ، فلا تقتل النساء ولا الأطفال ، ولا الرهبان ، لأنهم لم يقاتلوا ولم يعتدوا ، وهم ليسوا مظنة اعتداء ، والله لايحبّ المعتدين .

الثانى : الإحسان حتى فى القتل ، فلا يكون تعقبا ولا تمثيلا ، ولا لمن ألقى إليكم السلام ، وكان الرسول عليه السلام إذا أمّر أميرا على بعثٍ أو سَرِيَّة أوصاه بتقوى الله هو ومن معه من المسلمين ، وكان يقول لهم « اغْزُوا وَلَا تَغْلُوا ، وَلَا تَعْتَدُوا وَلَا تُمَثِّلُوا ، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا » . وكان ابن عباس يقول : « لاتقتلوا النساء والصبيان ، والشيوخ والرهبان ، ولا من ألقى إليكم السلام » ؛ فالإسلام يكره الاعتداء ابتداء ، ويقف موقف الدفاع عن فكرته وعن معتنقيها ، فاذا اعتدى العدوّ على الوطن وعلى المواطنين وأخرجهم من ديارهم ، وأخرجهم عن أموالهم ، دافع الإسلام والمسلمون بشدّة وعنف ، لارحمة فيهما ولا هوادة ؛ فإذا اعتدى معتد نفر

المسلمون ليطبقوا الآية « فاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ، وأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ » .

والخضوع للتعدّى . والخنوع أمام المعتدين فتنة ، تفتن المسلمين فى أنفسهم وفى دينهم ، « وَالفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ القَتْلِ » . وكان المشركون قديما ، كالخارجين الآن عن الدين وعن القانون ، لايحترمون منطقة الحياد ، وهى « الحَرَم » ، ولا وقت الحياد وهى « الأشهر الحرم » ظنا منهم أن المسلمين لا يقبلون قتالا فى الحَرَم وفى الأشهر الحرم ، وهم إذا قبلوه اقتتلوا فيما بينهم فى دينهم ، فقيل لهم « وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ المَسْجِدِ الحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ، فإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ، كَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِينَ . فإِنِ انْتَهَوْا فإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

والمؤمن يدافع عن دينه وفكرته ، كما يدافع عن وطنه وماله : « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاتَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلهِ . فإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ على الظَّالِمِينَ »[1] . ثم تكرّر الآيات أن أرض الحياد محترمة ، وأن أشهر الحياد محترمة ، ولكن كان من المشركين أن قاتلوا المسلمين فى شهر ذى القعدة وهو شهر حرام ، فكره المسلمون قتالهم احتراما لحرمات الله . ولما خيف من تمادى المشركين أُمروا بصدّ العدوان عنهم . ولو فى الأشهر الحرم « الشَّهْرُ الحَرَامُ بِالشَّهْرِ الحَرَامِ ، وَالحُرُمَاتُ قِصَاصٌ » ، فهتك حرمة الحياد تقابل بمثلها : « فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ » . ومع هذا كله لم ينس الإسلام الإحسان ، حتى فى العدوان ، فهو يأمر بأن القصاص لابد أن يكون معادلا ومماثلا للذنب ، ولا بد فيه من خشية الله والخوف منه ، لذلك يأمر المؤمنين بالتقوى حتى فى القصاص : « وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ المُتَّقِينَ »[2] .

وبعد بيان هذه الأحكام فى الاعتداء ، وفى مقابلته بمثله تلتفت ، الآيات إلى ناحيتين مهمتين فى الجهاد فى سبيل الله ، وفى ضرورة احتفاظ المسلمين بأوطانهم وأموالهم وأهليهم هما : المال والاستعداد « وَأَنْفِقُوا فِى سَبِيلِ اللهِ ، وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ »

(١) سورة البقرة ، الآيات ١٩١ – ١٩٣ . (٢) سورة البقرة ، آية ١٩٤ .

فالإنفاق على الجيش المرابط فى سبيل الله ، وفى سبيل الوطن ، ضرورىّ وواجب على كل المسلمين . ولا يقلّ الإنفاق فى تجهيز الغُزاة عن الإنفاق فى سبيل الحجّ ، وفى الحديث « مَنِ احْتَبَسَ فَرَسا فِى سَبِيلِ اللهِ إِيمَانا واحْتِسابا لِلهِ وَتَصْدِيقا بِوَعْدِهِ ، يُحْسَبُ لَهُ فِى مِيزانِهِ يَوْمَ القِيامَةِ » ، ولنا الآن أن نقول : من احتسب « دبّابة » فى سبيل الله بدل الفرس ، ولا نكون خارجين على الدين فى شىء !

أما بقية الآية « وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إلى التَّهْلُكَةِ » فمعناها الاحتياط وأخذ الحذر والاستعداد للعدوّ : لأن عدم الاستعداد يجرّ إلى الهلكة والتهلكة ؛ فالأمة التى لاتستعدّ لعدوها ، هى أمة تلقى نفسها فى النار طواعية واختيارا ، وقد فهم هذا المعنى « أبو أيوب الأنصارىّ » رضى الله عنه فى إحدى غزواته للروم ، فقد رأى المسلمون رجلا منهم يحمل وحده على صفّ الروم ، فصاح الناس : «يلقى بيديه إلى التهلكة »! فقال أبو أيوب : إنكم لتأوّلون الآية تأويلا خاطئا ، وفينا نزلت معشر الأنصار ، فإنه بعد أن أعزّ الله الإسلام وكثر ناصروه ، قال بعضنا لبعض سرّا : « إن أموالنا قد ضاعت ، فلو أقمنا فى أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها»! فأنزل الله يردّ علينا « وأَنْفِقُوا فِى سَبِيلِ اللهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إلى التَّهْلُكَةِ » ، فكانت التهلكة : هى الإقامة على الأموال وإصلاحها ، وتركنا الغزو ، وما زال « أبو أيوب » شاخصا فى سبيل الله حتى دفن بأرض الروم .

ومع الإنفاق على الجيش والاستعداد للحرب ، تطلب الآية الإحسان فيهما .

« وأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ » [1] .

---

(١) سورة البقرة ، من الآية — ١٩٥ .

من سورة آل عمران

الصبر والتقوى – كتمان العلم إثم – العلم الضار إثم

التظاهر والرياء – التدبر والتفكير – الصبر والمصابرة والمرابطة

« لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ . . . » [1] .

كلّ ذى دعوة إلى الخير لا بدّ متعرّض لشرّ الناس وأذاهم ، لأنه جاء لتهذيب غرائزهم وتربيتها ، وهى جامحة بطبيعتها ، تحتاج إلى كثير من التعديل ؛ ولا بدّ لصاحب هذه الدعوة من الصبر على الأذى واحتمال المتاعب ، ومغالبة الأحداث ، ومسايرتها أحيانا ، والتحايل لها أحيانا أخرى ، حتى يصل إلى ما يريد . هكذا كان الرسول وصحبُه الكرام : لاقَوْا كثيرا من الأذى ، وكثيرا من العَنَت ، تطاول عليهم الناس بالقذف والسبّ ، وتطاولوا عليهم فى أموالهم وفى أنفسهم ، فصبر الرسول ، كما صبر أولو العزم من الرسل . وكان القرآن يهبط عليه يقوّى من نفسه ، ويحفّز من همته ؛ وفى وسط هذه المحن التى لاقاها الرسول ومن معه ، نزلت هذه الآيات : « لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ، وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا . وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » .

أمر الله عباده بخلتين كريمتين : الصبر ، والتقوى . فالصبرُ احتمال المصاعب ، واحتمال الأذى . والتقوى : طاعة الأوامر ، والتحرّز عما لاينبغى ؛ والصبر والتقوى من عزم الأمور ، أى مما ينبغى أن يعتزمه ويوجه إليه المؤمن الصادق إرادته وعزيمته .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٨٦ وما بعدها .

وبعد هذه التسلية العظيمة للرسول ومن معه، وبعد أمرهم بالصبر والتقوى، وشدّ العزيمة على النفوس، حتى لا يصيبها الملل، ولا يضعفها التردّد، تبين الآيات أن معارضة أهل الكتاب، وبخاصة العلماءُ منهم، أشدّ مقتا عند الله من معارضة الجهلة الذين لا يجدون عاصما من كتاب يهديهم، أو عقل يرشدهم. فبين العلماء وبين الله ميثاقٌ: هو ألا يكتموا العلم عن الناس، وأن يبيّنوا وجوه المنفعة من العلم للناس «وإذْ أخَذَ اللهُ ميثاقَ الّذين أُوتُوا الكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ للنّاسِ ولا تَكْتُمُونَه» ولكن أهل الكتاب نبذوا كتبهم وراء ظهورهم، «واشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنا قَليلاً فَبِئْسَ ما يَشْتَرُون»[1].

ويؤخذ من الآية أن المتعلم الذى يضنّ بعلمه على قومه آثم، فهو يكتمه ولا يبيّنه، وأن المتعلم الذى ينشر الآراء الضالة المضلة آثم أيضا، لأنه يشترى بالعلم ثمنا قليلا، وأن المتعلم الذى يصانع بعلمه ويبادل به على الجاه عند فلان، أو الزُّلْفَى عند آخر آثم، لأنه يشترى بالعلم ثمنا قليلا، ويبادل به عوضا رخيصا. ومن كلام «علىّ» كرّم الله وجهه: «ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا، حتى أخذ على أهل العلم أن يُعَلِّموا».

وبعد أن أمرت الآيات بخلقين: الصبر، والتقوى، نهت الآيات عن خلقين: التظاهر والرياء، وإسداء الحمد والشكر لمن لا يستحق حمدا ولا شكرا؛ فمن الناس من إذا عمل خيرا تظاهر به، وأشاعه فى الناس ليبين لهم أنه خيّر! والدين يخشى على مثل هذا من الرياء، ومنهم من يعمل الشرّ ويفرح به، لأنه قادر على الوقيعة بين الناس، وقادر على الهدم والتفريق، وأشدّهم بلاء ونكالا من يعمل الشرّ ويتظاهر بأنه عمل خيرا!! ومنهم من تقصده فى حاجة فلا يقضيها، ويكذب عليك بأنه أفرغ فيها جهده، ويريد منك بعد ذلك شكره، ويغضب إن لم تشكره! هذه الأخلاق كلها تجمعها الآية فى عبارة قصيرة «لا تَحْسَبَنَّ الّذين يَفْرَحُون بِما أتَوْا، ويُحِبُّون أنْ يُحْمَدُوا بِما لَمْ يَفْعَلُوا، فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفازَةٍ مِنَ العَذابِ، ولَهُمْ عَذابٌ أليم»[2]. هذه أخلاق سائرة تحيا بيننا، ونعيش فيها،

(١) سورة آل عمران، آية ١٨٧.
(٢) سورة آل عمران، آية ١٨٨.

وهى بعينها الأخلاق التى كان عليها الناس قديما : فقد كانوا يتخلفون عن الرسول إذا خرج للجهاد ، ويفرحون بمقعدهم خلاف رسول الله ، ويقولون إن بيوتنا عَورة وماهى بعورة ! فإذا رجع من الجهاد تظاهروا أمامه أنّ تخلفهم كان للمصلحة العامة ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا . وكان أهل الكتاب يضللون الناس ، ويحبون أن يحمدهم الناس بأنهم علماء ، وبأنهم مرشدون ؛ وكان أهل الكتاب يبدّلون من كتبهم ، ويحبون أن يحمدهم الناس لأنهم علماء متصرّفون ومجددون ؛ وكان أهل الكتاب يقولون للرسول : «نحن نعرفك فى كتبنا ونصدّقك، ونحن عَون لك على عدوّك» ! ويعلم الله أنهم كاذبون ، ولكنهم يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ! ! أخلاق الناس واحدة قديما وحديثا ، وسبحان الله العليم بالنفوس ، الخبير بخفاياها . مثل هؤلاء ليسوا بمفازة من العذاب ، لايفلتون منه ، وأنى لهم النجاة ممن له « مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرْض ، واللهُ على كُلّ شَيْءٍ قَدِير » [١] .

تنتقل الآيات بعد ذلك إلى التدبر والتفكير ، فقد سأل المشركون وأهل الكتاب الرسول أن ينزّل لهم آية من السحر أو الطب ! فبين الله أن دين الإسلام دين تفكير وتبصر : « إنّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ والأَرْض ، وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهار ، لآيات لأُولى الألْباب » [٢] . فمن فكر فى السموات ، وزينتها ، وأجرامها ، ومنازل الأفلاك فيها ، وتنقلها ، ومساراتها ودورانها ، ثم يتفكر فى الأرض وما عليها ، وما فى باطنها ، ثم يتفكر فى اختلاف الليل والنهار قصرا وطولا ، وضوءا وظلمة ، ومعاشا ولباسا ، وحركة وسكونا ، وأمنا وخوفا ، إن من يتفكر فى كل هذا ، ويذكره قائما وقاعدا ، ونائما ومضطجعا ، لابد أن يرجع به تفكيره إلى ترجيع هذه الآية ، وترديدها بالقلب واللسان ، مطمئنا مصدقا ، صارخا من الخشية ومن اليقين : « رَبَّنا ماخَلَقْتَ هَذَا باطِلاً سُبْحانَكَ » لك الثواب والعقاب ، وإليك المرجع والمآب ، « فَقِنا عَذَابَ النَّار » [٣] لأن من تدخل النار فقد أخزيته ، « يَوْمَ لايُخْزِى اللهُ النَّبِىَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَه » [٤]

(١) سورة آل عمران ، آية ١٨٩ .
(٢) سورة آل عمران ، آية ١٩٠ .
(٣) سورة آل عمران ، آية ١٩١ .
(٤) سورة ، التحريم آية ٨ .

ويوم لايجد الظالمون من دون الله ملجأ ولا نصيرا . إن أولى الألباب يرجعون بعد هذا التفكير بسهولة إلى تصديق الرسول ، واستماع نداء القرآن الذى ينادى بالهداية والرشد، ويقولون : « رَبَّنا إنَّنا سَمِعْنا مُنادِيا يُنادِي للإيمانِ أنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فآمَنَّا » ثم يرجعون يطلبون التوبة والمغفرة « رَبَّنا فاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا، وكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئاتِنا ، وَتَوَفَّنا مَعَ الأبْرارِ »[1] .

ويختم أولو الألباب دعاءهم بهذه الآية : « رَبَّنا وآتِنا ما وَعَدْتَنا على رُسُلِك » أى على ألسنة رسلك ، « وَلا تُخْزِنا يَوْمَ القِيامَةِ ، إنَّكَ لا تُخْلِفُ المِيعاد »[2]، ويحقق الله ما وعد به رسله ويقول : « فاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْض » وما ألطف هذه الإشارة فى الآية ، ففيها الفكرة ، وفيها الاستدلال عليها : أما الفكرة فهى أن كل من عمل صالحا لافرق فيه بين الرجل والمرأة يثاب عليه ؛ وأما الاستدلال فى قوله « بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْض » أى أن الرجل كالمرأة ، والمرأة كالرجل فى الحقوق والواجبات ، لهن حقوق ، وعليهن واجبات « وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بالمَعْرُوفِ » وقد سألت أم سلمة الرسول عليه الصلاة والسلام : « هل ذكر النساء فى الهجرة بشيء » ؟ فنزلت هذه الآية بالمساواة فى الطاعات ، والتكاليف ، وثواب الهجرة ، « فالَّذِينَ هاجَرُوا وأُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وأُوذُوا فى سَبِيلِي ، وَقاتَلُوا ، وَقُتِلُوا ، لأكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ ، وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأنْهار ، ثَوَابا مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَاب »[3]

وبعد أن بينت الآيات تفكير أولى الألباب ، وما ينبغى أن يتوجه إليه بالتفكير ، خشيت من ضعف النفوس ، حينما يرى المؤمن نفسه فقيرا ذليلا غير قادر على مسايرة الحياة والاستمتاع بها ، ويرى غيره من الكافرين والجاحدين والملحدين ، يتنقلون هنا وهناك ، ويتمتعون هنا وهناك ، فترد الآيات على هذه الأوهام والوساوس

---

(١) سورة آل عمران ، آية ١٩٣ . (٢) سورة آل عمران ، من الآية ١٩٤ .

(٣) سورة آل عمران ، آية ١٩٥ .

« لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي البِلاد . مَتاعٌ قَلِيل ، ثُمَّ مأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المِهاد » أى وبئس مامهدوا به لأنفسهم عند الله ؛ « لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ ، خالِدِينَ فِيها ، نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ للأَبْرَار » .

وبعد أن بينت الآيات أن المسلمين أوذوا كثيرا من أهل الكتاب ، ومن الذين أشركوا ، بينت أن أهل الكتاب ليسوا سواء فى الإنكار والأذى ، بل منهم من صدّق بكتابه ، وصدّق بما جاء به الرسول ، أى أن منهم من اعتقد بالوحدانية ، وبأن الأديان الصحيحة ، مجمعة على الفضائل ، فهؤلاء يُؤتون أجرهم مرّتين .

وإنَّ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ باللهِ وَما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ، وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ ، خاشِعِينَ لِلهِ ، لا يَشْتَرُونَ بآياتِ اللهِ ثَمَنا قَلِيلاً ، أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِساب » .

ثم تختم سورة آل عمران بهذه الآية الجامعة لصفات المؤمنين العاملين والجامعة لكسب الحياتين الأولى والآخرة « يأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِروا ، وَصابِرُوا ، وَرابِطُوا ، وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون »[1] .

---

(١) سورة آل عمران ١٩٦ – ٢٠٠ .

من سورة آل عمران

التوحيد – المحكم والمتشابه – نموذج من الآيات المتشابهة

« الم . اللهُ لا إلهَ إلاّ هُوَ الحَيُّ القَيُّوم . نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتابَ بالحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْه ، وأنْزَلَ التَّوْرَاةَ والإنجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى للنَّاس ، وأنْزَلَ الفُرْقان ، إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بآياتِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقام . إنَّ اللهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأرْضِ وَلا فِي السَّماء . هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأرْحامِ كَيْفَ يَشاء ، لاإلَهَ إلاّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيم . . . »[1] .

سورة « آل عمران » من السور المدنية التى قرّرت وحدانية الله ، وكثيرا من الأحكام فى الحجّ ، وفى محاجة أهل الكتاب ، وفى القتال وفى نصرة المؤمنين فى موقعة « بدر » وفى ابتلاء المؤمنين فى أموالهم وفى أنفسهم ، وفى تكريم آل عمران أسرة « مريم » أمّ المسيح ، وبهذه الأسرة المباركة سميت السورة الكريمة .

تبتدئ السورة بالتوحيد : « اللهُ لاإلَهَ إلاّ هُوَ الحَيُّ القَيُّوم » ، فهو الحىّ الدائم ، وكل شىء هالك إلا وجهه ، وهو القيوم ، القائم على ملكه وحده لاشريك له ، وهو الذى نزّل عليك هذا الكتاب المعجز « بالحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْه » من الكتب السماوية : ؛ فقد احترم الإسلام كل الشرائع المُنزَّلة ، وما صحّ من الديانات قبله ، فالإسلام وأهله يعتقدون أن « التوراة » من عند الله ، وأن « الإنجيل » من عند الله ، وكل هذه الكتب السماوية « فُرقان » تفرق بين الحق والباطل ، وتفصل بين الهدى والضلال ، والقرآن الكريم هو الفُرقان الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولكن الناس ضلوا ، وابتعدوا عن آيات الله وهى تلاحقهم ، فلا يفلتون

---

(١) آيات من أول سورة آل عمران .

منها : « إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بآياتِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيد ، وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقام » . فمن طمع فى قول الله « كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ » فليتذكر قوله « وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقام » !

« إنَّ اللهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى الأَرْضِ وَلا فِى السَّماء » أى لاتخفى عليه خافية فى العالم ، وفى ساكنيه : يعلم ظلم الظالم ، وإحسان العادل ، وإلحاد الجاحد ، وإيمان المؤمن ، وهو مجازيهم ، كلٌّ بما يستحقّ وما يؤهله له عمله .

« هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى الأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ ، لاإلَهَ إلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيم » . أى هو الذى صوّركم بصور متفاوتة فى الخلق ، والشكل ، والجنس ، والاستعدادات العقلية ، ويصوّركم كيف يشاء ، وما يريد من عباده إلا العبادة والسعادة : « وَما خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُون »[1] فهم مخلوقون مستعدّون بهذا الخلق لهذه السعادة .

تطفر الآية من هذه الكلمة الصغيرة « يُصَوِّرُكُمْ فِى الأَرْحامِ كَيْفَ يَشاء » إلى إثبات ماسيأتى بعدها من أن « عيسى » من روح الله ، وهو مصوّر فى بطن أمه كسائر ماخلق الله ، فإذا أجرى الله على يديه أنه يخلق من الطين كهيئة الطير ، ثم ينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ، فليس فى مقدور « عيسى » ، ولا فى مقدور أحد من الأنبياء أن يصوّر النُّطَف فى بطون الأمهات كيف يشاء ، فهذا لله وحده ، خالق كل شىء ، و« عيسى » مصوّر فى بطن أمه ، كما صوّرت سائر الناس ، فليس لمولود مهما كان شأنه أن يكون إلها ! وهو مالايدّعيه « عيسى » عليه السلام .

ترجع الآيات بعد التوحيد إلى وصف هذا « الكتاب » دليلِ التوحيد « مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتاب وأُخَرُ مُتَشابِهات » . والمحكمات هى الآيات أُحكمت معانيها ، وطُبِّقت عبارتها على معناها ، بحيث لاتحتمل شبهة أو تأويلا ؛ وهى « أم الكتاب » وأصله ، يرجع إليها الأمر فى الأحكام ، وفى صحة التفسير والتأويل ؛ أما المتشابهات ، فهى التى تحتمل عبارتها أكثر من معنى واحد .

وهنا لابد من وقفة يسيرة ، ففى سورة « آل عمران » فى القرآن آياتٌ مُحْكَماتٌ

(١) سورة الذاريات ، آية ٥٦ .

وأُخَرُ متشابهات . وفى سورة أخرى الآيات كلها محكمة « كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ »[1] . وفى سورة ثالثة الآيات متشابهة « اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ »[2] . فهذه ثلاثة مواضع فيها أن القرآن محكم ، وفيها أن القرآن متشابه ، وفيها أن بعض الآيات محكمات وأُخَرُ متشابهات ! ولكن تعالى الله علوّا كبيرا عن الخلاف فى كلامه : فإن كل آياته أُحكمت ، ثم فُصِّلت من لدن حكيم خبير ، أى كلها حقّ وصدق ، وكلها بعيدةٌ عن متناول البشر ، وعما يَخرَفُون من الكهانة والشعر . ومعنى أنه نزل أحسن الحديث كتابا متشابها ، أن مواعظه وقصصه مثانىَ ، ومعنى مَثْنَى ، أى مرّتين وأكثر ، تُذكر وتكرّر لتثبيت الموعظة ، فهو يشبه بعضه بعضا فى الصدق والحقّ والجمال ، ويؤيد بعضه بعضا ، ويفسر بعضه بعضا « تقشعرّ منْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ » ، حتى إذا عقلوه وتفهّموه ، وأرجعوا ما تشابه منه إلى المحكم فيه ، « تَلِينَ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ الله » .

ويمكننا إذن أن نفهم أن أسلوب القرآن أسلوبان : أحدهما موجز محكم ، يُسَلَّم به بمجرّد سماعه . وثانيهما مطوّل فيه إطناب وإسهاب للموعظة . وهو معجز بالأسلوبين اللذين لاتعرف العرب غيرهما فى أساليب الكلام (الإيجاز والإطناب) . وواجب المؤمن أن يرجع فى تفسير المتشابه إلى المحكم ، ولكن الذين فى قلوبهم زَيْغ ، يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم . إذ الراسخون فى العلم يعلمون تأويل المتشابه ، واقتران علمهم بعلم الله دليل على أنهم يستمدون نور الله ، ونور العقل الذى هو من الله فيما يفسرون ويتأوّلون . فوجود المتشابه فى القرآن يثير الأفكار والعقول ، ولو كان القرآن محكما كله لتساوى فى فهمه أبسط الناس ، فضلا عن الراسخين فى العلم ، ولو كان متشابها كله لما حقت به كلمة الإعجاز .

---

(١) سورة هود ، آية ١ .

(٢) سورة الزمر ، من الآية ٢٣ .

ولنضرب بعد ذلك مثلا للمحكم والمتشابه : يقول الله « قُلْ إنَّ اللهَ لايأمُرُ بالفَحْشاء » [١] فهذه آية محكمة تدلّ على أن الأمر فى القرآن هو أمر بالطاعة ، ولا يستعمل الأمر إلا فى الطاعة ، ويقول الله « وَإذَا أرَدْنا أنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أمَرْنا مُتْرَفيها فَفَسَقُوا فيها ، فَحَقَّ عَلَيْها القَوْلُ فَدَمَّرْناها تَدْميرا » [٢] ، فهذه آية من المتشابه ، لأن أمر الله فيها توجه إلى المترفين ففسقوا ! فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ظاهر المتشابه ، ويقولون إن الله أمر المترفين ففسقوا ، وفسقهم جاء من أمر الله ! وأما الراسخون فى العلم فلهم عدّة أفكار فى فهم الآية : منها أن الله لايأمر إلا بالطاعة «إنَّ اللهَ يَأمُرُكُم أنْ تُؤَدُّوا الأماناتِ إلى أهْلِها» [٣] ، « إنَّ اللهَ يَأمُرُ بالعَدْلِ وَالإحْسانِ » [٤] ، فى الآية أن الله أمرهم بالطاعة فخالفوا ففسقوا فى القرية ، فحقّ عليها القول . ومنها أن أمَرَ وأمِر بمعنى كثر ، والعرب تقول «من أمِر قَلّ ومن قلّ ذلّ» ويكون المعنى أنه إذا كثر الترف ، ذلّ أهله بعد العزّة ، لأنهم تركوا الجدّ ومالوا إلى الترف ، فيحقّ عليهم أمر الله ، كما تحقّ النتيجة الطبيعية للترف والفجور ، فيُهلك أهل القرية جميعا .

فالعقل يفهم المتشابه ، والراسخون فى العلم يقرّرونه عن منطق سليم ، وعن عقيدة ثابتة ، يقولون وهم يقرّرونه عقليا : إنا نصدّق به قلبيا ، « آمَنّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وَما يَذَّكَّرُ إلاّ أُولُوا الألْباب » . ولا بدّ إلى جانب العقل من هداية الله « رَبَّنا لاتُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إذْ هَدَيْتَنا وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ، إنَّكَ أنْتَ الوَهّاب » [٥] .

---

(١) سورة الأعراف ، من الآية ٢٨ .

(٢) سورة الإسراء ، آية ١٦ .

(٣) سورة النساء ، من الآية ٥٨ .

(٤) سورة النحل ، من الآية ٩٠ .

(٥) سورة آل عمران ، آية ٨ .

فى تفسير سورة النساء

الأمانة — العدل فى الحكم — العلاقة بين الحاكم والمحكوم

تحكيم كتاب الله وسنة رسوله

« إنَّ اللهَ يأمُرُكُمْ أنْ تُؤَدُّوا الأماناتِ إلى أهْلِها ، وَإذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أنْ تَحْكُمُوا بالْعَدْلِ . إنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ، إنَّ اللهَ كانَ سَمِيعا بَصِيرا . يأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أطِيعُوا اللهَ ، وأطِيعُوا الرَّسُولَ ، وأُولى الأمْرِ مِنْكُمْ . فإنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلى اللهِ وَالرَّسُولِ ، إنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وأحْسَنُ تأوِيلا » [1] .

يقرّر المفسرون أن الرسول عليه الصلاة والسلام لما دخل مكة عام الفتح ، طلب مفتاح الكعبة من « عثمان بن طلحة » ليطوف ، ثم يختلفون فى أمر «عثمان» هذا هل أسلم قبل الفتح أو بعده ، كما يتحدّثون أن « العباس » عمّ الرسول كان يودّ ألا يُعطَى الرسول المفتاح لطلحة ، حتى يجمع بين سدانة البيت ، وسقاية الحاج ؛ ولكن الرسول ردّ الأمانة إلى «طلحة» ، فإذا كان «طلحة» مشركا . فقد ردّ الرسول إليه أمانة المفتاح على رغم شركه ، وإن كان مسلما فقد ردّ الرسول إليه الأمانة ولم ينفذ رغبة عمه ؛ ذلك هو قول الله تعالى : « إنَّ اللهَ يأمُرُكُمْ أنْ تُؤَدُّوا الأماناتِ إلى أهْلِها » . وسواء أكان السبب هذا أم ذاك ، فإن الأمانة مأمورٌ بأدائها فى كل شىء . وسورة النساء تشتمل على أصحاب الفروض فى المواريث ، وتشتمل على حقوق النساء واليتامى ، وكلها أمانات واجبة الأداء ، فهؤلاء الذين يحرمون بناتهم الميراث ، أو يؤثرون بعض أولادهم بمعظم الميراث ، ويتركون قليلا للآخرين ، لم يؤدّوا الأمانة التى كلفهم الله أداءها . والحكم أمانة فى عنق الحاكم ، يؤديه عملا صالحا نافعا للمحكومين ، لذلك اقترنت الأمانة بالحكم فى الآية : « وَإذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أنْ تَحْكُمُوا

---

(١) سورة النساء ، آية ٥٨ ، ٥٩ .

بالعَدْل » فالأمر بالأمانة ، والأمر بالعدل موعظتان قيمتان ، وهما نعم الموعظة التى يعظكم بها الله « إنَّ اللهَ كانَ سَمِيعًا بَصِيرا » فهو سميع لما تدبّرون فى السرّ ، بصير بما تفعلون فى العَلَن .

وإذا كانت الآيات تقدّم النصيحة للحاكمين ، فهى تقدّمها أيضا للمحكومين « يأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أطِيعُوا اللهَ ، وأطِيعُوا الرَّسُولَ ، وأُولى الأمْرِ مِنْكُمْ ، فإنْ تَنازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إلى اللهِ وَالرسُولِ إنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ باللهِ واليَومِ الآخِرِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وأحْسَنُ تَأوِيلا » .

قرّرت هذه الآيات نظام الحكم الذى جاء به الإسلام : حاكم يؤدّى أمانة الحكم ، ويحكم بين الناس بالعدل ؛ ومحكوم مطالب بطاعة أولى الأمر ؛ ومرجع الخلاف إلى القانون كتاب الله وسنة رسوله . لذلك تَعْجَب الآيات من أمر المنافقين الذين يتظاهرون بالطاعة ، ويزعمون أنهم يؤمنون ، ثم إذا جدّ الأمر بينهم ، يتحاكمون إلى رؤسائهم ، كما كانوا يفعلون فى الجاهلية ، فذلك قولُ الله « أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إلَيْكَ ، وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ، يُرِيدُونَ أنْ يَتَحاكَمُوا إلى الطَّاغُوت » ، والطاغوت من الطغيان ، أى أنهم يرضَوْن حكم البُغاة الطغاة ، ولا يرضَوْن حكم الله « ويُرِيدُ الشَّيْطانُ أنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالا بَعِيدا ، وَإذَا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إلى ما أنْزَلَ اللهُ وإلى الرَّسُولِ رأيْتَ المُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودا » [1] . ويقال بأن واحدا من هؤلاء المنافقين بعد أن رفع أمره إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، ذهب مع خصمه إلى « عمر بن الخطاب » ليحكم بينهم ثانية ، فما كان من « عمر » إلا أن اخترط سيفه ، وقتل هذا المنافق الذى لم يرض حكم الرسول ، وبعد هذه المصيبة التى أصابتهم بأيديهم ، جاء أهل المنافق إلى الرسول « يَحْلِفُونَ باللهِ إنْ أرَدْنا إلاَّ إحْساناً وتَوْفِيقا » ، أى ما أردنا لما ذهبنا إلى «عمر» بعد حكمك إلا الإحسان وإلا التوفيق ؛ والحقيقة أن قلوبهم مقفرةٌ من الإيمان ، وأنهم كانوا يريدون الإساءة إلى الرسول ، ويريدون الإفساد

(١) سورة النساء ، آية ٦٠ ، ٦١ .

بينه وبين «عمر» «أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ ما فِي قُلُوبِهِمْ، فأعْرِضْ عَنْهُمْ وعِظْهُمْ، وَقُلْ لَهُمْ فِي أنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغا» [1] أى فأعرض عن أعذارهم فهى مكذوبة، وعظهم بالزجر فى الموعظة، ثم قل لهم قولا بليغا، يبلغ قراره أنفسهم، ويقلب ما فيها من خير وشر حتى يقف على أسرارها.

تقف الآيات بعد ذلك وقفة يسيرة لتبين أن مهمة الرسول مُلزِمةٌ الطاعة، وأن هذه الطاعة مكفولةٌ بتأييد الله للرسول، «وَما أرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إلاَّ لِيُطاعَ بِإذْنِ اللهِ». وطاعة الله تستدعى الإخلاص، لا المواربة ولا الكذب، فبدل أن يحلفوا كذبا أمامه أنهم لم يريدوا إلا إصلاحا وتوفيقا وهم كاذبون، كان الواجب أن يقفوا أمامه تائبين نائبين، «وَلَوْ أنَّهُمْ إذْ ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ جاءُوكَ فاسْتَغْفَرُوا اللهَ، واسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ، لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابا رَحِيما» [2].

ولم يكن المنافقون وحدهم هم الذين يَقِفُونَ هذه المواقفَ الملتويةَ مع الرسول، بل كان بعض العرب من المسلمين يقفون وقفة المتردّد أمام حكمه، لقسوة نفوسهم فى جاهليتهم، فلم يتركهم القرآن إلا بعد أن طهّر قلوبهم من أن يساورها أقلُّ شكّ فى حكمه صلى الله عليه وسلم.

خاصم رجل من الأنصار «الزبير بن» العوّام ابنَ عمة رسول الله، على مسائل الماء الذى يسقط من المرتفعات، ويَسقُون به زروعهم، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام «اسْقِ يا زُبَيْر، ثُمَّ أرْسِلِ المَاءَ إلى جارِكَ» فقال له الأنصارىّ فى شىء من الجفوة: «يا رسول الله هذا ابن عمتك»! فتلوّن وجه الرسول من الغضب، وبعد أن حكم أن الماء بينهما، ينزل أولا فى أرض الزبير فيسقى به، ثم يرسله إلى جاره، قال للزبير: «اسْقِ يا زُبَيْرُ ثُمَّ احْبِسِ المَاءَ حَتَّى يَرْجِعَ إلى أصْلِ الجِدَارِ» وكأنه قال له: استوف حقك قبل أن ترسل الماء إلى صاحبك ليستوفىَ حقه بعدك،

---

(١) سورة النساء، آية ٦٣.

(٢) سورة النساء، آية ٦٤.

فذلك قول الله : « فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ ، وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيما » [1] . وبعد أن خرج الأنصارىّ «والزبير» من عند رسول الله مرّ على « المقداد بن الأسود » ، فسألهما لمن كان القضاءُ ؟ فقال الأنصارىّ : « لابن عمته» ! ولَوَى شدقه ! ففطن له يهودى كان مع « المقداد » ، فقال : قاتل الله هؤلاء! يَشهدون أنه رسول الله، ثم يتهمونه فى قضاء يُقْضَى بينهم! وأيم الله لقد أذنبنا مرة فى حياة موسى ، فدعا موسى إلى التوبة من الذنب ، فقال : « فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ » فبلغ قتلانا سبعين ألفا فى سبيل طاعة ربنا حتى رضِى عنا ! وهذا ما تشير إليه الآية « وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيارِكُمْ » أى كما كان عليه الحال فى بنى إسرائيل « مافَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ » وَلَكِنَّا لانطلب منهم ما طلبه «موسى» من بنى إسرائيل ، بل نقدّم إليهم الموعظة والقول البليغ . « وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا ما يُوعَظُونَ بِهِ ، لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتا ، وَإِذَنْ لآتَيْناهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيما . وَلَهَدَيْناهُمْ صِراطاً مُسْتَقِيما » [2] .

---

(١) سورة النساء ، آية ٦٥ .

(٢) سورة النساء ، الآيات ٦٦ — ٦٨ .

من سورة النساء

الإسلام باللسان والإيمان بالقلب — بعد العقيدة عن عرض الدنيا

المجاهدون والمتخلفون

« يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا ، وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنا ، تَبْتَغُونَ عَرَضَ الحَياةِ الدُّنْيا ، فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ، كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا ، إنَّ اللهَ كانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرا . . . »[1] .

سورة النساء مدنية ، من السور المملوءة بالتشريع الفردىّ والتشريع الجماعىّ . وفيها كثير من أحكام الجهاد ومواقف المؤمنين فيه ، وكثير من أحكام القتل العمد والقتل الخطأ ؛ وفيها تفسير لكثير من الأحداث التى وقعت فى الجهاد : من ذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام أرسل سَرِيّة من أصحابه لغزو أهل « فدك » ، ويحدّثنا المفسرون أن أهل هذه الناحية كانوا على الكفر إلا رجلا واحدا أسلم ؛ فلما رأى خيل المسلمين مقبلة خاف ، وخشى أن يكون الهاجمون من غير المسلمين . فالتجأ بغنمه إلى الجبل ، ولما سمعهم يكبرون ويهللون ، أى يقولون « الله أكبر » و« لا إله إلا الله » نزل وكبر ، وألقى إلى المسلمين بالسلام والتحية ، كما ألقى إليهم بالإسلام والتسليم ، وكان فى السَّرية « أسامة بن زيد » كان شابا ممتلئا حماسة وحميّة فى الدين ، خشى أن يكون الرجل قد قال كلمة الإسلام طلبا للنجاة ، فتغشاه بسيفه ، واستاق غنمه .

اضطرب الصحابة فى الأمر ، فمنهم من قال : إنّ « أسامة » أخطأ وتعجل ، ومنهم من قال : إنه أصاب وتأوّل . حتى بلغ النبىَّ الخبر ، فخشى هو أيضا أن يكون «أسامة» قد قتله ابتغاء مامعه وطمعا فيه ، فقرأ الرسول على «أسامة» هذه الآيات «يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا ، وَلا تَقُولُوا لِمَنْ

(١) سورة النساء ، آية ٩٤ وما بعدها .

أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ، فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ » .

وفى الآية أمور لابد من الوقوف أمامها والوقوف عليها :

أولا : إن الدين لم يقبل كلمة الإسلام يقولها غير المسلم من غير التبيُّن ؛ فمعنى « إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا » أى تثبتوا من أمر المسلم وغير المسلم ، ومن أمر من أسلم طمعا فى جاه أو تخلصا من ضيق ، ومن أسلم عن اعتقاد ودرس واقتناع .

ثانيا : نهى الدين المسلمين أن يكون الدافع الحقيقى لهم عند قتل مدّعى الإسلام عرضًا من أعراض الدنيا ، فالنهى منصبّ على هذه الحالة ، واتهام « أسامة بن زيد » كان خوفا عليه أن يكون مدفوعا بهذه النكرة ! ويفهم من الآية أن غير المسلم إذا أسلم طلبا لعرض من أعراض الدنيا ، كان لجماعة المسلمين أن تشكّ فى أمره ، كما شكوا فى نية « أسامة بن زيد » من قبل . فإذا لم يكن هناك مطمع ظاهر فى مدعى الإسلام ، أو لم يكن لمدعى الإسلام مطمع ظاهر فى جماعة المسلمين . فليس هناك ما يمنع من مناقشته ، ومن أن نقول له فى وجهه : « لَسْتَ مُؤْمِنا » ، إنك تبتغى عرض الحياة الدنيا ، لنعلم حقيقة أمره . إذ لامعنى أن نطبق النهى على أنفسنا ، ولا نطبقه على غيرنا !

ثالثا : فى الآية ما يدل على اقتران الإسلام بالإيمان ، وإلا فمقتضى السياق أن تقول الآيات : « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مسلما » ولكن الآيات تقرّر ما فهمه الصحابة من أن الإسلام يقترن بالإيمان ، فجاءت الآيات بذلك « وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنا » ؛ فالدين كما فهمه « أبو بكر » رضى الله عنه مع مانعى الزكاة ، ليس مجرّد النطق بالشهادتين ، بل هو إيمان بالقلب ، وإيمان بالعقيدة ، له أثره فى الاتجاه الطيب إلى صالح الأعمال .

رابعا : تشير الآيات إلى قبول المسلم بمجرّد النطق بالشهادتين فى أول الإسلام لما كان الدين غريبا وكان فى حاجة إلى المؤلّفة قلوبهم ، وقبل أن يمنّ الله على مدّعيه

بالإيمان . وتشير الآيات إلى هذا المعنى « كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ » أى كنتم تسلمون فى أوّل الأمر باللسان ، فمنّ الله عليكم بالتصديق وصدق العقيدة .

خامسا : تكرّر الآية كلمة « فتبينوا » فتذكرها مرّتين ، والتبيين هو التثبت ، والتأمل فى الأمر ، قبل الإقدام عليه ، والتثبت معناه أيضا مايخالف العجلة والتسرع ، فالأمر بَيِّن ، فلا ينبغى لمسلم من أجل عرض الدنيا أن يُبعد عن حظيرة الإسلام من يدّعيه ، كما لاينبغى مع غير المسلم أن يقبل إسلامه لعرض من أعراض الدنيا ، وإلا كان دين الله لعبا وهزوا ، ووسيلة من الوسائل الدنيا لتحقيق الأغراض والنزوات . ثم تختتم الآية بقول الله « إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا » ، فالكلام باللسان والأخذ بالظواهر لايخفى على الخبير بخلقه ، العليم بما تنطوى عليه نفوسهم ، المقدّر لأعمالهم حسبما تكنه سرائرهم .

تطّرد الآيات بعد ذلك لبيان الضرب فى الأرض ، والهجرة فى سبيل نصرة الدين ، ونصرة المبادئ التى يدعو إليها الدين : « لَايَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ ، وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ » [1] ، هذه الآية نزلت فى « عبد الله بن أمّ مكتوم » وكان ضريرا يستخلفه الرسول على المدينة إذا خرج للغزو ، وكان يتألم من حالته التى لايستطيع معها الحرب ، فلما نزلت الآية وفيها « غيرُ أولى الضَّرَرِ » استراحت نفسه ، ورضاه الرسول أيضا بقوله فيما روى عن « أنس » عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه قال : « إنَّ أقْوَاماً خَلَّفْنا بالمَدِينَةِ ، ما سَلَكْنا شِعْباً ، وَلا وَادِياً إلاَّ وَهُمْ مَعَنا حَبَسَهُمُ العُذْرُ » . فالمجاهدون مفضّلون ؟ طبعا على القاعدين بغير عذر . والمجاهدون بأموالهم وأنفسهم مفضلون حتى على القاعدين بعذر ، وهم من باب أولى أفضل من القاعدين بغير عذر « وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا . دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » [2] .

---

(١) سورة النساء ، من الآية ٩٥ . (٢) سورة النساء ، آية ٩٦ .

تستمرّ الآيات فى فضل الهجرة فى سبيل الله فتذكر طائفتين من أهل مكة : طائفةً قوية ادّعت الإسلام وقعدت عن الهجرة والجهاد، ثم خرجت لحرب المسلمين فى غزوة بدر وطائفةً ضعيفة لم تستطع الخروج وتحملت الأذى بسبب صدق إسلامهم .

فالطائفة الأولى التى ظلمت نفسها تسألهم الملائكة : « فِيمَ كُنْتُمْ ؟ » مع أىّ فريق كنتم ؟ فيقولون : كنا مستضعفين فى الأرض ! « فيردّ عليهم « أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ! » أولئك تحقّ عليهم الكلمة « وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا » أما المستضعفون من الرجال والنساء والولدان فما كانوا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا « فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وكانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورا » [1] .

---

(١) سورة النساء ، آية ٩٧ .

من سورة الأنعام

نظام الطبقات — علم الله الشامل — مهمة الرسول

« وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ. ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ، وَما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ. وكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهؤُلاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا، أَلَيْسَ اللهُ بأَعْلَمَ بالشَّاكِرِينَ. وَإِذا جاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بآياتِنا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ، كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . . . »[1]

من الثابت فى تاريخ الإسلام أن الذين استجابوا للدعوة فى أوّل الأمر، هم عامة الناس من الفقراء والمساكين، فهولاء يعيشون فى الظلام، ويتطلعون إلى النور، وهؤلاء هم الذين يحسّون الحرية، وينتظرونها، ويتصوّرون نعيمها، حتى تلوح لهم فى دين جديد وفى مبادئ جديدة: « فعمّار، وصُهيب، وبلال، وسلمان » وأمثالهم كانوا أحرص الناس على الجلوس مع الرسول، يرون فيه أنه الذى فكّ رقابهم من الأسر والاستعباد، ويرون فيه الهادى المرشد إلى ما فيه خيرهم وخير الناس، وصلاحُهم وصلاحُ الناس. وكان الرؤساء من مشركى قريش يقولون للرسول: «لوطردتَ هؤلاء العبيد لنتحدّث إليك وحْدَنا»! فأبى الرسول أن يطردهم. فقالوا له: «إذا جئنا فاطردهم، وإذا انصرفنا فأقعدهم معك»! وهمّ الرسول أن يسمع كلام هؤلاء المتعالين المتكبرين، طمعا فى أن يوفقهم الله إلى الإيمان. فنزلت الآيات فى سورة الأنعام

---

(١) سورة الأنعام، الآيات ٥٢ وما بعدها.

« ولا تطرُدِ الَّذينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغَداةِ والعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ، وَما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِين »[1] .

فالتحدّث فى طبقات الناس ، فتنة تكاد تكون طبيعية فى نظام الحياة ، وجاء الإسلام ليخفّف من حدتها : فالكبراء من الناس يعتقدون أنهم أحقّ بالحياة من الضعفاء ، والضعفاء يعتقدون أنهم مضطهدون من الأقوياء ، وهذه الأفكار هى أساس الفتن « وكَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ » ليقول المتكبرون : « أَهؤُلاءِ الذين « مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا » ، كما قالوا فى الرسول يهوّنون من شأنه « أَأُلْقِيَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا »[2] ، وكما قالوا « لَوْ كانَ خَيْراً ماسَبَقُونا إلَيْهِ ، وَإذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هذا إفْكٌ قَدِيم »[3] . نعم هو خير ، وقد سبقوكم إليه ، فلا تنكروا فضل الله على الناس ، وتوجيهه قلوب المؤمنين ، « أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بالشّاكِرِين » .

ثم تلتفت الآيات بعد ذلك إلى الرسول ، لتعلمه أنه لايهتمّ لهؤلاء المتكابرين المتكبرين ، ليقبل بنفسه على الضعفاء من المؤمنين : « وَإذا جاءَكَ الَّذينَ يُؤْمِنُونَ بآياتِنا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ، كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ » ؛ ومعنى هذه الرحمة أن من عمل منكم سوءا بجهالة ، أى من عمل شرّا يجهل عاقبته ، أو يعلم عاقبته ولكنه متجاهل متكبر « ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وأَصْلَحَ فأنَّهُ غَفُورٌ رَحِيم » . عندئذ تستبين سبيلُ المجرمين ، فهؤلاء مطبوعون على النفاق ، وطُبع على قلوبهم فلا يهتدون سبيلا . ثم تعلم الآيات الرسول أن يقول لهؤلاء المعاندين : « إنى نُهِيتُ أنْ أعْبُدَ الَّذينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، قُلْ لاأتَّبِعُ أهْواءَكُمْ ، قَدْ ضَلَلْتُ إذاً ، وَما أنا مِنَ المُهْتَدِين . قُلْ إنِّى على بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى ، وكَذَّبْتُمْ بِهِ »

---

(١) سورة الأنعام ، آية ٥٢ .
(٢) سورة القمر ، من الآية ٢٥ .
(٣) سورة الأحقاف ، من الآية ١١ .
(٤) سورة الأنعام ، آية ٥٦ ، ٥٧ .

والدليل على كذبهم أنهم يقولون : « فأمطِرْ علَيْنا حِجارةً مِنَ السَّماءِ أوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أليمٍ » [١] ، فيردّ عليهم الرسول ويقول : « ما عِنْدِى ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إنْ الحُكْمُ إلاّ لِلهِ ، يَقُصُّ الحَقَّ » كما يتتبع القاصّ أثر الحيوان الضالّ ، فالحقّ يقص أثر الضلال حين يدركه ويفصل فيه ، « وَهُوَ خَيْرُ الفاصِلِين » . « قُلْ لَوْ أنَّ عِنْدِى ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ » أى من العذاب « لَقُضِيَ الأمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ، وَاللهُ أعْلَمُ بالظّالِمِين » [٢] .

قل لهم : لا علم لى إلا ما علمنى الله ، وعند الله وحده « مَفاتِحُ الغَيْبِ لايَعْلَمُها إلاّ هُوَ ، ويَعْلَمُ ما فِى البَرّ والبَحْرِ ، وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلاّ يَعْلَمُها » . وليست هناك حبة فى ظلمات الأرض ، وليس هناك من رطب ولايابس إلا فى كتاب مبين .

وبعد هذا الردّ البليغ على هؤلاء المكتبرين المعاندين تبين لهم الآيات أن الله خالقهم ، عليمٌ بها فى صدورهم ونفوسهم ، وأنه وحده مالكٌ لشئونهم ، يصرّفها كيفما شاء وأراد . فالله وحده « الَّذِى يَتَوَفّاكُمْ باللَّيْلِ ، ويَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بالنهار » وكسبتم من الذنوب والآثام فى النهار « ثُمّ يَبْعَثُكُمْ فيهِ » أى يسألكم فيما أفنيتم فيه أعماركم بالليل والنهار و« لِيُقْضَى أجَلٌ مُسَمًّى » فلكل فرد أجل ، ولكل أمة أجل ، ولكل بداية نهاية ، فإليه مرجعكم « ثُمّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُون » [٣] والله وحده هو القاهر فوق عباده « ويُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً » من الكرام الكاتبين ، أو من أنفسكم ، فالملائكة من عالم النور ، والضمير الإنسانى أو العقل من نور الله ، وعند عرض المسئولية تشهد عليهم الملائكة ، وتشهد عليهم ألسنتهم وأنفسهم ، وكلها شهود لاتعرف التفريط فى صغيرة ، ولا تعرف الإفراط فى مجاوزة الحدود .

---

(١) سورة الأنفال ، من الآية ٣٢ .

(٢) سورة الأنعام ، من الآية ٥٨ .

(٣) سورة الأنعام ، آية ٦٠ .

فالرسول قد جاء بالحق ، ومردّ الناس « إِلى اللهِ مَوْلاهُمُ الحَقِّ ، ألا لَهُ الحُكْمُ ، وَهُوَ أَسْرَعُ الحاسِبِين » [١]

تلتفت الآيات بعد ذلك إلى تصاريف الحياة ، فهم إذا كذّبوا الرسول وجب عليهم أن يرجعوا إلى أنفسهم يسئلونها « مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُماتِ البَرِّ والبَحْرِ » ، تصبهم الضائقة فيدعون الله ويتضرّعون « لَئِنْ أَنجانا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشّاكِرِينَ » [٢] وكلّ مرّة يسألونه النجاة من هذه ، ومن هذه فقط ، فهى الأولى والأخيرة ، ثم ينجيهم الله منها ، فتكون الأولى وليست الأخيرة ! « قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْها وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُون » [٣] فإن لم يعتبر الناس بعد أن نجاهم الله فى ظلمات البرّ والبحر ، فليعتبروا بتصريف آخر من تصاريفه فى خلقه ، فهو وحده القادر « على أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ، أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً ، ويُذِيقَ بَعْضَكُمْ بأسَ بَعْض» ، فقد أمطر الأمم البائدة بكِسَف من السماء، التى فوقهم، وخسف بقارون وفرعون الأرض التى تحتهم ، وقد تحقق هذا العذاب مع المدينة التى لاتعرف إلها ولا ربا ، فأنزل عليهم العذاب من فوقهم فى طيارات ، ومن تحت أرجلهم فى ألغام وغواصات .

ويفهم من الآية أن عذاب الله على الأرض إذا طغى الناس ، عذابٌ شامل يشمل جميع الناس ، فهو عذاب من فوقكم يصيب الأكابرَ المتعالين ، ومن تحت أرجلكم يصيب الأصاغر المستعبدين ، أى هو عذاب عامّ شامل للكبار والصغار . « أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً » أى يمزّقكم شيعا وأحزابا ، « كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُون » [٤] « انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآياتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُون » [٥] .

---

(١) سورة الأنعام ، من الآية ٦٢ .
(٢) سورة الأنعام ، من الآية ٦٣ .
(٣) سورة الأنعام ، آية ٦٤ .
(٤) سورة الروم ، آية ٣٢ .
(٥) سورة الأنعام ، آية ٦٥ .

ثم ترجع الآيات إلى الرسول تحدّد له رسالته ، وتمنعه من أن تذهب نفسه حسَرات على كيد الظالمين . وتفريط المفرّطين ، فتقول : « وكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيل . لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ » ولكل بداية نهاية « وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » [١] . وإذا رأيتهم يخوضون فى آياتنا طاعنين أو مستهزئين ، « فأعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فى حَدِيثٍ غَيْرِه » . وإذا أُنسيت هذه النصيحة فجلست معهم ، ثم تذكرت « فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ القَوْمِ الظَّالِمِين » [٢] .

وأخيرا تقرّر الآيات أن الذكرى تنفع المؤمنين المستعدّين للتذكر . وأنها لا تؤثر فى قلوب ناكرة مستنفرة « قُلْ إنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الهُدَى ، وأُمِرْنا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ العالَمِين » [٣] .

---

(١) سورة الأنعام ، آية ٦٧ .
(٢) سورة الأنعام ، من الآية ٦٨ .
(٣) سورة الأنعام ، من الآية ٧١ .

من سورة الأعراف

آية الخلق — قصر الليل وقصر النهار فى العالم —

تأثير الأفلاك فى الحياة — التضرّع والخفية — الفساد فى الأرض —

البلد الطيب والبلد الخبيث — النفس الطيبة والنفس الخبيثة

« إنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ فِى سِتَّةِ أيَّامٍ ، ثُمَّ اسْتَوَى على العَرْشِ ، يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً ، والشَّمْسَ والقَمَرَ والنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ، ألاَ لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ ، تَبارَكَ اللهُ رَبُّ العالَمِين . ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وخُفْيَةً ، إنَّه لا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ ، وَلا تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ بَعْدَ إصْلاحِها ، وادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً ، إنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ المُحْسِنِين . . . » [1] .

تبتدئ الآيات بخلق السموات والأرض وما بينهما ، وبيان الإبداع فى خلق الشمس والقمر والنجوم ، وكيفية دورانها وتدبيرها على مقتضى الحكمة والنظام .

إن خلق السموات والأرض فى ستة أيام لا ينبغى أن يفهم على أنها أيام مقدرة بهذا العدد ، ولا ينبغى أن يفهم كما فهم بعض المفسرين على أنها أيام الأسبوع ، وفى الآية « وَإنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَألْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّون » [2] ؛ وإنما الغرض من تعداد الأيام تعليم خلقه التثبت والتبصر ، ومراعاة مقتضى الحكمة والتدبير ، وبمقتضى القوانين التى أودعها الله فى هذه الكائنات المخلوقات ، وكان من الممكن أن يخلق هذه الكائنات فى لحظة واحدة « وَما أمْرُنا إلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بالبَصَرْ » [3] ، كان من الممكن أن يخلق الجنين مرة واحدة ، ولكنه يتطوّر من نطفة فعلقة فمضغة ، وكان من الممكن أن ينبت الثمر جملة ، ولكنه يتطوّر

(١) سورة الأعراف ، الآيات ٥٤ وما بعدها .

(٢) سورة الحج ، من الآية ٤٧ .

(٣) سورة القمر ، آية ٥٠ .

من بذرة ، إلى شطْء ، إلى ساق ، إلى فرع مورق ، ثم إلى ثمر . هذه سنة الحياة ، وسنة التطوّر ، وهى سنة الله فى الخلق . ولو خلق العالم كله دفعة واحدة لقيل إنه ناشئ بالصدفة أو بالطبيعة ؛ فسنة التطوّر أن يترتب شىء على شىء ، وأن يجىء شىء وفق شىء آخر ، وهذا التطوّر والتدرّج أكثر دلالة على مظاهر القدرة ، ويكون معنى أن الخلق فى ستة أيام ، أنه جاء محكما منظما ، كما يُحكم أحدكم الشىء فى عدة أيام ، فدلت الآية على الدقة والتبصر ، كما دلت على القدرة وعظمة التدبير . « ثُمَّ اسْتَوَى على العَرْش » أى تفرّد بالملك والسلطان . « يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهار » أى يغطى الليلَ بالنهار ، ويغطى النهارَ بالليل ، وكلاهما يطلب الآخر طلبا حثيثا سريعا . وفى الآية إشارة علمية دقيقة ، ففى البلاد التى يقصر فيها الليل ، يقال إن النهار يطلب الليل حثيثا ، وفى البلاد التى يطول فيها الليل ، يقال إن الليل يطلب النهار حثيثا ، ففى تداول الليل والنهار طلب حثيث من أحدهما للآخر ، والطالب يطول والمطلوب يقصر . وفيه إشارة علمية أخرى إلى أن حركة الليل والنهار من أسرع الحركات الفلكية فى الكواكب ، فهى أسرع من حركات الفصول ، وأسرع من المدارات السنوية ، وأسرع من مدارات الكسوف والخسوف . وفى عبارة « والشَّمْسَ والقَمَرَ والنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بأمْرِه » إشارة علمية فلكية إلى مَداراتها ومددها وإشارة اقتصادية إلى تأثير الشمس والقمر فى الإنتاج الزراعىّ والصناعىّ ونقصه وزيادته . كل هذا التسخير بأمره ، فهو صاحب الخلق والإبداع ، وصاحب الأمر والسلطة ، « ألا لَهُ الخَلْقُ والأمْرُ ، تَبارَكَ اللهُ رَبُّ العالَمِين » أى عظم شأنه ، واتسع ملكوته !

بعد بيان هذه العظمة فى الخلق والقدرة ، تدعو الآيات إلى الالتجاء إلى الله ربّ العالمين « ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً » ، أى اسألو الله فى استكانة وذلة ، وعلى استحياء واستخفاء ، فقد سمع الرسول الناس يجهرون بالتكبير دائما ، فقال لهم : « إنَّكُمْ لاتَدْعُونَ أصَمَّ ولا غائباً ، إنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعاً بَصِيراً ، وَهُوَ مَعَكُمْ ، وَالَّذِى تَدْعُونَهُ أقْرَبُ إلى أحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ »

وفى الآية إبطال لعمل الذين يصيحون فى أذكارهم وفى دعواتهم، ويتمايلون ويتصايحون وفيها أن الصدقات من الدعوات الصالحة التى يتقرّب بها العبد إلى ربه، وأحسنها وأرجاها للقبول ما كان خفية، وفيها صون للعبادات من الرياء والتظاهر، والمدار فى هذا كله على الإخلاص وتجنب الرياء، فمن أمن على نفسه من الرياء فليجهر بالطاعات، ففى الجهر بها القدوة الصالحة والمثل الطيب. « إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » المتجاوزين للحدود، الذين يغالون بالدعوات الصالحة فيقعون فى الرياء والنفاق.

« وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها » وهى آية عامة تشمل كل مايتسع له معناها، أى فلا تُضلوا الناس بعد أن هداهم الله، أى ولا تزلزلوا عقائدهم بعد أن اطمأنوا إلى اليقين، أى ولا تشيعوا شائعة الفساد بعد أن ظهرت بادرة الإصلاح، أى ولا تجحدوا نعمة الله بعد أن سقاكم بالمطر وأغناكم بالخصب، أى ولا تقلقوا النفوس بالأفكار الهادمة بعد أن استتبّ الأمن واستتبّ النظام. فكلها معان تتحملها هذه الكلمات القدسية القليلة « وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها ».

وبعد أن قال سبحانه: « ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً » يقول: « وادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً »، أى خوفا من عدله وانتقامه، وطمعا فى رحمته وفضله. ففى الآية الأولى بيّن أن الدعاء الصحيح هو دعاء الذلة والخفاء؛ وفى الآية الثانية بين أن فائدة الدعاء الخوف من الله والطمع فى ثوابه، وهو فى كل حال معكم، يعلم سرّكم ونجواكم، ورحمته قريبة من المحسنين.

بينت الآيات خلق السموات والأرض، وتسخير الشمس والقمر والنجوم، وطلبت من المؤمنين الالتجاء إلى الله فى استكانة واستخفاء واستحياء، ثم أخذت تبين أن الله جلت قدرته هو الذى يرسل الرياح « بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ » والبُشْر جمع بُشْرة، أى الريح التى تبشر بالمطر، وقد قرئت الآية « وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ نَشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ »[1] والنشر: الريح الطيبة اللينة، وهى

(١) سورة الأعراف، من الآية ٥٧.

ريح الرحمة . أما ريح العذاب فهى العاصف ، والقاصف ، والصرصر والعقيم . ومن رياح الرحمة الناشرات المبشرات المرسلات الذاريات . فالرياح تسوق المطر وهو رحمة ، وهذه الرياح تحمل سحابا ثقالا ، يسوقه الله للبلد الميت الجدب ، فتخرج به الثمرات .

ثم ينظِّر القران بين إحياء البلد الميت بالمطر والنبات ، وبين إحياء الموتى بالبعث والنشور ، فالقدرة واحدة فيهما ، ومن أخصب الجدب ، وأحيا الموات من الأرض ، لايعبأ بإحياء الموتى من الأناسى ، كلاهما بعث وكلاهما نشور ، وهذا هوقوله « كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » ، على أن المطر لاينفع إذا نزل فى أرض صعبة سبخة ، وهو منبت مزهر إذا نزل فى أرض طيبة ، كَذَلِكَ « الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَالَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا » [1] .

وكما نظَّر القرآن بين إحياء الأرض الموات ، وبين إحياء الموتى ، كذلك ينظِّر بين الاستعداد الطيب الفطرىّ فى النفس الطيبة ، وبين الاستعداد السيئ فى النفس الخبيثة ، فالنفس الطيبة كالأرض الطيبة ، تثمر فيها النصيحة ، ويثمر فيها التعليم ، والنفس الخبيثة لاتنتفع بعلم ولا بصحة ، ولاتطلب إلا الخبيث ، ولاتركن إلا للخبيث ، وإذن تتفق الآيات وفهمها مع حديث الرسول عليه الصلاة والسلام : فعن أبى موسى الأشعرىّ أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ مَثَلَ ما بَعَثَنِى اللهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا ، فكانَتْ مِنْها طائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتِ الماءَ ، فأَنْبَتَتِ الكَلَأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ ، وكانَتْ مِنْها أَجادِبُ أَمْسَكَتِ الماءَ ، فَنَفَعَ اللهُ بِها النَّاسَ ، فَشَرِبُوا مِنْها وَسَقَوْا وَزَرَعُوا ، وأَصابَ طائِفَةً مِنْها أُخْرَى ، إِنَّما هِىَ قِيعانٌ لَا تُمْسِكُ ماءً وَلا تُنْبِتُ كَلَأً ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فى دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ ما بَعَثَنِى اللهُ بِهِ ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ » وصدق الله ، وصدق رسول الله .

---

(١) سورة الأعراف ، من الآية ٥٨ .

من سورة النحل

ضرب الامثال — تعداد النعم — النعم للحاجة وللمتعة — الرسول رحمة

« ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لايَقْدِرُ على شَيْءٍ ، وَمَنْ رَزَقْناهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً ، هَلْ يَسْتَوُون ، الحَمْدُ لِلهِ ، بَلْ أكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُون . وضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أحَدُهُما أبْكَمُ لايَقْدِرُ على شَيْءٍ ، وَهُوَ كَلٌّ على مَوْلاه ، أيْنَما يُوَجِّهْهُ لايَأتِ بِخَيْر ، هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأمُرُ بالعَدْل ، وَهُوَ على صِراطٍ مُسْتَقِيم »[1]

جاء الدين الإسلامى بالوحدانية المطلقة ، فلا يقبل من المؤمن أن يعبد غير الله ، أو أن يشرك به شيئا ، ولم يقبل من المؤمن أن يعتمد على غير الله ، أو أن يشرك مع الله أحدا فى تصريف الشئون وتقديرها ، ونَعَى على هؤلاء الذين يشركون : « وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّمَوَاتِ والأرْضِ شَيْئاً وَلا يَسْتَطِيعُون »[2] ، وأمر الناس أن يفكروا فى الخلق ، وأن يفكروا فى الخالق ، وأن ينظروا إلى ما أمام أعينهم من النعم الكثيرة المتنوّعة ، فالله وحده الذى أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، والله وحده هو الذى خلق الأنعام لتنفع الإنسان ، وكانت العبرة والعظة فى خلقها ، فلبنها يَدِرّ من بين دمها وأخلاطها « خالِصاً سائِغاً للشّارِبِين »[3] ، وهو الذى أوحى إلى النمل والنحل بنظام الجماعة ، ونظام العمل وتوزيعه ، حتى كان من الأولى مملكة تشبه مملكة «سليمان» ، وكان من الثانية أن يخرج من بطونها شرابٌ مختلف ألوانه فيه شفاء للناس . هذه وغيرها آيات لقوم يسمعون ، وآيات لقوم يتفكرون ، فالذين يشركون بالله ، ويعتمدون على المخلوق ، ولا يعتمدون على الخالق ، ضعافُ العقول ، ضعاف التفكير ،

(١) سورة النحل ، الآيات ٧٥ ، ٧٦ .
(٢) سورة النحل ، آية ٧٣ .
(٣) سورة النحل ، من الآية ٦٦ .

يضربون لله الأشباه والأمثال « فَلا تَضْرِبُوا لِلهِ الأَمْثال ، إنَّ اللهَ يَعْلَمُ وأَنْتُمْ لاتَعْلَمُون » [١] .

وبعد أن بين الله لهم الآيات من الخلق الصامت ، يضرب لهم الأمثال من الخلق الناطق ، حتى يلتفتوا ويفكروا . ضربت لهم الآياتُ مثلا بالعبد المملوك ، والرجل الحرّ ؛ فالأول ملك لسيده لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرّا ؛ والثانى حر قادر على الكسب ، ينفق منه سرّا وعلانية ، فهل يستوى الحرّ والعبد ، وهل يستوى العاجز والقادر ، وهل يستوى المريد وسليب الإرادة ؟! إن الذين يتوجهون بالعبادة إلى غير الله ، ويعتمدون فى مقاصدهم على غير الله ، إنما يعتمدون على عبد ضعيف عاجز ، لايملك شيئا مع سيده ومولاه « ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْدًا مَمْلُوكاً لايَقْدِرُ على شَيْءٍ ، وَمَنْ رَزَقْناهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَنًا » أى وضرب الله مثلا لحرّ رزقناه منا رزقا حسنا « فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرّا وَجَهْرًا ، هَلْ يَسْتَوُون ؟ الحَمْدُ لِلهِ ! بَلْ أَكْثَرُهُمْ لايَعْلَمُون » .

وبعد أن ضربت الآيات المثل للحرية الشخصية ، تضرب مثلا آخر للحرية العقلية ، فنحن فى المثل الثانى أمام رجلين : أما أحدهما فأبكم ، أى حرم القدرة على الكلام ، والأبكم أصمّ ، أى محروم من السمع ؛ ومن حرم السمع ، فقد حرم منفذا عظيما من منافذ العقل ، ومن حرم الكلام حرم كثيرا من إنسانيته ، بل استغلقت عليه هذه الإنسانية ، ولحق بالبَهْم من الحيوانات ، وهو زيادة على حرمانه نعمتى السمع والكلام ، كَلّ ومتكل على سيده ، أينما يوجهه لايأتى بخير ، فهل يستوى هذا المسكين ، مع الرجل العاقل الرشيد الذى يعرف العدل ويأمر به ؟! « وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْن ، أَحَدُهُما أَبْكَمُ لايَقْدِرُ على شَيْءٍ ، وَهُوَ كَلٌّ على مَوْلاه ، أَيْنَما يُوَجِّهْهُ لايَأْتِ بِخَيْر ، هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بالعَدْلِ وَهُوَ على صِرَاطٍ مُسْتَقِيم ؟! » فهولاء الشركاء من الأوثان لايعقلون ، ولا يعلمون شيئا من غيب السموات والأرض ، وهولاء الذين يعتمدون عليهم كالأصنام ، لايعقلون ، ولايعلمون شيئا من غيب السموات والأرض ، ولله (وحده) غيب السموات والأرض .

---

(١) سورة النحل ، آية ٧٤ .

وكانوا ينكرون العذاب . وينكرون الساعة « وَما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ البَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ » (١) والآية هنا كالآية هناك « وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ ، وإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ » (٢) أي وإن يوم ربك لقريب ، كألف سنة تعدّونها وتعدونها بعيدا « إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ » .

تعود الآيات بعد ذلك إلى الحسّ بعد أن ضربت الأمثال فى التفكير . فتلفت الإنسان إلى خلقه الأول ، ثم تلفته إلى خلق الطيور والدوابّ والأنعام ، وما فيها من نعم لفائدة الإنسان ، ثم تلفته إلى الطبيعة وكلها مسخّرة لنفعه « وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاتَعْلَمُونَ شَيْئاً ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ والأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » (٣) . وفى الآية حقيقة علمية دقيقة ، هى تقديم الحواسّ على الأفئدة ، وعلى العقول ، لأن الحواسّ أبواب المعرفة ، ولأن الأفئدة منوطةٌ بالإدراك ، فالحواس تنقل وسائل العلم والمعرفة ، والأفئدة هى التى تجمع وتجرّد حتى يصل الإنسان إلى حقيقة التفكير والإدراك . فإن لم ينظروا فى أنفسهم « أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِى جَوِّ السَّمَاءِ » فالجوّ يسخرها ويُذللها كما يريد ، وهى مطاوعة للأجواء التى تطير فيها ، قادرة على بسط أجنحتها وقبضها تارة ، وعلى إيقافها تارة أخرى ، ويمسكها خالقها فى جميع تقلباتها بقدرته وحكمته « إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (٤) .

ومن نعم الله تسخير الطبيعة « وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً ، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَها يَوْمَ ظَعْنِكُمْ ، وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ، وَمِنْ أَصْوَافِها وأَوْبَارِها وأَشْعَارِها ، أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ » (٥) فإذا بَلِيَتْ بعد حين تجدّدت ، وهكذا تنعمون بنعم الحياة ما دامت الحياة .

---

(١) سورة النحل ، آية ٧٧ .
(٢) سورة الحج ، آية ٤٧ .
(٣) سورة النحل ، آية ٧٨ .
(٤) سورة النحل ، آية ٧٩ .
(٥) سورة النحل ، آية ٨٠ .

فإذا كنتم فى الهجير ، فقد جعل لكم مما خلق ظلالا ، وإذا كنتم فى الجبال فقد جعل لكم فى كهوفها ومغاراتها أكنانا ، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحرّ ، وسرابيل تقيكم بأس الحرب : فنِعَمٌ فى الحضر ، ونعم فى السفر ، ونعمٌ للحاجة ، ونعم للرفاهية ، ونعم فى السهل ، ونعم فى الجبل ، ونعم فى الحرّ ، ونعم فى البرد ، ونعم فى الحرب ، ونعم فى السلم « لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُون » .

وما أجمل وما أبلغ هذه العبارة الصغيرة التى تُختتم بها النعم « لعلكم تسلمون » ، فمن الجائز أن يكون معناها السلامة من العذاب ، ويجوز أن يكون المعنى سلامة قلوبكم من الشرك ، ويجوز أن يكون المعنى سلامةَ أبدانكم من الجراح وقت الحرب ، ومن الآلام وقت السلم ؛ أما المعنى الدقيق الذى نرتضيه والذى يتفق مع سياق الآيات فهو لعل هذا التبصر فى نعم الله يُسلمكم إلى التعقل ، ولعل هذا التبصر يقودكم إلى الإيمان بالله وحده ، لا بشركائكم من معبودات وأشخاص ، لا يخلقون شيئا وهم يُخلقون ، ولا ينفعون بشىء وهم ينتفعون ! ولكن الناس لا يُسلمون عقولهم إلى التفكير ، وإذا وصلت بهم إلى التفكير الصحيح لا يؤمنون بالعقل فيه « يَعرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَها وأكثرُهُمْ الكافِرُونَ »[1] « فإنْ تَوَلَّوْا فإنَّما عَلَيْكَ البَلاغُ المُبِين »[2] « إنّ إلَيْنَا إيابَهُمْ ، ثم إنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ »[3] ، « يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أمَّةٍ شَهِيدا » فكل أمة يشهد عليها رسولها وحينئذ « لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا » بالكلام « وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُون »[4] ، فاليوم يوم حساب وعقاب ، لا استرضاء فيه ولا عتاب « لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُون »[5] .

ثم تجرى المحاورة قاسية شديدة بين الذين أشركوا ، وبين شركائهم الذين اعتمدوا

---

(١) سورة النحل ، ظن الآية ٨٣ .
(٢) سورة النحل ، آية ٨٢ .
(٣) سورة الغاشية ، آية ٢٥ ، ٢٦ .
(٤) سورة النحل ، من الآية ٨٤ .
(٥) سورة النحل ، من الآية ٨٥ .

عليهم ، فيقول الأولون : « رَبَّنا هَؤُلاءِ شُرَكاؤُنا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ » ! ويردّ الشركاء : « إِنَّكُمْ لَكاذِبُون » [١] ويُلقى الجميع إلى الله يومئذ السلام والاستسلام « وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُون » [٢] .

تلتفت الآيات بعد ذلك إلى الرسول ، لتبين له أنه رحمة لأمته فى الدنيا والآخرة : « وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَجِئْنا بِكَ شَهِيداً على هَؤُلاءِ . وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ وهُدًى وَرَحْمَةً وبُشْرَى لِلمُسْلِمِين » [٣] .

---

(١) سورة النحل من الآية ٨٦ .
(٢) سورة النحل ، من الآية ٨٧ .
(٣) سورة النحل ، آية ٨٩ .

من سورة الحج

الزلازل والهول فى الدنيا والآخرة — الجدل بعلم ، وبغير علم

أخلاق المجادل — العبادة على حرف — دليل البعث من علمى الحياة والنبات .

« يا أيُّها النَّاسُ اتَّقُوا ربَّكُمْ إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عما أرْضَعَتْ وتَضَعُ كلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَها ، وَتَرَى النَّاسَ سُكارَى وَما هُمْ بِسُكارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيد » (١) .

نزل أوّل سورة الحج فى غزوة من غزوات الرسول عليه الصلاة والسلام تسمى غزوة « بنى المصطلق » وكان نزولها ليلا ، فقرأ الرسول « يأيُّها النَّاسُ اتَّقُوا ربَّكُمْ إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أرْضَعَتْ ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَها ، وَتَرَى النَّاسَ سُكارَى وَما هُمْ بِسُكارَى ، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيد » ، فلما قرأها الرسول لم يُرَ أكثرُ باكيا من تلك الليلة ، ولما أصبح المسلمون لم يَحُطوا السروج عن الدواب ، وودوا لو كانت كل أوقاتهم غزوا فى سبيل الله ، ليحطّ عنهم خطاياهم ، خوفا من هذا الهول الذى أنذرت به الآيات ، وبقوا لايضربون خيامهم ، لأن الخوف ضرب على نفوسهم ، وباتوا لم يطبخوا قدرا ، فقد هانت أمامهم الحياة ، بعد أن أخذت عليهم الآيات مسالك الحياة ، وكانوا بين حزين باك ، وبين مقدّر مفكر .

والحقّ أن الآيات رهيبة ، تقذف الرعب فى النفوس ، كما تقذف الزلازل والبراكين بالحمَم ، ووعيد الله فيها حق بعد أن تحققت هذه الآيات على الأرض ، وبعد أن جاءت العلوم الطبيعية مصدّقة لها : تصورْ الناس يجرون فى الحياة ، وتجرى بهم الحياة ، ثم لايلبثون أن يجدوا الأرض قد زلت تحت أقدامهم ، وهم أنفسهم قد زُلزلوا زلزالا شديدا ، أقعد قائمهم ، وأقام قاعدهم ، ودفن نائمهم ، وفرّق ما بين الوالد

(١) سورة الحج ، الآيات ١ ، ٢ .

وولده ، والوالدة وولدها ، والمرضعة ورضيعها ، من إنسان وحيوان ؛ هذا هو : لزال الحياة الأولى المصدقُ لزلزال نهايتها ، يوم تُخرِج الأرض أثقالها ، وتحدّث أخبارها ، ويذهل الإنسان فيقول من هول مارأى ما لها ! مالها ! « يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ » [1] يومئذ ترى الناس سُكارى من الخوف ، وماهم بسكارى من الشراب .

وفى الآيات من الإشارات العلمية ما يستحقّ الوقوف أمامه ، فالزلازل والبراكين ظواهر طبيعية ، عرفها الدين ووصفها بصفاتها العلمية قبل أن يعرفها العلم ، ثم استعملها الدين للهول المخيف ، وقد عانى الناس ولا يزالون يعانون هذه الأهوال ، فأولى لهم ألا تمتدّ بهم غَواية الحياة ، وأولى بهم أن يتبصروا فى مصير أشدّ هولا من مصير هذه الحياة ؛ والآية تشرح الخوف وانفعالاته من الناحية النفسية العلمية شرحا صادقا ، فالخوف يحدث الذهول ، والخوف يوقع صاحبه فى غيبوبة ، يظنّ معها أنه فعل الشىء وهو لم يفعله ، يترنح ترنح السكران ، وما به من سكر . والخوف يطلق الأجهزة الإفرازية وأحيانا يقبضها ، وهو يؤثر فى الجسم تأثيرا من شأنه الإجهاض ، وأن تضع كل ذات حمل حملها . كل هذه ظواهر علمية قرّرها الدين ، وأقرّها العلم وسبحان الله العليم الخبير !

تلتفت الآيات بعد ذلك إلى طائفة من الناس يحبون الجدل وهم لايجادلون عن علم ، وإنما يجادلون فى الله وفى آياته التى لاينكرها العلم ؛ فالجاهلية كانت تجادل فى الملائكة فتنكرها ، ومن يثبتها منهم يجعلها من بنات الله ، « وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً ! أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ؟! سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ » [2] عنها ؛ وجعلوا القرآن من أساطير الأولين ، ولم يعترفوا بأن الله قادر على إحياء الموتى ، وعلى إحياء من أدركه الفناء ، ولا يزال المتعالمون فى الدين يردّدون هذه الأفكار كما ردّدتها الجاهلية الأولى ، وهم فى جدلهم لايطاوعون عقلا ، ولايطلبون

(١) سورة الزلزلة ، آية ٦

(٢) سورة الزخرف ، آية ١٩ .

حقيقة ، إنما يريدون عَنَتا ، وتضليلا ، وغلبة بعلم هم منه بَراء ، وهم فى مسائله أدعياء ، يتبعون فى جدلهم كل هاجس من الشيطان ، وكل وسوسة من نفثه وتحديثه ، فأنزل الله فيهم هذه الآيات : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ » [١] عامّ يضلّ كل من جعله له وليا « كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ » ولكن « إِلى عَذابِ السَّعِيرِ » [٢] . تبين الآيات أن الجدل العلمىّ يستند إلى أمور ثلاثة : الأول : مسائل العلم التى تمكن من الجدل . الثانى : الهداية إلى الفهم السليم الصحيح . الثالث : الرجوع إلى كتب الله ، أو فى الأقل إلى إلهام صحيح ينير الطريق أمام المجادل . ولكنّ هؤلاء الجدليين قديما وحديثا يجادلون « فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى ، وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ » [٣] أى أنهم يجادلون بالظنّ ، والتخمين ، والوهم ، فى غير استناد إلى واحد من أسباب العلم وأسباب المعرفة . ومن خلق المجادل المكابر : الكبر والخيلاء ، والغمز واللمز ، وتصعير الخد ، وَلىّ الجيد ، والإعراضُ عن الذِّكر ، وعن الدليل ، لأنه يشعر بضعفه الطبيعىّ ، فلا بدّ له من تكميل نقصه ، ولا بدّ من التظاهر بعقل حرمته إياه الطبيعة . هذا هو معنى « ثانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، لَهُ فِى الدُّنْيا خِزْيٌ ، وَنُذِيقُهُ يَوْمَ القِيامَةِ عَذابَ الحَرِيقِ » [٤] . وهو فى ذلك الجانى والمتجنى ، « ذَلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ ، وأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » [٥] .

تترك الآيات المتكبرين لتلتفت إلى المرائين الكاذبين الذين يعبدون الله على حَرْف ، أى يتمسكون من الدين بالطَّرَف ، لابالوسط ، ولا بالقلب ، وهذا تمثيل لقلقهم واضطرابهم لأن الذى يطمئنّ قلبه للحقيقة والعقيدة ، تطمئنّ نفسه بهما ، ولايكون من قومه على حرف ، إن كسب منهم شيئا اطمأن واستقرّ ، وإن لمح خلاف ذلك هرب وفرّ ، ويجوز أن يكون معنى عبادة الله على حرف عبادته بالنطق واللسان ، لابالقلب ولابالجنان ، هكذا كان القَلِق فى أول الإسلام ، وبعد أن منّ الله به على

---

(١) سورة الحج ، آية ٣ .
(٢) سورة الحج ، آية ٤ .
(٣) سورة الحج ، آية ٨ .
(٤) سورة الحج ، آية ٩ .
(٥) سورة الحج ، آية ١٠ .

المؤمنين « إنْ أصابَهُ خَيْرٌ اطْمأنَّ بِهِ ، وَإنْ أصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ على وَجْهِهِ ، خَسِرَ الدُّنْيا والآخِرَةَ ، ذَلِكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِين » [١] ، يرتكن إلى غير الله ، ويعتمد على الناس « يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَضُرُّهُ ، وَما لا يَنْفَعُهُ ، ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ البَعِيد » [٢] بل هو « يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أقربُ مِنْ نَفْعِهِ ، لَبِئْسَ المَوْلى » الذى يعتمد عليه « وَلَبِئْسَ العَشِير » ، قرين السوء الذى يعاشره ويتكل عليه .

تسوق الآيات أمام هؤلاء الجدليين والمكابرين دليلين ما ديين : أحدهما مستمدّ من « علم الحياة » ، وثانيهما مستمدّ من « علم النبات » . فالأول « يأيُّها النَّاسُ إنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ البَعْثِ فإنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ، ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ » أى مستوية ملساء ، وغير مستوية . والعرب تقول « صخرة خَلْقاء » أى صخرة مستوية ملساء ؛ والمعنى أنه سبحانه هو المقدّر فى الخلق وحسن التكوين أو تشويه التكوين ، كل هذا لنبين لكم ما أنتم منه فى شكّ ، « وَنُقِرُّ فِي الأرْحامِ ما نَشاءُ إلى أجَلٍ مُسَمًّى ، ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ، ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أشُدَّكُمْ ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إلى أرْذَلِ العُمُرِ ، لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً » وهذا التطوّر فى « علم الحياة » الذى ذكره القرآن فى سياق علمى دقيق ، هو ما تقرّه الحقيقة الآن ، وما يستند إليه كبار العلماء والأطباء . أما الدليل الثانى فهو دليل مادىّ أيضا إن أنكرته ، أنكرتَ مشاهدتك وعقلك : « وَتَرَى الأرْضَ هامِدَةً ، فإذَا أنْزَلْنا عَلَيْها المَاءَ اهْتَزَّتْ » وتحركت بالنبات « وَرَبَتْ » انتفخت باللقاح والثمار « وأنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيج » [٣] ، ذلكم مالا يقدر عليه إلا خالق كامل القدرة ، كامل العلم : « ذَلِكَ بأنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ ، وأنَّهُ يُحْيِي المَوْتى ، وأنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » . هذا هو وعيد المكابرين والمعاندين ، أما وعد الله الحقُّ للمؤمنين والصالحين ، فهو قوله « إنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأنْهارُ ، إنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ » [٤] .

---

(١) سورة الحج ، آية ١١ .
(٢) سورة الحج ، آية ١٢ .
(٣) سورة الحج ، آية ٥ .
(٤) سورة الحج ، آية ١٤ .

من سورة النور

احترام الاسرة — أسرار المنزل — العقوبة الشديدة لمن يتعرض لهما

« إنَّ الَّذين يُحبُّونَ أنْ تَشيعَ الفاحشَةُ فى الَّذين آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أليمٌ فى الدُّنْيا والآخرة ، واللهُ يَعْلَمُ وأنْتُمْ لاتَعْلَمُون . ولَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وأنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَحيم ، يا أيُّها الَّذين آمَنُوا لاتَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطانِ ، ومَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فإنَّهُ يأمُرُ بالفَحْشاءِ والمُنْكَرِ ، ولَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مازَكى مِنْكُمْ مِنْ أحَدٍ أبَدًا ولكِنَّ اللهَ يُزَكِّى مَنْ يَشاءُ واللهُ سَميعٌ عَليم »[1] .

سورة «النور» سورة مدنية جامعة لكثير من أحكام الأسرة ، ولكثير من الآيات التى تكرّم المرأة ، وتقدر ما يجب أن يكون لها من الصَّون والعفاف ، فالمرأة هى الخلية الأولى للأسرة ، ومن ثم كانت الخلية الأولى للمجتمع ، فكل تعرّض لها بالباطل ، يسىء إلى مكانتها ، ويقلل من قدرها ، ويمزّق شمل الأسرة والجماعة . ففى السورة كثير من آيات التكريم للمحصَنات من النساء . وفى السورة آيات الاستئذان فى دخول البيوت ، والترفق فى الطلب إذا دعت إليه الحاجة . وفى السورة أدب الزيارة ومواقيتها ؛ فسورة النور من السور التى نقلت المسلمين من خشونة البداوة ، إلى رفاهية الحضارة المؤسسة على مبادئ الأخلاق الفاضلة ، ومراعاة شعور الناس فى بيوتهم وفى أهليهم .

وأولها « سُورَةٌ أنْزَلْناها وَفَرَضْناها وأنْزَلْنا فيها آياتٍ بَيِّناتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » ، فأول ماتُقرّر الآية هو الاحتفاظ برباط الزوجية واحترامه وتقديسه ، بحيث لو حاول الزوج نقض عقدته ، أو حاولت الزوجة العبث بهذه العلاقة ، تعرّض كل منهما ، أو كلاهما ، للعذاب الشديد . وتقرّر الآية أيضا أن علاقة الرجل بالمرأة يجب أن تتصل برباط الدين ، ويجب أن يكون اتصالا مشروعا ، فالرجل الذى لايتقدم إلى المرأة باسم الدين ، أى باسم الزواج ، ماجن فاسق يستحق العقوبة التى تصل إلى حدّ

(١) سورة النور ، آية ١٩ .

الرجم إذا كان متزوّجا ولم يحترم إنسانيته ولا إنسانية غيره ؛ وإلى حدّ الجلد إذا كان أعزب غير محصَن ، لايزال يتقلب فى أحضان الشيطان . وهذه العقوبة ، من الرجم أو الجلد ، هى أكبر عقوبة قرّرها الدين ، لأن الذنب فيها تعدّى إلى الأسرة ، وإلى المجتمع نفسه ، فيجب أولا أن تكون هذه العقوبة بعيدة عن الرأفة والرحمة « وَلا تَأخُذْكُمْ بِهِما رأفَةٌ فِى دِينِ اللهِ إنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ » ، ويجب ثانيا أن تكون علنية « وليَشْهَدْ عَذَابَهُما طائِفَةٌ مِنَ المُؤْمِنِين » [1] . فليست العقوبة هنا فردية بل اجتماعية ، لأن الذنب نفسه اجتماعىّ : رجل تعدّى على كرامة رجل فى بيته ، أى أنه تعدّى على الأسرة ، وتعدّى على الولد ، وتعدّى على المجتمع الذى يتكوّن من هذه الأسرة ومن غيرها . فالجريمة شاعت وانتشرت ، ومن حق العقوبة أن تكون شائعة منتشرة ، حتى لاتكون جابرة للذنب فحسب ، بل تكون أيضا زاجرة من الوقوع فيه .

هذه الفطرة الاجتماعية فى علانية العقوبة التى قرّرها الإسلام منذ عدّة قرون ، لم يعرفها علماء الاجتماع إلا حديثا فى دراستهم لتطوّر الجريمة ، ووقوف العقوبة أمامها ، فعندهم أن الجرائم ، وبخاصة مايتهدّد الأسرة منها ، إذا وقعت أخلت بالنظام العام ، وخلخلت الضمائر التى يجب أن تكون وطيدة ثابتة فى استنادها إلى قواعد السلوك ، وإذن يكون من المشروع أن تكون العقوبة علنية أمام جمع من الناس يتحدثون عنها ، وينقلونها إلى غيرهم ، حتى تستردّ الجماعة طمأنينتها ، وتستردّ الضمائر التى هزّتها الجريمة ، هدوءها واستقرارها ، كل هذا قد قرّره القرآن لما قال : « وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُما طائِفَةٌ مِنَ المُؤْمِنِين » . ومثل هذا المعنى ما ورد عن « أبى هريرة » من قوله فى عقوبة السرقة وعلانيتها « إقامة حدّ بأرض خير لأهليها من مطر أربعين ليلة » . أى فإذا كان مع المطر الخيرات من الحيوان والنبات ، فإن السرقة تهدّد هذا الأمن الاقتصادىّ . فإقامة الحدّ على السارق أمام الناس أجدى

(١) سورة النور ، آية ٢ .

على الناس وأنفع من مطر أربعين ليلة فى بلد يكثر فيه الخير وتكثر فيه السرقات .

وبعد أن بينت الآيات عقاب الذين يمزّقون شمل الأسرة ، ويعبثون برباط الزوجية ، تبين أيضا ضرورة اختيار الزوج العفيف ، وضرورة اختيار الزوجة العفيفة . أما الرجل الماجن المستهتر فلا يرغب فى العفائف ، ولكن فى الفواجر من النساء . وكذلك المرأة الماجنة المستهترة لايرغب فيها إلا ماجن أو مستهتر ، ويرغب عنها الأعفاء من الرجال « الزَّانِي لايَنْكِحُ » أى لايتزوّج « إلاَّ زَانِيَةً أوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُها » أى لايتزوّجها « إلاَّ زَانٍ أوْ مُشْرِك » [1] أى « أن الطيور على أشكالها تقع » ، وما دام الرجل يخشى على كرامة الزوجية ، فليتخير قبل أن يتزوّج المرأة العفيفة ، فذلك أصون لشرفه ، وأبعد عن سوء الظنّ بأهله .

تقرّر الآيات بعد ذلك أن المرأة المسلمة العفيفة إن اتهمها متهم ، أو رماها بالسوء رام ، ولم يأت على اتهامه بالشهداء ، وجب أن يعانى ثلاث عقوبات ، كل واحدة أشدّ من أختها وأعظم :

الأولى : أن يجلد ثمانين جلدة ؛ والثانية : أن تسقط شهادته ؛ والثالثة : أن يُفَسَّق ويحكم بخروجه وانشقاقه على أوضاع الجماعة التى يعيش فيها ، لأنه رمى بالسوء امرأة عفيفة من غير دليل ولا برهان . « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ المُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأتُوا بأرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ، فاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ، وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أبَدًا وأُولَئِكَ هُمُ الفاسِقُون » [2] . ومعنى « وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أبَدًا » أن تسقط عنه بعض الحقوق المدنية ، وأن تسقط عنه دائما فى جريمة رمى المحصنات بالسوء فى رأى بعض الفقهاء المسلمين . ويرى البعض الآخر أن يردّ إليه هذا الحقّ المدنى بالتوبة والصلاح ، بدليل قول الله تعالى « إلاَّ الَّذِينَ

---

(١) سورة النور ، من الآية ٣ .

(٢) سورة النور ، آية ٤ .

تابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وأَصْلَحُوا فإنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيم » [1] . وقد يستسهل الرجل أحيانا أن يرمى زوجته بالفحشاء بلادليل ، وهنا لابد مما يسميه الفقهاء بالملاعنة فيحلف الرجل أربع شهادات بالله إنه لصادق ، ثم يحلف خامسة باستنزال لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، وكذلك هى تدرأ العذاب عن نفسها أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لكاذب ، وأن تستنزل غضب الله عليها فى الخامسة إن كان صادقا ، وكان السلف الصالح يخشى عاقبة هذه اليمين .

وهناك طائفة استنزل عليها القرآن كل الغضب ، هى هذه التى تتعرّض لأعراض الشريفات العفيفات ، يدخل الشاب على الأسرة خاطبا ، ولأمرمّا تفسخ الخطبة ، فلا يكتفى بذلك ، بل ينشر كلمة السوء عن هذه الأسرة ، ويتولى بنفسه كِبْر الذنب ، ويتلقف ضعفاء الدين والمروءة ما يقول هذا الآثم ، فيُفيضون فيه ، ويقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، وما ليس لهم به علم ، ويحسبونه هينا وهو عند الله عظيم . هؤلاء عقابهم موكول إلى هذه الآيات « إنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أنْ تَشِيعَ الفاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا ، لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فى الدنيا والآخِرَةِ ، واللهُ يَعْلَمُ وأَنْتُمْ لا تَعْلَمُون . ولَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ، وأنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَحِيم» هؤلاء أنصار الشيطان ، وأتباع نفوسهم الشرّيرة المتمرّدة : « يأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فإنَّهُ يأمُرُ بالْفَحْشاءِ والمُنْكَرِ ، ولَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ما زَكا مِنْكُمْ مِنْ أحَدٍ أبَدًا ، ولَكِنَّ اللهَ يُزَكِّى مَنْ يَشاءُ واللهُ سَمِيعٌ عَلِيم » .

---

(١) سورة النور ، آية ٥ .

من سورة الفرقان

التوكل على الله — الإبداع فى الخلق

استمداد القمر نوره من الشمس — عباد الرحمن وصفاتهم العالية

« وَتَوَكَّلْ على الحَىِّ الَّذِى لا يَموتُ ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ، وكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيرًا . الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ وما بَيْنَهُما فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى على العَرْشِ الرَّحْمَنُ فاسْأَلْ بِهِ خَبِيرا . . . »[1].

تختتم سورة الفرقان بما ابتدأت به ، من تنزيه الله عن الولد والشريك . وتختتم أيضا بآيات رائعة فى وصف المؤمنين الصادقين ، الذين سماهم القرآن « عباد الرحمن » . وبعد أن وصفت السورة عناد المكابرين وجدلهم وحوارهم ، يقول الله لرسوله ولمن اتبعه من المؤمنين « وَتَوَكَّلْ على الحَىِّ الَّذِى لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ » أى لاتتكل على هذه المعبودات التى لاتضرّ ولا تنفع ، ولا تتكل على حىّ يواسيك اليوم ويموت غدا ! فتحيا بحياته ، وتموت بموته ، بل توكل على الحىّ الذى لايموت وسبح بحمده ، أى نزّهه عن النقائص ، شاكرا لأنعمه ، حامدا لتفضله ؛ ومن معنى الآية حديث الرسول : « كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إلى الرَّحْمَنِ ثَقِيلَتَانِ فِى المِيزَانِ ، خَفِيفَتَانِ على اللِّسَانِ : سُبْحَانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ » ، « وكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيرا » ، فالله خبير بذنوبهم وبأعمالهم ، وهو مجازيهم ، فلا تحزن ، ولا تعجل عليهم . والله هو القادر الذى أبدع خلق السموات والأرض وتفرّد بالملك والملكوت ، ومن كان هذا شأنه ، فهو أحقّ من يُتَوكل عليه ، وأولى من يُفوّض الأمر إليه . فالجدير بأن يتوكل عليه ، هو الحىّ الذى لايموت ، القادر الذى خلق السموات والأرض ، الرحمنُ بعباده ، فاسأل به خبيرا ، أى فاسأل عن هذا الخلق العظيم خبيرا ، ولا خبير غير الله ، أى فلا تسل غيره . ثم تبين الآيات

(١) سورة الفرقان ، الآيات ٥٨ ، ٥٩ .

صورة من عنادهم « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ ، قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ »، كما قال مَن قبلهم من أصحاب موسى لما قال لهم : « إِنِّى رَسُولُ رَبِّ العَالَمِين » «وَمَا رَبُّ العَالَمِين » ! ثم زادوا فى العناد فقالوا: « أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا، وَزَادَهُمْ نُفُورا » [1] أى زادهم الأمر بالسجود نفورا من الإيمان ، فكانوا كلما رأوا الرسول والمؤمنين ساجدين ، تباعدوا عنهم منكرين مستهزئين !!

تعود الآيات إلى الاستدلال على عظمة الخالق بعظم الخلق (تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَرًا مُنِيرًا » [2] ، فالبروج هى الاثنا عشر بُرجا التى تحل بها الشمس فى الفصول الأربعة ، فتتداول بتتابعها على الجوّ الحرارة والبرودة ، ويطول النهار معها ويقصر ، وتأثير كل ذلك فى الكون من نضج الثمار ، وإدراك الزرع ونمائه . وهذا هو السرّ فى البركة المفهومة من قوله : « تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّمَاءِ بُرُوجاً » أى أن هذه البركات والخيرات ممن جعل فى السماء بروجا ، وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا ، والسراج : هو الشمس المفهومة من الآيات الأخرى « وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجا » [3] ، « وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجا » [4] . وفى تسميته الشمس بالسراج ، ووصف القمر بالنور ، إشارة إلى حقيقة علمية ، وظاهرة فلكية مقرّرة ، وتلك الظاهرة فى الفرق بين الضوء والنور ، فالشمس سراج ، وسراج وهاج ، أى فيها الضوء وفيها الحرارة ؛ والقمر نور ، أوالقمر منير ، أى يستمدّ نوره من ضوء الشمس وحرارته من حرارتها ، لأن القمر جسم معتم ؛ هذه الحقيقة العلمية يقرّرها القرآن فى آية « وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجا وَقَمَرًا مُنِيرًا » أى نوره من ضوء السراج ، وآية أخرى فى الآية بعدها (وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورا » [5]

---

(١) سورة الفرقان ، آية ٦٠ .
(٢) سورة الفرقان ، آية ٦١ .
(٣) سورة نوح ، من الآية ١٦ .
(٤) سورة النبأ ، آية ١٣ .
(٥) سورة الفرقان ، آية ٦٢ .

فالليل يخلف النهار ، والنهارُ يخلف الليل ، ليكون الليل لباسا وأمنا وطمأنينة ، ويكون النهار معاشا وسعيا وكسبا للرزق ولوسائل الحياة ، ويمكن أن يكون « جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً » أى مختلفين فى السواد والبياض ، والزيادة والنقصان ، والليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذّكر ، فمن فاته شىء بالليل أدركه بالنهار ، ومن فاته وقت العبادة نهارا ، أدركه ليلا ؛ فالرجل الذاكر المتذكر ، والرجل الشاكر ، هو الذى لا يهمل ، فإذا فاته شىء قام به ، فإذا كان لا يحسنه نهارا ، أحسنه ليلا ، ومن كان لا يحسنه ليلا أحسنه نهارا ، أما أن يتركه مرّة واحدة فلا . وأيضا لمن أراد أن يذكر عظمة الله ، ويشكر فضل المنعم ، فللتذكر والاعتبار مجاله بالليل فى القمر والنجوم ، ومجاله بالنهار فى الشمس وآثارها !

بعد أن بينت الآيات حالة النافرين المعاندين ، بينت حالة المؤمنين الشاكرين ، وهم عباد الرحمن ، وأولى صفاتهم أنهم يمشون على الأرض هونا ، أى غير متكبرين وغير معجَبين بأنفسهم ، يجرون على سجيتهم فى غير تكلف ولا تصنع ، وفى الحديث « المُؤمِنُ هَيِّنٌ لَيِّن » .

وثانية صفاتهم أنهم « إذَا خاطَبَهُمُ الجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً » أى إذا تطاول عليهم السفهاء قالوا سلام عليكم لانبتغى الجاهلين ، فيسلمون عليهم بالمرور ، سالمين من أذاهم ، ومنحرفين عن التعرّض لهم .

هذه حالهم مع الناس ، أما حالهم مع ربهم ، فهم « يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِياما » ، أى يبيتون ساجدين قائمين فى تفكراتهم وصلواتهم ، ويقولون فى أعقاب صلواتهم ، أو فى عامة أوقاتهم : « رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إنَّ عَذَابَها كانَ غَرَاما » أى يلازم المذنب ، كما يلازم الغريم صاحبُ الدَّين مدينه ، وهم مع قيامهم بالليل ، ومرورهم مرّ الكرام باللغو ، يخافون الله ، وإذا ذكر الله وجلت قلوبهم خشية النار « إنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرّا وَمُقاما » .

---

(١) سورة الفرقان ، الآيات ٦٣ – ٦٧ .

وثالثة صفاتهم : أنهم « إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا : وكان بين ذلك قواما » فالإسراف رذيلة ، والتقتير على النفس والولد رذيلة ، والفضيلة أن يكون الإنفاق حتى فى الخير وسطا متعادلا . والآية تشير إلى مذهب خلقى جليل معروف فى الفلسفة القديمة والحديثة ، وهو مذهب « الوسط » الذى يقرّر أن الفضيلة وسط بين رذيلتين ؛ فالشجاعة وسط بين التهوّر وبين الجبن ، والكرم وسط بين الإسراف والبخل ، والحلم وسط بين الغضب والضعف ؛ فالآية هنا كالآية فى سورة الإسراء « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » [1] .

وبعد هذه الأوصاف الإيجابية ترجع الآيات إلى عباد الرحمن ، فتصفهم بأنهم مبرّءون من أعمال الجاهلية الأولى ، فهم « لا يدعون مع الله إلها آخر ، ولا يقتلون النفس التى حرّم الله » ، كما كانوا يفعلون من قتل بناتهم ، ولا يرتكبون الفاحشة ؛ وهذه الموبقات جزاؤها العقاب الشديد « ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا » [2] .

أما من تاب ورجع إلى الدين الصحيح ، وآمن وعمل عملا صالحا ، « فأولئك يبدّل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفورا رحيما » [2] ، ومعنى تبديل السيئات حسنات ، أن الإيمان والتوبة من شأنهما أن ينزعا ملكة الشرّ من نفس الإنسان ، ويودعا فيها ملكة الخير ، فإذا همّ بسيئة رجع عنها ، وإذا عزم على شرّ انقلب عزمه إلى خير بدافع من نفسه ، وبدافع من توفيق الله ، بعد أن هداه للإيمان ، ورزقه التوبة النصوح .

وعباد الرحمن لا يشهدون الزور ، أى لا يبطلون حقا ، ولا يساعدون باطلا ، وإذا مرّوا باللغو مرّوا كراما ، مكرّمين أنفسهم عن الوقوع فيه ، وهم الذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخرّوا عليها صما وعميانا ، أى أكبوا على فهمها سامعين واعين ،

---

(١) سورة الإسراء ، آية ٢٩

(٢) سورة الفرقان ، الآيات ٦٧ ، ٧٠ .

« وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ » أى يطلبون المسرّة والسعادة بالزوجة والولد ؛ فالزوجة الصالحة سعادة ، والولد الناجح سعادة ، بهما تقرّ العين ، فتكون دمعتها باردة كالقرّ ، وبهما تسكن العين أمامهما ، وتقرّ فى مكانها ، تنظر إليهما دائما ؛ فى النظر إلى الزوجة الصالحة والولد الصالح متعة . « وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاما ، أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا » أى يُجزون الدرجات العالية « وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاما . خَالِدِينَ فِيهَا ، حَسُنَتْ مُسْتَقَرّا وَمُقَاما » . قل يا محمد للناس : إن هذه الدرجات العالية تنال بهذه الأخلاق العالية وبغيرها « مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ » وعبادتكم واستقامتكم ، فلولا دعاؤكم وتفرّغكم وعبادتكم ماعبأ بكم ولا خلقكم ، « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » [1] ، ولكن كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ الْعَذَابُ لِزَاما .

---

(١) سورة الذاريات ، آية ٥٦ .

من سورة الشعراء

الإعراض والتكذيب والاستهزاء — عدم رعاية النعمة

محمد والشعر ، وموسى والسحر

« طسم . تِلْكَ آياتُ الكِتابِ المُبِين . لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِين . إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْناقُهُم لَهَا خاضِعِين . وَما يأتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِين . فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيأتِيهِمْ أَنْباءُ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون » [1] .

سورة الشعراء سورة مكية إلا بعض آيات فى آخرها نزلت بالمدينة . القوم فى مكة يجتمعون لحرب الرسول ، ويعملون كثيرا لفتنته ومعاندته ، والآيات تنزل تباعا فيها وصف لحالهم ، وتهوين من شأنهم ، وتسفيه لعقولهم ، وهداية لإرشادهم ، وفيها تسلية للرسول بما يُعرض عليه من أخبار الماضين ، وبما عانى الأنبياء من قومهم ، وما على الرسول إلا الصبرُ كما صبر أولو العزم من الرسل . ومن الأذى الذى عاناه الرسول ، أذى « الشعر والشعراء » الذين سميت السورة الكريمة باسمهم ؛ « فعبد الله ابنُ الزِّبعرى » « وهبيرة بن أبى وهب المخزومى » و « نافع بن عبد مناف » و « أبو عزة الجمحىّ » كانوا يؤذون الرسول ، ويُخيل إليهم أنهم يأتون بمثل القرآن ، لأنه شعر ، أو كالشعر فى اعتقادهم ، ولما نزلت سورة « تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ . ما أَغْنَى عَنْهُ مالُهُ وَما كَسَبَ . سَيَصْلَى نارًا ذَاتَ لَهَبٍ . وامْرأتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ » فِى جِيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ » [2] قالت امرأته : لأهجونّ محمدا بقصيدة أفحش من قصيدته ! ظنا منها أن القرآن من شعر الشعراء ، فنزلت الآيات « والشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغاوُون . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُون . وأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُون » [3] ، ونفى الله عن كتابه الكريم أن يكون من كلام الكهان ، أو

---

(١) سورة الشعراء ، الآيات ١ — ٦ . (٢) سورة المسد ، الآيات ١ — ٥ .

(٣) سورة الشعراء ، الآيات ٢٢٤ — ٢٢٦ .

خيال الشعراء ؛ وليس معنى هذا أن القرآن يذمّ الشعر ، وهو عمود الأدب ، فقد عرّفه بما لم يستطع الأدب أن يعرّف به نفسه ، وإنما أراد أن تكون للأدب رسالةٌ خلقية ، يستعان به للمنافحة عن عقيدة ، أو عن فكرة صالحة ، لذلك استثنت الآيات الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، من الشعراء أى الذين يذكرون الله كثيرا ، وينتصرون بعد ظلم ، من أمثال « عبد الله بن رواحة » و « حسان بن ثابت » و « كعب ابن مالك » و « كعب بن زهير » الذين استمع إليهم الرسول ، وقال فى أدبهم « إنّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا ، وَإنّ مِنَ الشِّعرِ لَحِكْمَةً » .

تبتدئ السورة بهذه الحروف الثلاثة « طسّمّ » ويعقبها مباشرة « تِلْكَ آياتُ الكِتابِ المُبِين » للدلالة على أن هذا القرآن المعجز من تلك الحروف المبسوطة أمامهم ، المعروفة لديهم ، فإذا عجزوا عن الإتيان بمثله شعرا أو نثرا ، فقد عجزوا حقا عن الكلام بحروف تلوكها ألسنتهم فى حديثهم العادىّ ، وحقت كلمة الإعجاز التى أعجزت الإنس والجنّ ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

وكان الرسول يألم أشد الألم لهذا العناد وهذه المكابرة ، فأصبرته الآيات « لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ ألاّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » أى هوّن عليك ، فلا تبخَعْ نفسك ولا تقتلها حسرات على أنهم لم يسلموا . وكان موقف المعارضين لا يخرج عن أمور ثلاثة : فهم إما معرضون ، وإما مكذّبون ، وإما مستهزئون « وَمَا يأتِيهِمْ مِن ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إلاّ كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِين . فَقَدْ كَذَّبُوا ، فَسَيأتِيهِمْ أنْباءُ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون » .

وبعد أن تقرر الآيات ماهم عليه من إعراض وتكذيب واستهزاء ، تأخذ بيدهم لتلفتهم إلى ماتحت أرجلهم مما تنبت الأرض من نبات فيه غذاء وفاكهة ، وفيه طب ودواء ، وفيه نضْرةٌ وزينة ، متاعا لكم ولأنعامكم « أوَلَمْ يَرَوْا إلى الإرْضِ كَمْ أنْبَتْنا فيها مِنْ كُلّ زَوْجٍ كَرِيم . إنّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَما كانَ أكْثَرُهُمْ مُؤْمِنين »[1] ،

---

(١) سورة الشعراء ، الآيات ٧ ، ٨ .

إن مثل هؤلاء كمثل فرعون وقومه ، كانوا فى جنات وعيون ، وكنوز ، ومقام كريم ، فلم يلتفتوا إلى هذه النعمة ، وظلوا على وثنيتهم فى عبادة الأصنام ، وعلى شركهم من اعتقادهم أن الفراعين آلهة أو متلبسون بقدسية الآلهة .

وهنا تجىء المناسبة طيِّعةً هينة ، للتنظير بين قوم الرسول وقوم موسى عليهما السلام ، وتجرى المحاورة البليغة الرائعة بين موسى وفرعون ، وهى فى الواقع محاورة بين الحقّ والباطل ، وبين التوحيد والوثنية ، وبين المادية تؤيدها القوّة ، والروحية يؤيدها صاحبها برُوح من الله . يعرض موسى أمر ربه على فرعون، فيغضب ويقول لموسى « أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً ، وَلَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِين . وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِى فَعَلْتَ وأَنْتَ مِنَ الكافِرِين » [1] بنعمة التربية ، ونعمة العفو عنك ؛ فيردُّ موسى : وهل نِعمتك علىّ أن تستعبد قومى ؟! وهل تنقم علىّ قتلا خطأ فعلته وأنا فى جهالة الشباب ؟! « فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ، فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْماً ، وَجَعَلَنِى مِنَ المُرْسَلِين » [2] .

يدعو موسى إلى ربّ العالمين ، فينكر فرعونُ ويقول : « وَما رَبُّ العالَمِين » ؟ فيردّ موسى : « رَبُّ السَّمَواتِ والأَرْضِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِين » ، فيعجب فرعونُ ويقول لمن حوله : « أَلا تَسْتَمِعُون » ؟! ولما تغاضى فرعون عن ربّ العالمين ، وعن خالق السموات والأرض ، قرَّب إليه موسى الفهم والتفهيم فقال : « رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الأَوَّلِين » ، أى إنك لست بإله ، وليس آباؤك بآلهة ! فلايسع فرعونَ إلا أن يرمىَ موسى بالجنون، فيقول لقومه : « إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُون » ، فيردّ موسى « رَبُّ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ وَمابَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُون» [3] . وكأنه يقول : أنتم المجانين ، فلو كنتم تعقلون لفهمتم أن من يُطلع الشمس من المشرق ، ويُسَيِّرُها إلى المغرب ، فى سمت خاص ، وفى نظام خاصّ ، له أثره فى نظام الكواكب التى تدور حول الشمس ما بين مشرقها ومغربها ،

---

(١) سورة الشعراء ، الآيات ١٨ ، ١٩ .
(٢) سورة الشعراء ، آية ٢١ .
(٣) سورة الشعراء ، آية ٢٣–٢٨ .

هو الله وحده ، وليست هناك من قوّة تتصرف فى هذه الأفلاك ودورانها تصرفَ خالقها.

يُبهَت الباطل ، ويَضطرب أمام الحق ، فيعمدُ إلى التهديد ويقول فرعون : « لَئِنِ اتَّخَذْتَ إلهًا غَيْرِى لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المَسْجُونِين » ، ولا يأبه الحقّ بالتهديد فيقول على لسان موسى : « أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُبِين ؟! » وتظهر معجزة اليد الناصعة ، والعصا الغالبة ، فتزيِّفُ كل ما اصطنع الباطلُ من أفاعيل السحر ، وأباطيل الأوهام ؛ ويخرّ السحرةُ ساجدين يقولون : « آمَنَّا بِرَبِّ العَالَمِين ، رَبِّ مُوسَى وهَرُون » . ولكن الباطلَ عنيد ، فيهدّدُ فرعونُ سحرته ويقول : « إنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ » ويتوعدهم بالتقتيل ثم بالتمثيل ، فلا يبالون ، بل يقولون : « إنَّا إلى رَبِّنا مُنْقَلِبُون ، إنَّا نَطْمَعُ أنْ يَغْفِرَ لَنا رَبُّنَا خَطايانا أنْ كُنَّا أوَّلَ المُؤْمِنِين [١] » . هذا مثلٌ من الوثنيات القديمة يسردها القرآن على الرسول الكريم ،

وتستمر الآيات فى القصص وعبرته ، فإبراهيم قد رزئ بقومه ، وزاد فى رزئه أنّ أباه معهم ، يعبدون ماينحتون ؛ وحين يُثْقِلُه الأمر ، يسأل السلامة لنفسه ولأبيه يوم يبعث الناس لرب العالمين ، فذلك « يَوْمَ لا يَنْفَعُ » فيه « مالٌ وَلا بَنُونَ إلاَّ مَنْ أتى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيم » [٢].

ونوح لمّا هدده قومه بالرجم لم يملك إلا أن يرفع يديه إلى السماء ويقول : « رَبِّ إنَّ قَوْمِى كَذَّبُون . فافْتَحْ بَيْنِى وبَيْنَهُمْ فَتْحا ، ونَجِّنِى ومَنْ مَعِىَ مِنَ المُؤْمِنِين » [٣] .

وتستمرّ الآيات فى سرد قصص الأنبياء ، وفى وصف ما لاقَوْا فى سبيل الدعوة إلى التوحيد ، لتسرّى عن خاتم الأنبياء ما ألمّ بنفسه من آثار الظلم والإعنات ، وليستمرّ فى دعوته مُعرضا عن السفهاء من الشعراء ، خافضا جناحه لمن اتبعه من المؤمنين ، بريئا مما يعمل الظالمون ، متوكلا على العزيز الرحيم ، بعيدا عن نَفْث الشياطين ، متمسكا بالحقّ ، نصيرا له ، فالحق منتصر مادام صاحبُه فى نُصرته ، والباطل مهزوم لأن عناصره متداعية « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُون » [٤] .

---

(١) سورة الشعراء ، الآيات ٢٣ – ٥١ .
(٢) سورة الشعراء ، الآيات ٨٨ ، ٨٩ .
(٣) سورة الشعراء ، الآيات ١١٧ ، ١١٨ .
(٤) سورة الشعراء ، آية ٢٢٧ .

من سورة العنكبوت

المحنة بسبب العقيدة — حب الله مقترن بحب الوالدين

لا طاعة فى معصية الله — مسئولية الأقوياء أمام الضعفاء

« الم . أحَسِبَ النَّاسُ أنْ يُتْرَكُوا أنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُون . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا ، وَلَيَعْلَمَنَّ الكاذِبِين . أمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أنْ يَسْبِقُونا ، ساءَ ما يَحْكُمُون . . . » [1] .

جاء الإسلام وآمن به من أمن ، وبقى على كفره من رضى لنفسه الشقاء ، وكان لابد للمؤمنين أن يُمتحنوا فى دينهم ، حتى يعلم الله الصادقين من المنافقين . وكان المشركون يعذّبون المؤمنين ، يشدّون وثاقهم فى الشمس الحارة وعليهم الدروع من الحديد ، وكانوا يضربونهم بالسياط ، ويشكّونهم بالرماح .

هاجر الرسول وتبعه أقوام من المؤمنين إلى المدينة ، فكتب من بالمدينة إلى إخوانهم المؤمنين فى مكة أنه لايقبل منكم إقرار أو إسلام حتى تهاجروا ، فخرجوا ، فتبعهم المشركون وردّوهم إلى مكة ، فنزل أوّل سورة العنكبوت « أحَسِبَ النَّاسُ أنْ يُتْرَكُوا ، أنْ يَقُولُوا آمَنَّا ، وهُمْ لا يُفْتَنُون » . ومعناها : أحسب الناس النَّاسُ أن يُتركوا غير مفتونين لأنهم قالوا آمنا ؟! أو أحسبوا لأنهم قالوا آمنا أن يتركوا غير مفتونين ؟! أى أن الإيمان لابد أن يكون صادقا ، وعلامة صدق الإيمان أن تَنتاب المؤمنَ البلايا فيصبر لها ، وأن يلاقىَ فى سبيله الأذى فيتحمله فى صبر وجلد ؛ فمجرّد الإيمان حتى عن إخلاص ، لا يكون سببا فى الخلاص : لذلك كتب المؤمنون فى المدينة إلى إخوانهم فى مكة مرة أخرى يقولون لهم : إن الله قد أنزل فيكم قرآنا !

---

(١) سورة العنكبوت ، الآيات ١ — ٤ .

تشجعوا بعد ذلك وخرجوا من مكة ، وتبعهم المشركون ، فنجا منهم من نجا ، وقُتل فى سبيل دينه من قتل ، فنزلت فيهم آية أخرى « ثُمَّ إنَّ رَبَّكَ للَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ، ثُمَّ جاهَدُوا وَصَبَرُوا ، إنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ »[1] .

هذه سنة الله فى الخلق جميعا ، لا فى الأمة العربية وحدها ، فقد شكا المؤمنون إلى الرسول ما يلاقون من عَنَت ، وقالوا له : ألا تَسْتَنْصِرُ لنا ؟! ألا تَدْعُو لنا ؟! فقال : « قَدْ كانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِى الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيها ، ثُمَّ يُؤْتَى بالمِنْشارِ فَيُوضَعُ على رأسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْن ، وَيُمْشَطُ بأمْشاطِ الحَدِيدِ ما دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ ، ما يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ » ! وما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا ، وما استكانوا ، ذلك هو تفسير الآية بعدها « وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا ، وَلَيَعْلَمَنَّ الكاذِبِين » .

تهدّد الآيات بعد ذلك كل مجرم ، وكل مرتكب ، بأن عذاب الله وعقابه وراءه يلاحقه « أمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أنْ يَسْبِقُونا ، ساءَ ما يَحْكُمُون » ! فهم لا يسبقون عذاب الله ولا يفرّون منه ، فإذا أهملهم فى الدنيا ، فهو لابدّ لاحقهم فى الآخرة « مَنْ كانَ يَرْجُو لِقاءَ اللهِ ، فإنَّ أجَلَ اللهِ لآتٍ ، وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيم . وَمَنْ جاهَدَ فإنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ ، إنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ العالَمِين » . ومع هذا التهديد فلا يزال الباب مفتوحا أمام غير المؤمن ليدرك الإيمان ، وأمام المذنب ليمحوَ ما ارتكب ، « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أحْسَنَ الَّذِى كانُوا يَعْمَلُون »[2] .

تنتقل الآيات بعد الإيمان بالله إلى الرحمة بالوالدين . وكثيرا ما قرن الإيمان بالله

---

(١) سورة النحل ، آية ١١٠ .

(٢) سورة العنكبوت ، الآيات ٥ — ٧ .

بحبّ الوالدين فى القرآن الكريم « وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانا » [١] « وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانا » [٢] ، فعاطفة الإيمان ، وعاطفة الأبوّة والأمومة والبنوّة ، من فصيلة واحدة ، أصلها ثابت فى النفس ، وجذرها فى الغريزة الإنسانية : الحاجة إلى الإيمان فطرة وغريزة ، والحاجة إلى الأم فطرة وغريزة ، الإيمان حبّ ، وعواطف الأمومة والبنوّة مؤسسة على الحبّ ، لذلك يقول أحد الفلاسفة : « تعلمت حبّ الله على ثدى أمى » ، فالخشية والرهبة ، والخوف ، والرجاء ، والحاجة ، والابتهال ، كلها صفات إلهية ، وهى صفات تُفْرِخ فى أحضان الأم ، وفى حرارة الأسرة ، لذلك تجىء آيات طاعة الآباء بعد آيات الإيمان بالله « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنا » ، أى أن تكون معاملته حُسنا ومعروفا ، وهى وصية لاتقتصر على ما فيها من الحسن ، بل هى الحسن بعينه ، والتعبير هنا كالتعبير فى الآية الأخرى « وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنا » أى قولا لا يتّصف بالحسن فحسب ، بل يكون الحسن بعينه « وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا » وفى هذه الكلمات القليلة كل العلاقات بين البنوّة والأبوّة ، فهى علاقات مؤسسة على الطاعة والمعروف ، إلا إذا أمر الوالدان أبناءهم بما ليس لهم به علم ، أى بما لايقع تحت عقل أو علم ، كالشرك بالله مثلا ، فإن العقل يأباه ، ويأباه العلم ، وتأباه الفطرة ، وتأباه الغرائز العقلية العلمية .

وفى الآية إشارتان جليلتان :

أولاهما : التعبير بلفظة إنسان فى « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ » فالإنسانية تأبى الشرك وتأبى الرذيلة ، فإذا أمر أحد الوالدين الولد بالشرك أو بالإلحاد ، فقد أمره بما ليس له به علم ، ولا يقع تحت علم ، ولا تتحرّك به غريزة ، وإذا أمر أحد الوالدين الولد بأية رذيلة من الرذائل ، فقد أمره بشئ ليس من طبيعة عقله ، ولا هو من تفكيره إنسانا له فكر وتقدير !

وثانيتهما : أن الآية تشير إلى مذهب خلقى فلسفى ، هو مذهب الخير فى الطبيعة

---

(١) سورة النساء ، آية ٣٦ . (٢) سورة الإسراء ، من الآية ٢٣ .

الإنسانية، فالإنسان مفطور على الخير، يحبه ويميل إليه بطبعه، فإذا أُمر بالشر تجافاه بفطرته، حتى تلحّ عليه البيئة فيتعلمه كارها، ويألفه كارها؛ والدليل على ذلك أنه مامن شرير إلاّ ويُعجب بعمل الرجل الخيِّر، وما من شرير إلا ويودّ أن يتوب الله عليه ليرجع إلى الخير، أى ليرجع إلى طبيعته وغريزته، فإذا جهل الإنسان مع الجاهلين وتناسى فى الدنيا طبيعة الخير، ولم يفرق بين ماله به علم، وما ليس له به علم، فسيعلم ذلك فى عاقبته وفى آخرته « إلىَّ مَرْجِعُكُمْ فأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُون » [1] فإذا أطاع الإنسان ربه وأطاع والديه، فهو من زمرة الصالحين، « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى الصَّالِحِين » [2].

ثم تصف الآيات نفسية من النفوس المريضة التى تتظاهر بالإيمان، ولا يتجاوز الإيمان حناجرها، فإذا كان أصحاب هذه النفوس مع المؤمنين قالوا إنا معكم، وخصوصا إذا أصاب المومنين خير، وإذا أُوذوا فى سبيل أفكارهم وعقائدهم، خافوا عذاب الناس، ولا يخافون عذاب الله!.

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بالله، فإذَا أُوذِىَ فِى الله، جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ الله، وَلَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إنَّا كُنَّا مَعَكُمْ »، ثم يردّ الله إليهم نفاقهم: « أَوَ لَيْسَ اللهُ بأعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ العَالَمِينَ » « وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ المُنَافِقِين » [3]، وهو مجازيهم على الإيمان، ومجازيهم على النفاق.

ثم تشير الآيات إلى محاورة بين المؤمنين والملحدين: فالملحدون يقولون للمؤمنين: إن دينكم يحرّم الخمر، ويحرّم الشهوات، فلا تستمعوا له، وإذا كان هناك عقاب أو مسئولية فنحن نحملها عنكم؛ فتصف الآيات هذه المحاورة المنكرة وتردّ عليها « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ، وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَىْءٍ، إنَّهُمْ لَكَاذِبُون » [4] مِثْل هؤلاء الذين يتصدّون للعبث بعقول الناس، يحملون أوزارهم وأثقالهم، ويحملون أثقالا مع أثقالهم، ويسألون يوم القيامة عما كانوا يفترون.

---

(١) سورة العنكبوت، آية ٨.
(٢) سورة العنكبوت، آية ٩.
(٣) سورة العنكبوت، آية ١١.
(٤) سورة العنكبوت، الآيات ١٢، ١٣.

من سورة لقمان

لقمان والحكمة — إقرار الرسول للأنبياء والحكماء قبله

وصايا لقمان اجتماعية وفردية

« وَإِذْ قالَ لُقْمانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ : يا بُنَيَّ لاتُشْرِكْ بالله ، إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ . وَوَصَّيْنا الإنْسانَ بِوالِدَيْهِ ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا على وَهْنٍ ، وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ ، أنِ اشْكُرْ لى وَلِوالِدَيْكَ ، إلَيَّ المَصِير » [1] .

سورة لقمان من السور المكية إلا فى قليل منها ، وسميت باسم « لقمان » الحكيم ، وهو من أسرة « أيوب » و « داود » عليهما السلام . كان قاضيا حكيما ، ولم يكن نبيًّا فى أصحّ الأقوال . وفى رواية عن « ابن المسيِّب » أنه من سودان مصر ، اشتهر بالحكمة والقول الفصل ؛ وجرى ذكره فى التوراة باسم « بلعام » من بلع الطعام ، كما أن « لقمان » من لَقَمَ الطعام أو ألْقَمه ، فكلاهما من التغذية الروحية بالحكمة وفصل الخطاب .

وقد عنيت الكتب الدينية بحِكَمه وقضاياه ، كما عُنيت بذلك الكتب الأدبية ، فى الآداب القديمة أقاصيص يروونها عن « إيسوب » اليونانى ، وعن حكمة التى انتشرت بعد أن ورد ذكر «لقمان » فى القرآن الكريم الذى قرّر أن فيه حكمةً لاتقل عن حِكَم الأنبياء .

ولقد كان المعاندون يُدلون على الرسول بأن لديهم كتبهم ، وفيها كل الحكمة ، وكأنهم يقولون : لمْ يُرْسَل « محمد » بجديد ، فنزلت الآيات تُقرّر كلَّ حكمة سبق بها الأنبياء والحكماء ، وتَنْعَى على الناس ضيقَ تفكيرهم ، بأنه لو جمعت أشجار الأرض فكانت أقلاما ، ومياه البحر تمدّه سبعة أبحر فكانت مدادا . ما نَفِدت كلمات الله الذى نزّل القرآن ، وفيه حكم الأوّلين ، وفيه ما يقع فى الحياة وما تتسع له الحياة إلى يوم الدين .

---

(١) سورة لقمان ، الآيات ١٣ وما بعدها .

وسورة لقمان تبتدئ بهذه الحروف الثلاثة « ا ل م » ويفسر هذه الحروفَ الآيةُ بعدها « تِلْكَ آياتُ الكِتابِ الحَكِيمِ » أى أن هذا الكتاب المفصل المحكم ، من هذه الحروف التى تلوكها ألسنتهم ، وتجرى بها عباراتهم ، وهو فوق مافيه من التفصيل والحكمة ، هدى ورحمةٌ للمحسنين ؛ وتفسر الآيات هؤلاء المحسنين بأنهم المتصفون بهذه الصفات الثلاث : « الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ ، ويُؤْتُونَ الزَّكاةَ ، وَهُمْ بالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ » [1] أى هم الذين يؤدون واجبهم الدينى ، وواجبهم الاجتماعى ، مدفوعين إلى ذلك بعقيدة ثابتة فى أن مردّهم إلى الله الذى ينبئهم بما كانوا يعملون .

وكان بعض المشركين من قريش ومنهم « النَّضْر بنُ الحارث » يعملون على صرف الناس عن القرآن فلا يستمعون إليه ، ولا ينتفعون بآياته ، بل بلغت بهم الحماقة أن يقولوا : إذا حدثكم « محمد » عن « عاد وثمود » فسنحدثكم عن الأكاسرة وملوك الحيرة ! ويجمعون الجماعات ليقُصُّوا عليهم أقاصيص الأوّلين مما ليس فيه عبرة ، ولا يدفع إلى تذكُّر ، فنزلت الآيات « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ، وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كأنْ لَمْ يَسْمَعْهَا ، كأنَّ فِى أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » [2] .

تترك الآيات هؤلاء المنافقين يستمعون إلى لهو الحديث ، ويُضلون عن سبيل الله ، لترتفع بأبصار المؤمنين إلى السموات ، فيرونها فى سموّها قائمةً على غير عمد ، ولترجع بأبصارهم بها إلى الأرض ، ليرَوْا الجبال الرواسى تمسكها خشية أن تميد بما عليها . ثم تلفتهم إلى ما على الأرض من كل دابة ، وإلى ما فى السماء من ماء يُنبت فى هذه الأرض من كل زوج كريم . وبعد أن تتطلع حواسهم إلى هذا الإبداع ، تُحرّكُ الآياتُ من عقولهم ليعرفوا أن للخلق خالقا ، وأن لهذا الإبداع مبدعا مصوّرا ،

---

(١) سورة لقمان ، آية ٤ . (٢) سورة لقمان ، الآيات ٦ ، ٧ .

هو الله ، فتبارك الله أحسنُ الخالقين « هَذَا خَلْقُ اللهِ ، فأرُونى ماذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ، بَلِ الظَّالِمُونَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ »[1] .

تقرّر الآيات بعد ذلك شيئا من حِكَمة « لقمان » الذى يعظ ابنه فيقول : « يا بُنَىَّ لاتُشْرِكْ باللهِ ، إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » .

وتعقب الآيات بعد الشرك والوحدانية بالوالدين ، فالله هو المنعم بنعمة الوجود ، والوالدان مظهران لهذه النعمة ، وتُفْرِد الآيةُ الأمَّ بوصية خاصة ، فهى التى حملته وَهْنا على وَهْن ، وكلما تقدمت فى الحمل تقدمت فى الوَهْن والضعف ، وهى التى أرضعته وفَصَلته فى عامين كاملين . وآيات القرآن كثيرة فى اقتران عبادة الله بالوصية بالوالدين : « وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبالْوَالِدَيْنِ إحْسانا »[2] . « وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ وَبالْوَالِدَيْنِ إحْسانا »[3] ، ذلك لأن حبّ الله يُتَعَلَّمُ على صدر الوالدة ، ففيه الحنان والحبّ ، والتفرّدُ بهذا الحبّ القريب من العبادة ، وما العبادة إلا خوف وحب ، وخشية ورجاء ، وترقُّب وأمل ؛ ثم تحدّد الآيات هذه العلاقة بين الإنسان ووالديه ، فهى علاقة محترمة فى كل شىء إلا فى العقيدة ؛ فعقيدة الإنسان بينه وبين ربه لايشترك فيها أحد ، ولا يتوسط بين العبد وربه أحد ، ولو كان والدا أو والدة . ولما أسلم « سعد بن أبى وقاص » هجرته أمه ، ومكثت ثلاثة أيام لاتطعم ولا تشرب ، حتى إنهم كانوا يفتحون فاها بعود لتتغذّى . ولما نُمِى خبر إضرابها عن الطعام والشراب إلى ابنها قال : « والله لو كانت لها سبعون نَفْسا فخرجت جميعُها لما رجَعْتُ إلى الكفر » ! فنزلت الآيات تقرّر حرمة العقيدة ، كما تقرّر ضرورة احترام الوالدين حتى فى هذه الحال : « وَإنْ جاهَدَاكَ على أنْ تُشْرِكَ بِى ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ » ، أى على أن تعتقد ما لا يقع تحت علم ، ولا يحكم به عقل ، ولا تندفع به غريزة ، « فَلا تُطِعْهُما

(١) سورة لقمان ، آية ١١ .
(٢) سورة النساء ، من الآية ٣٦ .
(٣) سورة الإسراء ، من الآية ٢٣ .

وَ » لكن « صَاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفا ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أنابَ إلَيَّ ، ثُمَّ إلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُون »[1] .

يستمرّ «لقمان» فى وصيته لابنه فيقول له : « يا بُنَيَّ ، إنَّها إنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ، فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ ، أوْ فِي السَّمَوَاتِ ، أوْ فِي الأرْضِ ، يَأْتِ بِها اللهُ ، إنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِير »[2] . أى إن كان هناك مثقال حبة من خردل مستكنة فى صخرة ، أو سابحة فى السموات ، أو فى الأرض ، يأت بها الله ، أى يعلمها ويحاسب عليها ، إن الله لطيف يصل علمه إلى كل خفىّ ، خبير بكنه هذه الحبة . ثم تتوالى المواعظ الدينية والاجتماعية : « أقِمِ الصَّلاةَ ، وأمُرْ بالمَعْرُوفِ ، وانْهَ عَنِ المُنْكَرِ ، وَاصْبِر على ما أصَابَكَ إنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُور » أى من الأمور التى تحتاج إلى إرادة صادقة ، وجدّ فى العزيمة ، « وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ للنَّاس » أى لا تلو عُنُقَك شأن المتكبرين ، « وَلا تَمْشِ فِي الأرْضِ مَرَحا » شأن العاطلين ، المتسكعين ، الذين لا يشغلهم مُهِمّ فى دين أو دنيا ، « إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُور ، وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ » أى فلا تمش مشية المتماوتين ، ولا تثبْ وُثوبَ الشياطين ، « وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إنَّ أنْكَرَ الأصْوَاتِ لَصَوْتُ الحَمِير »[3] ، فالذى يَصيح فى كلامه ، ويصرخ فى مناقشاته ، فاقدٌ لكثير من إنسانيته . وهكذا يقرّر الرسول الكريم ما جاء به الأنبياء والحكماء قبله ، ويزيد عليه من كلمات الله ما لو كانت أشجار الأرض لها أقلاما ، وبحار الأرض لها مدادا ، لا تنفد حكمتُها ، ولا يَستنفد العقل ما تحتويه من أسرار ، « إنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا الذِّكْرَ وَإنَّا لَهُ لَحافِظُون »[4] .

---

(١) سورة لقمان ، آية ١٥ .

(٢) سورة لقمان ، آية ١٦ .

(٣) سورة لقمان ، الآيات ١٧ – ١٩ .

(٤) سورة الحجر ، آية ٧٩ .

من سورة الأحزاب

أسرة الرسول — آداب الأسرة — حرمة البيوت

الأمر لنساء الرسول أمر لنساء أمته — نساء الرسول أمهات المؤمنين

« يا أيُّها الَّذين آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إلاَّ أنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إلى طَعامٍ غَيْرَ ناظِرِينَ إناهُ ، وَلَكِنْ إذَا دُعِيتُمْ فادْخُلُوا ، فإذَا طَعِمْتُمْ فانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ، إنَّ ذَلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ ، وَاللهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الحَقِّ ، وَإذَا سألْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فاسألُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجاب ، ذَلِكُمْ أطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ . . . »[1]

سورة الأحزاب سورة مدنية ، سميت بالأحزاب التى تجمعت لحرب المسلمين فى غزوة الخندق ، يوم زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وزلزل المؤمنون زلزالا شديدا . « وَلَمَّا رأى المُؤْمِنُونَ الأحْزَابَ قالُوا هَذَا ما وَعَدَنا اللهُ وَرَسُولُهُ ، وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ ، وَما زَادَهُمْ إلاَّ إيمَاناً وَتَسْلِيما »[2]. وفى هذه الغزوة انتصر المسلمون انتصارهم فى غيرها ، « وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْرًا ، وكَفَى اللهُ المُؤْمِنِينَ القِتالَ ، وكانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزا »[3] . وبعد ما أصاب المسلمون فى هذه الغزوة وغيرها من الغنائم ، تطلعت نساء النبىّ إلى شىء من هذا المتاع المغنوم ، فأنزل الله فيهن الآيات الدالة على الخصوصيات التى تتمتع بها نساء المؤمنين .

بعد ذلك تتعرّض الآيات لمعاملة الرسول ومعاملة أهل بيته ، بما يجب له ولهن من رعاية الأدب الراقى فى الحديث ، وفى دخول بيته وتناول الطعام فيه : فقد دخل عليه

---

(١) سورة الأحزاب ، من الآية ٥٣ .
(٢) سورة الأحزاب ، آية ٢٢ .
(٣) سورة الأحزاب ، آية ٢٥ .

مرة « عيينة بن حصن » وعنده زوجته عائشة ، دخل من غير استئذان كما كان يفعل جفاة الأعراب ، فقال له الرسول : « ياعُيَيْنَةُ ! أَيْنَ الاسْتِئْذَانُ » ؟ فردّ عليه ردّا جافيا وقال : يا رسول الله ما استأذنت على رجل قط ممن مضى منذ أدركت . ثم دفعه فضوله إلى أن يسأل ويقول : « من هذه الجميلة إلى جنبك ؟ » فقال الرسول : « هَذِهِ عائِشَةُ أُمُّ المُؤْمِنِين » ، ثم تمادى الرجل فى فضوله وفى أسئلته ، والرسول يجيب كارها متبرّما ؛ فلما خرج قالت عائشة : « من هذا يا رسول الله ؟» قال : « أَحْمَقُ مُطاعٌ وإنَّهُ ، على ماتَرَيْنَ ، لَسَيِّدُ قَوْمِه » . وكان كثيرٌ من أمثال هؤلاء الأعراب الجُفاة يتحينون طعام رسول الله ، فيدخلون عليه ويجلسون منتظرين إدراكه . كل هذا كان يؤذى النبى ويضايقه ، وهو كما رباه ربه كثير الحياء ، رقيق الحال ، لاينال من الطعام والشراب إلا الكفافَ لنفسه ولبيته . ويكره للمسلمين أن يكونوا جفاة أو فُضُوليين أو عابثين بكرامتهم وكرامة الناس ، فنزلت الآيات : « يأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاتَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إلاَّ أنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إلى طَعامٍ غَيْرَ ناظِرِينَ إناهُ » أى غير منتظرين إدراكه وأوانه ، « وَلَكِنْ إذَا دُعِيتُمْ فادْخُلُوا ، فإذَا طَعِمْتُمْ فانْتَشِرُوا ، وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيث » أى لاتجلسوا فى بيت الرسول يحادث بعضكم بعضا على سبيل الإيناس ، ومعناه أيضا رعاية حرمة البيوت ، فلا يدخل الضيف فى البيت ويستأنس لحديث أهله ، أى يستمع له ، فالاستئناس معناه تسمّع الحديث « إنَّ ذَلِكُمْ كانَ يُؤْذِى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِى مِنْكُمْ ، وَاللهُ لايَسْتَحْيِى مِنَ الحَقّ ، وَإذَا سألْتُمُوهُنَّ مَتاعا » أو حاجة « فاسألُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجاب » . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يفهم مقدار نساء النبى ، ويقدّر كرامتهن ، ولا يحبّ أن يعرضهن للنظرات الفضولية ، وكثيرا ما كشف للرسول عن غرضه وقال : « يا رسول الله ، يدخل عليك البرّ والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب »! وكان إذا مرّ بهن يقول : « لئن احتجبتنّ فإن لكن على النساء فضلا ، كما أن لزوجكن على الرجال الفضل» ولقد قالت له « زينب » مرة : « يابن الخطاب ! أتغار علينا والوحى ينزل فى بيوتنا ؟! » ، ومع ذلك نزلت

آية الحجاب، وأبانت الآيات عن أن الحجاب أو التصوّن أطهر لقلوب الرجال وقلوب النساء، وهذا التهجم على حرمة البيوت وحرمة الزوجات، كان يؤذى رسول الله « وَما كانَ لَكُمْ أنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ ، وَلا أنْ تَنْكِحُوا أزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أبَدًا ، إنَّ ذَلِكُمْ كانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيما »[1] . وقد قطعت هذه الآيات الطريق على الذين فى قلوبهم مرض، لكيلا يتطلعوا إلى زوجات الرسول ولو بعد موته، لأنهن أمهات المؤمنين ، وهن حرام عليهم كما حرمت عليهم أمهاتهم .

وهنا لابدّ من الوقوف أمام آيات الحجاب وقفة طويلة ، فلا أقطع للشك ، ولا أبقى لليقين . من الرجوع إلى حكم الله .

يقول بعض : إن هذه الآيات من خصوصيات نساء النبىّ . فهى لهن ، ولا تطبق إلا عليهن، بدليل وقائع الحال، وأسباب النزول . ولكنه كلام مردود، فالأمر للنبىّ أمر لأمته ، والأمر لنساء النبىّ ، أمر لنساء أمته ، والأمر كما يقول فيه علماء الأصول : « العبرة بعموم اللفظ ، لابخصوص السبب » . ومن ناحية أخرى ليست آيات الحجاب بمانعة للمرأة من مزاولة حقوقها، ومن أداء واجباتها فى الحياة، متى لازمتها العفة ، وصاحبتها الفضيلة ؛ فكل الآيات تتجه أكثر ماتتجه إلى الاستقامة ، والبعد عما يسىء إلى الكرامة « فَلا تَخْضَعْنَ بالقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَض »[2] « وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ » أو قرن فى بيوتكن ، فالكلمة من الوقار أو من القرار ، فإذا كانت من الوقار فمعناها العفة ، وإن كانت من الاستقرار فمعناها أن البيت ملك للمرأة لا للرجل، بدليل قوله « فى بيوتكن » ، ومن واجبها ألا يشغلها أى شاغل آخر عن وظيفة البيت ، أى وظيفة الأمومة والأسرة والإعداد الأول للأمة وللحياة . « وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجاهِلِيَّةِ الأُولى »[3] ، لأن التبرّج ضد الوقار أو ضد القرار فى وظيفة الأمومة ، فالأمر فى الآيات لنساء الرسول ولغير هنّ من سائر النساء، وليس فى الأمر ما يمنع مزاولة شئون الحياة ، ولكن الذين يمنعون يخشون التبرّج

(١) سورة الأحزاب ، من الآية ٥٣ .
(٢) سورة الأحزاب ، من الآية ٣٢ .
(٣) سورة الأحزاب ، من الآية ٣٣ .

والتبذّل والخضوع بالقول وهجر الأمومة . فواجب المرأة حيال حقوقها التى شرعها الدين ولم يمنعها ، أن تقطع ألسنة السوء بترك التبرّج والتزام الوقار ، حتى تصل إلى هدفها من طريق قريب .

أما الخصوصية الصحيحة لنساء الرسول ، فهى عدم الزواج من بعده « وَلا أنْ تَنْكِحُوا أزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أبَدًا » [١] ، لأنهن كنّ فى الحقيقة من الداعيات إلى الله ، ومن اللاتى يبلغن رسالات الله ، وجاءتهنّ هذه الفضيلة من الاتصال بصاحب الرسالة ، فكان من الضرورىّ منعُ الزواج من بعده ، أوّلا لأنهن ارتضين هذه المنزلة ابتداء ؛ وثانيا لأن أىّ زوج آخر من بعد الرسول يصرفهن عن واجبهن الدينى ، ويُخشى منه أن يدّعِىَ بدعوة فى الدين ، اتكالا على نساء المؤمنين .

ثم تبين الآيات من تخالطهم المرأة من الآباء ، والأبناء ، والإخوة ، وبنيهم ، وبنى الأخوات ، ثم تكل أمر الصيانة والعفة إلى المرأة نفسها ، فلا ينفعها الحجاب إذا كان قلبها مريضا ، ولا يضرّها العمل المشروع إذا كان قلبها معمورا بالإيمان « وَاتَّقِينَ اللهَ ، إنَّ اللهَ كانَ على كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا » [٢] ، ولما كان التعرّض للحرمات من الإيذاء . فصلت الآيات بين الذين يؤذون الله ورسوله ، وبين الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات ، فإيذاء الله ورسوله يكون بالشرك وبترك الأوامر ، وهذا ممنوع قطعا ، ولا وجه له من المسامحة ، لذلك تقول الآيات « إنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِى الدُّنْيا والآخِرَةِ وأعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينا » [٣] . أما « الَّذِينَ يُؤْذُونَ المُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِناتِ بِغَيْرِ ما اكْتَسَبُوا » (أى افتراء وادّعاء عليهم) « فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتانا وإثْمًا مُبِينا » . وكان الأمر فى الجاهلية وصدر من الإسلام أن تتزيّا النساء بزىّ واحد تقريبا ، لايفرق معه بين الحرّة والأمة ، ولا بين المسلمة وغيرها ، ولا بين العفيفة والمستهترة ،

---

(١) سورة الأحزاب ، من الآية ٥٣ .
(٢) سورة الأحزاب ، من الآية ٥٥ .
(٣) سورة الأحزاب ، آية ٥٧ .

فأمر الله نساء المؤمنين أن « يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ » حتى لايظهر شيء من الجسم « ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ » حتى تعرف المسلمة من غيرها ، والحرّة من الأمة « وكانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا »[1] .

ثم تهدِّدُ الآيات هؤلاء المنافقين والمرجفين ، الذين يتكلمون فى أشراف النساء بما يسيء إلى كرامتهن ، وكرامة أزواجهم ، وكرامة المسلمين عامة ، بالحكم عليهم باللعنة ، أو بالنفى ، أو بالتقتيل « لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ، وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ ، لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ، ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا . مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا » أى أينما وجدوا ضرب على أيديهم « وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا » ، هذا هو حكم الله فى المنافقين والمرجفين ، والذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى المؤمنين ، وهذه سنته فى الخلق والخليقة أن يُقطع منها العضو الذى يفسدها « سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا »[2] .

---

(١) سورة الأحزاب ، آية ٥٩ .

(٢) سورة الأحزاب ، من الآيات ٦٠ — ٦٢ .

من سورة فاطر

الإبداع فى الخلق — المسئولية الفردية — استبدال الخلق واستبدال الطبقات

الخير والشرّ لا يستويان — المسارع فى الخيرات والظالم والمقتصد

« وَاللهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها ، كَذَلِكَ النُّشُور . مَنْ كانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلَّهِ العِزَّةُ جَمِيعا ، إلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ، وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُور . . . »[1] .

سورة «فاطر» من السور التى نزلت بمكة لبيان الخلق والإيجاد، وعظمة الخالق، واستحقاقه الشكر والعبادة ؛ ومعنى ، فاطر الخالق ، البادئ بالخلق ، المبدع فى تكوينه وتصويره ؛ وهى كلمة من الكلمات التى ما كان يعرفها المتحضرون من العرب ، فهذا « ابن عباس » يقول : ما كنت أدرى ما فاطر السموات والأرض، حتى اختصم إلىّ أعرابيان فى بئر ، وقال أحدهما : « أنا فطرتها » ، أى أنا الذى ابتدأت حفرها وبناءها .

فسورة فاطر ، هى سورة الخلق ، وهى سورة الخالق ، الذى فطر السموات والأرض ، وأبدع فيها ما شاء ، وهو وحده واهب النعم ، إن أطلقها فلا ممسك لها ، وإن أمسكها فلا مرسل لها من بعده ، له الخلق وله الأمر ، وإلى الله ترجع الأمور .

وهو الذى يرسل الرياح فتُثير سحابا ، فيسوقها إلى البلد الميت ، فيحيا به ، وكذلك النشور فى الدنيا والآخرة ، وإليه وحده العزّة ؛ وليست العزّة فى الجاه والثروة ، بل فى الكلم الطيب والعمل الصالح . وهو وحده البارئ المصوّر « وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إلاَّ بِعِلْمِه ، وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ ، وَلا يُنْقَصُ مِنْ

(١) سورة فاطر ، الآيات ٩ ، ١٠ .

عُمُرِهِ إلاَّ فِي كِتابٍ . إنَّ ذَلِكَ على اللهِ يَسِيرٌ »[١] . وهو الذى مدَّ البحرين « هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سائِغٌ شَرَابُه ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ » يلتقيان ، ولا يبغيان : « وَمِنْ كُلٍّ تَأكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا ، وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها ، وَتَرَى الفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ، لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »[٢] وهو الذى « يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ ، وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ، ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ المُلْكُ ، وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ »[٣] والقطمير : هو القشر الملتفّ حول نواة البلح .

بعد أن بينت الآيات أنه فاطر السموات والأرض ، وأنه مصدر النعم ، تنادى جميع الناس ، المؤمنين وغير المؤمنين ، بأنهم فقراء : « يَأيُّها النَّاسُ أَنْتُمُ الفُقَرَاءُ إلى اللهِ ، وَاللهُ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ »[٤] . ثم تناديهم بأنهم جميعا مهدّدون بالفناء ، إن خرجوا عن الصراط السوىّ ، وإن تولَّوْا عن ذكر الله وخشيته فى كل مايعملون . « إنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ . وَما ذَلِكَ على اللهِ بِعَزِيزٍ »[٥] والجوائح ، والأمراض الفتاكة ، والحروب الطاحنة ، تحقق تهديد القرآن ، حتى يرجع الناس إلى الله « وَإنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لايَكُونُوا أَمْثالَكُمْ »[٦] .

وقد تحقق وعيد الله فى الاستبدال ، فاستبدل قوم بقوم ، وطبقة بطبقة ، وحكم بحكم ، ورجال برجال ، ونظم بنظم ، ألا إلى الله تصير الأمور .

ثم تبين الآيات المسئولية فى الإثم والجريمة ، وأنها بعد أن كانت جماعية فى الإهلاك بالتدمير الشامل ، أصبحت فردية ، فلا تُضارُّ نفس إلا بما عملت ،

---

(١) سورة فاطر ، آية ١١ .
(٢) سورة فاطر ، آية ١٢ .
(٣) سورة فاطر ، آية ١٣ .
(٤) سورة فاطر ، آية ١٥ .
(٥) سورة فاطر ، الآيات ١٦ ، ١٧ .
(٦) سورة القتال ، آية ٣٨ .

« وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » ، إلا إذا كان المرء محرّضا على الجريمة كما يقول المضلون للضالين : « اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ » [1] ، فهؤلاء يحملونَ أثقالهم ، وأثقالا مع أثقالهم . والعقوبة الفردية إذا حقت لارحمة فيها ولا غياث ، « وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى » ، أى إذا طلبت نفس مثقلة بالذنوب ، أن يخفف عنها شيء فلا يقبل التخفيف أحد ولو كان ذا قربى . هذه هى العدالة التى أمر الله بها رسوله « إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ » أى يخافون الله ولو لم يروه ، ويخافون عذابه ولو لم يحضرهم .

تلك هى صفات المؤمن : الخوف من الله ، والخشية من عذابه ، وترقب العقوبة إذا وقع الذنب ؛ وذلك هو أساس ما يسميه علم الأخلاق « بمحاسبة الضمير » .

كان الرسول عليه السلام يُرْهق نفسه فى سبيل دعوته ، ويحرص — إلى درجة المشقة — على هداية النفوس ، فأمره الله أن يهوّن على نفسه « إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ ، وأقامُوا الصَّلاةَ ، وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ ، وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ » [2] .

ثم تضرب الآيات الأمثال للرسول حتى يَصْبِر على عَنَتهم وعنادهم : « وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ » أى لايستوى المؤمن والمنكِر « وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّور » أى لايستوى الحقّ والباطل « وَلا الظِّلُّ وَلا الحَرُورُ » أى لايستوى المؤمن الهين اللين الذى يألفه الناس كما يألفون الظلّ ، والمعاند المكابر الذى يفرّ منه الناس كما يفرّون من ريح السموم ، وهجير الحرور . « وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ » أى لايستوى من رجع إلى الحقّ فأحيا نفسه ، ومن تمادى فى الباطل

---

(١) سورة العنكبوت ، آية ١٢ .

(٢) سورة فاطر ، آية ١٨ .

فأمات عقله وحسه ، « إنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ ، وَما أنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي القُبُورِ » ، أى أن الله يهدى من يعلم أن الهداية تنفعه ، ويخذل من يعلم أن الموعظة لاتؤثر فيه ؛ أما أنت فكأنك بجهادك فيهم تريد أن تسمع الموتى ، لتجهد نفسك فى غير طائل « إنْ أنْتَ إلاَّ نَذِير . إنَّا أرْسَلْناكَ بالحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَإنْ مِنْ أُمَّةٍ إلاَّ خَلا فِيها نَذِير . وَإنْ يُكَذِّبُوكَ » فلا تحزن « فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بالبَيِّناتِ وَبالزُّبُرِ وَبالكِتابِ المُنِيرِ » ، أى جاءتهم الدلائل الواضحة ، والشواهد الناطقة على النبوّة ، وعلى وحدانية الخالق مع الصحف والكتب السماوية .

ثم توجِّهُ الآيات النظر إلى أن فاطر السموات هو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، وأجناسها وأشكالها ، وهو الذى بسط الأرض وأرسى الجبال ، « وَمِنَ الجِبالِ جُدَدٌ » أى طرق مختلف ألوانها « بِيضٌ » وحُمر ، وسود غرابيب ، تشبه الغراب ، وهو الذى برأ المخلوقات « وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأنْعامِ » مخلوقات « مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كذلك » ! هذه هى آثار الله ، فاطر الخلق ، فكلما ازداد الإنسان علما بقدرة الله ، ازداد نظرا وتفكيرا ، وكلما ازداد نظرا وتفكيرا فى خلق الخلق كان أشد الناس خشية ، وهذا هو معنى « إنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَماء » ، فى الحديث : « أعْلَمُكُمْ بالله أشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَة » ، وفى الأثر « كَفَى بالمَرْءِ عِلْماً أنْ يَخْشَى ، وكَفَى بالمَرْءِ جَهْلاً أنْ يَعْجَبَ بِعِلْمِه » . وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « أنا أرْجُو أنْ أكُونَ أتْقاكُمْ لله وأعْلَمَكُمْ بِه » . والعلماء بآثار الله فى الكون أشدّ خشية لله ، وهم الذين يتلون كتاب الله ، ويقيمون الصلاة ، وينفقون مما رزقناهم سرّا وعلانية ، « يَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُور »[1] ، ولا يخشى عليها من

(١) سورة فاطر ، الآيات ٢٢ – ٢٩ .

الكساد . يشتريها الله منهم لأنها أعمال صالحة ، ويوفيهم عليها « أُجُورَهُمْ ، وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ » . وهذا الكتاب الذى يتلوه العلماء « هُوَ الحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ » من الكتب السماوية « إِنَّ اللهَ بِعِبادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ »[1] . فإن الله سبحانه خبير بالأنبياء ، بصير بنفوسهم ، يختارهم لكتبه ، ثم تترك الكتبُ من بعدهم فى الناس ، فينقسمون فيها ثلاثة أقسام : قسم ظالم لنفسه ، لا يصدقها . وقسم سابق بالخيرات ، يسارع إلى المغفرة والرحمة . وقسم مقتصد ، لا يتوغل فى الظلم ، ولا يوغل فى الخير ، بل يقتصد بين ذلك وذلك ، فالسابقون بالخيرات لهم فضل كبير : « جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ، وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ »[2] .

ويفهم من سياق الآية ونظمها .

أولا : أن الظالمين لأنفسهم كثيرون ، وأما المقتصدون فى الظلم والعدل ، الذين يخلطون الحسنات بالسيئات فقليلون ، والسابقون بالخيرات أقلّ الناس جميعا ؛ ومعنى ذلك أن الآية تقرّر أن الظلم مركز فى الطبائع والغرائز ، وأن الناس أصلا مندفعون بالأنانية إلى ظلم أنفسهم ، وظلم الناس وهو مذهب فى الأخلاق له أنصاره كمذهب الخير .

ثانيا : بينت الآيات جزاء السابقين ، وسكتت عن مصير الظالمين والمقتصدين ، ليكونوا من أمرهم فى ترقب ، وليتعرّضوا للتوبة « عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ » أما السابقون بالخيرات ، فلهم النعيم المقيم ، فى جنات يدخلونها قائلين « الحَمْدُ لِلهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ ، إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُور ، الَّذِى أَحَلَّنا دارَ المُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ ، لا يَمَسُّنا فِيها نَصَب ، وَلا يَمَسُّنا فِيها لُغُوب »[3]

---

(١) سورة فاطر ، الآيات ٣٠ ، ٣١ .

(٢) سورة فاطر ، آية ٣٣ .

(٣) سورة فاطر ، الآيات ٣٤ ، ٣٥ .

من سورة ص

اختبار الرسول – رميه بالسحر والكذب – التثبت فى الحكم

مسئولية الحاكم – فتنة داود – لايستوى المتقون والفجار

« صٓ . والقُرآنِ ذِى الذِّكْرِ . بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقاق . كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنادَوْا وَلاتَ حِينَ مَناص . وَعَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقالَ الكافِرُونَ هَذا ساحِرٌ كَذَّاب . أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذا لَشَيْءٌ عُجاب . . . » [1] .

القوم فى مكة مضطربون لهذا الحديث الجديد ، حائرون فى أمر هذا الذى جاءهم يكسر الأصنام ، ويسفِّه الأحلام ، وما يملكون من الاضطراب والحيرة إلا أن يقولوا : « هَذا ساحِرٌ كَذَّاب » ، أيحطم الأصنام ويجعل الآلهة إلها واحدا ؟! « إِنَّ هَذا لَشَيْءٌ عُجاب » ! هالهم هذا الأمر العظيم ، يأتى به الرجل العظيم ، فيصرخون أحيانا ويقولون : « ما سَمِعْنا بِهَذا فِى المِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذا إِلاَّ اخْتِلاق » ! [2] ويعجبون أحيانا أخرى ويقولون : « أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا » ؟! وهو فقير لا يملك ماتملك وليس له مالنا ! . فيردّ عليهم صوت العدالة ناعيا عليهم عقولهم ، متوعدا بسوء مصيرهم ، « بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِنْ ذِكْرِى ! بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذاب » ! [3] .

إن قوّة هذا الرجل من قوّة الله الذى يعلم حيث يجعل رسالته ، وإن ما أعطيه وماحُبِىَ به لهبة من هبات الله التى لاتنفد ، ونعمة من خزائنه الواسعة ، وهم لايملكون منها شيئا ! « أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ العَزِيزِ الوَهَّاب » [4]

---

(١) سورة ص ، الآيات ١ – ٥ .
(٢) سورة ص ، آية ٧ .
(٣) سورة ص ، آية ٨ .
(٤) سورة ص ، آية ٩ .

وأخيرا يُسقَط فى أيديهم ، ويُسقط فى أيدى رؤسائهم ، فلا يستطيعون دفع الإيمان ، ولا يستطيعون دفع « محمد » عن عقيدته ، فينصح الخاصةُ العامة منهم ، ويقولون لاقبل لكم بدفع « محمد » ورسالة « محمد » ، ولا بدفع ما أراده الله لكم وما أريدَ بكم « وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ » [1] ، ولا دافع لإرادة الله .

إلى جانب هؤلاء المعاندين ، القُصَّاص والمُحَدِّثُون يحدثون الناس فى جاهليتهم عن أخبار الماضين من الأمم ، ويقصدون من هذا القصص إلى أمرين :

الأول : إضلالهم بالخيالات والمفتريات التى يشتمل عليها قصصهم .

الثانى : أن الأنبياء الماضين كانوا أشدّ قوة وأطول حولا من هذا النبىّ الجديد الذى جاء بالقرآن الكريم ، يقرّر علوما ، ويوقظ فهوما ، ويَعرض آيات ، ويطلب التدبر والتفكير فيها .

« فداود وسليمان » كان لهما السلطان على الإنس والجنّ ، والرياح والبحار والجبال : و « موسى » كان مؤيدا بما يدفع السحر والسحرة ، و « عيسى » كانت آياته فى الطبّ والحكمة وما بينهما من معجزات ؛ لذلك تلتفت الآيات إلى الرسول تأمره بالصبر ، وتقصّ عليه قصصا حقيقيا بعيدا عن التصوّرات والأخيلة والأوهام : « اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ، وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ » والقوة والحول « إِنَّهُ أَوَّابٌ » [2] توّاب رجاع إلى مرضاة الله . آتى الله « داود » الملك ، وشدّ أزره وحصنه ، وآتاه فوق ذلك الحكمة والنبوّة وفصل الخطاب ؛ وقد ورد عن « ابن عباس » أنه كان يقسم وقته أربعة أقسام ، فينقطع يوما للعبادة ، ويوما للقضاء بين الناس ، ويوما للوعظ والإرشاد ، ويوما لخاصة أهله ؛ فبينا هو منقطع للعبادة فى المحراب إذ تسوّر عليه اثنان مختصمان ، ففزع منهما ، لأنهما جاءاه فى يوم لم يخصص للفصل فى الخصومات ، فقالا « لاَ تَخَفْ ، خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ، فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلاَ تُشْطِطْ ، وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ » [3]

---

(١) سورة ص ، آية ٦ .
(٢) سورة ص ، آية ١٧ .
(٣) سورة ص ، آية ٢٢ .

ثم عرضا للقضية فقال أحدهما : « إنّ هَذَا أخِى لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ، فَقَالَ أكْفِلْنِيها » أى أعطنى إيّاها ، واجعلنى أكفلها كما أكفل بقية نعاجى ، وهذا أخى قد « عَزّنِى فى الخِطاب » [1] . وغلبنى على أمرى بالجدل والمناقشة . فلما سمع « داود » مقالة الشاكى قال له على الفور : « لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إلى نِعاجِهِ » ، ولم يكتف « داود » بهذا الحكم السريع ، بل قال : « وَإنّ كَثِيراً مِنَ الخُلَطاءِ » والشركاء « لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ ، إلاّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ وَقَلِيلٌ ما هُمْ » .

هذه هى القصة كما أوردها القرآن الكريم ، لاتزيد على خصومة عادية : طغى فيها رجل ثَرِىّ على رجل ضعيف ، يريد أن يأخذ منه القليل الذى يعتمد عليه فى حياته ، ليضمه إلى كثيره شرها وطمعا ؛ ولكن القصاصين فى الجاهلية ، وبعض المفسرين الذين سمحوا بدخول ما نقل عن قصّاصى الكتب الدينية وناسخيها غالوا فى فهم الآيات ، وحمّلوها ما ليس فى عباراتها ، فذكروا أن « داود » تطلّع إلى امرأة رجل من قومه ، بل تسبب فى موته ، حتى يخلوَ له الجوّ ، فيتزوّج بامرأته ، وأن الرجلين المختصمين ملكان فى أشباه الرجال ، جاءاه ليبينا له خطيئته ، مصوّرين له أن النعجة هى امرأة ذلك الرجل الذى تعدّى عليه ، أو زاحمه على خِطبتها ، وأن هذه التسع والتسعين نعجة كناية عن نساء داود ، إلى آخر ما يقولون فى تفسير هذه الآيات . وعندنا أن هذه تأويلات لاتحتملها الآيات ، وليس فى نظمها مايُلجئ إليها . هذا إلى أنّ فيها تعرّضا لعصمة الأنبياء ، وهم مبرّءُون منزّهون عن الوقوع فى صغائر الأمور .

والدليل على ذلك أمران : أحدهما من النقل ، والآخر من نظم الآيات نفسها ، فالأول ما رُوى عن « سعيد بن المسيب » أن « علىّ بن أبى طالب » قال : من حدثكم قصة داود كما يرويها القصاص ، جلدته مائة وستين جلدة ، أى ضعف حدّ الفرية . وما روى عن « عمر بن عبد العزيز » من أنه كان سمع فى مجلسه رجلا يحدّث بقصة

---

(١) سورة ص ، آية ٢٣ .

داود على نحو ما يرويها القصاص وكان فى مجلسه عالم محقق ، فكذّب القائل وقال : « إن كانت القصة على ما فى كتاب الله فالتماس خلافها فرية ، وإن كانت على ما ذكرت وكفّ الله عن ذكرها سترا لنبيه داود ، فما ينبغى لك إظهار ما ستره الله » ! فقال عمر بن عبد العزيز : « استماعى هذا الكلام أحبّ إلىّ مما طلعت عليه الشمس » .

أما الدليل الآخر فهو من نظم الآيات التى تقرّر أن « داود » قد فُتن أو ظن أنه فتن « فاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وأَنابَ » [1] ، فما هى فتنة « داود » فى القرآن ؟ هى فيما نعتقد فتنة فى خطأ الحكم ، فقد تسرّع وقال لأحد الخصمين : « لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه » ، من غير أن يسأل الخصم الآخر ؛ من هنا استغفر ربه وغفر الله له « وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآب » [2] ، يؤيد هذا نظم الآيات ، وكلها منصبة على الحكم « يا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الأَرْضِ ، فاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بالحَقّ ، وَلا تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الحِسَاب » [3] . ويؤخذ من الآية :

أولا : أن الحاكم خليفة الله فى الأرض ، والله هو الحق ، فلا بدّ للحاكم أن يحكم بالحق ، .

ثانيا : إنّ ما يُكبّ الحكامَ على وجوههم هو اتباع الهوى ، والجرى وراء الشهوة والثّروة ؛ واتباع الهوى ضلال عن سبيل الله ، وسبيل الله فى التزام الحدود ، والتزام التعقل والتفكير ، ومنشأ الضلال اعتقاد المرء أنه غير مسئول أمام الله وأمام الناس ، وغير محاسب على ما يعمل فى قليل أو كثير . هذا هو الضلال والنسيان ، ضلال المرء فى الحق ، ونسيان المرء نفسه ، ومتى نسى المرء نفسه ذكّره القانون ، وأعدّ الله له العذاب الشديد « إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الحِسَاب » .

---

(١) سورة صٓ ، آية ٢٤ .
(٢) سورة صٓ ، من الآية ٢٥ .
(٣) سورة صٓ ، من الآية ٢٦ .

ولقد كان بعض خلفاء بنى أمية يعتقدون أنهم غير مسئولين عن أنفسهم وعن الناس ، فهم فوق الناس وفوق المسئولية ، وكان أن كاشف واحد منهم « عمر بن عبد العزيز » بهذه الفكرة ، فقال : « بلغنا أن الخليفة لايجرى عليه القلم ، ولا تكتب عليه معصية »! فغضب « عمر » وقال : « الخلفاء أفضل أم الأنبياء ؟! وتلا قول الله « يا دَاوُدُ إنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بالحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الهَوَى فيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، إنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الحِسَاب » .

ثم تعقب الآيات بدليل آخر تبين فيه أن هؤلاء الذين يعتقدون أنهم غير مسئولين ، وأنهم أحرار فيما يفعلون ، إنما يعطلون الحكمة فى خلق الله ، وفى خلق الإنسان نفسه ، « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا باطِلا » [١] « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِين » [٢] « أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وأَنَّكُمْ إلَيْنَا لاتُرْجَعُون » [٣] والذين يعتقدون ذلك واهمون ظالمون : « ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّار » [٤] . لو كانت المسئولية معدومة ، ولو كان الجزاء العادل لايدرك صاحبه إن عاجلا وإن آجلا ، لاستوى الصالح والفاسد ، والتقى والفاجر ، والسفيه والحكيم ، بل لاستوى الكفر والإيمان ، والحق والباطل ، والهدى والضلال ، ذلك أبسط ما يقضى فيه العقل « أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كالمُفْسِدِينَ فِي الأَرْض ، أَمْ نَجْعَلُ المُتَّقِينَ كالفُجَّار » [٥] ، ذلك هو العقل ، بل ذلك هو الدين ، وهو ما يقضى به كتاب الله « كِتابٌ أَنْزَلْنَاهُ إلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ ، وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَاب » [٦] .

---

(١) سورة ص ، من آية ٢٧ .
(٢) سورة الأنبياء ، آية ١٦ .
(٣) سورة « المؤمنون » ، آية ١١٥ .
(٤) سورة ص ، من آية ٢٧ .
(٥) سورة ص ، آية ٢٨ .
(٦) سورة ص ، آية ٢٩ .

من سورة الزمر

الوحدانية — الشفعاء — علم الفلك — علم الأحياء

المسئولية الفردية — نفسية الإنسان

« تَنْزِيلُ الكِتابِ مِنَ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ . إنَّا أنْزَلْنا إلَيْكَ الكِتابَ بالحَقِّ ، فاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ، ألا لِلهِ الدِّينُ الخالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أوْلِياءَ ، ما نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونا إلى اللهِ زُلْفَى ، إنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، إنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفَّارٌ . لَوْ أرادَ اللهُ أنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ، لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ ، سُبْحانَهُ هُوَ اللهُ الواحِدُ القَهَّارُ . . . »[1] .

تبتدئ سورة الزمر بأن الكتاب الكريم ذِكْر للعالمين ، وأنه تنزيل من الله العزيز الحكيم ، العزيز القاهر الذى لا يغلب ، والحكيم المقدر لمصالح خلقه ، البصير بنفوسهم : وهذا الكتاب منزل من عند الله حقا « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » وهو منزل بالحق الصريح الواضح ، الذى يدعو إلى وحدانية الله ، وتفرّده بالملك والسلطان . « فاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ » أى لا تعبد غيره ، ولا تتكل على غيره ، ولا تعتقد أن لأحد إرادة أو تصريفا فيما يريد وفيما يتصرف ؛ فالإخلاص بالقلب ، والتوجه بالقلب ، لمن يعرف ما فى طيات النفوس ، وخبايا الضمائر . وفى الحديث أن رجلا سأل الرسول عليه الصلاة والسلام : « يا رسول الله ! إنا نعطى أموالنا التماس الذكر ، فهل لنا من أجر . ؟ قال لا ! فقال الرجل : إنا نعطى التماس الأجر والذكر ، فهل هنا من أجر ؟ فقال الرسول : « إنَّ اللهَ تَعالى لا يَقْبَلُ إلاَّ مَنْ أخْلَصَ إلَيْهِ » ثم تلا الرسول هذه الآية : « ألا لِلهِ الدِّينُ الخالِصُ » .

إن هؤلاء الذين يتخذون من دون الله أولياء لا ينقصهم الذكاء ولا ينقصهم الجدل ،

---

(١) سورة الزمر ، الآيات ١ — ٤ .

ولكنه ذكاء من غير إيمان ، وجدل بالباطل ، والحقّ بين واضح ، فكان المؤمنون إذا سألوهم : من خلقكم ؟ يقولون الله ، ومن خالق السموات والأرض ؟ يقولون الله ! فما بالكم إذن تتخذون أولياء من دون الله ، وأربابا من دون الله ؟ ، فيقولون « ما نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونا إلى اللهِ زُلْفَى » ، تشفع لنا عنده . وما أشبه هذه الكلمة الجاهلية بما يقوله الآن عوامّ الناس الذين يتوسلون بالعباد ، الأحياء منهم والأموات ، يعتقدون أن لهم أثرا فى تصاريف الحياة ، فاذا سألتهم : هل ينفعونكم أويضرّون ؟ قالوا : هم زُلْفَى ، وهم شفعاؤنا عند الله « إنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » . تلك عقيدة باطلة ، وقائلها كاذب ، « إنَّ اللهَ لا يَهْدِى مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفَّار » . ثم تسوق الآيات دليلا عقليا يردّ عليهم مفترياتهم « لَوْ أرَادَ اللهُ أنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ » . أى لو جاز على الله اتخاذُ الولد لاختار أحدا من ملائكته ، أو من خلقه ، ولأخبركم به ، بدل أن تتقوّلوا فتقولوا « إن فلانا ابن الله » و « فلانا ابن الله » ، سبحانه ! تنزّه وتعالى عن ذلك علوّا كبيرا ، « هُوَ اللهُ الوَاحِدُ القَهَّار » ! والوحدانية لاتتجزأ إلى والد وولد ، والقهار هو الغالب بذاته ، المجرّد عن التمثيل والمادة .

تنتقل الآيات بعد ذلك إلى بيان الإبداع فى الخلق ، هذا الإبداع الدالّ على الوَحدة والقهر . وهذا الإبداع يتمثل فى ناحيتين علميتين :

إحداهما : فى علم الفلك والهيئة . وثانيتهما : فى علم الأحياء .

فالأولى : « خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأرْضَ بالحَقّ ، يُكَوِّرُ اللَّيْلَ على النَّهار ، ويُكَوِّرُ النَّهارَ على اللَّيْلِ ، وسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لأجَلٍ مُسَمًّى » [1] ، فخلق السموات والأرض وما بينهما « بالحق » ، أى على مقتضى الحكمة والعقل ، بما فيهما من علاقات منظمة محكمة . « يُكَوِّرُ اللَّيْلَ على النَّهارِ وَيُكَوِّرُ النَّهارَ على اللَّيْلِ » ، لأن الليل والنهار متعلقان بالحركة الشمسية ،

---

(١) سورة الزمر ، من الآية ٥ .

وفى معنى تكوير أحدهما على الآخر أن هذه الأجرام ذاتُ علاقات علمية ، يدور بعضها بدوران بعض ، ويتحرّك بحركته ، فى نظام دائب منظم ؛ وفى معنى التكوير الطول والقصر ، لأن الأجسام الكرية تختلف خطوطها فى الطول وفى العرض ، باختلاف الأوساط والأقطاب . والتعبير بالتكوير هنا يقرّر كل ما ورد من الآيات فى حركة الليل والنهار « يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِى اللَّيْلِ » [١] ، « وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورا » [٢] ، « وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ، وَالنَّهارِ إِذَا تَجَلَّى » [٣] « يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثا » [٤] وفيها كلها معانى التدخل والتتابع ، والتكوير ، والطول والقصر ، والضوء والحرارة . « وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُسَمًّى » فى مدارات مقدّرة ، ومدد معلومة ، لتعلموا عدد السنين والحساب « ألا هُوَ العَزِيزُ الغَفَّار » [٥] فهو عزيز قادر على هذا الخلق العظيم ، وهو غفار لمن يذنب فى حق نفسه ، فينكر حسه وعقله ، والشواهد ماثلة أمامه !

والناحية العلمية الثانية تجد مجالها فى علم الأحياء ، وفى علم الحيوان « خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ » من أصل واحد ، ومصدر واحد ، وطبقة واحدة ، « ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها » ليكثر النسل ويتمّ الخلق ، « وأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْوَاجٍ » هى الإبل والبقر والضأن والمعز ، زوجان من كل نوع حفظا للنسل ، وحفظا لبقاء النوع . « يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْق » ، نطفة أولا ، ثم علقة ، ثم مضغة مخلقة ، وغير مخلقة ، وعظاما عارية ، ثم عظاما مكسوّة « فَتَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالِقِين » .

هذا الخلق والتكوين « فِى ظُلُماتٍ ثَلاث » ، هى ظلمة الصلب ، أو البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المَشِيمة ، أى الغشاء الذى يسكن فيه الجنين ، « ذَلِكُمُ

---

(١) سورة الحج ، من الآية ٦١ .
(٢) سورة الفرقان ، آية ٦٢ .
(٣) سورة الليل ، آية ٢٠ .
(٤) سورة الأعراف ، من الآية ٥٤ .
(٥) سورة الزمر ، من الآية ٥ .

اللهُ رَبُّكُمْ » فهو العظيم فى خلقه وتصويره ، لأنه « الله » ، وهو المنشئ من العدم إلى الوجود التدريجى ، ولأنه « ربكم » الذى يربيكم ويحوطكم برعايته وعنايته ، « فأنّى تُصْرَفُون » [١] إلى أين تنصرفون عن طريق الحق بعد هذا البيان فى الكون وفى الكائنات ؟ ! « إنْ تَكْفُرُوا » أى بعد ذلك « فإنَّ اللهَ غَنِىٌّ عَنْكُمْ » ، « قُلْ ما يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّى لَوْلا دُعاؤُكُمْ » [٢] .

بعد هذا التهديد بالطرد ، تردّهم رحمته فى هذه العبارة الراضية المطمئنة : « وَلا يَرْضَى لِعِبادِهِ الكُفْرَ ، وَإنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ » فإذا رضيتم الكفر والجحود ، فلن يرضاه الله لكم ، ولن يعاقب بكفركم وجحودكم أولادكم وأعقابكم ، فمن عدالته التى كتبها على نفسه « وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » فالمسئولية فردية ، لاتقع إلا على رأس صاحبها ؛ ويتطوّر قانون العقوبات فى كل الشرائع الوضعية حتى يصل إلى هذه العبارة التى قرّرها القرآن : « وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » وتقدّم القوانين فى أن تبحث عن المجرم الحقيقى ، حتى لايؤخذ البرىء بجرم المسىء . وعند الرجوع إلى الله « يُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُون ، إنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُور » [٣] . فلو أفلت واحد من العقاب فى الدنيا ، فلن يفلت فى الآخرة : « يَوْمَ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ » .

تحلل الآيات بعد ذلك نفسية الجاحد ، بل نفسية كثير من الناس « وَإذا مَسَّ الإنْسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إلَيْهِ » أى راجعا إليه « ثُمَّ إذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ » وأعطاه « نَسِيَ ما كانَ يَدْعُو إلَيْهِ مِنْ قَبْلُ » ورجع إلى الوسطاء والشفعاء « وَجَعَلَ لِلهِ أنْدادًا ، قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً ، إنَّكَ مِنْ أصْحابِ النّار » ! أهذا الملحد الجاحد خير « أمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِدًا وَقائِما ، يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّه ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لايَعْلَمُون ، إنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الألْباب » [٤] .

---

(١) سورة الزمر ، آية ٦ .
(٢) سورة الفرقان ، آية ٧٧ .
(٣) سورة الزمر ، آية ٧ .
(٤) سورة الزمر ، الآيات ٨ ، ٩ .

من سورة غافر

التوبة والمغفرة — الرحمة والعقاب — معاملة عمر للسكير

دعاء الملائكة للمؤمنين

« حم . تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ العَزِيزِ العَلِيمِ . غافِرِ الذَّنْبِ وَقابِلِ التَّوْبِ ، شَدِيدِ العِقابِ ذِى الطَّوْلِ ، لا إلَهَ إلاَّ هُوَ إلَيْهِ المَصِيرُ . ما يُجادِلُ فِى آياتِ اللهِ إلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى البِلادِ ، كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ والأحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ، وَجادَلُوا بالباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحَقَّ ، فأخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ . . . »[1] .

القوم فى مكة يجادلون فى الله وفى آياته ، ويجادلون بالباطل ليدحضوا الحق ، ويهمون بأخذ الرسول كما أخذت الأمم قبلهم أنبياءهم ؛ فالآيات فى السورة تحذرهم طغيانهم وتذكرهم بالله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وتسرد على الرسول أخبار الماضين من الرسل والماضين من أممهم ، حتى يصبر على أذاهم ، ويحفظه الله من سيئات ما مكروا ، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله .

تبتدئ السورة بذكر « الكتاب » ، وأنه من تنزيل الله « العزيز » « الغالب » « العليم » بما عليه نفوس الناس من خير وشر ، وهو فى قدرته وجبروته « شديد العقاب » ذو الطول والحول والقوة . ولكنه مع هذا أيضا « غافر الذنب » « قابل التوب » والتوب والثوب والأوب : معناه الرجوع إلى الله الذى لا يرد تائبا ولا مستغفرا « ويعفو عن كثير » ، إذن ليس لتائب أن ييأس من رحمة الله ، فالمذنب التائب من الله فى رحمتين : فهو يقبل توبته ويكتبها له فى الطاعات ، وهو يغفر الذنوب جميعا فيبدل الله سيئاتهم حسنات ، أى أن المذنب التائب يجمع بين المغفرة والقبول ، والآيات تدل بهذا على أن العقاب استصلاح وتهذيب ، وعلامة التهذيب التوبة .

---

(١) سورة غافر ، الآيات ١ — ٥ .

وكان « عمر » رضى الله عنه يسير على خطة القرآن فى عقوباته ، على رغم شدته فى تنفيذ أوامر الله : سأل يوما عن حال رجل من كبار القوم ، فقيل له إنه مغمور فى الشراب ، فكتب عمر إليه : « سلام عليك . وأنا أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تَنْزِيلُ الكِتابِ مِنَ اللهِ العَزِيزِ العَلِيمِ . غافِرِ الذَّنْبِ ، وَقابِلِ التَّوْبِ ، شَدِيدِ العِقابِ ذِى الطَّوْلِ ، لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ المَصِيرُ » وقال لرسوله : لا تدفع إليه الكتاب حتى تجده صاحيا ، ثم أمر من عنده من المسلمين أن يدعوا لأخيهم بالتوبة ؛ فلما جاءه كتاب عمر جعل يقرؤه ويقول : قد وعدنى الله أن يغفر لى ، وحذّرنى عقابه ، ويردّد الآية حتى بكى ، ثم تاب وأحسن التوبة ؛ فلما بلغ عمرَ أمرُه ، قال : هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخاكم قد زلّ فسدّدوه ، ووقّفوه ، وادعوا الله أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعوانا للشياطين عليه » .

ثم تبين الآيات كيف كان القوم يجادلون فى القرآن . ولا تمنع الآيات الجدل ، بمعنى معارضة الدليل ، واحتكاك الآراء لتبيان الحق ، واستنباط المعانى ، ولكنها تمنع الجدل الممقوت ، الذى يجادل به صاحبه جدلا باطلا ، والحق واضح ظاهر ! ولا يجادل هذا الجدل إلا المعاند المكابر ! « ما يُجادِلُ فِى آياتِ اللهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا » . ومن الغريب أن هؤلاء المجادلين قديما وحديثا ممن أنعم الله عليهم بالثروة والغنى ، وممّن مكّن لهم فى التجارة ، فهم قد خبروا البلاد والعباد ، وكان من شأن هذا التقلب فى البلاد أن تزداد معارفهم بالله وآياته ، ولكنهم معاندون مجادلون ، « فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى البِلادِ » . كذلك « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ » من أول الخليقة ، وكذّبت الأحزاب الذين تحزّبوا على الرسل من بعدهم ، « وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ، وَجادَلُوا بِالباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ » ! لقد مررتم بديارهم وكأن لم تغن بالأمس ! وبمساكنهم بعد أن أصبحت قاعا صفصفا ، وهكذا كان عقابهم فى الدنيا ،

« وكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ »[1].

ثم ترجع الآيات إلى التوبة والاستغفار ، فتبين أنها الطريق الوحيد للالتجاء إلى الله ، وأن لاسبيل إلى معرفته إلا بالإيمان والرجوع إلى الله بالإنابة والصدق فيها . وحتى الملائكة الذين يحملون العرش ، أى الملائكة المقرّبون من هذا الملك الذى وسع كرسيه السموات والأرض ، مطالبون أيضا بالحمد والاستغفار لأنفسهم وللمؤمنين « الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ » أى أقرب الملائكة إلى صاحب السلطة والجبروت « يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ » لايفترون عن عبادته ، ويؤمنون به ، ويستغفرون لهم وللمؤمنين ، يقولون : « رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ، فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا ، وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ، وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ . رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ ، وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » . إنك أنت الملك لا يغلب ، والعزيز لا تفعل شيئا إلا لداعى الحكمة ، وموجب الحكمة ، فحقق ما وعدتهم . « وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ » أى احفظهم من الوقوع فى الزلات ، فإذا كان الاستغفار علاجا للسيئة ، فإن الحفظ منها وقاية ، والوقاية خير من العلاج ، والحفظ من الكسر ، خير من الجبر منه ، واللطف فى القضاء خير من نزوله ، « وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ » أى فى الدنيا « يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ » أى فى الآخرة ، و « ذَلِكَ » الحفظ فى الدنيا والآخرة « هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ »[2] . وحينما يرى المجرمون العذاب يمقتون أنفسهم ، ويرجعون عليها باللائمة ، فينادَوْن « لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ » فقد كنتم تُدعون إلى الإيمان فتكفرون ! ثم تبين الآيات ضراعتهم وذلتهم وهم يقولون « رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ ، وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ » أى كنا فى العدم ، أى الموتة الأولى فأحييتنا ، وبعد هذه الحياة أمتّنا ، وبعد حياتنا الأولى أحييتنا مرة ثانية :

---

(١) سورة غافر ، آية ٦ .

(٢) سورة ، غافر ، الآيات ٧ — ٩ .

والآية هنا مثل الآية الأخرى « وكُنتُمْ أمْوَاتاً فأحْياكُمْ ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ » [١] ، ثم يتضرّعون ويقولون : اعترفنا بذنوبنا « فَهَلْ إلى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيل » [٢] ، أى فهل لنا من مخرج من هذه السبيل ؟ وهل لنا من حياة أخرى « فَنَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ » ، فيسمعون صوت الحق يُرجف القلوب ؛ لاسبيل ولا خروج « ذَلِكُمْ بأنَّهُ إذَا دُعِىَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُم ، وَإنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ، فالحُكْمُ لِلهِ العَلِىّ الكبير » [٣] .

ثم ترجع الآيات بعد هذا التهديد إلى دعاية الناس إلى الحق وإلى الهداية رأفة بهم ورحمة ، حتى يعودوا إلى الله ، بعد تفكيرهم فى آيات الله ، « هُوَ الَّذِى يُرِيكُمْ آياتِهِ ، وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقا » ، فمن حق النعمة أن يُتدبر فيها ، ومن حق المنعِم أن يُذكر فيشكر ، ولكن الذى يَذكر ، هوالذى يرجع وينيب إلى ربه « وَما يَتَذَكَّرُ إلاَّ مَنْ يُنِيب » [٤] . وبعد التوبة والإنابة ، الإخلاص فى العبادة والجهرُ بها ولو كره المكابرون « فادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الكافِرُون » « رَفِيعُ الدَّرَجاتِ » رفيع الشأن ، عزيز السلطان « يُلْقِى الرُّوحَ » أى يلقى الوحى « مِنْ أمْرِهِ على مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاق » يوم يبرز الناس جميعا فى صعيد واحد ، ويتنادون لمن الملك اليوم ؟ فيُسمع من جميع الأرجاء « لِلهِ الوَاحِدِ القَهَّار . اليَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، لا ظُلْمَ اليَوْمَ إنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِساب » [٥] .

---

(١) سورة البقرة ، آية ٢٨ .
(٢) سورة غافر ، الآيات ١٠ ، ١١ .
(٣) سورة غافر ، آية ١٢ .
(٤) سورة غافر ، آية ١٣ .
(٥) سورة غافر ، الآيات ١٤ — ١٧ .

من سورة الأحقاف

الولد البار والولد العاق — هود وعاد — عالم الإنس وعالم الجن

« وَوَصَّيْنَا الإنْسانَ بِوَالِدَيْهِ إحْساناً ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً ، وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً ، وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا ، حَتَّى إذَا بَلَغَ أشُدَّهُ ، وَبَلَغَ أرْبَعِينَ سَنَةً ، قالَ رَبِّ أوْزِعْنِى أنْ أشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أنْعَمْتَ عَلَىَّ ، وَعلى وَالِدَىَّ ، وأنْ أعْمَلَ صَالِحا تَرْضَاهُ ، وأصْلِحْ لى فِى ذُرِّيَّتِى ، إنِّى تُبْتُ إلَيْكَ ، وإنِّى مِنَ المُسْلِمِين . . . »[1] .

فى سورة الأحقاف آيات فى البرّ بالوالدين ، وقد ذكر القرآن هذا البرّ فى مواطن عدّة ، منها هذه الآيات ؛ وفيها بيان لرجلين ، أما أحدهما فقد أطاع والديه ، وذكر فضلهما ، وفضل أمه خاصة ، هذه التى حملته كُرها فى جهد ومشقة ، ووضعته كُرها بمجهود ومشقة ، فعرف نعمتها ، ونعمة الحياة بسببها ، حتى إذا بلغ أشدّه ، ووصل إلى التعقل والحكمة ، شكر الله وقال : « رَبِّ أوْزِعْنِى » أى ألهمنى ووفقنى « أنْ أشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعلى وَالِدَىَّ ، وأنْ أعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ ، وأصْلِحْ لى فِى ذُرِّيَّتِى ، إنِّى تُبْتُ إلَيْكَ ، وإنِّى مِنَ المُسْلِمِين » مثل هذا البارّ بنفسه وبوالديه ، يبشره الله بأنه من أولئك الذين يتقبل عنهم أحسن ماعملوا ، ويتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة ، وعد الصدق الذى كانوا يوعدون .

وأما الثانى العاقّ ، فقد دعاه والداه إلى الإيمان بالله وثوابه وعقابه ، فقال : « أُفٍّ لَكُما ! أتَعِدَانِنِى أنْ أُخْرَجَ » أى بعد أن أموت ، أأخرجُ من قبرى « وَقَدْ خَلَتِ القُرُونُ مِنْ قَبْلِى » أى وقد سبقتنى أجيال وأجيال ، ولم أر أحدا يخرج من قبره ! ووالداه « يَسْتَغِيثانِ اللهَ » من جموده وعناده ، ويقولان له « وَيْلَكَ ! آمِنْ ! إنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ » فيتمادى به عناده ويقول : « ما هَذَا إلاَّ أساطِيرُ

(١) سورة الأحقاف ، آية ١٥ .

الأوّلين » مثل هذا يحشر فى زمرة « أُولئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ القَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِين »

هذا هو الولد البارّ وعاقبته ، وهذا هو الولد العاقّ ومصيره « وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا. وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُون » . ويوم يعرض الجاحدون المكابرون على النار يقال لهم « أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِها ، فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الهُونِ » عذاب الذلّ والهوان « بِما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وَبِما كُنْتُمْ تَفْسُقُون » [1].

بعد هذا النذير القريب فى الوالدين ، ترجع الآيات إلى الأمم البعيدة البائدة فتذكّر بالمؤمنين والمخالفين فيهم : « وَاذْكُرْ أَخا عادٍ » أى واذكر هودا « إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقافِ » الأحقاف فى الأصل : الرمال ، والمراد بها هنا مساكن عاد من عُمان إلى حضرموتَ باليمن : جرت بين هود وقومه هذه المحاورة : فالرسول يقول لهم : « لا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » ، وهم يقولون « أَجِئْتَنا لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا » ، أى لتصرفنا عنها ؟ فإذا كنت صادقا حقا « فَأْتِنا بِما تَعِدُنا » به من العذاب ؛ فيعود عليهم الرسول بأن وظيفته البلاغ لا العذاب ، وقد بعثه الله كما بعث غيره رحمة بالناس . « إِنَّمَا العِلْمُ عِنْدَ اللهِ ، وَأُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ ، وَلَكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُون » [2] . ثم يتمادون فى العناد ويطلبون العذاب استهزاء برسولهم ، فتحقّ عليهم الكلمة ويأتيهم العذاب فى صورة استهزاء أيضا فهم مستهزئون ، « اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ » .

هذا سحاب يظهر فى السماء يعرض لهم ، ويُخايل أطماعهم ، ويمشى نحو أوديتهم ، فيفرحون ، ويقولون : « هَذا عارِضٌ مُمْطِرُنا » ، فيردّ عليهم صوت الحقّ والعدالة . « بَلْ هُوَ ما اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ، رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ ، تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها » أخذتهم من كل جانب ، فطلبوا الكنّ فى بيوتهم ، فسفت

(١) سورة الأحقاف ، الآيات ١٧ – ٢٠ . (٢) سورة الأحقاف ، الآيات ٢١ – ٢٣ .

عليها الرمال سبع ليال وثمانية أيام « فَتَرَى القَوْمَ فِيها صَرْعَى كأنَّهُمْ أعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَة »[١] « فأصْبَحُوا لايُرَى إلاَّ مَساكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي القَوْمَ المُجْرِمِين » . تبين الآيات سبب العقاب « وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إنْ مَكَّنَّاكُم فِيه » : أى ولقد أنعمنا عليهم بما لم ننعم به عليكم ، فقوم عاد كانوا أصحاب أبدان ، وكانوا كثيرى الأموال ، ولكنهم لم يقدروا نعمة الله ، فكانت لهم أسماع ، ولكن لم يستعملوها فى سماع النصح ، ولهم أبصار ، ولكن لم يفتحوها على الكون وما فيه من عظمة الخالق ، ولهم أفئدة ، ولكن لم يحركوها بالاستدلال على معرفة الله « فَمَا أغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أبْصَارُهُمْ وَلا أفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ ، إذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بآياتِ اللهِ ، وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون »[٢] .

تلتفت الآيات بعد ذلك إلى أهل مكة ، وإلى المؤمنين جميعا بعدهم ، فتقول : « وَلَقَدْ أهْلَكْنا ماحَوْلَكُمْ مِنَ القُرَى » قرى ثمود ، وقرى قوم لوط بالشام ، وقرى قوم عاد باليمن « وَصَرَّفْنا الآياتِ » أى كررناها « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُون »[٣] . ثم تستهزئ الآيات بهم وبآلهتهم «فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ قُرْباناً آلِهَةً[٤] » ! أى فهلاَّ نصرهم هؤلاء الذين يعبدون زلفى إلى الله ، وما يملكون نفعا ولا ضرّا ؟ بل ضلوا ، وضلت آلهتهم عنهم ، فلم يجدوها عند الشدة ، وضلّ إفكهم وكذبهم وما كانوا يفترون .

تبين الآيات بعد ذلك أنهم إن لم يصدقوا ماجاء به الرسول فقدصدّق به عالم الجنّ ، فقد أوحى الله إلى رسوله أن الجنّ قد استمعوا للقرآن « فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أنْصِتُوا ، فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ . قالُوا يا قَوْمَنا إنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إلى الحَقِّ وَإلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيم ، يا قَوْمَنا أجِيبُوا داعِيَ اللهِ وآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ

---

(١) سورة الحاقة ، آية ٧ .
(٢) سورة الأحقاف ، الآيات ٢٥ ، ٢٦ .
(٣) سورة الأحقاف ، آية ٢٧ .
(٤) سورة الأحقاف ، من الآية ٢٨ .

لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ، وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ » أي لا يفرّ من عقاب الله ، « وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ، أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » [١] .

تختتم السورة بتسلية الرسول بعد إخباره بما كان من الماضين وما كان من قومه « فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ » ، وَلَا تَسْتَعْجِلْ لهم بالعذاب فهو آت لا ريب فيه ، ويوم يرون ما يوعدون ، يخيل إليهم أن بين الدنيا والآخرة ساعة من نهار ، هذا بلاغ للناس « فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ » . أما المؤمنون فإنهم ناجون ما دام الإيمان يَعْمُرُ قلوبهم ، فالإيمان يهدى إلى الأمل ، والأمل في الله يستنزل رحمته ، ولذلك قال كثير من المفسرين : ما في الرجاء لرحمة الله أقوى من هذه الآية « فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ » [٢] . وصدق الله العظيم .

---

(١) سورة الأحقاف ، الآيات ٣٠ – ٣٢ .

(٢) سورة الأحقاف ، آية ٣٥ .

من سورة الجاثية

مراتب العقيدة – إيمان فاستيقان فعقل فتفكير – المسئولية الفردية

« حمٓ . تَنْزِيلُ الكِتابِ مِنَ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ . إنَّ فى السَّمَوَاتِ والأَرْضِ لآياتٍ لِلْمُؤْمِنِين . وفِى خَلْقِكُمْ وَما يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ . وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ فأَحْيا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ آياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُون . تِلْكَ آياتُ اللهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بالحَقِّ ، فبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وآياتِهِ يُؤْمِنُون » [1] .

سورة الجاثية مكية ، إلا الآية الخامسة عشرة « مَنْ عَمِلَ صَالِحا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها ، ثُمَّ إلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُون » [2] ، فإنها نزلت بالمدينة بعد أن عرف الناس المسئولية الفردية إلى جانب المسئولية الاجتماعية .

ومعنى الجاثية : الباركة على الركب فى هذه الجلسة المهينة ، جلسة المخاصم أمام الحاكم القاهر . وهى التى تشير إليها الآية « وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً ، كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إلى كِتابِها ، اليَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُون ، هَذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بالحَقِّ ، إنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُون » [3] .

وبعد الحساب فى تلك الجلسة الجاثية الذليلة ، يرى من لايصدّق بحساب أىّ عقاب ما أعدّه الله لأمثاله من العذاب ؛ وينقسم الناس إلى فريقين : « فأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ المُبِين » [4] « وأما الَّذِين كَفَرُوا » بالحساب وبالعقاب ، فيقال لهم « أَفَلَمْ

---

(١) سورة الجاثية ، الآيات ١ – ٦ .
(٢) سورة الجاثية ، آية ٥ .
(٣) سورة الجاثية ، آية ٢٨ .
(٤) سورة الجاثية ، آية ٣٠ .

تَكُنْ آياتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ ، فاسْتَكْبَرْتُمْ ، وكُنْتُمْ قَوْما مُجْرِمِين » [١] . وإذا ذُكِّروا بآيات ربهم وقيل لهم « إنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لارَيْبَ فِيها ، قُلْتُمْ ما نَدْرِي ما السَّاعَةُ ، إنْ نَظُنُّ إلاَّ ظَنًّا ، وَما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِين » [٢]

تبتدئ سورة الجاثية بضرورة التبصر فى كتاب الله ، والجرى على سننه وحكمه ؛ فهو كتاب تحمل آياته صدق مدلولاتها ، لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ لأنه « تَنْزِيلٌ مِنَ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ » . وآيات هذا الكتاب ترسم للناس طرق الاعتقاد وطرق التفكير : فإذا تطلع الإنسان إلى السماوات والأرض ، ونظر إليها النظر الصحيح ، ففكر فى رفعها بغير عمد ، وفى رواسيها حتى لاتميد بمن عليها ، رجع بايمان أنها مصنوعة ، وأن صانعها حكيم قادر ، خالق مصوّر ، فتردد نفسه : « تَبارَكَ اللهُ أحْسَنُ الخالِقِين » ، وتلك أول مرحلة من مراحل الإيمان ، ولكن هذا الإيمان لايكفى حتى يصل إلى درجة اليقين ، ولا يكون هذا اليقين إلا بالبحث فى خلق الإنسان نفسه ، وفى خلق ما حوله من حيوانات ودوابّ مبثوثة ، فخلق الإنسان ينتقل من طور إلى طور : فى نطفته وتصويره ، وحمله وفصاله ، وتربيته الجسمية والنفسية ، وغذائه الجسمى وغذائه الروحى ، وميوله وأفكاره ، وذكائه ورغائبه ، ودوافعه واندفاعاته ، كذلك خلق الدوابّ يختلف باختلاف صنوف الحيوانات ووظائفها ، وعاداتها وطباعها ، وما يفيده الإنسان منها ، فى الحصول عليها واستخدامها ، والانتفاع بها . فى كل ذلك آيات تنقل صاحبها من درجة الإيمان إلى درجة اليقين . وإلى ذلك تشير الآيات « إنَّ فِى السَّمَوَاتِ والأرْضِ لآياتٍ للمُؤْمِنِين ، وفِى خَلْقِكُمْ ، وَما يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُون » .

ثم تنتقل الآيات بالمؤمن الموقن لتطالبه بشىء آخر ، هو أن يعقل ما حوله ، وأن يفكر فى نفسه ، فينظر فى اختلاف الليل والنهار ، وفى هذا الاختلاف علوم من الفلك والهيأة والنجوم ، وينظر فى السحب وما فيها من ماء ، يصيب الميت من

---

(١) سورة الجاثية ، آية ٣١ . (٢) سورة الجاثية ، آية ٣٢ .

الأرض فيحيا ، والجافّ من النبات فيزهر ، فإذا فرغ من ذلك نظر فى تصريف الرياح ، وما تحمله من رحمة وعذاب ، وتصرّف اتجاهاتها شمالا وجنوبا ، ومشرقا وغربا ، وما تسوقه من نعم ، وما تسفيه من نقم ؛ وإذن يستعمل الإنسان عقله فى فهم الكون بعد أن آمن بخالق الكون ، فيصحّ حينئذ الإيمان ، ويكون إيمان اجتهاد ، لا إيمان تقليد ، لذلك تنتقل الآيات من الإيمان والإيقان ، إلى العقل والتفكير ، «وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها ، وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ ، آياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » .

وبعد أن يتحرّك القلب بالإيمان ، والوجدان باليقين ، ويتحرّك العقل بالنظر والاستقراء ، يصل المؤمن إلى درجة التفكير إذا تدبر فى النعم التى سخرها الله له ؛ وإذا ابتغى منها الرزق ، ووفى النعم حقها من الشكر وصل إلى درجة المفكرين ، « اللهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ البَحْرَ لِتَجْرِىَ الفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ، وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِى السَّمَوَاتِ وَما فِى الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ » وهى جميعا منه ومن فضله « إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ »[1] ، هذه هى منازل العقيدة الصحيحة : إيمان فاستيقان ، فعقل فتفكير .

ويؤخذ من هذا الترتيب أمران :

الأول ، أن الإيمان مقدم على العقل ، فالعقل يضلّل ويهدى ، وينكر ويصحح ما أنكره ، ويبرم فى يوم ، وينقض ما أبرمه فى يوم آخر ، أما الإيمان فطمأنينة ورضا ، وعقيدة واقتناع ، يتدرّع به المؤمن ، فيبقى على إيمانه ، لا تزعزعه النوازع ، ولا تذهب به الأوهام .

الثانى : أن كل من يتصدّى للزعامة ، أو للعمل العام لابدّ له من عقيدة فيما يقول ، واقتناع فيما يعمل ، واندفاع صادق يحقق به ما دفعه إليه الإيمان ؛ فالرؤساء والزعماء الذين يرسمون برامجهم على مقتضى العقل والتفكير ، وتنقصهم العقيدة ، ويعوزهم اليقين ، لا تغنى أفكارهم شيئا ، ولا تغنى عنهم من الله من شىء .

(١) سورة الجاثية ، الآيات ١٢ ، ١٣ .

وهذه الخطة التى رسمها القرآن لتربية جيل مؤمن متيقن ، يقرّها أحدث الآراء الفلسفية فى التربية التى تطلب للتربية الخلقية النظر الذى يقود إلى الإيمان ، والقدوة التى تقود إلى يقين المرء فيما يعمل ، ثم تطلب بعد ذلك إعمال العقل ، والنظر المفكر ، ولا بدّ من أن يستند هذا النظر المفكر إلى صخرة العقيده العاتية ، وإلا أطاح العقل بما يقرّره ، وأضاعت المنفعة على صاحبها فائدة ما يفكر فيه .

« تِلْكَ آياتُ اللهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بالحَقّ ، فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وآياتِهِ يُؤْمِنُون » [1] إن الذين لا يجرون على فطرة الخلق التى فطرهم الله عليها ، كذّابون أفّاكون آثمون « وَيْلٌ لِكُلِّ أَفّاكٍ أَثِيم ، يَسْمَعُ آياتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كأَنْ لَمْ يَسْمَعْها ، فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيم » [2] ، هؤلاء الأفاكون من ورائهم جهنم ، ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئا ، ولا يغنى عنهم هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله أولياء ، ولهم عذاب عظيم .

ثم تختتم هذه الآيات المليئة بالتعليم والتهديد ، والوعد والوعيد ، بآية جامعة ، فيها كل المسئولية ، وكل تطوّراتها التى يتحدث عنها الاجتماعيون ، وكل ما يتداول على هذه المسئولية من تطوّر وانتقال . هذه الآية هى « مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها ، ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُون » ، فهى أولا تدلّ على المسئولية الفردية بأكمل معانيها ، وتطوّر المسئولية ، هو انتقالها من الجماعية إلى الفردية ، وإنه وإن كان القرآن يصوّر المسئولية الجماعية فى مثل « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خاصَّة » [3] إلا أنه يُلحّ فى الآيات المدنية بعد أن عرف القوم الإسلام وأصول التشريع على المسئولية الفردية ، وتلك رحمة الإسلام التى حبَا بها الرحمن رسوله ، فبعد أن كان العذاب فى الأمم السابقة للناس جميعا ، ولأسرة المجرم جميعها ،

(١) سورة الجاثية ، آية ٦ .
(٢) سورة الجاثية ، آية ٨ .
(٣) سورة الأنفال ، آية ٢٥ .

أصبح القصاص للمجرم وحده . وإذا نال القصاص غيره أحيانا ، فلأن ذلك الغير كان مقصرا فى عدم نصح المجرم . وفى تركه مدفوعا بنوازع إجرامه « كانُوا لايَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوه » [1] ، أى فإذا عوقبوا جميعا كان عقابهم أقرب إلى المسئولية الفردية ، منه إلى المسئولية الاجتماعية ، والآية ثانيا تدلّ على عقيدة المؤمن المسئول عن عمله ، فالعمل الصالح للإنسان ، والعمل السيىء عليه ، وإذن لايتهم القدر ، ولا يقول ما يقول الجهلاء : إن ذلك مقدّر ومكتوب ، فما ظلمهم الله ولكنهم كانوا أنفسهم يظلمون .

---

(١) سورة المائدة ، من الآية ٧٩ .

من سورة الذاريات

القسم بالطبيعة — جزاء المؤمنين وجزاء المعاندين — ضيف إبراهيم

« وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا . فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا . فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا . فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا . إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ . وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ . وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ . إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ، يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ . قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ . يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ . يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ . ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ »[1] .

سورة الذاريات سورة مكية ، نزلت بمكة والقوم يكذّبون البعث والعقاب والمسئولية ، ولا ينظرون إلا إلى حياتهم الأولى ، يموتون فيها ، ويحيون فيها ، وهم عن الآخرة معرضون ؛ فالآيات قَسَم بالحياة والطبيعة ، وقسم بمصرّف الحياة والطبيعة ، الذى خلق الذاريات والحاملات والجاريات والمقسمات ؛ فالذاريات : هى الرياح التى تذرو التراب ، كما قال الله تعالى « وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ »[2] ؛ والرياح من النعم التى تُزجى السحاب فيمطر ، وتزجى الفُلْكَ فتسير ، وقد أظهر العلم الحديث فائدتها فى الطيران تسيره وتعوّقه ، بأمر مسيرها ، غير عابئة بقوة الإنسان الذى دفعه غروره إلى الاعتقاد بأنه وحده مسيطر على الطبيعة ! « فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا » هى السحب الممتلئة بالماء ، تحمله إلى البلد الجدب ، فيخضرّ ويثمر . « فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا » هى السفن تجرى بها الريح رُخاءً فى يسر وسهولة . « فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا » يفسرها بعض المفسرين بالملائكة الذين ينفذون تصاريف الله فى خلقه ، وهم « لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » ، ولكنا نرتضى هنا

---

(١) الذاريات ، الآيات ١ — ١٤ .

(٢) سورة الكهف ، من الآية ٤٥ .

تفسير « ابن عباس» الذى يفسر المقسمات بالسحاب أيضا ، يقسم الله به أرزاق العباد ، وتسيل منه الأودية بقَدَرها ، وليس ببعيد عن هذا التفسير أن يكون معنى المقسمات : الأجواء والأنواء والكواكب ، فقد أثبت العلم أن بعض الكواكب السماوية له تأثير فى الأرض فى الزرع والنبات ، وأن كل أزمة اقتصادية على الأرض ترجع إلى حركات الكواكب وتنقلاتها فى مَداراتها العُلْوية ، فالقسم هنا بالسحاب ، وما يحمل من الماء ، ، وما يسوق من الخِصْب وعوامل الإنتاج ؛ والقسم أيضا بالفُلْك الجاريات فى الماء ، وبالكواكب التى لها تأثيرها فى تقسيم الرزق بين العباد ؛ وكلها مخلوقة لله ، فكأن القسم بقدرة الله وبديع صنعه !

والمُقْسَمُ عليه : هو أن ماوُعد به الأنبياء من بعث وثواب وعقاب ، هو وعد صادق ، وأن هذا الدين الذى يَهدى الناس إلى ما فيه خيرهم فى الحياتين ، بيِّن واقع ، بعيد عن الوهم ، ونسج الخيال ، وتكهنات المتكهنين .

ثم يرجع القسم بعد ذلك إلى السماء ذات الحُبُك ، أى ذات الطرائق المحبوكة المنظمة المزينة بالكواكب ، والموشاة بالأفلاك ، فتقسم الآيات بها على أن الناس ما زالوا أمام الدين فى أمر مختلف : فمرّة يقولون هو سحر ، وما جاء به ساحر ، ومرة هو شعر ، وما جاء به شاعر ، ومرة أساطير الأولين ، ومرة هذيان المجانين ؛ « يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ » أى يُصرف عنه ولا يهتدى بهدايته من عنده استعداد للصرف عن الهداية ، ومن حقت عليه الضلالة . والذين يُصْرَفون عن الكتاب وعن الهداية به هم الخرّاصون ، الذين هم فى غمرة ساهون ، يَسألُونَ أيَّانَ يَوْمُ الدّين » ؟ لأنهم لا يعتقدونه ولا يصدقونه إلا حينما يُفْتَنُون على النار ، ويعذّبون بها ، والفَتين فى اللغة : الحرة : أى الأرض ذات الحجارة المحرقة ، وحينئذ يقال لهم : « ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُون » .

وبعد أن بينت الآيات وصف هولاء الغافلين الساهين ، عمدت إلى وصف المتقين ، وبينت منزلهم « إنَّ المُتَّقِينَ فى جَنَّاتٍ وَعُيُون . آخِذِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ » أى قابلين لكل ما أعطاهم ، راضين به ، فكل ماهم فيه يُتلقى بالقَبول ،

فى غير سخط ولا تبرّم ؛ ذلك جزاؤهم ، لأنهم « كانوا قليلاً من اللّيل ما يهجعون » . ينامون قليلا ، ويقضون معظم الليل فى العبادة والإنابة « وبالأسحار هم يستغفرون ، فلا يقبلون على رذيلة ، بل يستغفرون منها حتى إذا وقعت فى وهمهم .

والمتقون أيضا هم من يراعون حقّ الجماعة التى يعيشون فيها « وفى أموالهم حقّ للسّائل والمحروم » . وتدور النظريات الاجتماعية بتفكير العلماء فيما يجب على الغنىّ للفقير ، فلا يصلون إلى اعتبار الصدقات والزكاة من الدّين الحقيقى كما يعتبرها القرآن ! فأحدث النظريات الاجتماعية أن التضامن الاجتماعى يؤدّى زكاة ، لأنه « شبه دَيْن » بين الغنىّ والفقير ؛ أما القرآن فيعتبره حقا معلوما فى مال الغنىّ ، مدينا به للسائل والمحروم ! !

وبعد أن بينت الآيات مركز المنكرين ، ومقام المتقين ، ترجع فتلفت النظر إلى ما فى الكون من آيات مختلفة فى الأرض ، وفى السماء ، وفى الإنسان « وفى الأرض آياتٌ للمُوقنين » تدلّ على قدرة الصانع وحكمته وتدبيره ، فهو الذى جعل الأرض مهادا ، وهو الذى سلك فيها سُبُلا فجاجا ، وهذه السبل متنوّعة بين سهل وجبل ، وبحر وبرّ ، وقطع متجاورات صلبة ورخوة ، وخصبة وجامدة ، تؤتى ثمرات مختلفة الألوان والطعوم والروائح ، وتُسقى بماء واحد ، ويُفضّل بعضها على بعض فى الأُكُل ، وكلها مقدّرة بحوائج ساكنيها ومنافعهم ومصالحهم فى الصحة والمرض ، والشدة والرخاء . فيها عيون متفجرة ، وفيها معادن مختلفة ، وفيها دوابّ منبثة ؛ ففى كل ذلك آيات للموقنين الموحدين الذين إذا سلكوا هذه السبيل الطبيعية للبرهنة على قدرة الله ، انحدروا سريعا إلى الاعتقاد واليقين .

« وفى أنفسكم أفلا تبصرون » [١] ، فالإنسان وحده بِدْع من الخلق ، وتقدير الصنعة . ففيه عقل يتسع لفهم الحياة ، وفهم ما تجرى به الحياة ، وهو ممتّع بالنطق ، وبالجوارح والأطراف ، وكلُّ جارحة مسوّاةٌ لتأدية الوظيفة التى خلقت من أجلها . « « فتبارك اللهُ أحسنُ الخالقين » [٢] .

---

(١) سورة الذاريات ، الآيات ١٥ – ٢١ . (٢) سورة المؤمنون ، آية ١٤ .

« وفي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُون » . ففى السماء المطر ، وفى السماء الخبر ، وفى الحياة الأولى تنزل السماء ما يكفى الناس ، وفى الحياة الأخرى يتحقق وعد السماء ، فيقول الناس « قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا » [١] .

ثم ترجع الآيات إلى تعداد آيات الله للموقنين : فمن آياته أن يأتىَ « إسحقُ » من « إبراهيم » ومن زوجته وهى عجوز عقيم ! « هَلْ أتاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إبْرَاهِيمَ المُكْرَمِين » [٢] ، تشكلت له الملائكة فى زِىّ أناسىّ ، ودخلوا عليه فسلموا ، فردّ سلامهم ، وقال « قَوْمٌ مُنْكَرُون » ، لأنه لم يسبق له بهم وبأشكالهم معرفة . فراغ إبراهيم إلى أهله ، وتسلل خفية ليبحث عن قرى ضيوفه ، فجاء بعجل سمين ، فقربه إليهم ، فلم يأكلوا « فأوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ، قالُوا لا تَخَفْ ، وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيم » [٣] هو « إسحاق » . فأقبلت امرأته فى صَرّة وصيحة ، فصكّت وجهها ولطمته ، وقالت عجوز عقيم ، فكيف ألد ؟! « قالُوا كَذَلِكِ » أى هو ما قلنا لك ، وإنما نخبرك عن أمر ربنا « إنَّهُ هُوَ الحَكِيمُ العَلِيمُ » [٤] ، ثم سألهم « إبراهيم » : ماخَطْبُكُم وماشأنكم ؟ فقالوا : « إنَّا أُرْسِلْنا إلى قَوْمٍ مُجْرِمِين » هم قوم « لوط » ، « لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِين . مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِين » : أى معلّمة ومخصصة للعادين المسرفين ، « فَأخْرَجْنا مَنْ كانَ فِيها مِنَ المُؤْمِنِين » ، وكانوا كلهم قد جحدوا أوامر الله ، « فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ المُسْلِمِين » ، هو بيت إبراهيم ، وكلهم قد عَصَوْا ، فحقت عليهم كلمة العذاب ، « وَتَرَكْنا فِيها آيَةً لِلَّذِينَ يَخافُونَ العَذابَ الأَلِيم ، وَما ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ كانُوا أنْفُسَهُمْ يَظْلِمُون » .

---

(١) سورة الأعراف ، من الآية ٤٤ .
(٢) سورة الذاريات ، آية ٢٤ .
(٣) سورة الذاريات ، آية ٢٨ .
(٤) سورة الذاريات ، من الآية ٣٠ .

من سورة الحديد

تمثيل الحياة الدنيا — التسابق والتفاخر فى الخير لا فى الشر

واجب أهل الكتاب فيما بينهم

« اعْلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاد ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ، ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ، ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً ، وفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَان ، وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيا إِلاَّ مَتَاعُ الغُرُور » . [1]

سورة الحديد سورة مدنية ، نزلت فى المدينة والقوم فى حاجة إلى البذل والإنفاق فى سبيل الله ، حتى يستطيعوا أن ينشروا دين الله . فهى تعرض عليهم صور المؤمنين ، وصور المنافقين ، وصور الأغنياء الذين آثرهم الله بهذا الفضل ، وجعلهم مستخلفين على أموالهم ينفقونها فى سبيل الله ، ويوزعون منها ما يوزعون ، ابتغاء ماعند الله : « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيم» . [2] فهو مانح المال ، وبعد أن يمنحه يقترضه من الغنىّ ، ثم يردّ له هذا القرض مضاعفا مع رزق جديد وأجر كريم . لذلك تصوّر الآيات الحياتين : الحياة الأولى ، والحياة الآخرة ، فتصوّر الأولى بلونها الزاهى الزائل ، وتصوّر الأخرى بصورتها الباقية الدائمة ؛ فالمال زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا .

الحياة الدنيا «لعب» وعبث كلعب الصبيان ، أى عبث مملوء بالخيال لاطائل تحته ، ولا حاصل له ؛ والحياة الدنيا « لهو » أى فرح يُتَلَهَّى به ثم ينقضى أمره ، والحياة الدنيا « زينة » أى منظر ظاهرىّ خارجىّ ، ويئول إلى زوال ، ولا تُبقى الأموال على

---

(١) سورة الحديد ، آية ٢٠ .

(٢) سورة الحديد ، آية ١١ .

هذه الزينة ، وإن اعتقد الغنىّ أنه يشتريها بماله ، فلن يستطيع أن يشترى شبابا ، ولن يستطيع أن يشترى صحة إذا ساءت صحته بالمرض أو الشيخوخة ، والحياة الأولى « تَفاخُرٌ بينكم » ، والتفاخر يؤدى إلى التكاثر ، والتكاثر يؤدى إلى التفاخر ، وكلاهما يؤدى إلى التكالب والجمع واللم بحقّ وبغير حق .

وبعد تقرير هذه الحقائق فى الحياة الدنيا وبيان خصائصها ، يجملها القرآن الكريم فى مثَل بارز مصوّر ، فهى كغيث نزل من السماء ، فيزرع الزارعون ، ويخرج النبات غضّا طريا يعجب الكفار ، أى الزرّاع ، فهم الذين كفروا الحب ودفنوه فى الأرض ، والكَفْر : هو الستر ، والكافر يستر الإيمان ، ويتظاهر بالإلحاد . يهيج النبات ويعلو ، ومتى هاج يبس ، فتراه مصفرّا بعد الخضرة ، ثم يكون حُطاما يتحطم ويتكسر بعد يبسه . ولا بد لكل زارع أن يحصد ، ولا بد لكل زرع من حصاد ، والحصاد هو نتيجة المجهود ، والحصاد فى الآخرة إما عذاب شديد ، وإما مغفرة من الله ورضوان ، فمن عمد فى الدنيا إلى اللهو واللعب والتفاخر والتكاثر ، فحصاده العذاب الشديد ، ومن قصد إلى الخير فحصاده مغفرة من الله ورضوان .

فالآيات لاتمنع التمتع بخيرات الحياة وخيرات الدنيا ، ولكنها تريد من الحياة الأولى أن تكون بلاغا للحياة الأخرى ، والمؤمن من يبتغى بما آتاه الله من الثراء الدار الآخرة ، من غير أن ينسى نصيبه من الدنيا « وَما الحَياةُ الدُّنْيا إلاّ مَتاعُ الغُرُور » .

وإذا كان لابد من المسابقة والتسابق ، والمكاثرة والتكاثر ، والمفاخرة والتفاخر ، فليكاثرِ الناس فى الباقيات الصالحات ، وليستبِقِ الناس إلى الخيرات « سابِقُوا إلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ » ، وسابقوا إلى إدراك النعيم فى جنة عرضها « كَعَرْض السَّماءِ والأرْضِ » وليس الغرض هنا تمثيل الجنة فى طولها أو فى عرضها ، أو أنها فى السماء الأولى أو الرابعة كما يذهب إليه بعض الناس ، وإنما المراد — والله أعلم به — أن هذه الجنة هى مجال الرحمة ، ورحمته تسع كل شىء ، وتتسع لكل شىء ، وهو لايرضى لعباده الكفر ، ولا يرضى لهم إلا الإيمان والنعيم ، فلو عمل الناس جميعا بالخير وللخير ، لوسعتهم رحمة الله جميعا ، فإن هذه النعمة وهذه الجنة « أُعِدَّتْ

لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ ، وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ »[1] ، وهنا إشارة لطيفة إلى أن العمل المقبول هو العمل الصالح ، والعمل المخلص ، لاالعمل الذى يراد به التفاخر والتكاثر ، فالعمل وحده ليس بنافع ما لم يصحبه فضل الله ، وفضل الله لايعرف إلا المخلصين الصادقين ، ويفسر هذا الفضل ما رواه « أبو هريرة » من حديث « لَنْ يَدْخُلَ أَحَدُكُمُ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ ! قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : وَلا أنا إلاَّ أن يَتَغَمَّدَنِى اللهُ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ » ! ، ولا تضارب بين الآية والحديث هنا ، وبين الآية فى موضع آخر « ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » ، فمما لاشكّ فيه أن العمل مفيد لصاحبه ، ولكن الدين يريد العمل الطيب ، والعمل الصالح ، المدفوع بالإخلاص ، الموجه إلى رضا الله ، وإلى ابتغاء ما عنده من الفضل « ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ » .

بعد ذلك تسوق الآيات دليلا على أن النعمة من الله ، وعلى أنها قابلة للزوال ، والله محيط بكل شىء علما ، يعلم متى تكون النعمة ، ومتى تزول ، سبق علمُه خلقَه ، فإذا أعطى النعمة ثم أصاب الإنسان بعد ذلك ما أصابه فى نفسه أو فى ماله ، وجب أن يقابل ذلك بالرضا والتسليم ، فلا يحزن على ما فات ، ولا يفرح وتبطره النعمة بما أتى ، أو ما هو آت .

« ما أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِى الأَرْضِ وَلا فِى أَنْفُسِكُمْ إلاَّ فِى كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرأَها » فهو يعلم قبل خلقه ماسيكون عليه خلقه « إنَّ ذَلِكَ على اللهِ يَسِير »[2] وإذا كان كل ذلك قد وسعه علمه ، وأن الأخذ والعطاء من أعراض الحياة ، وأن المنح والمنع من الابتلاء ، فلماذا يأسى الإنسان ويحزن ، على ما فات ؟ ولماذا يفرح ويبطره ما هو آت ؟ إن كان لابد من الفرح فليكن شكرا ، وإن كان لابد من الحزن فليكن صبرا ، « وَاللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ »[3] . كما أنه

---

(١) سورة الحديد ، آية ٢١ .
(٢) سورة الحديد ، آية ٢٢ .
(٣) سورة الحديد ، آية ٢٣ .

لايحب « الَّذِينَ يَبْخَلُونَ ، وَيَأْمُرُونَ النَّاس بالبُخْل ، وَمَنْ يَتَوَلَّ فإنَّ اللهَ هُوَ الغَنِيّ الحَمِيد » [١] .

تنتقل الآيات بعد ذلك إلى أن رسالة الرسل جاءت بالكتب والبينات ، ومعها العدل أو الميزان ، ليقوم الناس بالقسط ، وليتعاملوا فيما بينهم بالعدل ، وكما أنزل الماء أو الغيث من السماء ، وفيه خير الأحياء ، بل هو مصدر الحياة ، لفت الإنسان إلى كنوز الأرض وأهمها الحديد ، ففيه بأس شديد ، وفيه القوّة ، وفيه كل مسائل التعدين وما فيها من الصهر والحرارة والبخار والبَخْر ، وتيسير وسائل الصناعة والتجارة ، وتسهيل كل مرافق الحياة ، وما ألطف الإشارة فى الآية ، فإلى جانب البأس الشديد فى الحديد ، منافع للناس ، وهى إشارة تدلّ على أن القوى التى أودعها الله الطبيعة لم تخلق لتدمير الإنسان وتدمير الناس وخراب العالم ، بل خلقت لمنافع الناس ، ولعمارة الكون ، واختبارا للناس فيما بينهم « وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بالغَيْبِ إنَّ اللهَ قَوِيّ عَزِيز » [٢] ، هو قوىّ فى أمره ، عزيز فى ملكه .

تلك هى أوامر الله ألقاها إلى رسله من لَدُن «نوح» و« إبراهيم» ، ثم قَفَّى على آثارهم « بعيسى بن مريم » « فَمَا رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها فآتَيْنا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أجْرَهُمْ ، وكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ » [٣] .

تخاطب الآيات بعد ذلك المؤمنين بالكتب السماوية « يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيم » [٤] .

فالخطاب فى الآية للمؤمنين من أهل الكتاب ، فإذا كانوا حقا يؤمنون بكتبهم

---

(١) سورة الحديد ، آية ٢٤ .
(٢) سورة الحديد ، آية ٢٥ .
(٣) سورة الحديد ، آية ٢٧ .
(٤) سورة الحديد ، آية ٢٨ .

فعليهم أن يؤمنوا بكتاب « محمد » ، فإن الذين يؤمنون به مكلفون الإيمان بالكتب الصحيحة المنزلة على الأنبياء قبله ، وإذن يكون للمؤمن بالكتب كلها نصيبان أو كفلان من رحمة ، نصيبٌ لإيمانه بما أنزل من قبل ، ونصيب لإيمانه بما نُزّل من بعد ، وبذلك نستبين الأمور ، ويكون أمام المؤمنين نور يمشون على هديه ليستحقوا الرحمة والمغفرة .

ثم تختتم السورة بأن الفضل من الله أولا وآخرا ، لالأهل الكتاب وحدهم ، « لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكِتابِ ألاَّ يَقْدِرُونَ على شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ ، وأنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ ، واللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ »[1] .

---

(١) سورة الحديد ، آية ٢٩ .

من سورة القيامة

انقلاب الطبيعة – ظاهرة الخلق والإيجاد – حشرجة الموت

النفس الأمارة – النفس اللوّامة – النفس المطمئنة – أبو جهل والرسول

جمع الشمس والقمر – تلقى الوحى – إبداع الخلق – تحقيق المسئولية

« لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ القِيامَة . وَلا أُقْسِمُ بالنَّفْسِ اللَّوَّامَة . أَيَحْسَبُ الإنْسانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظامَه . بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَه . بَلْ يُرِيدُ الإنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَه ، يَسأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ القِيامَة . فإذا بَرِقَ البَصَرُ وَخَسَفَ القَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالقَمَرُ ، يَقُولُ الإنْسانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ المَفَرُّ . كَلاَّ لا وَزَرَ . إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المُسْتَقَرّ » [1] .

سورة القيامة سورة مكية ، نزلت بمكة والقوم لايعترفون بحساب أو مسئولية ، يظنون أنهم مخلوقون للدنيا ، فإذا انفضّت بلعبها ولهوها ، وعبثها وزينتها ، فقد انقضت حياتهم لاإلى رجعة ؛ إنهم يحبون العاجلة ، ويذرون الآخرة ، أوهم يؤثرون العاجلة على الآجلة ، « وَقالُوا أَئِذا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتا ، أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ؟! [2] نزلت آية القيامة تنذر بوعيدها ، وتحمل معها الأدلة التى تؤكد يوم الدين ، يوم « يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ . فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه » [3] .

ويمكن أن نجمل هذه الأدلةفى هذه الظواهر الثلاث الآتية :

الأولى : هى انقلاب الطبيعة فى أن تزلزل الأرض زلزالها ، وفى أن تخرج ما فى جوفها من أثقالها ، وفى أن تبدّل الأرضُ غير الأرض ، والسموات غير

---

(١) سورة القيامة ، الآيات ١ – ١٢ .

(٢) سورة الإسراء ، آية

(٣) سورة الزلزلة ، الآيات ٧ ، ٨ .

السموات ، وكلها ظواهر تقع فى الحياة . ويعانيها الأحياء بين فترة وأخرى ، ومن قدر على إهلاك بعضها ، قدر على إهلاكها جملة .

والثانية ظاهرة الخلق والإيجاد . فمن خلق الإنسان من ماء مهين ، قادر على إحيائه بعد إهلاكه .

والثالثة أن حشرجة الموت ، وساعة أن تبلغ الروح التراقى ساعة رهيبة ، يرى فيها المؤمن والملحد ما أعدّه الله لكل منهما من جزاء سيلاقيه ، على ما قدمت يداه من خير وشرّ .

هذه هى الظواهر الثلاث التى تعرّضت فيها الآيات ردّا على المكذّبين بالدين ، وعلى المنكرين لهذا اليوم العظيم : « لاأُقْسِمُ بِيَوْمِ القِيامَةِ ، وَلا أُقْسِمُ بالنَّفْسِ اللَّوَّامة » . لاشك أن ابتداء السورة قسم بيوم القيامة وقسم بالنفس اللوّامة ، وإن كان ظاهرها نفى القسم . ونحن إذا تمشينا مع هذا النفى كان المعنى : لاأقسم بيوم القيامة ، أى لانحتاج فى هذا إلى القسم ، لأن موضوع القسم واضح لايحتاج إلى توكيد ، كما نقول فى اللغة العادية : أقسم على ماذا ؟ إن الأمر واضح لايحتاج إلى دليل ؛ ويجوز أن يكون النفى إنكارا لمقالة المشركين الذين أخبر عنهم القرآن فى السورة قبلها « كَلاَّ بَلْ لاَيَخافُونَ الآخِرَة » [1] ، ويكون معنى الآية لا ! لهم أن يخافوا يوم القيامة ، فهو حقّ يقسم به ، وكذلك النفس اللوّامة حقّ يقسم به . وقد ورد فى القرآن الكريم ذكر نفوس ثلاث : النفس « الأمّارة » ، والنفس « اللوّامة » ، والنفس « المطمئنة » . فالنفس الأمارة هى أحطّ النفوس ، لأنها بنصّ القرآن تأمر بالسوء « وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي إنَّ النَّفْسَ لأمّارَةٌ بالسُّوءِ » [2] . والنفس المطمئنة هى التى اطمأنت للحق ، وسكنت عن الاستجابة إلى نوازع الطبيعة ودوافع الشهوات . والنفس اللوّامة وإن كان يبدو أنها أقلّ من النفس المطمئنة ، إلا أنها النفس الوسطى ، التى لايمكن أن تصل النفس إلى مرتبة الاطمئنان إلا عن طريقها ، فهى النفس التى تلوم صاحبها

(١) سورة المدثر ، من الآية ٥٣ .
(٢) سورة يوسف ، آية ٥٣ .

إذا مالت به الشهوات إلى الخسيس من القول والعمل ، وهى النفس التى تلوم الناس إذا تركوا الخير ، أى هى النفس الداعية إلى الله التى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وهى فى آخر الأمر النفس المسيطرة على صاحبها ، المقدّرة لحرّيته واختياره ؛ فالنفس المطمئنة لاتصل إلى درجة الاطمئنان إلا بعد اللوم والمجاهدة . لذلك يقسم القرآن بها ، كما يقسم بالعظائم من خلقه .

والمعنى العام : أقسم بيوم القيامة ، وأقسم بالنفس المجاهدة اللوّامة ، أن الإنسان سيبعث : « أَيَحْسَبُ الإنْسانُ أنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظامَه » ؟!

كان المشركون ينكرون البعث : جاء « عدىّ بن أبى ربيعة » إلى الرسول وقال : « يا محمد ، حدثنى عن يوم القيامة متى يكون ، وكيف يكون » ؟ فأخبره الرسول به ، فقال له : « لو عاينت ذلك اليوم لا أصدقك ! أو يجمعُ الله هذه العظام » ؟!

وكان « أبو جهل » يقول : يزعم « محمد » أنّ الله يجمع هذه العظام بعد بلائها وتفرّقها ، فيخلقها خلقا جديدا ، فنزلت الآية « أَيَحْسَبُ الإنْسانُ أنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظامَه ، بَلى » أى نعم نجمعها ، ولو كانت هباء فى أجواز الفضاء ، وقطعا فى بطون البحار ، ورميما فى فسيحات القفار ، فنحن قادرون ، وقد كنا قادرين على أن نسوّى بنانه ، فلا فرق بين البدء والإعادة « كَمَا بَدَأنا أوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُه »[1] . والبنان : أطراف الأصابع ، وفيها السلاميات ، أو القطع الصغيرة ، ولكل قطعة من عظام الأصابع وظيفتها الخاصة بها ، حتى يتمكن الإنسان من طيها وقبضها ، وانبساطها وانفراجها ، وحتى يستطيع بها أن يقبض على أدقّ الأشياء وغيرها من فنون الأعمال . يعلم الإنسان ذلك ، ويعلم أن خالقه أوّلا ، قادر على أن يعيده ثانيا ، ولكن الإنسان فاجر بطبعه « بَلْ يُرِيدُ الإنْسانُ لِيَفْجُرَ أمامَه » ، أى أن من فُجْر الإنسان ألا يعتبر بالماضى ، بل يسير إلى الأمام راكبا رأسه ، مطيعا أمله ، مسوّفا فى توبته ، يعرف يوم القيامة ، ويسأل دائما « أيَّانَ يَوْمُ القِيامَة » ؟ وسيعلم الإنسان متى يحين يوم القيامة « إذا بَرِقَ البَصَرُ » أى تحير خوفا وفزعا ،

(١) سوره الأنبياء ، آية ١٠٤ .

« وَخَسَفَ الْقَمَرُ » أى ذهب ضوءه ، « وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ » . وفى الآية إشارة علمية دقيقة عند تقابل مدار القمر للشمس ، وحيلولة الأرض بينهما مما يسبب خسوف القمر ، وإذا كان هذا ممكن الحدوث فى الدنيا ، فليس من العسير أن يتصوّر إمكانه « يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » [1] ، عندئذ يصدق المنكر للبعث ويقول : « أَيْنَ الْمَفَرُّ » ؟ فيسمع نداء الحق : « كَلاَّ ! لاوَزَرَ » ولا ملجأ يومئذ من الله « إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ، يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ » [2] ، أى بما قدم من شرّ وأخّر من خير ، أو بما قدم من خير عمله ، وأخّر من خير كان فى إمكانه أن يعمله ، فالإنسان لم يُخلق عبثا . وإنما خُلق وعليه من نفسه عين بصيرة ، وحواسه شاهدة بصيرة عليه ، « وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ » ، أى ولو جاء بكل معذرة ، لكان له من نفسه حجةٌ على نفسه .

وبعد وصف الإنسان بأنه فاجر يريد أن يفجُر أمامه ، أى فى المستقبل ، وينسى الماضى ، وبأنه يحبّ المعاذير والمراوغة ، حتى ولو جاءه شاهد من نفسه ، تسكت عنه الآيات قليلا ، لتلتفت إلى الرسول الذى كان يعانى من المشقة كثيرا عند نزول الوحى ، يريد أن يحفظه وأن يتفهمه ، فيقرأ كما يقرأ جبريل ، ويقرأ معه وقت إلقاء الوحى عليه ، « لاتُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فإذا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ » وقراءته « ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ » . هذه عجالة من الرسول ، ولكن فى الخير ، تنهزها الآيات لترجع ثانية على طبيعة الإنسان الفاجر كثير المعاذير ، لتقرّر أنه متعجل ، ولكنه متعجل فى الشرّ ، بل متعجل فى كسب الحياة الحاضرة ، وإغفال الحياة الآجلة ، « كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ، وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ » [3] ، وفيها تظهر الناس على حقيقتها ، فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ » فرحة مرقة ، إلى رحمة ربها ونعيمه ناظرة ،

(١) سورة إبراهيم ، آية ٤٨ . (٢) سورة القيامة آية ١٣ .
(٢) سورة القيامة ، الآيات ١٤ – ٢١ .

« وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ » عابسة « تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ »[1] ، والفاقرة : هى الداهية التى تقصم فقار الظهر .

ودليل آخر على البعث يصدّق الإنسان به عند الموت إذا بلغت الروح التراقى ، وهى أعلى عظام الصدر ، وقيل من الراقى ، من المداوى ، ومن الطبيب ، ومن يستطيع أن يردّ قضاء الله ، وظنّ بل تيقن الإنسان أنه الفراق للعاجلة ، وأنه أول الدخول للآجلة ، ويبست الأعضاء واسترخت « وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ » من الضعف ، أو اقترنت الشدة بالشدة ، شدة سكرات الموت بشدة خوف المفرط مما سيلاقى ، حينما يتيقن الإنسان أن « إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ » ، ويتيقن أنه فرّط فى جنب الله « فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى ، وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى » فخرا وكبرا ، معتقدا أنه متروك غير مسئول « أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى » أى ويل وهلاك قريب يلى صاحبه ، « ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى » !

وبعد أن ساقت الآيات دليل القيامة من الظواهر الطبيعية ومن حشرجة الموت ، تختتم السورة بظاهرة ثالثة هى الخلق الأول « أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى »[2] مهملا من غير تكليف ولا مسئولية « أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ »[3] « أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى » من ماء يجمع ، « ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ، فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ، أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى »؟[4] وإلى الآن سيقول الملحدون : لا ، ويقول المؤمنون ، بلى : قادر !

---

(١) سورة القيامة ، الآيات ٢٣ – ٢٥ .

(٢) سورة القيامة ، الآيات ٢٩ – ٣٦ .

(٣) سورة المؤمنون ، آية ١١٥ .

(٤) سورة القيامة ، الآيات ٣٧ – ٤٠ .

من سورة النبأ

المن بالحياة – دليل البعث – آية الليل والنهار

ما ينتظر المؤمن والجاحد

« عَمَّ يَتَساءَلُون ، عَنِ النَّبَأِ العَظِيم . الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُون . كَلاَّ سَيَعْلَمُون . ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُون . أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهادا . والجِبالَ أَوْتادا . وَخَلَقْناكُمْ أَزْواجا . وَجَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتا . وَجَعَلْنا اللَّيْلَ لِباسا . وجَعَلْنا النَّهارَ مَعاشا . وَبَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعا شِدادا ، وجَعَلْنا سِراجاً وَهَّاجا ، وأَنْزَلْنا مِنَ المُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجا . لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَباتا . وَجَنَّاتٍ أَلْفافا . . . »[1] .

سورة « عم » ، وتسمى سورة « التساؤل » ، وتسمى سورة « النبأ » : من السور المكية ، التى نزلت بمكة والقوم حديثو عهد بالإسلام ، ولمَّا يدخل الإيمان فى قلوبهم ، فكانوا بين مصدّق ومكذّب ، ومنكر ومقرّر فى أمر القرآن ، وخاصة فى أمر البعث ، وفى أمر الدين كله ؛ فهم يسألون الرسول عن الساعة متى تقوم ؟! والسائل إما مؤمن يسأل عن الساعة ويخشاها ، ويُعِدُّ لها ما يُعِدّ من وسائل النجاة ، وأكثرهم يتساءلون عن أمرها ولا يصدقون بها ، ولا بما وراءها مما أعدّ الله للبررة والفجرة ؛ وبينا هم يتساءلون ، ويختلفون ، ويضطربون فى هذا الغمار ، تنزل الآيات ، فتستنكر تساءلهم ، وتعظم من شأن المسئول عنه ، « عَمَّ يَتَساءَلُون » هو شىء عظيم ، ولولا ذلك ما تساءلوا ! يتساءلون « عَنِ النَّبَأِ العَظِيمِ الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُون » كلا ، فما كان ينبغى لهم أن يختلفوا فى أمر ثابت بالضرورة : « أَيَحْسَبُ الإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى »[2] ؛ فالبعث حق ، والمسئولية الآخرة

---

(١) سورة النبأ ، الآيات ١ – ١٦ .

(٢) سورة القيامة ، آية ٣٦ .

حق ، سيعلمونها قريبا ، فإن تردد بهم الشك ، أكدنا لهم أنهم سيعلمون أمرها ، لأنها واقعة لامحالة .

ثم تستدل الآيات على ضرورة البعث . واستدلال القرآن استدلال لايقبل الشك ، لأن الدليل فيه يضرب العين ، ويدرك بالحواس ، فلامجال للتكذيب فيه ، ومن لم يصدق بالنشأة الأخرى ، فلينظر إلى النشأة الأولى ، فمن أبدع الخلق فى أوله ، لايَعيا به فى آخره ! فهاهى ذى الأرض جعلناها مهادا وطيئا مبسوطا ، وهاهى ذى الجبال الرواسى جعلناها أوتادا للأرض أن تميد بكم ، وهاهوذا الخلق جعلناه بين زوجين من ذكر وأنثى فى الإنسان والحيوان والنبات ، وهاهى ذى الحياة تجرى على نظام دقيق عجيب مستمر ، « وَجَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتا » والسبت : القطع ، والأعمال تنقطع فى الليل ، فتسكن الجوارح والأبدان لتستريح ، وهذه الراحة فيها استجمام للبدن ، واستجمام للنفس والعقل ، وفى الوقت الذى يستجم فيه البدن ليلا ، تظل النفس وتظل القوى العقلية جميعها ، من تذكر وفكر وخيال ، فى يقظتها ، ولكنها يقظة متراخية ، وراحة القوّة العقلية فى هذا الاسترخاء ، فقد أثبت علم النفس أن القوى العقلية فى النوم لاتزال فى يقظة ، بدليل الأحلام ، ولكنها يقظة لاتعب فيها ، لأنها أقل من اليقظة فى الحالة الشعورية . وما ألطف هذه الإشارة العلمية فى القرآن ، فإن السبات ليس معناه القطع البات ، وإنما معناه الراحة والاستجمام ، الذى لايمنع من اشتغال الحركة الفكرية ، ففى أثناء النوم يتراءى للمؤمن فى أحلامه الهادئة عمله ومشكلاته ، ويدرك الهداية فى حلها ، ومن هنا جاء المنّ بنعمة النوم ونعمة الليل : ففى الليل الاستجمام فى كلمة « سبات » ، وفى الليل الستر والغطاء والاستخفاء عن الأعداء والاستعداد لهم ؛ فجعل الليل لباسا وسترا ، فيه مجال للمؤمنين القائمين المتهجدين ، وفيه مجال للذين لايريدون ظهورا ، ويريدون أن تكون حسناتهم خفية ، بينهم وبين الناس ، وبينهم وبين الله .

أما النهار ، فهو للمعاش ، والتصرّف فى المصالح ، وابتغاء الرزق ، وإذا كان علماء النفس يرون ضرورة أن يهذّب الإنسان عقليه الظاهر ، ليهذب عقله والباطن ، وأن يحسن فى الحالة الشعورية ، ليمتد الأحسان إلى الحالة اللاشعورية ، فمجال الحالتين الليل والنهار ، والنعمة فيهما الراحة والعمل .

تترك الآيات النظر فى الأرض وما عليها . وتلتفت إلى السماء وما فيها ؛ فالسماء خلقها ورفعها وسوّاها . وجعلها سبع طبقات شداد محكمة . وجعل فيها الشمس سراجا تمنح الحرارة وهاجة قوية . والضوء والحرارة من المنن العظيمة . وفى جوّ السموات تسوق الرياح السحاب ، وتعصر الرياح السحاب ، فينماع الماء ثجاجا مدرارا متتابعا ، هذا الماء ينبت الحَبّ للإنسان ، والنبات المرعى للأنعام ، والجنات ملتفة الثمر ، ناشرة الظلال .

وبعد أن استدلت الآيات على البعث بابتداء الخلق ، لأنه بعث أيضا ، ولأنه خلق من عدم ، أخبرت الآيات عن يوم البعث . الذى هو يوم الفصل بين الناس ، فيوم الفصل ميقات معلوم ، تتقابل فيه الناس ليقضى الحقّ بينهم ، عندئذ ينقلب العالم ، وتفتح السماء ، وتنحل وتشقق أبوابا ، وتسير الجبال فتندكّ وتنماع ، وتصير هباء منبثا ، كالسراب يحسبه الظمان ماء « حتى إذَا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسابَه » [1] ، فللطاغين حسابهم ، وللمتقين ثوابهم ؛ أما الطاغون فجهنم مرصاد لهم ، تنتظرهم ، وهى مرجعهم ومآبهم « لابِثِينَ فِيها أحْقابا » [2] مقيمين فيها ما شاء الله ، لا يذوقون فيها بردا يريحهم من حرّها ، ولا شرابا يبرد غلّتهم ، فهم يشربون حميما ، ماء حارّا فى درجة الغليان ، وهم يشربون غساقا زمهريرا ، يلسع ببرده ، كما يحرق الحميم بحرّه ، ذلك جزاؤهم ، وهو جزاء وِفاق موافق لطبيعة أعمالهم ، فلا ذنب أعظم من إنكار البعث ، ولا عذاب أعظم من النار ، وهو جزاء وفاق لم يُظلموا فيه ، بل جرّهم إليه إنكارهم وتكذيبهم ، « إنَّهُمْ كانُوا لا يَرْجُونَ حِسابا » ولا يتوقعونه ، « وكَذَّبُوا بآياتِنا كِذَّابا » أى تكذيبا مطلقا لا شك فيه ، وكل ما عملوه من خير أو شرّ مجازَون به ، « وكُلَّ شَيْءٍ

---

(١) سورة النور ، آية ٣٩ .

(٢) سورة النبأ ، آية ٢٣ .

أحْصَيْناهُ كِتابا » ، ويقال لهم على سبيل التنكيل : « فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إلاَّ عَذَابا» [١] « كلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا العَذَاب» [٢] ، « وَإنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِمَاءٍ كالمُهْلِ يَشْوِى الوُجُوه » [٣] . أما المتقون فلهم ما يشاءون مفازا ونجاة من كل مكروه ، وظفرا بكل محبب ، لا يسمعون فى نعيمهم لغوا ولا تكذيبا ، « جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطاءً حِسابا » [٤] أى على حسب أعمالهم . وربك الرحمن « رَبِّ السَّمَوَاتِ والأرْضِ وَما بَيْنَهُما الرَّحمَنِ ، لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطابا » [٥] لا يملكون الشفاعة من عذابه إلا بإذنه ، « لا يَتَكَلَّمون إلاَّ مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقالَ صَوَابا» [٥] ذلك يوم الفصل ، وذلك يوم الحق « فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إلى رَبِّهِ مآبا » : أى فمن شاء الرجوع إلى ربه فليتخذ مآبا طيبا يطيب أعماله وينفعه يوم القيامة ، يوم ينظر المرء إلى أعماله الطيبة تسعى أمامه نورا يضىء له الطريق ، وينظر الكافر إلى أعماله ، فيتمنى أن لو كان ترابا فى الدنيا لم يخلق ولم يعرفها ، ويتمنى أن يكون ترابا فى الآخرة لا يبعث ولا يُسأل !! .

---

(١) سورة النبأ ، الآيات ٢٧ — ٣٠ .
(٢) سورة النساء ، آية ٥٦ .
(٣) سورة الكهف ، آية ٢٩ .
(٤) سورة النبأ ، آية ٣٦ .
(٥) سورة النبأ ، آية ٣٧ .

من سورة الشمس

الخالق يقسم ببديع صنعه -- النفس وأسرارها

العسرى واليسرى — منة الله على رسوله

« وَالشَّمْسِ وَضُحاها . وَالقَمَرِ إذَا تَلاها . وَالنَّهارِ إذَا جَلاَّها . وَاللَّيْلِ إذَا يَغْشاها . وَالسَّماءِ وَما بَناها . وَالأَرْضِ وَما طَحاها . وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها . فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْوَاها . قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها . وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها . . . » [1] .

فى القرآن الكريم قسم بالخلق وما فيه من إبداع ، وما احتواه من نظام دقيق ، والقسم بهذا الخلق البديع ، قسم بالمبدع . ومن هذه السور المبتدئة بالقسم « سورة الشمس » ففيها قسم بالشمس وما تشعّ من ضوء وحرارة فيهما كل الحياة ، وقسمٌ بالقمر الذى يستمدّ نورها ، وقسم بالنهار يُجلّى ضوءها ويظهره ، وقسم بالليل يُغَشّى ضوء الشمس ، ويظهر نور القمر ، وقسم بالسموات التى تظهر فيها هذه الأجرام ، وقسم بالأرض التى تنتفع بهذه الأجرام . والغرض من هذا القسم كله إظهار الإبداع ، وتمجيدُ المبدع « فَتَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالِقِين » [2] .

« وَالشَّمْسِ وَضُحاها » ضوئها وإشراقها ، « وَالقَمَرِ إذَا تَلاها » إذا تبعها ، فالقمر يستمدّ ضوءه من الشمس ، وفى الليلة الرابعة عَشَرة تغرب الشمس ، فيتلوها القمر ، فهو تابع لها ، ودائر حولها ، وفى الآية إشارة إلى هذه الحقيقة العلمية الفلكية ، التى تجعل القمر تابعا للشمس ، يتقلب فى عدة أشكال هى المسماة بأوجه القمر ، ثم تشير الآية إشارة أخرى إلى حركة الليل والنهار ، فالنهار يُجلى الشمس ، ويُبرز ضوءها ، والليل يُغَشّيها ويستر ضوءها . « وَالسَّماءِ وَما بَناها » أى والسماء والقادر

---

(١) سورة الشمس ، الآيات ١ — ١٠ .

(٢) سورة المؤمنون ، آية ١٤ .

عظيم الشأن الذى بناها ، ودلّ بذلك على وجوده وتمام قدرته ، « وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا » أى جعلها مبسوطة مستوية ، وهذا لاينافى الحقيقة الجغرافية التى تقرّر أن الأرض كروية الشكل ، فإن معنى طحاها : جعلها مشرفة عالية أيضا ، فالكلمة تحتمل معنى الانبساط والتوطئة ، كما تحتمل معنى الإشراف والتعلية كالأجسام الكروية ؛ فبسطها فى رأى العين لاينافى ما قرّره العلم بشأنها .

وبعد أن قسمت الآيات بالطبيعة ، تقسم بالنفس الإنسانية ، « وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا » أى عدلها وعدل قواها المختلفة ، من إدراك وفهم وإلهام وشعور ، وفى ذلك انتقال بالقسم من عالم المشاهدة إلى العالم الروحى للنفس الإنسانية ، وما فيها من قابلية للصلاح والفساد ، واستعداد وغرائز للخير والشرّ « فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا » . وليس معنى الآية هنا ما يفهمه عامةُ الناس من أن الله الذى ألهم النفس الفجور والتقوى ، يرضى لها أن تكون فاجرة بعيدةً عن طريق الحق والهداية ، بل الأمر هنا كالآية فى السورة قبلها « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ » [1] ، أى طريق الخير والشرّ ، والإنسان بعد ذلك مكلف باقتحام عقبة الشرّ حتى يصل إلى طريق الخير ، وما بعد الآية يدل على مسئولية الإنسان فى الفجور والتقوى « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا » أى من زكى نفسه وطهرها ونماها ، « وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » : أى أخفاها وأخفى ما فيها من الاستعداد الخيِّر . وفى الآية دليل على أن النفس مستعدة للتزكية والتطهير ، والإنسان هو الذى يدسّ على نفسه طريق الخير ويخفيه وهو واضح المعالم مستقيمها .

ثم تعطى الآيات أمثلة لقوم دسّوا أنفسهم ، وأخفَوْا عنها ظاهر الحق ، مثل « ثمود » التى كذّبت بطغواها ؛ وطغيانها لما عصت أمر « صالح » ، فانبعث أشقى الطائفة ، وتعرّض للناقة التى حذرهم رسولهم من التعرّض لها والتعرّض لسقياها ، وقال لهم : لاتمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم « فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا » أى قتلوها « فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ » أى أطبق الأرض عليهم بسبب ذنبهم ، وسَوَّى الدمدمة ، فلم

(١) سورة الليل ، آية ١٠ .

يفلت منهم أحد ، أو فجعلهم سواء فى الدمدمة فلم يفلت منهم كبير ولا صغير ، وكان عذابهم عذاب استئصال وإهلاك عام ، « فَسَوَّاها وَلا يَخافُ عُقْباها » (١) أى لايخشى عاقبة عذابه كما يخشى الظالم عاقبة ظلمه ، فما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

ثم تأتى سورة الليل بعد سورة الشمس « وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشَى » الشمس « وَالنَّهارِ إِذا تَجَلَّى » بزوال الظلمة « وَما خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى » أى والقادر العظيم الذى خلق الذكر والأنثى من الإنسان والحيوان والنبات « إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى » أى شتيت متفرّق منكم موجه للخير ، ومنكم موجه للشرّ ، ولكل جزاؤه « فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ، والآية تشتمل على ثلاثة عناصر للخير من قام بها انتهى أمره إلى اليسر والراحة ؛ العنصر الأول أن يعطى عطاء ماديا ؛ والثانى أن يتقى الله ويتقى الحرمات ومنها البخل ؛ والثالث أن يصدق بالعقيدة الحسنى ، أى أن يكون مؤمنا معتقدا أن ما يعمله هو الأحسن وهو الطريقة المثلى ، أى أن يعمل الخير للخير ، وللتقوى ، وأن يكون حرّا مختارا فيما يعمل ، معتقدا أن ما يعمل هو الخطة الحسنى .

والآيات نزلت فى « أبى بكر » الصدّيق لما اشترى « بلالا » من « أمية بن خلف » وكان يعذّبه لإسلامه وإيمانه . ومقابل ذلك أن من بخل بما عنده ، واستغنى عن ثواب الله ، أو استغنى بشهوات الحياة عن نعيم العقبى ، « وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى » وتكون الطاعات عنده أعسر ما يكون عليه « وَما يُغْنِي عَنْهُ مالُهُ إِذا تَرَدَّى » وهلك « إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدَى » أى من حقّ الخلق علينا أن نَدلهم ونرشدهم إلى الحق ، وإلى طريق الهدى ، « وَإِنَّ لَنا لَلآخِرَةَ وَالأُولى » أى أن لنا مآل الناس فى الأولى والآخرة ، وما علينا إلا الإنذار « فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى » وتلهب « لا يَصْلاها إِلاَّ الأَشْقَى » الذى يعرض عن العطاء والتقوى والطريقة الحسنى ، « وَسَيُجَنَّبُها الأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مالَهُ يَتَزَكَّى » به ، ويطهر نفسه وماله لايريد سمعة أو رياء « وَما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى » أى يعطى لله ،

(١) سورة الشمس ، الآيات ١٤ ، ١٥ .

وللعطاء لايريد به معروفا سبق ، ولا يجازى يدا تقدمت إليه بمعروف ، فذلك دين عليه ، بل يريد من عطائه ابتغاء وجه ربه الأعلى . وسيكافئه الله على خيره وإحسانه « وَلَسَوْفَ يَرْضَى » [1] هذه المكافأة .

ولما ذكرت الآيات أن الأتقى هو الذى يتجنب العقاب ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى فى التقوى والتيسير لليسرى ، جاءت بعدها سورة للرسول خاصة به ، هى سورة الضحى . ولنا أن نقول لما كانت السورة قبلها نزلت فى أبى بكر الذى أعطى واتقى وصدّق بالحسنى ، كانت السورة التالية فى الرسول . ولا تدلّ أسبقية أبى بكر على فضله على الرسول ، فالظلّ ممدود أمام النور ، وبو أبكر ظلّ الرسول ، وأثر من ضيائه . « وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى » وسكن أهله ، ويجوز أن يكون الضحى : ظهور الإسلام وعلامة الدعوة ، كما يجوز أن يكون الليل ستر الدعوة فى أولها ، والضحى أيضا علامة الرسول ، والليل سرّه الذى يعلمه عالم الغيب والشهادة . « مَاوَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى » ، أى ما تركك ربك يوم تركك الناس ، وما أبغضك ربك يوم أبغضك الناس . « وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى » فقد شرّفك فى الأولى بالنبوّة ، وشرّفك فى الآخرة بعلوّ قدرك أنت ومن اتبعك ؛ وفى الأولى تعب ونصَب ، أما الآخرة فلا يمسهم فيها نصَب ، ولا يمسهم فيها لغوب .

ثم تحقق الآيات وعد الله فى الآخرة ، بما كان من تحقيق وعده فى الأولى . « أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ، وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى » [2] ، كان الرسول مصطفى مختارا لم يعرف الضلالة ، ولكنها هنا الحيرة فى كيفية هداية الناس ، « ربى ماذا أعمل ، كيف السبيل إلى هداية قومى ، دُلَّنى ودلهم على الرجوع إليك » ، هذا هو الضلال والحيرة ، أخرجه الله منهما إلى الحق والهداية .

---

(١) سورة الليل ، آية ٢١ .

(٢) سورة والضحى ، الآيات ١ – ٧ .

والآية هنا كالآية فى موضع آخر « ما كُنْتَ تَدْرِى ما الكتابُ وَلا الإيمان » [١] « وَوَجَدَكَ عائِلاً فأغْنَى » أى وجدك عديما فقيرا فأغناك عن الناس ، وأغنى الناس بك ، كنت فقيرا من المعرفة ، فأغناك بالعلم ، وكنت فقيرا حقا ، فأغناك بما أفاء عليك من الغنائم ، وكنت عائلا ، وكل الأمة عيال وعالة عليك ، فأغناهم الله بأبوّتك ، وإذن تذكر فضل الله عليك « فأمَّا اليَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ ، وأمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ ، وَأمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » [٢] .

---

(١) سورة الشورى ، من الآية ٥٢ .

(٢) سورة والضحى ، الآيات ٨ – ١١ .

فهرس تفصيلى الموضوعات الكتاب

الصفحة — الموضوع

٣ مقدمة تقسيم الكتاب :

عقائد وأفكار . محمد رسول الله . نفسيات يحللها القرآن . عبر الأولين . من هدى الآيات .

١٦ العلاقة بين الخلق والدين :

تعريف الخلق عند الاجتماعيين والنفسيين وأنصار علم النفس الاجتماعى . فكرة التحريم فى الأمم البدائية . أسس التحريم فى منع القتل والسفاح والسرقة ، وفى وجوب تقديس الحاكم . تأثير السحر والكهانة والخوف فى الأمم البدائية . مصدر التحريم هو الخوف من القوى الغيبية . خطر الفصل بين الدين والأخلاق . ربط الخلق بالمنطق . الفلسفة الواقعية والأخلاق .

٣٤ عقائد ومبادئ :

اهدنا الصراط المستقيم . احتياج العالم والجاهل إلى الهداية .

٤٠ الأسس التى بنى عليها الإسلام :

أصولها النفسية والاجتماعية .

٤٦ العقيدة أساس الخلق الاجتماعى :

العقيدة أساس التفكير الدينى . العقيدة أساس الإصلاح الاجتماعى . العقيدة والجريمة . تبدل العقيدة عند ارتكاب الجريمة .

٤٩ المساومة فى العقيدة :

ما لاقى الرسول فى تثبيتها . إغراء الرسول بالمال والجاه . شرح التكرار فى سورة « الكافرون » .

٥٥ أبو بكر رجل العقيدة والسياسة والاجتماع :

موقفه عند وفاة الرسول . موقفه يوم السقيفة . موقفه من مانعى الزكاة . رثاء الأدب لذكراه .

٦٢ نظام المجتمع فى القرآن الكريم :

خطاب الإنسان . خطاب الناس . خطاب المؤمنين . خطاب الكافرين والمنافقين . خطاب الرسول . حل مشكلة الطبقات .

٦٧ طبقات الناس فى القرآن الكريم :

تطور الإنسان والجماعات من الطفولة ، إلى الحلم ، إلى الشيخوخة . الوسوسة وتربية الإرادة عن طريق الإيحاء الذاتى .

الصفحة الموضوع

٧١ الأسرة وعلاقة الآباء والأبناء :

الخلق الضاغط الملزم . خلق الاحترام المتبادل . سبب الأزمات الخلقية : الشدة المتناهية . السهولة المتناهية . عدم ملاءمة التفكير فى الأسرة .

٧٦ الأنانية والغيرية :

الغرائز الفردية . البقاء والأنانية والمقاتلة . طريقة القرآن فى تربية هذه الغرائز . التعديل والتحوير والتعلية والتسامى . الغرائز الاجتماعية . مذهب النفعيين .

٨١ ليس منا من دعا إلى عصبية :

الالتصاق باللحمة والدم . القبيلة العربية كالقبيلة الرومانية . التسوية فى الميلاد . المؤاخاة . الحلف والجوار . العصبية بالعدد . العصبية بالجنس . العصبية الفكرية . التضامن الآلى والتضامن العضوى فى رأى علماء الاجتماع .

٨٦ الحاكم والمحكوم والصلة بينهما :

تقديس الحاكم فى الأمم البدائية . رجال الدين والحكام فى العصور الوسطى . الحكم فى الإسلام . الأمانة والعدل والإحسان . مهمة الحاكم فى النواحى السياسية والاقتصادية والخلقية .

٩٢ الأعياد الدينية والأعياد القومية :

عيد الفطر . عيد الأضحى ، الحج أكبر مجتمع للمسلمين .

٩٥ العلم والدين :

العلم مدين للدين . نمو الفكرة الدينية . العقل التصديقى والعقل التجريبى . منطق العقل ومنطق العاطفة .

٩٩ الأساس العلمى والدينى للتضامن :

التشابه والتخالف . الاكتفاء فى الأعضاء المتشابهة ، والتكامل فى الأعضاء المختلفة . التضامن الآلى والتضامن العضوى .

١٠٤ التضامن الاجتماعى بين العلم والدين :

مشكلة الفقر والغنى . مشكلة الطبقات . التقدم الاقتصادى وأثره فى التضامن . المجتمع الإنسانى والمجتمع الحيوانى . نظرية « ماريون » فى التضامن .

١٠٩ منطق العقل ومنطق الدين :

مظاهر الشعور . رقى الإسلام بالعقل والإدراك . مملكة النمل ومملكة النحل . الحواس أبواب المعرفة . الانتقال من الإحساس إلى التفكير . الغريزة والحواس والعقل .

١١٧ الدين والتحرير :

تحرير العقيدة . تحرير الأسرة . التحرير من الجهل .

الصفحة الموضوع

١٢١ العدل والإحسان :

العدل والظلم . الإحسان والمنكر . العطف على الأقربين والبغى .

١٢٦ إشاعة الكذب والافتراء :

الفرق بين الكذب والافتراء . تأثير الإشاعة فى عمل المصلحين .

١٣٠ الأمانة بين الفردية والجماعية :

أمانة المرء فى دينه . أمانة المرء على حـ اسه ومواهبه . الأمانة من الناحية الاجتماعية .

١٣٥ التأمين من الجوع والخوف :

تفسير سورة « قريش » . حادثة الفيل وموقف « عبد المطلب » . الأمان من الجوع والأمان من الخوف هما كل ما يبحث عنه العالم . الشبع والأمن فى حالة السلم . الجوع والخوف فى حالة الحرب .

١٣٩ الجوع نعمة ونقمة :

الجوع والجوائح . الجوع والخوف . الجوع والصوم . الجوع بلاء وابتلاء .

١٤٣ اللغو وضمير الجماعة :

اللغو واللاغون . صفات عباد الرحمن . ضرر اللغو على الفرد . ضرر اللغو على الجماعة .

١٤٨ السرف والترف :

الإسراف فى الخير والإسراف فى الشر . تأثير الإسراف على الفرد وعلى الجماعة .

١٥١ ضرر الترف على المجتمع :

الغنى والترف . الترف والتبذير . ضرر الترف من الناحية الاجتماعية .

١٥٦ الهدامون :

النقد والهدم . هدم الأفراد وهدم الجماعة . أساس الهدم الكذب والافتراء . التعرض للوطن والمواطن .

١٦١ الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة :

تفسير آية « ألم تركيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة . . . » .

١٦٤ محاورة بين الحق والباطل :

هدى الآيات فى سورة « الملك » .

١٦٨ الزكاة تحل أكبر مشكلة اجتماعية :

مشكلة المال ومشكلة الفقر والغنى . نظرية « برجوا » فى الحق التقريبى » . نظرية الإسلام فى الحق المعلوم .

١٧٢ ابن خلدون رجل الاجتماع فى العصور الوسطى :

مجمل لترجمة حياته . فهمه التاريخ . منهجه فى الاجتماع .

الصفحة الموضوع

١٧٩ محمد عبده رجل الاجتماع فى العصر الحديث :

مجمل تاريخ حياته . منهج لخطته فى الإصلاح .

١٨٥ محمد رسول الله

١٨٧ عظمة الرسول :

طفولته . حاسته الدينية . سر عظمته .

١٩٥ عبقرية الرسول :

البعد عن سفه الجاهلية . مقالة الوليد بن المغيرة فى القرآن . العبقرية تتجاوز الزمن .

١٩٩ محمد ودين القيمة :

تفسير سورة « البينة » . إقرار الإسلام لكتب أهل الكتاب . معنى القيمة .

٢٠٣ محمد والمنافقون :

من هدى الآيات فى سورة « القتال » .

٢٠٨ الرسول إنسان كامل :

تفسير سورة « الشرح » . تفسير سورة « التين » . تفسير سورة « القلم » . عشر صفات للمعاندين المكذبين — قصة الإخوة الثلاثة .

٢١٦ محمد المهاجر :

المسلمون قلة فى دار « الأرقم » . الهجرة إلى الحبشة . إسلام جماعة من « الأوس والخزرج » . رد اعتراضات على الهجرة .

٢٢١ محمد المجاهد :

الرسول مجاهد لامحارب . تألب العرب عليه وإثارتهم القبائل . الكرامة فى الدفاع ولو أدى إلى القتال .

٢٢٥ غزوة « بدر » :

دعاء « الرسول» للمدينة ودعاء « إبراهيم » لمكة . خطبة الرسول قبيل المعركة . محاولة قتل « الرسول » بعد انتصاره .

٢٣٠ غزوة بدر وأحكام القتال فى سورة « الأنفال » :

آيات السلم وآيات الحرب . موقف الرسول من الأسرى . إسلام العباس .

٢٣٩ غزوة أحد :

نصيحة الرسول للرماة . مخالفتهم أوامره . تتبع الرسول القتلة . جلد نساء المدينة فى هذه المعركة . نصيب المنافقين فى الهزيمة .

٢٤٩ غزوة الخندق (١) :

تجمع القبائل لقتال المؤمنين . حفر الخندق . عمل الرسول فى الحفر . غناء عمال اليقين .

الصفحة الموضوع

٢٥١ غزوة الخندق (٢) :

انتقاض « بنى قريظة » . عبث المنافقين . ما قام به « أبو مسعود الأشجعى » . تبادل الرسائل بين المسلمين والمشركين .

٢٥٧ زوجات الرسول فى سورة « الأحزاب » :

تطلع نساء المؤمنين لزينة الحياة . تبرج الجاهلية الأولى . الأمومة الخاصة والأمومة العامة .

٢٦٤ عمرة الحديبية (١) :

الغزوة الروحية . « خالد بن الوليد » يتربص بالمؤمنين . سفارة « بديل بن ورقاء » بين جيش المؤمنين وجيش المشركين .

٢٧٠ صلح الحديبية (٢) :

إصرار عمر على العمرة . معاهدة السلام . إجحافها بالمسلمين كان نصرا لهم .

٢٧٥ غزوة الفتح (١) :

نقض قريش لمعاهدة السلام . إخفاق « أبى سفيان فى سفارته . حديث بينه وبين ابنته زوجة الرسول .

٢٨٠ فتح مكة (٢) :

الحملة السرية . أبو سفيان وعمر والعباس . نشر الأمان وعفو الرسول . دخول الكعبة وتحطيم الأصنام .

٢٨٨ غزوة العسرة (تبوك) :

تجهيز الجيش واستباق المؤمنين الخيرات . أفاعيل المنافقين . خطبة الرسول . هرقل وقواده .

٢٩٢ غزوة العسرة فى سورة « التوبة » :

الثلاثة الذين خلفوا . آيات الجهاد والنفرة . تأمين الوطن وتأمين المواطنين .

٢٩٧ من سورة « التوبة » :

عمارة المساجد . المهاجرون والذين لم يهاجروا . يوم « حنين » وما فيه من عبر .

٣٠٢ من سورة « المنافقين » وسورة « التغابن »

المنافقون وصفاتهم . افتضاح أمرهم . أثرهم فى حياة الرسول .

٣٠٩ نفسيات يحللها القرآن (١) :

ومن الناس من يعبد الله على حرف . . . نفسية مذبذبة . نفسية جاهلة . نفسية متكلة .

٣١٢ نفسيات يحللها القرآن (٢) :

لايسأم الإنسان من دعاء الخير . . . . نفسية طالب الخير . نفسية مدعية . نفسية يفسدها الخير !

٣١٥ نفسيات يحللها القرآن (٣) :

وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه . . . . نفسية قلقة . نفسية المسرف .

الصفحة الموضوع

٣١٨ نفسيات يحللها القرآن (٤) :

نفسية الفرد ونفسية الجماعة .

٣٢٢ نفسيات يحللها القرآن (٥) :

ومنهم من عاهد الله . . . . قصة « ثعلب بن حاطب » . إغراء المال . خلف الوعد يعقب النفاق .

٣٢٥ نفسيات يحللها القرآن (٦) :

وإذا أنعمنا على الإنسان . . . . النفس المتكبرة . النفس اليائسة .

٣٢٨ نفسيات يحللها القرآن (٧) :

فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه . . . . الثروة الشريفة . الثروة الخسيسة .

٣٣١ عبر الأولين :

٣٣٣ من سورة « الأنبياء » :

قصة « إبراهيم » . محاورة بين الحق والباطل . نجاة إبراهيم .

٣٣٨ من سورة « الشعراء » :

قصة « موسى » . محاورة بينه وبين « فرعون » . رجعة إلى قصة « إبراهيم » .

٣٤٢ من سورة « آل عمران » :

قصة مريم والمسيح . إنبات مريم نباتا حسنا . « زكريا » و « يحيى » .

٣٤٧ من سورة « المائدة » :

تمجيد القرآن للمسيح وأمه . محاورة بين « المسيح » والحواريين . طلب المائدة .

٣٥١ من سورة « هود » :

وإلى مدين أخاهم شعيبا . . . . احترام حقوق الناس فى التجارة . محاورة بين « شعيب » وقومه .

٣٥٥ من سورة « هود » :

الدين بين لامين : « ولا تطغوا » ، و « لا تركنوا إلى الذين ظلموا » . التقرب إلى الظلمة يعينهم على الظلم . لابد للأمة من أولى بقية ينهون عن الفساد فى الأمر .

٣٦٠ محمد رحمة للعالمين :

واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة . . . . أمية الرسول .

٣٦٥ الصراع بين الحق والباطل :

قصة « موسى » فى سورة « غافر » . مؤمن آل فرعون ومؤمن الإسلام .

٣٦٩ من سورة « القصص » :

تتمة قصة موسى .

الصفحة	الموضوع
٣٧٣	من سورة « القصص » :
	تتمة قصة موسى . قصة قارون . الأغنياء الأغبياء .
٣٧٧	من سورة « يونس » :
	التحدى بالقرآن قصص الأنبياء .
٣٨١	من سورة « يوسف » :
	إيقاف الرسول على قصص الماضين . العبرة والذكرى . أهل الكتاب يختبرون الرسول .
٣٨٥	من سورة « الكهف » :
	أول المسيحية . تعذيب المؤمنين بها . نجاتهم من ظلم الأباطرة . القصة والبعث .
٣٨٩	من هدْى الآيات :
٣٩١	من سورة « البقرة » :
	القتال فى سبيل الله . عدم الاعتداء . العدل فى الحرب .
٣٩٥	من سورة « آل عمران » :
	الصبر والتقوى . كتمان العلم إثم . العلم الضار إثم .
٤٠٠	من سورة « آل عمران » :
	التوحيد . المحكم والمتشابه . نموذج من الآيات المتشابهة .
٤٠٤	فى تفسير سورة « النساء » :
	الأمانة . العدل فى الحكم . العلاقة بين الحاكم والمحكوم . تحكيم كتاب الله وسنة رسوله .
٤٠٨	من سورة « النساء » :
	الإسلام باللسان والإيمان بالقلب . بعد العقيدة عن غرض الدنيا . المجاهدون والمتخلفون .
٤١٢	من سورة « الأنعام » :
	نظام الطبقات . علم الله الشامل . مهمة الرسول .
٤١٧	من سورة « الأعراف » :
	آية الخلق . قصر الليل والنهار . تأثير الأفلاك فى الحياة . التضرع والخفية . الفساد فى الأرض . البلد الطيب والبلد الخبيث . النفس الطيبة والنفس الخبيثة .
٤٢١	من سورة « النحل » :
	ضرب الأمثال . تعداد النعم . نعم للحاجة ونعم للمتعة . الرسول رحمة .
٤٢٦	من سورة « الحج » :
	الزلازل والهول . الجدل بعلم وبغير علم . أخلاق المجادل . العبادة على حرف . دليل البعث من علمى الحياة والنبات .

الصفحة الموضوع

٤٣٠ من سورة « النور » :

احترام الأسرة . أسرار المنزل . العقوبة الشديدة لمن يتعرض لهما .

٤٣٣ من سورة « الفرقان » :

التوكل على الله . الإبداع فى الخلق . الشمس والقمر . عباد الرحمن .

٤٣٩ من سورة « الشعراء » :

الإعراض والتكذيب والاستهزاء . عدم رعاية النعمة . محمد والشعر . موسى والسحر .

٤٤٣ من سورة العنكبوت » :

المحنة بسبب العقيدة . حب الله مقرون بحب الوالدين . لاطاعة فى معصية الله . مسئولية الأقوياء أمام الضعفاء .

٤٤٧ من سورة « لقمان » :

لقمان والحكمة . إقرار الرسول للأنبياء والحكماء قبله . وصايا « لقمان » اجتماعية وفردية .

٤٥١ من سورة « الأحزاب » :

أسرة الرسول . آداب الأسرة . حرمة البيوت . الأمر لنساء الرسول أمر لنساء أمته . نساء الرسول أمهات المؤمنين .

٤٥٦ من سورة « فاطر » :

الإبداع فى الخلق . المسئولية الفردية . استبدال الخلق استبدال الطبقات . الخير والشر لا يستويان . المسارع فى الخيرات والظالم والمقتصد .

٤٦١ من سورة « ص » :

اختيار الرسول . رميه بالسحر والكذب . التثبت فى الحكم . مسئولية الحاكم . لايستوى المتقون والفجار .

٤٦٦ من سورة « الزمر » :

الوحدانية . الشفعاء . علم الفلك . علم الأحياء . المسئولية الفردية . نفسية الإنسان .

٤٧٠ من سورة « غافر » :

التوبة والمغفرة . الرحمة والعقاب . معاملة « عمر » للسكير . دعاء الملائكة للمؤمنين .

٤٧٤ من سورة « الأحقاف » :

الولد البار والولد العاق . هود وعاد . عالم الإنس وعالم الجن .

٤٧٨ من سورة « الجاثية » :

مراتب العقيدة . إيمان فاستيقان فعقل فتفكير . المسئولية الفردية .

الصفحة الموضوع

٤٨٣ من سورة « الذاريات » :

القسم بالطبيعة . جزاء المؤمنين وجزاء المعاندين . ضيف إبراهيم .

٤٨٧ من سورة « الحديد » :

تمثيل الحياة الدنيا . التسابق والتفاخر فى الخير لا فى الشر . واجب أهل الكتاب .

٤٩٢ من سورة « القيامة » :

انقلاب الطبيعة . ظاهرة الخلق والإيجاد . حشرجة الموت . النفس الأمارة . النفس اللوامة . النفس المطمئنة . أبو جهل والرسول . تلقى الوحى . إبداع الخلق . تحقيق المسئولية .

٤٩٧ من سورة « النبأ » :

المن بالحياة . دليل البعث . آية الليل والنهار . ما ينتظر المؤمن والجاحد .

٥٠٥ من سورة « الشمس » :

الخالق يقسم ببديع صنعه . النفس وأسرارها . العسرى واليسرى . منة الله على رسوله .

انتهى بحمد الله وتوفيقه طبع كتاب « خلق ودين » ، للدكتور « إبراهيم سلامة » الأستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، بمطبعة شركة « مصطفى البابى الحلبى وأولاده » .

١٤ شوال سنة ١٣٧٣
١٥ يونيه سنة ١٩٥٤

مدير المطبعة
رستم مصطفى الحلبى
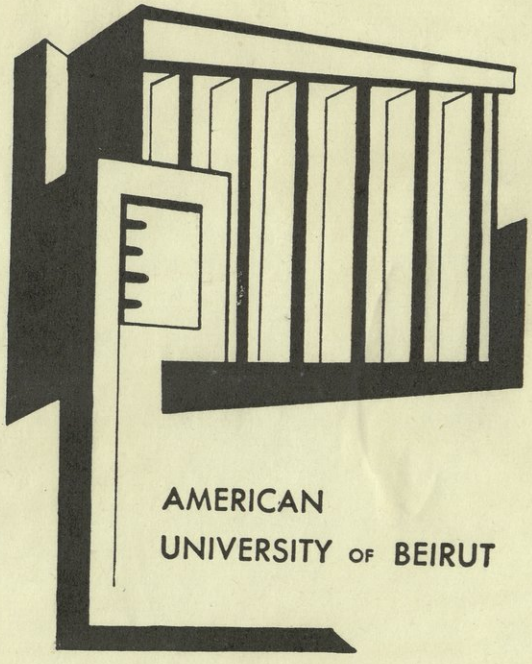
297.04:Sa16kA:c.1
سلامة، ابراهيم
خلق ودين
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01005852